تنبيه العقول

إلى

كنوز ثلاثة الأصول

تأليف/

د. عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضْلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإن التوحيد هو المرتكز الأساس لدين المسلم فلا يصح الدين إلا به، فبه بدأ الرسل دعوتهم. بل نذروا حياتهم واسترخصوا أنفسهم وأموالهم لأجله.

ولأهميته كتب العلماء الربانيون فيه المؤلفات الكثيرة ومن هذه المؤلفات ذلك الكتاب الماتع النافع «كتاب ثلاثة الأصول».

وهذا الكتاب من أعجب ما رأيت مما قد سطرته يَراعُ عالم من حيث الشمول وسهولة العبارة ووفائها بالمقصود وربط كل شيء بدليله مع اعتنائه بالتربية الجادة والتأصيل العلمي مما جعل أهل العلم يعتنون به عناية خاصة، تعليماً وحثّاً على تعلمه،

ووصية بطباعته وتوزيعه، **ومن ذلك:**

ما قاله الشيخ عبدالله العنقري حاثاً على تعلمه: «واحرصوا على تعلم ثلاثة الأصول، فإن الذي ما يعرف دينه من جنس البهائم»[(١)].

وكان الشيخ محمد بن إبراهيم «يدرس بعد شروق الشمس كتاب التوحيد وكشف الشبهات وثلاثة الأصول والعقيدة الواسطية باستمرار»[(٢)].

ووصّى الشيخ علي بن محمد المطلق بعد موته بعشرة آلاف مصحف، وعشرة آلاف نسخة من ثلاثة الأصول توزع على المسلمين[(٣)].

أما الشيخ ابن باز فدرس ثلاثة الأصول مائة مرة يوم أن كان قاضياً في الدلم.

لذا رأيت أن أكتب عليه شرحًا متوسطًا يبين معانيه ويوضح شيئًا من مراميه، سائرًا على طريقة المؤلف من حيث التأصيل، ومخاطبة القلوب، والبعد عن الردود والمناقشات، وسميته:

«**تنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول**».

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله.

وكتبه

عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

٠٥٥٤٣٨٠٨٨٨

---

(١) «الدرر السنية» (١٤/ ٣٤٤).

(٢) مقدمة «مجموع فتاوى» محمد بن إبراهيم (١/ ١٢) للشيخ ابن قاسم.

(٣) «علماء آل سليم» (٤١٢).

دراسة الكتاب

دراسة أي كتاب هي المفتاح الصحيح لفهمه ومعرفة مراميه ومراد مؤلفه منه ولأجل ذلك بدأت بدراسة الكتاب **وجعلت الدراسة في فقرات هي:**

١- بدأ المؤلف رحمه الله كتابه بالتربية وذلك بذكر مقومات الشخصية الإسلامية التي هي (العلم) لكي ينفي الجهل عن نفسه -وفرق بين المتعلم والجاهل- ثم (العمل به): لأن من تعلم ولم يعمل بعلمه لا قيمة لعلمه عند الله بل ولا عند الناس، فيعاقبه الله، ويسخر منه الناس، وبعد أن يكمل نفسه لا بد أن تكون نفسه ذات همة عالية تصبو إلى تكميل الآخرين وذلك (بالدعوة إلى الله) كي يصلح المجتمع كله.

ولا بد لمن دعا إلى الله أن يصيبه الأذى، وهذه سنة جارية على الرسل وأتباعهم. فلا ينحدر من أول الطريق فيتقوقع على نفسه. ويسكت أو يتنازل عن شيء من دينه، ولكن عليه (أن يصبر على ما يصيبه من أذى) ليحصل له تبليغ الدعوة وينال ويظفر بالأجر من الله والرفعة عنده تعالى وتقدس.

وأدلة هذه المسائل الأربع كثيرة جدًّا، ولعلَّ اختياره الاستدلال بسورة العصر:

لأن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها.

ولأنها جمعت هذه المسائل الأربع في موضع واحد. فيتذكرها المتعلم ويعلم ترابطها فلا ينسى منها شيئًا. لذا فهي ترسم منهج حياة متكامل. كما قال ذلك الإمام الشافعي رحمه الله.

٢- أن المنهج الصحيح والطريق الوحيد الذي يجب أن يلتزمه الإنسان هو منهج الرسل وهو التوحيد، فمن تمسك به أفلح ونجا ومن حاد عنه خاب وخسر «أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا بل أرسل إلينا رسولًا فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار».

ومن حسن طرحه للمنهج ربطه إياه بالثمرة حتى تتحرك الهمة وتعلو فقال: «فمن أطاعه دخل الجنة...»

٣- أوضح ﵀ المنهج المنحرف والمخالف الذي لا يرضاه الله تبارك وتعالى وهو منهج إبليس وفرعون وأتباعهم، وهو الكفر والشرك والضلال والانحراف. وأنه مناقض للطريق الذي قبله فلا يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك الأكبر في قلب عبدٍ أبدًا، فمن أشرك فقد ناقض الفطرة وصارت حياته وبالًا عليه.

فاحذر أن تكون من أهله فتخسر الدنيا والآخرة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[الزمر:١٥].

٤- حتى يسلم لك توحيدك وتثبت على منهجك السليم وتسلم من الانزلاق في مهاوي الردى عليك أن تتمسك بالسياج الواقي من الوقوع في الشرك وهو البراءة من الكفار فتبغض أعداء الله وتعاديهم مستشعرًا أنك في حد وجانب وحزب وهم في حد وجانب وحزب.

قال ابن القيم بعد وصفه للشرك الأكبر: «وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده»[(١)].

٥- لما كان الاستمرار على الطريق ومعاداة أعداء الله لأجل الله وإظهار ذلك لهم من أعسر ما يواجه المسلم كان لا بُدَّ من إبراز القدوة، وأبرز القدوات هو خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وذلك لأنه اجتمع فيه من المقومات ما لم يجتمع في غيره.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

فاستشعار المسلم بأن هناك من سبقه إلى هذا الدين وثبت عليه وصبر وصابر فنصره الله وأعزه وجعل العاقبة له، فلم يضره كيد الكائدين ولا حسد الحاسدين، يوجب له قوة التمسك بالدين والعزة به وإن خالفه من خالفه، وعاداه من عاداه.

٦- لما كانت هذه المقدمات الثلاث تعطي تصورًا عامًا ينتج مثقفًا فقط قد لا يستقيم على المنهج الصحيح تأخذه الأفكار يمنة ويسرة مذبذبًا. تارة مع هؤلاء وأخرى مع أولئك على حد قول الشاعر:

يومًا يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت مَعَدِّيًا فعدناني

أتبعها المؤلف بأهمية التأصيل الذي به ترسخ قدم المؤمن بالإيمان ويسير على منهج سوي مستقيم فقال: (فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة؟)

فَأَسِّسْ بهذه الأصول الثلاثة بنيان دينك وثبته بها، لأنه لا بد لكل بنيان من أساس، فإذا ثبت الأساس ثبت البناء وإن لم يثبت الأساس انهار البناء.

وأساس دين الإسلام هو هذه الأصول الثلاثة: (من ربك - ما دينك - من نبيك).

الرب هو المعبود. واستدل بربوبيته على إلاهيته وأنه المستحق للعبادة، والدين هو الذي به تزكو النفوس وتستقيم القلوب، فتثمر رضا الرب الكريم سبحانه، والرسول هو الواسطة الذي بلغنا هذا الدين فليس لنا طريق غير طريقه ﷺ.

٧- أنواع العبادة جزء من الأصل الثاني [الدين] ومع ذلك قدمها المؤلف فجعلها ضمن الأصل الأول؛ لأن ذلك أدعى لإفراد الله بها كما ورد في المثل: «الطرق والحديد ساخن».

وذلك أنه لما بين لك من عظمة الله ما هزَّ جوانحك وحرك قلبك خوفًا منه ورجاءً لما عنده واستشعرت في قرارة قلبك أن من كانت هذه صفته فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ناسب أن يذكرها لك كي تبدأ بها مباشرة متوجهًا إلى ربك قاصدًا بها وجهه الكريم وحده.

٨- أشار إلى أهمية المفاصلة التامة الشعورية والجسدية بالهجرتين القلبية والبدنية:

أما القلبية: فقد أشار إليها عند قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر:٥] حيث قال: (هجرها تركها والبراءة منها وأهلها).

وأما البدنية: فإنه عرفها بقوله: (والهجرة: هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام).

فبهاتين الهجرتين تستقيم على دينك وتثبتُ عليه وتنصرُ إخوانك المسلمين وتُقَوِّي شوكةَ الإسلام.

٩- تكفل الله بحفظ هذا الدين ولم يجعل بقاءه مربوطًا بأيِّ شخص كان، مهما علت رتبته وارتفع مقامه وجاهه عند الله عزّ وجلّ.

وأعظم الناس رتبةً هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك توفي وبقي الدين غضًا طريًا كما أُنزل.

فإذا لم يرتبط بقاء الدين برسول الله ﷺ الذي هو خير الخلق كلهم فعدم ارتباطه بغيره من باب أولى. ولقد جلَّى هذه الحقيقة أعلم هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ساعة موت النبي ﷺ فقال: «من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت»[(١)].

فالزم أيها الأخ المبارك السَّيْر مع قافلة الإيمان مستمسكًا بهذا الوحي المنزل موحدًا لربك كي تسعد دنيًا وأخرى.

١٠- تتدرج النفوس الكبيرة في مراقي الصعود طلبًا للكمال، فما أن تبلغه حتى تغمرها الفرحة فَتَعَضُّ عليه بالنواجذ.

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٥)، كتاب: «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٥٤).

وأعظم كمال وأكمله كمال الدين الذي ندين لله به ونتقرب به إليه.

ولما كان الدين شريعة رب العالمين تولى الله إكماله بنفسه ولم يدع لأحد مجالًا للزيادة فيه فقال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

فإذا استقر كمال الدين في قلوبنا أَوْجَبَ لنا الاكتفاء به وعدم قبول شيء من خارجه مع التزام اتباع النبي ﷺ في أفعاله وأقواله. وبهذا نسلم من الابتداع في الدين.

ولما كانت هذه الحقيقةُ مستقرةً في قلب عمر رضي الله عنه كتب ذلك التوجيه السديد للمسلمين عندما وجدوا الكتب في بلاد الفرس قائلًا: «اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن يكن ضلالًا، فقد كفانا الله شرَّها»[١].

ونعرف قدر توجيهات عمر رضي الله عنه إذا نظرنا إلى نشوء البدع والانحراف بعد ترجمة كتب اليونان.

١١- حتى تستعد للمستقبل وتسارع إلى فعل الطاعات وترك المنهيات ذكِّرك بالنهاية التي تلاقيك وهي الموت فاحذر منه في كل لحظة، واحرص على التزود من الطاعات قبل النقلة، مستلهمًا في ذلك توجيه المصطفى ﷺ: «**أكثرُوا ذكرَ هاذم اللَّذات**»؛ يعني: الموت[٢].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٤٣).

(٢) أحمد (٢/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٥٣)، كتاب «الزهد»/ باب ما جاء في ذكر الموت. رقم (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي سعيد، والنسائي ٤/ ٤، كتاب الجنائز، باب ذكر الموت، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٥٨)، وقال الدارقطني: «والصحيح المرسل». «العلل» (٨/ ٣٩)، وصححه النووي. «الأذكار» (١٣٢)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ١٨١).

١٢- تتصرمُ الليالي والأيام وتنطوي الأعمارُ سريعًا لكنْ يا ترى ما هي محصلتُها أهي حياة تنتهي بالموت ولا شيء بعد ذلك. فيستوي الصالحون والطالحون أم أن الحياة الأخرى مبنيةٌ على هذه الحياة فيكرم الطائعون ويعذب العاصون؟

لا شك أَنَّ الثمرة هناك في الدار الآخرة ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (والناس إذا ماتوا يُبْعَثُون وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم).

فمن وحد الله وأطاعه فليبشر بجنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ومن عصى الله وأشرك معه غيره فالويل له من نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾.

١٣- لا تقل المعوقات الداخلية -داخل المجتمع المسلم- خطورة عن المعوقات الخارجية في صد المسلم عن الاستمساك بدينه وإفراده ربه بطاعته ولذلك حذر منها المؤلف.

وإن شئت أن تدرك شيئًا من خطورتها فاقرأ ذلك الحوار الدائر بين المستكبرين والمستضعفين، وفي آخره جواب مِلْؤُهُ الحسرة والندم والأسى تَفَوَّهَ به أولئك المستضعفون كما ذكره الله بقوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾[سبأ:٣٣]. ولما كانت تلك المعوقات كثيرة يصعب حصرها نبه على أكبرها وأعظمها أثرًا وأشدها خطرًا فقال والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة. فاحذرهم أيها المسلم أن يفتنوك عن دينك وأنت لا تشعر.

١٤- ما أجمل هذا الختام حيث ختم رحمه الله بعلاج المعوقات النفسيه والداخلية والخارجية فأورد قوله ﷺ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ وَعَمُودُهُ الصّلاة وَذِرْوَة سَنَامِهِ الجِهادُ فِي سبيلِ اللهِ**».

فبالتوحيد يصح دينك ويقبل عملك وبالصلاة تصلح حالك فتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

وبالجهاد باللسان مجاهدة المنافقين في الداخل بكشف باطلهم والرد على شبهاتهم.

وبالجهاد بالسنان مجاهدة الكافرين في الخارج بجميع أنواع الجهاد، طلبًا كان أو دفعًا.

وبهذين النوعين من الجهاد صدٌّ للشرور الداخلية والخارجية، وتحصينٌ للمجتمع من الفساد والانحراف.

بسم الله الرحمن الرحيم

بَدْءُ الكتابة بالبسملة سنة مأثورة دلَّ عليها الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح.

أما الكتاب: فإن الله افتتح جميع سور القرآن الكريم بالبسملة.

وأما السنة: فإن النبي ﷺ كان يبدأ بها مكاتباته كما في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل حيث قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»(١)، والذي يظهر والله أعلم أنه سنة الأنبياء، كما في قوله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[النمل:٣٠].

وقد سار على ذلك الصحابة والتابعون كأبي بكر الصديق(٢)، وعمر بن الخطاب(٣)، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل(٤)، وخالد بن الوليد(٥)، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم(٦)، وعمر بن عبد العزيز(٧)، وأحمد بن حنبل(٨)، وسفيان الثوري(٩)، وغيرهم، ولما سئل الحسن عن قراءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: تلك

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١١٠)، كتاب «الجهاد»/ باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام. رقم (٢٩٤١).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣١٦)، كتاب «الزكاة»/ باب زكاة الغنم. رقم (١٤٥٤).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٩٩)، كتاب «الوصايا»/ باب ما جاء في الرجل يوقف الوقف. رقم (٢٨٧٩).

(٤) «فتوح الشام» للواقدي (١/ ١١٩).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٢/ ٥٥٢-٥٥٥) رقم (١٥٥٧٥، ١٥٥٧٦، ١٥٥٨٠).

(٦) «الأدب المفرد» (٤٠٦-٤٠٨).

(٧) «الشريعة» للآجري (٢٣٣).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٤٧١-٤٧٢) رقم (٤٨١)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٠٧).

(٩) «الجرح والتعديل» (١/ ٨٦).

صدور الرسائل(١).

بسم: الباء للمصاحبة وقيل: للاستعانة أي: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينًا بالله تعالى، وبسم الله متعلق بفعل محذوف خاص مؤخر تقديره بسم الله أكتب.

أما كونه فعلًا فلأن الأصل في العمل الأفعالُ لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط والأسماء لا تعمل إلا بشرط؛ لأن العمل أصل في الأفعال فرع في الأسماء، وأما كونه خاصًا فلأن كلَّ مبتدئ بالبسملة في أمر يضمر ما جعل البسملة مبدأ له، ولأن الخاص أدل على المقصود من العام، وأما كونه متأخرًا؛ فلدلالته على الاختصاص والحصر؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر فيكون باسم الله أقرأ، بمنزلة لا أقرأ إلا بسم الله، وأدخل في التعظيم، ولأنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله تعالى.

وحذف العامل له فوائد عديدة منها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولى بها من فعل فكان الحذف أَعمَّ من الذكر(٢).

الاسم: قيل: إنه مشتقٌ من السُّمُوِّ وهو العُلُوُّ والارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره، وقيل: من الوسم والسمة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامةٌ على المسمى(٣).

والقولُ الأول أرجحُ لأنه من الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبها(٤) وهو الذي رجحه البغوي(٤)، وشيخ الإسلام حيث قال: وهذا المعنى أخصُّ

(١) «الأدب المفرد» (٤٠٧) باب صدور الرسائل بسم الله الرحمن الرحيم. وانظر «جمهرة رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت، فقد ذكر رسائل كثيرة للصحابة كلها مبتدأ بالبسملة (١/ ٣١-١٧٦).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥).

(٣) «اسم الله الأعظم» الدميجي (١٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

فإن العلوَّ مقارِنٌ للظهور... واستدل بالحديث «**وأنتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ**»[١]. ثم قال: ولم يقل فليس أظهرَ منك شيءٌ؛ لأن الظهور يتضمن العلو والفوقية[٢]. وإلى هذا ذهب أكثر أهل اللغة ومنهم ابن سيده[٣] والخليل[٤] وابن فارس[٥] والجوهري[٦] والراغب[٧] والفيومي[٨].

بل إن الزجاج غلَّط من قال إنه مشتق من السمة وهي العلامة، فقال: «ومعنى قولنا: اسم هو مشتق من السُّمُوِّ وهو الرِّفْعة، والأصل فيه: سِمْوٌ بالواو، وجمعه: أَسْماء، مثل: قِنْو وأَقْناء، وإنما جعل الاسم تنويهًا على الدلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم، ثم قال ومن قال: إن اسمًا مأخوذ من وَسَمْت فهو غلط لأنه لو كان اسمٌ من سِمتُه لكان تصغيره وُسَيْمًا»[٩]. وأما الزجاجي فيرى أن القول بأنه مشتق من السمة والعلامة قول ضعيف لا يصلح أن يذكر حيث يقول: أجمع علماء البصريين ولا أعلم عن الكوفيين خلافًا محصلًا مستندًا إلى من يوثق به أن اشتقاق اسم من سَمَوْتُ أَسْمُو أي علوتُ كأنه جُعل تنويهًا بالدلالة على المسمى لما كان تحته فأصله (سِمْوٌ) على وزن حِمل وعِذق وقِنو وحِنو، والدليل على ذلك قولهم في الجمع أسماء كما قيل أقناء وأحناء وأحمال وفي التصغير سُمَيّ، كما قيل

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٤)، كتاب «الذكر والدعاء»/ باب ما يقول عند النوم. رقم (٢٧١٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) «المخصص» (٥/ ٢١٥).

(٤) «العين» (٧/ ٣١٨).

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨).

(٦) «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٣).

(٧) «المفردات» (٢٤٧).

(٨) «المصباح المنير» (١١٠).

(٩) «تهذيب اللغة» (١٣/ ١١٧).

حُنَيّ وقُنَيّ، ثم قال وقد حُكي أن بعضَهم يذهب إلى أن أَصْلَهُ من (وَسَمْتُ)، ثم رَدَّه لأنه ليس على مقاييس اللغة العربية ولأنه يخالف الأصل فلو كان اشتقاقه من وَسَمْت لكان أصله (وَسْم) وكان تصغيره وُسَيْماً وجمعه أَوْسَامٌ ثم قال: فاجتماع الجماعة كلها في التصغير على سُمَيّ وفي الجمع على أسماء يدل على بطلان هذا المذهب(١).

الله: علم على الرب جل جلاله لا يجوز أن يُسَمَّى به غيرُه وهو أصلُ الأسماء الحسنى بل إن الأسماء الحسنى تأتي تابعة له ومضافة إليه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[الحشر:٢٢-٢٣].

وقوله ﷺ: «**إنَّ لله تِسْعَة وتسعينَ اسْمًا، مائة إلَّا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنَّة**»(٢). وهو مشتق من الإله كما نقل عن الكسائي والفراء وسيبويه ويونس بن حبيب وقطرب والأخفش(٣).

إله: بمعنى مألوه أي: المعبود حُبّاً وتعظيمًا وخضوعًا، قال ابن عباس: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين(٤). وقال أبو إسحاق الزجاج: ومعنى قولنا «إله» إنما هو الذي يستحق العبادة وهو تعالى المستحق لها دون من سواه(٥) فهو دال على صفة الألوهية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[الأنعام:٣] فإن (في السموات) متعلق

---

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٢٥٥-٢٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٧)، كتاب «التوحيد»/ باب: إن لله مائة اسم إلا واحدًا. رقم (٦٤١٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٤)، كتاب «الذكر»/ باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها. رقم (٢٦٧٧).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٢٣-٣٧).

(٤) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦).

بلفظ الجلالة يعني أي المألوه في السموات وفي الأرض[١] ولهذا أنكر الله على من عبدوا غيره فقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[النمل:٦٤].

الرحمن: أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وهو دالٌ على الصفة القائمة به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾[الأنعام:١٤٧] وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الأنعام:١٣٣] «وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز لأحد أن يَتَسَمَّى باسم الرحمن»[٢].

الرحيم: ذُو الرحمة الواصلة فهو دال على تعلقها بالمرحوم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب:٤٣]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾[العنكبوت:٢١]؛ فهو اسم يدل على الفعل.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر»[٣] أي: أوسع رحمة «وفائدةُ الجمعِ بين الرحيم والرحمن الإنباءُ عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة»[٤].

(١) «شرح الواسطية»، العثيمين (١/ ٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١/ ٥٩).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

اعلم - رحمك الله- أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل.

العلم: بمعناه العام هو: حكم الذِّهْنِ الجازم المطابق للواقع.

لأنه إن لم يكن جازمًا صار ظنًا والظن ليس علمًا، قال تعالى: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾[يونس:٣٦].

وإن لم يكن مطابقًا للواقع صار مخالفًا له فلم يكن علمًا. كاعتقاد النصارى بالتثليث.

اعلم: فعل أمر وهي كلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة، أي: كن متفهمًا لما سأقوله لك من العلم بأصول الدين والتربي عليه وهو جدير بأن يعتنى به، فبه الدخول في الإسلام وبه الاستمرار عليه وبه الخروج من الدنيا.

رحمك الله: أي: غفر لك فيما مضى وعصمك في المستقبل.

فإن اجتمع مع الرحمة المغفرة صارت الرحمة للمستقبل والمغفرة لما مضى فتكون **الرحمة**: سؤال السلامة من ضرر الذنوب في المستقبل، **والمغفرة**: سؤال الله مغفرة الذنوب الماضية.

وابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالدعاء لأجل أن يفتح قلب القارئ فَيَقْبَلَ ما يدعوه إليه، وهذا درس للدعاة إلى الله فإنه ينبغي أن يفتحوا قلوب الناس قبل أن يدعوهم، كما فعل النبي ﷺ مع معاذ رضي الله عنه. قال معاذ أخذ بيدي رسول الله ﷺ وقال: «**يا مُعاذ والله إنِّي لأُحبُّكَ، والله إنِّي لأُحِبُّكَ، فقال: أُوْصيكَ يا مُعاذ لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كل صلاةٍ تقول: اللَّهُمَّ أعنِّي على ذِكْرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عبادتِكَ**»[١].

(١) أحمد (٥/ ٢٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧) رقم (٦٩٠)، وأبو داود (٢/ ١٨٠) كتاب =

فكرر النبي ﷺ بيان محبته لمعاذ بل أكدها بالحلف ثم ثَنَّى بالأمر الذي أراد أَمْرَ معاذ به.

أنَّ: حرف توكيد، واسمها ضمير الشأن المتصل (الهاء).

يجب: وجب الشيء وجوبًا أي لزم وثبت. (يجب) في محل رفع خبر (أنَّ).

قال ابن الأثير: «والواجب والفرض عند الشافعي سواء وهو كل ما يعاقب على تركه»[1]. أي: أنه يلزم كل واحد منّا تعلم هذه المسائل، ولا يعذر أحد بالجهل بها إذا كان يستطيع تعلمها.

علينا: أي: نحن المسلمين جميعًا فليست خاصة بأحد دون أحد.

تعلم: أي: طلب معرفتها وصرف الوقت والجهد لذلك؛ لأن الأصل فينا هو الجهل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل:٧٨] فعلمنا مسبوق بجهل ولا نستطيع إزالة الجهل عن أنفسنا إلا بطلب العلم، قال ﷺ: «**إِنَّما العِلْمُ بالتَّعلُّمِ**»[2].

أربع مسائل: مسائل جمع مسألة وهي من السؤال بمعنى: استدعاء وطلب ما يؤدي إلى المعرفة، والوجوب حكم شرعي لا يثبت إلا بدليل ولذلك عقّب المؤلف هذه المسائل الأربع بالدليل.

= «الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، كتاب السهو/ باب الذكر والدعاء، و«صحيح ابن خزيمة» (١/ ٣٦٩) باب الأمر بمسألة الرب عز وجل في دبر الصلوات المعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته والوصية بذلك. رقم (٧٥١)، وصححه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠/ ٨٠)، وقال النووي: «رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح». «رياض الصالحين» (١٨٣) رقم (٣٨٩). وقال ابن حجر: «رواه أحمد وأبو داود، والنسائي بسند قوي». «بلوغ المرام» (٦٦) رقم (٣٤٤).

(١) «النهاية» ٥/ ١٥٣.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩/ ٣٩٥)، وذكره البخاري معلقاً. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(الأُولى): العلم.

....

العلم: هنا هو العلم الخاص.

وتعريفه لغة: نقيض الجهل، كما أن الجهل نقيض العلم، والجهالة أن تفعل فعلًا بغير علم[١].

واصطلاحًا: هو معرفة الهدى بدليله المورِثِ خوفَ الله، والإشفاق من عقابه والرغبةَ والطمع في جزيل ثوابه.

أقسام العلم:

ينقسم العلم الشرعي إلى ثلاثة أقسام هي:

١- العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله.

٢- العلم بالأحكام الشرعية.

٣- العلم بالأمور الغيبية.

قال ابن القيم موضحًا هذه الأقسام:

والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها ... من رابع والحقُّ ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكُلُّ في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان[٢]

---

(١) «العين» (٢/ ١٥٢ و٣٩٠).

(٢) «الكافية الشافية» (٢/ ٢٣٢).

حكم طلب العلم:

ينقسم حكم طلب العلم إلى قسمين:

أولًا: فرض عين على كل أحدٍ، وضابطه: ما لا يسع الإنسان جهله وهو «التوحيد وما يفعله من العبادات وما يحتاج إليه من المعاملات وما يجب تركه من المنهيات»[(١)].

قال ابن المبارك: «ألَّا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم»[(٢)].

ودليله قوله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ**»[(٣)]، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف؛ إلا أنَّ معناه صحيح، وذلك أنه لا يمكن للإنسان أن يعبد ربه إلا بالعلم. والقاعدة تقول: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

ثانيًا: فرض كفاية: وضابطه: ما زاد عن الواجب. فإذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]، والطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه.

---

(١) وضبطه الطبري، فقال: «فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله.... فتوحيد الله تعالى ذكره، والعلم بأسمائه وصفاته وعدله» «التبصير في معالم الدين» ١١٦-١١٧.

(٢) «الفقيه والمتفقه» ١/ ٤٥، وشرحه هناك فراجعه إن شئت.

(٣) ابن ماجه (١/ ٨١) «المقدمة»/ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم (٢٢٤)، وضعفه أحمد، وابن عبد البر، وقال إسحاق بن راهويه: إنه لم يصح، أما معناه فصحيح، ومثّل به ابن الصلاح بالمشهور الذي ليس بصحيح. وقال المزي: «إن طرقه تبلغ درجة الحسن». «المقاصد الحسنة» (٢٧٦).

ترتيب تعلم العلوم:

أَوَّلُ ما يبْدَأُ به طالب العلم: تَعَلَّمُ فروض الأعيان حتى يعرف العلم والعمل بها ثم يَتَدرَّجُ بعد ذلك في فروض الكفاية وجزئيات العلم، وليكن ابتداؤه أولًا بعلوم الغاية وهي: التوحيد ثم الفقه المبنيان على الأدلة من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، ثم علوم الوسائل ثانيًا كأصول التفسير، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وأصول الفقه ونحو ذلك. قال الذهبي: «على الوالدين تعليم الأولاد الأطفال أولًا فأولًا ما يجب اجتنابه، ويلزم فعله واعتقاده، فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد، وأَنَّ اللهَ ربُّ العالمين، وخالقُ الأشياء، ورازقُ الأحياء، وأن محمدًا نبيُّه، وأن الإسلام دينُه، حتى يَأْلَفْهُ الصبيُّ ويرسخ في طبعه.

فإذا مَيَّزَ: علَّمه الوضوء والصلاة، وحذّره الزنا والسرقة والكذب، وأكل الحرام، والدم والميتة، ونحو ذلك، وأنه ببلوغه يجرى عليه القلم»[(١)].

ويبتدئ طالب العلم بتعلم التوحيد والإيمان أولًا لما يلي:

١ - أنَّ السور والآيات التي تتحدَّث عن الإيمان هي أَوَّلُ ما نزل من القرآن:

فَأَوَّلُ ما نزل في مكة هو المفصل، لما فيه من غرس حقيقة الإيمان في القلب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزل المفصّلُ بمكة، فمكثنا حِجّجًا نقرؤه لا ينزلُ غيره»[(٢)].

توضح ذلك أُمُّنا عائشة رضي الله عنها فتقول: إنما أُنْزِلَ أَوَّلَ ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذِكرُ الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أَوَّلَ شيء: (لا تشربوا الخمر)؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: (لا تزنوا)؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ

---

(١) «مسائل في طلب العلم وأقسامه» (٢٠٤) المطبوع ضمن ست رسائل.

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٦/ ٢٥٨) رقم (٦٣٤٤).

وَأَمَرٌ﴾، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[١].

٢- أنَّ الإيمان هو أساسُ الدين، فمن فقده فقد الدين كُلَّه:

جعل اللهُ نورَ القرآن تاليًا وشاهدًا لنور الإيمان، فقال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: نور القرآن على نور الإيمان، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وبهذا يتضح أن معنى قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: يعني هدى الإيمان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتبعه. ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الشاهد هو القرآن، فهو شاهد من الله يوافق الإيمان، ويتبعه فيصدقه ويزكيه ويؤيده ويثبته، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ لأن الإيمان هو المقصود؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته.

ولهذا كان الإيمانُ بدون قراءة القرآن ينفعُ صاحبَه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة، بل صاحبه منافق، كما في حديث عن أبي موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآنَ كمثل الأُتْرُجَّةِ: ريحُها طيبٌ، وطعمُها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا رِيْحَ لها، وطعمها حُلْو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر**»[٢] [٣].

---

(١) البخاري مع الفتح (٩/ ٣٨-٣٩)، كتاب «فضائل القرآن»/ باب تأليف القرآن. رقم (٤٩٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ٥٥٥)، كتاب «الأطعمة»/ باب ذكر الطعام. رقم (٥٤٢٨)، ومسلم (١/ ٥٤٩)، كتاب «صلاة المسافرين»/ باب فضيلة حافظ القرآن. رقم (٧٩٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٦٨-٧٤)، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ٩٨).

٣- أن البداءة بالإيمان منهج النبي ﷺ وأصحابه:

لما كان القلبُ هو مَلِكُ الأعضاء والمحركُ لها: كان لا بد من غرس الإيمان فيه أولًا، لأجل أن يحرك الأعضاء إلى كل خير، ولذلك كان النبي ﷺ يبتدئ به تعليم أصحابه، كما أوضح ذلك وبيّنه جُنْدُبُ بن عبد الله البجلي، وحذيفة، وابن عمر رضي الله عنهم.

فأما رواية جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا»(١).

ومثله عند ابن منده، إلا أنه قال: «غلمان»، بدلًا من: «فتيان»(٢).

وفي لفظ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فيعلمنا الإيمان، ثم يعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا»(٣).

وفي لفظ قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة(٤) -يعني أشداء-، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن بعد فازددنا إيمانًا»(٥).

فهذه الروايات لحديث جندب كلها تؤكد أن الإيمان يجب تَعَلُّمُهُ أَوّلًا قبل أَيِّ علم آخر، حتى لو كان تَعَلَّمُ القرآن.

وأكد هذه الحقيقة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، فقال: «لقد لبثنا بُرْهَةً من دهرنا، وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن. تنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها

---

(١) ابن ماجه (١/ ٢٣) المقدمة/ باب في الإيمان. رقم (٦١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (١/ ٦٢).

(٢) «الإيمان» (٢/ ٣٧٠) رقم (٢٠٨)، و«السنة» لعبدالله بن أحمد (١/ ٣٦٩) رقم (٧٩٩).

(٣) «السنة» للخلال (٥/ ٥٤) رقم (١٥٩٣).

(٤) حزاورة: أي قارب أن يبلغ. «غريب الحديث» لابن قتيبة ٣/ ٧٥٨.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩٤٦) رقم (١٧١٥).

وحرامها وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها[١]، كما يتعلم أحدكم السورة....»[٢].

«فهم كانوا يتعلمون الإيمان، ثم يتعلمون القرآن»[٣].

وقول ابن عمر: «لقد عشنا برهة من دهرنا» يدل على أن ذلك إجماع من الصحابة ثابت[٤].

وكذلك حذيفة حين قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة». قال الأصمعي وأبو عمرو: «الجِذْرُ الأصلُ من كُلِّ شيء»[٥].

وقال الطنافسي: «جذر قلوب الرجال يعني: وسط قلوب الرجال»[٦]. ووسط القلب هو أصله.

«والأمانة في هذا الحديث هي الإيمان، أنزلها في أصل قلوب الرجال»[٧].

---

(١) قال شيخ الإسلام: «تعلم معانيه هو المقصود بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان». «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٠٣).

(٢) «الإيمان» لابن منده (٢/ ٣٦٩-٣٧٠)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة، إلا البخاري»، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٧١).

(٤) «الإتقان في علوم القرآن» (٢/ ٥٤٠).

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٣٣)، كتاب «الرقاق»/ باب رفع الأمانة. رقم (٦٤٩٧)، ومسلم (١/ ١٢٦)، كتاب «الإيمان»/ باب رفع الأمانة والإيمان. رقم (١٤٣).

(٦) سنن ابن ماجه (٢/ ١٣٤٦)، كتاب «الفتن»/ باب ذهاب الأمانة. رقم (٤٠٥٣).

(٧) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٢٤٩).

وذلك أنهم إذا استقر الإيمان في قلوبهم، فتعلموا ما يسر الله لهم من القرآن والسنة، فهموه على الوجه الصحيح، وطبقوه على أنفسهم رغبة وطواعية، ومحبة.

ولكن يا للأسف سرعان ما تغير الناس في طلب العلم، فاختل ترتيب الأولويات حتى فزع الصحابة ﷾ من ذلك.

قال حذيفة ﷺ مبينًا طريقة النبي ﷺ في تعليم الإيمان أولًا: «كنا فتياناً حزاورة مع نبينا ﷺ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانًا».

ومعاتبًا التابعين إذ خالفوا طريقته ﷺ: «وإنكم اليوم تَعَلَّمُونَ القرآن قبل الإيمان»[(١)].

ويستغرب عبد الله بن عمر ﷺ هذا التغيّر السريع، فيذكر حالة النبي ﷺ في تعليمهم الإيمان قبل القرآن، ثم يذكر الأمر المستغرب الذي لم يكن معهودًا في عهد النبي ﷺ، فيقول معاتبًا ومحذرًا: «ولقد رأيت رجالًا يُؤْتَى أحدُهم القرآن قبل الإيمان، يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نثر الدقل»[(٢)].

ولقد رأينا في زماننا هذا من يحفظ القرآن بالقراءات العشر لا يرعوي لأمر ولا يزجره نهي، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وينبغي لطالب العلم أن يحرص أَشَدَّ الحِرْص على طلب الأدب، قال مالك بن أنس لفتى من قريش: «يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم»[(٣)].

---

(١) «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥) رقم (١٦٧٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٩٣) رقم (٥٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٣٠).

وما ذلك إلا لعظيم أهميته كما يصور ذلك عبدالله بن المبارك، فيقول: «كاد الأدب أن يكون ثلثي العلم»(١).

وتَعَلُّمُ الأدب سنَّةٌ متبعة مشتهرة عن سلفنا الصالح ومن ذلك:

كان أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يرحلون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فينظرون إلى سَمْتِهِ وهديه ودَلِّهِ فيتشبّهون به(٢)، وأما الطلاب الذين يحضرون درس الإمام أحمد، فهم قرابة خمسة آلاف طالب يكتب منهم خمسمائة فقط أما البقية فجاءوا يتعلمون حسن الأدب وحسن السَّمْتِ والهدْى(٣).

قال أبو بكر بن المطوعي «اختلفت إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل اثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثًا واحدًا، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه»(٤).

وقال إبراهيم النخعي «كنا نأتي مسروقًا فنتعلم من هديه ودَلِّه»(٥).

وقال ابن وهب: «ما تعلمت من أدب مالك أفضلُ من عِلْمِهِ»(٦).

وكما أن العلم يؤخذ بالسند فكذلك الأدب. قال حميد بن عبدالرحمن الرواسي كان يقال: لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أشبه هديًا ولا سمتًا ودلًّا من عبدالله بن مسعود، وكان أشبه الناس بعبدالله بن مسعود علقمةَ، وكان أشبه الناس بعلقمة إبراهيم

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٤٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٦٥).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١٠).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٧).

(٦) المرجع السابق.

النخعيّ، وكان أشبه الناس بإبراهيم النخعي منصور بن المعتمر، وكان أشبه الناس بمنصور بن المعتمر سفيان الثوري وكان أشبه الناس بسفيان الثوري وكيع بن الجراح. قال محمد بن يونس: وكان أشبه الناس بوكيع بن الجراح أحمد بن حنبل[(١)] ومما ينبغي أن يعلم أن الأدب والعلم توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر كما بين ذلك يحيى بن محمد العنبري ت ٣٤٤هـ بقوله: «علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كجسم بلا روح»[(٢)]

فضل العلم:

العلمُ فضلُه كبير بل لا يساويه أي عمل آخر ويتجلى ذلك بالأمور التالية:

أولًا: الترغيب في الذهاب لطلبه:

بذل الجهد والوقت في مدارسة العلم -وذلك بالذهاب إلى حلق الذكر ومواطن العلم- هو السبيل إلى التعلم.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على فضله والترغيب فيه، ومنها:

قوله ﷺ: «**من غَدَا إِلَى المَسْجِدِ لاَ يُرِيدُ إلاَّ أن يَتَعَلَّمَ خَيرًا أو يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأجْرِ حَاجٍّ تامًّا حَجُّهُ**»[(٣)].

فما أعظم هذا الأجر الذي يتسابق إليه الموفقون، فلنكن منهم.

كيف لا يتسابق إلى العلم المتسابقون وبسببه يُسَهِّلُ الله لهم طريق الجنة ويَذْكُرهم في الملأ الأعلى، وتغشاهم رحمته، وتحفُّهم ملائكته، وينزل عليهم سكينته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «**ومن سلكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له به**

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١١).

(٢) «الجامع» للخطيب (١/ ٨٠).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٨/ ٩٤) رقم (٧٤٧٣)، قال المنذري: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به». «الترغيب والترهيب» ١/ ١٠٤، وقال العراقي «إسناده جيد». «تخريج الإحياء» (٤/ ٤٦١).

طريقًا إلى الجنَّةِ، وما اجْتَمَعَ قومٌ في بيتٍ مِن بيوتِ الله يَتْلُونَ كتابَ الله ويتدَارَسُونَهُ بينهم إلا نزلت عليهم السَّكينةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهُم الملائكةُ، وذكرهُمُ اللهُ فيمن عنده»[(١)].

قال ابن حجر: «وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة»[(٢)]، بل إِنّ نَقْلِ الخطى لطلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ جاء مسجدي هذا لم يأْتِه إلا لخيرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أو يُعَلِّمُهُ؛ فهو بمنزلةِ المجاهدِ في سبيلِ الله»**[(٣)].

ثانيًا: قيمة العلماء في الدنيا والآخرة:

لما كان العلم الشرعي هو أعلى ما يُبْتَغَى ويُطْلَب صار أهله في أعلى المواقع والرتب.

ومن الأدلة على علو مرتبتهم:

١- استشهادهم دون غيرهم من البشر، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾[آل عمران:١٨].

قال ابن القيم وهذه الآية تدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أ- استشهادهم دون غيرهم من البشر.

ب- اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. رقم (٢٠٦٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٣) ابن ماجه (١/ ٨٢) «المقدمة»/ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٧)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته». «مصباح الزجاجة» (١/ ٣١). وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤).

ج- اقتران شهادتهم بشهادة ملائكته.

د- أن في هذا تزكيتَهم وتعديلَهم؛ فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر: «يحمل هذا العلم من كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[١][٢].

٢- **الفرق الكبير بن الجاهل والعالم**، يوضحه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩].

أي الذين «يعلمون ربَّهم ودِينَه الشرعي ودِينَه الجزائي وما له في ذلك من الأسرار والحكم والذين لا يعلمون شيئًا من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار»[٣].

وقرّب ابن القيم معنى هذه الآية ووضّحه بأوجز عبارة فقال «هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[الحشر:٢٠]»[٤].

فنحن نعلم الفرق الشاسع والبون البعيد بين الدارين فليس هناك مقارنةٌ ولا مقاربةٌ فالنارُ دار الزفرات والأنين والعبرات دار الجحيم والعذاب والنكال والقيود والأغلال، دارٌ أهلها في شقاء وعذاب، إن أكلوا فأكلهم عذاب، وإن شربوا فعذاب، وإن استظلوا فظلهم لا ظليل ولا يغني من اللهب، وإن أرادوا النوم والراحة فلهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وبالجملة فهي دار لا يقضى على أهلها فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. نسأل الله العافية والسلامة منها، وأما الجنة فهي دار النعيم والحبور والراحة والطمأنينة

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» (٦).

(٢) «مفتاح دارة السعادة» (١/ ٤٨).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٠).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٩).

والسعادة الأبدية، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأهلها فيها خالدون، وقد تُوِّجَ نعيمُها برؤية الرب الكريم جل وعلا. أسأل الله أن يجعلنا من أهلها. فانظر الفرق بين الاثنين واختر لنفسك أيها العاقل.

٣- التصريح برفعتهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١].

قال شيخ الإسلام: «خَصَّ سبحانه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان...، فَرَفْعُ الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان»(١).

٤- إدراك الخيرية، ويدل له حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»(٢).

ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرًا فينبغي الحرص على التفقه في الدين لننال الخيرية.

٥- اختصاصُهم بميراث الأنبياء دون غيرهم، كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ العلماء هُمْ ورثَةُ الأنبياءِ، لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثُوا العلمَ، مَنْ أخذهُ أخذ بحظٍّ وافرٍ**»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٨) وفيه زيادة فائدة؛ فراجعه إن شئت، وانظر إن شئت: «إعلام الموقعين» (٣/ ٢٣٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٤)، كتاب «العلم»/ باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين. رقم (٧١).

(٣) أحمد (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٥/ ٤٨-٤٩)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم (٢٦٨٢)، وأبو داود (٤/ ٥٧-٥٨)، كتاب «العلم»/ باب الحث على طلب العلم. رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه (١/ ٨١)، «المقدمة»/ باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٣).

وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (٧/ ٥٨٧)، وقال السخاوي: «صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا =

أي أخذ بنصيب كامل(١).

فرق كبير بين من يرث أُمّه وأباه أو يرث نبيه محمدًا ﷺ. فمن ورث أمه وأباه فقد ورث الدرهم والدينار، ومن ورث نبيه محمدًا ﷺ ورث العلم والدين الذي به نجاة الخلق أجمع في الدنيا والآخرة، ولهذا «لما مر أبو هريرة بسوق المدينة وقف فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة، قال: ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعًا إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم، فقالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون وقومًا يقرؤون القرآن وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ»(٢).

وقال سليمان بن مهران: «بينما ابن مسعود يومًا معه نَفَرٌ من الصحابة، إذ مرَّ أعرابي، فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد يقتسمونه»(٣).

وأما بعد الموت: فيدل له فعل النبي مع قتلى أحد رضي الله عنهم مع أنهم كلهم أهل صلاح وتقى، حيث كان ﷺ يسأل أيهم كان أكثر أخذًا للقرآن فيقدمه في اللحد تكريمًا له، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله يقول لقتلى أحد: «**أيُّ هؤلاءِ أكْثَرُ أخذًا**

=

قال شيخنا: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلًا». «المقاصد الحسنة» (٢٨٦).

وذكره البخاري. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٢/ ١١٤-١١٥) رقم (١٤٢٩)، وقال المنذري: «إسناده حسن». «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٢).

للقرآنِ؟» فإِذَا أُشِيرَ إلى رَجُلٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ قَبْلَ صاحبه»[١].

وفي الموقف الأعظم يتقدم العلماء الناس كما في قول النبي ﷺ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**إن العلماء إذا حضروا ربهم كان بين أيديهم رَتْوَة بحجر**»[٢]، فمعاذ رضي الله عنه أمام العلماء، والعلماء أمام الناس.

أما في الآخرة فلهم المنازل العليا في جنات النعيم.

ثالثًا: فضل العلم على العبادة:

إن للعبادة لشأواً عظيماً فمن تقرب إلى الله شبرًا تقرّب الله إليه ذراعًا، ومن تقرّب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، ولا يزال العبد يتقرب إلى ربه بالنوافل حتى يحبه فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سأله أعطاه، ومع ذلك كله فإن العلم أفضل منها **لأن العبادة لا تصحُّ إلا بالعلم، ولأَنَّ العلمَ نَفْعُهُ متعدٍّ، أما العبادة فنفعها خاص بصاحبها فقط**، كيف وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**وإنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلة البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلماءَ ورثةُ الأنبياءِ**»[٣].

قال القرطبي: وهذا حديث عظيم يَدلُّ على أنَّ طلب العلم أفضلُ الأعمال وأنه لا يبلغ أحدٌ رتبة العلماء وأن رتبتهم ثانية عن رتبة الأنبياء[٤].

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢١٢)، كتاب «الجنائز»/ باب من يقدم في اللحد. رقم (١٣٤٧-١٣٤٨).

(٢) «فضائل الصحابة» لأحمد (٢/ ٧٤٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «المفهم» (٦/ ٦٨٥).

وقال ابن القيم: «العلماء ورثة الأنبياء: هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم»(١).

ويزيد النبي ﷺ الأمر وضوحًا في بيانه الفرق الشاسع بين العالم والعابد في الحديث الذي رواه أبو أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم. فقال رسول الله ﷺ: «**فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضلي على أَدْناكُم**»(٢).

وهذا الحديث من أبين الأدلة على فضيلة العلم على العبادة إذ إنه من المعلوم أنه ليس هناك مقارنة بين النبي ﷺ وأعلى الصحابة. فكيف بأدناهم.

ولذلك أرشد النبي ﷺ أبا هريرة إلى أن يُوتِرَ قبل أن ينام لأجل أن يتفرّغ لاستذكار العلم، كما روى ذلك أبو هريرة، فقال: «أوصاني خليلي بثلاث»، وذكر منها: «أن أُوتِرَ قبل أن أنام»(٣).

واتفق السلف على ذلك، ومن أقوالهم:

قال أبو موسى الأشعري: «لمجلسٌ أَجْلسُهُ مع عبد الله بن مسعود أوثقُ في نفسي من عمل سنة»(٤).

وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»(٥)، وقال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة؛ فعليه بالعلم».

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٦).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٠)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. رقم (٢٦٨٥)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٧٤) رقم (٢١٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٢٦)، كتاب «الصوم»/ باب صيام البيض. رقم (١٩٨١)، ومسلم (١/ ٤٩٩)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب استحباب صلاة الضحى. رقم (٧٢١).

(٤) «شرح حديث أبي الدرداء» لابن رجب (٣٧)، وصحح الأثر عن أبي موسى.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

وقال: «ما تُقُرِّبَ إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»[١].

وقال ابن وهب: كنت عند مالك أقرأ بين يديه، فجمعت كتبي، وقمت لأركع، قال لي مالك: ما هذا؟ قلت: أقوم إلى الصلاة، قال: فقال: إن هذا لعجب، ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحَّت النية»[٢].

وقال الحسن مبينًا فضيلة العلم: «لأن أتعلم بابًا من العلم فأعلمه مسلمًا أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله». ولما سأل مهناً أحمد بن حنبل عن أفضل الأعمال. قال: طلب العلم لمن صحت نيته. قلت: وأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل[٣].

وروي مثل هذه الآثار عن سفيان الثوري، وأبي حنيفة، وغيرهم من السلف[٤].

رابعًا: شدة الحاجة إليه:

كلّما كان الناس إلى الشيء أحوجَ كان طلبُه أفضلَ، قال الإمام أحمد: «الناس إلى العلم أحوجُ منهم إلى الطعام والشراب، فإنهم يحتاجون الطعام والشراب في اليوم والليلة مرتين أو ثلاثًا، أما حاجتهم إلى العلم فبعدد أنفاسهم».

وقال الحسن بن صالح: «إنَّ الناس ليحتاجون إلى هذا العلم في دينهم كما يحتاجون إلى الطعام والشراب في دنياهم»[٥].

---

(١) «المجموع» للنووي (١/ ١٢).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥)، و«شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (٣٧-٤٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٠) «المقدمة»/ باب في فضل العلم والعالم. رقم (٣٢٦).

الترهيب من تعلم العلم لغير وجه الله تعالى:

لما كان العلم أعظم زينة يتزين بها الإنسان فإن نوازع النفس من حب الدنيا والمدح والثناء والمباهاة والتبجيل قد تفسد على العبد نيته فتصرفه عن ابتغاء وجه الله فيه فلهذا وردت الأحاديث الشديدة الزجر، لتحمي طالب العلم من الانحراف، وترده إلى رشده إذا انحرف، ومنها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله عز وجل لا يتعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عرضًا من الدُّنيا: لم يجد عرفَ الجنَّة يوم القيامة**». يعني ريحها[(١)].

٢- حديث أول من تُسعَّر بهم النار وفيه: «**ورجُلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمَهُ وقرأَ القُرآنَ فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعمهُ فَعرفها قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلمَ وعلّمتهُ وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتْ، ولكنَّكَ تَعَلّمْتَ العلمَ ليُقال عالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ هو قارئٌ، فقد قيل: ثُم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهِهِ حتّى أُلْقِيَ في النار**»[(٢)].

٣- عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تعلَّمُوا العلمَ لِتُبَاهُوا به العلماءَ، ولا تُمارُوا به السُّفَهاءَ، ولا تَخَيَّروا به المجالس، فمن فعل ذلك؛ فالنَّار فالنَّار**»[(٣)].

---

(١) أبو داود (٤/ ٥٧١)، كتاب «العلم»/ باب طلب العلم لغير الله تعالى. رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٩٢) «المقدمة»/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «شرح حديث جبريل» (٥٨٥)، والنووي في «رياض الصالحين» (٤٤٧) رقم (١٣٩٩).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٤)، كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

(٣) ابن ماجه (١/ ٩٣) «المقدمة»/ باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٤)، وصحح إسناده العراقي في «تخريجه أحاديث الإحياء» (١/ ٧٣)، وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم». «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٧).

أنواع العلم بحسب متعلقاته:

العلم بحسب متعلقاته قسمان هما:

١- علم اللسان.

٢- علم القلب.

فعلم اللسان: علمٌ مُسْتَقَرُّهُ اللسان فقط، بمعنى أن الشخص عنده القدرة التامة على التحدث في أمور الدين حتى إن السامع ليعجب بحديثه، ولكن لا أثر له على سلوكه وحياته، قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون:٤].

أما علم القلب: فهو العلم الذي استقر في القلب، وظهر أثره على الجوارح، وهذا هو العلم الممدوح قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

قال الحسن مقررًا هذه الحقيقة: «العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم»(١).

إذًا: **العلم النافع** هو ما باشر القلب فأوجب له السكينة والخشية والإخبات والتواضع والانكسار لله، وحينئذ يرسخ في القلب وينفع المسلم كما أوضح ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: «إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»(٢).

ومن ثم جعل رضي الله عنه علمَ القلوب هو رأس العلوم كلها فقال: «كفى بخشية الله

---

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٩٨)، «المقدمة»/ باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله. رقم (٣٦٤).

(٢) مسلم (١/ ٥٦٣)، كتاب «صلاة المسافرين»/ باب ترتيب القراءة. رقم (٨٢٢).

علمًا، وكفى بالاغترار به جهلًا»[١]. ووافقه حذيفة رضي الله عنه فقال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله، وبحسبه من الكذب أن يقول: أستغفر الله، ثم يعود»[٢].

بل حصر ابن عباس رضي الله عنه العلم بعلم القلوب فقال: «من خشي الله فهو عالم»[٣]. وصحح ابن مسعود رضي الله عنه ذلك المفهوم الخاطئ عند بعض طلبة العلم الذين توهَّموا أن العلم هو الرواية فقط فقال: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية»[٤].

وعلى ذلك درج سلفنا الصالح رحمهم الله، قال مالك رحمه الله: «إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلمَ نُورٌ يجعله الله في القلب»[٥]. وفي لفظ: «الفقه نور يهدي به الله من يشاء من خلقه ويؤتيه من أحب من عباده وليس بكثرة المسائل»[٦]. وحدَّد مجاهد الفقيه فقال: «إنما الفقيه من يخاف الله»[٧].

وحين سأل عبدالله بن أحمد بن حنبل أباه عن معروف: هل كان مع معروف شيء من العلم. قال له: «يا بني كان معه رأسُ العلم خشية الله تعالى»[٨].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢١٩) رقم (١٦٣٧٩)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٨).

(٣) «سنن الدارمي» (١/ ٩٢)، «المقدمة»/ باب فضل العلم والعالم. رقم (٣٣٣).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٩٨)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣١)، و«إبطال الحيل» لابن بطة (٢٠).

(٥) «الجامع للخطيب» (٢/ ١٧٤).

(٦) «التمهيد» (٤/ ٢٦٧).

(٧) «الزهد» لأحمد (٤٥٢)، و«سنن الدارمي» (١/ ٨٦)، «المقدمة»/ باب من قال العلم الخشية. رقم (٢٩٦).

(٨) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٢).

ولما قال الرجل للشعبي أفتنا أيها العالم قال: «العالم من خاف الله»، وفي لفظ: «العالم من خشي الله»[١]. ويؤكد هذه الحقيقة سفيان الثوري فيقول: «ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية لله»[٢]. وبناءً على هذا قسّم العلماء إلى ثلاثة أنواع فقال: «العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمره فذلك العالم الكامل، وعالم بالله ليس عالماً بأمر الله عز وجل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله عز وجل، فذلك العالم الفاجر»[٣]، والعالم الفاجر هو الذي عناه أيوب السختياني بقوله: «لا خبيث أخبث من قارئ فاجر»[٤].

وأختم بوصف الحسن للفقهاء حين قال: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة لا يداري ولا يماري، ينشر حِكَمَ الله فإن قُبلت منه حمد الله، وإن رُدت حمد الله»[٥].

أسباب حفظ العلم:

أسباب حفظ العلم كثيرة من أهمها:

١- النية الصالحة:

مدار كل عمل على النية فبصلاحها يصلح العمل، ومن أعظم ما يعين على حفظ العلم صلاحها، قال ابن عباس: «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»[٦].

٢- التذاكر:

التذاكر منهج معروف عند السلف الصالح؛ لأثره البالغ في تثبيت العلم قال علي

---

(١) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦).

(٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٩١-٩٢).

(٤) «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٨١).

(٥) «نقض الدارمي على بشر المريسي» (٣٨٥)

(٦) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).

ﷺ: «تذاكروا هذا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يُدرس»[١]. وقال الزهري والحسن: «إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة»[٢].

وكان ابن عباس يربي تلاميذه على ذلك فيقول لطلابه: «إذا سمعتم مني حديثًا فتذاكروه بينكم»[٣].

وذلك أنَّ «من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد مما لم يعلم»[٤].

وكان لتوجيهه ﷺ أكبر الأثر على الطلاب فلقد كانوا يطبقون ذلك كما يقول تلميذه عطاء: «كنا نكون عند جابر بن عبدالله ﷺ فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث»[٥].

بل كان ذلك سمة عامة. قال عبد العزيز بن أبي حازم: «كان الناس فيما مضى من الزمان الأول إذا لقي الرجل من هو أعلم منه قال: اليوم يوم غُنْمِي فيتعلم منه، وإذا لقي من هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي فيذاكره، وإذا لقي من هو دونه علّمه ولم يَزْهُ عليه»[٦].

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له. وسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي[٧].

٣- ترك المعاصي:

المعاصي من أعظم الأسباب المانعة من العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٧).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٤١٥).

(٥) المرجع السابق (١/ ٣٦٥).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٢٧٦).

(٧) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٩).

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء:١٥٥] قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلْبَ الهدَى والعلمَ النافعَ»(١).

وقد عرف سلفنا الصالح ذلك جيدًا قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مبينًا أثر المعاصي على طلبة العلم، وأنها من أعظم أسباب النسيان «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يَعْلَمُهُ بالخطيئة يعملها»(٢) ولما سأل رجل مالكًا فقال: يا أبا عبدالله هل يصلح لهذا الحفظ شيء قال: «إن كان يصلح له شيء فَتَرْكُ المعاصي»(٣).

وبترك المعاصي، أرشد وكيع تلميذه محمد بن إدريس الشافعي فنظمها تلميذه فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يُؤتاهُ عاصي(٤)

فإذا كان بالغفلة يحدث النسيان قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف:٣٦]. فكيف بالمعصية.

٤- نشره بين الناس:

نشر العلم بين الناس من أعظم وسائل حفظه لكل من الناشر والسامع. ولهذا كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، وَلْتفْشُوا العلمَ ولتجلسُوا حتَّى يعلم مَن لا يعلم، فإنَّ العلمَ لا يَهْلَكُ حتَّى يكون سرًّا(٥).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٥٢).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٦).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).

(٤) «ديوان الشافعي» (٦١).

(٥) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٤)، كتاب «العلم»/ باب كيف يقبض العلم.

فاحذر يا طالب العلم من البخل بنشره بين الناس؛ لخطورة البخل بذلك. قال ابن المبارك: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث إما موت يُذْهِبُ علمه وإما يَنْسى وإما يلزم السلطان فيذهب علمُه»(١).

٥- العمل بالعلم:

لما كان العلم يُطْلَبُ للعمل صار ما بينهما من الترابط يجعل فقد أحدهما مؤثرًا على الآخر. قال إبراهيم بن إسماعيل وعامر بن شراحيل الشعبي: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»(٢).

وقال سفيان الثوري: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»(٣).

٦- الصبر والمثابرة وعدم الاستعجال:

العلم بعيد قعره طويل مسلكه كثيرة ثمراته، ومن كانت هذه صفته فإنه يحتاج إلى صبر ومصابرة فاصبر على طلبه، وليكن أسوتك وقدوتك ابن عباس رضي الله عنه، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قُبِضَ رسول الله، قلت لرجل من الأنصار فلنسألْ أصحابَ رسول الله فإنهم اليوم كثير فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟ قال: فتركت ذلك فأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث فإن كان ليبلغني عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تَسْفِي الريحُ عليَّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك فأقول لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث فعاش ذلك الأنصاري

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٨).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٥٩)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٠).

حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني فقال: هذا الفتى كان أعقل مني»[(١)].

ومن أقوال أهل العلم في الصبر على طلبه وعدم العجلة في ذلك قول الزهري: «لا تأخذِ العلمَ جملةً فإن من رام أخذَهُ جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»[(٢)].

وفي رواية عنه «مَنْ طلب العلم جملةً فاته جملةً وإنما يدرك العلم حديث وحديثان»[(٣)].

ويروي زيد بن الحباب تربية الثوري طلابه على هذا المنهج فيقول: سمعت الثوري وسأله شيخ عن حديث فأجابه، ثم عن آخر فأجابه، ثم عن ثالث فأجابه، ثم سأله في الرابعة، فقال: إنما كنت أقرأ على الشيخ الحديثين والثلاثة لا أزيد حتى أعرف العلم والعمل بها، فألح الشيخ عليه فلم يجبه، فجلس الشيخ يبكي، فقال له سفيان: يا هذا تريد ما أخذته في أربعين سنة تأخذه في يوم واحد[(٤)].

٨- انتهاز الفرص والمبادرة إلى تحصيل العلم:

ينبغي أن يُبَادِرَ الشابُّ المسلم ويسارع إلى دراسة العلم وتعلمه وقت شبابه وفراغه منتهزاً كلَّ فرصة، قال ابن عباس: «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجًّا، فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت فقلت له: يا أمير

(١) «سنن الدرامي» (١/ ١٣٤)، كتاب «المقدمة»/ باب الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء فيه. رقم (٥٧٠). وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة» (٢/ ١٠١٢) رقم (٤١٥)، تحقيق د. سليمان العريني.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٤).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٢).

(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣١).

المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة...»[١].

وفي لفظ: «مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرتين، فما أجد له موضعًا أسأله فيه، حتى خرج حاجًّا، وصحبته حتى إذا كان بمر الظهران ذهب لحاجته، وقال: أدركني بإداوة من ماء، فلما قضى حاجته، ورجع أتيته بالإداوة أصبها عليه، فرأيت موضعها، فقلت: يا أمير المؤمنين: من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ؟ فما قضيت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة رضي الله عنهما»[٢].

قال ابن شهاب: «العلمُ خزائنُ وتفتحُها المسألةُ»[٣].

٩- ملازمة أهل العلم الصالحين للتعلم منهم:

لا يحصل العلم إلا بملازمة أهله[٤]، ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة حفظًا لحديث رسول الله ﷺ لملازمته له.

وهذه حقيقة مستقرة عند سلفنا الصالح قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «مِنْ فِقْهِ الرجل ممشاه ومدخَلُهُ ومخرجه ومجلسه مع أهل العلم»[٥]. وذلك لأنك لن تعدم من أهل العلم خيرًا. قال البرقاني: «ما اجتمعت قَطُّ مع حمزة بن محمد ففارقته إلا بفائدة علم»[٦].

وفي ترجمة ابن عبد الهادي: قال شيخه المزي: «ما التقيت به إلا واستفدت منه»، وقال الذهبي: «ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه»[٧].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٧)، كتاب «التفسير»/ باب تبتغي مرضاة أزواجك. رقم (٤٩١٣).

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ٦٥٧).

(٣) سنن الدارمي (١/ ١٣١)، «المقدمة»/ باب البلاغ عن النبي ﷺ، وتعليم السنن. رقم (١٥٤٩).

(٤) قال ابن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». مسلم (١/ ١٤) المقدمة.

(٥) «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٤٣).

(٧) «الدرر الكامنة» (٥/ ٦٢).

وهذه الملازمة تفيد الطالب أمرين:

١- الأدب.

٢- العلم، وتصويب الخطأ في طلبه.

يوضح هذا توجيه شُعْبَةَ لطالب العلم الذي قدم من المغرب كيف يطلب العلم.

قال هشام بن عبدالملك الطيالسي بينما أنا عند شعبة ذات يوم إذ جاءه رجل غريب فقال يا أبا بسطام، حدثني بحديث حماد عن إبراهيم أنه قال: (لأن يلبس الرجل في طلب العلم النعلين زمامهما من حديد) فلم يحدثه شعبة به، فقال: يا أبا بسطام أنا رجل من أهل المغرب أتيتك لهذا الحديث من مسيرة ستة أشهر، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ جاء من مسيرة ستة أشهر يسألني عن حديث لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا. اكتبوا: حدثني قتادة عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ نَامَ عَنْ صَلاَةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا**» ثم قال له: إذا سألت يا أخا أهل المغرب فسل عن مثل هذا وإلا فقد ذهبت رحلتك باطلًا»[(١)].

ومما سطرته يراعة ابن القيم من نفيس قوله: «أعلى الهمم في طلب العلم طلبُ علم الكتاب والسنة، والفهمُ عن الله ورسوله نفسَ المراد وعلم حدود المنزل، وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس... وقلَّ أن ينتفع واحدٌ من هؤلاء بعلمه[(٢)].

ويحسن التنبيه على خطأ التعلم من الكتب دون المشايخ؛ لأن الذي يقرأ الكتب دون الرجوع إلى أهل العلم قد يفهم أقوالهم على غير ما يريدون، ولذلك كان السلف لا يقبلون فتاواهم، قال ثور بن زيد: «لا يفتي الناس الصُحُفيون» بل ولا حتى إقراؤهم للقرآن، قال

---

(١) الجامع للخطيب (٢/ ٢٢٦).

(٢) «الفوائد» (١٠٥).

أبو زرعة: «لا يفتي الناس صَحَفي ولا يقرؤهم مِصْحفي»[١]، ونهى أيوب السختياني شعبة عن الرواية عن خلاس بن عمرو البصري، فقال له: «لا ترو عن خلاس»، ثم علل نهيه بقوله: «فإنه صَحفي»[٢]. وكان الأوزاعي يقول: «كان هذا العلم شيئًا شريفًا إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه، ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله»[٣]. وقال الشافعي: «من تفقه من بطون الكتب ضيّع الأحكام»[٤].

وقال سليمان بن موسى: «كانوا يقولون: لا تأخذوا العلم عن الصَحفيين»[٥].

«وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم إلا من شذ»[٦].

١٠ - التدرج في طلب العلم:

ينبغي أن يتعلّم الأساسيات والأمور الواضحات، ثم ينتقل منها إلى الجزئيات والأمور الدقيقة، وبهذا رسم ابن عباس رضي الله عنه منهج طلب العلم، فقال: «الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»[٧].

١١ - المداومة والاستمرار:

لابد لمن أراد العلم من مداومة الطلب والاستمرار عليه ما دامت الروح في الجسد. يجلي هذه الحقيقة أحمد بن حنبل عندما سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث «قال حتى يموت»[٨].

---

(١) «الفقيه والمتفقه (٢/ ٩٧).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٧٣).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٨).

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (١٨٧).

(٥) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٨).

(٦) «حلية طالب العلم» (٣١)، وللكلام بقية مفيدة، فراجعه إن شئت.

(٧) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(٨) «شرف الحديث» للخطيب (٦٨).

ولما رأى رجل مع أحمد بن حنبل محبرة قال له: يا أبا عبدالله أنت قد بلغت هـذا المبلـغ وأنت إمام المسلمين كأنه يقول -كفاك طلبًا للعلم- فأجابـه أحمـد قـائلًا: «معـي المحـبرة إلى المقبرة»[١]. ولما قال رجل لابن المبارك إلى متى تكتب العلم قال: «لعـل الكلمـة التـي أنتفـع بها لم أكتبها بعد»[٢]. وقرأ ابن الجوزي هو وابنه يوسف القراءات العشر وهو في الثمانين[٣].

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٥٣-٥٤).

(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٨٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٧٧).

وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيِّه، ومَعْرفة دينِ الإسلامِ بالأدلَّة.

....

معرفة الله: لابد للعبد من معرفة معبوده، وهو الله عز وجل وذلك بأمرين:

١- معرفته تعالى بآياته الشرعية المنزلة على رسوله ﷺ.

٢- معرفته تعالى بالنظر إلى آياته الكونية، وما فيها من عجائب الصنعة، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٤]، معرفة توجب محبته والخضوع له.

ومعرفة نبيه ﷺ فرض على كل مسلم معرفةً تستلزم كمال الانقياد والطاعة والمتابعة.

(**ومعرفة دين الإسلام**): لكونه الطريق الموصل إلى رضوان الله وجنته، وهو الدين الذي لا يقبل الله دينًا سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥] وامتن به علينا ورضيه لنا دينًا فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

(**بالأدلة**): الأدلة جمع دليل والدليل هو الموصل إلى المطلوب. فلا يمكن الوصول إلى المقصود إلا به، قال شيخ الإسلام: «من فارق الدليل ضَلَّ السبيل»[(١)].

ومن المعلوم أن ثمرة العلم العمل، قال الحسن البصري: «كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه ويده»[(٢)].

ولهذا كان السلف يحاسبون أنفسهم على التقصير في العمل ويربون أنفسهم ومن تحت أيديهم ومن يعلمونهم عليه ومن ذلك أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: «إن أخوف ما

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

(٢) «الزهد» لعبد الله بن المبارك (٢٦)، رقم (٧٩).

أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت فماذا عملت فيما علمت»[(١)].

وفي لفظ: «إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول: ما عملت فيما علمت»[(٢)].

أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيحث عموم الأمة على محاسبة أنفسهم فيقول: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به -أي ربه- كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول ابن آدم: ما غرّك بي، يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت، يا ابن آدم ما أجبت المرسلين؟»[(٣)].

وذلك أن قيمة العلم تتجلى وتظهر بالعمل به، كما قال عبد الله بن المعتز: «علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة»[(٤)].

ومن التربية على العمل بالعلم تربية أُمّنا عائشة رضي الله عنها لأحد التابعين حينما جاءها يطلب العلم فعلمته حديثين أو ثلاثة ثم جاء من الغد فعلمته مثل ذلك، ثم جاء بعد ذلك فقالت له: «يا بني هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت له ففيم تستكثر من حجج الله علينا وعليك».

وكما وجّه أبو قلابة أيوب السختياني، قائلاً: «إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به الناس»[(٥)].

وذلك أن العالم الذي لا يعمل لا ينتفع بعلمه، فهو كما يقول مالك بن دينار: «العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفا إذا وقع عليه الْقَطْرُ زلق عنه»[(٦)].

---

(١) المرجع السابق (١٤)، رقم (٣٩) و«حلية الأولياء» (١/ ٢١٣).

(٢) «الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٦). وانظر بلفظ مقارب «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٣) رقم (٣٨).

(٤) «اقتضاء العلم العمل» (١٧٤) رقم (٤٦).

(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٨٢) و«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٠).

(٦) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٢).

ومن النماذج على ربط العمل بالعلم: ما قاله الإمام أحمد بن حنبل للمروذي: واصفًا حاله: «ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به حتى مرَّ بي الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت»[(١)]. وكذلك سفيان الثوري حيث يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة»[(٢)].

ولا بدّ من التوازن بين العلم والعمل فلا يطغى جانب على الآخر، قال سفيان الثوري مبينًا أهمية التوازن بين العلم والعمل عندما سئل: طلب العلم أحب إليك أو العمل؟ فقال: «إنما يراد العلم للعمل، لا تدع طلب العلم للعمل ولا تدع العمل لطلب العلم»[(٣)].

وهذا ينقلنا إلى المسألة الثانية وهي:

---

(١) «الجامع للخطيب» (١/ ١٤٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٤٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ١٢).

(الثانية) : العمل به .

....

الضمير في (به) يعود إلى العلم، فيكون المقصود هو العمل بعلم الشرع المنزل على نبينا محمد ﷺ، فيختص بالعمل الصالح لأن «صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو، ومن عَلِمَه وعمل به كان من أولي الأيدي عملًا ومن أولي الأبصار علمًا»(١).

والعمل لغة: العين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل(٢).

واصطلاحًا: هو فعل الأوامر تقربًا إلى الله وترك المناهي لأجل الله على سبيل الإسراع.

أما: فعل الأوامر تقربًا إلى الله؛ فذلك لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصًا لله وعلى هدي رسوله ﷺ، وأما ترك المناهي لأجل الله؛ فلأنه لو ترك المحرم خوفًا من الناس لم يكن له بذلك أجر.

ومما يدل على اشتراط أن يكون الفعل والترك كلاهما لله: حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وفيه: «فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طلب شيء يومًا(٣)، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا(٤) أو مالًا، فلبثت والقدح على

---

(١) «جامع المسائل» لشيخ الإسلام. تحقيق عزيز شمس المجموعة الثانية (٨٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ١٤٥).

(٣) وفي لفظٍ للبخاري: «فنأى بي الشجر».

(٤) وفي لفظٍ للبخاري ومسلم: «والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر».

يديّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك(١) أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه...»(٢). والشاهد قولهم: «اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك».

أما على سبيل الإسراع فذلك لأن الله أمر به فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[آل عمران:١٣٣] ولأن العمر قصير فلا يتحمل التسويف والتأخير وأيضًا فالموت يأتي بغتة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[الذاريات:٥٠] والفرار هو أقصى درجات السرعة.

وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء وهو نوعان:

النوع الأول: فرار السعداء: وهو الفرار إلى الله عز وجل.

«قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الذاريات:٥٠] فِرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبدالله: فروا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون اهربوا من عذاب

(١) وفي لفظ للبخاري: «يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه».

(٢) البخاري مع الفتح ٤/ ٤٤٩، كتاب الإجارة/ باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم ٤/ ٢٠٩٩، كتاب الرقاق/ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة. رقم (٢٧٤٣).

الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة»[١]، فكل شيء إذا خفته هربت منه إلا الله إذا خفته هربت إليه، فتفر من سخطه إلى رضاه ومن عذابه إلى رحمته، وتلُوذُ به منه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: طلبت رسول الله ﷺ ذات ليلة في فراشي فلم أصبه فضربت بيدي على رأس الفراش فوقعت يدي على أخمص قدميه فإذا هو ساجد يقول: «**أَعُوذُ بعفوِكَ مِنْ عقابِكَ، وأعوذُ برضاكَ من سخطكَ، وأعوذُ بك منك**»[٢]، «وتحت (من) و(إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها فهو متضمن لتوحيد الإلهية الذي اتفقت عليه دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد إنّما أوجبته مشيئة الله وحده فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه. ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»[٣]، وقوله: «**لاَ مَلْجَأْ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ**»[٤][٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) مسلم (١/ ٣٥٢) كتاب «الصلاة» / باب ما يقال في الركوع والسجود رقم (٤٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٨٤)، كتاب «الاستعاذة»، الاستعاذة برضاء الله من سخط الله تعالى، واللفظ له.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠٩)، كتاب الدعوات/ باب إذا بات طاهرًا. رقم (٦٣١١) ومسلم (٤/ ٢٠٨٢)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١٠).

(٥) «الرسالة التبوكية» (١٩-٢٠).

والفرار إلى الله قسمان:

الأول: فعل الواجبات والمستحبات:

ويدخل فيه كل ما أمر الله به أو أمر به رسوله ﷺ ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾[البقرة:٤٣].

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ...﴾[الأحزاب:٣٣].

وقول النبي ﷺ: «**تصدَّقْنَ؛ فإنَّ أكثركُنَّ حَطَبُ جهنَّم... قال: فجعلْنَ يتصدَّقْنَ من حُلِيِّهِنَّ يُلْقينَ في ثوبِ بلالٍ من أقْرِطَتِهِنَّ وَخَواتِمِهِنَّ**»(١).

الثاني: اجتناب المحرمات والمكروهات والمشتبهات:

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[آل عمران:١٣٠].

وحديث «**السَّبْعَة الّذينَ يُظلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ إلَى نَفْسِهَا قال: إنِّي أَخَافُ الله...**»(٢).

---

(١) مسلم (٢/ ٦٠٣-٦٠٤)، كتاب «صلاة العيدين». رقم (٨٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/ ١١٢)، كتاب «الحدود»/ باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠)، كتاب «المساقاة»/ باب أخذ الحلال وترك المتشابه. رقم (١٥٩٩)، واللفظ له.

وقال ﷺ: «**الحَلالُ بَيِّن والحَرامُ بيّن وبَينَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهات لا يَعْلَمَهُنَّ كَثيرٌ مِنِ الناسِ، فَمن اتّقَى الشُبُهَاتِ استَبرأ لِدينهِ وعِرضه...**»(١).

قال ابن رجب: «فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك»(٢).

ويضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة بترك المشتبهات ورعًا وخشية أن تكون حرامًا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنّي لأنْقلبُ إلى أهلي، فأجد التمرةَ ساقطة على فراشي، فأَرْفعها لآكُلها، ثم أَخْشى أنْ تكونَ صدقة فألقيها**»(٣).

قال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»(٤).

النوع الثاني: فرار الأشقياء: وهو الفرار من الله إلى الشيطان، وذلك بارتكاب المعاصي والآثام(٥).

بأي شيء يكون العمل؟

يكون العمل بالقلب واللسان والجوارح.

١- القلب:

القلب ملك الأعضاء وهو أساس الأعمال فلا تصلح الأعمال ولا يكون لها وزن أو قبول إلا به قال ﷺ: «**أَلاَ وَإنَّ في الجَسدِ مُضْغة إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَد كُلّه وإِذَا فَسَدتْ فسَد الجَسدُ كلّه ألاَ وَهِيَ القَلْبُ**»(٦).

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٢٦) كتاب «الإيمان» / باب فضل من استبرأ لدينه. رقم (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠) كتاب «المساقاة» / باب أخذ الحلال وترك المتشابهات. رقم (١٥٩٩) واللفظ له.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٦٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ٨٦) كتاب «اللقطة» / باب إذا وجد تمرة في الطريق. رقم (٢٤٣٢).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥)، كتاب «الإيمان» / باب قول النبي ﷺ: بني الإسلامُ على خمس، وإن أردت الاستزادة فراجع كتاب «الورع» للإمام أحمد.

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٦) سبق تخريجه.

ومما يدل على قدر القلب وعمله وأنه الأساس. أَنَّ المسلم إذا نوى وأراد أن يعمل ثم لم يستطع كان له مثل أجر العامل، فعن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «**إِنَّ بالمدينةِ رجالًا ما سرتُم مسيرًا، ولا قَطَعْتُمْ وادِيًا، إلا كَانُوا معكم، حَبَسَهم المرضُ**». **وفي رواية: إلا شركوكم في الأجرِ**»(١). وفي رواية البخاري عن أنس: «**حبسهم العذر**»(٢).

قال ابن حجر: «وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل»(٣).

ومن أعمال القلب الخوف والرجاء والمحبة... وغيرها.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يقول يومَ القيامةِ: أينَ المُتحابونَ بجلالي، اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**»(٤).

وعن أنس بن مالك: «أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: «**وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا**» قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: «**إِنَّكَ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ**» فقلنا: ونحن كذلك، قال: «**نَعَمْ**» ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا. وفي رواية لمسلم: قال أنس: فأنا أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»(٥).

---

(١) مسلم (٣/ ١٥١٨)، كتاب «الإمارة» / باب ثواب من حبسه عن الغزو عذر. رقم (١٩١١).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٦-٤٧)، كتاب «الجهاد»/ باب من حبس العذر عن الغزو. رقم (٢٨٣٩).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٧).

(٤) مسلم (٤/ ١٩٨٨)، كتاب «البر والصلة»/ باب فضل الحب في الله. رقم (٥٦٦).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٥٣)، كتاب «الأدب»/ باب ما جاء في قول الرجل: «ويلك». رقم (٦١٦٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٢)، كتاب «البر والصلة»/ باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٣٩).

٢- اللسان:

لا شك أن اللسان عمله عظيم فبه يدخل المسلم الإسلام وذلك بنطقه الشهادة وبه يخرج من الدنيا موحدًا بنطقه الشهادة كذلك، قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرَ كَلامِهِ مِنَ الدُّنْيا لا إِلَهَ إلاَّ الله دَخَلَ الجنّة**»(١)، وفيما بين ذلك ذكر الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الأحزاب:٤١-٤٢]. فمن أكثر منه سبق غيره كما قال ﷺ: «**سبق المفردون**» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذَاكِرُون الله كثيرًا والذَاكرات**»(٢).

ولذلك أرشد ﷺ من كثرت عليه شرائع الإسلام إلى الذكر، فقال: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطِبًا بذِكْرِ الله** ﷻ»(٣).

ومن عمل اللسان التسبيح والتحميد والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والموعظة بالتي هي أحسن وغير ذلك.

٣- الجوارح:

أعمال الجوارح كثيرة جدًا كالصلاة والوضوء والصدقة والحج والعمرة والجهاد وإنكار المنكر باليد وغير ذلك من الأعمال، ومن أدلة ذلك:

قوله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحد يتوضأُ فيُسبغُ الوضوءَ ثم يقول: أشهدُ أن لا إلهَ إلاّ الله**

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٤٨٦)، كتاب «الجنائز»/ باب في التلقين. رقم (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال ابن الملقن: «هذا حديث صحيح». «البدر المنير» (٥/ ١٨٩).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٢)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»/ باب الحث على ذكر الله تعالى. رقم (٢٦٧٦).

(٣) أحمد (٤/ ١٩٠)، وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٠).

وأنَّ محمدًا عبدهُ ورَسوله إلاّ فُتِحت لهُ أبوابُ الجنّةِ الثمانِيةُ يَدخلُ من أَيِّهَا شَاء»[١].

وقال ﷺ: «**العُمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لما بينَهُما والحجُّ المبرورُ لَيس له جزاء إلاّ الجنة**»[٢].

شروط قبول العمل:

لقبول العمل شرطان:

١- الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥] والخالص هو الذي لا تشوبه شائبة شرك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[النحل:٦٦].

ومن السنة قوله ﷺ: «**إنَّ الله لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصًا، وابْتُغِيَ به وجهُه**»[٣]. وقوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «**ثلاث خصال لا يغلّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ أبدًا: إخلاص العمل لله**»[٤].

---

(١) مسلم (١/ ٢٠٩-٢١٠)، كتاب «الطهارة»/ باب الذكر المستحب عقب الوضوء. رقم (٢٣٤).

(٢) مسلم (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج»/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. رقم (١٣٤٩).

(٣) «سنن النسائي» (٦/ ٢٥)، كتاب الجهاد/ من غزا يلتمس الأجر والذكر.

قال ابن رجب: «وخرج النسائي بإسناد جيد..». «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨١)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (٦/ ٢٨)، وقال المنذري: «إسناده جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٥).

(٤) أحمد (٥/ ١٨٣)، قال ابن عبد البر: «حديث ثابت». «التمهيد» (٢١/ ٢٧٥)، وقال المنذري: «وروي هذا الحديث عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خشينة، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وبعض أسانيدهم صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/ ٥٤).

٢- **المتابعة**، لقوله ﷺ: «**مَنْ أحدثَ في أَمرِنا هذا مَا ليسَ فيهِ فهو رد**» أي: مردود عليه غير مقبول. وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١).

قال الفضيل بن عياض عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢]. قال أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا والخالص إذا كان لله والصواب أن يكون على السنة(٢).

«فالعمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين»(٣).

أحب الأعمال إلى الله:

كان النبي ﷺ عمله ديمه فإذا عمل عملًا أثبته. بهذا أجابت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت: أي العمل كان أحبَّ إلى النبي ﷺ قالت: الدائم(٤).

وإلى هذا أرشد النبي ﷺ حيث قال: «**أيُّها الناس خُذوا من الأعمالِ ما تُطيقون؛ فإن اللهَ لا يملُّ حتى تملُّوا، وإنّ أحبَّ الأعمالَ إلى الله: ما دامَ، وإنْ قَلَّ**»(٥).

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٠١) كتاب «الصلح»/ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. رقم (٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣) كتاب «الأقضية» / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور. رقم (١٧١٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

(٣) «منهاج السنة» (٦/ ٢١٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦)، كتاب «التهجد»/ باب من نام عن السحر. رقم (١١٣٢).

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ٣١٤)، كتاب «اللباس»/ باب الجلوس على الحصير. رقم (٥٨٦١).

س: العمل الصالح يؤهلنا لماذا؟

العمل الصالح يؤهلنا لرحمة الله تعالى قال ﷺ: «**سَدّدوا وَقَارِبوا وأبشروا فإنهُ لا يُدخل أحدًا الجنّة عملُه**» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال:«**ولاَ أنا إلاّ أن يتغمدَني الله بمغفرةٍ ورحمةٍ**»(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣] فالباء للسبب أي أن العمل سبب للثواب والسبب لا يستقل بالحكم فهو محتاج إلى فضل من الله أكبر منه. فلا بد من العمل المأمور به ولابد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله وشهود العبد لتقصيره ولفقره إلى فضل ربه وإحسان ربه إليه قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون: ينجون من النار بالعفو ويدخلون الجنة بالرحمة ويتقاسمون المنازل بالأعمال»(٢).

وقال عون بن عبدالله: «اليوم المضمار وغدًا السباق والسبقة الجنة والغاية النار فبالعفو تنجون وبالرحمة تدخلون وبالأعمال تقتسمون المنازل»(٣).

الأساليب في الحث على العمل:

كثرت أساليب الحث على العمل وتنوعت لاختلاف النفوس فنفس تتأثر بهذا الأسلوب وأخرى تتأثر بآخر، وثالثة بثالث ومن هذه الأساليب:

١- **الأوامر المباشرة**: والأمر يقتضي الوجوب والوجوب ملزم بالفعل ومن الأوامر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة:٤٣].

٢- **الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع**: من لا يعمل بعلمه لم ينفعه، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، فيقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عِلمٍ لا ينْفَع ومِن**

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٩٤)، كتاب «الرقاق»/ باب القصد والمداومة على العمل. رقم (٦٤٦٧).

(٢) انظر «جامع الرسائل»/ المجموعة الأولى (١٤٥-١٥٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٤٦).

قلبٍ لا يخشعُ، ومِن نفسٍ لا تشْبعُ، ومِن دعوةٍ لا يُستجابُ لها»[(١)]. وفي هذا تنفير شديد من علم لا يحرك صاحبه إلى العمل بقلبه وجوارحه.

٣- كثرة تكرار الاستعاذة من طريق الذين يعلمون ولا يعملون:

نظرًا لشدة قبح حال العالم الذي لا يعمل بعلمه وسوء فعله فإن الله تعالى بعد أن ذكر صراط عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أتبعوا العلم بالعمل، أمر المؤمنين أن يستعيذوا من صراط المغضوب عليهم الذين معهم علم ولم يعملوا به، وهم اليهود ومن شابههم من علماء السوء فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧].

فهذه الاستعاذة يكررها المسلم أكثر من سبع عشرة مرة في اليوم والليلة فلا بد أن تُوجِدَ في القلب الحي الحرص على العمل.

٤- الحث على التعاون على الطاعة:

الاستمرار على الطاعة ليس بالأمر السهل؛ لأن النفس تنشط تارة وتفتر أخرى، ولأجل ذلك أُمِرْنا بالتعاون على الطاعة قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[المائدة:٢]. أي لِيُعِنْ بعضكم بعضًا على فعل الأعمال الصالحة وما يقربكم إلى الله؛ لأن التعاون على الطاعة من أعظم ما يعين على المداومة عليها.

ولأهمية التعاون على الطاعة وضع النبي ﷺ برنامجًا للتعاون داخل الأسرة؛ لأنها هي أصل المجتمع فقال: **«رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قامَ من الليلِ فصلَّى ثم أيقظَ امرأتَهُ فصلّت فإن أبَتْ نضَحَ في وجِهها الماءَ ورحمَ الله امرأةً قامتْ من الليلِ فصلّت ثم أيقظَت زوجَها فصلّى فإن**

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٨) كتاب «الذكر» / باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧٧٢).

أبى نضحت في وجههِ الماء»[١].

٥- ضرب المثل في مدح العاملين وتقبيح العاصين:

للأمثال أهمية كبرى في تقريب المعلومات وتأثيرها على القلوب، ولأجل ذلك حثنا ربنا على تدبرها وتعقلها، وذلك بالثناء على من يعقلها، فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣] وفي وصفهم بالعالمين أكبر مدح وثناء عليهم.

ومن أمثلة مدح العاملين قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة:٢٦٥] فهي إن لم يصبها الوابل الغزير حصل لها طل كاف فليس عليها خطر أن تموت وهكذا المنفق على أجر عظيم في جميع الأحوال. فمن عقل هذا المثل حرص على فعل الطاعات والتزود منها.

ومن أمثلة تقبيح العاصين:

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[الأعراف:١٧٥-١٧٦].

«شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلَّمه العِلْمَ الذي منعه غيره، فترك العمل به واتّبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا -فهمته لا تتعدى بطنه- وأشدها

(١) النسائي (٣/ ٢٠٥) كتاب «قيام الليل وتطوع النهار»/ باب الترغيب في قيام الليل. وأبو داود (٢/ ٧٣)، كتاب «الصلاة» باب قيام الليل. رقم (١٣٠٨) وصحح إسناده النووي. «رياض الصالحين» (٤٠٢) رقم (١١٩١).

شرهًا وحرصًا، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجيفُ القذرةُ والمُرْوِحةُ أحب إليه من اللحم الطري. وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلا هرّ عليه لحرصه وبخله وشرهه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار ا لآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع وهو أن هذا الذي حالته ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهثه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله تعالى والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها ولهفه نظير لهث الكلب الدائم حال إزعاجه وتركه»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

«فهذا المثل وإن كان قد ضُرِبَ لليهود فهو متناوِلٌ من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يَرْعَهَ حق رعايته»[(٢)]. فمن عقل هذين المثلين نفر نفوراً عظيماً من معصية الله مستشعراً أهمية الطاعة والحرص عليها.

٦- بيان ثمرات العمل الصالح:

معرفة ثمرة العمل من أعظم ما يحرك القلوب ويرغبها في أدائه، ولذلك بين الله ثمارًا كثيرة للعمل الصالح في الدنيا والآخرة ومن هذه الثمار:

في الدنيا:

(أ) الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧] «وذلك بطمأنينة قلبه،

(١) «الأمثال» لابن القيم (٢١٥-٢١٦).

(٢) «المرجع السابق» (٢١٤).

وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب»[١].

(ب) محبة الله له:

تشرئب النفوس إلى محبة الله عز وجل، والطريق إليها هو التقرب إلى الله بعمل الصالحات. قال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: «**وَمَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ ممّا افترضْته عليهِ وَما يَزالُ عبدي يتقرّبُ إليّ بِالنَوافِلِ حتى أُحِبَّه**»[٢].

(ج) قذف المحبة له في قلوب الناس: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[مريم:٩٦] فإذا أحبه الله قذف محبته في قلوب الخلق وجعل له القبول في الأرض كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادى جبريلَ إنّ الله يُحِبُّ فلانًا فأحبّهُ فيُحبهُ جبريل فينادي جبريلُ في أهل السماء: إنّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبوهُ فيُحِبُّه أهلُ السّماءِ ثم يُوضعُ لهُ القبولُ في الأرضِ**»[٣].

(د) النجاة من العذاب:

لا ينجي من سخط الله وعذابه إلا طاعته بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والآيات في هذا كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[يونس:٩٨].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٤١)، كتاب «الرقاق»/ باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٦١)، كتاب «الأدب»/ باب المقةُ من الله تعالى. رقم (٦٠٤٠).

وقوله: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾[النساء:١٤٧] ولهذا استقر في نفوس الصحابة أن المعصية سبب العذاب وأن التوبة سبب النجاة، فعندما زلزلت الأرض على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى اصطفقت السرر خطب الناس فقال: «عجلتم لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم»[١]. وفي رواية قالت صفية: «زلزلت المدينة على عهد عمر، حتى اصطكت السرر، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أسرع ما أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم»[٢].

(هـ) زيادة الإيمان:

أكَّد اللهُ هذه الحقيقة في آي كثيرة من كتابه، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الأنفال:٣]، وقال: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[مريم:٧٦].

(و) رضى الله عنهم:

رضى الله عن العبد مرتبة عليا لا ينالها إلا الموفقون، فشعوره برضى الله عنه عند أدائه العمل يجعله حاثًّا الخطى، ومن ذلك: بيعة الصحابة لنبينا محمد ﷺ التي قال الله تعالى عنها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح:١٨].

وحمدُ الرب على النعم. قال ﷺ: «**إنَّ الله لَيَرْضَى عن العبدِ أنْ يأكلَ الأكْلَةَ فيحمدهُ عليها، أو يَشربَ الشربةَ فيَحمدهُ عليها**»[٣].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٣) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢/ ٣٤٢).

(٢) «التمهيد» (٣/ ٣١٨).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٥)، كتاب «الذكر»/ باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب. رقم (٢٧٣٤).

في الآخرة:

أ-عند الموت بسهولة خروج الروح:

وذلك أنه «إذا كان العبد المؤمن في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، ثم يجلسوا منه مد البصر حتى يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقا...»[١].

ب- في القبر:

أما في القبر؛ فإنه «يوسع عليه قبره حتى يكون مَدَّ البصر ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بالخير من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح...»[٢].

جـ- الأمن في موقف القيامة:

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:٨٩].

---

(١) أحمد (٤/ ٢٨٧) وابن منده في «الإيمان» (٣/ ٩٤١-٩٤٤) وقال: «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء بن عازب... وهو ثابت على رسم الجماعة، وروي هذا الحديث عن جابر، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهم»، والبيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٣١٦) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وقال شيخ الإسلام: «وهو حديث حسن ثابت». «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٩٠).

(٢) سبق من حديث البراء.

د- الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة:٢٥]. قال حذيفة رضي الله عنه في إحدى خطبه في المدائن بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: «اقتربت الساعة، وانشق القمر، ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بالفراق، ألا وإنَّ المضمار اليوم، وإن السباق غدًا، وإن الغاية النار، وإن السابق من سبق إلى الجنة»[١].

(٧) حفظ الأعمال:

إذا تذكر المسلم أن عمله محفوظ له لن يضيع منه حتى مثاقيل الذر حرص على الجدّ فيه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧-٨].

(٨) عقد المقارنة بين ثواب المطيعين وعقاب العاصين:

استنكر الله تسوية المطيع بالعاصي والصالح المصلح المتقي بالمفسد فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٥-٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

فلما جمع الله الضدين في موضع واحد تبين الفرق بينهما، والفرق بين نتيجة كل منهما كما يقال: وبضدها تتميز الأشياء.

(٩) السؤال في موقف عصيب:

في الموقف المخيف الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر يأتي السؤال عن العمل فهل أعددنا الجواب؟ عن أبي برزة الأسلمي، عن النبي ﷺ قال: «**لا تَزُول قَدما عبدٍ يومَ القيامةِ**

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٨) رقم (١٦٦٤٨).

حتى يُسأل: عن عمرهِ فيم أفناه، وعن علمه فِيمَ فعل به»[(١)]. فمن استشعر السؤال يوم القيامة أوجب له العمل في الدنيا لعله ينجو.

(١٠) بقاء بعض الأعمال مستمرة بعد الموت:

كون ثواب العمل لا ينقطع عن الإنسان بعد موته يجعله حريصًا على فعله راجيًا استمرار ثوابه، ومن ذلك قوله ﷺ: «**إِذَا ماتَ الإنسانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثة: صَدَقةٍ جاريةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يدْعُو لَهُ**»[(٢)].

فينبغي أن يضرب المسلم بسهم في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة إن استطاع وإلا فواحد منها.

خطورة التفريط وإضاعة الوقت:

الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، قال الله عنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان:٦٣].

فمن الناس من يوفق فيستغل وقته بما ينفع فيفرح إذا وجد الصالحات في صحيفته غدًا، ومن الناس من يضيع ويفرط فيتحسر ويندم على التفريط، ولهذا حذر الله نبيه ﷺ من طاعة المفرطين فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨] قال أبو الجوزاء «فرطًا أي تسويفًا»[(٣)].

وقال تعالى مبينًا خطورة التسويف حتى الموت، ومن ثم القيامة، فيندم حين لا ينفعه الندم ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[القيامة:٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما «يعني الأمل يقول الإنسان:

---

(١) الترمذي (٤/ ٦١٢) كتاب «صفة القيامة»/ باب في القيامة. رقم (٢٤١٧)، وقال: «حديث حسن صحيح». وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٩).

(٢) مسلم (٣/ ١٢٥٥) كتاب «الوصية»/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. رقم (١٦٣١).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٥) رقم (١٩٧).

أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة»(١) وقال «أي سوف أتوب»(٢) وبمثله قال سعيد بن جبير(٣).

وحذر النبي ﷺ من التسويف وتأخير العمل فقال فيما يرويه عنه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه أخذ بمنكبه فقال له: «**كُنْ في الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرِ سَبيل**»، وكان ابن عمر يقول: «إذَا أمسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصّباح وإذا أصْبَحت فلا تَنتظر المساءَ وخُذْ من صحتِكَ لَمرضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكِ»(٤).

ومعنى (أو) أي بل. «فشبَّه النبي ﷺ السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يؤويه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة ومن ثم عقبه بقوله «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» وبقوله «وعد نفسك في أهل القبور» والمعنى استمر سائرًا ولا تفتر فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية»(٥).

وكان لهذه التربية بالغ الأثر على سلفنا الصالح. فحفظوا أوقاتهم وربوا من تحت أيديهم على حفظه.

---

(١) «جامع البيان» (٢٩/ ١٧٧).

(٢) «المستدرك» للحاكم (٢/ ٥٠٩).

(٣) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٢٦) رقم (٢٦٤)، و«جامع البيان» (٢٩/ ١٧٧).

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٣٣)، كتاب «الرقاق»/ باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. رقم (٦٤١٦).

(٥) «فتح الباري» (١١/ ٢٣٤).

ومن الآثار الواردة عنهم في ذلك:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»(١).

وهذا ثمامة بن بجاد السلمي -وكانت له صحبة- يوصي قومه شفقة عليهم لئلا تضيع أوقاتهم فيقول: «أي قوم أنذرتكم سوف أعمل، سوف أصلي، سوف أصوم»(٢).

وعند الموت تتضح الحقائق وتنكشف المغيبات ويعرف الإنسان قيمة الوقت والغبن العظيم في التسويف. فها هو رجل من عبدالقيس يوصي -وهو في مرض موته- بعض أصحابه فيقول: «احذروا سوف»(٣) وفي رواية «أنذرتكم سوف»(٤).

وأما الحسن البصري فيحذر من التسويف مؤكدًا ذلك بقصر العمر ومفاجأة الموت فيقول «إياك والتسويف فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكِسْ في غدٍ كما كِسْتَ في اليوم وإلا يكن لك لم تندم على ما فرطت في اليوم»(٥).

ويؤكد هذه الحقيقة عون بن عبدالله فيقول: «كم من مستقبل يومًا لا يستكمله ومنتظر غدًا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»(٦).

والتسويف من جند إبليس يحارب به الناس ليصدهم عن طاعة ربهم كما روى قتادة

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٣٥)، كتاب «الرقاق»/ باب في الأمل وطوله.

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٥) رقم (١٢)، وانظر «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٢٦).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٥) رقم (١٢٨).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥)، رقم (١١).

(٥) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (٨)، و«اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (١٩٩).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (١٠).

عن أبي الجلد قال: «قرأت في بعض الكتب «إن سوف من جند إبليس»[١]. وفي لفظ: «وجدت التسويف جندًا من جند إبليس قد أهلك خلقًا من خلق الله كثيرًا»[٢].

ومن ابتلي بالتفريط والتسويف عوقب بالجدل الذي يحطم حسناته، ويضيِّع عليه وقته. قال معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل»[٣].

وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل»[٤].

فعلينا أن نحذر من التسويف ونسارع في طلب العلم والعمل به وتعليم الناس الخير قبل الانشغال أو نهاية العمر.

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (٢٠٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٥٥).

(٣) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٥١٠) رقم (٥٨٩) تحقيق رضا نعسان و«شعب الإيمان» للبيهقي (٤/ ٤٣٧) رقم (١٦٩٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢١).

(الثالثة): الدعوة إليه.

....

الدعوة من المسائل الثلاث المرتبطة عند سلف الأمة لا تنفك إحداها عن الأخرى كما يجلِّي ذلك الفضيل بن عياض مؤكدًا ترابطها وفضلها وفضل من قامت به هذه الثلاث فيقول: «عالم عامل معلم يدعى كبيرًا في ملكوت السموات»(١).

وليس التأكيد على ترابطها وفضلها خاصًا بالفضيل بن عياض بل السلف كلهم مجمعون على ذلك كما نقله ابن القيم فقال: «فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا، حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علِم وعمل وعلَّم، فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السموات(٢).

وممن قرر هذه الحقيقة من الأئمة عبدالله بن المبارك وعبدالرحمن بن مهدي، ومحمد ابن النضر، وسفيان الثوري وعبدالملك بن قريب الأصمعي والضحاك بن مزاحم حيث قالوا: «أول العلم النية ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر»(٣).

ولما سئل مالك لم طلبت العلم؟

أجاب بقوله: «لأنفي الجهل عن نفسي ثم لأعمل به، ثم لأنفي الجهل عن غيري».

الدعوة لغة: مأخوذة من الدعاء، وهو: النداء والطلب أي النداء لحث الناس على عمل ما.

---

(١) «سنن الترمذي» (٥/ ٥٠).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٢)، «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٨)، «الجامع» للخطيب (١/ ١٩٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٦).

واصطلاحًا: إبلاغ شرع الله للناس وترغيبهم فيه وتحذيرهم من ارتكاب نواهيه باللسان والأركان.

وعرفها شيخ الإسلام فقال: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا»(١).

وأفردها المؤلف مع أنها من صميم العمل لأمرين:

(١)- **غفلة الناس عنها** وظنهم أنها لا تدخل في صميم العمل، وأن من لازم العبادة بخاصة نفسه فقد أدى العبادة، ولا يضره بعد ذلك من ضل وزاغ عن الهدى، وربما استدلوا على هذا الظن الخاطئ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾[المائدة:١٠٥].

والخطأ في بيان معناها ليس جديدًا ولذلك اضطر أبو بكر رضي الله عنه إلى تصحيح هذا المفهوم كما روى ذلك قيس قائلًا: قام أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾[المائدة:١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ النّاسَ إذا رأوا المنْكَر فلم يُغيروه أَوْشَكَ أن يَعمهم الله بِعقابه**»(٢).

قال أبو العالية قرأت هذه الآية على ابن مسعود ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ فقال ابن مسعود: «ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم. فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٧) وانظر نفس الموضع فقد ذكر ماذا يتضمن التعريف.

(٢) أحمد (١/ ٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٥)، قال شيخ الإسلام: «وفي الحديث الثابت...» ثم ذكر هذا الحديث. «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٧).

(٣) «جامع البيان» (٧/ ٩٤).

قال شيخ الإسلام معلقًا: فابن مسعود قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وما ذكر من باب الحساب والقيامة من باب الخبر[١]. يعني قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

وقال في موضع آخر «وقد غلط فيها فريقان من الناس، فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلًا لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ تضعونها على غير ما وضعها الله...»[٢][٣].

(٢) أهمية الدعوة:

للدعوة أهمية كبرى فبها قوام الأمة وحياتها ولا يمكن أن تحافظ الأمة على دينها وهويتها إلا بالدعوة إلى الله، وبدونها تهوي الأمة إلى الحضيض. فتنتقض عرى الدين عروة عروة حتى لا يبقى منه شيء، فتعود الجاهلية مرة أخرى.

ومما يدل على أهميتها: أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

ولئن كانت الدعوة إلى الله مهمة في أزمنة مضت فإن أهميتها تزداد في هذه الأيام حيث إن أهل الضلال من الكفار وأذنابهم من المنافقين قد شنوا هجمة شرسة منظمة ضد الإسلام وأهله ليستأصلوه طامعين أن يطفئوا نور الله. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) أحمد (١/ ٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

حكم الدعوة إلى الله:

«الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه -أي: محمدًا ﷺ- وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله... فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله... وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية... فكلُّ ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكلُّ ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه»[١].

فهي واجبة لأمرين:

(١) **الأمر**: والأمر يقتضي الوجوب وقد تكاثرت الأدلة من الكتاب والسنة على الأمر بالدعوة إلى الله فجاءت بالأمر المباشر للرسول ﷺ بنفسه كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر:١-٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[الحجر:٩٤].

وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧].

«فهذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في هذا كل أمر تَلَقَّتْه الأمة عنه ﷺ من العقائد والأقوال والأحكام الشرعية»[٢].

فبلَّغ النبي ﷺ البلاغ المبين وشهد له الصحابة بذلك، كما في حجة الوداع، حينما قال: «**ألا هل بلَّغت، اللهم اشهد**»، واستشهد أصحابه، فقالوا: نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.. وشهدت له الأمة كلها بالبلاغ قالت عائشة رضي الله عنها: «من

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٤-١٦٧) بشيء من التقديم والتأخير.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠١).

حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئًا من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]، ولا يجوز أن تترك الدعوة إلى الله حتى وإن وجدت المعوقات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[القصص:٨٧].

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمرٌ لأمته ومع ذلك فقد أمرهم الله أمرًا عامًا، قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران:١٠٤].

قال الزجاج: «ومعنى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ -والله أعلم-: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف»[2].

وقال مكي بن أبي طالب الأندلسي: «(من) هنا لبيان الجنس، والمعنى: ولتكونوا كلكم أمة مستقيمة يدعون إلى الخير... ومثله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[الحج:٣٠]، فلم يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، وإنما المعنى فاجتنبوا الأوثان؛ فإنها رجس، فكذلك لم يأمر بعض المؤمنين بالدعاء إلى الخير دون بعض، إنما أمرهم كلهم، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]»[3].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد» باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ رقم (٧٥٣١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤٥٢).

(٣) «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٠٨٨)، وقد رجحه السمعاني في «تفسيره» (١/ ٣٤٧)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٨٥).

«وفي مطلق قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم»(١)، وذلك أن اللام في قوله: ﴿وَلْتَكُن﴾ لام الأمر، والأمر يقتضي الوجوب، وعطف الأمر بالمعروف على الدعوة من باب عطف المتماثلين «فالدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به واستدعاء له، ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»(٢).

وأمر النبي ﷺ أمته بالتبليغ فقال: «**بَلِّغُوا عَني وَلَوْ آية**»(٣) وقال: «**ألاَ لِيُبَلِّغ الشَاهِد مِنْكُم الغَائب**»(٤) وقال النبي ﷺ: «**ارْجعُوا إلى أَهْليكُمْ فأَقيموا فيهم فعلّموهُم**»(٥) وفي حديث وفد عبدالقيس وفي آخره قال: «**احْفَظُوه وأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ**»(٦).

«فقال في الحديث «ولو آية» أي واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قلَّ»(٧).

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أهمية الدعوة إلى دين الله فخرجوا إلى أصقاع الأرض وهمهم نشر دين الله تعالى، إما بأمره كما بعث النبي ﷺ خاله حرامًا إلى قوم فقال لهم:

---

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٢٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦١).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٩) كتاب «العلم»/ باب ليبلغ الشاهد الغائب. رقم (١٠٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ١١١) كتاب «الأذان»/ باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة. رقم (٦٣١).

(٦) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣-١٨٤) كتاب «العلم»/ باب تحريض النبي ﷺ على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم. رقم (٨٧٤).

(٧) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).

أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم[(١)].

وكما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذًا إلى اليمن، قال: «وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان...»[(٢)].

و بعث أبا موسى الأشعري إلى قومه[(٣)].

وبعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والبراء بن مالك، قال البراء بن مالك: «بعثنا رسول الله مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث عليًّا بعد ذلك مكانه»[(٤)].

وإما باجتهاد منهم، كخروج عبد الله بن مسعود إلى الكوفة، ومعاذ إلى الشام، وذلك لأنهم يستشعرون مسؤولية التبليغ، قال أنس بن مالك: «بلغني أن العلماء يُسْأَلُونَ يوم القيامة كما تسأل الأنبياء يعني عن تبليغه»[(٥)].

ومن ثَمَّ انغرس حبُّ الدعوة والتعليم فيمن بعدهم، وصاروا يربون تلاميذهم على ذلك، قال ابن القاسم: «كنا إذا ودّعنا مالكاً يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه»[(٦)].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠)، كتاب «المغازي»/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٦٣). رقم (٤٣٤٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥)، «كتاب المغازي»/ باب بعث علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤٩).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٣).

(٦) المرجع السابق.

(٢) لأنها ضرورة:

أي لا يمكن أن تسعد المجتمعات وتتمسك بالدين وتنهج النهج القويم إلا بالدعوة إلى الله، وتتجلى ضرورتها بأمرين:

أ- إقامة الحجة على الناس:

بالدعوة إلى الله تقوم الحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

«فأخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسالة»(١). فمهمة الرسل إذًا هي البشارة والإنذار؛ لئلَّا يحتج الناس يوم القيامة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

«دلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال»(٢).

قال شيخ الإسلام «تقرير الحجة في القرآن بالرسل كثير» وذكر الآيتين السابقتين وذكر معهما خمس آيات في نفس المعنى(٣).

ب- حماية المجتمع من الفساد والعقوبة:

يصور النبي ﷺ هذه المعركة الدائرة بين المفسدين وبين الدعاة إلى الله فيقول: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثلِ قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء: مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا: هلكوا جميعًا، وإن**

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٨٦).

(٢) المرجع السابق (١٩/ ٦٦).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٣).

أخذوا على أيديهم: نجوا ونجوا جميعًا»[(١)]. فالمصلحون في الأمة هم صمام الأمان لها وسبب نجاتها من الإهلاك العام فإذا فقدوا حلَّ بها عذاب الله كلها، وإن كان فيها صالحون، ويدل لذلك جواب النبي ﷺ لزينب بنت جحش رضي الله عنها عندما سألته: أنهلك وفينا الصالحون، قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[(٢)]، والخبث هو الفسق والفجور[(٣)].

أقسام الدعاة:

ينقسم الدعاة إلى قسمين:

الأول: دعاة إلى الهدى والصراط المستقيم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم من أهل العلم والبصيرة، كإبراهيم عليه السلام، فإنه دعا أباه إلى الصراط المستقيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[مريم:٤٣]، وكذلك أثبت الله الدعوة إلى الصراط المستقيم لنبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى:٥٢-٥٣].

بل أثبت له الدعوة بشرطها، فقال سبحانه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[الأحزاب:٤٦] «فأخبر الله أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع»[(٤)]، بل قد قال الأنبياء أجمع لأقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

واستن بهم أتباعهم فدعوا الناس إلى الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١٣٢) كتاب «الشركة»/ باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه. رقم (٢٤٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٨١) كتاب «الأنبياء»/ باب قصة يأجوج ومأجوج. رقم (٣٣٤٦).

(٣) «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٨).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر:٣٨].

وتشمل الدعوة إلى الهدى ثلاثة أمور:

١- تأسيس مجتمع إسلامي:

حين يكون المجتمع جاهليًا فلابد من تأسيس مجتمع إسلامي يطهر الأرض من رجس الشرك والوثنية، ويعين المسلمين على التمسك بدينهم وأقوى نموذج لذلك ما فعله ﷺ حيث أسس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة النبوية، ومن ثم اتسع إلى أطراف الأرض.

٢- إصلاح انحراف المجتمعات الإسلامية:

كلما انحرف الناس وابتعدوا عن الدين هيأ الله لهذه الأمة من يجدد ما اندرس من دينها فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهذهِ الأمّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يُجَدد لَها دينَها**»(١).

٣- المحافظة على سلامة المجتمعات:

قد تكون المجتمعات صالحة ولكن مهما كان صلاحها فهي محتاجة إلى الموعظة والتذكير فلقد كان النبي ﷺ يذكر أصحابه ويعظهم موعظة توجل منها القلوب وتذرف منها العيون وكذلك ابن عباس وابن مسعود يعظان الصحابة والتابعين كل خميس، وذلك

---

(١) أبو داود (٤/ ٤٨٠) كتاب «الملاحم»/ باب ما يذكر في قرن المائة. رقم (٤٢٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٢٢٣). رقم (٦٥٢٧)، قال السخاوي «سنده صحيح ورجاله كلهم ثقات... وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث» «المقاصد الحسنة» (١٢٢) رقم (٢٣٨)، وقال السيوطي «اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح» «التنبئة» (٢)، وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده صحيح». «تيسير العزيز الحميد» (٢٤)، وقال الألباني «والسند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم» «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٥٠) رقم (٥٩٩).

لأجل الحفاظ على صلاح المجتمعات؛ لأنه كلما ازداد الإيمان في القلوب صلح الأفراد وإذا صلح الأفراد صلحت المجتمعات.

الثاني: دعاة إلى الضلالة:

وهؤلاء الدعاة قدوتهم وإمامهم إبليس، قال تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص:٨٢]، وقال: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٦٢]، ومن أئمتهم فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[القصص:٤١]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾[هود: ٩٨].

فهم أئمة يقتدى بهم ويسار خلفهم إلى دار الشقاء والعذاب والجحيم والأغلال. ولقد حذرنا منهم نبينا ﷺ لئلا نقع في شباكهم كما في حديث حذيفة عندما سأل النبي ﷺ عن الشر وفيه: «قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّم مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**» قلت: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلمونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»[(١)].

فضل الدعوة إلى الله:

يكفي في فضل الدعوة إلى الله أنها مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام. كيف وقد رتب الله عليها الأجر العظيم المستمر قال ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**»[(٢)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦١٥-٦١٦) كتاب «المناقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٠٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٥-١٤٧٦)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. رقم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٠) كتاب «العلم» / باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة. رقم (٢٦٧٤).

فربما كتب لك أجر القائم الصائم المجاهد المرابط المتصدق وأنت على فراشك أو في قبرك؛ لأنهم اهتدوا على يديك.

ولفضل الدعوة إلى الله ولعظم نفع الدعاة للمجتمع دعا لهم النبي ﷺ بنضرة وجوههم فقال: «**نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فبلّغها**»(١). نضرة في الدنيا والآخرة.

واستحقوا هذه الدعوة لأنهم جملوا باطنهم بالإخلاص وظاهرهم بالطاعة والعبادة، بل زادوا فجملوا عباد الله، وذلك بدعوتهم إلى الاستقامة والعبادة، فناسب أن يدعى لهم بهذه الدعوة المباركة، قال تعالى مبينًا جزاءهم يوم القيامة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾[الإنسان:١١] أي أكرمهم فأعطاهم نضرة في وجوههم وسرورًا في قلوبهم فجمع الله لهم بين نعيم الباطن والظاهر، ولأجل ذلك صارت مرتبة الدعوة بعد مرتبة النبوة، قال ابن المبارك: «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»(٢).

كيفية الدعوة:

لكيفية الدعوة ملامح عامة تندرج تحتها جزيئات كثيرة أكتفي بذكر الملامح العامة، وهي:

١- البداءة بالأهم ثم المهم:

فأهم أمر هو التوحيد ولأهميته بدأت به الرسل دعوتهم، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾[النحل:٣٦].

وجعل النبي ﷺ البداءة به منهجًا للداعية كما في قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إلى أن يوحِّدوا الله** -وفي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٣٨).

رواية- **أوَّل ما تدعوهم إليه عبادة الله** -وفي رواية- **فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإذا عرفوا ذلك؛ فأخبرهم: أنَّ اللهَ فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم...**»[(١)].

٢- مخاطبة الناس كلٌّ بما يناسبه:

الناس من حيث قبولهم للحق وعدمه على أحوال أربع، هي:

أ- القابل للحق.

ب- من كان عنده نوع تلكؤ وتأخر.

ج- المعارض المجادل.

د- المعارض الظالم.

ولما كانوا كذلك اختلف خطاب كل واحد منهم عن الآخر، فصار القابل للحق يدعى بالحكمة، ومن كان عنده نوع تلكؤ وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعارض المجادل يجادل بالتي هي أحسن، والمعارض الظالم يجادل بالغلظة والشدة.

قال ابن القيم: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة»[(٢)].

وذلك أنه يشتد افتقار العبد إلى العظة، وهي الترغيب والترهيب، إذا ضعفت إنابته وتذكره وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٤٧)، كتاب «التوحيد»/ باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم (٧٣٧٢)، ومسلم (١/ ٥١)، كتاب «الإيمان»/ باب الدعاء إلى الشهادتين. رقم (١٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٣).

والعظة يراد بها أمران: الأمرُ والنهيُ المقرونان بالرغبة والرهبة، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة، فيُجَادَل بالتي هي أحسن. فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

فإن أبى إلا الظلم، وإلقاء التهم، والسخرية بالداعي إلى الله، انتقل معه إلى المجادلة بالغلظة والشدة ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وكما قال موسى عليه السلام لفرعون حين سخر منه: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[الإسراء: ١٠٢][١].

٣- جعل الدعوة تيارًا متكاملًا:

وذلك أن كل فرد ينبغي أن يكون له نصيب من الدعوة إلى الله كل بحسب علمه واستطاعته قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[٢] وهو خطاب عام للأمة فكل يبلغ ما يعرف. وفي حديث مالك بن الحويرث: «**ارْجِعُوا إلى أَهْلِيكُمْ فأَقِيموا فيهم فَعَلِّمُوهم**»[٣].

وقال ﷺ مخاطبًا الأمة كلها صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها: «**من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع؛ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٤].

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (١/ ٦٩) كتاب «الإيمان»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٧٨).

ولهذا كان كتمان العلم وعدم نشره معصية كبرى يعاقب عليها المسلم يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من رجلٍ يحفظ علمًا فيكتمه إلا أُتي به يوم القيامة مُلْجمًا بلجامٍ من النار**»(١).

وعقوبة كتمان العلم تقضّ مضجع أبي هريرة رضي الله عنه وتخيفه، فينشره بين الناس حتى لو قيل فيه ما قيل، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثًا ثم يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٥٩-١٦٠] (٢).

«معناه لولا أن الله ذم الكاتمين للعلم ما حدّث أصلًا لكن لما كان الكتمان حرامًا وجب الإظهار»(٣).

وكما حدّث معاذ عند موته خوفًا من الإثم(٤).

من وسائل الدعوة:

وسائل الدعوة كثيرة ومتنوعة ولعلي أقتصر على وسيلتين يستطيعهما كل أحد، وهما:

الأولى: اللسان: اللسان هو الآلة التي يستطيع بها الإنسان أن يعبر عما في نفسه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤] «أي ليبين لهم ما

---

(١) ابن ماجه (١/ ٩٦) «المقدمة» / باب من سئل عن علمه فكتمه، رقم (٢٦١) وحسنه الألباني كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٢١٣) كتاب «العلم» / باب حفظ العلم (١١٨).

(٣) فتح الباري (١/ ٢١٤).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٢٢٦) كتاب «العلم» / باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١٢٨).

يحتاجون إليه ويتمكنون من تعلم ما أتى به بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم»[١].

ولما كانت الإبانة باللسان سأل موسى ربه حين أرسله إلى فرعون أَنْ يحلل عقدة من لسانه لأجل أن يفقهوا قوله حتى يبلغهم رسالة ربه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾[طه:٢٧-٢٨] بل دعا الله أن يرسل معه الرجل الفصيح اللسان ليكون البلاغ أقوى ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

ومن الأساليب ما يلي:

١- الموعظة المباشرة: للموعظة أثر كبير في تربية الناس وصقل قلوبهم، كما في حديث العرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فما تعهد إلينا...[٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧٥).

(٢) أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣)، كتاب «السنة»/ باب في لزوم السنة. رقم (٤٦٠٧) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٤٤)، كتاب «العلم»/ باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع. رقم (٢٦٧٦)، قال: «حديث حسن صحيح»، والدارمي في «السنن» (١/ ٤٥)، «المقدمة»/ باب اتباع السنة. رقم (٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٤٥).

ونقل ابن عبد البر عن البزار قوله: «حديث عرباض بن سارية في الخلفاء الراشدين حديث ثابت صحيح». ثم قال أبو عمر: «هو كما قال البزار حديث عرباض حديث ثابت». «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٨٢). وقال الحافظ أبو نعيم: «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين». «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٧٥٧).

وقال الذهبي عن طريق الدارمي والطبراني: «هذا حديث عالٍ صحيح الإسناد». «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٨٢-٤٨٣).

وينبغي أن يتخول الواعظ الناس بالموعظة كما كان النبي ﷺ يفعل: فعن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»(١).

وكان ابن مسعود يُذكِّر النَّاسَ كل خميس فقال له رجل يا أبا عبدالرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»(٢).

وقال الحسن: «كان يقال: حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا، فاعلم أن لهم حاجات»(٣).

وقد تكون الموعظة فردية وقد تكون جماعية حسب الحال والمصلحة.

٢- استغلال الفرص:

لا ينبغي ترك الفرصة تفوت فربما لا تمر ثانية فلنستغلها، كما استغل الفرصة يوسف عليه السلام عند ما جاءه الرجلان يسألانه عن الرؤيا، فبدأ بالدعوة إلى التوحيد أولاً؛ لأنهما سيستمعان وينصتان له ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف:٣٧-٤٠].

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٢)، كتاب «العلم»/ باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. رقم (٦٨).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٣) كتاب «العلم»/ باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة. رقم (٧٠).

(٣) «سنن الدارمي» (١/ ١١٤) باب/ من كره أن يمل الناس. رقم (٤٤٩).

ثم عبَّر لهما الرؤيا: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾[يوسف:٤١].

وكما فعل النبي ﷺ مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة حيث قال له: «**يَا عَم قُلْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةٌ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله**»(١) وذلك لأن الإنسان إذا انقطع من هذه الدنيا رقّت حاله فصار تفكيره في مآله فناسب أن يدعوه ﷺ لعله أن يهتدي فيموت مسلمًا.

٣- ذكر المحاسن للتنبيه على الخطأ:

من أعظم ما يفتح قلب المدعو لقبول ما تدعوه إليه ذكر بعض محاسنه كما فعل النبي ﷺ مع عبدالله بن عمر، قال عبدالله بن عمر: رأيت على عهد النبي ﷺ كأن بيدي قطعة إستبرق فكأني لا أريد مكانًا من الجنة إلا طارت إليه ورأيت كأن اثنين أتياني أرادا أن يذهبا بي إلى النار فتلقاهما ملك فقال لم ترع خليا عنه. فقصت حفصة على النبي ﷺ إحدى رؤياي فقال النبي: «**نِعْمَ الرّجل عبدُالله لَوْ كَانَ يُصّلي من اللّيلِ**» فَكَانَ عبدُالله رضي الله عنه يُصلّي من اللّيلِ(٢).

قال سالم: فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا(٣).

٤- التودد للمخاطب:

التودد للمخاطب مما يفتح قلبه لسماع ما تلقيه عليه واستجابته لك. وذلك ببيان محبتك له وحرصك عليه ونصحك له أو الدعاء له أو نحو ذلك. عن معاذ بن جبل أن

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٢٢) كتاب «الجنائز»/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله. رقم (١٣٦٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٤٠) كتاب «التهجد»/ باب فضل من تعار من الليل فصلى. رقم (١١٥٦، ١١٥٧).

(٣) مسلم (٤/ ١٩٢٧) كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. رقم (٢٤٧٩).

رسول الله أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إنِّي لأحبُّك، والله إنِّي لأحبُّكَ، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك**»(١).

وعندما استقبل النبي وفد عبد القيس قال: «**مرحَبًا بالقومِ أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى**»(٢).

ولهذا بوب له البخاري بقوله: «باب تحريض النبي ﷺ وفد عبدالقيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم»(٣).

٥- التعليم بصيغة السؤال:

طرح السؤال على السامع يحرك همته لاستيعاب جواب ما يسأل عنه كحديث جبريل المشهور وفيه يا محمد ما الإسلام.. ما الإيمان.. ما الإحسان...

وحديث معاذ بن جبل حينما كان رديف النبي ﷺ قال معاذ: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «**يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...**»(٤).

٦- اللطف في التعليم:

من سمات منهج الأنبياء عليهم السلام اللطف في التعليم والدعوة، ومن ذلك: تلطف إبراهيم عليه السلام مع أبيه حيث كان يقول له: يا أبت يا أبت: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣)، كتاب «العلم».

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٤٧)، كتاب «التوحيد»/ باب ما جاء في دعاء أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم (٧٣٧٣).

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[مريم:٤٢-٤٣]. «وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى فإنه لم يقل: أنا عالم وأنت جاهل أو ليس عندك من العلم شيء وإنما أتى بصيغة أن عندي وعندك علمًا وأن الذي وصل إليَّ لم يصل إليك ولم يأتك فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها»(١).

وها هو نبينا محمد ﷺ يتلطف مع معاوية بن الحكم السلمي فيؤثر فيه تأثيرًا بليغًا فيروي قصته رضي الله عنه قائلًا: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام النَّاس، إنَّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»(٢).

وقال أبو هريرة للفرزدق: «يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرتين فاطلب لهما موضعًا في الجنة»(٣).

ثانيًا: الدعوة بالأركان «القدوة»:

الدعوة بالقدوة أبلغ من اللسان وأقوى وأنفع. وربما كانت أسرع استجابة والنماذج من الدعوة بالقدوة كثيرة منها:

١- لما فرغ النبي ﷺ من قضية الكتاب في صلح الحديبية، قال لأصحابه: «قوموا

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٤٤).

(٢) مسلم (١/ ٣٨١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته. رقم (٥٣٧).

(٣) «المؤتلف والمختلف» (٤/ ١٨٣٣) و«الكامل» لابن عدي (٤/ ٨٧).

فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا»(١).

٢- عن جرير بن عبدالله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤوا عنه حتى رُئي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلًا من الأنصار جاء بصُرَّةٍ من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه فقال رسول الله: «**من سنَّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فعمل بها بعده: كُتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص ذلك من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

وكثير من بلاد المسلمين في شرق آسيا وغرب أفريقيا وجنوبها دخلها الإسلام عن طريق التجار ولم يكونوا علماء وإنما بالتعامل الحسن.

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية:

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية كثيرة من أهمها:

الأول: الاستقامة: الاستقامة هي التزام شرع الله قولًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٣٢) كتاب «الشروط»/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٩) كتاب «العلم»/ باب من سن في الإسلام سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى وضلالة. رقم (١٠١٧).

ولأهمية استقامة الداعية على ما يدعو إليه قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[هود:٨٨] فبيّن عليه السلام أن أفعاله موافقة لأقواله. وهذا من أكبر الدواعي لاتباعه «فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجرّدة»[١].

ونعى الله على قوم يأمرون بالمعروف وينسون أنفسهم فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤].

ونهى عباده عن قولهم ما لا يفعلون، وبيّن أنه من أسباب المقت فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصف:٢-٣].

ومن خالف فعله قوله عوقب بثلاث عقوبات:

الأولى: في الدنيا، فلا تنفع موعظته، ولا يستجاب لقوله. قال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا»[٢]. وبنحوه أجاب عمر بن ذر لما سأله ابنه: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمع البكاء من هاهنا وهاهنا؟ قال: يا بني، ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى»[٣].

أما الثانية: في البرزخ، وذلك بقرض شفاههم بالمقاريض، قال ﷺ: «**لما أسري بي مررت برجال تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباءُ من أمتك، يأمرون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم، وهم يتلُون الكتاب أفلا يعقلون**»[٤].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٤).

(٢) «الزهد» لأحمد (٣٩٠).

(٣) «الزهد» لأحمد (٤٢٧).

(٤) أحمد (٣/ ٢٣١)، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٥٣) رقم (٤١٥٩).

والثالثة: في الآخرة، بيَّنها النبي ﷺ بقوله: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلقُ أقتابُه في النَّار فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١].

الثاني: العلم:

ويكفي في أهمية العلم واشتراطه أنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى شيء لا يعلمه. ولهذا أمر الله نبيه أن يخبر المدعوين أنه على بصيرة وعلم كي يطيعوه ويتبعوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

أي: قل هذه طريقتي أدعو إلى الله فقط[٢]، على بصيرة أي: على يقين ومعرفة أميز بها بين الحق والباطل.

والبصيرة تكون بثلاثة أمور:

(أ) بصيرة بالشرع الذي تدعو الناس إليه.

(ب) بصيرة بحال المدعو: من حيث تعلمه، فربما يحتاج إلى مناقشة وجدال، فيستعد لذلك، ويستحضر الحجج والبراهين، أو غير متعلم فيكتفي بإبلاغه بالحق وبيانه له[٣].

ويدل له وصية النبي ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن حيث قال له: «**إنَّكَ تَقْدُمُ على قَوْم أهلِ الكتابِ فَليكُن أوّل مَا تَدْعُوهم إليهِ عِبادةُ الله...**»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣١) كتاب «بدأ الخلق»/ باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم (٣٢٦٧).

(٢) قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب «فيه التنبيه على الإخلاص لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه». كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٣٨).

(٣) انظر: (٨٣-٨٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٢٢) كتاب «الزكاة»/ باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة. رقم (١٤٥٨).

ومن حيث معرفة الواقع الذي يعيش فيه وما فيه من انحراف كي يعالجه.

ومن الأمثلة على ذلك:

كانت بغداد في زمن الإمام أحمد بن حنبل تموج بثلاث بدع هي:

١- الإرجاء.

٢- الرأي.

٣- الأشربة.

فقاومها الإمام أحمد أشد المقاومة وأعاد الناس إلى الحق. **فألف ثلاثة كتب هي:**

(١) كتاب الإيمان. ليرد به على المرجئة.

(٢) كتاب المسند. وكان يفتي بفتاوى الصحابة والتابعين ليرد بذلك على أصحاب الرأي.

(٣) كتاب الأشربة. ليرد على من يستحل النبيذ.

(ج) بصيرة بكيفية الدعوة، من حيث ترتيب الأولويات، والتوازن في عرض الحق وبيانه.

وأما كيفية ترتيب أولويات الدين فبينها النبي ﷺ بقوله لمعاذ: «**فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحدُوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أن اللهَ افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيّهم فتردُّ على فقيرهم**»[1]. وأما من حيث التوازن في عرض الحق وبيانه: فيرشدنا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقول: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس

(١) سبق تخريجه.

من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله»[١].

(أنا ومن اتبعني) أي أن النبي ﷺ وأتباعه هم الدعاة إلى الله على بصيرة. قال ابن القيم: «ومن اتبعني إنْ كان عطفًا على الضمير في أدعو إلى الله، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله»[٢].

الثالث: الرفق والحلم والتسامح:

من أعظم ما يجمع قلوب الناس على الداعية رفقه بهم وحلمه وتسامحه وصفحه عن زلاتهم وأخطائهم قال الله تعالى مخاطبًا نبيّه محمدًا ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[آل عمران:١٥٩].

أي: برحمة من الله لك ولأصحابك أن منَّ الله عليك بأن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك ورفقت بهم وحسنت لهم خلقك وكثر احتمالك لهم وصبرك عليهم فلم تعجل بالغضب عليهم فيما كان منهم من خطأ فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك ولو كنت سيء الخلق قليل الاحتمال قاسي القلب لنفروا منك وأبغضوا دينك ثم وجهه الله إلى أمرين بهما يجتمع الناس على الداعية بعد الرفق وهما العفو والإحسان فقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وانظر إليه ﷺ حتى مع أعدائه. عندما فتح مكة عفى عن قريش الذين حاربوه أشد الحرب وعادوه أشد العداء وأخرجوه وآذوه وعذبوا أصحابه ومع ذلك عفا عنهم، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه مع من تكلم باتهام عائشة رضي الله عنها، كما في خبر عائشة في حديث

(١) «الزهد» لأبي داود (١١١).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٥).

طويل وفيه: «فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ: وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور:٢٢] قال أبو بكر بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها أبدًا»[١].

أقسى الأشياء إيلامًا للنفوس وأشدها إحراقًا للأفئدة هو الكلام في العرض فعائشة رضي الله عنها لم ترقأ لها دمعة منذ أن سمعت تلك التهمة الآثمة، وأمها أم رومان لما سمعتها خرت مغشيًا عليها[٢]، والرسول ﷺ عاش في غم وهم حتى نزلت براءة زوجه عائشة رضي الله عنها، وأما أبو بكر فقد احترق فؤاده مما قيل في ابنته حتى حلف ألّا ينفق على من تكلم فيها مع قرابته له. ومع ذلك كله عفا عنه لما رغبه الله بالعفو عنه.

وهذا أحمد بن حنبل عفا عمن ظلمه فعفا عن المعتصم وقال ما خرجت من داره حتى جعلته في حل. وعفا عن الجلادين الذين جلدوه جلدًا يهد الفيلة فقال: «جعلت المعتصم ومن تولى ضربي ومن غاب ومن حضر في حل»[٣].

وتبعهم شيخ الإسلام ابن تيمية فعفا عمن ظلموه، ولم يكتف بالعفو، بل دافع عنهم، قال ابن مخلوف قاضي المالكية: «ما رأينا مثل ابن تيمية حرَّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٥) كتاب «التفسير»/ باب لولا إذا سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. رقم (٤٧٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٨٢) كتاب «التفسير»/ باب لولا فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. رقم (٤٧٥١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٤-٣٤٥) و«حلية الأولياء» (٩/ ٢٠٤).

علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[١].

وقال أيضًا: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنات في السعي فيه ولما قدر علينا عفا عنا»[٢].

الرابع: الصبر وعدم الملل:

الدعوة إلى الله شاقة وعسيرة وأشق منها ألّا يجد من يجيب دعوته، بل يتهمه بسوء النية والتصرف، ولهذا كان الله يسلي نبيه ﷺ عندما آذاه قومه مبينًا له أن هذه سنة جارية فيمن سبقه ولكن النصر مع الصبر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾[الأنعام:٣٤] وقال سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[فصلت:٤٣]. ما أعظم وأعجب صبر نوح عليه السلام فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو ينوع الطرق والأساليب[٣] لعلها تنفع ولم ييأس إلا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. عند ذلك دعا عليهم.

والقدوة في الصبر هم أولوا العزم، ولذلك أمر الله نبيه بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥].

وصبر نبينا محمد ﷺ وعدم ملله نموذجٌ حيٌّ للدعاة إلى الله فهو من أول يوم يدعو إلى التوحيد ويحذر من الشرك واستمر حتى آخر عمره يحذر منه قائلًا وهو في سكرات الموت: «**لعنة الله على اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يُحذِّر ما صنعوا[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٤).

(٢) «العقود الدرية» (٢٨٣).

(٣) انظر سورة نوح فقد ذكر الله الأساليب التي استعملها نوح في دعوته.

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٤) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣ و٣٤٥٤)، ومسلم (١/ ٣٧٧) كتاب «المساجد»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور =

الخامس: التفاؤل والثقة بنصر الله:

كان النبي ﷺ عظيم الثقة بربه وبنصره للمؤمنين، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم ولا أبلغ في ذلك من ثقتهم بنصر ربهم لهم يوم الأحزاب حين تحزبت ضدهم حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ومع ذلك كله لم تتزعزع ثقتهم بالله وبنصره قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢].

«قال ابن عباس وقتادة يعنون قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤] أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال وصدق الله ورسوله ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانًا بالله وتسليمًا أي انقيادًا لأوامره وطاعة لرسوله»[(١)].

السادس: الشجاعة في إظهار الحق والانتساب إليه:

الشخص المصاب بالهزيمة الداخلية لا يمكن أن يدعو الناس إلى ما عنده فإذا ما شعر أنه الأعز، وأنه الأعلى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]؛ لأنه يستمد العزة ويبتغيها ويطلبها ممن يملكها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨]، مقتديًا بنوح عليه السلام الذي لم يأبه بسخرية قومه المشركين الضالين، وإن كانوا علية القوم، بل قال لهم كما قال الله عنه: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا

=

فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣١).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٤).

﴿تَسْخَرُونَ﴾[هود: ٣٨]. فاستطاع أن يعطي الناس ما عنده ويدعوهم إليه، لشعوره أن معه الحق، وأن غيره ليس معهم إلا الباطل المحض.

داعياً إلى دين الله منتسباً إليه مفتخرًا به قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

(**ومن أحسن قولًا**) استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن كلامًا منه ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق هذه الكلمة ومع استسلامه لله الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ وبيان الدين للناس.

السابع: عدم استعجال النتائج:

من أعظم آفات الدعاة استعجال النتائج فمنهم من يريد أن يرى نتائج دعوته في حياته فإذا لم يرها استعجل وتنازل عن بعض دينه ظانًا أن هذا التنازل سيعجل له النصر، ولأجل ذلك خاف النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم من الاستعجال فحذرهم وصبّرهم على ما ينالهم من الأذى ثم بشرهم بعد ذلك بالنصر فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرَّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخافُ إلا الله والذِّئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون**»(١).

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣١٥) كتاب «الإكراه»/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر. رقم (٦٩٤٣).

الثامن: الثبات:

الثبات ضد الزوال. وهو الاستمرار على الشيء مع التمكن فيه دون تحول عنه.

والثبات على دين الإسلام أعظم المطالب؛ لأن به سعادة الدنيا والآخرة ولهذا امتن الله تعالى على عباده عمومًا بتثبيتهم عليه فقال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[إبراهيم:٢٧].

وخص بهذه المنة أكرم خلقه رسوله محمدًا ﷺ فقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٧٤].

فإذا كان هذا رسول الله فكيف بغيره. ولقد استشعر النبي ﷺ شدة افتقاره إلى ربه وحاجته إلى تثبيته، فكان من دعائه: «**اللهمَّ إني أسألك الثبات في الأمر**»(١)، وكان ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشّهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ**»(٢). قال النووي قوله ﷺ: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق**» معناه أي ثبتني عليه كقوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾(٣).

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٧٦) كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤)، كتاب «السهو»/ نوع آخر من الدعاء، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٣١٠) رقم (١٩٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٨٨)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال ابن رجب: «وله طرق متعددة عن شداد» حديث شداد بن أوس: «إذا كنز الناس الذهب والفضة» (١٥)، وقال الشوكاني: «رجال إسناده ثقات». «نيل الأوطار» (٢/ ٢٩٥).

(٢) مسلم (١/ ٥٣٤)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٥٧).

ولأهمية الثبات وصّى النبي ﷺ المسلمين بالثبات على الدين عندما تنزل بهم فتنة المسيح الدجال فقال «**يا عباد الله فاثبتوا**»(١).

ولقد سطر لنا التاريخ ثبات العلماء على الدين وعدم تنازلهم بمداد من نور فصاروا تيجانًا للأمة تفخر بهم، ويقتدي بهم من جاء بعدهم ومن ذلك:

١- هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا بدينهم من أذى قريش ولكن قريشًا لحقتهم في مهاجرهم طامعة في صدهم عن دينهم. فطلبوا من النجاشي أن يسلمهم إليهم فأبى. فأراد عمرو بن العاص أن يوقع بينهم وبين النجاشي فقال إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا فادعهم فليخبروك بما يقولون في عيسى.

هنا جاء الاختبار الصعب الذي لم ينزل بهم مثله قط. فماذا اختاروا؟

أيتنازلون عن شيء من دينهم لإرضاء قوم هم في ملكهم وتحت سلطانهم؟ أم يثبتون على دينهم وليكن ما يكون.

فاختاروا الثبات على المبدأ. قال ابن إسحاق قالت أم سلمة «ولم ينزل بنا مثلها قط فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا محمد ﷺ «هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال وإن نخرتم والله»(٢).

٢- المثال الثاني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رمز عالٍ للثبات على المبدأ وعدم التنازل عنه مهما كلفه ذلك من تضحيات.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥)، كتاب «الفتن»/ باب ذكر الدجال وصفته وما معه. رقم (٢٩٣٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٠).

ظهر ذلك جليًا عندما ادلهم الخطب وعصفت الفتنة الهوجاء بالمسلمين كي يقولوا بأن القرآن مخلوق، فإذا به يمتنع عن قول الكفر فيأتوه بأسلوب الترهيب فيتوعدونه بالقتل ويحمل على الراحلة مقيدًا حتى كاد أن يسقط منها مرارًا. ويسجن ثمانية وعشرين شهرًا ولكنه لم يبال بالحبس وكان يقول لست أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد. وجلد وضرب أكثر من ألف سوط من خلفه وقدّامه وأصاب الضرب وجهه وبقي وجع الضرب ثلاث سنين قال شاباص الثابت: «لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا لو ضربتها فيلًا لهدته»(١).

وكان المعتصم إذا عجز عنه أن يجيبه بالضرب والقوة جاءه بأسلوب الترغيب فيقول له «يا أحمد والله إني عليك لشفيق كشفقتي على هارون ابني فأجبني، والله لوددت أني لم أكن عرفتك يا أحمد، الله الله في دمك فلما كان في آخر ذلك قال لعنك الله لقد طمعت أن تجيبني» فلما لم يجبه الإمام أحمد إلى ما طلب قال: خذوه واسحبوه وأمرهم بجلده بكل قسوة وهمجية حتى كان يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربه سوطين ثم يتنحى ويقول للجلاد شد عليه قطع الله يدك، فلما خشي أن يموت من الضرب أسلمه إلى أهله.

قال الذهبي: «ترك أحمد عند الإياس منه»(٢).

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الإمام صار مثلًا سائرًا يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صار اسم الإمام مقرونًا باسمه في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد. لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة:٢٤] فإنه أعطي من الصبر واليقين ما

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٩/ ١٩٧-٢٠٤)، «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (٣٠٨-٣٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧-٣٠٠)، و«محنة الإمام أحمد بن حنبل» للمقدسي.

يستحق به الإمامة في الدين. وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة، والوزراء والسعاة والأمراء، والولاة من لا يحصيهم إلا الله. فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره، وبالترغيب في الرئاسة والمال ما شاء الله. وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبرار، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره. ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين. ولهذا قال بعض شيوخ الشام: لم يظهر أحد ما جاء به الرسول ﷺ كما أظهره أحمد بن حنبل»[(١)].

أما المثال الثالث:

فهو ذلك الجبل الأشم شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية رحمه الله الذي فتح عينيه على المجتمعات الإسلامية وقد عجّت بالانحرافات من كل جانب ما بين متفلسفة ومتكلمة، وصوفية مشركة وباطنية زائغة فصدع بالحق جاهرًا به. ولكن أهل البدع من العلماء والقضاة لم يرضوا بقوله فحاولوا إسكاته، فعقدوا له المناظرات فغلبهم بالحجة والبيان. فكتبوا له ألفاظًا اقترحوها عليه وهددوه بالقتل إن لم يكتبها فلم يجبهم وحاولوا إلزامه بالرجوع عن بعض العقيدة فلم يوافقهم.

فنادوا في البلد على بطلان عقيدته وأشاعوا أنه رجع عنها وزَوَّرُوا عليه عقيدة محرفة ونودي عليه ألّا يستفتى، وسجن مرات عديدة كان مجموعها سبع سنين ومع ذلك كله كان «ثابت الجأش قوي القلب واثقًا بالنصر الإلهي لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعول عليه».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٣٩).

عند ذلك قرروا نقله إلى الإسكندرية لعل أحدًا أن يقتله فلما أرادوا الذهاب به جاءه إنسان فقال له هذا مقام الصبر فقال بل هذا مقام الحمد والشكر. والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ولو أن معي في هذا الموضع ذهب وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها.

وبعد عام من سجنه تكلم الفقهاء والقضاة بإخراج الشيخ، ولكن ليشترطوا عليه أن يرجع عن بعض العقيدة فأرسلوا إليه من يحضره من السجن ليكلموه فأبى أن يحضر وتكرر الرسول ست مرات وصمم على عدم الحضور. وكان وهو مسجون يكتب الرسائل والردود ومات وهو محبوس في سجن القلعة بسبب فتواه حول شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولم يتنازل عن شيء من دينه يراه حقًا[1].

(١) انظر «العقود الدرية»، و«ناحية من حياة شيخ الإسلام» بقلم خادمه إبراهيم العياشي.

(الرابعة): الصبر على الأذى فيه.

....

الصبر لغة: المنع والحبس.

اصطلاحًا: هو حبس النفس على الطاعة وعن المعصية والجزع.

فأما حبس النفس على الطاعة فهو بحملها ومجاهدتها على فعل الطاعة فلا يتركها وأما عن المعصية فهو بكفها ومجاهدتها ومنعها عن ارتكاب المعصية، فلا يفعلها.

وأما عن الجزع، فهو بكفها عن التسخط والشكوى لغير الله، ولطم الخدود، وشق الجيوب فيكون منعها من الجزع باللسان والأركان.

«فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور وترك السيء المحظور ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر على البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر»[١].

حكم الصبر: «الصبر واجب باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»[٢].

حقيقة الصبر: «النفس فيها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره»[٣].

مقابل الصبر: يضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٦١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

(٣) «عدة الصابرين» (١٦).

النعمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج:١٩-٢١][(١)] قال البخاري: هلوعًا: ضجورًا[(٢)]. وقال أبو عبيدة: الهُلاع مصدره وهو أسوأ الجزع[(٣)].

والسبب في ذلك كله قلة صبره أو انعدامه. **ومن لم يصبر فلابد أن يشتكي والشكوى نوعان:**

١- شكوى المبتلى لغير الله: فهذه تضاد الصبر وتبطله وهي من الجزع؛ لأنه يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، يشكو الخالق إلى المخلوق.

٢- شكوى المبتلى إلى الله: فهذه لا تنافي الصبر كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام إنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]، وعن أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]؛ لأنها افتقار إلى الله وعبودية له.

الباعث على الصبر:

يجب على المسلم أن يصبر، ويعلم أنه لا ينتفع بالصبر إلا إذا كان الباعث عليه ابتغاء وجه الله. قال تعالى بعد أن ذكر صفات عباده المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ الآية [الرعد:٢٢].

أي «والذين صبروا على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد عنها وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاء وجه

---

(١) «عدة الصابرين» (٢٧٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥١١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

(٣) «مجاز القرآن» (٢/ ٢٧٠).

ربهم، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة فإن هذا هو الصبر النافع الذي هو من خصائص أهل الإيمان»[(١)].

أنواع الصبر:

أنواع الصبر ثلاثة هي:

الأول: الصبر على طاعة الله:

الصبر على الطاعة يكون بالإخلاص فيها ووقوعها على مقتضى العلم وهو متابعة الكتاب والسنة والمداومة والاستمرار عليها إلى أن يلقى الله، فالعبد محتاج إلى الصبر على الطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[الإنسان:٢٤-٢٦] وكل هذه لا تتأتى إلا بالصبر، ولهذا لما امتن الله على نبيه ﷺ بإنزال القرآن أمره بالصبر.

وقال تعالى عن الأمر بالصلاة المفروضة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢] فالصلاة وبخاصة صلاة الفجر تميل النفس وقتها إلى النوم والراحة فيحتاج العبد إلى صبر للقيام إليها وأدائها.

وكذلك إخراج الزكاة لابد فيه من صبر لقوة شهوة المال وتغلغل محبته في النفوس وكذلك الجهاد فإن فيه قطع الرقاب ونفاد الأموال ولذلك يجب على العبد أن يصبر على الطاعة في أحوالها الثلاث:

١- **قبل العمل**: أي قبل الابتداء به بتصحيح النية والإخلاص والبعد عن دواعي الرياء والسمعة وعقد العزم على أداء العمل كما يرضي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[هود:١١] فقرن بين الصبر والعمل

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧١) بشيء من الاختصار.

الصالح وقدم الصبر عليه في اللفظ لأنه لا عمل صالح إلا بالصبر ولا عمل صالح إلا بنية صالحة. قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ**»[١].

وقد بدأ البخاري «صحيحه» بهذا الحديث ليبين أهمية تصحيح النية قبل العمل.

٢- حال العمل: فيلازم استصحاب النية الصالحة المخلصة لله حال عمله، والصبر عن دواعي التقصير القلبية والبدنية. لئلا تغير نيته فتنقلب إلى غير الله فيحبط عمله، أو يؤدي العمل على غير السنة فيحبط العمل أو ينقص الأجر قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[البينة:٥]، فمخلصين حال؛ أي: ما أمروا إلا ليعبدوا الله حال كونهم مخلصين له عملهم.

فمن أشرك مع الله تركه الله وشركه، قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢].

فلا بد من الإخلاص مع الاستمرار في العمل والاجتهاد فيه.

٣- بعد الفراغ من العمل:

وذلك بأمرين:

أ- أن يصبر عن الإتيان بما يبطل العمل:

والإتيان بما يبطل العمل ويحبطه باب خطير ينبغي التنبه له لأن: «محبطات الأعمال أكثر من أن تحصر وليس الشأن في العمل إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه»[٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[محمد:٣٣]، قال قتادة:

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٩) كتاب «بدء الوحي»/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم (١).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٨٩) كتاب «الزهد والرقائق»/ باب من أشرك في عمله غير الله. رقم (٢٩٨٥).

(٣) «الوابل الصيب» (٢٩) وقد أطال في بيان ذلك فراجعه إن شئت.

«من استطاع منكم أن لا يبطل عملًا صالحًا عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله فإن الخير ينسخ الشر وإن الشر ينسخ الخير وإن ملاك الأعمال خواتيمها»(١).

ومن ذلك: **إبطال الصدقة بالمن والأذى** قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[البقرة:٢٦٤].

ومن ذلك: **حبوط العمل برفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ**: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[الحجرات:٢] وبرفع الصوت فوق سنته بعد مماته. وذلك بردها وعدم قبولها.

ومن ذلك: **العُجْبُ بالعمل والتكبر والتعاظم بسببه**، فإن هذا أضرُّ على العبد من كثير من المعاصي الظاهرة كما وقع للرجلين المتآخيين من بني إسرائيل حيث كان أحدهما عابداً والآخر عاصياً فرآه على ذنب استعظمه فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة فقال الله ﷻ: «**من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**»(٢)، وفي رواية أبي هريرة في آخرها: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»(٣).

قال السعدي معلقًا على هذا الحديث: «والإقسام على الله في الغالب من باب العُجْبِ بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه ولا يتم الإيمان حتى يَسْلَمَ من ذلك كله»(٤).

ومن ذلك: **تنقص الآخرين واتهامهم: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»**(٥)،

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ٦٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٢٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله. رقم (٢٦٢١).

(٣) أبو داود (٥/ ٢٠٧)، كتاب «الأدب»/ باب النهي عن البغي. رقم (٤٩٠١).

(٤) «القول السديد» (١٥٣).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٢٤) كتاب «البر والصلة»/ باب النهي عن قول هلك الناس. رقم (٢٦٢٣).

فمن تنقص الناس هلك، وذلك لأنه يتهم الناس ويزكي نفسه وهذا يقوده إلى العجب بعمله فيحبط عمله والعياذ بالله فيكون أهلكهم، فلا أبلغ من هذا التحذير.

وكان السلف يحاسبون أنفسهم وينأون بها عن العجب.

قال مطرف بن عبدالله: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا»[١].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية إذا أثني عليه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدّي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي[٢]

واسمع إلى ابن القيم كيف يهضم نفسه، فيقول:

بُنَيُّ أبي بكر كثيرٌ ذُنوبُه ... فليس على مَنْ نال من عرضه إِثْمُ
بُنَيُّ أبي بكر جهولٌ بنفسه ... جهولٌ بأَمْرِ الله أَنَّى له العِلْمُ
بُنَيُّ أبي بكر غدا متمنيًا ... وصالَ المعالي والذنوبُ له هَمُّ[٣]

ب- أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية:

لا شك ولا ريب أن كون العمل سرًا أدعى للقبول وأبعد عن العجب والتعاظم، وأقرب إلى الإخلاص وأعظم للأجر فهاهم السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم اثنان أخفيا أعمالهما وهما: «رجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه... ورجل

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٦٢).

(٣) «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧١).

تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»[(١)]، ولذلك يخطئ بعض الناس عندما يعمل الصالحات بينه وبين ربه ثم يصبح يتحدث للناس بها.

قال سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يحب أن يحمد عليه، فينسخ من العلانية فَيُثْبَتُ في الرياء»[(٢)].

«فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل»[(٣)].

ومن الصبر على الطاعة «**الصبر على مشاق الدعوة**».

من أشق الواجبات واجب الدعوة إلى الله لكثرة من يحارب الداعية من الملأ ومعهم الدنيا بإعلامها وتعليمها وأسلحتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قلة النصير والمعين. بل ووجود المثبطين وهم كثر، فلهذا يحتاج الداعية إلى الصبر. كيف والله أمر نبيه بالصبر وبين له القدوة في ذلك فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، فكان ﷺ قدوة الصابرين بجميع أنواع الصبر.

وقرن الله التواصي بالحق بالتواصي بالصبر كما في سورة العصر لأنه لا قيام للحق إلا بالصبر.

وهذا السر فيما ذكره الله عن لقمان حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من الأذى بعد وصيته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[لقمان:١٧].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ١١٢) كتاب «الحدود»/ باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٠-٣١).

(٣) «عدة الصابرين» (٦٧).

ويوضحه قصة الراهب الذي صبر حتى قتل. وكذلك الغلام وصبره حتى قتل، بل إخباره الملك بكيفية قتله لعلمه أن ذلك سبب لإيمان الناس[١].

ومن مظاهر مشاق الدعوة ما يلي:

١- الإعراض من المدعوِّين:

الإعراض من المدعوين من أعظم ما يشق على نفس الداعية حيث يقابلون نصيحته لهم وشفقته عليهم بالإعراض عنه مع أنه لا يريد منهم جزاءًا ولا شكورًا. قال تعالى واصفًا قوم نبينا محمد ﷺ في إعراضهم عنه حينما دعاهم لدين الله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[فصلت:٤-٥]، فأعرضوا عنه مستكبرين عن سماع ما يدعوهم إليه، ثم اعْتَلُّوا بأن القلوب مغلفة عليها الأغطية لا تفقه ما يقول، وآذانهم فيها صمم، فلا يسمعونه وهو يحدثهم من كراهتهم لما يقول.

وها هو نوح عليه السلام يشكو حاله مع قومه وإعراضهم عنه إلى ربه فيقول كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[نوح:٥-٧].

فهل بعد هذا الإعراض إعراض فلا يريدون أن يسمعوا له قولًا فيضعون أصابعهم في آذانهم. ولا أن يروا له وجهًا فيغطون وجوههم بثيابهم.

٢- الأذى بالقول والفعل:

من أشق ما يصيب الداعية المخلص المحب للخير الذي يمحض النصح للناس أن

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١)، كتاب «الزهد»/ قصة أصحاب الأخدود. رقم (٣٠٠٥).

يتهم بما ليس فيه مع أنه يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومن ذلك اتهام الملأ للرسل عليهم السلام بالجنون والسحر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾[الذاريات:٥٢].

وقد لا تقف الأذية عند اللسان فقط فربما امتدت إلى الأموال فنهبتها وإلى الأبدان فعذبتها وإلى الحريات فسلبتها وإلى الأنفس فقتلتها قال تعالى: ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[آل عمران:١٨٦].

ونماذج الأذية الواقعة على عباد الله الصالحين كثيرة، كما وقع لصهيب وبلال وعمار وخبيب، ومن بعدهم من أهل العلم والصلاح كسعيد بن المسيب فقد ضربه عبدالملك بن مروان مائة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شات وألبسه جبة الصوف. ومالك بن أنس ضربه المنصور سبعين سوطًا في يمين المكره وعبدالرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج أربعمائة سوط ثم قتله وأحمد بن حنبل سجن ثمانية وعشرين شهرًا وجلد حتى انفتقت خاصرته واندلقت أمعاؤه[١] وغيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلاج ذلك كله هو الصبر حيث أرشد الله المؤمنين إليه بقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾[آل عمران: ١٢٠]، بل أرشد إليه نبيه ﷺ على وجه الخصوص بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المزمل:١٠].

وبه عالج الرسل عليهم السلام أذية أقوامهم، قال تعالى ذاكرًا قولهم لأقوامهم ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم:١٢]؟

---

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٢-٣٤٣)، و«المحن» لأبي العرب التيمي.

٣- استبطاء النصر وعدم الصبر على طول الطريق:

جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لأوليائه المخلصين قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[المجادلة:٢١].

وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر:٥١].

ولكن النصر والرفعة والتمكين لا يكون إلا بعد النصب والتعب والمشقة والعناء والمحن المتعاقبة والزلازل الشديدة والبأساء المفزعة كما وقع للصحابة رضي الله عنهم عام الأحزاب.

قال تعالى مبينًا هذه الحقيقة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤].

أي أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من الشدة والفظاعة فمستهم البأساء والضراء أي الفقر والأمراض في أبدانهم وأزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة التي تكاد تهد الأرض وتدك الجبال حتى انتهى أمرهم من الشدة إلى أن قال (الرسول ﷺ) وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم الأثبت بعده العازمون على الصبر الموقنون بوعد الله ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استبطاءً له واستطالة لمدة الشدة والعناء.

وعالج النبي ﷺ بالصبر الشدة واستبطاء النصر عندما شكا إليه أصحابه قائلين: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فأجابهم قائلًا: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرَّجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدُّهُ ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ والذِّئب على غنمه، ولكنَّكم**

تستعجلون»[(١)]، فبين لهم خطأ الاستعجال وأنه لا بد للمسلم من الصبر الذي يعصمه منه.

الثاني: الصبر عن معصية الله:

ركبت في بني آدم الشهوة وزينت له بكل أصنافها قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾[آل عمران: ١٤].

فمحبة الدنيا والنساء والذرية قد تطغى على الإنسان فيرتكب المحرم لأجلها، وقد يعبد الدرهم والدينار لسبب فرط محبته له، فيحب له، ويبغض من أجله، ويحرص على جمعه بأي طريق، سواء كان مباحًا أو محرمًا ثم يمنع حق الله فيه.

وقد تدفعه محبة ذريته إلى أن يترك ما أوجب الله عليه من أجلهم أو يعصي الله لأجل إرضائهم وقد تطغى الشهوة الجنسية للإنسان فيرتكب المعصية ويزني فيرتفع الإيمان فوقه كالظلة.

وعلاج ذلك كله بالصبر عن هذه المعصية أو تلك، فينجو بنفسه ولذلك كان حكمه الوجوب قال شيخ الإسلام: «وأما الصبر عن المحرمات فواجب وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها قال تعالى: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ**﴾[النور: ٣٣] والاستعفاف: هو ترك المنهي عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبره الله، وما أعطى أحدٌ عطاءً خيرًا، وأوسع من الصبر**»[(٢)(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٣٥)، كتاب «الزكاة»/ باب الاستعفاف عن المسألة. رقم (١٤٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧٤).

ومن أمثلة الصبر عن المعصية: صبر يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز فصبر عن المعصية مع قوة الدواعي لها: «فإنه كان شابًا -عزبًا- غريبًا- مملوكًا والمملوك ليس وازعه كوازع الحر -والمرأة جميلة- ذات منصب وهي سيدته - وقد غاب الرقيب -وهي الداعية له الحريصة على ذلك- التهديد بالسجن، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله»[1].

وكما صبر الربيع بن خُثيم وقد لقيته المرأة في مكان لا يراهما أحد. وذلك أن الربيع كان يمر على شباب لاهين فينصحهم ويذكرهم فأتوا إلى غانية وقالوا لها نريد قُبلة من الربيع وأغروها بالمال فقالت لهم بل أكثر من ذلك فوقفت في طريقه وكان خاليًا لا يراهما أحد من البشر فلما أقبل كشفت عن جسمها تريد أن تفتنه، فصرخ بها وقال: كيف بك يا أمة الله إذا نزل بك ملك الموت وبدأ يذكرها بالمستقبل حتى تابت فقالوا: أردناها أن تفسد الربيع فأفسدها الربيع علينا[2].

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

الدنيا دار النكد والكبد والأسقام قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[البلد:٤] وكل حي في الدنيا لابد أن يصيبه ما يصيبه من ألم أو مرض أو ضيق صدر أو تشريد أو فقد حبيب أو خسران مال أو متاعب عيش أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦) بشيء من الاختصار.

(٢) انظر: «صفة الصفوة» (٣/ ١٩١).

«أي لنختبركم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة وتتعذر المطالب عليكم فتنقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار فينقص لها عددكم، وموت ذراريكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتنقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم واختبار مني لكم فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه»(١).

ثم أمر الله ببشارة الصابرين على الامتحان المحافظين على الطاعة مع البلوى بأنهم هم الفائزون بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦]، فصبروا واعترفوا بأنهم مملوكون لله تحت تدبيره وتصرفه وأنهم راجعون إليه سبحانه وأنه لا يضيع لديه مثقال ذرّة فجمع الله لهم أشياء لم يجمعها لغيرهم:

١- ثناء الله عليهم «الصلوات».

٢- الأمنة من العذاب «الرحمة».

٣- الاهتداء.

فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٧] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعمَ العلاوة»(٢).

«فالعدلان هما الصلاة والرحمة والعلاوة هي الاهتداء»(٣).

«فبالهدى خلصوا من الضلال وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٠) تحقيق محمود شاكر.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٧١) كتاب «الجنائز»/ باب الصبر عند الصدمة الأولى.

(٣) «فتح الباري» (٣/ ١٧٢).

نالوا منزلة القرب والكرامة»[(١)].

فعلى المسلم الصبر على أقدار الله، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها وعرف أنها من الله»[(٢)].

أيهما أفضل الصبر بالله أو الصبر لله؟

الصبر لله أفضل من الصبر بالله وأعلى درجة لأمور:

١ - الصبر لله متعلق بالألوهية. أما الصبر بالله فهو متعلق بالربوبية.

وما تعلق بالألوهية فهو أعلى وأكمل.

٢ - الصبر لله عبادة والعبادة غاية. أما الصبر بالله فهو استعانة والاستعانة وسيلة.

والغاية مرادة لنفسها أما الوسيلة فهي مرادة لغيرها.

٣ - الصبر لله للأنبياء والرسل والصالحين. أما الصبر بالله فهو مشترك بين المؤمن والكافر.

٤ - الصبر لله صبر فيما هو حق له محبوب له مرضي له. أما الصبر بالله فيكون فيما هو محبوب لله أو مباح أو مكروه أو محرم[(٣)].

ترتيب أنواع الصبر حسب الأفضلية:

الأول: الصبر على الطاعة:

«الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٧٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٢) كتاب «التفسير»/ تفسير سورة التغابن.

(٣) انظر: «عدة الصابرين» (٨٠-٨٥).

أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[١].

الثاني: الصبر عن المعصية:

الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على المصيبة.

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز واختيار السجن على معصية الله، أعظم من إيمانه ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخوته له. ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك. ولهذا قال تعالى فيه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤]»[٢].

الثالث: الصبر على أقدار الله «على المصائب»:

فهذا لصاحبه أجر عظيم[٣] والأدلة في بيان أجره كثيرة جدًا لكن الصبر عن المعصية أو على الطاعة أفضل منه وأكمل.

ووجه الترتيب أن الصبر على الطاعة يتضمن إلزامًا وفعلًا فتلزم نفسك الصلاة فتصلي... ففيه إلزام وفعل، أما الصبر عن المعصية ففيه إلزام فقط أي إلزام للنفس بالترك.

أما الصبر على أقدار الله فلأن سببه ليس باختيار العبد فليس فعلًا ولا تركًا وإنما هو من قدر الله المحض[٤].

وللناس حيال المصائب أحوال أربعة، هي:

١- **الجزع**: وهو محرم باتفاق العلماء للأحاديث الناهية عنه، كقوله ﷺ: «**ليس منا من**

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣-٢٤) وانظر: (١٠/ ٥٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٦٤).

(٤) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (٢/ ٢١٣) بشيء من الاختصار.

لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[(١)].

٢- **الصبر**: وهو واجب بالاتفاق.

٣- **الرضا**: والراجح فيه الاستحباب، وهو أعلى من الصبر.

٤- **الشكر**: وهو مستحب وليس بواجب، وهو أعلاها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها حيث جعلها لتكفير خطاياه، ورفع درجاته وإنابته، وتضرعه إليه»[(٢)].

وقد جمع الله أنواع الصبر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

وينقسم الصبر بحسب أحواله إلى قسمين:

١- **الصبر الجميل**: «صبر بغير شكوى إلى المخلوق». ولهذا لما قيل لأحمد بن حنبل وهو في مرضه إنَّ طاووسًا يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى ما أنّ أحمد حتى مات، وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف:١٨] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]»[(٣)].

صبر جميل فلا شكوى إلى أحد ... إلا الإله فذو الإحسان مسدينا

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦٣)، كتاب الجنائز/ باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم (١/ ٩٩) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب. رقم (١٠٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٠)، وانظر أيضًا: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠) فقد بسط فيه القول أكثر، فراجعه إن شئت.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٣-١٨٤).

ولأهمية الصبر الجميل وعظم منزلته أمر الله نبيه به فقال: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾[المعارج:٥] «أي اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرًا جميلًا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله»[(١)].

٢- الصبر المحمود: «الصبر المحمود ما كان في موضعه».

إذا كان الصبر عند الصدمة الأولى صار محمودًا يثاب عليه المسلم أما إذا تأخر عن موضعه فلا ثواب فيه فعن أنس بن مالك قال مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال لها: «**اتَّقِي الله واصْبِرِي**» قالت إليك عنّي فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال: «**إنَّما الصَّبر عند الصَّدمة الأولى**»[(٢)].

«قال لها ذلك منبهًا على أنها قد فاتها مَحَلُّ الصبر والأجر»[(٣)].

«والمعنى أنّ الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو»[(٤)].

أهمية الصبر:

لا يمكن أن يقوم عمل ديني أو دنيوي إلا بالصبر. فالصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله إلا من ضعف صبره، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص. ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٥/ ٢٨٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٤٨) كتاب «الجنائز»/ باب زيارة القبور. رقم (١٢٨٣).

(٣) «المفهم شرح مسلم» (٢/ ٥٧٩).

(٤) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).

كامل، ولهذا كان في دعاء النبي ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرُّشْد**»(١)، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر.

إذ لا إيمان بدون صبر كما يقرر هذه الحقيقة علي بن أبي طالب فيقول: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»(٢) وفي لفظ: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بان الجسد ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(٣).

ولأجل ذلك ورد الصبر في أكثر من تسعين موضعًا من القرآن الكريم(٤) منها عشرون موضعًا للنبي ﷺ. ففي أوائل ما أنزل الله على رسوله أمره بالصبر قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[المدثر:١-٧].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار وختمها بالصبر ليبين تعالى أنه لا دعوة بدون صبر.

وحينما امتن الله عز وجل على رسوله ﷺ بإنزال القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[الإنسان:٢٣] «كان من المنتظر أن يقال: فاشكر نعمة ربك ولكنه عز وجل قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الإيمان» لابن أبي شيبة (٤٤) رقم (١٣٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠).

(٤) قال الإمام أحمد «ختمت القرآن في يوم فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وتسعون»، «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٨٧)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

(٥) «شرح الأصول الثلاثة» للعثيمين (١٨).

ومما يدل على أهميته أنه نصف الدين قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله»[(١)]. وبمثله قال الشعبي[(٢)].

وقال ابن القيم: «الإيمان نصفان، نصفٌ صبر ونصفٌ شكر»[(٣)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم:٥].

بل هو أوسع عطاء يعطاه ابن آدم قال ﷺ مبينًا سعة عطاء الصبر حين طلب منه بعض الصحابة مالًا فأعطاهم ثلاث مرات ثم بين لهم أهمية الاستعفاف. وأن خير العطاء وأوسعه هو الصبر لأنه يثمر رضى النفس وطمأنينتها فيقنع بما آتاه الله. كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، قال: «**ما يكون عندي من خيرٍ فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه اللهُ، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره اللهُ، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصَّبر**»[(٤)].

ولما عاش عمر رضي الله عنه هذه الحقيقة عمليًا استوعبها ثم قال: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[(٥)].

ولأهميته نوّع الله أساليب ذكره في القرآن أنواعًا كثيرة، منها:

١- الأمر به: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[النحل:١٢٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[آل عمران:٢٠٠].

---

(١) «الزهد» لوكيع (٢/ ٤٥٦) رقم (٢٠٣) و«السنة» لعبدالله بن أحمد (١/ ٣٧٤) رقم (٨١٧).

(٢) «جامع البيان» (٢١/ ٨٤).

(٣) «عدة الصابرين» (١١٠) وبيّن/ هذا التنصيف من عشرة أوجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٠٣) كتاب «الرقاق»/ باب الصبر عن محارم الله.

٢- النهي عن ضده: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[الأنفال:١٥] فإن تولية الأدبار سببها فقدان الصبر. ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[محمد:٣٣] فإن إبطالها دليل على عدم الصبر على إتمامها، أو المحافظة عليها.

٣- الثناء على أهله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

٤- إخباره أن الصبر خير لأصحابه: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النساء:٢٥].

٥- إيجاب الجزاء لهم بأحسن الأعمال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٦].

٦- ضمان النصر والمدد لهم: لقوله ﷺ: «**أنَّ النصر مع الصَّبر**»[1].

٧- أن أهل الصبر هم أهل العزم قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى:٤٣].

٨- الإخبار بأنه ما يُلَقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠]، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:٣٥][2].

أسباب الصبر عن المعصية:

١- علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها.

٢- الحياء من الله سبحانه.

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣-١٥٤) فراجعه إن شئت فقد ذكر ستة عشر نوعًا.

٣- مراعاة نعم الله علينا وإحسانه إلينا، وأنَّ الذنوب تزيل النعم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

٤- خوف الله وخشية عقابه.

٥- محبة الله وإجلاله وإكرامه: قال عمر: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»(١).

٦- شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحط من قدرها.

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨- قصر الأمل وعلم العبد بسرعة انتقاله من الدنيا، وأنه ربما مات وهو على المعصية، فلقي الله وهو على تلك الحال.

أما الصبر على الطاعة فينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة.

أسباب الصبر على البلاء:

الصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة، منها:

١- شهود جزائها وثوابها.

٢- شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

---

(١) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٣٩٤)، ونسبه إلى عمر رضي الله عنه ابن تيمية، فقال: «كما قال عمر رضي الله عنه: نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». «درء التعارض» (٦/ ٦٨)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤) و(١٥/ ٢٤٠)، وفي الكلام محذوف تقديره: «فكيف وقد خافه»، ولهذا قال ابن تيمية في شرحه لهذا الحديث: «أي هو لم يعصه، ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته». «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤).

٣- شهود القدر السابق الجاري بها.

٤- شهوده حجة الله عليه في تلك البلوى وواجب الصبر فيه.

٥- ترتبها على ذنبه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[الشورى:٣٠].

٦- أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه.

من ثمرات الصبر:

١- الجنة: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان:١٢].

٢- محبة الله لهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٦].

٣- البشرى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥].

٤- الأجر بدون حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

٥- المعية الخاصة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣].

٦- أن الله جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

٧- بطلان كيد الأعداء: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠].

٨- سلام الملائكة عليهم: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد:٢٣-٢٤].

٩- التوفيق لخصال الخير: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[القصص:٨٠].

١٠- الانتفاع بالذكرى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[إبراهيم:٥].

١١- الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

قوله: الأذى فيه: أي كل ما يؤذيك من قول وفعل بسبب عبادتك ودعوتك إلى دين الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[آل عمران:١٨٦]، ثم ذكر علاجها وبأي شيء تقابلها، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٢٠].

ونبه الشيخ على الصبر على الأذى فيه لأمور:

١- أن كثيرًا من الناس لا يصبر فيتنازل من أول الطريق وقليل من يثبت وخاصة في زمن الغربة.

٢- أن من لم يصبر على الأذى في طاعة الله بل اختار المعصية كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فرَّ منه بكثير: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[التوبة:٤٩][١].

٣- أن الصبر على الأذى في الطاعة والدعوة من جنس الجهاد في سبيل الله. قال شيخ الإسلام: «فصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصودًا به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال»[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٣٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٥-٢٦).

فبهذه المسائل الأربع يكملُ الإنسان نفسه ويكمل الآخرين فيترقى في مدارج الكمال بل قد «انحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقًّا.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عيانا»[١].

(١) «الرسالة التبوكية» (٥٥)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١- ٣].

....

سر الاستدلال بسورة العصر مع أن هناك أدلة كثيرة غيرها:

١- أن الله ربط هذه الأمور المأمور بها في الدهر الذي هو زمن الأرباح والخسائر وهذا تنبيه على المحافظة عليه فإنه وقت الزرع.

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

٢- أن الله ربط هذه الأمور بالخسران الذي هو نتيجة تضييع أمر الله والتفريط فيه فمن تعلم وعمل وعلّم وصبر فقد فاز، ومن فرط فقد خسر.

قال ابن القيم: «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم وجعلها قسمين خيرًا وشرًا تأبى أن يسوي بينهم وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين. بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به»(١).

٣- أن في هذه السورة بياناً لوحدة المنهج فيجب أخذ الدين كله، فلا يجوز أن يؤخذ بعضه ويترك البعض الآخر.

٤- أن هذه السورة جمعت المسائل الأربع في موضع واحد وهذا أدعى لأخذها جميعًا. إذ لو كانت الأدلة متفرقة لربما تفطن المتعلم لبعضها، ونسي الآخر.

---

(١) «التبيان» (٨٣).

٥- أن الصحابة وهم أفقه الأمة إذا اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها.

فعن أبي مدينة الدارمي -وكانت له صحبة- قال «كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا، ثم أرادا أن يفترقا، قرأ أحدهما: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ حتى يختمها، ثم يسلم كل واحد منهما على صاحبه»[١] وذلك ليذكروا أنفسهم بها لأنها منهج متكامل.

والعصر: الواو واو القسم ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، كما في آي كثيرة من كتابه، كقسمه بالنجم والفجر وغيرها، والحكمة في ذلك كما نقل مطرف عن عبد الله قال: «إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها»[٢].

وقال ابن تيمية: «لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه، وذكر آياته»[٣].

وقال رحمه الله: «فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ لأنها آياته ومخلوقاته، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته فهو سبحانه يقسم بها؛ لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه»[٤].

أما الخلق فليس لهم أن يقسموا إلا به سبحانه لقوله ﷺ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٥]، وفي رواية: «**من كان حالفًا، فلا يحلف إلا بالله**»، وقوله ﷺ: «**لا**

---

(١) «الزهد» لأبي داود (٣٤١) رقم (٤١٧)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٥/ ٢١٥) رقم (٢١٤٥)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة، وهو ثقة. «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٠٧) رقم (١٨١٩٨).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٥٣٥)، وبمثله قال قطرب والفراء. «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٢٢٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٤٥).

(٤) المرجع السابق (١/ ٢٩٠).

(٥) البخاري مع الفتح (٥/ ٢٨٧)، كتاب «الشهادات»/ باب كيف يُستحلف. رقم (٢٦٧٩)، ومسلم (٣/ ١٢٦٦)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم»(١)، وقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك**»(٢). وفي رواية: «**من حلف بشيء دون الله تعالى؛ فقد أشرك**»(٣).

وقوله ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون**»(٤).

ولما روت قتيلة بنت صيفي الجهنية: «أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله، ثم شئت»(٥).

---

(١) مسلم (٣/ ١٢٦٧)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله. رقم (١٦٤٨).

(٢) أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٣/ ٥٧٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٥١) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١١٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله. رقم (١٥٣٥)، وقال «حديث حسن»، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذا اللفظ». وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٢٩١)، وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٨).

(٣) «المصنف» لعبد الرزاق» (٨/ ٤٦٨) رقم (١٥٩٢٦)، وأحمد (٢/ ٣٤). قال ابن كثير: «إسناده على شرط الصحيحين». «مسند الفاروق» (١/ ٤٣١).

(٤) أبو داود (٣/ ٥٦٩)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٤٨)، والنسائي (٧/ ٥)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالآباء، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٧). قال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٥)، وصححه ابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٥/ ٣٠٧).

(٥) أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والنسائي (٧/ ٦)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالكعبة. واللفظ له، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٥/ ١٣)، و«المستدرك» للحاكم (٤/ ٣٣١)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه النسائي. «فتح الباري» (١١/ ٥٤٠)، وقال ابن حجر: «سنده صحيح». «الإصابة» (١٤/ ١٣٠-١٣١).

«والأدلة المانعة عن الحلف بغير الله أكثر من أن تحصر»[(١)].

«والحلف بالمخلوقات كلها في حكم الحلف بالآباء، لا يجوز شيء من ذلك»[(٢)] لما «ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، ولا فرق بين نبي ونبي»[(٣)].

قال جبلة بن سحيم: أقبلت مع زياد بن حُدَيْر الأسدي من الكناسة، فقلت في كلامي «لا والأمانة»، فجعل زياد يبكي، ويبكي، فظننت أني أتيت أمرًا عظيمًا، فقلت له: أكان يُكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي»[(٤)].

وقال القاسم بن مخيمرة: «ما أبالي حلفت بحياة رجل أو بالصليب»[(٥)]، أي: أنه لا فرق بينهما، فكلاهما شرك، ولهذا قال البخاري: «وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين ولا بأعمارهم، ولا بكلامهم»[(٦)].

ولخطورة الحلف بغير الله امتنع منه عمر رضي الله عنه في جميع أحواله، كما روى ذلك ابنه عبد الله، فقال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**». قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ، ذاكرًا ولا آثرًا[(٧)].

---

(١) «حكم الله الواحد الصمد» للمعصومي الحنفي (١٣٧)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤٤٤)، و«مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٤/ ١٤٦).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩١).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٧٠-٧١).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٧).

(٦) «خلق أفعال العباد» (١٥٦).

(٧) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٣٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب لا تحلفوا بآبائكم. رقم (٦٦٤٧)، ومسلم (٣/ ١٢٦٧)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

وعاتب الزبير وكاد أن يضربه بالدرة لما سمعه يقول: لا والكعبة، فرفع عليه الدرة، وقال: «الكعبة لا أم لك، تطعمك وتسقيك؟!»(١).

ولقد فقه الصحابة والتابعون عظم إثم الحلف بغير الله، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره وأنا صادق»(٢)، وقال الشعبي: «الخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، والذي نفسي بيده لأن أقسم بالله فأحنث، أحب إليَّ من أن أقسم بغيره فأبر»(٣).

هذا مع أن الحلف بالله كاذبًا قد يكون يمينًا غموسًا يغمس صاحبه في النار، ومع ذلك كله صار أخف إثمًا وأقل جرمًا من الحلف بغير الله مع الصدق، «وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم إثمًا من الكبائر»(٤).

قال ابن القيم: «صاحب الشرع يجعله -أي الحلف بغير الله- شركًا، فرتبته فوق رتبة الكبائر»(٥).

والسر في ذلك: «أن من حلف بغير الله فقد عظم غيره تعظيمًا يشبه تعظيم الرب تبارك وتعالى، ولهذا سمي شركًا لكونه أشرك غير الله مع الله تعالى في تعظيمه بالقسم به»(٦).

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٦).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٤١٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٩/ ١٨٣) رقم (٨٩٠٢)، وقال المنذري: «رواه الطبراني موقوفًا، ورواته رواة الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٦٠٦-٦٠٧).

قال ابن حجر: «وجاء مثله عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، والشعبي رحمه الله». «فتح الباري» (١١/ ٥٣٥).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٦/ ٩٧).

(٤) «جامع المسائل» لابن تيمية - المجموعة الخامسة (١١٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٥٠).

(٥) «إعلام الموقعين» (٤/ ٤٠٣).

(٦) «الشرح الكبير» لابن قدامة المطبوع مع «الإنصاف» (٢٧/ ٤٦٤).

والقاعدة في ذلك: «كل معصية سُمِّيَتْ شركًا أو كفرًا أعظم من معصية لم تسم شركًا أو كفرًا».

وقد أجمع العلماء على تحريم الحلف بغير الله، ومن ذلك: ما رواه الكوسج، قال: قلت لأحمد: تكره أن يحلف الرجل بعتق أو طلاق، أو مشي؟

فقال أحمد: سبحان الله تعالى! من لا يكره ذلك؟ لا يحلف إلا بالله»[(١)].

فقوله: من لا يكره ذلك؟ يدل على أنه ليس في المسألة خلاف، فالمسألة إجماع.

قال ابن عبد البر: «لا يجوز الحلف بغير الله عز وجل في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجمع عليه»[(٢)].

وقال ابن تيمية: «ونحن المخلوقين ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك بل ذلك شرك منهيٌّ عنه»[(٣)].

وقال الشنقيطي: «اعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بأسماء الله وصفاته، فلا يجوز القسم بمخلوق لقوله ﷺ: «**من كان حالفًا، فليحلف بالله أو ليصمت**»، ولا تنعقد يمين بمخلوق كائنًا من كان، كما أنها لا تجوز بإجماع من يعتد به من أهل العلم، وبالنص الصريح في منع الحلف بغير الله»[(٤)].

وبعد أن ذكر ابن باز نماذج ممن يحلف به من دون الله، كالنبي ﷺ، والكعبة، والملائكة والمشايخ، قال: «وغير ذلك مما يحلف به كثير من الجهلة بأمور الدين، فهذه الأيمان كلها لا

---

(١) «مسائل الكوسج» (٥/ ٢٤٧٥).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩٠)، وانظر (٣/ ٣٩٨).

(٤) «أضواء البيان» (٢/ ١٢٣).

تجوز بإجماع أهل العلم»[(١)].

العصر: فسِّر العصر بعدة معانٍ مردها إلى الدهر ففسر بالدهر والسنة والشهر والليل والنهار وبصلاة العصر.

المقسم به العصر وأقسم الله به لأمرين:

الأول: أهميته:

وتتجلى أهميته بما يلي:

أ- أنه زمن الأرباح للمؤمنين، والخسائر للكافرين والفاسقين.

ب- لما فيه من العبر والعجائب للناظرين والمتفكرين من تعاقب الليل والنهار والظلام والنور وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان:٦٢].

ج- أنه ينقلنا من الدنيا إلى الآخرة فالزمان بحركته الدائبة يجري بالإنسان نحو نهايته المحتومة.

وأرى الزمان سفينة تجري بنا نحو المنون ولا نرى حركاته

ولذلك فإن الله تعالى أقسم بجميع أجزائه والفجر وليال عشر - والضحى والليل إذا سجى - والعصر - والليل إذا يغشى.

الثاني: لما فيه من التذكير بالآخرة: فأقسم الله بالعصر في حق الخاسر كما أقسم بالضحى في حق الرابح لما فيهما من دلائل قدرة الله فإن كل بُكْرَةٍ كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء وتنصب الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت وكل واحدٍ من هاتين الحالتين شاهد عدل. ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٨/ ٣٥٧).

عد خاسرًا فهكذا الإنسان إذا لم يعمل صالحًا.

قال الحسن: أقسم بالعصر تنبيهًا على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألونك حقهم فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين. وهكذا فالقيامة قد دنت فإذا أنت لم تستعد وفجأك الأجل تكون من الخاسرين.

إن الإنسان لفي خسر: هذا هو جواب القسم.

الإنسان: لفظ يقع على الذكر والأنثى من بني آدم.

فهو اسم جنس ويراد به العموم **ويدل على ذلك أمران:**

١- الألف واللام وهما يفيدان الاستغراق أي استغراق جميع الإنسان وهم بنو آدم، ويدخل معهم الجن؛ لأنهم قوم مكلفون بالشريعة كالإنس.

٢- الاستثناء منه حيث قال: إلا الذين آمنوا.

لفي خسر: الخسر هو: النقصان وذهاب رأس المال. وقيل: العقوبة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾[الطلاق:٩] ونكر الخسر للتعظيم والتهويل والمبالغة في الخسارة أي إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ﷻ.

فالذنب والعصيان عظيم لأمرين:

١- أنّ الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب.

٢- أنه وقع في مقابلة النعم العظيمة.

وأكد ذلك بمؤكدات:

١- إنَّ تفيد التوكيد.

٢- حرف الظرفية «في» يفيد الاستغراق فهو مستغرق في الخسران فهو كالمغمور فيه.

٣- حرف اللام في «لفي خسر».

فدل ذلك على أن الإنسان لا يكاد ينفك عن خسر لأن الخسر هو تضييع رأس المال ورأس ماله هو عمره والإنسان قلما ينفك عن تضييع شيء من عمره وذلك **لأن ساعات الإنسان ثلاث هي:**

١- ساعة مصروفة في معصية، فهذه لاشك في خسرانها.

٢- ساعة مصروفة في المباحات، فخسرانها حاصل لأنها إذا ذهبت لم يبق منها أثر ينفعه.

٣- ساعة مصروفة في الطاعة فهذه ساعة خير وربح، فلنحرص على الإتيان بالطاعة الفاضلة على أحسن وجه؛ لئلا نخسر الدرجة العليا.

إذًا: هذه الآية تنبه على أن الأصل في عموم الإنسان هو الخسران وذلك لأن سعادة الإنسان أن يكون همه الآخرة والعمل لها والإعراض عن الدنيا ولكن معظم الخلق معرضون عن الآخرة إلى الدنيا لأن الأسباب الداعية لحب الدنيا ظاهرة أمامهم وأما الأسباب الداعية إلى الآخرة فهي خفية فلذلك انهمكوا في طلب الدنيا قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦].

قال شيخ الإسلام: «فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين»[(١)].

وقال ابن القيم: «بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٥).

(٢) «التبيان» (٨٣).

قال بعض السلف: تعلمت معنى سورة العصر من بائع ثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فكما أن الثلج تذيبه الدقيقة والساعة، كذلك عمر الإنسان تفنيه السنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة، ولا يستطيع إرجاع شيء من عمره. فما ذهب لا يعود.

أقسام الخسر:

ينقسم الخسر إلى قسمين:

١- خسر كامل مطلق: كخسران الكفار والمنافقين الذين خسروا دنياهم وأخراهم وفاتهم النعيم واستحقوا الجحيم.

قال تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج:١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزمر:١٥] فهؤلاء في جهنم خالدون.

٢- **خسر ناقص**: «جزئي مقيد» كمن فاته عمل صالح لم يعمله، روى سعد ابن أبي وقاص أنه كان قاعدًا عند عبدالله بن عمر: إذ طلع خباب صاحب المقصورة فقال: يا عبدالله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِها وصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ تَبِعَهَا حَتّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قَيرَاطَانِ مِن أَجْرٍ كُلُّ قيرَاط مِثْلُ أُحُدٍ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجِعَ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ**». فأرسل ابن عمر خبابًا إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت: وأخذ ابن عمر قبضة من حصباء المسجد يقلبها في يده حتى رجع إليه الرسول فقال: قالت عائشة صدق أبو هريرة، فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض ثم قال: لقد أضعنا قراريط كثيرة»[(١)]

(١) مسلم (٢/ ٦٥٤) كتاب «الجنائز»/ باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها. رقم (٩٤٥).

وفي رواية البخاري «لقد فرطنا في قراريط كثيرة» فرطت: ضيعت من أمر الله[١].

«فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك»[٢].

وأشد من ذلك أن الإنسان يعلم ما أمر الله به من عمل صالح ويعلم فضله ثم لا يستطيع القيام به من غير مانع ظاهر وإنما الذنوب هي التي قيدته فمنعته العمل الصالح. قال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك»[٣].

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد خسر ربح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر قال ابن القيم: «فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر»[٤].

وكمن ارتكب معصية لا توصله إلى الكفر فاستشعر بذلك خسارته ونقص إيمانه كما فعل ماعز عندما زنى أتى إلى النبي ﷺ فقال: طهرني[٥].

فعموم الخسران حاصل ويتبين أكثر عند النظر إلى المستثنى وأضداده بـ:

١- الإيمان ضده الكفر قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٥] فخسران الدين سببه الكفر وهذا من الخسر الكامل ويوضحه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[إبراهيم:١٨].

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٩٢) كتاب «الجنائز»/ فضل اتباع الجنائز. رقم (١٣٢٤).

(٢) «التبيان» (٨٣).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٥).

(٤) «التبيان» (٨٨).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٢٢) كتاب «الحدود»/ باب من اعترف على نفسه بالزنى. رقم (١٦٩٥).

٢- العمل الصالح ضدُّه العمل الفاسد قال تعالى مبينًا خسران صاحب الأعمال الفاسدة ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٣].

٣- التواصي بالحق ضده التلهي بالباطل. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥].

٤- التواصي بالصبر ضده الهلع والجزع، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[الحج:١١].

إلا: أداة استثناء.

وللاستثناء فائدتان:

١- أنه تسلية للمؤمن من فوات عمره وشبابه؛ لأن العمل الصالح قد أوصله إلى ما هو خير منه.

٢- تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الفوز، والفلاح وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الخسار والفساد.

الذين آمنوا: أي شهدوا أن لا إله إلا الله بألسنتهم، وأقروا واعتقدوا بقلوبهم صحة ما جاء به النبي ﷺ من الدين، وعملوا بما تقرر في شرع الله ودينه.

والإيمان لا يمكن أن يكون إلا بالعمل فلا يصح إلا به، ولهذا قال:

وعملوا الصالحات: أي أدوا ما أمرهم الله به.

والعملُ الصالح شاملٌ لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

والصلاح: هو ما اجتمع فيه شرطا القبول وهما الإخلاص والمتابعة.

وقيد العمل بالصلاح لأن العمل إذا لم يكن صالحًا لم يقبل ولم ينفع صاحبه بل ربما كان وبالًا عليه.

والآية هنا جمعت الأعمال الباطنة والظاهرة.

إلا الذين آمنوا: الأعمال القلبية الباطنة.

وعملوا الصالحات: الأعمال البدنية الظاهرة.

قال الشافعي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[البينة:٧] علمنا: أنهم خير البرية بالإيمان والعمل الصالح»[١].

وتواصوا: التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وقبوله من الآخرين إذا وصّوْهم به فجمعوا بين المنقبتين: الوصية وقبولها.

الحق: هو الإيمان والتوحيد بل هو الدين كله.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب[٢].

والتواصي بالحق ضرورة لأن النهوض بالحق عسير ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، والمعوقات كثيرة فالشيطان معوق وهوى النفس آخر ومنطلق المصلحة الخاطئ ثالث وطغيان الطغاة وظلمهم وجورهم رابع... إلخ.

أضف إلى ذلك أن التواصي تشجيع وتذكير وإشعار بالقرب في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة، فبالتواصي يشعر كل مسلم أنه حارس للحق وأن أخاه معه يعينه وينصره ولا يخذله.

---

(١) «اعتقاد الشافعي» للهكاري (٢٤).

(٢) «التبيان» (٥٤).

وتواصوا بالصبر: أي أمر بعضهم بعضًا بالصبر فَوَصَّوا به وقبلوا الوصية به إذا وجهت إليهم، **والتواصي بالصبر لأمرين**:

١- لأنه ضرورة مُلِحَّة: لأن الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة فلا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير والصبر على ما يصيب الإنسان من الأذى، وتبجح أهل الباطل بباطلهم. قال ابن القيم: «ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه»(١).

٢- أن الصبر يزيد من قوة المسلم في تمسكه بالحق والدعوة إليه فيندفع في سبيل دعوته ولا يبالي بما يعترضه من المعوقات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

كرر الله تعالى كلمة تواصوا لأمور:

١- لتبرز الأمة ذات الكيان الخاص والوجهة الموحدة والرابطة المتميزة.

٢- عدم الأنانية فيذكِّر بعضهم بعضًا وينصح له كما ينصح لنفسه.

٣- لما فيها من استشعار الرحمة والألفة والشفقة والمحبة فمن المعلوم أن الوصية تأتي من الحبيب لحبيبه.

وجمع الله بين الحق والصبر لـ «أن الدين مبني على هذين الأصلين الحق والصبر»(٢).

---

(١) «عدة الصابرين» (٢٠٩).

(٢) المرجع السابق (١١٢).

أقسام الناس عند الوصية:

١- من لا يوصي غيره، لكن إذا وصاه غيره قبل منه.

٢- من لا يوصي غيره ولا يقبل وصية غيره له.

٣- من يوصي غيره لكن لا يقبلها إذا جاءته من غيره.

٤- من يوصي غيره ويقبل وصية غيره له.

وهذا هو خيرهم وأفضلهم وأكملهم. وهذه صفة المؤمنين الخُلَّصْ، فلنحرص ولنجاهد أنفسنا لعلنا أن نكون منهم.

قال شيخ الإسلام: «وكما أننا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها»(١).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٥).

قال الشافعي رحمه الله: «لو ما أنزل الله حُجَّةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

....

لو ما أنزل الله: النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، **والإنزال في القرآن ورد على ثلاثة أحوال، هي:**

١- ورد مطلقًا غير مقيد، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر:٦].

٢- ورد مقيدًا بشيء من خلق الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[الفرقان:٤٨].

ففي هاتين الحالتين المنزل خلق من خلق الله.

٣- ورد مقيدًا بالله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[الجاثية:١-٢].

أما في هذه الحالة فالمقصود به صفة من صفاته، وهي كلامه سبحانه، ومنه سورة العصر.

حجة: والحجة هي الكلام المقنع الذي لا يستطيع الخصم ردّه. بل يلزمه الاستسلام له وقبوله.

على خلقه: يقصد بذلك أن الله أنزلها على رسوله وكلف بها خلقه، فكأنها أنزلت إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[النساء:١٧٤]، والخلق هم المكلفون من الإنس والجن.

لكفتهم: أي أغنتهم عن غيرها، فلو لم ينزل الله من وحيه على عباده إلا سورة العصر لكانت مقنعة لهم ومغنية لهم عن غيرها فقد وضحت المنهج السليم الذي ينبغي أن يسير عليه المسلم.

وفي رواية: «لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم»[١].

وفي رواية: «لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم»[٢].

«وذلك لأن الله تعالى أخبر فيها أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر»[١].

وشرحها ابن باز فقال: «أي لو نظروا فيها وتأملوا لكانت كافية في إلزامهم الحق وقيامهم بما أوجب الله عليهم وترك ما حرمه عليهم لأن الله بين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ناجون ومن سواهم خاسر وهذه حجة قائمة على وجوب التواصي والتناصح والإيمان والصبر والصدق وأنه لا طريق للسعادة والربح إلا بهذه الصفات الأربع[٣].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٧).

(٢) «الاستقامة» (٢/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٣) «شرح ثلاثة الأصول«(٢٦).

قال البخاري ﵀: «**باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى:** ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]» **فبدأ بالعلم قبل القول والعمل**[١].

....

في سورة العصر دلالة واضحة على العلم وذلك أنه لا يمكن أن يؤمن الإنسان ويعمل ويدعو إلا عن علم وبصيرة ولذلك أجمع من شرحوا سورة العصر أو تكلموا على معانيها وفوائدها أن العلم والعمل هما الأمران اللذان يكمل بهما الإنسان نفسه. لكن المؤلف عليه رحمة الله أراد أن يزيد الأمر وضوحًا فذكر تبويب البخاري ﵀ ودليله الذي استدل به على أن البداءة بالعلم قبل القول والعمل.

قال ابن المنير: «أراد به أنَّ العلم شرطٌ في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إن العلم لا ينفع إلا بالعمل» تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه»[٢].

وهذا العلم الذي أمر الله به هو العلم بأصل العلوم وهو العلم بتوحيد الله.

لكن لابد من إقرار القلب به وعمل الجوارح بمقتضاه أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية ويجوز للخلق عبادته إلا الله خالق كل شيء ومالك كل شيء واسأل ربك غفران ذنوبك السالفة وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

ولقد فعل النبي ﷺ ذلك فاستغفر لأمته فعن عاصم عن عبدالله بن سَرْجِس قال رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزًا ولحمًا أو قال ثريدًا قال فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٥٩) كتاب «العلم».

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

قال نعم. ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[١] [محمد:١٩].

والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا الله) أمور:

١- تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على عظمته وكماله.

٢- العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

٣- معرفة أوصاف الأوثان التي عبدت مع الله واتخذت آلهة وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات لا تملك لنفسها وغيرها ضرًا ولا نفعًا.

٤- شهادة الرسل والأنبياء وأولو العلم بالتوحيد.

٥- الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة.

٦- تدبر القرآن العظيم «وهو الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره»[٢].

ومن لطائف هذه الآية الجمع بين التوحيد والاستغفار، لأن الدين مجموع فيهما، قال شيخ الإسلام: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجلّه، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك فإن الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه

---

(١) مسلم (٤/ ١٤٢٣-١٤٢٤)، كتاب «الفضائل»/ باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده ﷺ. رقم (٢٣٤٦).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٣١-٧٣٢).

فأبلغ الثناء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله، فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين»[١].

وبعد أن ذكر المؤلف رحمه الله مقومات الشخصية الإسلامية التي عنون لها بالمسائل الأربع. انتقل إلى بيان المناهج الموجودة في المجتمعات وما هو الصحيح الذي يجب اتباعه والفاسد الذي يجب اجتنابه ومن ثم معرفة السياج الواقي من الوقوع في المنهج الفاسد فقال: اعلم رحمك الله....

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦-٦٩٧).

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن.

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملاً.

....

اعلم رحمك الله: كررها مرة ثانية ليفتح قلبك لما يلقيه عليك فتقبله وتنفذه.

أنه يجب على كل مسلم ومسلمة: أي أنه فرض لازم على كل المسلمين ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم صغيرهم وكبيرهم وجوبًا على الأعيان لا يسع أحدًا منهم جهله أو عدم العمل به لأنها هي أساس الدين ولبه.

وحصرها بهذه المسائل الثلاث التي هي أصل الدين وقاعدته لأن الاستمساك بالدين لا يكون إلا بها:

فأمر بالتوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة مع بيان ثمرته.

ثم نهى عن ضده وما يبطله من الشرك مع بيان الشفقة على صاحبه.

وثَلَّثَ بالسياج الواقي من الوقوع في الشرك وهو مصاحبة الأخيار المؤمنين وموالاتهم ومعاداة الأشرار الكافرين وبغضهم.

ونبه على العمل بهن لأمرين:

١- لأن العمل هو ثمرة العلم فلا بد من العمل بالقلب واللسان والجوارح.

٢- لأن المدعين لذلك كثير ولكن العامل بهن قليل فكثير من الناس يقول بأنه مسلم ويصوم ويصلي ويحج ولكنه يصرف العبادة لغير الله فيدعوه ويرجوه من دون الله أو مع الله، أو يوحّد الله، ولكن لا يعادي الكافرين ولا يبغضهم.

الأولى: جعل مسألة التوحيد هي الأولى لأن الدعوة إلى التوحيد هي أول ما يبدأ به الداعية إلى الله إتباعًا لمنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما في حديث معاذ رضي الله عنه فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك لأن نور التوحيد يبدد ظلمات الشرك ويذهبه.

أن الله خلقنا:

الخلق: هو إبداع الشيء على مثال لم يسبق إليه. فقوله: خلقنا: أي أوجدنا من العدم قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم:٩].

والمادة التي خلقنا منها التراب: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الروم:٢٠] ولذلك أنكر على المشركين الذين عبدوا معه غيره بصيغة الاستفهام الإنكاري فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾[الطور:٣٥]، أي: أم خلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم.

فالقسمة في هذه الآية ثلاثية وذلك أن احتمالات وجود الموجودين ثلاثة:

١- أنهم خلقوا من غير خالق خلقهم ولا موجد أوجدهم وهذا عين المحال لأنه لا يمكن أن يوجد موجود إلا بموجد.

٢- أنهم هم الخالقون لأنفسهم وهذا محال لأنهم كانوا عدمًا والعدم لا يوجد شيئًا لأنه ليس بشيء فكيف يوجد شيئًا.

٣- أن الله خلقهم وهذا هو المتعين لأنه إذا استحال الاحتمالان الأول والثاني لم يبق إلا الثالث وهو أن الله خلقهم وأوجدهم وهو القادر على كل شيء وهو الخلاق العليم.

وهذا هو الذي قرره أئمة السلف كما قال شيخ الإسلام عندما ذكر الآية قال فيها قولان:

١- الأكثرون قالوا: إن المراد أم خلقوا من غير خالق.

٢- وقيل أم خلقوا من غير مادّة؟ وهذا ضعيف لقوله بعد ذلك: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فدلَّ على أن التقسيم أم خلقوا من غير خالق أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد من غير مادّة لقال: أم خلقوا من غير شيء أم من ماء مهين؟ فدل على أن المراد أنا خالقهم لا مادتهم... والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء، فإذا أقروا بأن خالقًا خلقهم نفعهم ذلك وأما إذا أقروا بأنهم خلقوا من مادة لم يغن ذلك عنهم من الله شيئًا[1].

ولهذا هزت هذه الآية جوانح جبير بن مطعم رضي الله عنه عندما سمعها وكان ذلك الوقت مشركًا. قال جبير بن مطعم: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾[الطور:٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير»[2]. زاد في رواية «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[3].

ورزقنا: الواو عاطفة أي أن الخلق الذي هو الإيجاد من العدم والرزق الذي هو سبب البقاء مِنَّة من الله وتكرم منه سبحانه وتعالى.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٣٦-٢٣٧) وراجع إن شئت «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠٣)، كتاب «التفسير»/ سورة الطور. رقم (٤٨٥٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٣٢٣) كتاب «المغازي»/ باب شهود الملائكة بدرًا. رقم (٤٠٢٣).

والرزق: كل ما يدخل تحت ملك العبد مما يؤكل ومما لا يؤكل. وقيل كل ما ينتفع به الإنسان، وقيل: «الرزق: اسم لكل ما يغتذي به الإنسان وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة»[(١)].

فالله هو الذي رزق خَلْقَهُ رزقًا بعد رزق وأكثره ووسعه لهم. رزقًا شمل خلقه كلهم فلا رازق سواه ولا معطي غيره. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٢-٢٣] فأكدت هذه الآية أن الرزق من الله بعدة مؤكدات:

١- شهادة الله بصحة ما أخبر به.

٢- القسم (فورب السماء).

٣- إنَّ.

٤- اللام في قوله لحق.

٥- (أنَّ) في قوله (أنكم تنطقون).

٦- ربطه بين النطق والرزق فالنطق معلوم بالحس والواقع لا يشك فيه أحد فكذلك الرزق يجب على العبد أن يثق بما عند الله من رزق ولا يشك فيه.

٧- الربط بين النطق وأكل الرزق لأن مكانهما واحد وهو الفم، فكما أنك لا تستطيع أن تنطق بلسان غيرك لا تستطيع أن تأكل رزق غيرك.

يرزق خلقه وإن ارتكبوا الجرائم والعظائم قال ﷺ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ علَى أذىً سَمِعَهُ مِنَ الله يدَّعون لَهُ الوَلَدَ ثُمَّ يُعافيهم ويَرْزُقُهُم**»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٦٠) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. رقم (٧٣٧٨).

بل من كرمه أنه يسوق الرزق إلى الضعيف الذي لا حيلة له ولا قدرة له على الكسب قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾[العنكبوت:٦٠].

وحصر الله الرزق منه سبحانه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٨]. فأتى بضمير الفصل «هو» ليفيد الاختصاص.

وتحدّاهم أن يجدوا رازقًا غيره فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[فاطر:٣] وهذا استفهام يراد به الإنكار والتحدي، أي: إن وجدتم رازقًا غير الله، فأتوا به.

فلو أمسك رزقه ما استطاع أحد أن يرزق أحدًا من دونه. قال سبحانه على وجه التوبيخ والتقريع وإقامة الحجة عليهم: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾[الملك:٢١].

وجه الجمع بين الخلق والرزق:

جمع المؤلف بينهما لأن الخلق إيجاد من العدم والرزق سبب للبقاء فمن لا يأكل ولا يشرب يموت ولذلك جمع الله بينهما في كتابه الكريم فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾[الروم:٤٠].

(والخلق والرزق فيهما حياة الأبدان) ففيه إشارة إلى توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية هو «إفراد الله بأفعاله» أو: «إفراد الله بالملك والخلق والتدبير».

فدليل إفراده بالملك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ[(١)] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[آل عمران:١٨٩] فقدم ما

---

(١) ملك الله ملك مطلق، قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

أما ملك المخلوق فهو ملك مقيد بزمان ومكان وأمر. أما الزمان فإن الإنسان لا يملك إلا وقت حياته فقط أما المكان فإن المخلوق لا يستطيع ملك كل شيء فتجده يملك هذا المكان ولا يملك غيره أما الأمر فإنه لا يجوز له أن يتصرف في ماله إلا بما شرع الله.

حقه التأخير ليفيد الحصر، أي: حصر الملك لله.

أما دليل إفراده بالخلق والتدبير فقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ[1] وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤] فأتى بـ(ألا) الدالة على التنبيه وقدم ما حقه التأخير وهو الخبر فأفاد الحصر.

وذكر الربوبية ليستدل به على الألوهية ولهذا قال:

(ولم يتركنا هملًا):

الواو: عاطفة.

لم: نافية.

يتركنا: يبقنا أو يدعنا.

هَمَلًا: الهمل هو السدى المتروك بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما يحتاج إليه ومنه «بعير هامل» و«إبل هوامل» أي مُسَيَّبَةٌ لا راعي لها وأمر مهمل أي متروك.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦] أيحسب: الهمزة للاستفهام الإنكاري أي: أيظن الإنسان أن يترك هملًا مهملًا «لا يؤمر ولا ينهى»[2]. وقيل: لا يثاب ولا يعاقب، والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة، واحتج سبحانه بأنه لا يترك الإنسان مهملًا معطلًا بخلق النطفة فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[القيامة:٣٧-٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة حتى صارت علقة ثم صارت خلقًا سويًا كاملًا فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرًا سويًا. فكيف

---

(١) الفرق بين خلق الله وخلق المخلوق أن خلق الله إيجاد من عدم وخلق المخلوق تحويل من صورة إلى أخرى.

(٢) «الرسالة» (٢٥).

يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له[(١)].

والظن بأن الإنسان لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب مِنْ ظَنّ السوء بالله وهو ظن الكافرين ولذلك نفاه الله عن نفسه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص:٢٧].

وفي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨].

وأنكره الله عليهم أشد الإنكار ونزه نفسه عنه فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

والاستفهام في قوله أفحسبتم للإنكار والتوبيخ، والعبث: هو اللعب والباطل. أي أفظننتم أنا خلقناكم للإهمال واللعب والباطل وليس لوجودكم حكمة. وأنه ليس هناك أمر ولا نهي ولا بعث ولا نشور يثاب فيه مطيعكم ويعاقب فيه عاصيكم.

ثم نزه نفسه عن خلق شيء عبثًا فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ فهو الملك الحق الذي ملكه كامل على الإطلاق حق في جميع أقواله وأفعاله فيجب أن يعبد وحده لا شريك له، فإذا كان ربًا للعرش فكيف لا يكون إلهًا وربًا لما هو دون العرش من المخلوقات فاعترفوا بربوبيته واخضعوا لألوهيته سبحانه.

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٦٥-١٦٦).

بل أرسل إلينا رسولًا، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

....

بل: للإضراب الإبطالي أي: إبطال ترك العبد هملًا لا يؤمر ولا ينهى.

أرسل: أي بعثه وأوحى إليه.

إلينا: أتى بنون الجمع في الجميع خلقنا رزقنا أرسل إلينا رسولًا: ليبين أن المنة منه سبحانه على الجميع والأمر بالعبادة كذلك للجميع.

رسولًا: نبينا هو محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه.

والغرض من إرسال الرسل أمران:

١- ليعبد الله وحده قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]. وقال ﷺ: «**بعثت بين يديِّ الساعة بالسَّيف حتّى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجعل الذلّ والصّغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم؛ فهو منهم**»[١].

وفي هذا دليل على أن تحقيق توحيد الألوهية لله وزوال الشرك من الأرض هو مقصود الدعوة إلى الله وأصلها وحقيقتها[٢].

---

(١) أحمد (٢/ ٩٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣). قال الذهبي: «إسناده صالح». «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٩).

وأخرجه أبو داود (٤/ ٣١٤) كتاب «اللباس»/ باب في لبس الشهرة. رقم (٤٠٣١) مختصرًا بلفظ: «من تشبه بقوم فهو منهم». قال شيخ الإسلام: «إسناده جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٩٦)، وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٧١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٣-١٦٤).

٢- إبطال حجة المحتجين قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥].

فمن: الفاء رابطة.

من: شرطية.

أطاعه: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلًا أو تركًا راضية بذلك النفس. وأعلاها التوحيد ثم ما دونه من الطاعات قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

فاجتمع الرضى القلبي مع العمل البدني.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها: فعل الصحابة عندما نُهوا عن شرب الخمر كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[المائدة:٩٠-٩١] قالوا: انتهينا، انتهينا وجاؤوا بالمدى فشقوا القرب حتى سالت في شوارع المدينة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ الفضيخ فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة[(١)]».

وعن أبي ميسرة: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة:٢١٩]، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١١٢) كتاب «المظالم»/ باب صب الخمر في الطريق. رقم (٢٤٦٤).

ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء:٤٣]، فدعي عمر فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩١]، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: انتهينا، انتهينا»[١].

ولما نزلت: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٩] خرج نساء الأنصار وكأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية[٢].

وطاعة الرسل فرض لازم. إذ هي ثمرة الإيمان بهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

وثمرتها الفوز بجنات النعيم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[النساء:١٣].

ولهذا قال المؤلف مبينًا هذه الثمرة «فمن أطاعه دخل الجنة». ومن دخل الجنة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥] والضمير في قوله أطاعه يعود على الرسول محمد ﷺ.

ولقد أحسن عندما ربط العمل بثمرته؛ لأن هذا من أعظم ما يحرك الهمم للقيام به.

(ومن عصاه دخل النار):

أي: ومن عصى رسوله ﷺ دخل النار؛ لأنه لم يقبل ما أرسل به.

والمعصية: هي مخالفة الأوامر فعلًا أو تركًا.

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٥٣-٢٥٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة المائدة. رقم (٣٠٤٩).

(٢) أبو داود (٤/ ٣٥٦-٣٥٧)، كتاب «اللباس»/ باب في قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾. رقم (٤١٠١)، وحسن سنده الشيخ عبد العزيز بن باز. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٢٤٣).

وبين نتيجة المعصية وهي دخول النار، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[النساء:١٤].

ولقد جمع بين الطاعة والمعصية وثمرة كل منهما رسول الله ﷺ ليحفز الهمم وليكون المسلم بين الرجاء والخوف بين طاعة يرجو ثمرتها ومعصية يخشى غبها وعقوبتها قال ﷺ: **«كل أمَّتي يدخلون الجنَّة إلا مَنْ أبى»**. قالوا يا رسول الله! ومن يأبى قال: **«من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني؛ فقد أبى»**[(١)].

وضرب ﷺ المثل في ذلك ليقربه إلى الأفهام فقال: **«إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجلٍ أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ وإني أنا النذير العُرْيان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذَّب بما جئت به من الحق»**[(٢)].

قال الطيبي في كلامه أنواع من التأكيدات:

١- بعيني.

٢- قوله: وإني أنا النذير.

٣- العُرْيان، لأنه الغاية في قرب العدو ولأنه الذي يختص في إنذاره بالصدق[(٣)].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٤٩) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٨-١٧٨٩)، كتاب «الفضائل»/ باب شفقة النبي ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. رقم (٢٢٨٣).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣١٧).

وضربت الملائكة المثل في بيان ثمرة الطاعة، وعقوبة المعصية، كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا. قال فاضربوا له مثلًا... فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبةً وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أَوِّلُوها له يفقهها... فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله. ومحمد ﷺ فَرْقٌ بين الناس»[١]. والجمع بين ثمرة الطاعة ونتيجة المعصية التي هي الجنة أو النار. هيج مشاعر الصحابة وأحاسيسهم، فجعلهم يسألون عنها كلما حانت الفرصة قال معاذ بن جبل كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير فقلت يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «**قَدْ سألت عن عظيم، وإنَّه ليسير على من يسّره اللهُ عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا...**»[٢].

ولشدة تهييجه لمشاعرهم هيج حتى الأعراب فجاؤوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن ذلك، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال: «**لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ**» قال: كيف، قلت: قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي**

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٤٩)، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)/ باب الاقتداء بسنن رسوله ﷺ. رقم (٧٢٨١).

(٢) أحمد (٥/ ٢٣١) الترمذي (٥/ ١١) كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في حرمة الصلاة. رقم (٢٦١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥)، كتاب «الفتن»/ باب كف اللسان في الفتنة. رقم (٣٩٧٣)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٣١٠).

الزّكاة، وتصل الرّحم، دع الناقة»[١].

وعلى هذا يربي حذيفة رضي الله عنه القراء فيقول: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»[٢].

وهذا هو التكريم الحقيقي لبني آدم وذلك بتكليفهم بالأوامر والنواهي فمن أطاع أوامر الله فقد قبل كرامة الله له وتشريفه إياه دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء:٧٠]. فعلينا أن نفرح بهذا التكريم ونقبله.

قال السعدي: «وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة»[٣].

ومن لم يقبل التكريم فهو أضل من البهائم وأسوأ حالًا منها، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة:٥].

فلما لم يقبلوا تكريم الله لهم انحطت مرتبتهم حتى صاروا أحط من البهائم قال مقاتل: «البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها وهؤلاء لا

---

(١) مسلم (١/ ٤٢-٤٣). كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة. رقم (١٣)

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم. رقم (٢٧٨٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤١٤).

ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم»[١].

فمن لم يقبل الأوامر والنواهي ارتكب محذورين:

١- اتهام الله بالعبث وإنكار اتصافه بالحكمة. لأنه لا يجتمع حكمة وعبث ولهذا نفى الله العبث عن نفسه فقال: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون:١١٥]. وأثبت له الحكمة فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الدخان:٣٨-٣٩].

وكفى به إثمًا وجرمًا ومعصية أن يُتَّهم الله بالعبث، وتُنْفَى عنه الحكمة.

٢- شبه نفسه بالمجنون والبهائم: فكلاهما لا عقل له ولا حساب عليه قال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث، وذكر منها: وعن المجنون حتى يعقل**»[٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦)

(٢) أحمد (٦/ ١٠٠-١٠١)، و الدارمي في «سننه» (٢/ ١٩)، كتاب «الحدود»/ باب رفع القلم عن ثلاثة. رقم (٢٢٩٦)، وأبو داود (٤/ ٥٥٨)، كتاب «الحدود»/ باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا. رقم (٤٣٩٨)، والنسائي (٦/ ١٥٦) كتاب «الطلاق»/ باب ما لا يقع طلاقه من الأزواج. قال النسائي: «ليس في الباب صحيح إلا حديث عائشة؛ فإنه حسن»، وقال ابن المنذر: «هو ثابت عن النبي ﷺ». «فتح الباري» لابن رجب (٥/ ٢٩٤).

قال الترمذي: «والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم». «سنن الترمذي» (٤/ ٣٢). قال شيخ الإسلام: «اتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول». «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٩١).

ما مدى حسرة من لا يعرف الأوامر والنواهي؟

يجيب عن هذا التساؤل خبر الحنفاء الذين عاشوا في الجاهلية، وبه نعرف حسرتهم ومدى نعمة الله علينا بحفظ الدين وبقائه غضًّا طريًّا كما نزل على نبينا محمد ﷺ بكماله وتمامه، فلله الحمد والمنة والفضل.

فعن ابن عمر رضي الله عنه «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتَّبِعُهُ فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعَلِّي أن أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفرُّ إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيع ذلك! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يَعْبُد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»[(١)].

وكان يقول: «اللهم لو أني أعلم أحبَّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته»[(٢)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٧).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٩٦).

فانظر إليه رحمه الله لما تحركت عنده الفطرة وأبى الشرك وعبادة الأوثان بحث عن دين يشبع جَوْعته، فسافر إلى الشام وقطع الفيافي والقفار بحثًا عن الدين الصحيح، فذهب إلى اليهود لعله أن يجد عندهم بغيته فلم يجدها، ثم ثنى بالنصارى فلم يجد عندهم ما يريد، ولم يجد إلا أن الدين الصحيح هو الاستقامة على التوحيد، فلم يعرف كيف يتقرب إلى ربه بأية قربة. وانظر إليه وهو في البرية لوحده لم يعرف إلا هذه الكلمة اللهم أني أشهد أني على دين إبراهيم.

فإذا نظر المسلم إلى تلك الصورة المؤثرة ثم رجع إلى واقعه فوجد القرآن غضًا طريًا كما نزل، ووجد السنة كذلك وعلم كيف يتقرب إلى ربه بدون مشقة ولا عناء أكسبه ذلك الحرص على طاعة الرسول ﷺ والتمسك بدينه والفرح به ممتثلًا قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[يونس:٥٨].

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[**المزمل:١٥**].

....

ولعل سبب اختيار هذا الدليل مع أن الأدلة المباشرة على أن ثمرة الطاعة الجنة ونتيجة المعصية النار كثيرة في القرآن الكريم، **ما يلي:**

١ - أن فيه نموذجاً لعقوبة أحد العصاة المعروفين بجبروته وقوته وطغيانه. وهذا أدعى للاتعاظ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «السعيد من وعظ بغيره»[(١)].

٢ - أن هذا العاصي عوقب بثلاث عقوبات (الدنيا - البرزخ - الآخرة). فأما العقوبة الدنيوية فبإذلاله وإغراقه بم افتخر به على موسى عليه السلام وهو الماء حيث قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[الزخرف:٥١] فأغرقه الله به قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[الإسراء:١٠٣] فجمع الله عليه الغرق مع الإذلال. وأما عقوبة البرزخ فهي عرضه على النار مرتين كل يوم ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[غافر:٤٦].

وأما العقوبة الأخروية فعقوبته بأشد العذاب قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾[هود:٩٨] وجمع الله تلك العقوبات كلها بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾[النازعات:٢٥].

وجمع العقوبات الثلاث في الدور الثلاث أشد في الزجر وأبلغ في التحذير.

إنا: الله يتحدث بضمير العظمة كي يعظم الناس أمره ويتبعوا رسوله.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٣٧) كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق الآدمي. رقم (٢٦٤٥).

أرسلنا إليكم: الخطاب في قوله أرسلنا إليكم لقريش والمراد به سائر الناس(١).

رسولًا: هو نبينا محمد ﷺ وجاء منكرًا لتفخيمه وتعظيمه.

شاهدًا عليكم: أي شاهدًا عليكم بأعمالكم بإجابة من أجاب منكم دعوته وعمل الصالحات وامتناع من امتنع منكم عن الإجابة يوم القيامة(٢) يوضحه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليَّ**» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: «**إنِّي أشتهي أن أسمعه من غيري**». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء:٤١] قال لي: «**كُفَّ أو أَمْسِكْ**» فرأيت عينيه تذرفان»(٣).

قال ابن حجر: «بكى ﷺ رحمة لأمته لأنه علم أنه لابد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم»(٤).

وشهادة الرسول ﷺ على العاصي من أمته شأنها عظيم فبها تكون الحجة على المسيء أبلغ والتبكيت له أعظم والحسرة أشد. أما المطيع فيكون سروره بشهادة الرسول ﷺ له أعظم من شهادة غيره فيا لها من شهادة ما أعظمها وأجلها.

كما أرسلنا إلى فرعون: الكاف للتشبيه. تشبيه الإرسال بالإرسال أي إرسالًا كائنًا مثل إرسالنا رسولًا إلى فرعون يدعوه إلى الحق والإيمان.

رسولًا: الرسول هو موسى عليه الصلاة والسلام فإنه رسول رب العالمين إلى فرعون.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢٣/ ٦٩٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ٩٨) كتاب «فضائل القرآن»/ باب البكاء عن قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).

فعصى فرعون الرسول: وعصيان فرعون الرسول هو تكذيبه إياه وعدم الإيمان به، والانقياد لما أمره به.

وفي إعادة فرعون والرسول مُظْهَرَين تفظيع لشأن عصيانه.

وأل في الرسول هنا للعهد الذكري.

فأخذْناه أخذًا وبيلًا: الوبيل هو العظيم الشديد الثقيل ومنه مطر وابل أي شديد قاله الأخفش وطعام وبيل: أي ثقيل واخم. وقيل الوابل: الثقيل الغليظ قاله الزجاج. وقال الطبري الوبيل: الشديد المتتابع. وقيل الوبيل: الشر. والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر لقد أوبل عليه قاله ابن زيد(١)، والمعنى: أي عاقبناه عقوبة غليظة شديدة متَتابعة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٦] «خارج من التشبيه جيء به للتنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة»(٢).

والمراد من ذلك الحذر من تكذيب رسولكم محمد ﷺ فيصيبكم ما أصاب فرعون وجنوده من العذاب الأليم.

قال ابن كثير: وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذّبتم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران(٣).

وقال الألوسي: وفيه أن عصيان المخاطبين أفظع وأدخل في الذم إذ زاد جل وعلا لهذا الرسول وصفًا آخر أعني شاهدًا عليكم وأدمج فيه أنه لو آمنوا كانت الشهادة لهم. وفائدة قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد وأشد(٤).

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٣/ ٦٩٣-٦٩٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٤٨).

(٢) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٦/ ٤٠٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٤) «روح المعاني» (١٥/ ١٢٠).

إذًا مما سبق يتبين لنا من هذه الآية أمران:

١- حمد الله وشكره على إرسال هذا النبي الكريم ليخرجنا الله به من الظلمات إلى النور.

٢- الحذر كل الحذر من كفران هذه النعمة بمعصية الرسول المرسل إلينا لأن العاصي مآله كمآل فرعون ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣].

وتأمل كيف جمع الله بين المشركين وفرعون وفي ذلك إشارة إلى ما بين هؤلاء المشركين وبين فرعون من المشابهة في العناد والجهل والضلال والاستعلاء عن سماع كلمة الحق والنفور منها.

فمن اتصف بهذه الصفات فله نصيب من عقوبتهم.

(الثانية): أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

....

ثم حذر المؤلف من طريق وعر المسالك يؤدي إلى المهالك يسلكه بعض الناس يظنون أنه يوصل إلى النجاة فإذا به طريق العطب، يوصلهم إلى النار وبئس المصير. إنه طريق مناقض للطريق الأول تمامًا. فإنه لا يجتمع الشرك الأكبر والتوحيد في قلب عبد أبدًا.

حذَّر منه المؤلف بعبارة تدل على اللطف والمحبة والشفقة، فقال «**إِنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ**»، ولعله اقتبسها من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر:٧] «لا يرضى لعبادة الكفر لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها»[١] فالرضى يشعر بالإذن مع محبة الفعل. أما عدم الرضى فيشعر بالمنع مع كراهية الفعل والسخط على فاعله. ولهذا كان الرضى يقابله الكراهة، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قيلَ وقَالَ وَكَثْرَةَ السُّؤالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**»[٢].

ويقابله السخط: «وهو نقيض الرضا»[٣] قال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران:١٦٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٦٦).

(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٠) كتاب «الأقضية»/ باب النهي عن كثرة المسائل. رقم (١٧١٥).

(٣) «تهذيب اللغة» (٧/ ١٥٩).

فمن اتبع رضوان الله فاز بجنات النعيم، ومن باء بسخط الله فعقوبته جهنم.

ولماذا لا يرضى الله شركًا به؟

لا يرضى الله شركًا به لثلاثة أمور، هي:

١- لكمال إحسانه بعباده، ولمحبته سعادتهم.

٢- علمه أن الشرك يشقي أهله شقاوة لا يسعدون بعدها أبدًا.

٣- لأنه أعظم الظلم، فهو مَسَبَّةٌ لله إذ هو تسوية للناقص بالكامل، وصرف خالص حق الله لغيره، قال تعالى مبينًا اعتراف المشركين وندمهم على فعلتهم الشنيعة إذا ألقوا في النار ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]. فهم لم يسووهم به في الربوبية؛ لأنهم قالوا: (رب العالمين)، وإنما سووهم به في الألوهية والعبادة.

فإذا ما عرف المسلم عدم رضى الله تعالى بالشرك معرفة قلب أثمر له **ذلك أمرين**:

١- أنه لا يرضاه لنفسه.

٢- لا يرضاه لغيره.

وذلك لأن المسلم يجب أن يكون هواه موافقًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيغضب لغضب الله ويرضى لرضاه، فيزيل الشرك أنى وجده بأسرع وقت ممكن.

وقد كان وجود الشرك مؤرِّقًا للرسل عليهم السلام، ومُقِضًّا لمضاجعهم، فلا يهنأ لهم عيش، ولا يهدأ لهم بال، حتى يزال من الأرض، ومن ذلك: صنع السامري لقوم موسى عليه السلام عجلًا له خوار ثم دعاهم إلى عبادته فأطاعوه، وذلك حين ذهب موسى إلى ربه فأخبره ربه بما فعل السامري مع قومه فرجع إليهم غضبان أسفًا ممتلئًا غيظًا وحنقًا، وغمًا وحزنًا وكمدًا، ومن شدة غضبه ألقى الألواح مع ما فيها من الهدى، ووبخ قومه على فعلتهم القبيحة وعاتب أخاه وشدَّد عليه وأخذ برأسه ولحيته يجره إليه، وعاقب السامري عقوبة دنيوية لم يعاقب أحد مثلها بأن لا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد طوال حياته، ونهى موسى

عليه السلام بني إسرائيل أن يخالطوه ويقربوه فصار يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد [1]. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[طه:٩٧].

وتوعده بعقوبة أخروية وهي العقوبة الشديدة يوم يلقى الله ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾[طه:٩٧] فيجازيك الله بما تستحق من العقوبة على فعلك القبيح الذي هو إفساد الناس بنقلهم من التوحيد إلى الشرك.

ثم أخرج الآلهة المزعومة من قلوب بني إسرائيل بإحراقها ونبذها في اليم، وهم ينظرون. قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[طه: ٩٧]، ولو كانت آلهة على الحقيقة؛ لدفعت عن نفسها، ثم أدخل في قلوبهم الإله الحق الذي لا يجوز أن يعبد ويوحد إلا هو: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨][2].

وكذلك نبينا ﷺ لم يرض بقاء الأصنام، بل كان يصيبه الهم والغم وضيق الصدر والتألم التام عندما يرى مظاهر الشرك. فيزيلها أو يأمر بإزالتها ومن ذلك ما روى جرير رضي الله عنه: «قال لي النبي ﷺ «**ألا تريحني من ذي الخلصة؟**». فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «**اللهمَّ ثبته واجعله هاديًا مهديًّا**». قال: فما وقعتُ عن فرس بعد. قال وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة قال فأتاها فحرقها بالنار وكسرها...، ثم بعث جرير رجلًا من أَحْمس يكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك. فلما أتى النبي ﷺ

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٠). الزاني يغرب عامًا كاملًا، وما أشده عليه، فكيف بمن يغرب طول حياته.

(٢) سورة طه من آية (٨٥-٩٨).

قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب. قال فبرَّك النبي ﷺ على خيل أَحْمس ورجالها خمس مرات»[١].

قوله: (ألا تريحني): طلب يتضمن الأمر والمراد بالراحة راحة القلب وما كان شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يشرك به من دون الله تعالى[٢].

ومما يدل على شدة ارتياحه وفرحه ﷺ بإزالة ذلك الصنم مبالغته في الدعاء لأحمس بالبركة خمس مرات مع أنه ما كان يزيد على ثلاث في الدعاء صلوات ربي وسلامه عليه.

أن يشرك: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي شركًا، فيشمل جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره.

والشرك لغة: المشاركة بين اثنين فأكثر في أمرٍ ما.

اصطلاحًا: مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وقيل: صرف شيء مما يختص الله به لغيره.

ولما كان الله لا يرضى الشرك حذر منه أيما تحذير، وحذر منه رسوله ﷺ بأساليب متنوعة منها:

١- **النهي المباشر عنه**: النهي المباشر يهز الأفئدة ويزجرها عن الوقوع في المنهي عنه قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[الحج:٣٠]، أي: فاجتنبوا الأوثان كلها فإنها رجس[٣].

٢- **بيان عدم مغفرته**: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٠) كتاب «المغازي»/ باب غزوة ذي الخلصة. رقم (٤٣٥٧).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٧٢).

(٣) «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٥٢).

الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين ووحدانيته، فكفى المشرك تنغيصًا وتكديرًا لحياته، شعوره بأنه لا يغفر الله له.

قال شيخنا العثيمين: الشرك الأصغر لا يغفر لأنه يفسد القلب والقصد فإذا فسد القصد فسد العمل، والعمل مبناه على القصد[١].

٣- فتنة أهله به: قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٣]. قال قتادة: «أُشربوا حُبَّه حتى خَلَصَ ذلك إلى قلوبهم»[٢].

قال الراغب: «قال أهل النحو: أريد حب العجل، فحذف المضاف تحقيقًا، ويجب أن يعلم أنه لو قيل: حب العجل لم يكن من المبالغة ما له بحذفه؛ لأن فيه تنبيهًا أنه لفرط شغفهم به ثبتت صورة العجل في قلوبهم راسخة»[٣].

«وعبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها»[٤].

ومعناه: أنه داخلهم حب العجل، حتى خالط قلوبهم ودمهم وعروقهم.

قال ابن القيم: «لو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حُبًّا لها وتعظيمًا ويوصي بعضهم بعضًا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل

(١) «القول المفيد» (١/ ٤٤٨).

(٢) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٧٦).

(٣) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٢٦٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣٢).

العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها»[(١)].

٤- عظيم افتراء المشرك: قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨] أي افترى جرمًا وذنبًا عظيمًا إثمه.

٥- بيان عاقبة المشرك: وذلك بتحريم الجنة عليه وإذا حرمت الجنة عليه صار مآله جهنم والعياذ بالله فيبحث عن أحد ينصره ويعينه لإخراجه من النار فلا يجد فيزداد ألمًا وحسرة قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

حرم الله عليه الجنة لأنه صرف خالص حق الله وهو العبادة لغيره، فاستحق الخلود في النار لأنه خبيث والنار دار الخبيثين يطلبون الخروج منها فلا يجابون ويطلبون التخفيف فلا يجابون ويطلبون الموت فلا يجابون. فهل من حسرة وندامة أشد من حسرتهم وندامتهم؟.

٦- حبوط عمل المشرك:

بعد أن ذكر الله عددًا من رسله مادحًا إياهم وآمرًا نبيه محمدًا ﷺ بالاقتداء بهم والسير على هداهم بين أنهم لو وقع منهم الشرك لحبطت أعمالهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨].

قال شيخ الإسلام: «والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أنَّ الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره، وكذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بيّن بذلك أنه إذا قُدِّرَ وجوده كان مستلزمًا لحبوط

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٥).

عمل المشرك وخسرانه كائنًا من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا لغض قدر المخاطب»[(١)].

وقال ابن القيم: «وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة»[(٢)].

٧- التحذير منه بطريق الموعظة والنصيحة وبيان أنه أعظم الظلم.

قال تعالى عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

«ووجه كونه ظلمًا عظيمًا أنه لا أفظع ولا أبشع ممن سوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمالك الأمر كله. وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه وسوّى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرَّة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه ولا يصرف السوء إلا هو. فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله تعالى لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب»[(٣)].

٨- توعد المشركين بالويل: قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[فصلت:٦-٧]. «قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقيل المعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص...

---

(١) «الرد على البكري» (٢٤٠).

(٢) «هداية الحيارى» (٣٠٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ١٥٥).

والتحقيق أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة»[١].

٩- التحذير من الشرك بضرب المثل الحسي:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج:٣١].

شبه الله تارك التوحيد الواقع في حمأة الشرك بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين حيث الضيق والشدة والآلام المتراكمة فتخطفه الطير بسرعة لا يستطيع التخلص منها فتمزقه وتقطع أعضاءه فلا يصل إلى الأرض منه شيء أو تحمله الريح إلى مكان بعيد فلا تبقي له على أثر ولا يوجد منه شيء فيراه الناس.

وكذلك الشرك إذا دخل القلب أطفأ نور التوحيد بل أخرجه من القلب فلم يبق للتوحيد أثر في القلب، وصار القلب مظلمًا بظلمات الشرك تتجاذبه الأهواء فاحذر من الشرك كبيره وصغيره فإنه يميت القلب ويحبط العمل إن كان أكبر، ويحبط ما قارنه إن كان أصغر.

١٠- خوف الرسل من الشرك:

لما كان الشرك أعظم الذنوب وأخطرها على القلوب خافه المؤمنون الخُلَّص على أنفسهم قبل غيرهم فها هو الخليل إبراهيم عليه السلام الإمام القدوة يبتهل إلى ربه أن يعافيه وذريته منه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

فإذا كان أبو الحنفاء إبراهيم عليه السلام مع علو مرتبته عند الله، ومع دعوته للتوحيد وتحطيمه للأصنام بيده خاف من عبادتها بل بالغ في الحذر منها فقال: واجنبني، ولم يقل:

(١) «تزكية النفس» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٩-٥٠).

احفظني أو عافني، ونحو ذلك؛ لأن اجنبني بمعنى اجعلني في جانب والشرك وأهله في جانب وهذه غاية المباعدة. فإذا كان هذا حَذَرُ إبراهيم عليه السلام وخوفه من الشرك فغيره ممن هو دونه من باب أولى أن يخاف. قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم»(١) فلنحذر من الشرك بالابتعاد عنه قدر الطاقة، ولنكثر من هذا الدعاء: «**اللهمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»(٢).

١١- بيان أن الشرك هو أعظم الذنوب:

إذا كان الشرك هو الذنب الذي لا يغفر دل ذلك على أنه أعظم الذنوب. قال عبدالله بن مسعود: «سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»، قلت: إن ذلك لعظيم. قلت ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك تخافُ أن يطعم معك**». قلت: ثم أي قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». وفي لفظ: «**أي الذنب أكبر**»(٣).

١٢- خفاء الشرك على الناس:

علينا أن نحذر أن نقع في أعظم الذنوب ربما ونحن لا نشعر. قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»(٤).

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٢٢٨).

(٢) «الأدب المفرد» للبخاري (٢٤٧)/ باب فضل الدعاء. رقم (٧١٦)، وصححه الألباني في تحقيقه له.

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٦٣)، كتاب «التفسير»/ باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. رقم (٤٤٧٧)، ومسلم (١/ ٩٠)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده. رقم (٨٦).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٦٢) رقم (٢٢٩). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده جيد». «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧).

«أي أن هذه الأمور من الشرك خفية في الناس لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي فكيف إذا كانت على صفاة فكيف إذا كانت سوداء فكيف إذا كانت في ظلمة الليل. وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام وعسر التخلص منه ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أيُّها النّاس اتقُوا هذا الشِّرك؛ فإنَّه أخفى من دبيب النّمل**»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**»[(١)(٢)].

وفي رواية للبخاري قال معقل بن يسار: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «**يا أبا بكر للشّرك فيكم أخفى من دبيب النّمل**»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: «**والّذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النّمل، ألا أدلك على شيءٍ إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»[(٣)].

١٣ - لعن الفاعلين له:

لعن النبي ﷺ وهو في أصعب المواقف. عند الموت وشدة النزع من اتخذ القبور مساجد؛ ليحذر أمته أن تفعل فعلهم كما في الحديث عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

---

(١) أحمد (٤/ ٤٠٣).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧-٥٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

ففهما رضي الله عنهما أنه قاله محذرًا لأمته فقالا: «يحذر ما صنعوا»، وفي لفظ لمسلم عن عائشة رضي الله عنها: «فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»[(١)].

١٤- معاملة المشرك بنقيض قصده:

المشرك أشرك مع الله غيره طمعًا في الأمن في الدنيا والنجاة في الآخرة فعامله الله بنقيض قصده فأصابه بالرعب في الدنيا وجعل عاقبته النار في الآخرة، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران:١٥١]. والمثوى مكان الثُّويّ والثواء الإقامة على الدوام[(٢)].

فانظر كيف قذف الله الرعب في قلوبهم بسبب شركهم بالله وطلبهم النصر والنجدة من غيره، ثم جعل مستقرهم النار وبئس المستقر، فذكر الله مثواهم بعد مأواهم للدلالة على خلودهم فيها.

١٥- نجاسة المشرك:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[التوبة:٢٨].

«أنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يُلْمَسُ ولا يُشَمُّ ولا يُرى، فضلًا أن

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٠٠)، كتاب «الجنائز»/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور. رقم (١٣٣٠)، و(٦/ ٤٩٤)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣، ٣٤٥٤)، ومسلم (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، كتاب «المساجد»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور. رقم (٥٢٩، ٥٣١).

(٢) «العذب النمير» (٢/ ٢٤٥).

يخالط ويلابس لقذارته ونفرة الطباع السليمة عنه... والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها»(١).

١٦- حسرة المشرك يوم القيامة وبعده:

وضّح الله تعالى حسرة المشركين وشدة ندمهم حيث لا ينفعهم ندمهم، فقال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٩١-١٠١]، وحسرتهم حين يتبرأ المتبوعون من التابعين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:١٦٥-١٦٧].

فالمشرك يتحسر ويندم ولكن لات حين مندم.

١٧- أن الرسل كلهم بعثوا بالتحذير منه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:٣٦].

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥٩-٦٠).

١٨- استنكار الطيور للشرك:

إذا كانت الطيور التي لم تكلف ولا تعقل تستنكر الشرك فكيف بك أيها الإنسان العاقل المكلف يجب أن يكون استنكارك أعظم قال تعالى في قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[النمل:٢٤-٢٦].

«حَذَفَ الله أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانًا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشياطين لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم»(١).

١٩- حرمان المشرك من الاستغفار له إذا مات:

حقت كلمة العذاب على المشركين، ووجب عليهم الخلود في النار فلا ينفعهم استغفار مستغفر، بل لا يجوز أن يستغفر لهم أحد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ ثم ذكر علة النهي عن الاستغفار، فقال: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣] فعلة النهي هي كونهم من أهل الخلود في النار لكونهم ماتوا على الشرك فلا ينفعهم الاستغفار «فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده»(٢).

٢٠- إثبات وقوعه في هذه الأمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تضطرب إليات**

(١) «شفاء العليل» (١/ ٢٤٢).

(٢) «فتح القدير» (٢/ ٤١٠).

نساء دوس على ذي الخَلَصة»[١].

وكما في حديث ثوبان الطويل وفيه: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتَّى تعبد قبائل من أمتي الأوثان...**»[٢].

فإذا كان وقوعه في هذه الأمة حتماً وبهذه الكثرة أوجب لنا ذلك الفزع والخوف من الوقوع فيه مع من وقع، وأوجب علينا تعلم التوحيد ومعرفة ما يضاده من الشرك مع البعد عنه أشد البعد.

٢١- ذم المشرك وخذلانه:

قال تعالى ذامًا المشركين الذين عبدوا معه غيره: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢]، أي مذمومًا لا حامد لك، ومخذولًا لا ناصر لك[٣].

٢٢- ضلال المشرك وظلمه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾[الأحقاف:٥]، «من: استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالًا وأعجب حالًا ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد من الضلالة»[٤].

---

(١) البخاري (١٣/ ٧٦) كتاب «الفتن»/ باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان. رقم (٧١١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٠)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة. رقم (٢٩٠٦).

(٢) أبو داود (٤/ ٤٥١) كتاب «الفتن»/ باب ذكر الفتن ودلائلها. رقم (٤٢٥٢) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون في الفتن (٣٩٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٩٩)، كتاب «الفتن»/ باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون. رقم (٢٢١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٨).

(٤) «التحرير والتنوير» (٢٦/ ١١).

فالمشرك هو أضل الناس، فهل يرضى عاقل أن يوصف بهذا الوصف، لا سيّما وأن المدعوين عباد مربوبون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[الأعراف:١٩٤]. قال الشنقيطي: «فهذه الآيات تبين سخافة عقول المشركين حيث عبدوا من هو دونهم وهم أكمل منه»[١]، وهل هناك أسخف عقلًا ممن يعيش حياته طالبًا ممن لا يقدر على نفعه أو ضره.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦] والمشرك هو أظلم الناس وذلك لتعديه على حق الله بصرفه لغيره. وهذا التعدي أعظم الظلم وأقبحه.

٢٣- اغتنام الفرص للتحذير من الشرك:

ذكر النبي ﷺ الدجال ذات يوم فخفض فيه ورفع حتى ظنه الصحابة في طائفة النخل وخافوا منه أشد الخوف حتى عرف ذلك النبي ﷺ في وجوههم فلما رآهم على تلك الحال خَوَّفهم مما هو أخطر وهو الشرك فعن أبي سعيد الخدري قال كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فيكثر المحتسبون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال: «**ما هذه النَّجوى، ألم أنهكم عن النَّجوى**» قال: قلنا نتوب إلى الله يا نبيَّ الله إنما كنا في ذكر المسيح فرقًا منه، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟**». قال: قلنا: بلى، قال: «**الشرك الخفي أن يقوم الرَّجل يعمل لمكان رجل**»[٢]. وفي رواية لابن ماجه: «**أن يقوم الرَّجل يصلي فيزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل**»[٣].

---

(١) «العذب النمير» (٤/ ٤٢٤).

(٢) أحمد (٣/ ٣٠).

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦)، كتاب «الزهد»/ باب الرياء والسمعة. رقم (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤١٠).

٢٤- إبطال الأشياء التي يتعلق بها المشرك:

يتعلق المشركون بالملك والشراكة والإعانة والشفاعة فأبطلها الله بقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢-٢٣].

«هدَّد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركًا في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة. ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣]... وهذا كله يبين أن الأمر كله لله[١]».

وقال ابن القيم: «فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا منتقلًا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه نورًا وبرهانًا ونجاة وتجريدًا للتوحيد. وقطعًا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها»[٢].

٢٥- سد ذرائع الشرك القولية والفعلية والمكانية:

نظرًا لخطورة الشرك اهتم النبي ﷺ بسد الذرائع الموصلة إليه، سواء كانت قولية، أو فعلية، أو مكانية.

ومن القولية قول النبي ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم أطعم ربَّك وَضِّئْ ربك، وليقل سيّدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ١٧٧) كتاب «العتق»/ باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أو أمتي. =

نهى النبي ﷺ عن هذه الألفاظ لما فيها من التشريك في اللفظ لأن الله هو رب العباد جميعهم فإذا أطلق على غيره شاركه في هذا الاسم فينهى عنه لذلك وإن لم يقصد التشريك في الربوبية التي هي وصف لله تعالى[(١)]، كل هذا تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لذرائع الشرك.

ومن الفعلية النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها فعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله يقول: «**لا صلاة بعد الصُّبح حتَّى ترتفع الشَّمس، ولا صلاة بعد العصر حتَّى تغيب الشمسُ**»[(٢)].

قال ابن القيم: «وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعُبَّادِ الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس»[(٣)].

ومن المكانية فعل عمر رضي الله عنه لما قطع الشجرة كما يروي ذلك نافع فيقول: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت[(٤)].

= رقم (٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤-١٧٦٥) كتاب «الألفاظ من الآداب»/ باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد. رقم (٢٢٤٩).

(١) انظر: «فتح المجيد» (٢/ ٧٥٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٦١) كتاب «مواقيت الصلاة»/ باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس. رقم (٥٨٦).

(٣) «الجواب الكافي» (١٥٧).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٠٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وقال ابن حجر: «رواه ابن سعد بإسناد صحيح». «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨).

وكما روى المعرور بن سويد قال: كنت مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة، فصلى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾[الفيل:١]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[قريش:١]، ثم رأى أقوامًا ينزلون فيصلون في مسجد فسأل عنهم، فقالوا: مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا. من مرَّ بشيء من المساجد فحضرت الصلاة، فلْيُصَلِّ، وإلا فَلْيَمْضِ»[1].

٢٦- حرمان المشرك من الشفاعة:

تنتظم الشفاعة نصف أمة محمد ﷺ، بل تزيد كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إنَّه أتاني اللَّيلة من ربِّي آتٍ فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمَّتي الجنَّة، وبين الشَّفاعة، وإنِّي اخترت الشّفاعة**»، قالوا: يا رسول الله ننشدك الله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك. قال: فلما أَضَبُّوا عليه قال «**فأنا أشهدكم أنَّ شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمتي**»[2]. وفي لفظ: «**أتدرون ما خيّرني ربي الليلة**»، فقلنا: الله ورسوله أعلم، **قال: فإنه خيّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فقلنا: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها. قال: هي لكل مسلم**»[3].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعجل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمّتي يوم القيامة، فهي نائلة إنْ شاء الله من مات من أمّتي لا يشرك بالله شيئًا**»[4].

---

(١) «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ١١٨-١١٩) رقم (٢٧٣٤) وصحح إسناده شيخ الإسلام. «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨١).

(٢) أحمد (٦/ ٢٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٤٨٦-٤٨٧) رقم (١١٨٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٣٨٨)، والترمذي (٤/ ٦٢٧-٦٢٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٤١).

(٣) «الإيمان» لابن منده (٣/ ٨٥٢-٨٥٣)، وقال ابن منده: «وهو ثابت على رسم مسلم».

(٤) مسلم (١/ ١٨٩)، كتاب «الإيمان»/ باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته. رقم (١٩٩).

فهذه الشفاعة التي يرنو إليها كل مسلم قد قُيِّدَتْ بعدم الشرك. فمن أشرك لم يدخل في شفاعة المصطفى ﷺ. فياويح من حرم الشفاعة بسبب شركه بالله عز وجل.

وأختم بهذين الأثرين عن السلف حول الخوف من الشرك.

١- قال عمر رضي الله عنه في دعائه: «اللهم اجعل عملي صالحًا واجعله لك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[١].

٢- وقال شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه -له صحبة-: «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»[٢].

(معه أحدٌ في عبادته):

مع: المعية تفيد المشاركة، والضمير في قوله «معه»: يعود على الله عز وجل.

أحد: نكرة في سياق النفي، فتكون عامة، وتفيد النهي عن جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.

في عبادته: أضاف العبادة إلى الله لأنه هو الذي يجب أن يقصد بها وحده فلا تصح إلا له سبحانه، وذلك لأن «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة. فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]»[٣].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ قسم العقيدة (١/ ١٩٩-٢٠٠).

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[(١)].

وقيل: هي ما جمعت غاية الذل مع غاية المحبة.

(لا مَلَكٌ مُقَرّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ):

وأكد النهي عن الشرك بالله بنفي عبادة أعظم الخلق منزلة عند الله تعالى فقال: لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. لأنك إذا نفيت عبادة الأعلى نفيت الأدنى من باب أولى.

أما دليل قرب الملائكة فهو قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:١٧٢].

فوصف الملائكة بالقرب: أي أنهم قربت درجاتهم وأعليت مكانتهم عند الله فهم قد جمعوا بين القربين:

١- قرب المكان: فهم في السماء ولذا قال البغوي: المقربون: أي حملة العرش[(٢)].

٢- قرب الحال: أي أن الله قد أحبهم ورضي عنهم وأكرمهم لاستقامتهم على طاعته وعدم معصيتهم له فقال تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٧].

النبي: هو رجل ذكر أوحي إليه بشرع من قبله وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم مؤمنين.

أما أنه بشرع من قبله فلقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾[المائدة:٤٤].

---

(١) «العبودية» (٣٨).

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٠٣).

وأما أنه أمر بالتبليغ فلقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢].

فأثبت الله الإرسال للنبي كما هو للرسول، فدلّ على أن النبي مأمور بالتبليغ.

وقوله ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: **«عرضت عليَّ الأمم فجعل يمرُّ النَّبي معه الرجل، والنَّبي معه الرّجلان، والنَّبيُّ معه الرهط، والنَّبيُّ ليس معه أحد»**(١).

فمجيء الرجل والرجلان والرهط مع الأنبياء دليل على أنهم يبلغونهم ويدعونهم.

وأيضًا قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلَّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي...»**(٢).

(تسوسهم الأنبياء) أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبيًا يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة(٣).

أما الرسول: فهو رجل ذكر بشر أوحي إليه بشرع جديد وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم كافرين.

وقول المصنف ولا نبي مرسل: أي وإن كان رسولًا نبيًا قد جمع بين المرتبتين فصار أعلى مراتب البشرية، وأعلى وأفضل من جمع بين النبوة والرسالة هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك لا يجوز أن يعبد مع الله تبارك وتعالى.

---

(١) البخاري (١٠/ ٢١١) كتاب «الطب»/ باب من لم يرق. رقم (٥٧٥٢)، ومسلم (١/ ١٩٩) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٥) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٥)، ومسلم (٤/ ١٤٧١-١٤٧٢)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم (١٨٤٢).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٧).

وذكر هذين النوعين لأمرين:

١ - لأن المشركين لا يشركون إلا بمن يعظمونهم ويرون أن لهم مكانة، وجاهًا عند الله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

٢ - إذا كان لا يرضى الله أن يشرك معه هذين الصنفين وهم أعلى الملائكة وأعلى البشر فغيرهم ممن هو دونهم من باب أولى ألا يرضى أن يشركوا معه.

ففي هذا حسم لمادة الشرك.

ولما كان سبب الشرك هو الخلط بين حقِّ الله وحق غيره وجب التنبيه عليها ومعرفتها لئلا نقع في الشرك، والقاعدة في ذلك:

«خلط الحقوق شرك وتنديد، كما أن التفريق بينها إيمان وتوحيد».

وتتضح هذه القاعدة بمعرفة أنواع الحقوق الثلاثة:

الأول: حق خالصٌ لله، وهو العبادة.

وضابطه: ما كان من توابع الألوهية(١)

ولما كانت العبادة خالص حقه سبحانه أمر الناس بتخصيصه بها وحده دون غيره ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾[هود:٢].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[هود:٢٥-٢٦].

وقوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٦).

فجمع في الأمر بعبادته بين النفي والإثبات الذي هو أبلغ صيغ الحصر ليدل دلالة واضحة على أن العبادة حق له وَحْدَهُ فمن صرفها لغيره فقد أشرك.

وكان النبي ﷺ يركز على بيان هذه الحقيقة وتجليتها ومن ذلك سؤاله المشهور لمعاذ بن جبل حين كان رديفه على الحمار فقال له: «**يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟**»، قال معاذ: الله ورسوله أعلم. فجلَّى له الحقيقة قائلًا: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا...**»[(١)].

ويزيد عيسى عليه الصلاة والسلام الأمر وضوحًا حين يجيب سؤال ربه إذْ سأله أأنت قلت للناس اعبدوني وأمي بقوله: هذا ليس حقًّا لي فاطلبه منهم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:١١٦-١١٧].

ولما خشي الرسول ﷺ أن تغلو به أمته فتصرف له حق الله تعالى حذرهم ونهاهم بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النّصارى ابن مريم، فإنَّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(٢)].

الثاني: حق الرسول ﷺ:

وضابطه: ما كان من أمور الرسالة[(٣)].

للرسول ﷺ حق خالص لا يشركه فيه غيره وهو الاتباع وذلك أنه لا يصح إيمان

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾[مريم:١٦]. رقم (٣٤٤٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٦).

عبد إلا باتباعه للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١].

فمن لم يتبع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله لم يصح منه زعمه محبة الله وعبادته.

وأكد النبي ﷺ تخصيصه بالاتباع بقوله: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»(١). قال ابن القيم في كلامه عن الهجرة القلبية «وهجرةٌ إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفضيل محاب الله ومرضاته»(٢).

وكذلك من حقوقه ﷺ التعزير والتوقير ويدل له قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩].

الثالث: حق مشترك:

وضابطه: ما ورد في النصوص ذكره حقًّا لله ولغيره «ما ورد تشريكه في الشرع»، ومن ذلك: الإيمان بالله وبرسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:٧].

وتصديق قول الله وقول رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢].

ومنها الطاعة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

ومنها المحبة كما في قوله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجد بِهِنَّ حَلاَوَة الإِيمانِ أنْ يَكُونَ الله وَرَسُولهُ أَحَبّ إليهِ مِمّا سِوَاهُمَا. وأَنْ يُحِبَّ المَرْء لاَ يُحِبه إلاَّ لله**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «طريق الهجرتين» (٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٦٠)، كتاب «الإيمان»/ باب حلاوة الإيمان. رقم (١٦)، ومسلم (١/ ٦٦)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان. رقم (٤٣).

وقَيْدُه: أن يكون لله أصلًا ولغيره تبعًا.

وثمرة هذا القيد: أن يكون الفعل عبادة لله وحده، ونوضحه بالمثال:

١- الطاعة: نحن نطيع الله لذاته، ونطيع رسول الله ﷺ لأجل الله أي: لأجل أن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله حينما نطيع الرسول ﷺ، ونطيع وليّ الأمر؛ لأن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله بطاعته.

يوضحه: أننا لو أمرنا وليّ الأمر بمعصية الله: لم نطعه.

٢- المحبة: نحن نحب الله لذاته، ونحب رسول الله ﷺ لأجل الله، فنحن نتعبد لله حينما نحب رسول الله ﷺ، ونحب المؤمنين لأجل الله -لأن الله أمرنا بمحبتهم-.

يوضحه: أنه لو ارتد رجل كان مسلمًا لأبغضناه وعاديناه.

والقاعدة في ذلك: «**لا يحب ولا يطاع لذاته إلا الموجود بذاته**»[1].

وذلك أن الموجود بذاته هو الله وحده فيحب لذاته ويطاع لذاته، أما غيره من مخلوقاته فكلها موجودة بغيرها. أي أن جميع المخلوقات أوجدها الله ولم توجد أنفسها، فتحب لأجل موجدها وتطاع لأجل موجدها. فالرسول ﷺ أوجده الله فهو يحب ويطاع ويتبع ويعزر ويوقر كل ذلك لأجل الله، فتكون هذه الأفعال عبادة لله، وكذلك المسلم أوجده الله فهو يحب لأجل الله، فتكون محبة المسلم عبادة لله.

وقد جمع الله هذه الحقوق الثلاثة بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح:٩].

فبدأ بالحق المشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ثم ثنّى بحق الرسول ﷺ وهو التعزير والتوقير ثم ثلّث بحقه الخاص وهو التسبيح له بالغداة والعشي.

---

(١) ومثلها بقية الحقوق المشتركة، كالولاء والطاعة وغيرها.

وقد نظمت في هذه الأبيات:

ثلاثـةٌ يـا مـسلمٌ أعنـي الحقوقـا فكـن لحفظهـا وفهمهـا سبـوقا
فحـق ربنـا هـو العبـاده فأخلـصنْ لـه تنـل سعـاده
والثـان حـق المـصطفى المختـار تِبـاعُ هديـه عـلى اصـطبار
وثالـث الحقـوق حـق مـشترك كطاعـة لربنـا نبيـه ومـن ملـك
لكـن أصلـه لربنـا الرحمـن وغـيره فتـابع فـاحفظ بيـاني

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

....

أن: للتوكيد.

الـ: للاستغراق فتفيد العموم.

مساجد: جمع مسجِدْ بكسر الجيم أي المواضع التي بنيت للسجود أو الأرض التي يسجد عليها قال الحسن: البقاع كلها؛ لأن الأرض جعلت كلها مسجدًا للنبي ﷺ[١]، كما ورد في الحديث: «**أعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي.. ومنها: وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصلّ**»[٢].

أو جمع مسْجَد بفتح الجيم فتكون مصدراً بمعنى السجود فيكون معناها «الصلوات» وبه قال الحسن أيضًا.

أو الأعضاء التي يسجد العبد عليها. قال سعيد بن جبير المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان[٣]، فعلى هذا يكون معنى المساجد مواضع السجود من الجسد.

ولا منافاة بين المعنيين، فالسجود على الأعضاء وهي على الأرض.

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٤٣٥-٤٣٦)، كتاب «التيمم». رقم (٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة». رقم (٥٢١).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤)، وهي التي بينها النبي ﷺ بقوله: «**أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين، والرُّكبتين، وأطراف القدمين**». البخاري مع الفتح (٢/ ٢٩٧) كتاب «الأذان»/ باب السجود على الأنف. رقم (٨١٢)، ومسلم (١/ ٣٥٤)، كتاب «الصلاة»/ باب أعضاء السجود. رقم (٤٩٠).

لله: أضيفت إلى الله باللام الدالة على التمليك فما دامت ملكًا لله وهو الذي خلقها فلا يجوز أن تصرف العبادة لغيره بها، ولهذا قال:

فلا تدعوا مع الله أحدًا.

الفاء: فاء التفريع والسبب.

لا: ناهية تفيد المنع والتحريم.

تدعوا: الدعاء يأتي بمعنى الطلب فهو طلب الطالب للفعل من غيره[1]، وقال الشوكاني: معنى الدعاء حقيقة وشرعًا هو الطلب[2].

ويأتي بمعنى العبادة قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[3].

أي: فلا تعبدوا مع الله غيره كائنًا من كان ولكن التعبير بـ«تدعوا» أبلغ من «تعبدوا» لأن لفظ تدعوا تشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة[4].

مع الله: مع: تفيد المشاركة أي: فلا تجعلوا شريكًا مع الله في عبادته.

أحدًا: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم أي أنه لا يجوز دعاء غير الله مهما بلغ في المنزلة والرتبة.

---

(١) «المخصص» لابن سيده (١٣/ ٨٨).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٤٩٨).

(٣) أحمد (٤/ ٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٣٧٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة المؤمن. رقم (٣٢٤٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وحسنه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (١/ ٤٩).

(٤) سيأتي له مزيد بيان وإيضاح فيما بعد.

والآية نهت عن الشرك ودلت على عدم الرضى به **وأكدت ذلك بما يلي**:

١- حرف «أن».

٢- ذكر المساجد بالألف واللام للاستغراق المفيد للعموم.

٣- تخصيصها لله ملكًا وخلقًا.

٤- النهي عن دعاء غير الله تعالى معه.

٥- ذكر كلمة أحد بعد النهي فتفيد عموم المخلوقات.

قال الإمام محمد بن عبدالوهاب:

في هذه الآية عشر درجات، منها:

١- تصديق القلب أن دعوة غير الله باطلة.

٢- أنها منكر يجب فيها البغض.

٣- أنها من الكبائر والعظائم المستحقة للمقت والمفارقة.

٤- أن هذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره.

٥- أن المسلم إذا اعتقده أو دان به كفر.

٦- أن المسلم الصادق إذا تكلم به هازلًا أو خائفًا أو طامعًا كفر بذلك.

٧- أنك تعمل معه عملك مع الكفار من عداوة الأب والابن وغير ذلك.

٨- أن الداعي لغير الله لا تقبل منه الجزية كما تقبل من اليهود ولا تنكح نساؤهم كما تنكح نساء اليهود لأنه أغلظ كفرًا[١].

(١) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول (٣٨٨).

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

....

أن: للتوكيد.

من: شرطية فتفيد العموم، أي: كل مطيع للرسول ﷺ وموحد لله.

أطاع الرسول: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلًا أو تركًا منقادًا راضية بذلك نفسه.

الرسول: هو نبينا محمد ﷺ والألف واللام للعهد الذهني وكلمة من أطاع الرسول تبين حق الرسول ﷺ وهو الطاعة والاتباع وأنه ليس له من الألوهية والعبادة شيء، ولذلك قال بعدها:

ووحد الله: الواو عاطفة أي: أنه جمع بين طاعة الرسول ﷺ وتوحيد الله وهذا معنى الشهادتين فلابد من الجمع بينهما حتى يصير العبد مسلمًا.

وحد الله: أي جعله واحدًا فأفرده بالعبادة والتأله والتعظيم.

وذلك لأن له الكمال المطلق والغنى المطلق والتصرف المطلق من جميع الوجوه فلهذا لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه -وهذا هو حق الله الذي لا يشاركه فيه أحد- فمن غلا بأحد المخلوقين حتى جعل له نصيبًا منها فقد ساوى به رب العالمين وهذا هو الشرك الأكبر الذي حذرت منه الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام لعلمهم بأنه خَالِصُ حق الله تعالى.

فلواحد كن واحدًا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان[1]

لا يجوز له موالاة: الموالاة لغة: مشتقة من الوَلْي بسكون اللام وتخفيف الياء وهو القرب والدُّنُوُّ.

---

(١) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٢).

والوليّ بكسر اللام وتشديد الياء هو المحب والصديق والنصير[١].

والعداوة لغة: اسم من المعاداة يقال تعادى ما بين فلان وفلان أي اختلف وفسد وتعادى عن فلان: أي تباعد عنه وتجافى[٢]. إذاً العداوة: هي البعد والتجافي.

فـ«الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد»[٣]، «وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك من الأعمال»[٤].

فيكون معنى الموالاة اصطلاحًا: هي النصرة والمحبة والإكرام.

ويقوم الولاء على ركنين:

١- الولاء القلبي (المحبة).

٢- الولاء العملي (النصرة ونحوها).

أما المعاداة اصطلاحًا: فهي إظهار العداء بالقول والفعل مع البغض الشديد بالقلوب.

وإظهار العداء بالقول كالتبرؤ منهم. قال تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾[الممتحنة:٤].

وبالفعل: كجهاد الكفار وقتالهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[التوبة:١٢٣].

---

(١) «القاموس المحيط» مادة (ولي) (١٧٣٢).

(٢) «لسان العرب» (١٥/ ٣٦).

(٣) «الفرقان» (٧).

(٤) «الدرر السنية» (٢/ ١٥٧)

ويقوم البراء على ركنين، هما:

١- البراء القلبي (البغض).

٢- البراء العملي (المعاداة العملية باللسان والأركان).

لا يجوز له موالاة: هذا بيان حكم موالاة الكفار وأنه حرام «بل كبيرة من كبائر الذنوب»، وقد يصل إلى الكفر إن كان توليًا.

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن: «فقد عرفتم ما في موالاة المشركين من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وعرفتم أن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردّة كذهاب الإسلام بالكلية ومنها ما هو دونه من الكبائر والمحرمات»[1].

وقال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف: «والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب كبل الدواة أو بري القلم أو التبشبش لهم ورفع السوط لهم، والتولي كفر يخرج من الملة وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي»[2].

بل نقل إجماع العلماء على أن التولي كفر، فقال: «وأما التولّي الذي حقيقته الإكرام والثناء والنصرة والإعانة والمعاشرة وعدم البراءة الظاهرة، فهذه ردّة صريحة، كما دل على ذلك الدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، واتفاق العلماء على ذلك»[3].

وكذلك قال الشيخ عبدالله بن حميد: وأما التولي: فهو إكرامهم والثناء عليهم والنصرة والمعاونة لهم على المسلمين والمعاشرة وعدم البراءة منهم ظاهرًا فهذا ردّة من فاعله يجب أن تجري عليه أحكام المرتدين كما يدل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأئمة

---

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٣٨).

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ٤٢٢) بشيء من التقديم والتأخير.

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» (٣٦).

المقتدى بهم[١].

والتولي يكون بالقلب أو بالجوارح أو بكليهما:

١- **التولي بالقلب**: كالمحبة والرضى عنهم وموافقتهم بقلبه والميل إليهم بباطنه.

٢- **التولي بالفعل**: وهو الدفاع عن الكفار وإعانتهم بالمال والبدن والرأي.

٣- **التولي بالقلب والجوارح**: وهو الموافقة في الظاهر والباطن فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه.

فهذه كلها من فعلها كفر كفرًا مخرجًا من الملة[٢].

واكتفى المؤلف ببيان عدم الموالاة. ولم يقل بل يجب عليه معاداتهم لأن من لم يوالِ صار معاديًا ولا بُدَّ. فإذا انتفت إحداهما وجدت الأخرى، وذلك لأن «الولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا. والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا»[٣] «فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٧٥-٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ

---

(١) «الدرر السنية» (١٥/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «الدرر السنية» (٨/ ٤٢٢) والولاء والبراء للقحطاني (٢٤٧-٢٤٨).

(٣) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٩٩).

سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الزخرف:٢٦-٢٨].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض»(١).

وذلك لأن: «الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحدّ الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض»(٢) ونقل الإجماع على ذلك الشيخ عبدالرحمن بن حسن، فقال: «أجمع العلماء سلفًا وخلفًا من الصحابة والتابعين والأئمة وجميع أهل السنة أن المرء لا يكون مسلمًا إلا بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله وبغضهم ومعاداتهم»(٣).

والأدلة على هذا كثيرة(٤).

ومن ذلك نهيه سبحانه عن موالاة عموم الكافرين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[آل عمران:٢٨].

أي: «لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرًا وأنصارًا وتوالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء أي قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم

---

(١) «الجواب الكافي» (٢٣٢-٢٣٣).

(٢) «مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول/ (٣٥٥).

(٣) «الدرر السنية» (١١/ ٥٤٥).

(٤) ذكر منها الشيخ سليمان بن عبدالله إحدى وعشرين دليلًا وذكر الشيخ محماس الجلعود أربعة وأربعين دليلًا. انظر: «أوثق عرى الإيمان». و«الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية».

فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة:١].

وكما نهانا عن موالاة الكفار عمومًا نهانا عن موالاة اليهود والنصارى خصوصًا لعظم البلية بهم إلى قيام الساعة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

من حادّ الله ورسوله: أي صار هو في حد أي جانب. والله ورسوله والمؤمنون في حد وجانب. ومن هذه حاله فهو في حد الشيطان وحزبه.

ولو: حرف شرط غير جازم.

كان أقرب قريب: ذكر القرابة بل خص أقرب القرابة وهم الأب والابن والإخوة؛ لأن كثيرًا من الناس يقدمونهم على أمر الله ورسوله. لشدة سلطان العاطفة ولذلك حذرنا الله من طغيان سلطانها على سلطان الشرع فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾[التوبة:٢٣].

وذلك أنه لا يجتمع حب الله وحب أعدائه في قلب عبد أبدًا.

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًا له ما كان ذاك في إمكان[٢]

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٨).

(٢) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٥).

مكانة الولاء والبراء من الإيمان:

للولاء والبراء منزلة عظيمة في الدين وتتجلى تلك المنزلة بما يلي:

الأول: أن الولاء والبراء شرطٌ في الإيمان لا يصح الإيمان إلا به قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٨٠-٨١].

«ذكر الله جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه»[(١)].

الثاني: أنه أوثق عرى الإيمان:

الولاء والبراء هما أوثقا عرى الإيمان كما قال ﷺ: «**إنَّ أوثق عُرَى الإيمان: أن تحب في الله، وتبغض في الله**»[(٢)]. قال محمد بن نصر المروزي: «وجعل ﷺ أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، وذلك أن الله أمر بهما ووكّدهما في كتابه، فقال في الحب فيه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة:٧١]، وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[المائدة:٥٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) أحمد (٣٠/ ٤٨٨) رقم (١٨٥٢٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٢٩) رقم (١٦١٨٥)، وفي «الإيمان» (٣٦) رقم (١١٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٠٣-٣٠٤)، وقال الألباني: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل». «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣٠٧) رقم (١٧٢٨).

وقال في البغض لله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[الممتحنة:١٣]»[1].

فمن أحب في الله، والى أولياءه فيه، ومن أبغض في الله أبغض أعداءه لأجله ولا بُدَّ.

الثالث: وجوب تربية الأطفال عليه منذ الصغر:

لما كان الولاء والبراء من أسس الدين العظام التي لا يقوم الدين إلا به صار من الواجب أن يربى عليه الأطفال ويغرس في قلوبهم منذ الصغر.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في أحد رسائله مبيناً شرطية الولاء والبراء، وأهمية تربية الأطفال عليه «أخبرهم أنّ الحب والبغض والموالاة والمعاداة لا يصير للرجل دينٌ إلا بها. واذكر الآيات التي ذكر الله في الموالاة والمعاداة مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] وقوله في المعاداة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤] واذكر لهم أنه يجب على الرجل أن يعلم أولاده وأهل بيته ذلك أعظم من وجوب تعليم الوضوء والصلاة»[2].

الرابع: أن الفرقان بين الحق والباطل لا يكون إلا بالولاء والبراء:

قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله والمعاداة في الله والموالاة في الله ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء لم يكن

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤٠٤)، وقد استطرد في ذكر الأدلة من السنة وآثار السلف، فراجعه إن شئت.

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ «الرسائل الشخصية» (٣٢٢-٣٢٣).

فرقانٌ بين الحق والباطل ولا بين المؤمنين والكفار ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[١].

الخامس: الإكثار من ذكره في القرآن الكريم:

أكثر الله من ذكر الولاء والبراء «حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»[٢].

الولاء لمن؟

ولاء المسلم لا يكون إلا لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥].

فخص الله بالولاية ذاته ورسوله والمؤمنين وقصرها عليهم، حيث ذكرها بـ«إنما» التي تفيد الحصر والقصر. وإذا كانت الولاية لله ورسوله والمؤمنين فإن البراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، حتى وإن وجدت القرابة أو المصالح المشتركة لأنه لا يمكن أن يجتمع حُبُّ الله وحُبُّ أعدائه في قلب عبد أبدًا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[التوبة:٢٣-٢٤].

«فهذه الآية باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين»[٣].

---

(١) «أوثق عرى الإيمان» (٣٨).

(٢) «النجاة والفكاك» (٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٩٤).

فالموالاة الإيمانية لا تخضع للضغوط النفسية أو المشاكل الاجتماعية، قال شيخ الإسلام: «اعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه»(١).

ومن العجب العجاب ممن ينتسب إلى التوحيد ويزعم أنه من أهل العلم والدين والدعوة وهو لا يفرق بين الموحدين والمشركين. قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب -بعد كلام سبق- عن حال الناس في معرفة كلمة التوحيد: لا إله إلا الله: «وأعجب من ذلك من عرفها من وجه وعاداها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها يا سبحان الله العظيم أتكون طائفتين مختلفتين واحد؟ وكلهم على الحق؟ كلا والله. فماذا بعد الحق إلا الضلال»(٢).

أقسام الناس في الموالاة والمعاداة:

لما كان الحب والبغض هما أصل الولاء والبراء، فلابد أن يختلف الناس في موالاتهم **ومعاداتهم على أقسام ثلاثة:**

(١) من يوالى ويحب جملة أي محبة خالصة لا معاداة معها وهو المؤمن التقي ويستدل له بالآيات والأحاديث التي تأمر بذلك. كمحبة الرسل عليهم الصلاة والسلام والصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والأئمة المرضيين وعباد الله الصالحين.

(٢) من يحب من وجه ويبغض من وجه وهو المسلم المخلط، ويستدل له بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلًا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٩).

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ «الرسائل الشخصية» (١٨٣).

حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به، فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله**»(١). هذا مع العلم بتحريم الخمر ولعنها ولعن شاربها وساقيها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه(٢). ومع ذلك نهاه عن لعنه لوجود المحبة الإيمانية لله ورسوله ﷺ في قلبه مع أنه جلده ﷺ لشربه الخمر.

«فإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»(٣).

(٣) من يبغض ويعادى جملة لا ولاء معها وهو الكافر سواء كان كفره كفرًا أصليًا أو ردّة، ولا يجوز أن يحترم ولا يقدر حتى ولا في الألفاظ لقوله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق: سيدًا؛ فإنه إن يكن سيّدًا فقد أسخطتم ربّكم** ﷻ»(٤).

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ٧٥)، كتاب «الحدود»/ باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة. رقم (٦٧٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٤/ ٨٠-٨١) كتاب «الأشربة» / باب العنب يعصر للخمر. رقم (٣٦٧٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠١).

(٤) أبو داود (٥/ ٢٥٧) كتاب «الأدب»/ باب لا يقول للملوك «ربي» و«ربتي». رقم (٤٩٧٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨) رقم (٢٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥)/ باب لا يقل للمنافق سيد. رقم (٧٦٠)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين»(٥٤٨) رقم (١٧٣٤)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٧٩). قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «إسناده صحيح». «أوثق عرى الإيمان» (٤١).

الفرق بين الولاء والبراء القلبي والبدني من حيث النقص والتمام:

«حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته ينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل»(١).

الناس من حيث الولاء قسمان:

١- أولياء الله: وهم المؤمنون.

فالله يحبهم وينصرهم ويؤمنهم من خوفهم ويسدِّدُهم ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[غافر:٥١].

ويدافع عنهم كما في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»(٢)، لأن عدوهم عدو لله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١].

أَخَصُّ صفات أولياء الله:

أخص صفات أولياء الله الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[النور:٥١].

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٤٠-٣٤١) كتاب «الرقاق»/ باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

٢- أولياء الشيطان:

وهم الكافرون: فالشيطان يغويهم ويضلهم ويمنيهم ويعدهم وما يعدهم إلا غرورًا. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[النساء:٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[النساء:١١٩-١٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠].

أَخَصُّ صفات أعداء الله:

أخص صفات أعداء الله الإعراض عن حكم الله وشرعه إلا إذا ظنوا أنه سيحكم لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[النور:٤٨-٥٠].

فكل من «كذب رسول الله ﷺ وأعرض عن متابعته وحاد عن شريعته ورغب عن ملته واتبع غير سنته ولم يستمسك بعهده ومكّن الجهل من نفسه والهوى والعناد من قلبه والجحود والكفر من صدره والعصيان والمخالفة من جوارحه... فهو وليّ الشيطان، وعدو الرحمن»(١).

طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء في النفوس:

أكد الإسلام على أن يكون انتماء المسلم لدينه واعتزازه به فقط منذ اللحظة الأولى التي يشهد فيها بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ

(١) «هداية الحيارى» (٧).

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣] ولذلك كثر ذكره في القرآن وتنوعت الأساليب[1] في ذلك، ليرتبط المسلم بربه وينحاز إلى حزبه ويجانب الشيطان وحزبه، ومنها:

١- إفراد الله بالتعلق والتعظيم والطاعة والتجرد من كل محبوب أو مرهوب سوى الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾[يونس:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٧، ١٨].

فإذا استشعر المسلم أن القوة لله جميعًا وأن النفع والضر بيده أفرده بالتعلق والتعظيم فوالاه ووالى أولياءه وعادى أعداءه ولم يبال بهم، كما فعل الصحابة عندما خوفهم الكفار وهددوهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

٢- سخط الله على من والى الكفار وتخليده في العذاب ونفي الإيمان عنه:

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[المائدة:٨٠-٨١].

(١) يبين شيخ الإسلام قيمة تنوع الأساليب فيقول: «فإن هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورًا على نور والله المستعان»، «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣).

فرتب الله على موالاة الكافرين ثلاثة أمور:

(أ) سُخْطُه على من والى الكفار.

(ب) الخلود في العذاب.

(ج) تلازم عدم الإيمان بالله مع موالاة الكفار.

ووالله إن أحد هذه الأمور الثلاثة ليزجر وينفر العبد المؤمن عن موالاة الكفار فكيف بها مجتمعة.

٣- مرض القلوب:

لا يوالي أعداء الله رجل ينتسب للإيمان إلا لمرض في قلبه، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة:٥٢] قال ابن القيم عند هذه الآية: «أخبر الله عن حال متوليهم بما في قلبه من المرض المؤدي إلى فساد العقل والدين»[١].

٤- عداوة الرسل لأقوامهم الكافرين وبراءتهم منهم:

قد يعادي الإنسان شخصًا غريبًا لأي سبب من الأسباب لكن من الصعوبة بمكان أن يعادي قريبه. فكيف إن كان أقرب قريب. أبًا أو أمًا أو ابنًا ففي ذلك من المشقة والصعوبة الشيء الكثير. ولكن المسلم الموحد الذي قدم محبة الله على كل محبة، مستعد أن يعادي كل عدو لله ورسله مقتديًا بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٨٧-٤٨٨).

«فانظر كيف أن الله أمرنا أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام في قولهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ فإذا كان واجبًا على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم، فكونه واجبًا للكفار الأبعدين عنه المخالفين له في جميع الأمور أبين وأبين.

وهاهنا نكتة بديعة في قوله: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي: أن الله تعالى قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثاني فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها فلا يكون آتيًا بالواجب عليه وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[مريم:٤٨]. فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم.

وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٩] وقوله: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الكهف:١٦].

فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك بابًا إلى عداوة أعداء الله فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلمًا بذلك، إذ ترك دين جميع المرسلين. ثم قال: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ فقوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان. وتأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولابد أيضًا من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين أي: ظاهرتين بينتين. واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علامتها ولا يكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين. وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة فإن ذلك يدل على عدم البغضاء فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلو عنك

شبهات كثيرة»[١].

٥- حبوط العمل:

من تولى الكفار حبط عمله، قال ابن القيم: «ثم أخبر عن حبوط أعمال متوليهم ليكون المؤمن لذلك من الحذرين، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾[المائدة:٥٣]»[٢].

٦- بيان عداوتهم للمؤمنين وحقدهم الشديد عليهم:

الكفار جميعًا أعداؤنا حقيقة لا يمكن أن يريدوا لنا الخير أبدًا. بل هم يريدون خبالنا وعنتنا وجميع ما يشق علينا، ولو ثقفونا لبسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء علينا وإن تسنى لهم أن يخرجونا من ديارنا ويظاهروا على إخراجنا فعلوا ولم يتأخروا ولا لحظة واحدة. بل لا يكفيهم كل هذا مع شناعته وقبحه حتى نكفر بربنا ونترك ديننا -وحاشانا من ذلك إن شاء الله- وما ذلك إلا لشدة الحقد الدفين والغيظ الشديد في قلوبهم حسدًا من عند أنفسهم لما حبانا الله به من نعمة الإسلام.

ومن الآيات التي تبين ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[البقرة:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٤٣-٤٥).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٨٨).

مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران:١١٨، ١١٩].

بل ويترجمون هذا الحقد والعداوة المتجَذِّرة في قلوبهم إلى عمل جوارحهم حين تسنح الفرصة لذلك. قال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾[الممتحنة:٢].

وأعظم ما يريدون هو إخراجنا من ديننا، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[البقرة:١٠٩].

فلا يرضون منا بدون الكفر: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:١٢٠]. فهل بعد بيان الله بيان.

فمن كان يؤمن بالله وبما أنزل على رسوله اعتقد عداوتهم وبغضهم ومن لم تنفعه الآيات من كتاب الله فلينظر إلى واقع المسلمين مع الكفار منذ بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا ليرى الجرائم التي ارتكبوها في حق المسلمين والحروب التي شنوها عليهم في كل قطر ومصر.

واحذر أَنْ تنخدع بالدهان والطلاء الذي يخفون به جرائمهم من الكلام المعسول الذي لا حقيقة له. كيف وقد أوضح الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨].

٧- بيان استهزاء الكافرين بالمؤمنين وسخريتهم منهم ومن دينهم:

لا يفتأ الكفار من استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة:٥٧، ٥٨].

فإذا كان الكفار يقدحون في ديننا ويحتقرونه ويستصغرونه ويهزؤون به ويستهزؤون بأعظم شعائره الظاهرة وهي الصلاة فهم في نفس الأمر يسخرون من تلك العقول والقلوب التي تعتقد صحة هذا الدين وأهمية أعظم فرائضه وهي الصلاة فيجب علينا معاداتهم قال السعدي: «فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص وأنه لا يبالي بمن قدح فيه بالكفر والضلال وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك دينًا قيمًا وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتخذه هزوًا ولعبًا وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق.

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم»(١).

٨- سخريتهم بالله والرسول ﷺ:

ما فتئ اليهود والنصارى والمشركون يسخرون بربنا وإلهنا في كل لحظة وحين، فزعموا أنه يتعب وأن يده مغلولة فنفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق:٣٨]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وزادوا بجاحة وقبحًا فشتموه بنسبتهم له الابن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠]، ومثلهم قال المشركون «الملائكة بنات الله»، وكيف يكون لله ولد وهو الغني والخلق كلهم خلقه وفي ملكه ولذا تحداهم الله بقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يونس:٦٨] فأين لهم الحجة والبرهان على ذلك، فصح أنهم يقولون على الله بغير علم. قبحهم الله.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٣٧).

ولقبح هذه المقولة وشناعتها وعظيم جرمها فإن الجمادات الصلبة تكاد تتشقق، وتندك وتتهدم كل ذلك غضبًا لله من هذه المقولة الشنعاء، قال تعالى مبينًا شناعة هذه المقولة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨-٩١]. والهدُّ: هدم له وقع وسقوط شيء ثقيل[(١)]. ولشناعتها سماها الله شتمًا كما في الحديث القدسي قال الله تعالى: «**يشتمني ابنُ آدم وما ينبغي له أن يشتمني... أمّا شتمه، فقوله: إن لي ولدًا**»[(٢)].

وأما سخريتهم بالرسول ﷺ فهو زعمهم أنه كاذب. فلو قلت لهم أما بَشَّر عيسى وموسى عليهما السلام بمحمد قالوا: نعم، ثم قلت لهم هذا محمد فآمنوا. قالوا ليس هذا الذي بشرت به الرسل، فالنتيجة إذًا أنهم يكذبونه ﷺ ويزعمون أنه يفتري على الله الكذب بقوله إنه رسول من عند الله.

فتعبدْ لله ببغض الكفار من اليهود النصارى وغيرهم. وكلما تذكرت سخريتهم بربك وبرسولك وجددت بغضهم كلما زاد إيمانك وعلت درجاتك عند ربك، قال عمر بن الخطاب: «أهينوهم ولا تظلموهم فإنهم سبوا الله أعظم مسبة»[(٣)] وقال معاذ بن جبل «لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»[(٤)].

---

(١) «المفردات» (٥١٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٨٧) كتاب «بدء الخلق»/ باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧]. رقم (٣١٩٣).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٨٣).

(٤) «الجواب الصحيح» (٤/ ١٥٥).

٩- الأمر بقتالهم:

أمر الله نبيّه بقتال الكفار بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[التوبة:٧٣]. وأمر النبي ﷺ بقتالهم أمرٌ لجميع المؤمنين ومع ذلك أمر المؤمنين أمرًا عامًا فقال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

وكان النبي ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بخاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغْزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله**...»[(١)].

فهل تجتمع الموالاة مع القتال؟ هذا لا يمكن أبدًا. بل لا يكون قتال إلا معه المعاداة والبغض كيف والجهاد مستمر إلى قيام الساعة «**لا تقوم السّاعة حتّى تقاتلوا اليّهود**»، وكذلك ما ورد من الأحاديث في قتال النصارى.

١٠- البعد عنهم في السكن:

حرم النبي ﷺ السكن والإقامة بين المشركين ومنع منها فقال ﷺ: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيمُ بين أظْهُر المشركين**». قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**من جامع المشرك وسكن معه؛ فإنه مثله**»[(٣)].

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٥٧) كتاب «الجهاد والسير»/ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث. رقم (١٧٣١).

(٢) أبو داود (٣/ ١٠٤-١٠٥)، كتاب «الجهاد»/ باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. رقم (٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٥٥)، كتاب «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٤). وصحح إسناده الصنعاني في «سبل السلام» (٤/ ٤٢-٤٣)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٣٨١).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٢٤) كتاب «الجهاد»/ باب الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧).

وفي رواية: «**لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم، فهو مثلهم**»[(١)]. وفي رواية: «**فهو منهم**»[(٢)]. وفي رواية: «**فليس منا**»[(٣)].

وعن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك» وفي لفظ: «وتناصح المسلمين وتفارق المشركين»[(٤)]؛ لأنه «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»[(٥)]، ولهذا يقول شيخ الإسلام: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام»[(٦)].

١١- النهي عن بداءتهم بالسلام:

السلام سبيل المحبة والوئام، قال النبي ﷺ: «**ألا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السَّلام بينكم**»[(٧)].

ولكي نقطع محبة الكفار والولاء لهم يجب أن نقطع بداءتهم بالسلام، قال ﷺ: «**لا تبدؤُوا اليهود والنّصارى بالسّلام، وإذا لقيتموهم فاضطرُوهُم إلى أضيق الطّريق**»[(٨)].

---

(١) الترمذي (٤/ ١٥٥-١٥٦)، كتاب: «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٥).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢١٧) رقم (٦٩٠٥).

(٣) «المستدرك» (٢/ ١٥٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(٤) النسائي (٧/ ١٤٧)، «كتاب البيعة»/ باب البيعة على فراق المشرك.

(٥) «حاشية الروض» لابن قاسم (٤/ ٢٦٠) نقلًا عن ابن تيمية.

(٦) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٨).

(٧) مسلم (١/ ٧٤) كتاب «الإيمان»/ باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها. رقم (٥٤).

(٨) مسلم (٤/ ١٧٠٧) كتاب «السلام»/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام. رقم (٢١٦٧).

فنهانا رسول الهدى ﷺ أن نبدأهم بالسلام ونفسح لهم في الطريق وأوجب علينا أن نفرض عليهم الذل والصغار لأجل استمرار البغضاء بيننا وبينهم.

١٢- الأمر بمخالفتهم والنهي عن التشبه بهم:

حذر النبي ﷺ من التشبه بالكفار، فقال ﷺ: «**من تشبّه بقومٍ؛ فهو منهم**»[(١)].

قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١].

وهو نظير ما سنذكره عن عبدالله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»[(٢)].

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفرًا أو معصية أو شعارًا لها كان حكمه كذلك[(٣)].

ولخطورة التشبه أُمِرْنا بمخالفتهم كي يَسْلَمَ لنا ديننا، قال ﷺ: «**إنَّ اليهود والنّصارى لا يصبغون فخالفوهم**»[(٤)]، وقوله: «**خالفوا اليهود؛ فإنَّهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**»[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩/ ٢٣٤ و٣٩٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥١٣)، وابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٤٨).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩-٢٧١).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦٢).

(٥) أبو داود (١/ ٤٢٧) كتاب «الصلاة». رقم (٦٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٥٦١) رقم (٢١٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٩١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣/ ١٠٦) رقم (٣٢٠٥).

والأدلة على هذا «أكثر من مائة دليل»(١) أكد فيها النبي ﷺ على مخالفتهم لأن مشابهتهم في الظاهر «تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»(٢)، و«هذا أمر مجمع عليه عند أهل العلم»(٣).

بل إن التأكيد على مخالفتهم قد استقر حتى عند الكفار أنفسهم فضلًا عن المسلمين، فعن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِ ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ...﴾[البقرة:٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيءٍ إلاَّ النِكاح**» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه»(٤).

قال الذهبي محذرًا من التشبه باليهود والنصارى -الذين وصفوا بأنهم مغضوب عليهم وضالون- ومبينًا قبحه وشناعته: «وقد أوجب الله عليك يا هذا المسلم أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم وهم حطب جهنم ولو قيل لك: تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت، وأنت تشبه بأقلف عابد صليب في عيده»(٥).

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٨٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٩).

(٣) «كشاف القناع» (٣/ ١٣١).

(٤) مسلم (١/ ٢٤٦) كتاب «الحيض»/ باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد. رقم (٣٠٢).

(٥) «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» (٢١-٢٢). وانظر: «الرد على من جوّز لبس قلنسوة النصارى» للشيخ محمد عليش مفتي المالكية بمصر.

١٣- أن من أحب في الله وأبغض في الله ذاق طعم الإيمان:

يتحدث أسلافنا عن لذة المناجاة وعن طعم يجدونه في قلوبهم نتمنى أن نجد تلك اللذة وذلك الطعم للإيمان ونتساءل كيف نجده فيجيب ابن عباس رضي الله عنه عن هذا التساؤل بقوله: «من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئًا»[(١)].

وسر ذوقه طعم الإيمان هو كمال إيمانه لأن من أحب لله وأبغض لله وأعطى ومنع لله كمل إيمانه وتم. كما يدل عليه حديث أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحبَّ لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن من كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان»[(٣)].

١٤- الخصومة بين الأتباع والمتبوعين:

عندما يعاين الناس العذاب يوم الفزع الأكبر تنفصم عرى المحبة بين المتبوعين الماكرين الصادين عن الحق، المزينين للباطل وبين تابعيهم من الجهلة الذين يتبعون كلَّ ناعق، وتبدأ خصومة كلُّها حسرة وأسى من التابعين، وجحودٌ واتهام من المتبوعين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢٠) رقم (٣٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٥/ ٦٠) كتاب «السنة»/ باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٦٨١)، والطبراني في «الأوسط» (٩/ ٤١) رقم (٩٠٨٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٧٥٤).

لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[سبأ:٣١-٣٣]. ولا ينتهي الأمر عند الخصومة، بل يزيد شدة فيتبرأ المتبوعون من الأتباع في أعظم المواقف وأشدها، وفي ذلك ما فيه من الألم الشديد والحسرة البالغة على نفوس التابعين ما فيه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٦-١٦٧].

فتبرأ منهم أيها الأخ المبارك اليوم قبل أن يتبرؤوا منك غدًا، وعادهم لله في هذه الدنيا تنجو من عقوبة الآخرة.

١٥- بيان ثمرة الولاء والبراء:

كثيرًا ما يربط الله في كتابه بين العمل وثمرته سواء كانت الثمرة في الدنيا أو في الآخرة، وذلك لما لها من أثر على العامل يدفعه إلى الحرص عليه والتفاني فيه ومن ثمار الولاء والبراء ما يلي:

أ- إعطاء الإنسان العوض عما ترك:

من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه، فهذا إبراهيم عليه السلام لما عادى قومه وتبرأ منهم لله رزقه الله عوضًا خيرًا منهم حيث وهب له ذرية صالحة جعلهم أنبياء يسر بهم في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[مريم:٤٨-٤٩]، بل جعل جميع الأنبياء من بعده في ذريته قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[العنكبوت:٢٧].

ب- السلامة من الفتن والفساد الكبير:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[الأنفال:٧٣].

«أي إن تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل»(١).

جـ- النجاة من سخط الله والفوز برضاه:

قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٨٠-٨١].

فإذا كان من تولى الكفار سخط الله عليه فإن من عاداهم رضي الله عنه وعن فعله وأحبه.

ولهذا انغرس الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والعداوة للكافرين في مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم كبارًا وصغارًا رجالًا ونساءً **ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة:**

١) قصة كعب بن مالك رضي الله عنه:

قصة كعب بن مالك رضي الله عنه عندما تخلف عن غزوة تبوك قصة طويلة لكني أختصرها وأبين الشاهد للموضوع منها: وذلك أن كعب بن مالك رضي الله عنه تخلف عن غزوة تبوك لغير عذر فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم راجعًا من تبوك جاء المتخلفون يعتذرون إليه وكان من ضمنهم كعب رضي الله عنه ولكنه لم يعتذر وإنما ذكر الواقعَ بِحَالِه. وصَدَقَ في مقاله فأنظره النبي صلى الله عليه وسلم ريثما ينزل الوحي فيه ثم نهى الناس أن يكلموه وبعد أربعين ليلة أمر زوجته أن تفارقه ولا تبقى معه في بيت واحد. يقول وتسلقت ذات يوم على حائط لابن عمي وهو أحب الناس إلي

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٦).

فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام. ثم قلت: ألا تعلم أني أحب الله ورسوله قال: الله ورسوله أعلم، فدمعت عيني، يقول كعب: وكنا كما قال الله عنا: وضاقت عليهم الأرض بما رحبت -تخيل هذه الصورة الشديدة. قائد المسلمين لا يكلمه وأصحابه لا يكلمونه حتى أقرباؤه لا يكلمونه- فهل غَيَّرَ هذا من ولائه للإسلام وجعله يوالي أعداء الله. كلا فاستمع إليه وهو يقول: بينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها[1].

انظر إلى قوة ولاء كعب للمسلمين وشدة عدائه للكفار فها هو زعيم من زعمائهم يدعوه ليواسيه وهو في حال الشدة والضنك عند المسلمين ومع ذلك كله يسجرها في التنور ولا يلتفت إليها فيا لها من براءة من الكفار ما أعظمها، ويا له من ولاء للمسلمين ما أقواه.

٢) عمير بن سعد:

قد يقول قائل هذا في مجتمع الرجال الأشداء الأقوياء فكيف بمجتمع صغار السن فلن يبلغ هذا المستوى من الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين نقول له: كلا فإن الشباب الصغار في السن قد أشربت قلوبهم عقيدة الولاء والبراء **وإليك هذا المثال:**

شاب صغير اسمه عمير بن سعد مات أبوه وهو صغير فتزوجت أمه برجل من أثرياء الأوس اسمه الجلاس بن سويد فأحب كل منهما الآخر حب الولد لوالده والوالد لولده فلما أن كانت غزوة تبوك جاء عمير إلى الجلاس وجعل يذكر له من تصدق للجهاد

---

(١) انظر البخاري مع الفتح (٨/ ١١٣) كتاب «المغازي»/ باب حديث كعب بن مالك. رقم (٤٤١٨).

وأخبار البكائين ليثير همته على الصدقة والبذل، فقال الجلاس كلمة عظيمة خطيرة أذهلت عميرًا وأطارت صوابه هي: «والله لئن كان ما يقول محمدٌ حقًّا لنحن شر من الحمير» فقال عمير بن سعد: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليَّ وأحسنهم عندي بلاءًا وأعزهم عليّ من أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن أفشيتها لتُفتضحنَّ، ولئن كتمتها لأهلكن، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليَّ فنزل قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة:٧٤].

فأمسك رسول الله بأذن عمير وقال: «**وَفَّتْ أُذُنُكَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ**» فتاب الجلاس: وحسن إسلامه(١).

فتحمل عمير هذا الموقف الصعب مع علمه أن إخبار النبي ﷺ بهذه المقولة فضيحة عند الناس، ولكن شعوره التام بولائه لله ورسوله جعله يؤثر إخبار النبي ﷺ بما قال الجلاس، وإن كان ما كان.

٣) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان:

أسلمت أم حبيبة ثم هاجرت إلى الحبشة فتنصر زوجها فثبتت على إسلامها فكافأها النبي ﷺ أن تزوجها فصارت أم المؤمنين، ولها مع أبيها موقف يدل على شدة ولائها لله ولرسوله وبراءتها من الشرك وأهله حتى وإن كان ذلك المشرك هو أبوها.

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٧٥-٣٧٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٩٧).

قال الزهري: «لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يُقْبِلْ عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر»(١).

وتربية رسول الله ﷺ لأصحابه بالولاء للمؤمنين والبغض والعداوة للكافرين رسخت هذه العقيدة في قلوبهم. فربوا عليها من بعدهم. **ومن النماذج ما يلي:**

١- كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني أغمض عينيه، فقيل له في ذلك فقال رحمه الله: «لا أقدر أنظر إلى من افترى على الله وكذب عليه»(٢).

٢- بهلول بن راشد وكان من أصحاب الإمام مالك، دفع إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري بهما زيتًا فذُكر للرجل أن عند نصراني زيتًا أعذب ما يوجد فانطلق إليه الرجل بالدينارين وأخبر النصراني أنه يريد زيتًا عذبًا لبهلول بن راشد، فقال النصراني: نتقرب إلى الله بخدمة بهلول كما تتقربون أنتم إلى الله بخدمته، وأعطاه بالدينارين من الزيت ما يعطى بأربعة دنانير، ثم أقبل الرجل على بهلول وأخبره الخبر فقال بهلول: قضيت لي حاجة فاقض لي الأخرى، ردّ عليّ الدينارين فقال: لمَ؟ قال تذكرت قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢].

فخشيت أن آكل زيت النصراني فأجد له في قلبي مودّة فأكون ممن حادَّ الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير(٣).

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٨/ ٩٩)، و«تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥٠).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٢).

(٣) «ترتيب المدارك» (٣/ ٩٨).

٣- سئل الإمام أحمد عن رجل له جار رافضي يسلم عليه؟ فقال: «لا وإذا سلم عليه لا يرد عليه»(١).

٤- وكان ابن رجاء يهجر من باع لرافضي كفنه أو غسله أو حمله(٢).

٥- دخل أبو الوليد الطرطوشي على الخليفة في مصر فوجد عنده وزيرًا راهبًا نصرانيًا قد سلّم إليه القيادة وكان يأخذ برأيه فقال الطرطوشي:

يا أيها الملك الذي جوده ... يطلبه القاصد والراغب
إن الذي شرفت من أجله ... يزعم هذا أنه كاذب

فعندئذ اشتد غضب الخليفة فأمر بالراهب فسحب وضرب وأقبل على الشيخ فأكرمه وعظمه(٣).

هذه حالهم فما حالنا؟ لقد ضيعنا هذا الأصل العظيم إلا من رحم الله وأخشى أن ينطبق علينا وصف ابن عقيل لأهل زمانه حيث يقول:

«إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل هذا الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون كفرًا... وعاشوا سنين وعظمت قبورهم واشتريت تصانيفهم وهذا يدل على برودة الدين في القلب»(٤).

---

(١) «السنة» للخلال (١/ ٤٩٤) رقم (٧٨٤).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٥٧).

(٣) «الفروق» (٣/ ١٦).

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٣٧).

حالات إظهار الموافقة للمشركين:

لإظهار الموافقة للمشركين ثلاث حالات هي:

١- أن يوافقهم في الظاهر والباطن:

فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه فهذا كافر خارج من الإسلام، وهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل:١٠٦].

٢- أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن مع مخالفته لهم في الظاهر:

فهذا كافرٌ أيضًا ولكن إذا عمل بالإسلام ظاهرًا عصم ماله ودمه وهو المنافق.

٣- أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن:

وهو على وجهين أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم أو تقييدهم له أو تهديدهم إياه بالقتل فيقولون له: إما أن توافقنا وتظهر الانقياد لنا وإلا قتلناك فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان كما جرى لعمار حين أنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦] وكما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾[آل عمران:٢٨].

الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمعٌ في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المآل فإنه في هذه الحال مرتدٌ ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[النحل:١٠٧] فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل بالحق أو بغضه ولا محبة الباطل وإنما هو أن لهم حظًا من حظوظ الدنيا فآثروه على الدين(١).

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٨٩-٩٠).

من صور موالاة الكفار:

١- التولي العام: قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

قال القرطبي: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: في النصرة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ شرط وجوابه أي: لأنه خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم فصار منهم أي من أصحابهم[1].

بل نقل ابن حزم الإجماع على ذلك فقال: صح أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره فإنه كافر من جملة الكفار وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين[2].

٢- المحبة والمودة الخاصة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المجادلة:٢٢].

٣- الركون القليل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[هود:١١٣]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[الإسراء:٧٤-٧٥]، قال ابن عباس: إن من الركون إليهم أن تليق لهم دواة أو تبري لهم قلماً[3].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٠-١٤١).

(٢) «المحلى» (١٣/ ٣٥).

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» لعبد اللطيف آل الشيخ (٣٣).

٤- مداهنتهم: قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[القلم:٩].

٥- طاعتهم فيما يقولون وفيما يشيرون به: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ كَـٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا﴾[الكهف:٢٨].

٦- تقريبهم في المجلس والدخول بهم على أمراء الإسلام.

٧- مشاورتهم في الأمور.

٨- استئمانهم واستعمالهم في أمر من أمور المسلمين أي أمر كان إمارة أو عمالة أو كتابة أو غير ذلك. فعن أبي موسى قال قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتبًا نصرانيًا قال: مالك قاتلك الله. أما سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾[المائدة:٥١] ألا اتخذت حنيفًا؟ قال قلت يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله. ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله[١].

وفي رواية: «أن عمر رضي الله عنه أمره أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديمٍ واحدٍ، وكان لأبي موسى كاتب نصراني يرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحافظ، وقال: إن لنا كتابًا في المسجد، وكان جاء من الشام فادعه فليقرأه، قال أبو موسى: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني، وضرب فخذي، وقال: أخرجه، وقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

(١) «أحكام الملل» (١١٧) رقم (٣٢٨)، وقال شيخ الإسلام «رواه أحمد بإسناد صحيح». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٨٤) و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣٢٦).

قال أبو موسى: والله لا توليته، إنما كان يكتب. قال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟ لا تدنهم إذ أقصاهم الله ولا تأمنهم إذ خونهم الله، ولا تعزهم بعد إذ أذلهم الله، فأخرجه»[(١)].

وقال عمران بن أسد: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن المنتشر: أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك رجلًا يقال له: حسان بن برزى على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٧].

وإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا، ونحن منه، وإن أبى؛ فلا تستعن به، ولا بأحد من غير أهل الإسلام من أعمال المسلمين، فقرأ عليه الكتاب، فأسلم»[(٢)].

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا وغيره منعوا أن يكونوا على ولاية المسلمين....بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم»[(٣)].

٩- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[آل عمران:١١٨]؛ لما في ذلك من معرفة أخبار المسلمين. قال شيخ الإسلام: «عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون على ذلك من أسرارهم حتى أُخِذَ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسُبِيَ بمطالعة أهل الذمة لأهل دينهم.

---

(١) «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١٦) رقم (٢٠٤٠٩).

(٢) «سراج الملوك» للطرطوشي (٢/ ٥٤٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٦).

ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم:

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين»[(١)]

١٠- مصاحبتهم ومجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم.

١١- البشاشة لهم وطلاقة الوجه.

١٢- الإكرام العام.

١٣- الثناء عليهم ونشر فضائلهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادة وحكماء كما يقال لطواغيتهم السيد فلان.

١٤- الرضى بأعمالهم أو التشبه بهم والتزيي بزيهم.

١٥- الانخراط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية وبذل الحب لها والنصرة. ومن ذلك اتفاق بعض الأحزاب الإسلامية مع الأحزاب العلمانية ليكونا حزبًا واحدًا كي يفوزا في الانتخابات.

١٦- مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم.

١٧- الاستغفار لهم: فقد نهى الله عن الاستغفار للمشركين وإن كان أقرب قريب قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣]. ولما استأذن رسول الله ﷺ ربه أن يستغفر لأمه، منعه لأنها مشركة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذن لِي...**»[(٢)][(٣)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (٢/ ٦٧١) كتاب «الجنائز»/ باب استأذن النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه. رقم (٩٧٦).

(٣) «أوثق عرى الإيمان» (٤٩-٥١)، وإن أردت بيان الأدلة على هذه الصور مع نقل كلام المفسرين على الآيات، فراجع «الولاء والبراء» للقحطاني (٢٣٢-٢٤٥).

١٨- القول بوحدة الأديان:

ومن صور الموالاة القول بوحدة الأديان التي يتزعمها الكفار أو من تشبعوا بأفكارهم كابن الفارض[1] وابن سبعين وابن عربي[2] والتلمساني، وابن هود وغيرهم، ومن نحا نحوهم، ولذلك: «يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام ويجعلون هذه طرقًا إلى الله بمنزلة مذاهب المسلمين»[3].

وممن نادى بها جمال الدين الأفغاني حيث قال: «إن الأديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة...»[4].

وإني لأعجب أشد العجب كيف يقول هذا الكلام أحد ينتسب إلى الإسلام أو أحد قرأ القرآن، أليس الله يقول: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة:٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[البقرة:١٣٥].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥].

---

(١) انظر: «ديوان ابن الفارض» (ص٨٢) حيث جعل الأديان كلها صحيحة تركتها لطولها.

(٢) عقد الخلائق في الإله خلائقًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه. «الفصوص» (٣٤٥).

(٣) «الصفدية» (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) «المجموعة الكاملة» لجمال الدين الأفغاني (٦٩)، نقلًا عن «دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام». مصطفى غزال (٢٤٤).

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾[آل عمران: ٧٠].

ويقول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرسِلْت بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[١]. فمن هذه الأدلة يتبين أنّ القولَ بوحدة الأديان كفر صريح وردّة عن دين الله، كيف يجتمع التوحيد والشرك في قلب عبد. هذا لا يمكن أن يكون أبدًا فانتبهوا أيها المسلمون[٢].

الفرق بين المداراة والمداهنة:

المداهنة: المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وهو معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه[٣]. وقيل «هي ترك ما يجب لله من الغيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغرض دنيوي، وقيل: هي الاستئناس والمعاشرة مع القدرة على الإنكار»[٤]. «فالمداهن هو الذي لا يبالي ما نقص من دينه إذا سلمت له دنياه قد هان عليه ذهاب دينه وانتهاك عرضه بعد أن تسلم له دنياه»[٥].

فالمداهنة مشاركة بالجريمة وإشاعة للفاحشة لأن الفجرة إذا أمنوا الإنكار أفسدوا في الأرض.

---

(١) مسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. رقم (١٥٣).

(٢) من أراد الاستزادة فليراجع «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» بكر أبو زيد، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» د. عبد العزيز العبد اللطيف (٣٣٧-٣٩٠)، و«دعوة التقريب بين الأديان» د. أحمد القاضي.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٧١).

(٥) «الغرباء» (٧٩-٨٠).

ولهذا كان المشركون لا يطمعون أن يطيعهم النبي ﷺ فيفعل مثلهم بل أرادوا أقل من ذلك وهو أن يداهنهم فيسكت عن شركهم وفسادهم وباطلهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم:٩].

أما المداراة: هي درء الشر المفسد بالقول اللين وترك الإعراض عنه إذا خيف أشد منه أو مقدار ما يساويه[١].

قال الآجري: «المداراة يثاب عليها العاقل ويكون محمودًا بها عند الله عز وجل وعند من عقل عن الله عز وجل وهو الذي يداري جميع الناس الذين لا بُدَّ له منهم ومن معاشرتهم لا يبالي ما نقص من دنياه وما انتهك به من عرضه بعد أن يسلم دينه. فهذا رجل كريم غريب في زمانه»[٢] ومن أمثلة المداراة: الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله والإنكار عليه بلطف القول والفعل.

والفرق بين المداراة والمداهنة أَنّ المداراة بَذلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو لصلاح الدين أو هما معًا وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال.

والمداهنة: بذل الدين لصلاح الدنيا[٣].

قال الطرطوشي: «من دارى سَلِمَ، ومن داهن أَثِمَ، وهذا باب اختلط على معظم الخلق، فداهنوا وهم يحسبون أنهم يدارون، فالمداهنة منهي عنها، والمداراة مأمور بها... والمداهنة أن تداريَ الناس على وجه يذهب فيه دينُك، والمداراة مخالفتهم على وجهٍ يسلم لك دينك»[٤].

---

(١) انظر: «الدرر السنية» (٨/ ٧٢).

(٢) «الغرباء» (٧٩).

(٣) «المفهم» (٦/ ٥٧٣) بشيء من الاختصار.

(٤) «سراج الملوك» (٢/ ٥٨٨).

والدليل: قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[**المجادلة:٢٢**].

....

لا: نافية. تنفي اجتماع الإيمان ومحبة المشركين في قلب عبدٍ أبدًا.

تجد: تذكر بعد البحث والتفتيش غالبًا كما في قصة موسى مع الخضر حيث قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾[الكهف:٦٥].

وفي هذه الآية المبالغة في المنع من موادة الكفار من وجوه:

الأول: بيان أن مودة الكفار لا يمكن أن تجتمع مع الإيمان بالله واليوم الآخر أبدًا لأنهما نقيضان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر. قال شيخ الإسلام: «فأخبر الله أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيمان انتفى ضده وهو موالاة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلًا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب»(١).

الثاني: أنه تعالى أوجب قطع مودة أقرب القرابة إذا كفروا، فيجب أن يكون إيمانه بالله واليوم الآخر حائلًا بينه وبين هذه المودّة.

كما فعل عبدالله بن عبدالله بن أبي مع أبيه حين منعه من دخول المدينة حتى أذن له النبي ﷺ. وذلك عندما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٦٧٦-٦٧٧).

وعندما أُسِرَ أبو عَزِيز بن عمير بن هاشم بعد وقعة بدر. «قال أبو عَزِيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير -وكان أخي لأمي وأبي- ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شُد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال أبو عَزِيز: فقلت له يا أخي هذه وصاتك بي، فقال مصعب: إنه أخي دونك»(١).

الثالث: أن الله عدد نعمه على مبغضي الكفار ممتنًا بها عليهم وهي كَتْبُ الإيمان في قلوبهم، وتأييدهم بروح منه، وإدخالهم الجنة وخلودهم فيها، ورضاه عنهم وإرضاؤهم عنه وأنهم حزب الله المفلحون. فمن أنعم الله عليه بهذه النعم فهل يمكن أن يحب أعداء الله ويواليهم؟.

قومًا: القوم هم الجماعة من الناس.

يؤمنون بالله واليوم الآخر: ذكر الإيمان بالله لأن الإيمان الصادق يمنع محبة أعداء الله. وذكر اليوم الآخر لأن فيه الجزاء والحساب فيخاف أن يعاقب على محبته لعدو ربه.

يوادون: أي يحبون.

فنفى الله الإيمان عمن يحب أعداءه. وهذا يحتمل أحد أمرين:

١- إما أنه كان منافقًا يظهر الإسلام ويبطن الكفر فهو لا يبالي أن يحب أعداء الله لأنه ليس عنده إيمان يردعه ويمنعه عن محبتهم.

٢- أو أن عنده إيماناً حقيقة لكن لما جاءت البلوى أحب الكفار ووالاهم يخشى بذلك الدوائر فانتفى عنه الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ١٩١).

من حاد الله ورسوله: أي من عادى وشاق الله ورسوله وخالف أمرهما وصار بسبب ذلك في حد غير حد الله ورسوله.

ولو: الواو حالية ولو: حرف شرط غير جازم.

كانوا آباءهم: بدأ بالآباء لشعور الأبناء بالانتماء لآبائهم ولفضلهم عليهم؛ ولعظيم حقهم ووجوب برهم ومع هذا كله نهاهم عن محبتهم ومودتهم.

أو أبناءهم: وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب قال يعلى العامري: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ، فضمهما إليه، وقال: «**الولد مبخلة مجبنة**»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال أبو بكر رضي الله عنه يومًا: «والله ما على الأرض رجل أحب إليَّ من عمر، فلما خرج: رجع، فقال: كيف حلفت أي بنية؟ فقلت له، فقال: أعز عليَّ والولد ألْوط[(٢)]»[(٣)].

أو إخوانهم: وثلث بالإخوة لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمة ولما لهم من قوة القرابة.

أو عشيرتهم: وهم الأعمام فمن بعدهم.

أولئك: إشارة إلى الذين لا يوادون الكفار.

كتب في قلوبهم الإيمان: أي ثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك وخص القلوب بالذكر لأن القلوب موضع الإيمان فهي التي تعمى وتبصر

---

(١) أحمد (٤/ ١٧٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٩٧) رقم (١٢٢٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٩)، كتاب «الأدب»/ باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. رقم (٣٦٦٦)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٩٥).

(٢) قال أبو عبيد: «الولد ألوط»: «أي ألصق بالقلب». «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٣).

(٣) «الأدب المفرد» (٤٢)/ باب الولد مبخلة مجبنة. رقم (٤٨)، وقال الألباني: «حسن الإسناد».

وتعقل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] وقال عن إبصار القلوب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢] فالنور هو البصيرة في القلب.

وأما أنها تعقل فكما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فبصلاح القلب يصلح الجسد كله وبفساده يفسد الجسد كله، وسمي القلب قلبًا لتقلبه ولهذا كان أكثر دعاء المصطفى ﷺ: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»، فقال له أصحابه: أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها». زاد الترمذي: «كيف يشاء»[(١)]، وبهذا يعرف المسلم قدر نعمة الله عليه بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ وأن من أعظم وسائل تثبيت القلب على الإسلام هو الولاء والبراء.

وأيدهم: أي قواهم ونصرهم.

بروح منه: أي بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وقيل: بنصر منه، وسمى نصره روحًا لأنه به يحيى أمرهم.

والضمير في (منه) يعود إلى الله تعالى. فعلى العبد أن يكثر من الافتقار إلى الله واللجوء إليه فإنه هو المستغاث وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا به.

(١) أحمد (٣/ ٢٥٧)، وابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» (١٧) رقم (٥٥)، والترمذي (٤/ ٤٤٨-٤٤٩)، كتاب «القدر»/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. رقم (٢١٤٠)، وقال: «وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمر، وعائشة، وهذا حديث حسن»، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٧-٨٨) عن جابر، وقال: «هذا حديث ثابت باتفاق»، وقال أيضًا: «حديث النواس بن سمعان حديث ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم». «الرد على الجهمية» (٨٨).

ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها: وكل من دخل الجنة فإنه يخلد فيها أبدًا ولا يخرج قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر:٤٨].

وصح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملحٍ فينادي منادٍ: يا أهل الجنّة فيشرئبُّونَ وينظرُون. فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النّار فيَشْرَئِبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النّار خلود فلا موت، ثم قرأ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ –وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا– وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[1].

رضي الله عنهم: فيها إثبات صفة الرضا لله عز وجل وسبب الرضا: أنهم أسخطوا الناس وعادوهم لأجله فرضي عنهم وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**من التمس رضا الله بسخط النَّاس رضي الله تعالى عنه، وأرضى عنه الناس**»[2].

ورضوا عنه: لأنه وفقهم لسلوك طريقه المستقيم، وغفر لهم وأدخلهم الجنة، وذلك لأنهم سخطوا على الناس لأجله فأرضاهم عنه.

قال أنس: أنزل الله عز وجل في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد «أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنّا ورضينا عنه»[3].

قال ابن كثير: «وفي هذا سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٢٨) كتاب «التفسير»/ باب وأنذرهم يوم الحسرة. رقم (٤٧٣٠).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (١/ ٥١٠) رقم (٢٧٦). قال أبو حاتم وأبو زرعة: «الصحيح أنه موقوف على عائشة» «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢/ ١٠٣) رقم (١٨٠٠).

(٣) مسلم (١/ ٤٦٨) كتاب «المساجد»/ باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة. رقم (٦٧٧).

تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم»[(١)].

أولئك حزب الله: جند الله الذي يمتثلون أمره ويقاتلون أعداءه وينصرون أولياءه وفي إضافتهم إلى الله تشريف لهم عظيم وتكريم وتفخيم.

ألا: أداة تنبيه.

إن: للتوكيد.

حزب الله: أي عباد الله وأهل كرامته وجنده وأولياءه.

هم: ضمير الفصل يفيد اختصاص حزب الله بالفلاح دون غيرهم من الأحزاب الأخرى.

المفلحون: الفلاح هو الظفر بالمطلوب، والمفلحون هم الناجون الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة المختصون بالظفر بدخول جنات النعيم، و«قيل لأهل الجنة: مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد»[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٦٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٥/ ٧٢).

اعلم أَرْشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

....

لما كان التمسك بالدين والعمل بأحكامه وأخصها التوحيد ومعاداة الكافرين لكفرهم ومحبة المؤمنين لإيمانهم شاقًّا على النفوس تحتاج فيه إلى قدوة تقتدي بها حتى يسهل عليها ذلك، أبرز المؤلف القدوة المقتدى به وهو نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

اعلم: أي كن متهيئًا ومتفهمًا لما يلقى عليك من العلوم، ويؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة.

أرشدك الله: الرشد نقيض الغي والضلال، ومنه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[البقرة:٢٥٦] والإرشاد: هو الهداية والدلالة، والمعنى: أي هداك الله للإيمان والعمل الصالح ووفقك للاستقامة على طريق الحق وثبتك عليه.

والرشد ثمرة الإيمان والاستجابة لأمر الله ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[البقرة:١٨٦] فإذا استجبت وأطعت وفَّقك الله للاستقامة ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[الليل:٥-٧] وهو منّة من الله على عباده قال تعالى ممتنًّا به على إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٥١]، وكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه، كما في حديث حصين حين قال له ﷺ: لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك، فلما أسلم جاء إلى النبي ﷺ، فقال: علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال له: «**قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني شر نفسي**»(١).

---

(١) الترمذي (٥/ ٥١٩-٥٢٠)، كتاب «الدعوات» رقم (٣٤٨٣)، والدارمي في «نقضه على المريسي» (٥٩) رقم (٣٤)، وصححه ابن القيم في «الوابل الصيب» (٣٠٦)، وقال الترمذي كما في «تحفة الأحوذي» =

وفي رواية: «**اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري**»[١].

لطاعته: قال الأزهري: الطوع نقيض الكره طاع له إذا انقاد له ومضى لأمره[٢].

أن: حرف توكيد.

الحنيفية: قال ابن جرير: «الحنيف المستقيم من كل شيء، وقد قيل بأن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له أحنف نظرًا له إلى السلامة كما قيل للمهلكة من البلاد مفازة بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للديغ: السليم تفاؤلًا له بالسلامة من الهلاك فمعنى الكلام إذًا: قل يا محمد بل نتبع ملة إبراهيم مستقيمًا»[٣]، وذكر ﷺ معنى آخر للحنيف، وهو المخلص، ومعنىً ثالثًا وهو المتّبع، ولم يذكر غير هذه المعاني الثلاث. وقال ابن عبدالبر: «والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام»[٤]، وقال ابن قتيبة: «الحنيف المستقيم وقيل: للأعرج حنيف نظرًا له إلى السلامة»[٥]، قال شيخ الإسلام: الحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات، قال محمد بن كعب: مستقيمًا، وقال عطاء وخصيف: مخلصًا[٦].

= (٩/ ٤٥٥) رقم (٣٥٥٠): «هذا حديث حسن غريب»، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهو كما قال». «تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ١١٩).

(١) أحمد (٤/ ٤٤٤)، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهذا الإسناد صحيح». «تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ١١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٠٣-١٠٤).

(٣) «جامع البيان» (١/ ٥٦٤-٥٦٦).

(٤) «درء التعارض» (٨/ ٣٦٩).

(٥) «تفسير غريب القرآن» (٦٤).

(٦) تفسير عطاء (١٠٣)، و«جامع البيان» (١/ ٥٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٤٢)، وبه قال مقاتل في «تفسيره» (١٤١ و٤١٠)، ويحيى بن سلام (١/ ٩٧)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٤٦)، ويستدل =

وقال آخرون: متبعًا[١]، فهو مستقيم القلب إلى الله دون ما سواه، قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾[فصلت:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[الأحقاف:١٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فلم يلتفتوا عنه يمنةً ولا يسرة»[٢]، وقال أيضًا: «الحنيف المستقيم إلى ربه دون ما سواه»[٣]، وقال ابن كثير: «حنيفًا: أي مخلصًا على بصيرة»[٤]. وروى ابن نجدة عن أبي زيد أنه قال: الحنيف المستقيم وأنشد:

تعلَّم أن سيهديكم إلينا ... طريقٌ لا يجورُ بكم حنيفُ[٥]

وقال القرطبي: قال قوم: الحنف الاستقامة فسمي دين إبراهيم حنيفًا لاستقامته.

وسمي المعوج الرجلين أحنف تفاؤلًا بالاستقامة كما قيل للديغ سليم وللمهلكة مفازة في قول أكثرهم[٦]. وقال ابن القيم: «الحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ وإنما فسره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره»[٧]. فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

= له بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ثم بيّن من هم المخلصون، فقال: ﴿حُنَفَآءَ﴾ فتبين بهذا أن الحنيف هو المخلص.

(١) ممن قاله مجاهد. «جامع البيان» (١/ ٥٦٥)، و«التمهيد» (١٨/ ٧٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٣٩).

(٤) «البداية والنهاية» (١/ ٣٨٩).

(٥) «تهذيب اللغة» (٥/ ١١٠).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٤٠).

(٧) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز: الحنيف: هو الذي أقبل على الله وأعرض عما سواه[١].

وهذا التفسير أعني تفسير السلف للحنيف هو الموافق للآيات القرآنية وللأحاديث النبوية، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يفخر ويعتز بدينه ويفرح ويغتبط به: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:١٦١].

فذكر أن الصراط المستقيم، هو الدين القيم، وهو الحنيف. فصار الحنيف هو المستقيم.

قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: قل لهم: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به وذلك الحنيفية المسلمة فوفقني لها ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ يقول مستقيمًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ يقول مستقيمًا[٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصّلت:٦]، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، ولم يقل: فميلوا إليه.

وكما في حديث عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إنَّ ربِّي أمرني أعلمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا. كل مالٍ نحلته عبدًا حلال، وإنّي خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنّهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانًا**»[٣].

فبيّن ﷺ أن الأصل هو الاستقامة وأن الشياطين هي التي مالت بهم عن الطريق

---

(١) «شرح ثلاثة الأصول» (٣٥).

(٢) «جامع البيان» (٨/ ١١١).

(٣) مسلم (٤/ ٢١٩٧) كتاب «الجنة وصفة نعيمها»/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. رقم (٢٨٦٥).

المستقيم قال ابن عبدالبر: الفطرة: السلامة والاستقامة، ثم استدل بالحديث السابق، ثم قال عن قوله: إني خلقت عبادي حنفاء يعني على استقامة وسلامة والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم وإنما قيل للأعرج أحنف على جهة الفأل كما قيل للقفر مفازة(١).

وههنا نكتة لطيفة يجب أن نعيها جيدًا وهي:

أن الأصل في آدم وبنيه هو التوحيد وأن الشرك طارئ ودخيل عليهم، ويدل له ما يلي:

١- أنه الغاية الكبرى من إيجادهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فإذا كان هو الغاية الكبرى من إيجادهم وجب أن يكونوا عليه أول أمرهم.

٢- أن آدم وحواء على التوحيد من أول وجودهم وهم أول البشر:

ويدل لذلك ما يلي:

أ- حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله»(٢).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح: عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم...»(٣).

---

(١) «التمهيد» (١٨/ ٧٠-٧١).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٣٧) رقم (٦١٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٢)، وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وإن كان موقوفًا؛ فإن إسناده صحيح بمرة»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: «وهو كما قالا». «السلسلة الصحيحة» (٥/ ١٩١) رقم (٢١٥٩).

(٣) الترمذي (٥/ ٤٥٣)، كتاب «تفسير القرآن». رقم (٣٣٦٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ٩٢) رقم (٩٩٧٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٤١٠) رقم (٦٠٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٦٠) رقم (٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٤٠) رقم (٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٩٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». =

ب- أن آدم أول البشر كان نبيًا مكلمًا والأنبياء موحدون معصومون من الكفر والشرك ويدل لذلك أيضًا أنه يوم القيامة يعتذر بالأكل من الشجرة فقط[١] ولو كان قد وقع منه الشرك لاعتذر به لأنه أكبر إثمًا من الأكل من الشجرة.

ج- أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة لم يلتجئ إلى غير الله وإنما تاب لله وحده فقط ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣] ولو كان على الشرك -وحاشاه من ذلك- لالتجأ إلى من يعظمه ويدعوه غير الله عز وجل.

د- أن آدم عليه السلام ربى أبناءه على التوحيد وعاشوا عليه عشرة قرون ولم يكن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إلا بعد ذلك قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:٢١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعةٍ من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[٢].

وقال قتادة: «كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فكان أول نبي بعث نوحاً»[٣].

= وذكره ابن كثير عن أبي هريرة -مرفوعًا- من طريق آخر عند البزار بلفظ: «لما خلق الله آدم عطس فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم». ثم قال ابن كثير: «وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه». «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٧١)، كتاب «الأنبياء»/ باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود:٢٥]. رقم (٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٥)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٤)، و«كشف الأستار» (٣/ ٤١) رقم (٢١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وصححه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٠٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٦٢).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٥).

وهذا يدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل.

قال شيخ الإسلام: «إن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان... فابتعث الله نبيه نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة ما سواه»[(١)].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[يونس:١٩]: «أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام»[(٢)].

٣- ويدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل حديث عياض بن حمار المجاشعي وفيه: «**وإنّي خلقتُ عبادي حُنفاء كلهم، وإنّهم أَتَتْهُم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزّل به سلطانًا**»[(٣)].

فقوله خلقت: فعل ماض يدل على أن الله حين خلقهم خلقهم حنفاء على التوحيد ثم إن الشياطين اجتالتهم ونقلتهم من التوحيد إلى الشرك.

٤- أن الفطرة هي التوحيد:

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣] والفطرة هي الأصل فهي متقدمة على الشرك والضلال يوضحها قول النبي ﷺ: «**ما من مولودٍ إلا**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٥٤).

(٣) سبق تخريجه.

يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنصِّرانه أو يُمجّسانه، كما تُنتِجِ البهيمة بهيمة جمعاء، هلْ تحسون فيها من جدعاء»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(١).

يعلق ابن القيم على هذا الحديث فيقول: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع... فغير الفطرة إلى الشرك والخلقة إلى البتك والقطع فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة»(٢).

والفطرة هي الإسلام كما تفسرها الرواية الأخرى: «**ما من مولود إلا ويولد على الملّة**»(٣).

قال ابن القيم: «فهذا صريح بأنه يولد على ملة الإسلام»(٤).

وقد سبقه إلى هذا القول جمع من أهل العلم وعلى رأسهم أبو هريرة والزهري(٥) وأحمد(٦) والبخاري(٧) وغيرهم. بل قال ابن عبدالبر وهو المعروف عن عامة السلف(٨).

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢١٩)، كتاب «الجنائز»/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه. رقم (١٣٥٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧)، كتاب «القدر»/ باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٥٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٤٨)، كتاب «القدر»/ باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٥٨).

(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٣٠٢).

(٥) «التمهيد» (١٨/ ٧٦).

(٦) «درء التعارض» (٨/ ٣٦١).

(٧) البخاري مع الفتح (٨/ ٥١٢)، كتاب «التفسير»/ باب لا تبديل لخلق الله.

(٨) «التمهيد» (١٨/ ٧٢).

أما قوله ﷺ: «**يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم**»(١).

فله محملان:

الأول: أن المقصود بالضلال هنا هو عدم التمكن من معرفة تفاصيل الشريعة إلا بهدى من الله ويدل له لفظ الحديث فإنه قال فاستهدوني أهدكم فقوله فاستهدوني أهدكم أنهم يستقبلون أمرًا جديدًا وهو معرفة تفاصيل أسماء الله وصفاته، وأمور الآخرة، وما يتعلق بها، ومعرفة الأحكام الشرعية.

ويدل لهذا الوجه: قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[الضحى:٧]، ويوضح الضلال في هذه الآية وضوحًا تامًّا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى:٥٢].

قال ابن كثير: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤]»(٢).

وقال ابن رجب: «وقوله: «كلكم ضال إلا من هديته»: قد ظن بعضهم أنه معارض لحديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: خلقت عبادي حنفاء، وفي رواية: «مسلمين فاجتالتهم الشياطين»، وليس كذلك، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام، والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة، لكن لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم شيئًا، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٤) كتاب «البر والصلة»/ باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٢٢٨).

بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾[النحل:٧٨]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾[الضحى:٧].

والمراد: وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾[الشورى: ٥٢][(١)].

وقال السعدي: «﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب والإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق»[(٢)].

الثاني: أن المقصود به أن هداية التوفيق لا يملكها إلا الله ﷻ فيجب أن تطلب منه وحده قال ﷻ مخاطبًا أفضل خلقه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾[القصص:٥٦].

واعترف أهل الجنة بذلك فقالوا كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ﴾[الأعراف:٤٣].

ولذلك يجب أن تطلب منه وحده ولهذا قال: «فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوها مني فإنني أنا الذي أملكها وأعطيكم إياها.

ولا منافاة بينهما فهداية التوفيق بيد الله وحده ومعرفة تفاصيل صفات الرب وأحكامه لا تعرف إلا منه سبحانه فلتطلب جميعها منه.

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٦٢-٦٦٣)، وللكلام بقية نافعة، تركتها خشية الإطالة، فراجعها إن شئت.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٨٧).

وأما حديث الكتابة: حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «**إنَّ أحدكم يُجْمعُ خلقه في بطنِ أمِّهِ أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثُمّ يكون مُضْغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلماتٍ: فيكتب عملهُ ورزقه وأجلهُ، وشقيّ أو سعيد، ثم ينفخُ فيه الرُّوحُ...**»[١].

فيجاب عنه بأنه لا يخالف الأحاديث الدالة على أنه يولد على الفطرة والملة؛ لأن المراد بكتابة الشقاوة والسعادة إنما هو باعتبار المآل والخاتمة ولهذا قال النبي ﷺ بعد ذلك في نهاية الحديث السابق: «**فإنَّ الرّجل ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينهُ وبينها إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخل الجنّة، وإنَّ الرَّجل ليعمل بعملِ أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار، فيدخل النّار**».

قال شيخ الإسلام: «والمقصود هنا تفسير قوله: «**كل مولودٍ يولد على الفطرة**»، وأن من قال بإثبات القدر وأن الله كتب الشقي والسعيد لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم تغيّر بعد ذلك كما تولد البهيمة جمعاء ثم تغَيّر بعد ذلك فإن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه فيعلم أنه يولد سليمًا ثم يَتَغَيّر.

والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول الذي رجحناه وهو أنهم ولدوا على الفطرة ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة»[٢].

وكذلك قوله ﷺ: «**إن الغُلام الذي قتله الخضر طبع كافرًا، ولوْ عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا**»[٣]، فإن المراد إنما هو باعتبار القدر والمآل قال شيخ الإسلام: «طبع أي طبع

---

(١) البخاري (٤/ ١٦١) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب خلق آدم. رقم (٣٣٣).

(٢) «درء التعارض» (٨/ ٤١٠).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب «القدر»/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٦١).

في الكتاب: أي قُدِّرَ وقُضي لا أنه كان كفره موجودًا قبل أن يولد. فهو مولود على الفطرة السليمة وعلى أنه بعد ذلك يتَغَيّر فيكفر كما طُبع كتابه يوم طُبع»[١].

ملة إبراهيم: الملة هي السنة والطريقة[٢]. والمقصود بملة إبراهيم أي طريقته ودينه وهي التوحيد.

ولأهميتها الكبرى أوصى نبينا محمد ﷺ أمته كلهم أن يرددوها بألسنتهم في الصباح والمساء فرحًا وتذكيرًا للنفس بها فقال: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»[٣].

فتأمل هذه الألفاظ كيف جعل **الفطرة** للإسلام فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها و**كلمة الإخلاص**: شهادة أن لا إله إلا الله، و**الملة** لإبراهيم فإنه صاحب الملة وهي التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله[٤].

ونسبة الحنيفية إلى إبراهيم عليه السلام أمرٌ مشتهر عند الناس حتى قبل الإسلام ونزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، قال موسى حدثني سالم بن عبدالله -ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلي أَنْ أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا

---

(١) «درء التعارض» (٨/ ٣٦٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٥١).

(٣) أحمد (٣/ ٤٠٧)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٩/ ٧٧) رقم (٦٥٩١)، و«سنن الدارمي» (٢/ ١٧١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩/ ٥) رقم (٩٧٤٣)، وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (٦٨)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٤٣٢)، وقال ابن باز: «خرجه الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح». «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢٦/ ٣٢).

(٤) «جلاء الأفهام» (١٥٤)

حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيدٌ: ما أفرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله قال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنّى أستطيع. فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا، قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»(١).

ونسبت الحنيفية إليه: لأن له من مقام تحقيق العبودية لله ما ليس لأحد قبله (فهو خليل الرحمن) قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾[النساء:١٢٥] والخُلَّة هي أعلى درجات المحبة، وقد جعله الله قدوة يقتدى به في الخير فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠].

وأمة: أي إمامًا يقتدى به في الخير.

وصار عليه السلام قدوة لأنه اجتمع فيه عدة أمور:

١ - **أنه أعطي الرشد (فجمع بين العلم والعمل)** قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾[الأنبياء:٥١] والرشد هو الاستقامة على الحق، ولا تحصل الاستقامة إلا بالعلم، ولهذا قال لأبيه عندما دعاه إلى التوحيد: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[مريم:٤٣].

---

(١) سبق تخريجه.

٢- الدعوة إلى التوحيد بجميع الطرق:

دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك بل أضعف وخلخل ثقتهم بالأصنام ومحبتهم لها بالطرق التالية:

أ- المناظرة:

أبطل عبادة الكواكب بحجة أنها تغيب فمن ينفعهم ويدفع عنهم الضر إذا غابت، قال تعالى ذاكرًا تلك المناظرة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٧٦-٧٨]. فأقام البرهان على بطلان الشرك بأفولها جميعًا، ثم تبرأ منه.

ب- تحطيم الآلهة:

من أعظم الجهل أن يصنع الإنسان شيئًا ما يتخذه إلهًا، أين العقل، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[الصافات:٩٥]، فالعقل السليم هو من يتجه إلى خالقه، هو: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]، وليس لما صنعه هو، فما كان منهم إلا أن احتجوا بالآباء والأجداد، ولم يقبلوا نصيحته، فلما لم تجد النصيحة انتقل إلى كسر الأصنام ولم يبق إلا أكبرها، لعله أن يخرج عبادة الأصنام من قلوبهم، ولما سألوه عمّن كسّرها وجعلها جذاذًا: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء:٦٣]؛ أي: أن أكبرها أصابته الغيرة كيف تعبد معه هذه الآلهة الصغيرة، فكسرها لينفرد بالعبادة وحده، ومقصود إبراهيم هو إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه. ولهذا ثابت عقولهم إليهم وعلموا أنهم مخطئون في عبادتهم لها فأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك فلزمتهم الحجة بإقرارهم بأن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنبياء:٦٤].

ج- طريقة الموعظة واللطف في التعليم:

تلطف خليل الرحمن عليه السلام مع أبيه أثناء دعوته إلى التوحيد موضحًا له أن هذه الأصنام ليس لديها القدرة على جلب نفع أو دفع ضُر إذْ هي لا تسمع داعيها ولا تبصر خضوعه وذله لها مؤكدًا أنه قال له ذلك عن علم ويقين وهدى من الله لم يدركه أبوه ولم يعلم به لأنه وحيٌّ من الله. محذرًا إياه من عبادة أشد أعدائه وأخسّهم وذلك أن من أطاع الشيطان فقد عبده فهل يرضى بعبادة أخس خلق الله ثم ختم تلك الدعوة المباركة بأنه ما دعاه وكرر عليه وأبدأ وأعاد إلا شفقةً وخوفًا عليه من عذاب الله.

وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[مريم:٤١-٤٥].

٣- الصبر على مشاق الدعوة:

لا يمكن للداعية أن يستمر في دعوته إلا إذا صبر وصابر.

ولقد سطر نبي الله إبراهيم عليه السلام أروع الأمثلة ومن ذلك:

أ- ألقي في النار لأجل دعوته إلى التوحيد فماذا فعل؟ إنه صبر وقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

ب- هجران أبيه له بدون سبب إلا أنه أمره بالتوحيد، ونهاه عن الشرك قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾[مريم:٤٦] وهذا موقف ما أصعبه. أقرب الناس إليه يهجره ولا يكلمه مع أنه لم يخطئ في حقه. بل هو محسن إليه يريد نجاته من نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى.

ج- موقف البراءة والمفاصلة:

ومن لوازم دعوة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: الولاء والبراء. موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام لما رأى أن جميع وسائل الدعوة لم تجد مع قومه قرر الاعتزال عنهم والبراءة منهم وهذا من أشق وأصعب الأمور على النفوس قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٨].

٤- الاستسلام التام لأمر الله:

ويظهر ذلك جليًا عندما ذهب بابنه إسماعيل إلى مكة هو وأمه ووضعهما في مكان قفر ليس به أنيس، ولما رجع عليه الصلاة والسلام لحقته هاجر وهي تقول له إلى من تتركنا وهو لا يجيبها ثم قالت له آلله أمرك بهذا، قال: نعم، قالت: إذًا لا يضيعنا ثم رجعت.

وضعهما في هذا المكان ولم يمتنع من وضعهما فيه، ويتعلل بخوف الموت والوحشة مع شدة حبه لهما، ألا ترى أنه يدعو لهما: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧].

وعندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه خرج به ليذبحه استسلامًا لأمر الله قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ﴾[الصافات:١٠٣-١٠٦].

الله أكبر ما أعظم هذا الاستسلام لله [ابن رزق إياه عند الكبر ومع ذلك استرخصه لأجل الله].

٥- أنه أب للمدعوين:

عندما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم قريشاً إلى الإسلام اعتذروا بأنهم على دين الآباء وأن ترك دينهم تسفيه لهم. فقال لهم: إن إبراهيم عليه السلام هو أبوكم الأول، فإذا لم تعبدوا الله وحده

وتتبعوا ملة أبيكم إبراهيم فقد سفهتم أباكم الأول، وهذا من قلب الحجة على المبطل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠].

٦- أن الناس تفخر بالانتساب إلى دين إبراهيم عليه السلام وتحبه:

فاليهود قالوا نحن على دين إبراهيم والنصارى قالوا: نحن على دين إبراهيم والمشركون قالوا نحن على دين إبراهيم والمسلمون قالوا: نحن على دين إبراهيم فيا ترى من هو الصادق من هؤلاء؟

إن الصادق من هؤلاء هم المسلمون وحدهم فقط، قال تعالى مبينًا ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:٦٧، ٦٨].

فبيّن الله أن أتباع النبي محمد ﷺ هم الذين على دين إبراهيم ﷺ فقط دون غيرهم فعليكم أيها المشركون أن تتبعوا محمدًا ﷺ حتى يكون انتسابكم إلى إبراهيم عليه السلام انتسابًا صحيحًا.

٧- **أنه أول خليل لله** حيث إنه وصل درجة لم يصلها أحد قبله. تفضل الله عليه بها لشدته في معاداة أعدائه ومصارمتهم لأجله.

ولذلك نوع الله الأساليب الداعية للاقتداء به عليه الصلاة والسلام **فجاءت بصيغ متعددة منها:**

أ) الأمر المباشر للنبي محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ب) أمر الرسول ﷺ بالفرح والاغتباط والافتخار بأنه على دين إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[الأنعام:١٦١].

جـ) الأمر العام لجميع الأمة باتباع ملة إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:٩٥]، وقوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾[الحج:٧٨].

و﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على إضمار فعل أي اتبعوا والزموا ملة إبراهيم ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وهذا هو الذي يقال له الإغراء(١).

د)- أن تارك ملة إبراهيم جاهلٌ رضي لنفسه بالدُّون:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠] أي جهلها وامتهنها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون(٢) وذلك أن الله قسم الخلائق قسمين:

أ) سفيهًا لا أسفه منه وهو من رغب عن ملة إبراهيم إلى الشرك.

ب) رشيدًا لا أرشد منه: وهو من لزم التوحيد وتبرأ من الشرك قولًا وعملًا وحالًا. فكان قوله توحيدًا وعمله توحيدًا وحاله توحيدًا ودعوته إلى التوحيد وبهذا أمر الله جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥](٣).

---

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٨).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٢).

أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين.

....

أن: وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر (أنَّ) والتقدير: اعلم أن الحنيفية ملة إبراهيم عبادة الله تعالى وحده بإخلاص[1].

قال تعالى آمرًا نبيه بالعبادة وإخلاصها لله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر:٢-٣]. وأمره أن يخبر الناس بإخلاصه لله ليقتدوا به فقال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر:١١]. وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[الزمر:١٤]. وأَمْرُ الرسول ﷺ بالإخلاص أمر لأمته، ومع ذلك ورد أمر لعموم الأمة بإخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

تعبد الله: أتى بصيغة الفعل المضارع لبيان استمرار العبادة في المستقبل فليس لها نهاية إلا بالموت، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر:٩٩] واليقين هنا هو الموت ويدل له حديث أم العلاء قالت: سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمرّضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي: «**وما يدريك أنَّ الله أكرمه**»، فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال رسول الله: «**أمَّا عثمان فقد جاءه والله اليقينُ، وإنِّي لأرجو له الخير**»[2].

---

(١) «حصول المأمول» (٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٥/ ٢٩٣) كتاب «الشهادات»/ باب القرعة في المشكلات. رقم (٢٦٨٧).

وبوب البخاري بابًا سمّاه: «باب: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[الحجر:٩٩]، ثم ذكر تحته قول سالم، فقال: «قال سالم: اليقين الموت»[(١)].

والعبادة: أصل معناها الذل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل لله[(٢)] بغاية المحبة له[(٣)].

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان[(٤)]

فقد يخضع الإنسان لأحد مع بغضه له فلا يكون عابدًا له وقد يحب أحدًا ولا يخضع له فلا يكون عابدًا له كمن أحب ولده وصديقه.

وعلى هذا فتكون العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح.

وفي الاصطلاح: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[(٥)].

وعبادة الله شرف للإنسان بل هي أعظم ما يشرف به بنو آدم، ولذلك أثنى الله على النبي ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته وأكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾[الإسراء:١] وقال في الإيحاء: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾[النجم:١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾[الجن:١٩] وقال في التحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٨٣).

(٢) فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد لأنه مرَّغ جبهته بالتراب وخضع للملك الوهاب وأظهر غاية الذل والخضوع والانكسار بين يديه بأعلى شيء فيه وهو الجبهة.

(٣) انظر: «الرد على المنطقيين» (١٤٥).

(٤) «الكافية الشافية» (١/ ١٧٩-١٨٠) رقم (٥١٤، ٥١٥).

(٥) «العبودية» (٣٨).

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣].

وقد جمعت في هذا البيت:

إسراء عبدٍ ثم دعوة ربه ... وكذاك وحي في التحدي أربع

أنواع العبودية:

العبودية نوعان:

١- عبودية عامة: وهي عبودية الخضوع لأمر الله الكوني وهذه يشترك فيها كل المخلوقات: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٣] وتسمى العبودية الكونية.

٢- عبودية خاصة: وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وهي محبة الله وطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر:١٧، ١٨] وتسمى العبودية الشرعية، ولذا كان الناس من حيث العبودية الخاصة ثلاثة أقسام:

١) من لم يعبد الله فهو كافر مستكبر، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

٢) من عبد الله وعبد معه غيره فهو كافر مشرك: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

٣) من عبد الله وحده فهو المسلم المخلص: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠].

فالإخلاص هو حقيقة الإسلام، والإسلام: الاستسلام لله لا لغيره قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٢٩].

شرطا صحة العبادة:

لا تصح العبادة ولا تكون مقبولة عند الله إلا إذا توفر فيها شرطان:

١- **الإخلاص**: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]

٢- **المتابعة**: قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فهُوَ رَدٌّ**»[١].

ويجمع هذين الدليلين قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه[٢].

وشيخ الإسلام يذكرهما بطريقة أخرى فيقول: **إن الدين يقوم على أصلين هما**:

١- أن لا نعبد إلا الله.

٢- أن لا يعبد إلا بما شرع[٣].

أقسام الناس بحسب هذين الأصلين:

وينقسم الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام.

١- أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ:

وهم أهل (إياك نعبد) حقيقة، فأعمالهم وأقوالهم وحبهم وبغضهم كلها لله، لا يريدون جاهًا ولا محمدة -قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور- فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وجعلها موافقة لأمره ولما شرعه رسوله ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٣).

٢- من لا إخلاص له ولا متابعة:

فليس عمله موافقًا للشرع وليس خالصًا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله فلهم أوفر نصيب من قوله تعالى: ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[آل عمران:١٨٨]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص وهم ليسوا من أهله.

٣- من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة:

كجهال العبّاد الذين يظنون أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأن مواصلة صيام الليل والنهار قربة، وأن سماع المكاء والتصدية قربة.

٤- من وجدت عنده المتابعة ولكنه فقد الإخلاص:

كالرجل يتعلم العلم ليقال عالم، ويقاتل شجاعة وليرى مكانه في الصف، ويقرأ القرآن ليقال قارئ، ويتصدق ليقال جواد، قال ﷺ قال الله ﷻ: «**أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عملًا أشركَ معي فيه غيري تركته وشركه**»[(١)][(٢)].

فالقسم الأول عملهم مقبول وما عداه فمردود لا قيمة له، بل هو وبال على صاحبه.

مخلصًا له الدين: فسر المؤلف الحنيفية «بالإخلاص» وهو أحد تفاسير السلف[(٣)].

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام (٨٩-٩٠)، و«حقيقة العبودية» لابن القيم (٢٥-٣٠).

(٣) انظر: (ص٢٤٧) من هذا الكتاب.

«فحنيفًا حال مفردة لمضمون قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ولهذا فسرت «مخلصًا» فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص. فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف: المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك فالأول توحيد الطلب والثاني توحيد المطلوب»[(١)].

الإخلاص: لغة: الخاء واللام والصاد أصل واحد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الشيء؛ أي: أصفاه ونقاه من شوبه، ومنه: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾[النحل:٦٦]. قال الليث: الإخلاص: التوحيد لله خالصًا، ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص[(٢)].

واصطلاحًا: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة فعلًا أو تركًا.

قال سهل بن عبدالله: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خالصة».

وقال ابن القيم: «الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد»[(٣)].

وقال ابن مفلح: «الإخلاص عمل القلب وهو أن يقصد بعمله الله وحده»[(٤)].

فيجب على المسلم أن يكون همه وقصده في عمله هو وجه الله تعالى فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي**

---

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٠٨)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ١٣٩).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٨١).

(٤) «المبدع» (١/ ٤١٤).

العُليا فهو في سبيل الله»(١).

فلم يعتبر النبي ﷺ للقتال مع مشقته أيّة قيمة في ميزان الله إلا إذا صلح القصد وأريد به وجه الله.

فإذا لم يصلح القصد صار العمل وبالًا على صاحبه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إنَّ أوّل النّاس يقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استشهد، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتّى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأنْ يُقال: جريء، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتّى ألقي في النّار.**

ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلّمهُ، وقرأ القُرآنَ، فأتي به فعرّفه نعمهُ فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت. ولكنّك تعلّمت ليقال: عالم وقرأت ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتَّى ألقي في النّار.

ورجلٌ وسّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنّك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النّار»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٧)، كتاب «الجهاد»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. رقم (٢٨١٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٢) كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. رقم (١٩٠٤).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤)، كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

فهذه أعمال جليلة عظيمة. قتال في سبيل الله ضد الكفار، وتعلم القرآن وتعليمه، وصدقة وإنفاق. كلها تضيع سدى. لا. بل يعذب أهلها بها لأنها فقدت شرطًا عزيزًا هو الإخلاص. وذلك أنه: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت. فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح.

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله خزائنه لا يملكها غيره.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال رجل للنبي ﷺ: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «**ذلك الله**»(١)، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين»(٢).

أما إذا وجد الإخلاص في العمل الصالح عظّمه وجُزِيَ صاحبه عليه الجزاء الأوفى.

---

(١) الترمذي (٥/ ٣٨٧-٣٨٨)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الحجرات. رقم (٣٢٦٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والطبري في «جامع البيان» (٢٦/ ١٢١)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد متصل»، «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٤)، واسم الرجل هو الأقرع بن حابس، كما بيّنته رواية أحمد (٣/ ٤٨٨)».

(٢) «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١).

وذلك أن «النوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في حديث البطاقة[١]. فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون: (لا إله إلا الله) ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة... وكذلك المرأة البغي التي سقت الكلب بإيمان وإخلاص غفر الله لها[٢] والذي وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له[٣]، فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص»[٤] وبهذا المعنى يقول عبدالله بن المبارك: «رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تُصغِّره النية»[٥].

ولعظم قيمة الإخلاص في الطاعة والعبادة كان السلف يدعون الله أن يرزقهم ذلك كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله

---

(١) أحمد (٢/ ٢١٣)، الترمذي (٥/ ٢٤-٢٥)، كتاب «الإيمان»/ باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، كتاب «الزهد»/ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. رقم (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦)، وقال: «هذا حديث صحيح لم يخرج في «الصحيحين»، وهو صحيح على شرط مسلم». قال الذهبي: «إسناد جيد». «معجم الشيوخ» (١/ ١١٤).

(٢) مسلم (٤/ ١٧٦١)، كتاب «السلام»/ باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها. رقم (٢٢٤٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ١٣٩)، كتاب «الأذان»/ باب فضل التهجير إلى الظهر. رقم (٦٥٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢١)، كتاب «الإمارة»/ باب بيان الشهداء. رقم (١٩١٤).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢١٨-٢٢٦) باختصار، وإن شئت فانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٢).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).

لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[(١)].

بل يربون غيرهم على الإخلاص ويحذرونهم من حظوظ النفس التي تفسد العمل فهذا شداد ابن أوس بن ثابت الأنصاري يقول: «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»[(٢)].

وما أحوج المسلمين جميعًا إلى الإخلاص وأهل العلم والدعوة على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف:١٠٨].

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب على هذه الآية: «التنبيه على الإخلاص، لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»[(٣)].

ولقد كان السلف يهتمون لسلامة العمل وخلوصه من الشوائب المحبطة للعمل، المفسدة للنية أكثر من اهتمامهم للعمل.

ومن أقوالهم في ذلك:

قال الإمام أحمد: «شرط النية شديد»، لما قال له أبو داود: «كتبت الحديث بنية»[(٤)].

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي إنها تتقلب عليّ»[(٥)].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٢٨).

(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ٤٠).

(٥) «الجامع» للخطيب (١/ ٣١٧).

وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»[(١)].

وقال عبدالله بن مطرف «تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل»[(٢)].

وقال أويس القرني: «إذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك فلن تعالج شيئًا أشد عليك منهما»[(٣)].

وأما يوسف بن الحسين فيشير إلى صعوبة الإخلاص، قائلًا: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر»[(٤)].

وسر مشقة الإخلاص بينه سهل بن عبدالله فقال: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب»[(٥)].

ومما يعين على الإخلاص إخفاء العمل الصالح عن الناس، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»[(٦)].

وقال الخريبي: «كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»[(٧)].

والأمثلة من حال السلف في إخفاء الطاعات كثيرة لكن أكتفي بذكر مثالين منها:

١- صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله وكان خرازًا يحمل غداءه من

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩).

(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢١).

(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ٥٥).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٣).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

عندهم فيتصدق به في الطريق ويرجع عشيًا فيفطر معهم[١].

٢- قال عبدالله بن سنان كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس فصاح الناس النفير فخرج ابن المبارك والناس فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز فخرج إليه رجل فشدّ العلج عليه فقتله حتى قتل ستة من المسلمين. وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلي ابن المبارك فقال: يا فلان إن قتلت فافعل كذا وكذا ثم كتم وجهه بكمه ثم حرّك دابته وبرز للعلج فعالج معه ساعة فقتل العلج وطلب المبارزة فبرز له علج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه[٢] فضرب دابته وطرد بين الصفين فأخذ عبدة بن سليمان المروزي بطرف كمه فمده فإذا هو عبدالله بن المبارك فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا»[٣].

له الدين: اللام: للاستحقاق. والضمير في له يعود إلى الله تعالى.

الدين: لغة: الطاعة والعبادة والخضوع والخُلق، ومنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] قال ابن عباس: «دين عظيم»[٤]، واصطلاحًا: طاعة الله الدائمة اللازمة التي صارت عادة وخلقًا.

والدين مصدر والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول. فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع[٥].

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٩٤) وقوله أربعين سنة لا يلزم منه أن يصوم كل يوم فتنبه.

(٢) كاعوا عنه: أي جبنوا عنه.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٨ و٣٩٤).

(٤) «جامع البيان» (٢٩/ ١٨).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٨) باختصار.

وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. **ومعنى يعبدون: يوحدون.**

....

وبذلك: إشارة إلى ملة إبراهيم (الإخلاص).

أمر الله: الأمر هنا هو واحد الأوامر وهو الطلب على سبيل الإلزام.

والأدلة على أن الله أمر الخلق بعبادته كثيرة، **منها:**

أن الله أمر نبيه أن يخبر الناس أن الله أمره بإخلاص العبادة حتى يقتدوا بنبيهم ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[الزمر:١١].

بل جاء الأمر عامًا لكل الناس في آي كثيرة من القرآن منها:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠]. وقوله تعالى ذاكرًا جواب عيسى عليه السلام عندما سأله أهو قال للناس اتخذوني وأمي إلهين: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:١١٧]. وقوله تعالى: مبينًا أنهم أمروا به في سائر الشرائع: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

وأنه عاقب من عصى أوامره، فقال: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[الذاريات:٤٤].

وإذا أمر الله العبد بأمر وجب عليه فيه سبع مراتب:

١- العلم به: مثال: إذا عرف الإنسان أن الله أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك وجب عليه أن يعلم المأمور به ويسأل عنه إلى أن يعرفه ويعلم المنهي عنه ويسأل عنه إلى أن يعرفه.

٢- محبته ما أنزل الله وما أمر به وهو التوحيد.

٣- العزم على الفعل: وقد يوجد من الناس من علم وأحب ولكنه لم يعزم على الفعل.

٤- العمل: وكثير من الناس يعزم أو يعمل، ثم إذا نهاه من يعظمه من الشيوخ ترك العمل.

٥- أن يقع خالصًا صوابًا: فإن كثيرًا ممن عمل لا يقع خالصًا فإن وقع خالصًا لم يقع صوابًا.

٦- الحذر من فعل ما يحبطه: فإن الصالحين يخافون من حبوط العمل لقوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾[الحجرات:٢] وهذا من أقل الأشياء في زماننا.

٧- الثبات على الحق والتوحيد والخوف من سوء الخاتمة[1].

جميع الناس: أي كل الناس.

الناس: كلمة يعني بها الجن والإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨] ولا خلاف أنه ﷺ مرسل إلى الجن كما أنه مرسل إلى الإنس.

وخلقهم: الخلق هو الإيجاد من العدم على غير مثال سابق.

لها: الضمير في لها يعود إلى ملة إبراهيم وهي عبادة الله وحده مخلصًا له الدين.

وقدم الأمر على الخلق لأن الخلق لأجله ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] فمن لم يعمل بالأوامر صارت حياته وبالًا عليه.

وما: الواو للاستئناف و(ما) نافية فتنفي العبث من خلق الإنس والجن، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثًا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

خلقت: فيه أعظم دليل على أنه المنفرد بالخلق لأنه تعالى ذكر الخلق بصيغة الإفراد وأضافه إلى نفسه، فهو خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[الزمر:٦٢]، وحصر

(١) «الدرر السنية» (٢/ ٣٨-٣٩) بشيء من التصرف.

الخلق على ذاته المقدسة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾[الأعراف:٥٤] فقدم ما حقه التأخير ليفيد حصر الخلق له سبحانه وحده، وذلك لأن الخلق هو أخص خصائص الإله: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:١٧].

الجن والإنس: الألف واللام في الجن والإنس للاستغراق، فيكون الأمر بالعبادة عامًا لجميع الإنس والجن، وليس خاصًّا بالمؤمنين، ويدل له ما يلي:

١- لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له فلماذا لم تذكر الملائكة فيقال وما خلقت الجن والإنس والملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

٢- لو كان المقصود المؤمنين فقط لم يذكر الإنس والجن عمومًا ولخصهم بالذكر.

٣- سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم. لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له ولهذا عقبها بقوله: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾[الذاريات:٥٧] فإثبات العبادة ونفي طلب الرزق منهم يبين أنه خلقهم للعبادة ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا ﴾ أي نصيبًا ﴿مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ ﴾[الذاريات:٥٩] أي المتقدمين من الكفار... فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآيات من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبده من الإنس والجن.

٤- ذكره عقابه لهم في الدنيا والآخرة ثم ذكره وعْدَه للمؤمنين ثم ذكره قصص من آمن فنفعه إيمانه ومن كفر فعذبه بكفره كقصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم، ثم قال: ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[الذاريات:٣٧] ثم ذكره قصة موسى وعاد وثمود وآياته في بناء السماء وفرش الأرض وخلق كل شيء من زوجين، ثم لما بين الآيات الدالة

على وجوب الإيمان به وعبادته أمر بذلك، فقال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[الذاريات:٥٠، ٥١] ثم بين أن هؤلاء المكذبين من جنس من قبلهم ليتأسى الرسول والمؤمنون بمن سبقهم من الرسل فيصبروا على ما ينالهم من أذى الكفار.

فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق من يفعل العقوبة في الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾[الذاريات:٥٦، ٥٧] كان هذا مناسبًا لما تقدم مؤتلفًا معه: أي هؤلاء الذين أمرتهم إنما خلقتهم لعبادتي لا أريد منهم غيرها.

٥- أنه لو قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين كان هذا عذرًا لمن عصى الله ولم يطع أمره. كأن يقول يا رب أنت خلقتني لأكفر ولم تخلقني لأكون مؤمنًا فليس علي ذنب ولا أستحق العقوبة. وكلام الله منزه عن هذا القول. فوجب المصير إلى القول بالعموم(١).

والواو في قوله والإنس عاطفة فجمعت المعطوف والمعطوف عليه في حكمين هما:

١- في كونهما جميعًا خلق الله.

٢- في علة الخلق.

إلا: استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي وما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة(٢). وفائدة حذف المستثنى منه ليكون أبلغ في النفي.

ليعبدون: اللام تنقسم إلى قسمين:

١- لام العلة الباعثة للفعل، وهي لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية الدينية وهي مستلزمة لمحبة المراد. ولكن قد تقع وقد لا تقع كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٠-٥٦).

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٩).

﴿وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]. فالله خلقهم لعبادته وقد يعبدونه وحده وقد لا يعبدونه وحده.

٢- لام الصيرورة والعاقبة: وتكون لبيان العاقبة الكونية [الإرادة الكونية القدرية] فهذه مستلزمة لوقوع المراد فلابد من وقوعها كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨، ١١٩] أي خلق قومًا للاختلاف وقومًا للرحمة[(١)].

فاللام في ليعبدون هي لام العلة الباعثة المتعلقة بالإرادة الشرعية فقد تقع وقد لا تقع، فالله أراد منهم شرعًا أن يعبدوه فمنهم من عبده ومنهم من عصاه[(٢)].

يعبدون: قال علي بن أبي طالب: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي[(٣)].

واختاره الزجاج ومجاهد، وشيخ الإسلام، واستدل له بأحد عشر دليلًا من القرآن ودليلين من السنة، وقال: فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعًا[(٤)]، وابن كثير[(٥)] والشنقيطي[(٦)] وغيرهم.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٦)، و(٨/ ٥٥-٥٦ و٨٦-١٨٩). و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٢٠١).

(٢) ولا يمكن أن يكون المقصود بهذه اللام في ليعبدون لام العاقبة لأن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز فالجاهل كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فلم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للموت وابنوا للخراب» فإنهم يعلمون هذه العاقبة لكنهم عاجزون عن دفعها والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل أو العاجز. «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٤).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢-٥٣).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢٥).

(٦) «أضواء البيان» (٧/ ٦٧٣-٦٧٤) وقال هذا هو التحقيق واستطرد بذكر الأدلة على ذلك.

وقيل: يوحدون[١]، قال ابن قتيبة عند قوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾[الزخرف:٨١]، أي: «أول الموحدين، ومن وحّد الله فقد عبده، ومن جعل له ولدًا أو ندًّا، فليس من العابدين، وإن اجتهد»[٢]، واختاره المؤلف.

قال ابن الجوزي: وذكر أهل التفسير أن العبادة في القرآن على وجهين:

١- التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[النساء:٣٦] أي وحدوه.

٢- الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾[٣] [القصص:٦٣].

ولا منافاة بين هذين القولين، فإن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد بل لا تسمى عبادة إلا بالتوحيد، قال ابن قاسم: «كلما وردت العبادة في القرآن فمعناها توحيد الله بجميع أنواع العبادة وسميت وظائف الشرع عبادات لأنهم يفعلونها خاضعين لله فيكونون من أهل رضاه»[٤].

---

(١) «تفسير غريب القرآن» (٤٢٢)، و«مشكل القرآن» (٣٧٣)، و«معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٢) «تأويل مشكل القرآن» (٣٧٣).

(٣) «نزهة الأعين النواظر» (٤٣١-٤٣٢).

(٤) «حاشية على كتاب التوحيد» (١٣).

وأعظم ما أمر الله به: التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة.

....

أعظم: أفعل تفضيل وأفعل التفضيل يكون بين شيئين أو أشياء اتفقت في صفه فيكون أعظم: هنا بمعنى: أكبر[(١)]. فلما كان الإيمان شعباً متفاضلةً فيه أعلى وفيه أدنى صار أعلاها وأعظمها التوحيد لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قول: لا إِلَهَ إلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمانِ**»[(٢)].

ما أمر الله به: يفيد قوله ما أمر الله به أن الدين ينقسم إلى قسمين: أوامر ونواهي.

التوحيد لغة: مصدر وحد يوحد توحيدًا.

والأحد في صفة الله أي واحد لا ثاني له، فلا يجوز أن يوصف به غير الله[(٣)]، ومنه قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:١].

اصطلاحًا: هو إفراد الله[(٤)] بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

أو: إفراد الله بما يختص به.

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧].

(٢) مسلم (١/ ٦٣) كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. رقم (٥٨).

(٣) «تهذيب اللغة» (٥/ ١٩٢).

(٤) إفراد الله: أي جعله فردًا أي واحدًا لا ثاني له، فلا يخلق ولا يرزق، ولا يدبر، ولا يملك الملك التام إلا هو سبحانه، ولا سمي له، ولا يعبد إلا هو.

وأقسامه ثلاثة:

١ - توحيد الربوبية:

وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير: «إفراد الله بأفعاله» قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

فهذه الآية تفيد حصر الخلق والتدبير له سبحانه لأنه قدم ما حقه التأخير.

وأما دليل الملك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية:٢٧] أيضًا قدّم ما حقه التأخير ليفيد الحصر.

٢ - توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان بما ورد في كتاب الله وصح في سنة رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته على ما يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

٣- توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بالعبادة (إفراد الله بأفعال العباد)، والإفراد: هو صَرْفُ العبادة له وحده لا شريك له.

الله: مأخوذ من الإله بمعنى مألوه، قال ابن عباس «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[(١)]، ولا يتحقق جعله فردًا إلا بالنفي والإثبات. «**لأن النفي المحض عدم محض والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة**» ولأجل ذلك جمعت لا إله إلا الله بين النفي والإثبات.

والمقصود بالعبادة هنا العبادة الشرعية التي أمر الله بها عباده على ألسنة رسله كالصلاة والصوم والخوف والتوكل وغيرها من أنواع العبادة فيجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له.

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

وعرف الشيخ التوحيد هنا بأنه إفراد الله بالعبادة لأمور:

١- أنه التوحيد التي بعثت الرسل لتحقيقه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. قال شيخ الإسلام: «إن التوحيد الذي بعثت به الرسل أن يعبد الله وحده لا شريك له فيعبد الله دون ما سواه وعبادته تجمع كمال محبته وكمال الذل له»[١].

ولذا ركز القرآن تركيزًا شديدًا على توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله بجميع أنواعها وذلك من خلال محورين:

أ) الدعوة لعبادة الله وحده.

ب) نفي استحقاق غير الله للعبادة.

لأنه لا يتم توحيد الألوهية إلا بهذين الجانبين المتلازمين[٢].

٢- أن توحيد الألوهية إذا أطلق شمل التوحيد كله وذلك أن توحيد الألوهية تقرره شهادة أن لا إله إلا الله وهي إفراد الله بالتأله والتعظيم، وذلك لا يكون إلا لمن آمن به رباً مدبراً كامل الصفات. قال شيخ الإسلام: «فدين الإسلام مبني على أصلين من خرج عن واحدٍ منهما فلا عمل له ولا دين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به. وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع وهو حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وإجلالًا وإكرامًا وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله...»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٢).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (١١٩).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٥٢).

وقال ابن القيم في وصفه لتوحيد الألوهية: «هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وذروة سنامه وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٦٩-٨٢] وإذا تدبرت القرآن من أوله إلى آخره رأيته يدور على هذا التوحيد وتقريره وحقوقه»[(١)].

٣- أن كلا نوعي التوحيد مستلزم توحيد الألوهية:

ذكر الله توحيد الربوبية مبينًا استلزامه لتوحيد العبادة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١، ٢٢].

فمن خلق الناس أولهم وآخرهم. وجعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل المطر وأخرج الثمرات فهو المستحق للعبادة[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٢) راجع إن شئت: «مدارج السالكين» (١/ ٤١١)، فقد بين رحمه الله أنَّ قَدَمَ العبد ينبتُ في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعدًا إلى توحيد الألوهية.

أما توحيد الأسماء والصفات فهو كذلك، قال ﷺ: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنَّةَ**»(١).

وإحصاؤها معرفتها وحفظها والعمل بمعانيها فإذا استشعر أن الله يراه لم يرتكب معصية، بل سيقدم على طاعة الله وإفراده بالعبادة، لعله أن يرضى عنه.

٤ - أن توحيد الألوهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين:

قال شيخ الإسلام: «وهذا التوحيد -أي توحيد الألوهية- هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»(٢).

وصار التوحيد أعظم ما أمر الله به لأمور:

١ - لأنه خالص حق الله تعالى، قال ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد...»(٣).

٢ - لأنه لأجله خلقت الخليقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- به تصح العبادات وبدونه تفسد: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٤).

٤ - لأجله أرسلت الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

٥ - لأجله أنزلت الكتب.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٨٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

٦- به قامت السموات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٧- لأجله خلقت الجنة والنار: فمن وحّد فله الجنة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[البقرة:٢٥].

ومن أشرك وترك التوحيد فله النار ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة:٧٢].

٨- لأجله جرت سيوف الجهاد: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣][١].

٩- عنه يسأل الناس يوم القيامة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الحجر:٩٢-٩٣]، قال البخاري: «قال عدة من أهل العلم عن قول لا إله إلا الله»[٢].

قال السعدي: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نَهْيٌ عن ضده أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين»[٣].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٧٧)، كتاب «الإيمان»/ باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

(٣) «القواعد الحسان» (١٩٢).

وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه.

....

وأعظم ما نهى عنه الشرك.

نهى: النهي في اللغة: الزجر عن الشيء، وهو ضد الأمر[(١)].

اصطلاحًا: طلب الكف على وجه الإلزام.

والضمير المستتر في نهى يعود إلى الله تعالى، وأما الضمير في عنه فيعود على أعظم المنهي عنه وهو الشرك.

الشرك في اللغة: مخالطة الشريكين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[طه:٣٢][(٢)].

اصطلاحًا: صرف شيء مما يختص به الله لغيره أو: تسوية غير الله بالله فيما يختص به الله.

والدليل من الكتاب على أن الشرك أعظم ما نهي عنه من الذنوب:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء:١١٦].

والاستدلال بهذه الآية من وجهين:

١) أن الله جعل الشرك هو الذنب الذي لا يغفر فقط فدل على أنه أعظم الذنوب والمنهيات.

٢) أن جميع الذنوب أهون منه، قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أي: ما هو دون الشرك وأخف منه.

ومن السنة: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند

(١) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٣٩)، و«العين» (٤/ ٩٣)، و«المفردات» (٥٠٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦-١٧).

الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟ قال: «**أنْ تقتل ولدك تخافُ أنْ يَطْعَمَ معك**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**أنْ تزاني حليلة جارك**»(١).

ورواه البخاري في التوحيد وزاد: فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية (٢) [الفرقان:٦٨، ٦٩].

قال شيخ الإسلام: «والله أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك به فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك»(٣)، وقال: «الشرك أعظم من التكذيب بالرسالة، ولهذا كان المشركون أكفر من اليهود والنصارى»(٤).

وقال: «وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل، وضده وهو الشرك أعظم الظلم، كما أخرجا في «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذاك «**ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إنَّ الشِّركَ لَظُلْمٌ عظيمٌ**»(٥)(٦)، ومعنى: يلبس: أي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]. رقم (٧٥٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٥١-٢٥٢)، وانظر: «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية/ تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٤) «الرد على البكري» (١٤٧).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/ ٥١٣) كتاب «التفسير»/ باب لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. رقم (٤٧٧٦)، ومسلم (١/ ١١٤) كتاب «الإيمان»/ باب صدق الإيمان وإخلاصه. رقم (١٢٤).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٦١) وانظر: (١٦١-١٦٦).

يخلط إيمانه بشرك.

وصار الشرك أعظم الذنوب لما يلي:

(١) **أنه أشد أنواع الاعتداء:** فهو اعتداء على الله بصرف خالص حقه لغيره. قال شيخ الإسلام: «ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإن الشرك لظلم عظيم»[١].

(٢) **أنّه قَدْحٌ في الله وتَنَقُّصٌ له وعَدْلُ غيره به:**

مقارنة الأعلى بالأدنى تنقص للأعلى كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف إذا سوي به؟ لا شك أنه يكون أشد تنقصًا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١] وقال تعالى ذاكرًا ندم المشركين وحسرتهم حين يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

فانظر كيف قدح المشركون في ربهم فسووا مالك الرقاب بمن خلق من تراب، وسووا مالك الأمر كله بمن لا يملك من الأمر شيئًا ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] وسووا المنعم بالنعم التي لا تحصى بالفقير المحتاج الذي لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرَّة، وسووا الكامل في كل شيء بالناقص من جميع الوجوه. فما أعظم ظلمهم وأقبح صنيعهم! أفلا يعقلون.

---

(١) «الرد على البكري» (٩٥).

(٣) لأنه مناقض للمقصود بالخلق:

الخلق خلقوا لأجل عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] والمشرك مناقضٌ لهذا كله ولهذا كان الشرك غاية المعاندة والمشاقة لله عز وجل ولذلك إذا عم الشرك الأرض في آخر الدنيا وفقد الموحدون لم يستحق الموجودون البقاء ومن ثم خرب العالم وقامت القيامة، قال ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتَّى لا يقال في الأرض: الله الله**»(١).

(٤) لأنه ليس للنفس فيه نصيب بخلاف المعاصي والمحرمات فإن دواعي الشهوة تدعو إليها بخلاف عبادة غير الله.

(٥) لأن الشرك إذا وجد محى أعظم حقوق الله وهو التوحيد، فالشرك الأكبر لا تبقى معه حسنة ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

ولعظم ذنب الشرك فإنه لا يغفر. كله كبيره وصغيره. بل لابد من عقاب فاعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وهذا عام في الشرك الأكبر والأصغر، قال شيخ الإسلام: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي»(٢).

وقال أيضًا: «وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى عموم القرآن وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلمًا، لكن شركه لا يغفر له. بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة»(٣).

---

(١) مسلم (١/ ١٣١) كتاب «الإيمان»/ باب ذهاب الإيمان آخر الزمان. رقم (١٤٨).

(٢) «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٣) «الرد على البكري» (١٤٧).

وقال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ـا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن[1]

أنواع الشرك:

الشرك نوعان:

(١) **شرك أكبر**: وهذا النوع مخرج من الملة ومحبط للعمل وضابطه: «أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله».

(٢) **شرك أصغر**: وهذا النوع لا يخرج من الملة، ولكنه أكبر من الكبائر والقاعدة تقول: «كل معصية سماها الله شركًا فهي أعظم مما لم تسم شركًا».

وضابطه: «كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[2] كالحلف بغير الله، ويسير الرياء، والغلو في المخلوق الذي لا يصل إلى رتبة العبادة، وقيل: «كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه» وقيل: «كل معصية ورد في النصوص تسميتها شركًا ولم تبلغ رتبة العبادة».

هل للشرك مبرر؟

الجواب: لا، لعدة أمور:

١- أن الله اختص بالملك، فلا ملك لأحد دونه، ولا مثقال ذرة.

---

(١) «الكافية الشافية» مع شرح ابن عيسى (٢/ ٢٦٣).

(٢) «القول السديد» (٤٤-٤٥).

٢- أنه ليس لأحد مع الله شراكة.

٣- أنه لا يوجد معين لله تعالى.

٤- أن الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذنه.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢، ٢٣].

قال شيخ الإسلام: «هدد سبحانه من دعا شيئًا من دون الله وبيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركًا في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين، فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق، لَكِنْ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٣]»[١]، فبين: «أن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى فنفى بذلك وجوه الشرك»[٢].

أقسام الشرك من حيث الربوبية والألوهية:

١- **شرك في الربوبية**: وهو اعتقاد تصرف بعض المخلوقات بشيء من الأمور[٣]، كما يقول بعض القادرية:

عبد القادر يا جيلاني يا متصرف في الأكوان

٢- **شرك في الألوهية**: وهو الذي عرفه المؤلف بقوله: «وهو دعوة غيره معه»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤).

(٢) المرجع السابق (٢٧/ ٦٦).

(٣) وعرفه شيخ الإسلام فقال: «أن يجعل معه تدبيرًا ما». «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٦).

(٤) ويمكن أن يقال: «أن يجعل لغيره معه في العبادة شيئًا ما».

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام، هي:

١- شرك الدعوة: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥].

فالمشركون الأولون يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، أما مشركو زماننا فيشركون في الرخاء والشدة، فيكونون أغلظ شركًا من الأولين[١].

٢- شرك النية والإرادة والقصد:

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥، ١٦].

قال ابن القيم: «وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها»[٢].

٣- شرك الطاعة:

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١].

وتفسيرها الذي يوضحها حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة:

---

(١) القاعدة تقول: «الشرك يزداد غلظًا وقبحًا في الكمية والكيفية».

(٢) «الجواب الكافي» (١٥٩).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١]، قال: «**أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنّهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئًا استحلّوه وإذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموهُ**»[١].

قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية: «إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا»[٢].

٤- شرك المحبة:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥].

فشرّكوا بين الله وأندادهم في المحبة فأحبوهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم، والفرق بينهما: أن حب المشركين فيه شرك أما حب المؤمنين فهو مجرد لله مخلص[٣].

وقول المؤلف: دعوة غيره معه:

دعوة غيره: أي: دعاء غير الله مع الله سبحانه.

ولفظة: غير: شاملة لكل شيء سوى الله تعالى.

ولفظة مع: تفيد عموم المشاركة، فكل من دعا غير الله مع الله فهو مشرك سواء قلّ أو كثر، ومعنى قوله دعوة غيره معه أي الطلب من غيره سبحانه معه من إنس أو جان أو ملائكة أو غيرهم سواء كان طَلَبَ عبادةٍ أو طَلَبَ مسألةٍ كمن صلّى للميت أو دعاه ليقضي له حاجة.

وعرّف الشرك بقوله دعوة غيره معه ليشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

---

(١) الترمذي (٥/ ٢٧٨)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة التوبة. رقم (٣٠٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٩٢) رقم (٢١٨)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٩٨) رقم (٢٠٣٥٠)، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (٦٤).

(٢) «مجموعة التوحيد»، الرسالة الأولى (٦-٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٨ و٧/ ١٨٨).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[النساء:٣٦].

....

و: الواو استئنافية.

اعبدوا الله: أمر بعبادة الله والأمر يقتضي الوجوب، وهو أمر شرعي، أَمْرٌ بالتوحيد والإخلاص. قال ابن عباس: اعبدوا الله أي وحِّدوا الله[١]. وتوحيد الله هو أعظم الحقوق؛ لأنه خالص حقه سبحانه، فلا يجوز أن يشركه غيره، ولهذا أكده بقوله: «ولا تشركوا به شيئًا».

ولا تشركوا: الواو عاطفة.

لا: ناهية، والنهي يقتضي المنع والتحريم مع الزجر.

لا تشركوا به: أي لا تجعلوا له شريكًا تعظمونه كتعظيمكم إياه. وفيها تأكيد إخلاص العبادة لله وحده، فإن النهي عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد تأكيد له.

قال القرطبي: «فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره»[٢].

شيئًا: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، أي: عموم النهي عن الشرك صغيره وكبيره في أي عبادة كانت، وبأيِّ أحد مهما عظمت منزلته، قال ابن قاسم: «قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرّمه فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة»[٣].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٩٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ١٨٠).

(٣) «حاشية كتاب التوحيد» (١٥).

ومع أهمية التوحيد وخطورة الشرك أهملت الأمة العناية به حتى جهل حقيقته أبناء المسلمين، قال مبارك الميلي(١) متعجبًا من هذا الفعل ومبينًا نتيجته وخطورته: «وإن لم يكن بعقلك بأس فستسلم معي شدة عناية من بعثه الله خاتم النبيين ببيان الشرك وعدم الاكتفاء بشرح التوحيد وستعجب معي من قلة اهتمام علمائنا بذلك، كأن لا حاجة بالمسلمين إليه تجد في كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة أو لا توجد عادة ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول فيحددون الشرك ويفصلون أنواعه ويعددون مظاهره حتى يرسخ في نفوس العامة الحذَرُ منه والابتعاد عن وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله في جزئية من ذلك.

نتيجة إهمال الكلام في الشرك:

نتج عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصي معنى، وإن كان أجلاها حكمًا، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرؤون منه ويغضبون كل الغضب إن نسبوا إليه ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله ثم يدافع عنهم ويحشرهم في زمرة أهل السنة ويشنع على العلماء الناصحين حتى إنه ليخيل إليك أن العامي الواقع في حمأة الشرك جهلًا واغترارًا أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق»(٢).

والأدهى من ذلك والأمر أن كثيرًا من أهل العقيدة الصافية أهل السنة والجماعة في هذه الأيام ضعفوا عن تدريسها في دروسهم العلمية وأكبوا على تدريس الفقه أما الخطب

---

(١) مبارك بن محمد الميلي، أمين مال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (٢١-٢٢).

والمحاضرات فلا تكاد تسمع فيها بيانًا للتوحيد وحثًا عليه وترغيبًا فيه ونهيًا عن الشرك وتحذيرًا منه إلا من رحم ربك وقليل ما هم، حتى بلغ بالناس أنّه إذا حذرهم محذر من الشرك تغيرت وجوههم، وقالوا: نحن على التوحيد، كيف تتهمنا في عقائدنا.

فالله الله يا شباب الإسلام، خذوا على أنفسكم العهد أن تقتفوا سنة نبيكم ﷺ في كثرة تكرار بيانه للتوحيد، حتى وهو في مرضه الأخير يحذر صحابته من الوقوع في حمأة الشرك مع ما هم فيه من قوة الاستمساك بالتوحيد، فيقول: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١)(٢)، وما ذلك إلا ليزيد تمسكهم بالتوحيد قوة وشدة وصلابة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) يحذر أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وطلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم، من جلة الصحابة ﭫ وأرضاهم.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها.

....

ثم بعد أن بيّن رحمه الله كيف يتربى المسلم. وذلك بطلب العلم والعمل به ونشره بين الناس، حتى لو أصابه ما أصابه من الأذى. وأن أعظم ما يشرف به العبد هو التوحيد ومن فقد التوحيد صار مشركًا في أسفل سافلين، وأن من أعظم ما يعينه على الثبات على التوحيد والإسلام التميز. فيوالي المؤمنين ويعادي الكافرين مقتديًا بخليل الله إبراهيم عليه السلام، أوضح أنه لا بد من معرفة الأسس والركائز التي ينبني عليها دين المسلم وعقيدته.

ولذا أتى المؤلف بالفاء الرابطة ليبين أن الكلام المتأخر مرتبط بالمتقدم ومبني عليه.

وتكون الفاء رابطة: إذا جاءت في جواب الشرط؛ فكأن المؤلف يقول: من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول الثلاثة.

أو كان المبتدأ يفيد العموم فكأنه قال: كل من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول.

إذا: تأتي لليقين.

قيل لك: لم يحدد القائل لأنه ليس المقصود تعيين السائل ولكن المقصود هو الجواب. وأوردها المؤلف بصيغة السؤال اقتداءً بالنبي ﷺ عندما سأل معاذًا: «**يا مُعاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حقُّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا...**»[1].

ولأنها مسألة عظيمة لابد فيها من انتباه السامع ليعي ما يقال له.

ما الأصول: الأصل: هو ما يبني عليه غيره.

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٨) كتاب «الجهاد»/ باب اسم الفرس والحمار. رقم (٢٨٥٦)، ومسلم (١/ ٥٨) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. رقم (٣٠).

يقال: استأصَلَتْ الشجرة إذا ثبت أصلها[١].

فالأصل: هو الشيء الثابت الراسخ الذي يمكن البناء عليه حسيًّا كان أو معنويًا.

أدلة الأصول الثلاثة:

وهذه الأصول يستدل لها بالأثر والنظر:

أما الأثر فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:٥٣]، فقوله ربنا: دليل على من ربك، وقوله: (آمنا بما أنزلت) دليل على ما دينك، وقوله: (اتبعنا الرسول) دليل على من نبيك، فتوسلوا إلى الله بأفضل ما يؤمنون به، وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾[آل عمران:١٩٣]، ومن السنة: حديث البراء بن عازب الطويل وفيه: «**وإنَّه ليسمع خفق نعالهم إذا ولَّوا مدبرين حين يقال له: يا هذا من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟**...»[٢].

وقوله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا**»[٣].

وأما النظر: فإنه لابد للعبد من رب يعبده ويطيعه ويأتمر بأمره وينتهي عما نهاه عنه وهو الله عز وجل، ولا بُدَّ من طريق يوصل إلى مرضاة الرب، وهو الدين دين الإسلام، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف الطريق الموصل إلى رضا الله وجناته إلا بدليل يدل عليه وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو الذي يبلّغ دين الله تعالى للناس.

يجب على الإنسان: الواجب هو ما أمر العبد بفعله على سبيل الإلزام.

معرفتها: المعرفة هنا المقصود بها العلم اليقيني الموجب للعمل.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٤٠)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (١/ ٦٢)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر. رقم (٣٤).

ويدل لذلك حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتابٍ فليكن أوَّلَ ما تدعوهُم إليه: عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم، فإذا فعلُوا فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ إلى فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم**»(١) فدل هذا الحديث على أن المعرفة علمية موجبة لعمل القلب والجوارح.

فمعرفة الأصول الثلاثة والعمل بمقتضاها سعادة أيما سعادة، قال عبدالله بن المبارك: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعّموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل»(٢).

وبنحوه قال مالك بن دينار: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطعم شيء فيها، قالوا: وما هي يا أبا يحيى؟ قال: «معرفة الله تعالى»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٣٥٧).

فقل: معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ.

فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه.

....

ذكر المؤلف هذه الأصول إجمالًا، وهي معرفة الرب الذي يجب أن نعبده والدين الذي يجب أن نسير عليه إلى الله تعالى وإلى مرضاته، والرسول الذي يجب أن نتلقى منه الدين فيكون هو المصدر الوحيد لمعرفة دين الله عز وجل، وذلك بما أوحاه الله إليه سواء من القرآن أو السنة، قال تعالى مبينًا وحدة المصدر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر:٧].

فمعرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمدًا ﷺ أَصْلُ كلِّ علم، وليس للناس صلاح إلا بها قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي تصير إليه الحادثات، فهو الأصل الجامع، فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك: فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة وإما مضرة»(١).

ثم شرع في التفصيل فقال: فإذا قيل لك من ربك فقل ربي الله.

والرب: مصدر مستعار للفاعل(٢) فيكون بمعنى رابّ، قال ابن الأنباري «الرب ينقسم إلى ثلاثة أقسام يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع... ويكون الرب: المصلح»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٦).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٧٦).

وأصله: من التربية وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حد التمام[(١)].

«فهو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها»[(٢)].

أنواع التربية:

التربية نوعان:

تربية عامة: لكل المخلوقين وهي رزقهم وهدايتهم لما فيه صلاح معاشهم في دنياهم ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

تربية خاصة: خاصة بالمؤمنين من عباده، وهي التربية الإيمانية، فيربيهم ﷻ بوحيه ويوفقهم للعمل الصالح الموصل إلى رضاه تعالى وإلى جنته.

ومنه قوله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾[النساء:٦٥] وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢].

فتكون حقيقة التربية الخاصة: تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر.

فقول المؤلف: «**رباني وربى جميع العالمين بنعمه**» يقصد بها التربية العامة، بدليل قوله: وربى جميع العالمين.

جميع العالمين: أي: كل خلق الله.

بنعمه: نعمة الله مَنُّه وعطاؤه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠].

ولا شك أن النعم كثيرة جدًا لا نستطيع إحصاءها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[النحل:١٨]، بل قد لا يخطر بعضها منّا على بال.

---

(١) «المفردات» (١٩٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٢).

كنعمة المكروهات التي تصيب العبد، قال ابن القيم: «فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»(١).

وفي قوله: «**ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه**» لَفْتَةٌ تربوية هي: أنه يجب علينا الاعتراف بأن المنعم علينا بهذه النعم صغيرها وكبيرها هو الله تكرمًا منه وجودًا وإحسانًا، كما في دعاء النبي ﷺ: «**اللهمَّ أنت ربِّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعت**»(٢).

قال ابن القيم: «فجمع في قوله ﷺ: «**أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي**» بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل»(٣).

وهذا هو دأب الصالحين وعباد الله المتقين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، فعن زيد بن عاصم، قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس. في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي**»، كُلّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنُّ، قال: «**ما يمنعكم أن تُجيبوا رسول الله؟**»

---

(١) «الفوائد» (١٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ١٣٠)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا أصبح. رقم (٦٣٢٣)، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩)، كتاب «الزكاة»/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه. رقم (١٠٦١).

(٣) «الوابل الصيب» (١١).

قال: كُلّما قالَ شَيئًا قالوا الله ورَسوله أمن...»[١].

وهو قول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣] فالفضل لله أولًا وآخرًا.

فمن اعترف بنعم الله عليه أوجب له ذلك شدة الافتقار إليه، قال أبو سليمان الداراني «كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله. إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع»[٢].

ومعرفة الله والافتقار إليه تقود إلى عبادته وحده لا شريك له ولهذا قال المؤلف «**وهو معبودي ليس لي معبود سواه**».

قال بعض العلماء «أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرفه الناس عبدوه قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد:١٩] فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها فيعظموا الله حق عظمته»[٣].

وقال السعدي: «إن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد... فالله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه فهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة وفضله عليه عظيماً من كل وجه أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٧) كتاب «المغازي»/ باب غزوة الطائف. رقم (٤٣٣٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٣).

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١/ ١٢٢).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥).

وهو معبودي ليس لي معبود سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]. **وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.**

....

وهو معبودي: هذه نتيجة الاعتراف بنعم الله وهي عبادته وحده لا شريك له، والعبادة: هي ما جمع غاية المحبة مع غاية الذل. وأتى بـ (هو) ضمير الفصل ليفيد اختصاص الرب سبحانه بالعبودية.

ليس لي معبود: ليس نافية جميع ما يعبد من دون الله فهي بمعنى: «لا إله».

لي: اللام هنا للتمليك، أي: أني لا أملك أن أعبد غيره، فيجب عليَّ أن أخضع وأذلّ له وحده لا شريك له، وفي نفس الوقت لا يستحق أن يعبد إلا الله فهو المربي والمنعم والقادر على كل شيء والخالق لكل شيء ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة بآي كثيرة من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ...﴾. الآية [سبأ:٢٢، ٢٣].

وفي إبطال إبراهيم لآلهة قومه ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾[الأنعام:٧٦]. وغير ذلك من الآيات.

فإذا كان لا يستحق العبادة إلا الله وجب عليَّ إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، فلا أعبد ملكًا ولا وليًّا ولا شيخًا، ولا كوكبًا، ولا شجرًا ولا غير ذلك، قال هود لقومه:

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥] «أي ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره لأنه الخالق الرازق المدبر فهو وحده المعبود»[١] بل وجب الاستسلام له في جميع ما قضى وشرع. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾[الأحزاب:٣٦].

فإذا لم تكن للناس الخيرة في فعل الطاعات أو تركها فكيف تكون لهم الخيرة في عبادة غير الله.

سواه: أي غيره وهي بمعنى «إلا الله».

فحصر العبودية لله وحده لا شريك له سبحانه.

الحمد لله:

الـ: تفيد الاستغراق أي: استغراق جميع المحامد لله ﷻ على الدوام وفي جميع الأحوال لأن الآية هنا مبتدأة باسم والجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار ولذلك قال في الآية الأخرى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[القصص:٧٠]، والله سبحانه يستحق الحمد لأمرين:

١) لكمال صفاته (اتصافه بصفات الكمال) ولهذا قال بعدها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٣-٤].

٢) لكمال إنعامه وإحسانه إلى عباده، ولهذا قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:٥-٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

«**والحمد:** هو خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته وتعظيمه، والذم خبر بمساوئ المذموم مقرون ببغضه، فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته، ولا يكون ذم لمذموم إلا مع

---

(١) «معارج الصعود» (١٣٧).

بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة»[١].

وإذا كرر الحمد مرة ثانية سمي ثناءً وإذا كرر ثالثة سمي تمجيدًا بدليل قول النبي ﷺ قال الله تعالى: «**قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، **قال اللهُ: حَمِدَني عَبْدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قال الله تعالى: أثنى عَلَيَّ عبدي، فإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. **قال: مجّدني عبدي...**»[٢].

والحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية. فالثناء كمية الحمد وتكثيره والتمجيد كيفيته وتعظيمه[٣].

لله: تفيد: اختصاص جميع المحامد لله جل وعلا استحقاقًا[٤] وإله بمعنى مألوه، فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا[٥]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:٣] أي المعبود في السموات والمعبود في الأرض.

فيجب «إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأَمَرَ به ونهى عنه فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم وهو المحمود على عدله

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٤٠٤)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣) ففيه مقارنة بين الحمد والشكر.

(٢) مسلم (١/ ٢٩٦)، كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. رقم (٣٩٥).

(٣) انظر: «اللباب» د. اللاحم (٢١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٦٦)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٨-٥٩).

(٤) وذلك أن اللام تأتي للملك إذا كان ما قبلها من الأعيان كقولنا الكتاب لصالح أي ملك له، وتأتي للاستحقاق إذا كان ما قبلها من المعاني كقولنا العز لمحمد أي العز مستحق لمحمد.

فالحمد معنى فصارت اللام بعده للاستحقاق فكل حمد مستحق لله عز وجل بعمومه وكماله.

(٥) انظر: «التوحيد» لابن تيمية (٧٣).

في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه فكل ذرَّة من ذرات الكون شاهدة بحمده ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤]، وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربَّنا ولك الحمد ملْءَ السَّماء وملء الأرض، وَمِلءَ ما بينهما، وملء ما شئت من شيءٍ بعد**»، فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده... أما قول الحمد كله لله فهذا له معنيان:

١) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام... وفي الدعاء المأثور: «**اللهمَّ لك الحمد كله...**»(١).

٢) أن يقال: «**لك الحمد كله**» أي الحمد التام الكامل فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعًا فله عموم الحمد وكماله(٢).

ولعلو شأن الحمد فإن أحق ما قاله العبد هو حمده تعالى: «**ربَّنا لك الحمد ملء السّموات والأرض وملء ما شئت من شيءٍ بعد أهل الثّناء والمجد أحقُّ ما قال العبد...**»(٣).

«ولهذا أوجب الله قوله في كل صلاة وأن تفتتح به الفاتحة وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر ذي بال»(٤).

رب العالمين: أحد أوصاف الإله الذي يجب أن يعبد.

العالم: مشتق من العلامة لأنهم علم على وجود الخالق ووحدانيته.

---

(١) أحمد (٥/ ٣٩٦).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (١١٢-١٤٠).

(٣) مسلم (١/ ٣٤٧) كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٧).

(٤) «دقائق التفسير» (٢/ ٢١١).

والعالمين: قال ابن عباس: العالمين الخلق كله، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ولا يعلم[(١)].

«وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس. والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها»[(٢)].

وفي قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: فائدتان:

١) انفراده بالخلق والتدبير.

٢) تمام فقر العالمين إليه بكل الوجوه.

قال شيخ الإسلام: «قال الله ﷻ في أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فبدأ بهذين الاسمين: الله، الرب، والله هو الإله المعبود، فهذا الاسم أحق بالعبادة، ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله، والرب: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة.

ولهذا يقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾[إبراهيم:٤١]، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾[القصص:١٦]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾[آل عمران:١٤٧] فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب.

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يَرُبُّهُ ويتولاه مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا»[(٣)].

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٦٣).

(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ٨).

(٣) «التفسير الكبير» (٢/ ٣٠٧-٣٠٨).

وكل ما سوى الله عالم: سوى بمعنى غير: أي كل غير الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[الشعراء:٢٣، ٢٤]، فإذا كان الله رب جميع المخلوقات، فهي عالم لأنه لا ثم إلا خالق أو مخلوق.

وأنا واحد من ذلك العالم: أي أنني واحد من خلقه، فأنا عبد مربوب لله تعالى وأَعُدُّ عبوديتي لله كرامة لي وفخرًا وشرفًا فإن الله شرَّف بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، فأثنى على نوح بها، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء:٣]، بل أثنى بها على سادات الأولياء، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[ص:٤٥].

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر.

....

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك:

أي: فإذا طرح عليك سؤال بأي شيء استدللت على ربك؟ فالجواب **أني عرفته بالآيات الدالة عليه**، والآية: مشتقة من التأيي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء[(١)]، فتكون الآية هي العلامة الظاهرة التي تدل على الشيء وتبينه وتثبته.

والمخلوقات: هي ما أوجدها الله عز وجل على مثال لم يسبق إليه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الزمر:٥] أي أبدعها[(٢)] فإذا رآها الإنسان فإِنَّ أوّل ما يتبادر إلى ذهنه من هو الذي أوجدها وخلقها؟ فيكون الجواب: الله جل جلاله.

وطرق معرفة الله تعالى كثيرة متنوعة وذلك لشدة الحاجة إلى معرفته، قال شيخ الإسلام: «وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر وكانت الأسماء المعرفة له أكثر وكانت على معانيه أدّل... ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه»[(٣)] فلذا جاد الله بطرق معرفته على عباده جودًا عامًا ميسرًا، ففي كل شيء له آية ودليل.

---

(١) «المفردات» (٤١).

(٢) المرجع السابق (١٦٣).

(٣) «درء التعارض» (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

ودلائل الربوبية من حيث الظهور وعدمه قسمان:

١) قسم ظاهر بيّن لكل أحد مثل السموات والأرض والسحاب ونزول المطر ونحوها.

٢) قسم يختص به المختصون: مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركاتها[(١)].

والآيات الدالة على ربوبية الله كثيرة جدًا لكن يجمعها ما يلي:

الأول: الأدلة الشرعية: وهي ثلاثة أقسام:

(أ) سمعي: وهو ما دل على ربوبية الله بمجرد الإخبار عن الله تعالى وأسمائه وصفاته كما في كثير من آيات القرآن الكريم قال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأَرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[(٢)].

(ب) عقلي:

وهو ما دل على ربوبية الله من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطور:٣٥]، أي: هل وُجِدُوا من غير موجد، أم هم الذين أوجدوا أنفسهم، فإذا تبين أنه لا هذا ولا ذاك، وجب أن يكون الخالق هو الله ﷻ[(٣)].

(ج) حسي: وذلك بإجابة الداعين وغوث المكروبين، ويدل له حديث عبد الله بن أبي نمر: أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وِجاه المنبر

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٤/ ٧٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ٣) كتاب «فضائل القرآن»/ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل. رقم (٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس. رقم (١٥٢).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٣٧)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٥٠)، وإن شئت زيادة بيان وتفصيل فانظر «مدارج السالكين» (١/ ٥٩-٦١).

ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله قائمًا، فقال: يا رسول الله: هلكت المواشي وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «**اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزَعَة، ولا شيئًا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فوالله ما رأينا الشمس سبتًا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر»، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس»(١).

فشاهدوا إجابة الداعي وإغاثة المكروب.

وكذلك معجزات الأنبياء تدل على مرسلهم وربوبيته لعباده لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر كَفَلْقِ البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى وانشقاق القمر لمحمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(الثاني) الأدلة الكونية:

أي النظر في الآيات الكونية والاستدلال بما خلقه الله وأوجده من المخلوقات العظيمة الدالة على عظمة الخالق ومنها ما ذكره المؤلف كالسموات والأرض وغيرها.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]، بل في الأنفس أيضًا قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات:٢١]. وجمعها الله بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[فصلت:٥٣].

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١) كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في المسجد الجامع (١٠١٣).

قوله: (**بآياته ومخلوقاته**)، ففرق بين الآيات والمخلوقات لأمرين:

١- أنه اتبع لفظ القرآن.

٢- أن الآيات المتغيرة أبلغ في التأثير في القلوب من الآيات الثابتة، لأن الناس تتأثر بالآيات المتغيرة أكثر من المستقرة التي لا تتغير؛ لأن الإلف على شيء معين ينسي أهل الغفلة عن أثره ولهذا استدل إمام الحنفاء بالمتغير على ربوبية الله وألوهيته في موقفين مختلفين.

أ) مع النمرود حين قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾[البقرة:٢٥٨].

ب) مع قومه حينما أراد إظهار بطلان آلهتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٧٥-٧٨].

فاستدل بتغيرها وأُفولها على أنها آية وعلامة على موجدها لا أنها إله يعبد.

قال ابن كثير: «فبين بطريق البرهان القطعي أنّ هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبَّرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيغ عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف وذلك دليلٌ على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة.

ولهذا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾»[1] [فصلت:٣٧].

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٧٩).

وأكد هذه الحقيقة نبينا محمد ﷺ حين قال في خطبته: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده**»[1].

واستدل رحمه الله بالليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرضين لثلاثة أمور هي:

١- لظهورها ووضوحها لجميع الناس.

٢- لعظيم خلقها وبديع صنعها.

٣- إكثار الله من ذكرها في كتابه والدعاء إلى التفكر في خلقها.

ويقصد بقوله: **بآياته**: هنا الآيات الكونية، لأنه قال: «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر»، فبآيتي الليل والنهار المرتبطتين بطلوع الشمس والقمر وغروبهما تتم مصالح العباد دنيًا وأخرى قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٣٧-٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[القصص:٧١].

ويتم تذكر نعم الله وشكره، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦١، ٦٢].

فكون الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر ولا يجتمعان دليل على عظمة مدبرهما وموجدهما وهو الله تعالى، فيستحق أن يعبد ويشكر.

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦)، كتاب «الكسوف»/ باب قول النبي ﷺ: «يخوف الله عباده بالكسوف». رقم (١٠٤٨).

قال ابن القيم: ومن آياته ﷻ الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾[فصلت:٣٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[الفرقان:٤٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[الأنبياء:٣٣].

وهذا كثير في القرآن[١].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٠٣) وانظر إن شئت كتاب «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني فإنه خصص المجلد الأول تقريبًا عن التفكر في مخلوقات الله وآلائه.

ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما.

....

إذا نظرت إلى الأرض وكيف خُلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها لقضاء حوائجهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا... وقد أكثر الله من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها، فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[الذاريات:٤٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾[غافر:٦٤]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[البقرة:٢٢]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية:١٧-٢٠] ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الجاثية:٣]. وهذا كثير في القرآن... ومن المعلوم أنه لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[النازعات:٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات.. وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر ولهذا قلّ أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمتها وسعتها وإما إقسامًا بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو... وقد أثنى سبحانه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم

المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء:٣٢] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء، قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ:١٢]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾[النازعات:٢٧-٢٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢] فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان مَنْ لا يَقْدُرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ   ومَنْ هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البيّنات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة وإن الله لسميع عليم(١).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٦-٢٠٠) مع شيء من الاختصار والتقديم والتأخير، وانظر إن شئت: كتاب «التوحيد» لابن منده المجلد الأول كله، و«الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٤١٦).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

....

من: تبعيضية أي بعض آياته.

آياته: أي علاماته وحججه على خلقه الدالة على وحدانيته وعظيم سلطانه وكمال قدرته «ومن آياته» خبر مقدم يفيد الحصر والقصر.

الليل والنهار: أي: اختلافهما وتعاقبهما ومصالح العباد العظيمة فيهما.

والشمس والقمر: وكيف أنّ الله سخرهما دائبي الحركة.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر:

لا: ناهية فتفيد منع وتحريم السجود للشمس والقمر؛ لأنهما مخلوقان لله لا يستحقان أن يعبدا من دون الله أو معه حتى وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنهما يجريان بإجراء الله لهما فلو أراد الله أن يقفا وقفا، ولو أراد طمس نور الشمس لطمسه وتعطلت منافعكم.

«والشمس أعظم ما يرى في عالم الشهادة وأعمه نفعًا وتأثيرًا. فالنهي عن السجود لها نهي عما هو دونها بطريق الأولى من الكواكب والأشجار»(١)، وكأنه جاء سؤال: إذًا لمن نسجد؟ فجاء الجواب.

واسجدوا لله الذي خلقهن: في هذا الأمر دلالة على أن السجود للخالق لا للمخلوق وإن عظم نفع المخلوق وقدره وحقه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ؛ لأمرتُ المرأة أن تسجُد لزوجها**»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٤٦).

(٢) الترمذي (٣/ ٤٦٥)، كتاب: «الرضاع»/ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة. رقم (١١٥٩)، وقال: =

فمن لم يخلص السجود لله في الدنيا مُنع منه يوم الحسرة فلم يستطع أن يسجد كما في الحديث الطويل الذي رواه أبو سعيد الخدري، وفيه: «فيأتيهم الله جل وعلا فيقول أنا ربكم. فيقولون أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا»(١) وزاد مسلم «كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه»(٢).

خلقهن: أي أوجدهن الله من العدم. وإذا كان الخالق للشمس والقمر هو الله، فهل يليق أن يشارك المخلوق الخالق في ربوبيته وإلهيته؟ كلا.

إن كنتم إياه تعبدون: أي إن كنتم موحدين له غير مشركين به.

إن: شرطية.

كنتم: فعل ماض ناقص وهو فعل الشرط، والتاء اسمها.

إياه: مفعول مقدم فيفيد الحصر، أي: خصوه بالعبادة وحده وأخلصوا له الدين كله.

تعبدون: أي تذلون له بالطاعة مخلصين له في عبادتكم إياه لأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وتعالى. **وجواب الشرط محذوف تقديره فاسجدوا له، وجملة إياه تعبدون في محل نصب خبر كان.**

= «وفي الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جعشم، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وطلق بن علي، وأم سلمة، وأنس، وابن عمر، وهذا حديث حسن غريب».

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٢١) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. رقم (٧٤٣٩).

(٢) مسلم (١/ ١٦٩) كتاب «الإيمان»/ باب معرفة طريق الرؤية. رقم (١٨٣).

وخص السجود لأنه نهاية التعظيم فلا يليق إلا لأشرف وأعظم موجود ولهذا كان قبول الدعاء فيه أحرى من غيره، قال ﷺ: «**وأمَّا السُّجود فاجتهدوا في الدُّعاء؛ فقمن أن يستجاب لكم**»(١).

ورفع الدرجات فيه وحط الخطيئات به أرجى. قال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد دمشق فإذا أنا برجل يصلي يكثر الركوع والسجود فقلت لا أنتهي حتى أنظر أيدري على شفع ينصرف أم على وتر فلما انصرف قلت له أتدري على شفع تنصرف أم على وتر؟ قال: إن لم أدر فإن الله هو يدري حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ ثم بكى ثم قال: حدثني خليلي أبو القاسم قال: «**ما من عبدٍ يسجد لله سجدةً إلا رفعهُ اللهُ بها درجةً، وحطَّ عنه بها سيئة**». قال: قلت: من أنت يرحمك الله، قال: أنا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ، فتقاصرت إلي نفسي(٢).

---

(١) مسلم (١/ ٣٤٨)، كتاب «الصلاة»/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. (٤٧٩).

(٢) أحمد (٥/ ١٦٤)، والدارمي في «السنن» (١/ ٣٧٠)، كتاب «الصلاة»/ باب فضل من سجد لله سجدة. رقم (١٤٦١)، و«تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣١٢) واللفظ له، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢/ ٢٠٩). رقم (٤٥٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤].

....

إن ربكم الله: بين الله في هذه الآية أنه وحده المنفرد بالخلق والإيجاد من العدم، وهذا يوجب علينا توحيده وعبادته.

وأكد أنه ربنا بـ«إنّ» وإضافة الرب إلينا ليبين أنه لا رب لنا غيره. وأننا المنفردون بعبادته دون سائر الأمم الكافرة، وأنه أعطى عباده المؤمنين التربية بنوعيها العامة والخاصة فهم يشتغلون بعبادته وحده دون ما سواه.

خلق السموات والأرض في ستة أيام: أي: أوجد السموات والأرض وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانهما وبديع خلقهما في ستة أيام فقط ولو شاء خلقهما بلحظة واحدة.

في ستة أيام: بداية الأيام هو يوم الأحد بإجماع أهل العلم.

قال ابن جرير: «اليوم الذي ابتدأ الله تعالى ذكره فيه خلق السموات والأرض يوم الأحد لإجماع السلف من أهل العلم على ذلك»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته أَنّ آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دلَّ على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة ولو كان أول الخلق يوم السبت وآخره يوم الجمعة لكان قد خلق في الأيام السبعة وهو خلاف ما أخبر به القرآن.

---

(١) «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٢٦).

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: «خلق الله التربة يوم السبت»(١) فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري، ويحيى بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب الأحبار(٢)، وقد ذكر تعليله البيهقي(٣) أيضًا وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه(٤).

وأعلّه علي بن المديني: فقال: «وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى»(٥). وقال شيخ الإسلام: «ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أن خلق ذلك في الأيام السبعة وقد روي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد»(٦).

وقال ابن كثير: «وقد تكلم في هذا الحديث عليُّ بن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ، قال البخاري في «التاريخ»: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة، وتلقاه عن كعب الأحبار، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صُحُفِهِ وهذا يحدثه بما يُصَدِّقُه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعًا

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٩) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام. رقم (٢٧٨٩).

(٢) قال البخاري: وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. «التاريخ الكبير» (١/ ٤١٣، ٤١٤).

(٣) «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٥٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٥-٢٣٦ و١٨/ ١٨-١٩)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٤٤٣-٤٤٥).

(٥) «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٥٦).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٥٧)، وانظر: «بغية المرتاد» (٣٠٣-٣٠٧).

إلى النبي ﷺ..، ثم في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان»[١].

استوى في اللغة: بمعنى علا وارتفع واستقر وصعد.

قال امرؤ القيس:

فأوردتها ماءً بفيفاء قفرة وقد حلَّق النجم اليماني فاستوى

والعرش: هو سرير الملك وعرش الله لا يقدر قدره إلا الله فهو أعظم المخلوقات كلها وله قوائم كما قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذ بِقَائِمةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ**»[٢].

وهو أعلى المخلوقات، لقول النبي ﷺ: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرَّحمن...**»[٣].

وهو أعظم المخلوقات اتساعًا.

ولذا كان منهج السلف الصالح الإيمان بهذه الصفة لله فيقولون: إن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله.

قال الإمام مالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[٤].

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٢-٣٣) وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٠)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٥) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٤) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٣٩٨) رقم (٦٦٤).

وصفة الاستواء صفة جلال وكمال، «تمدح بها رب السموات والأرض والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها»(١). واستواؤه على العرش عنوان كمال الملك والسلطان، ولهذا فإنه سبحانه مع علوه على عرشه واستوائه عليه فهو يدبر الممالك ويصرف أمور العالم ومنها: أنه ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ والتغشية في الأصل: إلباس الشيء بالشيء، أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: الحثيث هو المسرع، أي: يطلبه طلبًا سريعًا لا يتأخر عنه ولا يفتر عنه بحال فكلما جاء الليل ذهب النهار وكلما جاء النهار ذهب الليل فيعقب كل واحدٍ منهما الآخر.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾:التسخير هو سياقه إلى الغرض المختص قهرًا ومنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾(٢).

فمعنى مسخرات: أي مقهورات مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر لهن وهو الله تعالى، وفي يوم القيامة يكورهن، قال ﷺ: «**الشمس والقمر مكوران يوم القيامة**»(٣).

ويجمعهما في النار، قال ﷺ: «**إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار**»(٤).

---

(١) «منهج ودراسات لآيات الصفات» للشنقيطي (١٥).

(٢) «المفردات» (٢٣٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٩٧)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة الشمس والقمر بحسبان. رقم (٣٢٠٠).

(٤) «مسند الطيالسي» (٢/ ٥٧٤) رقم (٢٢١٧).

قال الخطابي: «ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا»[١].

﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: أي: أمره الكوني القدري وهو متعلق بمسخرات أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره.

فما دمن مقهورات مذللات مأمورات فهل يصلح أن يعبدن من دون الله تعالى؟

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾: ثم بين بعد ذلك أن المختص بالأمر والخلق وحده هو الله تعالى فأتى بـ «ألا» الدالة على التنبيه ثم قدم ما حقه التأخير «له» ليفيد الحصر والقصر، أي: حصر الخلق والأمر له وحده. فـ «الخلق»: هو جميع المخلوقات كلها علويها وسفليها فهو يتضمن أحكامه الكونية القدرية.

والأمر: هو الكلام المتضمن للشرائع والنبوات فالأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية وما يترتب عليها من أحكام الجزاء في الآخرة.

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل من البركة وهو الكثرة والاتساع أي كثرت بَركتُه واتسعت وقيل: تعالى وتعاظم وتقدس.

وجمع بينهما السعدي فقال: أي عَظُم تعالى وكَثُر خيره وإحسانه فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢]. ولهذا لا يجوز أن يقال: تبارك إلا لله تعالى.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٠٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩١).

استدل المؤلف على قوله: ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما بالآية مع أن الآية ليس فيها (وما بينهما) فهل هذا الدليل كاف أم لا؟

يجيب عن هذا التساؤل شيخ الإسلام فيقول: «فتارة يذكر قوله (وما بينهما) فيما خلقه في ستة أيام كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[السجدة:٤].

وتارة لا يذكره وهو مراد، فإن ذكره كان إيضاحًا وبيانًا وإن لم يذكره دخل في لفظ السموات والأرض، ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول: «**ملء السَّموات وملءَ الأرض**»، ولا يقول: «**وما بينهما**» وتارة يقول: «**وما بينهما**»[(١)](٢).

(١) مسلم (١/ ٣٤٦-٣٤٧)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٦، ٤٧٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤١٧).

والرب هو المعبود، والدليل: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:٢١].

....

الرب: الألف واللام للتعميم[١] أي أنه ربٌّ لكل مخلوق ولا يقال: الرب مطلقًا، بدون إضافة إلا لله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٢] [سبأ:١٥].

وأما إذا أطلق على غير الله فلابد أن يكون مضافًا كقولهم: ربّ الإبل ورب الدار، ونحو ذلك[٣].

هو: ضمير الفصل يفيد اختصاص استحقاق العبادة لله عزوجل.

أي: أن الرب هو المستحق للعبادة وحده دون سواه ولذا قال: هو المعبود.

وقدم الربوبية على الألوهية لأمور:

١- لأن علم النفوس بفقرها وحاجتها إلى الرب قبل علمها بحاجتها إلى الإله المعبود، قال شيخ الإسلام: «لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم إياه لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه»[٤].

٢- أن الإقرار بتوحيد الربوبية يلزم منه الإقرار بتوحيد الألوهية.

---

(١) «معالم التنزيل» (١/ ٤٠).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٥).

(٤) «دقائق التفسير» (١/ ١٨٥).

وذلك أنه: «إنما بعث الله الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك لـه الـذي هـو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية»[١].

وقول النبي ﷺ: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»[٢] توحيد الربوبية الـذي يقضي أنه سبحانه هو الذي يسأل ويدعى ويتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الإلهية ودليل عليه كما يحتج به في القرآن على المشركين[٣].

لما ذكر الله فرق المكلفين الثلاث وصفاتهم ونتائج حالاتهم أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الكلام جزل فيه هز وتحريك للسامع.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١].

يا: حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب ثم استعمل في مناداة من غفل وسها وإن قرب ودنا تنزيلًا له منزلة من بَعُدَ ونأى فإذا نودي به القريب فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جدًا.

وقول الداعي: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصار منه لنفسه واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط. مع فرط التهالك على استجابة دعوته.

وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أُمورٌ عظام وخطوب جسام يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (١/ ٤١٤)، كتاب «المساجد»/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته. رقم (٥٩٣).

(٣) «دقائق التفسير» (٢/ ٢٧٦).

﴿ٱلنَّاسُ﴾: عام لجميع المكلفين من الجن والإنس فيكون الأمر للمؤمنين بإخلاص العبادة واستدامتها، والكافرين بابتدائها.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾: أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه[١].

قال ابن عباس ﭬ: «كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»[٢].

وقال ابن القيم: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ «أمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرّة من العبد مملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًا وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه»[٣].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾: أي أوجدكم من العدم فقوله سبحانه (الذي خلقكم) صفة كاشفة مبينة للواقع وليست قيدًا، وذلك أنه ليس لنا ربان أحدهما يخلق والثاني لا يخلق. بل الخالق هو الله وحده وهو ربنا وربُّ كل شيء لا ربَّ لنا غيره ذكرها الله لينبه بها «على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود... وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية»[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: ذكر تعالى من قبلنا لأمور:

١- أنه أبلغ في التذكير.

٢- أقطع للحجة.

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٣٦٣).

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٥).

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢).

(٤) المرجع السابق (٤/ ١٣٢).

٣- للتنبيه على الاعتبار بأحوالهم من إثابة المطيع ومعاقبة العاصي.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: متعلقة بقوله خلقكم على قول الأكثرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١)[الذاريات:٥٦].

فيكون المعنى خلقكم لتتقوه، وليس اعبدوا ربكم لتتقوه، واستظهره ابن القيم لوجوه:

١- أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

٢- أنه نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: لعلكم تتقون من الأمر(٢).

﴿تَتَّقُونَ﴾: التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية فتوحد الله وتحذر من الوقوع في الشرك والمعصية.

وعندما سأل عمر أبي بن كعب: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقًا ذا شوك، قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمرت، قال كعب: وذلك التقوى»(٣).

وعرف شيخ الإسلام التقوى فقال: «التقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه» ثم شرح هذه الجملة بقوله: «فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضًا استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين»(٤).

---

(١) «درء التعارض» (٨/ ٤٦٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٣).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٤٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٤).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

....

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾: أي جعل الأرض بساطًا تقرون عليها فتقعدون وتنامون وتسافرون وتزرعون وتنتفعون بجميع وجوه الانتفاع.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا مرفوعًا عليها كالقبة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب فكل ما ارتفع عنك سمي سماءً.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: الثمرات جمع ثمرة، وهو ما يخرجه الله من الأرض من حبوب وخضار وزراعة وفواكه ونحوها.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: طعامًا لكم وعلفًا لدوابكم، قال تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[النازعات:٣٣].

«ذكر سبحانه قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا، وجعل سقفها بناءًا محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب»[(١)]، فكل من أقر بذلك لله لزمه أن لا يعبد إلا الله لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك. ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟﴾: الفاء الدالة على التفريع والسبب «المشعرة لاقتضاء تلك النعوت

---

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٤).

الاختصاص بالعبادة»[١]. أي فبسبب ذلك فلا تجعلوا لله أندادًا[٢]. لا: ناهية تفيد المنع والتحريم. و(تجعلوا) أي: تصيروا، أي فلا تصيروا وتعتقدوا.

﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾: الند هو العدل والمثل والشبيه والنظير.

فيكون معنى أندادًا: أي شركاء ونظراء وأمثالًا تعبدونهم كعبادة الله وتطيعونهم في معصية الله وتحبونهم كحب الله.

قال ابن عباس: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»[٣].

قال ابن مسعود: «أي فلا تجعلوا لله أكفاءً من الرجال تطيعونهم في معصية الله»[٤].

قال ابن القيم: «فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح»[٥].

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة في موضع نصب حال من فاعل (تجعلون) أي والحال أنكم تعلمون أن الأنداد لا تخلق ولا ترزق وتقرون بذلك فإنه يجب على من أقر بذلك أن يعبده وحده. فكما أنه لا شريك له في خلقه وملكه فكذلك يجب أن لا يكون له شريك في عبادته. فالشرك قبيح من كل أحد وممن يعلم انفراد الله بالربوبية أقبح، ولهذا جعله النبي ﷺ أعظم الذنب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟

(١) «معارج الألباب» (٢٠٥).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٣١٩)

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٦٢).

(٤) «جامع البيان» (١/ ١٦٣).

(٥) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٤).

قال: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك**»[١].

فـ «هذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة من سواه وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحدٍ مقرًا بأنه ليس له شريك في ذلك. فكذلك فليكن إقراره بأن (الله) لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري وبطلان الشرك»[٢].

وفي هذه الآية بيّن الله ستة أدلة تدل على وجوب عبادة الله، اثنين منها في الأنفس «خلقكم» «والذين من قبلكم» وأربعة منها في الآفاق: «السماء» «الأرض» «إنزال المطر» «إخراج النبات»، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٥٣].

فمن لم يعبد الله ويوحده بعد هذه الأدلة، فقلبه ميت لا خير فيه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥).

قال ابن كثير رحمه الله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

....

فقوله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة:

أي: الموجد للسماوات والأرضين والجبال والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان وغير ذلك من المخلوقات من العدم، هو الذي يستحق أن يعبده الناس وحده لا يشركون به في عبادته أحدًا، وهذا استدلال بالربوبية على الألوهية.

ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة في آي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٣].

والقاعدة في ذلك: «من انفرد بالخلق والملك والتدبير: وجب إفراده بالعبادة».

ومَنْ بخلقه وملكه تفردا   فاعبده وحده كذاك السعدا

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان.

....

كان المتوقع أن يذكر المؤلف أنواع العبادة تحت الأصل الثاني لأنها جزء منه ولكنه قدّمها ليكون كما يقال: «الطرق والحديد ساخن» وهذه طريقة تربوية لأن النفوس إذا تهيأت لقبول أمرٍ ما فلا ينبغي تأخيره، لأنك إذا أخرته ربما ضعف التهيؤ له فلم يؤخذ مأخذ الحزم والجد.

ولذلك لما بيَّن المؤلف من هو المعبود بالأدلَّة الشرعية والأدلة الواقعية المشاهدة وتهيّأت القلوب لعبادته والتقرب إليه ناسب أن يذكر بعده أنواع العبادة التي يجب على العبد أن يعبده بها ولم يجعل الإسلام والإيمان والإحسان من أنواع العبادة لأن هذه مراتب الدين فأدناها الإسلام ثم الإيمان ثم أعلاها الإحسان.

العبادة: أصل معناها الذل يقال طريق معبد إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام.

قال الزجاج: معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع[1].

وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى[2].

فالعبادة متضمنة لأمرين:

(١) غاية الذل.

(٢) غاية المحبة.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٤).

(٢) «المفردات» (٣٢٢).

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان[١]

فالعبادة: «اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين. ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله»[٢].

وينبغي أن يعلم أن كمال الحب يتضمن معنى الحمد وأن كمال الذل يتضمن معنى التعظيم[٣].

وعرفها شيخ الإسلام بتعريف عام شامل فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٤]، فالظاهرة: كالصلاة والزكاة وبر الوالدين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى الجار واليتيم، ونحو ذلك والباطنة كحب الله ورسوله والخشية والإنابة والرضا بقضائه والوجل والخشوع وأمثال ذلك مما هو من أعمال القلوب. فالعبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية لله عز وجل التي خلق الخلق لها وأرسل الرسل من أجلها ووصف بها ملائكته ورسله ومدحهم بها فهي أكمل المدح وأعلاه ولذا وصف الله رسوله محمدًا ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[الإسراء:١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن:١٩] وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣].

---

(١) «النونية مع شرح هراس» (١/ ٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥١).

(٤) «العبودية» (٣٨).

إسراء عبد ثم دعوة ربه وكذاك وحي في التحدي أربع

والعبادة الحقة لا تكون إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤].

وللعبادة أصلان هما:

(١) ألا يعبد إلا الله.

(٢) ألا يعبد إلا بما أمر وشرع. فلا يعبد لا بالأهواء ولا البدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف:١١٠].

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: العمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات التي أمر الله بها ورسوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إخلاص الدين لله وحده.

فكمال المخلوق في تحقيق عبادته لله وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبادة ازداد كماله وعلت درجته.

ولذا فكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله كقول نوح ومن بعده من الرسل عليهم السلام: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾[هود:٥٠][(١)].

وينبغي أن تعلم بأن «العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح»[(٢)]، قال ﷺ: «**الإسلامُ علانيةً والإيمانُ في القلب**»[(٣)]، وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩-١٨٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٦) وانظر: (١٠/ ٢٧٤).

(٣) أحمد (٣/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥) رقم (٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥/ ٣٠١) رقم (٢٩٢٣)، والبزار في «كشف الأستار» (١/ ١٩) رقم (٢٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٩٦- =

صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»(١).

ويوضح هذا المعنى أبو هريرة فيقول: «القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده»(٢).

ولما كان أصل العبادة عبادة القلب زين الله الإيمان فيه، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾[الحجرات:٧].

وامتن على عباده بتثبيت الإيمان في قلوبهم حتى حماهم الله به من موالاة أعدائه. فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وبيّن أن المنتفع بالقرآن هم أصحاب القلوب الحية، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[يس:٧٠]، فحياة البدن دون حياة القلب من جنس حياة البهائم. وذلك لوجود الارتباط الوثيق بين القلب والبدن، فعمل القلب يؤثر على عمل البدن، وكذلك عمل البدن يؤثر على القلب، كما أن فقدان عمل البدن قد يكون سببًا في طمس القلوب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

=

٧٩٧) تحقيق رضا نعسان، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح، ما خلا على ابن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم وابن معين، وضعفه آخرون». «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢)، وقال السبكي: «هذا حديث جيد». «طبقات الشافعية» (١/ ١٢١).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٥٠) رقم (١٠٩).

يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤].

قال شيخ الإسلام: «وهذه الأمور الظاهرة والباطنة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»[1].

[إنما الأعمال بالنيات - نصف الدين - إخلاص - عمل القلب]

[من عمل عملًا - النصف الآخر - متابعة - عمل الجوارح]

ليس عليه أمرنا فهو رد.

قوله: «ومنه الدعاء»: الضمير يعود إلى أنواع العبادة أي أن «من أنواع العبادة الدعاء كما كان المؤمنون يدعون الله وحده ليلًا ونهارًا في الشدة والرخاء ولا يشك أحد أن هذا من أنوع العبادة»[2].

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩).

(٢) «الدرر السنية» (٢/ ٥٤)، وانظر: «رسالة في وجوب توحيد الله» للشوكاني» (٥٥).

ومنه: الدعاء.

....

الدعاء: لغة هو الطلب والسؤال.

قال ابن سيده: الدعاء: «طلب الطالب للفعل من غيره»(١).

اصطلاحًا: طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه، رغبة ورهبة(٢)، يوضحه قوله ﷺ: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا حين يبقى ثلثُ اللَّيل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(٣).

قوله: فأستجيب له: إجابة الداعي، من يسألني فأعطيه: إعطاء السائل وكلاهما جلب منفعة (وهذا هو طلب ما ينفع الداعي).

وقوله: «**مَنْ يَسْتَغْفِرَني فأَغْفِرَ لَهَ**»: المغفرة للمستغفر. وهذا دفع مضرة.

أهمية الدعاء:

الدعاء من أجل العبادات وأعلاها ولذلك ورد ذكره في القرآن في نحو ثلاثمائة موضع(٤).

و«قد جاءت السنة المطهّرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من أكمل أنواع العبادة»(٥).

---

(١) «المخصص» (١٣/ ٨٨).

(٢) قال شيخ الإسلام: ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠)، وانظر: (١٥/ ٧٤).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٦٤)، كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾. رقم (٧٤٤٩).

(٤) «الدرر السنية» (٩/ ٤١٨).

(٥) «رسالة في وجوب توحيد الله»، للشوكاني (ص٥٨).

«ومن أمعن النظر في آيات الكتاب وما قص من محاورات الرسل مع أممهم وجد أن أُسَّ الشأن ومحط رحال القصد شيوعًا وكثرة وانتشارًا وشهرة هو دعاء الله وحده»(١).

وتتجلى أهمية الدعاء والبداءة فيه قبل غيره بما يلي:

١- أن النبي ﷺ حصر العبادة فيه:

حصر النبي ﷺ العبادة في الدعاء لأهميته ولشموله للدين كله كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢) [غافر:٦٠] «فهذه الصيغة الشريفة النبوية المصطفوية قد اشتملت على ثلاثة أشياء كل واحدٍ منها يقتضي الحصر.

الأول: تعريف المسند إليه «وهو الدعاء».

الثاني: تعريف المسند «العبادة».

الثالث: ضمير الفصل «هو».

وقد صرح أرباب علم المعاني والبيان والأصول بأن كل واحد آلة من آلاته وأداة من أدواته وأن وجود أحدها يقتضي الحصر فكيف إذا اجتمعت جميعًا وانضم إليها حرف التأكيد المشعر بأن ما دخل عليه كلام مؤكد فانظر هذه المبالغة البليغة والعبادة المنادية بأبلغ نداء المفيدة أكمل إفادة المشعرة أتم إشعار»(٣).

---

(١) «معارج الألباب» (٢١٤).

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (٢/ ١٦١)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعوات»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «حديث حسن صحيح». وصححه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (١/ ١٤٩).

(٣) «رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل» (٥٨-٥٩).

أضف إلى ذلك: الجملة الاسمية التي تدل على الاستمرار والدوام[١].

٢- أن الله بدأ القرآن بالدعاء وختمه به: فبدأه بالفاتحة، والفاتحة أولها ثناء على الله، وآخرها طلب منه، وكذلك المعوذتان كلاهما طلب من الله ودعاء له.

قال شيخ الإسلام: «ختم المصحف بحقيقة الإيمان، وهو ذكر الله ودعاؤه، كما بنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجبه ما كان خبرًا عن الله كنصف الفاتحة، وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب، وأنفعه وأوجبه ما كان طلبًا من الله، كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين»[٢].

٣- أن الدعاء لبّ العبادة، وعنوان التذلل والافتقار.

ولذا روي: «الدعاء مخ العبادة».

قال ابن عبد البر: «الدعاء مخ العبادة لما فيه من الإخلاص والخضوع والضراعة والرجاء، وذلك صريح الإيمان واليقين»[٣].

قال شيخ الإسلام عند قوله: «﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥] فذكر التضرع فيهما معًا[٤] وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء»[٥].

---

(١) «الدعاء» للعروسي (١/ ١٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٧٩).

(٣) «الاستذكار» (٣/ ٨٤).

(٤) قوله فيهما معًا يقصد أن الله ذكر التضرع في الذكر كما في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةً﴾ وفي الدعاء كما في هذه الآية.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩-٢٠).

وبمثله قال ابن رجب: «واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار وفيه الاعتراف بقدرة المسئول عن رفع الضر ونيل المطلوب... ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة[(١)].

وكذلك النعيمي قال: «لما كان -الدعاء- بكيفية الاضطرار والافتقار إلى القوي القهار العزيز الغفار وضعًا وضبطًا وصنعًا، وإبداء الفاقة والاحتياج إليه وعدم الاستغناء عنه، مترجمًا عن معنى عبدٍ مملوك مربوب والمدعو مالكه وربه كان حينئذ قاعدة أفق العبادة ومنتثل كنانتها وهذا سرُّ اختصاص الله به»[(٢)].

٤- أن الدعاء يجتمع فيه من العبادات ما لا يجتمع في غيره:

يجتمع في الدعاء توجه القلب ورجاء الإجابة وخوف الرد والتوكل والتعظيم ومحبة المدعو واللهج باللسان وانكسار البدن وغير ذلك[(٣)].

٥- أن الشرك في الدعاء هو أصل شرك العالم:

قال ابن القيم أثناء كلامه عن الشرك: «ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم»[(٤)]. كما هي حال قوم نوح عليه السلام.

٦- أن وقوع الشرك في الدعاء أكثر من غيره:

أغلب عبادة المشركين لأوثانهم هو الدعاء والطلب. ولهذا لم يرد في القرآن التحذير من سائر أنواع الشرك مثل ما ورد في التحذير من الشرك في الدعاء[(٥)].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧١-٥٧٢) وانظر إن شئت: «الفوائد» (٣٤٨).

(٢) «معارج الألباب» (٢٢٤).

(٣) انظر: «تصحيح الدعاء» (١٧)، و«الدعاء» للعروسي (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٥) «الدعاء» للعروسي (١/ ٧).

٧- أن دعاء غير الله تعالى بحجة طلب الشفاعة هو أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية: «فأتى بالإخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد»(١).

أقسام الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى قسمين:

١- دعاء ثناء وعبادة:

وضابطه: قصد المدعو لذاته.

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بعظمة الله وجلاله؛ لأن العابد «يدعو خوفًا ورجاءً دعاء عبادة»(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور:٢٨] «فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة والمعنى أنا كنا من قبل نخلص له العبادة»(٣).

٢- دعاء مسألة وطلب:

وضابطه: قصد المدعو لأمر يطلبه منه؛ لأن العابد «يدعو للنفع والضر»(٤).

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بالرغبة والافتقار لله والإنكسار والانطراح بين يديه.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢] لأن المضطر يريد نيل مطلوبه ولذا قال: ويكشف السوء، «وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»(٥).

---

(١) «مسائل الجاهلية مع شرحها للألوسي (٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١).

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١). وانظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٥٣١).

(٥) «تحفة الطالب والجليس» (١٠٣).

ووجه انقسام الدعاء إلى نوعين: «أن الدعاء هو قصد المدعو تارة لذاته وتارة لمسألته أمرًا منه»[(١)]، والذي يقصد لذاته ولما يطلب منه هو الله تعالى: فـ«كونه أحدًا وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغنٍ بنفسه عن كل شيء»[(٢)].

فلا يجوز أن يتجه العبد بالدعاء إلا لمن يملك النفع والضر لأن الدعاء طلب نفع الداعي وطلب دفع ما يضره وكشفه. ولا يملك ذلك إلا الله عزّ وجلّ.

ولهذا أنكر الله على من دعا من دونه ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]. وقال إبراهيم عليه السلام لقومه مبينًا جهلهم وسفههم وعدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء:٦٦-٦٧].

وأبطل دعاء غير الله مرّة أخرى بسؤالهم هل تنفعهم آلهتهم وتسمع قولهم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء: ٦٩-٧٣]. فلما ألجموا حادوا عن الجواب وقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤].

«فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بُدَّ أن يكون مالكًا للنفع والضر»[(٣)].

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٥٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١).

فمن دعا غير الله فقد أساء وظلم واستحق العقوبة. ولذلك توعده الله بالعذاب فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

قال شيخ الإسلام: «وهذان النوعان -أي نوعا الدعاء- هما جميعاً مختصان بالله، حقان له لا يصلحان لغيره، بل دعاء غيره بأحد النوعين شرك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾»[1].

تلازم نوعي الدعاء:

مرّ معنا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين وليس معنى ذلك أن بينهما تضاداً أو أن أحدهما لا يدل إلا على النوع الذي أريد به فقط. بل معناه أنه في أحدهما أظهر.

قال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٥-٥٦][2].

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء. دعاء العبادة، ودعاء المسألة. فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان... فالداعي يدعو دعاء مسألة لجلب النفع ودفع الضر، ويدعو خوفًا ورجاءً دعاء عبادة فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة[3].

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٥٧).

(٢) قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ في دعاء المسألة أظهر، أما قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في دعاء العبادة أظهر. انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١) وانظر: زيادة في الأمثلة في (١٥/ ١٢-١٥) وانظر: (١٠/ ٢٤٠).

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

فهذه الآية تتناول نوعي الدعاء. وبكل منهما فسرت الآية.

قيل: «أعطيه إذا سألني وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان،... وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعًا»[١].

ضابط معرفة نوعي الدعاء:

يكون الدعاء في دعاء المسألة أظهر إذا فُهِمَ من الدعاء التجاءٌ أو كان طلبًا من أحدٍ أن يدعو له[٢]، أو نداءً مباشرًا لله عز وجل، أو عدم سماع المدعوين غير الله تعالى.

أما دليل الالتجاء لكشف الضر، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:٤٠-٤١].

«وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»[٣].

ودليل الطلب من أحد ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[الأعراف:١٣٤].

أما النداء المباشر لله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران:٣٨].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١١).

(٢) والمقصود به طلب الدعاء من حي حاضر قادر.

(٣) «تحفة الطالب والجليس» (١٠٣).

أما عدم سماع المدعوين غير الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾[فاطر:١٣-١٤].

ويكون في دعاء العبادة أظهر فيما عدا ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾[الفرقان: ٧٧]؛ أي: دعاؤكم إياه... والمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه.

وعبادته تستلزم مسألته. فالنوعان داخلان فيه.

وقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا أعقبه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾[غافر:٦٠][(١)].

أنواع الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى نوعين اثنين:

الدعاء التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو دعاء الله وحده دون ما سواه لجلب نفع أو دفع ضر، أو تعظيم.

وقد أمر الله به في آي كثيرة من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[غافر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[الأعراف:٥٥].

ونهى عما يضاده، فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾[الجن:١٨].

وبيَّن غناه وسعة جوده وفضله على من دعاه وحده، فقال في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٢).

كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»(١).

وأثنى على رسله بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

وأخبر بإجابته للداعين الموحدين، بل وقربه منهم، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:١٨٦].

وللداعي دعاءً توحيديًّا إيمانيًّا عباديًّا ثلاث حالات هي:

١- أن تسأل الله بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

٢- أن تسأله بحاجتك وفقرك وظلمك: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:٢٣].

٣- أن تسأله حاجتك ولا تذكر واحدًا من الأمرين: كقول الداعي رب اغفر لي...

فالأول أكمل من الثاني والثاني أكمل من الثالث. فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل.

كما في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لأبي بكر: «**اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نفسي ظلـمًا كثيرًا ولا يغفر الذُّنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٢).

فهذا -الدعاء- فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٣١٧) كتاب «الأذان»/ باب الدعاء قبل السلام. رقم (٨٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) كتاب «الذكر»/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر. رقم (٢٧٠٥).

وفيه بيان المقتضى للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة. فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب[(١)].

الثاني: الدعاء الشركي الكفري:

وهو دعاء غير الله مع الله، أو دونه، تعظيمًا، أو لجلب منفعة، ودفع مضرة، قال الشوكاني: «إن الشرك هو دعاء غير الله تعالى...»[(٢)].

وهذا النوع من الدعاء هو الذي جاءت الرسل كلهم بالنهي عنه، وتقبيحه والتحذير منه، وتنفير الناس عنه.

فنهى عن دعاء من لا ينفع، ولا يضر، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]، فهم أعجز من أن يجيبوهم، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩٧]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦].

ووبّخ من دعا غيره، فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢]، وهذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

وحذّر مَنْ أشرك به في الدعاء من العذاب الأليم، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣].

وبيّن العذاب رسوله ﷺ فقال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا: دخل النار**»[(٣)].

وفي لفظ لمسلم: «**من مات يشرك بالله شيئًا: دخل النار**»[(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٤-٢٤٧) و«جلاء الأفهام» (٧٩-٨٠).

(٢) «الدر النضيد» (١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٧٦)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:١٦٥]. رقم (٤٤٩٧).

(٤) مسلم (١/ ٩٤)، كتاب «الإيمان»/ باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار. رقم (٩٢).

ومن نماذج الدعاء الشركي:

قول أحدهم في البدوي:

يا من رماه الدهر بالإزعاج ... ناد بعزم يا أبا فراج
فهو المراد إذا الخطوب تراكمت ... وهو المجيب لدعوة المحتاج

وقال آخر في البدوي:

وهو المجيب لسائل يتوسل ... إذ باسمه عند المخاوف يهتف
وهو الملاذ إذا الخطوب تراكمت ... وهو المعاذ وفي الشدائد يعرف(١)

وقول محمد السنوني داعيًا عبد القادر الجيلاني:

من ضاق عنه لأمر مسلك الحيل ... فما له غير عبد القادر الجيَلِي
فهو السريع لما يدعى إليه إذا ... ضاق الخناق على من ضل في السُّبل
فناد باسمه فيما عز مدركه ... تلق العناية قد جاءتك بالأمل
غوث يغيث الذي يدعوه منتصرًا ... بغاية الحزم إذ يأتيه عن عجل(٢)

علاقة الدعاء بأنواع التوحيد:

«الإله» هو المعبود الذي يستحق أن يعبد.

و«الرب» هو الذي يرب عبده فيدبره.

«فهو سبحانه مستحق التوحيد الذي هو دعاؤه وإخلاص الدين له: دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معاني تألُّهه

---

(١) «البدوي بين الحقيقة والخرافة» (٢٨٠) نقلًا عن «الدعاء» للعروسي (١/ ٤٧١).

(٢) «الرحلة الحجازية» (٣/ ٨٥)، وانظر: «الانحرافات العقدية» في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (١/ ٣٢٠) فما بعدها.

وعبادته، ودعاء المسألة والاستعانة بالتوكل عليه والالتجاء إليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الأول والآخر والباطن والظاهر»[(١)].

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه (الله) تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الآذان والصلاة: الله أكبر، والشهادتين والتشهد والتسبيح والتحميد والتهليل.

وأما السؤال فكثيرًا ما يجيء باسم الرب كقول آدم عليه السلام وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف:٢٣]، وقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾[هود:٤٧]، وموسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[القصص:١٦]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[إبراهيم٣٧]، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[البقرة:١٢٧]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾[البقرة:٢٠١]، وغيرها كثير.

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه: الرب، وإن سأله باسمه: الله، لتضمنه اسم الرب كان حسنًا، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك[(٢)].

ولا يمكن أن يتجه القلب إلى الله فيدعوه ويرجوه ويخافه ويستعين به إلا إذا آمن بأسمائه وصفاته، فيرجوه لأنه يعلم أنه الوهاب، الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود. ويخافه لأنه يعلم عظمته فهو القهار، الجبار، المنتقم من المجرمين. ويستعين به لأنه يعلم أنه الملك القوي القادر سبحانه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥٦).

(٢) المرجع السابق (١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٦) باختصار.

أسباب قبول الدعاء:

لقبول الدعاء أسباب منها:

١ - الإخلاص:

الإخلاص: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة.

وقد أمر الله نبيه أن يصرح بإخلاصه لله فقال له: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[الزمر:١٤].

وأمرنا الله به أمرًا عامًّا، فقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[غافر:١٤] قال عبدالواحد بن زيد: «الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرق بينهما»[١].

٢ - التضرع والخشوع والتذلل:

قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[الأعراف:٥٥].

التضرع والخشوع هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته. قال شيخ الإسلام: ذكر الله التضرع وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء[٢].

٣ - قوة الرجاء في إجابة الدعوة:

حث النبي ﷺ على قوة رجاء الله بقبول الدعاء، فقال ﷺ: **«ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»**[٣].

---

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩-٢٠).

(٣) الترمذي (٥/ ٥١٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٧٩)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والطبراني في «الدعاء» (٣٩) رقم (٦٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٧٠)، وقال: «هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة، ولم يخرجاه»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٨) رقم (٢٤٣).

وعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا سألتم الله عز وجل أيها الناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**»(١). وللرسل عليهم السلام القدح المعلّى في ذلك، فها هو يعقوب عليه السلام يضرب أروع الأمثلة في قوة رجائه بإجابة ربه دعوته رد ابنيه بعد طول مدة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف:٨٣]، ووعى هذا سفيان بن عيينة جيدًا، فقال: «لا يمنعن أحدًا من الدعاء ما يعلم في نفسه من التقصير فإن الله تعالى أجاب شر الخلق إبليس قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[الحجر:٣٦]»(٢).

٤- الجزم في الدعاء:

أمر النبي ﷺ بالجزم والعزم في الدعاء، فقال: «**لا يقولنَّ أحدكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئت، اللهمَّ ارحمني إنْ شئتَ، ليعزم المسألة؛ فإنَّهُ لا مستكره له**»(٣). وفي رواية له: «**لا يقل أحدكم: اللهمَّ اغفر لي إن شئتَ، ارحمني إن شئتَ، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنّه يفعل ما يشاء، لا مكره له**»(٤).

وفي رواية لمسلم: «**ولْيُعظِّم الرغبة؛ فإنَّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»(٥).

فاتضح من هذه الأحاديث أن عدم الجزم فيه ثلاثة محاذير:

أ) اتهام الله بأنه يعطي السائل وهو مكره على ذلك، وهذا لا يليق بالله ولهذا أبطله

---

(١) أحمد (٢/ ١٧٧)، قال المنذري: «رواه أحمد بسند حسن». «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٩١-٤٩٢)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وإسناده حسن». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٠٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١١/ ١٣٩) كتاب «الدعوات»/ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له. رقم (٦٣٣٩).

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٤٨) كتاب «التوحيد»/ باب في المشيئة والإرادة. رقم (٧٤٧٧).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٦٣) كتاب «الذكر»/ باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت. رقم (٢٦٧٨).

النبي ﷺ بقوله: «**فإنَّ اللهَ لا مكره له**».

ب) أنه دليل على ضعف رغبة الداعي وعدم افتقاره إلى ربه، ولهذا عالجه النبي ﷺ بقوله: «**وليعظم الرَّغبةَ**».

ج) أنه سوء ظن بالله تعالى حيث ظن أنه يستكثر شيئًا مما طلبه العبد فيمنعه ويبخل به، ولهذا أبطله النبي ﷺ بقوله: «**فإنْ اللهَ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه**».

٥- حضور القلب:

عدم حضور القلب دليل عدم الرغبة أوضعفها، ومن كان كذلك فيخشى أن يرد الله دعوته قال ﷺ: «**واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيب دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاه**»(١) فينبغي لمن أراد أن يدعو أن يكون قلبه حاضرًا أثناء دعائه؛ فإن ذلك أحرى بالقبول.

٦- إخفاء الدعاء:

إخفاء الدعاء من أعظم أسباب قبوله، ولذلك أمر الله به بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥].

ومدح عبده زكريا بالإسرار به فقال سبحانه ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾[مريم:٣]، أي دعا سرًا من قومه في جوف الليل(٢).

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة، منها:

أ) أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

ب) أنه أعظم في الأدب والتعظيم.

ج) أنه أبلغ في التضرع والخشوع.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٨).

د) أنه أبلغ في الإخلاص.

هـ) أنه أبلغ في جمعيَّة القلب على الذلة في الدعاء.

و) أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، فكلما استحضر القلب قرب الله وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

ز) أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف رفع الصوت[١].

٧- رفع اليدين:

رفع اليدين في الدعاء من أسباب قبوله، لقوله ﷺ: «**إنَّ ربَّكُم تبارك وتعالى حيِّيٌّ كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يرُدَّهُما صفرًا**»[٢].

وذلك لأن «رفع اليدين وبسطهما لله تعالى: استكانة وعبودية واستطعام»[٣].

من أسباب رد الدعاء وعدم قبوله:

لرد الدعاء وعدم قبوله أسباب كثيرة منها:

١- الاعتداء في الدعاء:

الاعتداء مشتق من العدوان وهو تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، ولأجل ذلك نهى الله تعالى عنه.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥-١٩)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ٦-١٠).

(٢) أبو داود (٢/ ١٦٥)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٨٨)، والترمذي (٥/ ٥٥٦-٥٥٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٢٧١)، كتاب «الدعاء»/ باب رفع اليدين في الدعاء. رقم (٣٨٦٥). قال الذهبي: «وهذا حديث صحيح. رواه جماعة من الصحابة». «العرش» (٢/ ٦٦).

(٣) «تصحيح الدعاء» (٢٦).

ومن الاعتداء في الدعاء بل أعظم الاعتداء في الدعاء دعاء غير الله[١]، فهو الشرك الأكبر، وصاحبه أضل الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الأحقاف:٥]. ولخطورة الاعتداء فيه تنوعت الأساليب في التحذير منه، **فمنها**:

أ- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أنّ فاعله ظالم: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦].

ب- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن فاعله مُعَذَّبٌ معاقب، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٣].

جـ- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن المدعوّين يهلكون ويموتون وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يُدْعَوا: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨].

د- بيان حيرة من دعا غير الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾[الأنعام:٧١].

هـ- عدم استجابة المدعوين من دون الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[الرعد:١٤].

و- عجز المدعوّين وذلك لنقص في صفاتهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[الشعراء:٧٢-٧٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ

---

(١) انظر: «الرد على البكري» (٩٥).

ﵟضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُﵞ[الحج:٧٣]، ﵟقُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًاﵞ[الإسراء:٥٦].

ز- العقوبة بالنار: لقوله ﷺ «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**»[١].

ومن الاعتداء في الدعاء سؤال الله ما لا يجوز سؤاله، كسؤاله ما لا يليق به من منازل الأنبياء. وسؤال ما لا يجوز سؤاله من المعونة على المحرمات. وسؤال ما لا يفعله كسؤال تخليده إلى يوم القيامة، أو يجعله من المعصومين ودعاؤه ربّه غيرَ متضرع. وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل. فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد[٢].

وقد جمعها النبي ﷺ بقوله: «**لا يزالُ يستجاب للعبد ما لم يدع بإثمٍ أو قطيعة رحمٍ...**»[٣].

فيدخل في الإثم جميع ما يأثم به من الذنوب ويدخل في قطيعة الرحم جميع حقوق الأقارب ومظالمهم.

٢- أكل الحرام:

أكل الحرام من موانع إجابة الدعاء لقوله ﷺ حين ذكر: «**الرجل يطيل السَّفرَ أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء، يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمه حرامٌ، ومشربهُ حرامٌ، وملبسهُ حرامٌ، وغذي بالحرام**»، **قال: «فأنَّى يستجاب لذلك»**[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٧٦) كتاب «التفسير»/ باب ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا. رقم (٤٤٩٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٢-٢٣).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٦) كتاب «الذكر»/ باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي. رقم (٢٧٣٥).

(٤) مسلم (٢/ ٧٠٣) كتاب «الزكاة»/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب. رقم (١٠١٥).

فأنى يستجاب لذلك: أي كيف يستجاب له.

فهذا الداعي أتى بأربعة أسباب من دواعي الاستجابة وهي: أ) السفر. ب) وكونه أشعث أغبر، ج) يمد يديه إلى السماء، د) الإلحاح حيث كرر يا رب. ومع هذه الأسباب الأربعة استبعد النبي ﷺ إجابته لسبب واحد هو حرمة المطعم والمشرب والملبس.

٣- الاستعجال:

آفة كثير من الداعين الاستعجال ولذلك عالجه النبي ﷺ بقوله: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يعجلْ، يقول: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجب لِي**»[(١)] وفي رواية لمسلم: «قِيلَ يَا رَسُولَ الله، مَا الاسْتَعْجَال؟ قال: «**يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أَرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدعُ الدّعاء**»[(٢)].

ويحفظك من الاستعجال أربعة أمور:

١- معرفة أن الداعي قد تجاب دعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها، وقد تدخر له دعوته يوم القيامة فالله أعلم بما يصلحه.

٢- أن في تأخير إجابة الدعاء استمرار الداعي بالتضرع والذل لله ولو أجيبت دعوته لترك التضرع والدعاء.

٣- أن من الأنبياء من استجاب الله دعوتهم بعد موتهم بقرون كاستجابة الله دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام حينما دعا ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾[البقرة:١٢٩].

فبعث الله نبينا محمدًا ﷺ بعد قرون.

٤- أن في الاستعجال آفتين عظيمتين هما سوء الظن بالله وفي المقابل تزكية الداعي نفسه.

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ١٤٠) كتاب «الدعوات»/ باب يستجاب للعبد ما لم يعجل. رقم (٦٣٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

والخوف.

....

الخوف: لغة: الفزع.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع»[(١)].

واصطلاحًا: هو اضطراب القلب واحتراقه وفزعه عند تذكر مقام الله ووعيده بعقوبة من عصاه وخالف أمره.

أو: «الانخلاع عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب»[(٢)].

والخوف شعار الصالحين، وأقوالهم في ذلك كثيرة، منها:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «يا ليتني شجرة تعضد ثم تؤكل»[(٣)] وورد مثل هذا عن أبي ذر[(٤)] وابن مسعود[(٥)] وعائشة[(٦)] وأبي الدرداء[(٧)] وغيرهم[(٨)] رضي الله عنهم.

وأما عمر رضي الله عنه فاقرأ حواره مع أبي موسى الأشعري تعرف شدة خوفه من ربه، كما رواه ابنه عبد الله بن عمر قال: قال أبي: «يا أبا موسى هل يَسُرُّك إسلامنا مع رسول الله

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٠) مادة خوف.

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨١).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٢٥١).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٨٢).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٨)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ١٣٣).

(٦) «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٥).

(٧) «الزهد» لهناد (١/ ٢٥٨).

(٨) انظر: «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٣) و«الزهد» لهنّاد (١/ ٢٥٨) كلاهما باب من قال: ليتني لم أخلق.

وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه بَرَدَ لنا، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس فقال أبو موسى الأشعري: لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيرًا كثيرًا وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك. قال عبدالله بن عمر فقال أبي: لكني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافًا رأسًا برأس»[١].

ويضرب عبدالله بن مسعود المثل في خوفه من الله فيقول: «وددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي أو خطيئة من خطاياي وإني لا أعرف لي نسبًا»[٢]. وفي لفظ: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي رجلان، ولحثيتم على رأسي التراب، ولوددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي، وإني دعيت عبد الله بن روثة»[٩].

ويضطرب قلبه رضي الله عنه عندما قال رجل عنده: «ليتني من أصحاب اليمين، فيقول مجيبًا: ليتني إذا مت لم أبعث»[٣] ومثله عمران بن حصين رضي الله عنه حيث يقول: «وددت أني رماد تذروني الرياح»[٤].

ويصف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حال المؤمن وخوفه وحال المنافق وعدم مبالاته فيقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا»[٥].

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٥٤) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩١٥).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٧)، و«المستدرك» (٣/ ٣٥٧).

(٣) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٤) المرجع السابق (١٨٦).

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠٢)، كتاب «الدعوات»/ باب التوبة. رقم (٦٣٠٨).

ولشدة خوف الحسن البصري فإنه يخشى أن ترد عليه أعماله الصالحة كلها فيقول: «نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئًا»(١).

ويشخص حال كل من المؤمن والمنافق مع الخوف وعدمه فيقول: «المؤمن أحسن الناس عملًا وأشدهم من الله خوفًا لو أنفق في سبيل الله ملء الأرض ذهبًا ما أمن حتى يعاين ويقول: أبدًا لا أنجو، أبدًا لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير وما عسى ذنبي في جملة الذنوب إن الله رحيم وسيغفر لي ثم يقول: ابن آدم تعمل السيئات وتتمنى على الله الأماني»(٢) ويصور مورق حال المؤمن من الخوف والحذر أبلغ تصوير فيقول: «ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلًا إلا كمثل رجل على خشبة في البحر وهو يقول: يا رب يا رب لعل الله ينجيه»(٣).

ويحذر ابن عون ﷺ من الثقة بالعمل والركون إليه ومن الأمن من الذنوب فيقول: «لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري تُقُبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كُفِّرت عنك أم لا، لأن عملك مغيب عنك كله لا تدري ما الله صانع فيه أيجعله في سجين أم يجعله في عليين»(٤).

وإذا ما استشعرت أن ذنبك الذي أذنبته قد كتب أوجب لك الخوف قال بعضهم لرجل: «هل أذنبت ذنبًا؟ قال: نعم، قال: فعلمت أن الله كتبه عليك، قال: نعم، قال فاعمل حتى تعلم أن الله قد محاه»(٥).

---

(١) «صفوة الصفوة (٣/ ٢٣٣).

(٢) «آداب الحسن وزهده» لابن الجوزي (٤١).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٨٤).

(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٥٥٨) رقم (٦٩٣٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٢٢).

وأختم هذه الآثار بصورتين حيتين من واقع سلفنا الصالح رحمهم الله:

أما الصورة الأولى فرواها المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبد الملك: يا مغيرة! إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر بن عبدالعزيز، وما رأيت أشد خوفًا من ربه منه، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عينه يفعل ذلك ليله أجمع»[(١)].

وأما الثانية فهي: ما كان الضحاك بن مزاحم يفعله فإنه: «إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي»[(٢)].

حالتا الخائف من حيث الاستقامة وعدمها:

١ - أن يكون مفرطًا عاصيًا مائلًا عن الاستقامة:

فيكون خوفه من العقوبة على ميله.

ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أ- معرفته بالجناية وقبحها.

ب- تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

جـ- أنه لا يعلم فربما يحال بينه وبين التوبة بسبب هذا الذنب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤]. فهذا النوع من الخوف ثمرة العلم بالوعد والوعيد.

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (٣٠٨) رقم (٨٨٤)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٥٠).

٢- أن يكون مستقيمًا على الطاعة:

فيكون خوفه مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء الله أقامه وإن شاء أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه كان أكثر يمينه: «**لا ومقلِّب القلوب**»(١)، فأيُّ قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحقُّ بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال. وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله(٢).

متعلق الخوف:

يوضح أمير المؤمنين علي رضي الله عنه متعلق الخوف فيقول: «لا يرج عبد إلا ربه ولا يخف إلا ذنبه»(٣).

فمتعلق الخوف (ذنب العبد وعاقبته) فيخاف العبد أن يخذل بسبب ذنوبه وأن يعاقبه الله ويخزيه بها.

وهذه الحقيقة واضحة وضوحًا تامًّا لدى الصحابة رضي الله عنهم، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك**» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللهِ ما يرجو، وآمنه ممَّا يخاف(٤)**»(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٥١٣) كتاب «القدر»/ باب يحول بين المرء وقلبه. رقم (٦٦١٧).

(٢) «طريق الهجرتين»(٢٨٣-٢٨٤) بتصرف.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٣-٢٨٤)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١٧/ ٢١٩).

(٤) الترمذي (٣/ ٣١١)، كتاب «الجنائز». رقم (٩٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٦١)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٨٢)، قال النووي: «إسناده جيد». «خلاصة الأحكام» (٢/ ٩٠٢)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٦٨).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦)، و«طريق الهجرتين» (٢٨٥).

قَدْرُ الخوف وعلو منزلته:

تتجلى قيمة الخوف وعلو منزلته بما يلي:

١- أن الخوف من الله شرط في تحقيق الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، «فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف، انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه... فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكلٌّ منهما مستلزم للآخر»[١].

قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لا يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[فاطر:٣٤] وينبغي لمن لا يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾»[٢] [الطور:٢٦] فمن فقد الخوف خسر الإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩].

٢- أنه لا يمكن أن تخلو منه عباده:

فالعابد الذي يريد وجه الله راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:١٦]، ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع[٣].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٢).

(٢) «صفة الصفوة» (٣/ ٩١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠).

٣- أن الله مدح أولياءه وأنبياءه بالخوف منه:

لما كان الخوف أحد أركان العبادة العظام مدح الله أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]، وقال عن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل:٥٠] ومدح الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالخوف منه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾[التوبة:١١٤] الأواه كثير التأوه خوفًا من الله عز وجل[١].

«قال ابن إسحاق: قيل لابن المبارك: رجلان أحدهما أخوف والآخر قتل في سبيل الله، قال أحبهما إليَّ أخوفهما»[٢].

٤- أنه إذا كمل الخوف من الله ذهب الخوف من المخلوق:

إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف أحدًا سواه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، وإذا نقص خوفه من الله خاف من المخلوق. وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف من غير الله. فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحدٌ يسلم منه إلا من عصمه الله.

فإذا خاف الرجل غير الله دل على وجود مرض في قلبه كما ذكروا أن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: «لو صححت ما خفت أحدًا»[٣]، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافوا إلا هو سبحانه، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٤] [المائدة:٤٤].

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٧١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤) و(٢٨/ ٤٩٤).

أقسام الخوف:

الخوف الذي يعتري القلوب أنواع، هي:

الأول: الخوف الواجب «الخوف العبادي التوحيدي الإيماني»:

وهو الخوف من الله تعالى وحده لا شريك له وهو مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان، بل إنّ فقد هذا الخوف علامة على فقد الإيمان وهو من أفضل مقامات الدين وأنفعها للقلب. وأمر الله به في آي كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[البقرة:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة:١٨]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، ومدح الملائكة بإخلاص الخوف له فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] ومدح المبلغين لرسالاته وخصهم بمدحه لإخلاصهم الخوف منه سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، ولذا صار فرضًا على كل أحد[١].

بل أجمع العلماء على فرضيته، قال ابن بطة: «أجمعت العلماء لا خلاف بينهم أن الله عز وجل قد افترض على الخلق الخوف والرجاء وأنه دعا عباده إليه بالرغبة والرهبة»[٢].

وقدر الخوف الواجب هو ما حجزك عن محارم الله[٣].

وأما الخوف المستحب: فهو ما حمل العبد على «التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات»[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١١)، و«العواصم والقواصم» (٩/ ١٥٦).

(٢) «الشرح والإبانة» (٣٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٤) «التخويف من النار» لابن رجب (٢١).

وهذا هو الذي عناه أبو عثمان حين قال: «صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا»[(١)].

وأما «حقيقة الخوف: فألا تخاف مع الله أحدًا»[(٢)].

ثمرة الخوف: ثمرة الخوف هي الزجر والمنع من الخروج عن الطريق وذلك أن المحبة تلقي العبد في السير على محبوبه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب[(٣)]، وفي ذلك صلاح القلب فكلما استقر الخوف في القلب استقام القلب وصلح وكلما نقص الخوف أو انعدم انحرف القلب وضلَّ عن الصراط المستقيم. قال أبو سليمان الداراني: «ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب»[(٤)].

والخوف العبادي التوحيدي يشمل أمورًا ثلاثة:

١- خوف مقام الله: وفسر مقام الله بعظمة الله ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾[نوح:١٣]. أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة. وفسر بالمقام بين يدي الله يوم القيامة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦].

٢- خوف وعيد الله لمن عصاه: كالخوف من عقوبة الله بالنار ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النساء:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾[الأنعام: ١٥-١٦].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣).

وقد جمع الله بين خوف مقامه وخوف وعيده، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤].

٣- خوف القواطع عن الله تعالى:

من أخطر ما يواجه المسلم وهو سائر في طريقه إلى الله: تلك القواطع التي تقطعه عن الله، فتحرف مساره عن الطريق الصحيح، كالشرك والنفاق والفتن ونحو ذلك، فيتحتم على المسلم الخوف منها.

ومن أدلة ذلك: خوف أبي الحنفاء حين دعا ربه، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وحذر ﷺ صحابته من الشرك، فقال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»(١).

وفزعوا رضي الله عنهم خوفًا من النفاق، كما صوره ابن أبي مليكة بقوله: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»(٢).

خَوْفُ المقام مع الوعيد تصدعت ... منه القلوبُ قلوبُ ذي الإيمان
وكذاك خوف قواطعٍ من فتنةٍ ... مع شركه ونفاق ذي الكفران

الثاني: الخوف المحرم:

وينقسم الخوف المحرم إلى قسمين:

١- الخوف الشركي الكفري:

وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك

(١) أحمد (٥/ ٤٢٨)، قال المنذري: «رواه أحمد بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٩).
(٢) البخاري (١/ ١٨)، كتاب «الإيمان»/ باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

بقدرته ومشيئته، فهذا شرك أكبر مناف للتوحيد، قال تعالى عن المشركين: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[الزمر:٣٦] ثم ردَّ عليهم ربنا جل وعلا فقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ معرة معاداة الأوثان وقالوا: كف عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل أو جنون[1].

ولما خوف إبراهيم عليه السلام قومه آلهتهم رد عليهم بما ذكره الله ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:٨٠] فبين لهم أنه لا يخاف آلهتهم ثم رد الأمر إلى مشيئة الله سبحانه لأنه هو الذي يخاف فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾[الأنعام:٨٠] وهذا الاستثناء منقطع ومعنى ذلك لا أخاف من تلك الآلهة التي تخوفونني بها فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إذا شاء الله أن ينالني بشيء لا راد لذلك لأن الله وحده له المشيئة النافذة والقدرة التامة، وهذا كقول قوم هود لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤] فكان رده عليهم قويًا حتى تحداهم جميعًا هم وآلهتهم فأبطل بذلك ظنهم الشركي الكاذب كما قال الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود:٥٤-٥٥].

ولم يهددوا الرسل بالآلهة المزعومة إلا لأنهم يخافون منها. «وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله عز وجل بل أشد. ولهذا لو توجهت على أحدهم باليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبًا أو صادقًا فإن كان اليمين بصاحب التُّربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذبًا، وما ذاك إلا لأنّ المدفون في التراب أخوف عنده من الله... وإذا أراد أن يظلم أحدًا فاستعاذ بالله لم يُعِذْهُ ولو استعاذ

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٨٠).

بصاحب التربة لم يقدم عليه ولم يتعرض له بالأذى»[١].

وسأكتفي بنموذجين اثنين من الخوف الشركي:

أ- عندما هجا الحاج العربي المشرفي السيد عبد الله بن أحمد احتمى بضريح المولى إدريس نحو عامين[٢]، عامين لم يستطيعوا أن يمسوه بسوء خوفًا من صاحب الضريح.

ب- لما ثار الناس على والي فاس من أجل المكس عام (١٢٩١هـ) هدموا داره، وانتهبوا أثاثه، وأرادوا قتله، فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة، ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس، فأقام به، وأمن على نفسه[٣]. كل أهل فاس خافوا أن يمسوه بسوء خوفًا من صاحب الضريح.

ومن المقولات الخاطئة قول بعض الناس: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك. قال شيخ الإسلام: «هذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدًا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل ذي شر ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك»[٤].

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٥٨).

(٢) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام» (٣/ ٥٢).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٧-٥٨)، ومثلها ما اشتهر على ألسنة بعض الناس، وهي قولهم: «الذي لا يخاف من الله خف منه».

٢- خوف المعصية:

وذلك أن يرتكب المسلم المعصية خوفًا من الناس وهو خوف محرم ولا شك. قال رسول الله ﷺ: «**ألا لا يمنعنَّ رجلًا هيبة النّاس أن يقول بحقٍّ إذا علمهُ**». قال فبكى أبو سعيد فقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا[(١)].

فإن وصل إلى الردة صار كفرًا وشركًا أكبر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت:١٠].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه، فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله جعل فتنة الناس إياه في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه بالله راجعًا على الكفر به. قال ابن عباس: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي»[(٢)].

الثالث: الخوف الجائز «وهو الخوف الطبيعي»:

وهو الخوف من شيء مخوف انعقدت أسبابه، وهو الخوف من سبب جرت العادة بخطورته كالخوف من سبع أو حية أو هدم أو غرق ونحو ذلك فهذا لا يمدح ولا يذم لذاته **والفرق** بينه وبين السابق أن المحرم يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة أما الخوف الطبيعي فلا يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة كخوف موسى عليه السلام عندما أرادوا قتله قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[القصص:٢١] ولم يلمه الله على هذا الخوف فدلَّ على أنه جائز لا بأس به.

وكما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أسلم.

---

(١) الترمذي (٤/ ٤٨٣-٤٨٤) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة. رقم (٢١٩١)، وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١٣٢٨)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٠/ ١٢).

كما يروى ذلك عبدالله بن عمر عن أبيه فيقول: «بينما هو في الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي وعليه حلة حَبرة وقميص مكفوف بحرير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت، قال: لا سبيل إليك بعد أن قالها أَمِنْتُ. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي. فقال أين تريدون، فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه. فَكَرَّ الناس»(١).

الأسباب الجالبة للخوف:

الخوف من أجل منازل الطريق فهو الزاجر للقلب عن الخروج من طريق أهل الاستقامة.

وعندما ننظر إلى أنفسنا نجد ضعفها في هذا الجانب فنتساءل هل من سبيل إلى تقوية الخوف من الله؟ والجواب نعم **وذلك بالأمور التالية:**

(١) التوحيد:

التوحيد هو العامل الأول للخوف من الله إذ يشعر الموحد أن النفع بيد الله والضر بيده، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[يونس:١٠٧].

ويقرر النبي ﷺ هذه الحقيقة جيدًا بل ويغرسها في قلوب الشباب من الصغر فيقول في وصيته لابن عباس: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ عليك**»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٧٧) «مناقب الأنصار»/ باب إسلام عمر بن الخطاب. رقم (٣٨٦٤).

(٢) أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٦٦٧)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن منده في كتاب «التوحيد» (٢/ ١٠٧) وقال: «هذا إسناد مشهور، رواه ثقات، =

ونتيجة ذلك: أن يتوكل عليه وحده، ويخلص له العبادة.

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله بل يفرد الله بالمخافة ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين[١] قال الفضيل بن عياض: «من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[٢].

(٢) العلم:

من الأسباب الرئيسة في جلب الخوف من الله هو العلم وهو حقيقة بينها الله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨].

وكلما كان المرء بالله أعلم كان له أخوف وأتقى ولما كان أعلم الناس هو رسول الله ﷺ صار هو أتقاهم وأخشاهم قال ﷺ: «**إنَّ أتقاكم وأعلمكم أنا**»[٣].

وفي لفظ: «**واللهِ إنِّي لأرجوا أن أكون أخشاكم للهِ، وأعلمكم بما أتقي**»[٤].

وهذه حقيقة مستقرة في قلوب سلف هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم والآثار في ذلك كثيرة أكتفي بثلاثة منها:

أما الأول فقال ابن عباس رضي الله عنه: «من خشي الله فهو عالم»[٥] وأما عبدالله ابن المبارك

= وقيس بن الحجاج مصري روى عنه جماعة ولهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها»، وقال ابن رجب: «طريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة». «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٤٨).

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٥) بتصرف.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٦٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٧٠) كتاب «الإيمان»/ باب قوله ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**». رقم (٢٠).

(٤) مسلم (٢/ ٧٨١) كتاب «الصيام»/ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٢) «المقدمة»/ باب فضل العلم والعالم.

فيقول: «أكثركم علمًا ينبغي أن يكون أشدكم خوفًا»(١).

وثالثها قول الفضيل بن عياض: «إن رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»(٢).

٢- قراءة القرآن وسماعه:

كلام ربي فيه من الزواجر ما يجعل القلوب تلين وتتحرك وتخاف، ولذلك أثنى الله على المتأثرين بالقرآن الخائفين عند سماعه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[الزمر:٢٣].

وإمام الخائفين الخاشين لله هو رسول الله ﷺ كان القرآن يحرك قلبه بالخشية فيبكي ومن ذلك بكاؤه ﷺ عندما قرأ عليه ابن مسعود آية النساء حتى إذا بلغ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[النساء:٤١]، قال لي: «كف أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان»(٣).

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلًا بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن(٤).

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣] فتبكي حتى تبل خمارها(٥).

وقرأ ابن عمر رضي الله عنه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المطففين:١-٦] فبكى حتى خرَّ وامتنع عن قراءة ما بعده(٦).

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ٩٨) كتاب «فضائل القرآن»/ باب البكاء عند قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) البخاري (٧/ ٢٣١) كتاب «فضائل أصحاب النبي»/ باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٥).

(٥) «الزهد» لأحمد (٢٠٥).

(٦) المرجع السابق (٢٤٠).

٣- استشعار كتابة ما يصدر عنه:

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾[الكهف:٤٩]، وقال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه في مرضه فيلوكه ويقول: هذا أوردني الموارد[١].

وكان الإمام أحمد يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله[٢].

٤- تأمل معاني أسماء الله التي فيها الجلال والعظمة:

من أعظم ما يوجد الخوف في قلب المسلم تأمل أسماء الله تعالى. قال ابن القيم: «وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعِنَّةُ رعوناتها فأحضرت المطيةُ حَظَّها من الخوف والخشية والحذر»[٣].

٥- استشعار أن الله مطلع عليه عالم بفعله ونيته:

قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١].

«الخبير هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه لأنه مطلع على أسرار الضار والنافع»[٤].

---

(١) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الفوائد» (١٢٠).

(٤) «معارج الصعود» (٣٩).

قال سهل بن عبدالله: «لا يبلغ العبد حقيقة الخوف من الله حتى يخاف مواضع علم الله فيه ويحزن على ذلك»[١].

٦- إرسال الآيات المخيفة:

كلما غفل الناس وضيعوا من أوامر الله ما ضيعوا أرسل الله إليهم ما يذكرهم من الآيات -قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء:٥٩]- لعلهم ينزجرون ويعودون إلى الجادة وإلى الطريق المستقيم ومنها:

أ- الكسوف والخسوف:

كسفت الشمس في عهد النبي ﷺ ففزع فزعًا شديدًا، ومن شدة فزعه أخطأ بدرع إحدى زوجاته حتى أُدرك بردائه ﷺ[٢] وذهب يصلي، فأطال القيام والركوع والسجود، ثم خطب بعد الصلاة ومما قال ﷺ: «**إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكنّ الله تعالى يخوف بهما عباده**»[٣].

ومما قال لهم: «**لله أغير من أن يزني عبده أو أمته فنهاهم عن الذُّنوب وأمرهم بالتعوذ من عذاب القبر وأرشدهم إلى الصّدقة والصّلاة والدّعاء حتّى يكشف الله ما بهم**»[٤].

ب- الرياح الشديدة والغيم:

فعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الريح الشديدة إذا هبت عُرف ذلك في وجه النبي ﷺ»[٥].

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢١٥).

(٢) مسلم (٢/ ٦٢٥) كتاب «الكسوف»/ باب ما عرض للنبي ﷺ في صلاة الكسوف. رقم (٩٠٦).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦) كتاب «الكسوف»/ باب قول النبي يخوف الله عباده بالكسوف. رقم (١٠٤٨).

(٤) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٩) كتاب «الكسوف»/ باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨-٦٣٠)، كتاب «الكسوف». رقم (٩٠١-٩١٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٠) كتاب «الاستسقاء»/ باب إذا هبت الريح. رقم (١٠٤٣).

وعن عائشة ﵂ قالت: «إذا تخيلت السماء تغير لون النبي ﷺ وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «**لَعَلَّه يا عائشة كما قال قوم عاد**: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[(١)]» [الأحقاف:٢٤].

وقد كان السلف يستشعرون ذلك ويخافون منه، قال أبو زكريا الهمداني: كنا عند علي بن بكار فمرّت سحابة فسألته عن شيء فقال لي: «اسكت حتى تجوز هذه السحابة أما تخشى أن تكون فيها حجارة نُرْمَى بها»[(٢)].

ومن الآيات الزلازل والفيضانات وغيرها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

٧- تذكر عقوبات الأمم الغابرة:

كل أمة عصت وخالفت أمر الله وتجبرت وطغت ولم تطع رسل الله نزلت بها عقوبة الله ﷿ كقوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، فعلينا أن نتذكر تلك العقوبات ونتوب إلى ربنا، قال تعالى في سورة القمر بعد ذكره عقوبة كل قوم عصوا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[القمر:١٥-١٦]، وفي سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٨].

وعندما ذكر عقوبة قوم لوط قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٣].

وهذا يقودنا إلى الخوف من الله أن يأخذنا على غرة بسبب ذنوبنا ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف:٩٧-٩٨].

---

(١) مسلم (٢/ ٦١٦) كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب التعوذ من رؤية الريح والغيم. رقم (٨٩٩).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٧٦).

٨- تذكر الأمور المستقبلة:

يستقبلنا أمور عظام، وأهوال جسام (موت، ثم قبر، ثم قيامة، ثم صراط ونار)، فمن أكثر من ذكرها أورثه ذلك الخوف والإشفاق، قال ابن القيم: «فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»(١).

ولقد استقر ذكر الآخرة في قلوب السلف، حتى سيطر الخوف منها على قلوبهم، ومن ذلك: ما رواه المروزي، فقال: «كان أبو عبدالله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب. وإذا ذكرت الموت هان علي أمر الدنيا»(٢).

«ودخل رجل على الحسن فإذا هو يبكي، قال: ما يبكيك أصلحك الله؟ قال: أخاف أن يدخلني مالكي النار ولا يبالي»(٣).

ومن شدة استقرار أمر الآخرة في قلوبهم أن كل شيء يذكرهم الأمور المستقبلة ومن ذلك ما رواه الحسن قال: خرج هرم بن حيان وعبدالله بن عامر يريدان أرض الحجاز فبينما راحلتاهما ترعيان قال هرم بن حيان يا بن عامر! أيسرك أنك شجرة من هذه الشجر أكلتك هذا الراحلة فقذفتك بعرًا فاتُّخِذْت جلة قال والله لما أرجو من رحمة الله عز وجل أحب إليّ من ذلك. فقال هرم بن حيان: ولكني والله لوددت أني شجرة من هذا الشجر أكلتني هذه الناقة فقذفتني بعرًا فاتُّخِذْت جلة ولم أكابد الحساب يوم القيامة إما إلى جنة وإما إلى نار ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى. قال الحسن كان والله أفقههما وأعلمهما بالله عز وجل(٤).

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢١٥).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (٢٥).

(٤) «الزهد» لأحمد (٢٨٤-٢٨٥).

والرجاء.

....

الرجاء لغة: الراء والجيم والحرف المعتل أصلان متباينان يدل أحدهما على الأمل[١]. قال الليث: الرجاء ممدود وهو نقيض اليأس[٢].

وإنما يستعمل الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه حرف نفي ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:١٣] والمعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة[٣].

واصطلاحًا: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار والآخرة ويطيب لها السير طامعة فيما عنده من النعيم المقيم وذلك بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي[٤].

مكانة الرجاء وأهميته:

الرجاء من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها وتتضح مكانته وأهميته بما يلي:

الأول: أن الله مدح أهله وأثنى عليهم، فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ﴾[الإسراء:٥٧].

وأثنى على خواص عباده الصالحين برجائهم رحمته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٥٩) مادة (رجا).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٧٩) مادة (رجا).

(٣) المرجع السابق (١١/ ١٨١) مادة (رجا).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥) وقوله يحدو القلوب: أي يحثها على السير ويقال للسهم إذا مضى حدا الريش وحدا النصل، انظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ١٨٦)، وانظر: «المصباح المنير» (١٢٥).

وأن المقتدين بالرسول حقيقة هم أهل الرجاء، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

الثاني: أن الرجاء من أعظم أسباب المغفرة:

يجلي ذلك النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل فيقول: «**يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي**»[١].

الثالث: أن الرجاء هو محرك القلوب والجوارح إلى الله: ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح بل لولا الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسرًا وتمزقًا
وكذاك لولا برده لحرارة الـ ... أكباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى ... برجائه لحبيبه متعلقا
أم كلما قويت محبته له ... قوي الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطي لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا[٢]

وهذا يدل على أهمية الرجاء وعظيم منزلته وأنه يدخل في جميع أنواع العبادات فلا يتصور أن تخلو منه عبادة[٣].

الرابع: أن الرجاء ضرورة: الرجاء ضروري للعبد فلو فارقه لحظة لتلف أو كاد، **لأن العبد دائر بين أمور خمسة:**

١- ذنب يرجو غفرانه.

---

(١) الترمذي (٥/ ٥٤٨) كتاب «الدعوات»/ باب في فضل التوبة والاستغفار. رقم (٣٥٤٠). قال ابن رجب: «إسناده لا بأس به». «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١١٥٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٠).

٢- عيب يرجو إصلاحه.

٣- عمل صالح يرجو قبوله.

٤- استقامة يرجو حصولها ودوامها.

٥- قرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها.

فالرجاء من أقوى الأسباب التي يصل بها العبد إلى مطلوبه(١).

متعلق الرجاء:

متعلق الرجاء هو الله سبحانه وذلك لأن رحمة الله من لوازم ذاته -التي لا تنفك عنه بحال- فسبقت غضبه(٢). بيَّن ذلك النبي ﷺ حينما دخل على شاب وهو في الموت فقال: «**كيف تجدك؟**»، فقال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه ممَّا يخاف**»(٣).

ووعاها علي رضي الله عنه فقال: «لا يرج عبد إلا ربه»(٤).

فعلق رجاءك بربك سبحانه. واحذر أن تعلقه بمخلوق، «لأن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون، ولابد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد»(٥).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤١-٥٢).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

أقسام الرجاء:

ينقسم الرجاء إلى قسمين هما:

الأول: الرجاء التوحيدي العبادي:

الرجاء التوحيدي العبادي: هو رجاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ربهم سبحانه فقط، مخلصين له وحده، آملين منه أن يحقق الله لهم ما يرجون.

ورجاؤهم على وجوه أربعة هي:

١) رجاء الظفر بالمطلوب.

٢) رجاء دوامه بعدما قد حصل.

٣) رجاء دفع المكروه وصرفه لئلا يقع.

٤) رجاء الدفع والإماطة لما قد وقع[١].

وأهل الرجاء التوحيدي العبادي نوعان هما:

أ- رجاء المسيئين المفرطين:

ينبغي لكل من أساء بارتكاب الذنب وكلنا كذلك إلا من رحم ربك أن يخافوا أن يخذلوا بذنوبهم ومع ذلك ينبغي لهم أن يرجوا عفو الله ورحمته، قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٠٢] وعسى من الله واجبة لأنها إطماع من كريم قد غلبت رحمته غضبه. وإليك أنموذجًا يحرك قلبك برجاء العفو من العفو الرحيم قال ﷺ: «**يجيءُ يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبالِ يغفرها اللهُ لهم**»[٢].

---

(١) «المنهاج» للحليمي (١/ ٥١٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢١٢٠) كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة التائب. رقم (٢٧٦٦).

وأما آخر أهل الجنة دخولًا فله نبأٌ عجيب أخبر به النبي ﷺ بقوله: «**إنِّي لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النّار خروجًا منها. رجلٌ يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: إنَّ لك مكان كل سيِّئة حسنة. فيقول: ربِّ قد عملت أشياءً لا أراها ههنا فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذه**»[(١)].

ب- رجاء المطيعين الصالحين:

لما كان الخوف لا يمكن أن يفارق القلب مهما ارتقى في مدارج الكمال واجتهد في طاعة ربه وانكف عن معاصيه. كان لا بُدَّ له من رجاء يبرد حرارة ذلك الخوف ويقويه على الاجتهاد في الطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة:٢١٨].

ومن ذلك ما فعل عمير بن الحمام رضي الله عنه في غزوة بدر عندما دنا المشركون قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض**». قال عمير رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض. قال: «**نعم**». قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «**فإنَّك من أهلها**». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»[(٢)].

---

(١) مسلم (١/ ١٧٧) كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة. رقم (١٩٠).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٠-١٥١١) كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت الجنة للشهيد. رقم (١٩٠١).

وهو على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: رجاء يبعث المسلم على الاجتهاد في الطاعات متلذذًا بها مع بغضه للمحرمات وتركه لها.

قال شاه الكرماني: «علامة صحة رجاء العبد حسن الطاعة».

الدرجة الثانية: رجاء المجاهدين لأنفسهم بترك المشتبهات:

فهؤلاء يتركون كثيرًا من المباحات خوفًا من الوقوع في المكروهات ويتركون المشتبهات لئلا يقعوا في المحرمات ممتثلين قول النبي ﷺ: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهة فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأَ على ما يشكُّ فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه**»[1].

قال حسان بن أبي سنان: «ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[2].

وقال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»[3].

الدرجة الثالثة: رجاء أصحاب القلوب الممتلئة بالإيمان واليقين لقاء ربهم:

أعظم الراجين لله سبحانه نبينا محمد ﷺ، ولذلك كان أشد الناس شوقًا للقائه، ولهذا كان يقول في دعائه: «**وأسألك لذَّة النَّظر إلى وجهك والشَّوق إلى لقائك في غير ضرَّاء**

---

(١) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩٠) كتاب «البيوع»/ باب الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات. رقم (٢٠٥١).

(٢) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩١) كتاب «البيوع»/ باب تفسير المشبهات.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥) كتاب «الإيمان»/ باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس».

مضرّة، ولا فتنةٍ مضلة»[١]، لعلمه ﷺ: «أن من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه».

قال تعالى مبشرًا من يرجوه ويحب لقاءه بقرب لقائه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[العنكبوت:٥].

وهذه هي أفضل درجات الرجاء وأعلاها وهي محض الإيمان وزبدته وإليها شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاَّهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلًا يسكن قلوبهم ويطمئنها[٢].

الثاني: الرجاء الشركي الكفري:

الرجاء الشركي: هو رجاء غير الله في دفع الضر وجلب النفع.

كلما تباعد الناس عن عصر النبوة. خَفَتَ عندهم نور الوحي فانتكست مفاهيمهم فعبدوا غير الله واتجهوا بقلوبهم وأعمالهم إليهم راجين منهم جلب النفع ودفع الضر وتفريج الكرب كما وقعت فيه الأمم المشركة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «ولا ريب أن الاستشفاع بالأموات يتضمن أنواعًا من العبادة: سؤال غير الله، وإنزالُ الحوائج به من دونه، ورجاؤه والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والجوارح واللسان. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله»[٣].

---

(١) النسائي (٣/ ٥٤)، كتاب «السهو»، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٩) رقم (١٣)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٦١)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣١٩) رقم (٢٤٤)، وصححه الألباني في تحقيقه «للكلم الطيب» (٦٦) رقم (١٠٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٤) بتصرف يسير.

(٣) «القول الفصل النفيس» (٩٠).

والمصيبة الكبرى والداهية العظمى أن هذا الانحراف قد تسرب إلى المسلمين من اليونان، وأمم الكفر، فانحرفت مفاهيم بعضهم حتى جهلوا معنى لا إله إلا الله. ففسروها بأنه القادر على الاختراع أي بتوحيد الربوبية فظنوا أن من آمن بتوحيد الربوبية فقد صح إيمانه وتم، فوقعوا فيما وقع فيه الأولون من الشرك بالله تعالى.

ومن أمثلة ما وقعوا فيه مما زينته لهم الشياطين:

١ - قول قائلهم: «قبر معروف ترياق مجرب»[(١)].

٢ - لما قدم التتار إلى دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجونها لكشف الضر.

حتى قال قائلهم:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر[(٢)]

٣ - ومن صور الاستغاثة بالشيخ عبدالقادر الجيلاني: «بأن من كان له حاجة وصلى ركعتين في الليل ثم استقبل بغداد وتوجه إلى الشيخ عبدالقادر واستغاثه بهذين البيتين:

أَيُدركُني ضيمٌ وأنت ذخيرتي وأُظْلَمُ في الدنيا وأنت نصيري

وعار على راعي الحمى وهو في الحمى إذا ضاع في الهيجا عقال بعير

وناداه باسمه وذكر حاجته فإنها تقضى[(٣)].

ويظن بعض الناس أن رجاء أصحاب القبور ودعاءهم والطلب منهم في وقت مضى. وليس الأمر كذلك بل كثير منها موجود اليوم كما يؤكد ذلك محمد الغزالي فيقول متحدثًا عن القبور في هذا العصر «ومع ذلك فهي مزارات معمورة مشهورة تقصد لتفريج

---

(١) «وفيات الأعيان» (٥/ ٢٣٢).

(٢) «غاية الأماني في الرد على النبهاني» (٢/ ٣٤٤).

(٣) «صيانة الإنسان» (١٩٣).

الكرب وشفاء المرضى وتهوين الصعاب»[١].

وأختم بما ذكره عبدالرحمن الوكيل عن حالة الطلبة في معهدٍ دينيٍّ عند الاختبار حيث يصف حالته وحالة زملائه فيقول: «عندما توزع أسئلة اختبار آخر العام تهب هذه الآلاف المضطربة من الطلبة رافعة أكفها في ضراعة.. حتى يبح صوتها وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة يا سيد ويا ويل السمع من ياء النداء، لقد كانت تطول وتطول حتى ليخيل إليك أنها دخان مارد يحترق فيلمس دخانه قبة النجم، ولعلك تسألني وماذا يفعل بكم شيوخكم؟ كانوا يرفعون في سكرة الحب وذل الخشية أيديهم المعروقة يمسحون بها وجوههم أو يمشطون لحاهم ومن بين الشفاه الذوابل تنساب هذه الهمهمة رضي الله عنك يا سيد ثم يلتفتون إلينا وعلى وجوههم ألق الرضى ناصحين في تأييد وإعجاب «كفاية ما خلاص سمعكم السيد»[٢].

وهل الرجاء الشركي ينفع صاحبه؟

لا، لا ينفع صاحبه فما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه لأنه وضع الرجاء في غير موضعه.

بل يحصل له نقيض قصده، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[آل عمران:١٥١][٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]، فرجوا منهم الأمن والحماية، فعوملوا بنقيض قصدهم، فأصابهم الرعب والرهق.

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢].

---

(١) «عقيدة المسلم» (٢٨).

(٢) «هذه هي الصوفية» (٤ – ٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

مذمومًا لا مادح لك، مخذولًا لا ناصر لك.

وذلك أن «المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم»(١).

فمن رجا غير الله عومل بنقيض قصده لأنه أساء في رجائه وعمله.

أقسام الرجاء من حيث الصحة والكذب:

ينقسم الرجاء من حيث الصحة والكذب إلى قسمين:

(١) **الرجاء الصحيح**: هو **ما قارنه العمل** وبينه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

فجعل شرط الرجاء الصحيح العمل الصالح الذي يبتغى به وجه الله تعالى.

ووصف أهله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨].

فجمعوا بين أمور ثلاثة عظام هي: الإيمان والهجرة والجهاد، فمن قام بها على صعوبتها وشدتها كان للقيام بما سواها أولى وأحرى.

«وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة»(٢).

(٢) **الرجاء الكاذب**: وهو «حديث النفس بحصول ذلك المقصود مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه»(٣). فالرجاء الكاذب حقيقته التمني. والأماني رؤوس أموال المفاليس وصاحبه من العجزة كما قال ﷺ: «**والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله**

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠).

(٢) «تيسير الكريم المنان» (١/ ٢٧٠).

(٣) «الروح» (٢٤٥).

الأماني»(١).

قال ابن أبي الدنيا: «الرجاء بلا عمل اجتراء على الله عز وجل»(٢).

وبهذا يتضح الفرق بين الرجاء الصحيح وبين الرجاء الكاذب الذي هو في الحقيقة تمنٍّ وغرور.

الأسباب الجالبة للرجاء:

الأسباب الجالبة للرجاء كثيرة منها:

١ - التوحيد:

وعد الله أهل التوحيد وعدين لم يَعِدْ بهما أحداً غيرهم، فقال: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام:٨٢]، أَمْنٌ في الدنيا والآخرة، واهتداء في الدنيا والآخرة، ومن رزق هذين الوعدين، فلا أحد أرجى منه.

ولكونه أعظم أسباب الرجاء ربط النبي ﷺ الفلاح والسعادة به حين كان يطوف بالعرب بسوق ذي المجاز ويقول: «**أَيُّهَا النَّاس قُولُوا لاَ إِلَه إلاَّ الله تُفْلَحُوا**»(٣).

٢ - العمل الصالح:

لما كان العمل هو شرط الرجاء الصحيح صار من أهم الأسباب الجالبة للرجاء ولهذا بشر الله العاملين بجنات النعيم في قوله: ﴿**وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ**﴾[البقرة:٢٥].

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٤/ ٦٣٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥٩)، وقال: «هذا حديث حسن»، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٨) رقم (٤١١٦).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٩٨).

(٣) «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٦) للبيهقي، وقال الذهبي: «إسناده قوي». «السيرة النبوية» (٨٦).

ومن الأعمال البدنية قوله ﷺ: «**من حجَّ هذا البيت فلمْ يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدتْهُ أُمهُ**»[١]. وإذا كانت أعمال الجوارح بهذه المثابة، فأعمال القلوب أعظم وأعظم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلُّهم في ظلّي يوم لا ظلَّ إلَّا ظلي**»[٢].

٣- تأمل أسماء الله التي فيها العفو والمغفرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[الشورى:٢٣].

«أي يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات فيستر ويضاعف فيشكر»[٣]. فمن استشعر عفو الله ومغفرته قوي رجاؤه بربه تبارك وتعالى.

٤- سعة رحمة الله تعالى:

إذا استشعر المسلم رحمة الله التي وسعت كل شيء ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦] طمع في أَنْ تَسَعَهُ رحمة أرحم الراحمين الذي خلق مائة رحمة، قال النبي ﷺ: «**الله خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السموَاتِ وَالأرضِ مَائة رحْمَةٍ. كُلّ رَحمةٍ طِباق ما بين السّماءِ والأرْضِ...**»[٤].

٥- الشفاعة:

الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ يفرح بها العبد المسلم لأن النبي ﷺ خير بين أن يدخل نصف أمته الجنة أو الشفاعة فاختار الشفاعة، كما في حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنّه أتاني الليلة من ربي آت يخَيّرني بين أن يدخل نصف أُمّتي**

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢) كتاب «الحج»/ باب الحج المبرور. رقم (١٨٢٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١١٤).

(٤) مسلم (٤/ ٢١٠٩) كتاب «التوبة»/ باب سعة رحمة الله. رقم (٢٧٥٣).

الجنّة، وبين الشّفاعة، وإنِّي اخترتُ الشّفاعة»[١].

٦- فتح باب التوبة:

ما أكثر الذنوب والخطيئات التي نرتكبها في الليل والنهار «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُون بِالليلِ والنّهارِ**»[٢]، وكثرة الخطأ والزلل مما يخيف العبد ولكن الله تكرم علينا ففتح باب التوبة كي نمحو خطيئاتنا وزلاتنا وذلك لعظم كرمه وجوده. قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللّيلِ لِيَتُوبَ مُسيءُ النّهارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنّهَارِ لِيَتُوبَ مُسيء الليلِ حَتّى تَطْلَع الشَّمسُ مِنْ مَغْرِبها**»[٣].

قال ابن القيم: «قلت لشيخ الإسلام رحمه الله يومًا: سئل بعض أهل العلم أيها أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنسًا، فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لي رحمه الله: فكيف والثياب لا تزال دنسة»[٤]. أي لازم التوبة والاستغفار لتجلوا عنك أثر الذنوب والخطايا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٤/ ١٩٩٤)، كتاب «البر والصلة»/ باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢١١٣) كتاب «التوبة»/ باب قبول التوبة من الذنوب. رقم (٢٧٥٩).

(٤) «الوابل الصيب» (١٩٨).

والتوكل.

....

التوكل لغة: الواو والكاف واللام أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك... والتوكل هو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك[١].

واصطلاحًا: هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في الدنيا والآخرة، وعرفه ابن عباس بقوله: «هو الثقة بالله تعالى»[٢].

قال أحمد بن حنبل: «وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به»[٣].

وقال الحسن: «إن مِنْ تَوكُّلِ العبد أن يكون الله هو ثقته»[٤].

فـ «التفويض روح التوكل ولبه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا»[٥] ولهذا أمر الله بتفويض الأمور إليه وحده فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] هذه الآية أكبر آية في القرآن تفويضًا[٦].

وكان رسول الله ﷺ مفوضًا أمره إلى ربه قائلًا: «**اللهمَّ أسلمت وجهي إليك،**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٣٦) مادة (وكل).

(٢) «زاد المسير» (٢/ ٢٤).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٧٢).

(٤) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (١٨) و«الحث على التجارة» للخلال (١٢٥).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢).

(٦) «جامع البيان» (٢٨/ ١٤٠).

وفوَّضتُ أمري إليك»[١].

ولما نصح مؤمن آل فرعون قومه بطاعة الله ورسوله بيَّن لهم صدق اعتماده على الله، وتفويض أمره إلى ربه؛ لأنه هو الذي يحفظه ويحميه من ضررهم وأذاهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[غافر:٤٤].

فماذا حصل بسبب تفويضه أمره إلى الله؟ أن وقاه الله شرهم ومكرهم: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٥].

وكان سعيد بن جبير يدعو الله أن يرزقه التوكل عليه، فيقول: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك»[٢].

ومما يدل على أن التوكل هو اعتماد القلب على الله لجلب المنافع ودفع المضار ورود كلمة (حسبي الله) فإنها وردت في القرآن في كليهما، فأما في جلب المنافع ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٢-٣].

وأما في دفع المضار ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣]. ومعنى حسبنا الله: أي كافينا الله.

وجمعهما النبي ﷺ بقوله: «**إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذٍ: هديت وكفيت، ووقيت، فتتنحى له الشّيطاين،**

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٣٥٧) كتاب «الوضوء»/ باب فضل من بات على وضوء. رقم (٢٤٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٥٣٨) رقم (١٧١٩٢).

فيقول له شيطانٌ آخر: كيف لك برجلٍ قد هدي وكفي ووقي»[١].

فقوله: «هدي»: جلب منفعة، وكفي ووقي: دفع مضرة.

ولازم التوكل: «قطع الاستشراف بالإياس من الخلق»[٢].

أهمية التوكل وعلو منزلته:

التوكل من أَجَلِّ أعمال القلوب وأعلاها، ومما يدل على أهميته وعلو منزلته ما يلي:

١- أن الله جعله شرطًا في الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣]، فدلّ الشرط على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له لا إيمان له. قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان»[٣].

وقال سهل: «من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»[٤].

٢- أن التوكل على الله نصف الإيمان[٥] ولأجل ذلك جمع الله بين التوكل والعبادة في سبعة مواضع من كتابه، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، وقال حكاية عن عباده المؤمنين إنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا

---

(١) أبو داود (٥/ ٣٢٨) كتاب «الأدب»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٥٠٩٥)، والترمذي (٥/ ٤٩٠)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٣٤٢٦)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، قال ابن القيم: «حديث حسن». «زاد المعاد» (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٤١٦).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٥٣٨) رقم (١٧١٩١)، وابن أبي الدنيا في «التوكل» (٥)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٤).

(٤) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٥)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ١٧٩).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٦).

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤]، وأمر الله نبيه بالتوكل، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل:٨-٩]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠]، وأمرنا به جميعًا فقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الحج:٧٨].

فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين التوكل وهو الوسيلة والإنابة وهي الغاية، فأشرف الغايات هي عبادة الله والإنابة إليه ولا وسيلة إليها إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، فلذا صارت هذه الوسيلة أشرف الوسائل[(١)].

قال شيخ الإسلام: «إن الله لم يأمر بالتوكل فقط بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذَّر، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالًا كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالًا»[(٢)].

وهذا ظاهر في هدي النبي ﷺ كما في قوله عند ذبح الأضحية: «**اللهمَّ منك ولك**»[(٣)].

فإن قوله: «منك» هو معنى التوكل والاستعانة وقوله «لك» هو معنى العبادة[(٤)].

وبهذه الأدلة يتضح أن «التوكل نصف الدين والنصف الثاني هو الإنابة فإن الدين استعانة وإنابة»[(٥)].

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٥٥-٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٢٧).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٣١) كتاب «الضحايا»/ بباب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (١/ ٥٣٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٢٨٧) باب استحباب توجيهه للقبلة والدعاء عند الذبح. رقم (٢٨٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٣٩)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٤) «التوحيد» لابن تيمية (٩٩).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣).

٣. تلازم التوكل والهداية:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[إبراهيم:١٢]. فكل مهتد لا بُدَّ أن يكون متوكلًا على الله تعالى، فهؤلاء الرسل «عجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا، وهذا دليل على أن التوكل والهداية متلازمان»[(١)].

ولما أمر الله نبيه أن يتوكل عليه علل ذلك بأنه على الحق المبين فقال: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل:٧٩].

فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به فهو ناصر دينه ومؤيده وهو حسب من قام به وتوكل عليه وكافيه.

٤ - أن التوكل يجمع أصلين اثنين هما علم القلب وعمله.

«أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه»[(٢)].

٥ - أن التوكل أقوى الأسباب لدفع الأذى:

«فمن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه... قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق:٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال»[(٣)]. ومن

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٣) «ذم الحسد وأهله» لابن القيم (٣٢).

ثم كانت الرسل عليهم السلام يربون أتباعهم على التوكل على الله كما كان موسى عليه السلام يفعل مع قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس:٨٤] فأمرهم بالتوكل على الله لأن فيه الوقاية من أذى فرعون وقومه.

ولأجل هذا صار التوكل على الله ملجأ الخليلين ومعاذهما فلقد توكلا على الله في أحلك الظروف وأحرج المواقف فوقاهما الله شر أعدائهما.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٣].

وفي رواية عنه: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل)[(١)].

بل تحدّى نوح عليه السلام قومه بتوكله على الله كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[يونس:٧١].

«فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة وهو توكله على الله يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجزته، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه وهذا لا يجوز وهذا طلب تعجيز لهم. فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به»[(٢)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٢٩) كتاب «التفسير»/ باب الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم. رقم (٤٥٦٣ و٤٥٦٤).

(٢) «جامع الرسائل» المجموعة الأولى (٩٦).

ولقوة التوكل في دفع الأذى ربطه الله باسميه العزيز والحكيم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٤٩].

«﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها فينصر من يستحق النصر ويخذل من هو أهل للخذلان»[١].

٦- أنه أوسع المنازل وأجمعها:

«منزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار... فأفضل التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في جلب مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم»[٢].

«والأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات هو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه والاعتماد بالقلب عليه وهو خلاصة التفريد ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به ربًا وإلهًا والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعدَّه من النعماء كما في حديث السبعين ألفًا الذي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فسبحان من يتفضل على من شاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم»[٣].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣-١١٤).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١١٠)، وانظر: «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

ولسعته ذكره الله وأمر به في مقامات كثيرة منها:

أ- مقام العبادة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[المزمل:٧-٩].

ب- مقام الدعوة ووجود المعاندين والمناوئين: قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾[يونس:٧١].

ج- في مقام الحكم والقضاء: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠].

د- في مقام الإيمان: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر؟ -وفي رواية الترمذي: فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم- قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول، قال: قولُوا: حسبنا الله ونعم الوكيلِ، على الله توكلنا»**(١).

هـ- في مقام الجهاد: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[آل عمران:١٢١-١٢٢] بل جعله الله أعظم أسباب النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٣].

و- في حال السلم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الأنفال:٦١].

ذكر الله التوكل في حال السلم لأن الناس قد يظنون أن التوكل في حال الحرب

---

(١) أحمد (٣/ ٧٣)، والترمذي (٤/ ٦٢٠) «صفة القيامة»/ باب ما جاء في شأن الصور. رقم (٢٤٣١)، وقال: «هذا حديث حسن».

والخوف فقط[(١)].

٧- أن الله أمر به الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم وجعله شعارًا لهم:

قال تعالى آمرًا نبينا محمد ﷺ بالتوكل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٨].

وأما أنه شعار لهم، ففي قوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦].

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤].

وأما أنه شعار لأتباعهم ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٢-٤].

قال قتادة: «هذا نعت لأهل الإيمان، نعتهم فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم»[(٢)].

حكم التوكل:

التوكل على الله واجب لما يلي:

١) أن الله ذكر التوكل آمرًا به أو مثنيًا على المتوكلين في خمسة وعشرين موضعًا، تسعة مواضع منها لنبينا محمد ﷺ. ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المجادلة:١٠]، والأمر يقتضي الوجوب.

---

(١) انظر: «التوكل على الله» للقرني (٦٦-٧٥)، فقد ذكر مقامات غير هذه. تركتها لأجل الاختصار.

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٥٦)، و«جامع البيان» (٩/ ١٧٩).

٢) أنّه «أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأنّ منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»(١).

قال شيخ الإسلام: «فالتوكّلُ على الله واجبٌ من أعظم الواجبات كما أنّ الإخلاصَ لله واجبٌ وحبَّ اللهِ ورسولِهِ واجبٌ، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظمَ ممّا أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾»(٢) [هود:١٢٣].

أنواع التوكل:

ينقسم التوكل إلى قسمين:

الأول: التوكل الشرعي التوحيدي العبادي:

وهو توكل أهل التوحيد على الله وحده في كل شأن من شؤون دينهم ودنياهم.

قال تعالى حاصرًا التوكل عليه سبحانه وحده: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

فأتى بإنما الدالة على الحصر والقصر، وقدَّم ما حقه التأخير لحصر توكل المؤمنين عليه وحده.

وأمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه وحده معللًا بأنه الحي الذي لا يموت وغيره يموتون، وهو الخبير ومن عداه ليس عندهم علم، فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان:٥٨].

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/٧).

وبين النبي ﷺ أن التوكل على الله وحده من أخص صفات السبعين ألفًا الذين استحقوا دخول الجنة بلا حساب كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وفيه: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلون**»[(١)].

فلنحرص على تحقيقه لأن من لم يحققه كان مآله الخذلان[(٢)].

درجات الناس في التوكل:

الناس في التوكل على درجات متعددة، هي:

(١) درجة أولياء الله المتوكلين عليه في نصرة دينه:

وهذه حال أصحاب الهمم العالية الذين همهم إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وأعلى هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام وصحابتهم رضوان الله تعالى عليهم فإن همهم في التوكل عليه أعلى من غيرهم، فإن توكلهم كان في نصر دين الله وإعلاء كلمته وعبادته وحده لا شريك، وفتح قلوب العباد وبصائرهم لنور الهدى، فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانًا، وفتحوا ديار الكفر فصارت ديار إيمان وإسلام. وصدوا عدوان المفسدين ودحروهم، وهكذا ورثتهم إلى قيام الساعة.

(٢) المتوكل على الله في استقامته في نفسه فقط:

وهذه حال كثير من العباد الذين لم تكن لهم همة إلا صلاح نفوسهم فقط، وهذه دون الأولى.

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٤٠٥-٤٠٦) كتاب «الرقاق»/ باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب. رقم (٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) المتوكل على الله في جلب حوائجه الدنيوية أو دفع المكروهات والمصائب الدنيوية، وهذا حال من يبحث عن الدنيا من منصب ومال وزوجة، وولد ونحو ذلك، وهذه المرتبة دون الثانية.

(٤) المتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش[(١)]:

«وهؤلاء لا ينالون مطالبهم غالبًا إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم»[(٢)].

الغبن في التوكل:

«كثير من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء.... فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين»[(٣)].

متى يبرز التوكل على الله ويتضح أو يختفي ويتلاشى؟

يبرز التوكل على الله ويتضح في مواقف الشدة والضيق والحرج، كتوكل إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وموسى عليه السلام عندما خافت بنو إسرائيل حين لحقهم فرعون، والنبي ﷺ وأصحابه عندما قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

فإذا لم يجد الإنسان التوكل على الله في مثل هذه المواطن فليراجع إيمانه.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣)، و«التحفة العراقية» (٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥-١٢٦).

الثاني: التوكل الشركي:

وهو الاعتماد على غير الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار وهذا النوع من التوكل ينافي ويضاد التوكل على الله تعالى بل هو شرك، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[إبراهيم:١١] في هذه الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة فصرفه لغير الله شرك.

ولأنه لما كان لا كافي إلا الله سبحانه كان التوكل على غيره شركًا وباطلًا، ولهذا قال الصالحون: «حسبنا الله» ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله.

ويدل على التوكل الشركي قوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقى والتَّمائم والتِّوَلَةَ شركٌ**»(١).

فحكم على التمائم بأنها من الشرك لما فيها من الاعتماد على غير الله تعالى في دفع الشرور والآفات(٢).

وأبطل الطيرة وغيرها مما يكون سببًا في الاعتماد على غير الله تعالى.

وينقسم التوكل الشركي إلى قسمين:

(١) **التوكل والاعتماد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله**، فهذا شرك أكبر، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء النصر والحفظ ونحو ذلك. ويسمى هذا النوع توكل السر، لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سِرِّيًا في الكون.

(٢) **التوكل على الأسباب الظاهرة**، كالتوكل على السلطان فيما جعله الله بيده وهذا

---

(١) أحمد (١/ ٣٨١) وأبو داود (٤/ ٢١٢)، كتاب «الطب»/ باب في تعليق التمائم. رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٦-١١٦٧)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التمائم. رقم (٣٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٦٩).

(٢) «الوعد الأخروي» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

من الشرك وإن كان دون الأول. قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «هذا نوع شرك خفي»[(١)] إلا إن كان يعتقد أنها مؤثرة بنفسها فهذا شرك أكبر.

ومن توكل على غير الله واعتمد عليه عوقب بالخذلان.

قال شيخ الإسلام: «إن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته فإنه يُخْذَلُ من تلك الجهة وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء. ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ولا استنصر بغير الله إلا خُذِلَ وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾»[(٢)] [مريم:٨١-٨٢].

ولما توكل بعض الإنس على الجن ليؤَمِّنوهم زاد الجنُ الإنس خوفًا وذعرًا قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا﴾[الجن:٦].

ولما لبس الرجل تلك الحلقة متوكلًا عليها أن تحميه من الواهنة أخبره النبي ﷺ أنها لا تزيده إلا وهنًا، كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقه من صُفْر، فقال: «**ويحك ما هذه؟**». قال: من الواهنة، قال: «**أما إنَّها لا تزيدك إلا وهنًا، انبذها عنك؛ فإنَّك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»[(٣)].

قال شقيق البلخي: «لكل واحد مقام فمتوكل على ماله ومتوكل على نفسه ومتوكل على لسانه ومتوكل على سيفه ومتوكل على سلطنته ومتوكل على الله عز وجل، فأما المتوكل على

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩).

(٣) أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٧-١١٦٨)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التمائم. رقم (٣٥٣١)، وابن حبان (١٢/ ٤٤٩) رقم (٦٠٨٥). وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٧٧)، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «رواه أحمد بسند لا بأس به». «كتاب التوحيد» (٩).

الله عز وجل فقد وجد الاسترواح، نوّه الله به ورفع قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وأما من كان مستروحًا إلى غيره يوشك أن ينقطع به فيشقى»(١).

ويلحق بهما الوكالة الجائزة: وهي توكيل الإنسان غيره في فعل مقدور عليه. ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكّله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه(٢).

ومن ذلك وكالة يعقوب أبناءه بالبحث عن يوسف وأخيه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف:٨٧].

ووكالة النبي أبا هريرة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وكّلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان»(٣).

الأسباب الجالبة للتوكل:

الأسباب الجالبة للتوكل على الله كثيرة منها:

١ - **التوحيد**: التوحيد هو أعظم الأسباب الجالبة للتوكل «فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة»(٤).

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ١٨٢).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٤٨٧)، كتاب «الزكاة»/ باب إذا وكل رجلًا فترك شيئًا فأجازه الموكل؛ فهو جائز. رقم (٢٣١١).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

وذلك أنه إذا علم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها وأنه ليس له مشارك في ذرَّة من ذرات الكون، كان هذا العلم من أقوى أسباب توكله وأعظم دواعيه... وذلك لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصًا من التوكل بعد هذا؟[(١)] قال تعالى عن هود عليه السلام أنه قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[هود:٥٦] فاستشعاره أن أمور العباد كلَّها بيد الله جعله يتوكل على ربه وحده.

٢- معرفة أسماء الله وصفاته:

معرفة أسماء الله وصفاته شرط أساس في حصول التوكل «فالتوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقًا خاصًا بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فله تعلق باسم «الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن» وتعلق باسم «المعز المذل الخافض الرافع المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسّره من فسَّره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى»[(٢)].

ولأجل هذا فإن الله لما أمر نبيه بالتوكل عليه قرنه باسمين من أسمائه فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم ثلّث بالرؤية: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ثم بيّن اختصاصه بالسمع والعلم فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢٥).

٣- استشعار العبد حاجته إلى الله تعالى وضرورته إليه:

إذا عرف العبد فقره وفاقته وضعفه وحاجته إلى الغني الكبير الكريم أوجب ذلك له التوكل عليه، وهذا ظاهر جلي في كتاب الله فـ «القرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ومن ذكر نعمائه عليهم ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه»[1].

فإذا استشعر حاجته إلى ربه افتقر إليه وتوكل عليه، قال سهل: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»[2].

فإذا كان خير الخلق وأكملهم أمره الله أن يبين للناس حاجته وفقره إلى ربه فكيف بغيره، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[الأعراف:١٨٨].

٤- حسن الظن بالله عز وجل:

«على قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به»[3].

ثمرات التوكل:

١- الرضى:

الرضا ثمرة التوكل، وذلك أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢١).

وهذا هو معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**»، فهذا توكل وتفويض ثم قال: «**فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علَّام الغيوب**»، فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: «**واقدر لي الخير حيث كان، ثمَّ رضني به**»(١).

فقد اشتمل هذا الدعاء على التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل والتفويض وهو علامة صحته، فإن لم يرض بما قُضِيَ له فتفويضه معلول فاسد.

ومن فسّر التوكل بالرضا فقد فسَّره بأجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله(٢).

٢- تحقيق الإيمان:

قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

فلا تحقيق للإيمان إلا بتحقيق التوكل على الله تعالى وحده، فمن حقق التوكل على الله وحده فقد حقق الإيمان. ومن لا فلا.

٣- طمأنينة النفس وانشراح الصدر:

أقوى الناس توكلًا هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتوكلهم على الله أورثهم انشراح الصدور وطمأنينة النفوس والصبر مهما أصابهم من الأذى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم:١٢]

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ١٨٣) كتاب «الدعوات»/ باب الدعاء عند الاستخارة. رقم (٦٣٨٢).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٢-١٢٣)، «التحفة العراقية» (٤٤).

«وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه البتة... فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحُسْنِ ظنه به»(١).

٤- كفاية الله للمتوكلين:

الله كافٍ من توكل عليه، قال ابن القيم: «ولا ريب أن الكفاية من الله لا تنال إلا بأسبابها من عبوديته، وسببها المقتضى لها هو التوكل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] أي كافيه فجعل التوكل سببًا للكفاية»(٢).

فيكفيه الله من كل ما أهمه، ألا ترى أن الله كفى نبينا محمدًا ﷺ لما توكل عليه من الأعرابي (غورث بن الحارث) عند ما جاءه وهو نائم وأخذ سيفه واخترطه وكان معلقًا بشجرة فاستيقظ وهو في يده صلتًا فقال له: من يمنعك مني، قال رسول الله ﷺ: «الله»(٣) «فسقط السيف من يده...»(٤).

ولما خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من أعين الحاسدين توكل على الله مع فعل الأسباب: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف:٦٧] فحفظهم الله ووقاهم شر الحاسدين.

ويكفي الله العبد من الشيطان بتوكله عليه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل:٩٨-٩٩].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

(٢) «طريق الهجرتين (٢٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٢٦)، كتاب «المغازي»/ باب غزوة ذات الرقاع. رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦).

(٤) «دلائل النبوة» (٣/ ٣٧٦).

ويكفيه من الفتن: كفتنة الدجال، قال ﷺ: «**إنَّ رأس الدّجال من ورائه حُبُكٌ حبك**[١]، **فمنْ قال: أنتَ ربٌّ افْتُتِنَ، ومن قال: كذبتَ، ربِّي الله عليهِ توكلتُ، فلا يضُرُّهُ، أو قَالَ: فلا فتنةَ عليهِ**»[٢].

«فالتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه ولا يضره إلا أذى لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدًا»[٣].

٦- العزّة والنصر:

كما أن من توكل على غير الله خذل من تلك الجهة التي أراد منها العزة والنصر، فإن من توكل على الله رزقه العزة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

ووهب له النصر، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران:١٦٠].

---

(١) الحبك هو: «المتكسر من الجعودة». «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢٦٤).

وفي حديث ابن عمر في وصف الدجال: «... جعد قطط...». «صحيح البخاري» (٧/ ١٦١)، كتاب «اللباس»/ باب «الجعد». رقم (٥٩٠٢)، ومسلم (١/ ١٥٤)، كتاب «الإيمان»/ باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال. رقم (١٦٩).

وقال ابن عبد البر: «أما قوله: «جعد قطط» في صفة الدجال، فالقطط هو المتكسر الشعر الملتوي الذي لا يسترسل شعره ألبتة، مثل شعر الحبش». «التمهيد» (١٤/ ١٩٢).

(٢) أحمد (٤/ ٢٠)، و«جامع معمر بن راشد» المطبوع مع «المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ٣٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٢) رقم (١٢٥٢٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٧).

«نهى عن التوكل على غيره وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره»(١).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

«فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل»(٢).

٧- دخول الجنة بلا حساب:

كما في حديث السبعين ألفًا وفيه: «**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكلُون**»(٣).

٨- جلب الرزق:

قال ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكلون على اللهِ حقَّ توكله لرزقكم كما يرزقُ الطَّير، تغدو خماصًا، وتروحُ بطانًا**»(٤).

قال ابن رجب: «فهذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق»(٥).

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٥).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٣) كتاب «الزهد»/ باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤). وقال: «هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠١) رقم (٤١٠٨) وقال: «حديث حسن».

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١٢٦٦).

٩- الشجاعة وقوة القلب:

الشجاعة والقوة ظاهرة في تحدي الرسل عليهم السلام لأقوامهم الكفرة. فعادٌ وَهُمْ أقوى الأمم في عصرهم بلغت بهم قوتهم أن اغتروا بأنفسهم حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ ومع هذا يأتي شخص واحد يقابلهم ويقول لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ويعلل سر هذا التحدي بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود:٥٥-٥٦] فسِرُّ التحدي هو قوة التوكل على الله تعالى، قال شيخ الإسلام: «وهم كانوا أكثر وأقوى منه فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله على الله»[(١)].

قال بعض السلف: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[(٢)] وإذا كان المتوكل لا يبالي بالناس وقوتهم وهم أمام ناظريه فحري به ألّا يبالي بالأشياء الوهمية التي لا حقيقة لها كالطيرة ونحوها.

الأسباب والتوكل:

ينقسم الناس في موقفهم من الأسباب **إلى أربعة أقسام هي:**

١- الاعتماد على الأسباب.

٢- محو الأسباب.

٣- الإعراض عن الأسباب.

٤- الاعتماد على الله مع فعل الأسباب وهو الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٧).

(٢) «التحفة العراقية» (٤٠) وروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ ولكن ضعفه كثير من أهل العلم وحسنه المناوي والسيوطي. انظر «التوكل» لابن أبي الدنيا تحقيق جاسم الفهيد (٦٠).

قال طائفة من العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مُقْتَضَى التوحيدِ والعقلِ والشرعِ»[١]. وهو الاعتماد على الله مع فعل الأسباب.

الالتفات للأسباب شرك	ومحوها جنون فهو إفك
ومعرض عن الأسباب قادح	في شرعنا إيّاه لا يصافح
وفعلك الأسباب والتوكلا	على الإله سنة أتتك فاعملا

وإليك البيان والتوضيح:

الالتفات للأسباب شرك في التوحيد، وذلك لاعتماده عليها واطمئنان قلبه إليها في جلب النفع ودفع الضر ظانًا أنها بذاتها محصلة للمقصود الذي يريده قال شيخ الإسلام: «الالتفات إلى الأسباب -وحدها- شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه»[٢].

ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا: أي نفي تأثير الأسباب، فقالوا: إن الله لم يجعل فيها قوى تؤثر فنفوا أن يكون في النار قوة الإحراق ونفوا أن يكون في السم قوة الإهلاك، وليس الشبع بالأكل ولا الري وإذهاب العطش بالماء وليس التوحيد سببًا لدخول الجنة ولا الشرك سببًا لدخول النار، وغير ذلك من الأسباب[٣].

وكونه نقصًا في العقل لأن إنكار الأسباب مخالف لما عليه جميع العقلاء بل جميع الأسوياء فلو قلت لطفل صغير أعطني شيئًا أقطع به اللحم لجاءك بالسكين ولو قلت

---

(١) «التحفة العراقية» (٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٥) وانظر إن شئت: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٥-٤٩٩).

لأحد أنضج لنا الطعام لأشعل النار ووضعه عليها ولو قلت لأحد إني جائع لأتاك بالطعام ولو قلت لأحد إني عطشان لأعطاك ماءً وهكذا.

أما الإعراض عن الأسباب: فهو تركها وعدم تعاطيها

كقول أبي سليمان الداراني: «لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط ولا جعلنا لباب الدار غلقًا مخافة اللصوص»(١).

قال ابن الجوزي: «لو قال رجل للصوفية: من أين أُطْعِمُ عيالي لقالوا: قد أشركت ولو سئل عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل»(٢).

وكونه قدحًا في الشرع لأن الله أمرنا بفعل الأسباب الشرعية ورتب على فعلها الثواب وعلى تركها العقاب.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] فأمرنا بالدعاء ووعدنا الاستجابة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣] أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة.

وأمرنا بالأسباب الحسية النافعة، مبطلًا ما يقوله المعرضون عن الأسباب، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]»(٣).

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٦).

(٢) «تلبيس إبليس» (٢٨٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ٤٤٩) كتاب «الحج»/ باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. رقم (١٥٢٣).

وقال أبو عبد الله -أحمد بن حنبل- لما سأله رجل قائلًا: «الرجل يدخل المفازة بغير زاد، فأنكره إنكارًا شديدًا، وقال: أف. أف. لا لا -ومد بها صوته- إلا بزاد ورفقاء وقافلة»(١). وقال صالح بن الإمام أحمد: «سئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون. قال: هؤلاء مبتدعة»(٢).

فالمنادون للإعراض عن الأسباب بدعوى التوكل قدحوا في الشرع من وجهين:

(١) أنهم خالفوا جميع الأدلة الدالة على فعل الأسباب وأبطلوها.

(٢) أن قولهم يدل دلالة واضحة على اتهام الشرع بالتناقض إذ زعموا أن التوكل على الله ينافي الأسباب كما قال ذو النون المصري معرفًا التوكل: «التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب»(٣).

وما علموا أنّ الذي أمر بالتوكل عليه هو الذي شرع فعل الأسباب وأمر باتخاذها. فلا تناقض بينهما لأن التوكل عمل القلب وفعل الأسباب عمل الجوارح.

وأما الاعتماد على الله مع فعل الأسباب فهو الذي عليه رسولنا عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان من أهل السنة والجماعة.

ويدل على الاعتماد على الله جميع الآيات والأحاديث الآمرة بالتوكل على الله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وأما فعل الأسباب فأدلته كثيرة لا تحصى إلا بكلفة ومنها:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[النساء:٧١] فأمر الله المؤمنين بأخذ الأسباب ومنها الحذر من الكفار.

---

(١) «الحث على التجارة» (١٣٧) رقم (٩٠).

(٢) «مسائل الإمام أحمد» برواية ابنه صالح (٢/ ٩) رقم (٥٩٢).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ١٠٤) رقم (١٢٩١)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال:٦٠] فأمر الله بأخذ أسباب النصر على الأعداء من قوة ومن رباط الخيل.

وأما سنته ﷺ فكثيرة جدًا ومنها أنه ظاهر بين درعين يوم أحد واستأجر دليلًا ليدله على طريق هجرته إلى المدينة ونهى عن دخول أرض الطاعون وأمر أبا هريرة أن يحرس الصدقة وأمر بلالًا أن يرقب لهم الصبح في أحد أسفاره ورغب في الزواج وغير ذلك كثير وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم.

وجمع النبي ﷺ بين التوكل وفعل الأسباب في أكثر من حديث ومن ذلك قوله ﷺ: «**لو أنَّكم توكلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»(١).

فجمع ﷺ بين الحث على التوكل والعمل وهو غدوها لطلب الرزق قال الإمام أحمد: «ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق»(٢).

وقال رجل للنبي ﷺ: أرسلُ ناقتي وأتوكَّل، قال: «**اعقلها وتوكل**»(٣). وفي لفظ: «**بل قيدها وتوكل**»(٤).

فجمع له النبي ﷺ بين فعل الأسباب وهو عقل الناقة والتوكل على الله في حفظها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٦٦-٦٧).

(٣) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٥١٠) رقم (٧٣١).

(٤) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٧٢٢)، وقال الذهبي: «سنده جيد»، وقال العراقي: «رواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد» تخريج الإحياء (٤/ ٢٧٩).

وهكذا فهم أصحابه ﷺ ومن ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ مر على قوم فقال: «من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون فقال: بل أنتم المتكلون -أي على أموال الناس- ألا أخبركم بالمتوكلين رجل ألقى حبه في بطن الأرض ثم توكل على ربه»(١).

قال ابن القيم: «فالتوكلُ من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها»(٢).

---

(١) «التوكل» لابن أبي الدنيا (٦١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

والرغبة.

....

الرغبة لغة: الراء والغين والباء أصلان أحدهما طلب لشيء والآخر سعة في شيء... والرغبة العطاء الكثير[١]. ويقال: رغب يرغب رغبة، إذا حَرَصَ على الشيء وطمع فيه.

ومنه أفضل العمل منح الرغاب، أي: الإبل الواسعة الدَّر الكثيرة النفع[٢].

واصطلاحًا: «سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[٣].

وقيل: الرغبة «إرادة الشيء مع الحرص عليه[٤]».

فالرغبة أخص من الرجاء، فالرجاء طمع والرغبة طلب فإن قوي الطمع صار طلبًا[٥].

ومما يدل على أن الرغبة طلب: حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال صلّى رسول الله ﷺ: «صلاة فأطالها» قالوا: يا رسول الله، صليت صلاة لم تكن تصليها، قال: «**أجل إنَّها صلاة رغبةٍ ورهبةٍ، إنِّي سألت الله فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدةً، سألته أن لا يهلك أمّتي بسنةٍ فأعطانيها، وسألتهُ أن لا يُسلِّط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعضٍ فمنعنيها**»[٦].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤١٥) مادة (رغب).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٣٦-٢٣٧)، وانظر: «اللسان» (١/ ٤٢٢) مادة (رغب).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الكليات» (٤٨٢).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٥-٥٦) بتصرف.

(٦) أحمد (٥/ ٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٧١-٤٧٢) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته. رقم (٢١٧٥)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب، وفي الباب عن سعد وابن عمر»، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٣) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون من الفتن. رقم (٣٩٥١) عن معاذ بن جبل س. قال=

فالنبي ﷺ حسَّن صلاته زيادة على العادة لأنه طلب بها شيئًا عظيمًا لأمته، لذا قال: «**صَلاة رغبة وَرَهْبَة**».

ولعلو مرتبة الرغبة مدح الله سبحانه تعالى بها أنبياءه ورسله فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

ولكونها من أعظم العبادات وأجلها أمر الله بصرفها له وحده لا شريك له فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩].

«فجعل الله الرغبة إليه وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره»(١).

وأرشد النبي ﷺ المسلم إلى تطهير القلب والبدن رغبة إلى الله وحده، لعله إن مات مات على التوحيد، فقال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصّلاة، ثمَّ اضطجع على شقك الأيمن، ثمُّ قل: اللهمَّ أسلمت وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللَّهُمَّ آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت، فإن متَّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنَّ آخر ما تتكلّم به**»(٢).

البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٧٠).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

والرهبة.

....

الرهبة لغة: الراء والهاء والباء أصلان أحدهما يدل على خوف[١].

قال الراغب الرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب. ومنه الرهبانية: وهي غلو في تحمل التعبد من فرْط الرهبة[٢].

فهي أخص من الخوف، فالخوف هرب من المكروه وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه[٣].

وفي الاصطلاح: «هي الخوف الدائم في القلب»[٤].

ولكون الرهبة عبادةً عظيمة أَمَرَ الله عباده أن يرهبوه سبحانه وحده لا شريك له فقال: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[النحل:٥١] وتقديم ما حقه التأخير (إياي) يفيد الحصر أي حصر الرهبة منه سبحانه وحده.

وجمع لراهبيه الهدى والرحمة، فقال: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤]. وذلك لأن أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو رهبته وحده.

ولعلو منزلة الرهبة عند الله، أثنى على سادات الأولياء برهبتهم منه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٤٧) مادة (رهب).

(٢) «المفردات» (٢١٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥٥) رقم (١٦٨). وبهذا عرفها الحسن.

وكان النبي ﷺ يدعو ربه أن يوصله تلك المرتبة، فيقول: «**ربِّ أعنّي ولا تعنْ عليّ، وانصرني ولا تنصُر عليّ، وامكر لي ولا تمكُر عليّ، واهدني ويسِّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، ربِّ اجعلني لك شاكرًا لك ذاكرًا لك راهبًا لك مُطيعًا، إليك مخبتًا، إليكَ أواهًا مُنيبًا، ربِّ تقبّل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدِّد لساني، وثبّت حُجّتي، واسلل سخيمة قلبي**». قال أبو الحسن الطنافسي: قلت لوكيع: أقوله في قنوت الوتر؟ قال: نعم»(١) وفي هذا دليل على أنها مرتبة عالية ترنو لها القلوب الحية. فهي عبادة من أَجَلِّ العبادات يجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له ولذلك وصف الله من يرهب غيره أَشَدَّ من رهبته منه بالجهل وعدم الفقه ومعرفة حقائق الأشياء، فقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[الحشر:١٣].

---

(١) أحمد (١/ ٢٢٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩) كتاب «الدعاء»/ باب دعاء رسول الله ﷺ. رقم (٣٨٣٠) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٥٥٤)، كتاب «الدعوات»/ باب دعاء النبي ﷺ. رقم (٣٥٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٢/ ١٧٥-١٧٦)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول الرجل إذا سلم. رقم (١٥١٠)، و«شرح السنة» للبغوي (٥/ ١٧٦) رقم (١٣٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال ابن القيم: «هذا حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٤٠٤).

والخشوع.

....

الخشوع في اللغة: الذلّ والسكون والانخفاض والتطامن.

قال أبو زيد: خشعت الشمس وكسفت بمعنى واحد. وقال أبو صالح الكلابي، خشوع الكواكب إذا غارت فكادت تغيب في مغيبها وخشوع سنام البعير: إذا أنضى فذهب شحمه وتطأطأ شرفه[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[طه:١٠٨] أي سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع.

ومنه: خشوع الأرض ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[فصلت:٣٩].

«فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز والاهتزاز حركة، وتربو والربو الارتفاع، فعلم أن الخشوع فيه سكون وانخفاض»[2].

وفي الاصطلاح: خضوع القلب ومسكنته لله منقادًا ذالًّا لأمره وقضائه.

فيكون الخشوع معنىً يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار[3].

محل الخشوع:

أجمع أهل العلم على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح[4].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ١٥١-١٥٢)، «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٢) مادة (خشع).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١-٥٢٢).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

قـــال تعـــالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[الحديد:١٦].

﴿تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾: أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له»[١].

قال علي بن أبي طالب: «الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك»[٢]، وبمثله قال النخعي وقتادة وغيرهم[٣].

وأما أن ثمرته على الجوارح فلأنها تتأثر به صلاحًا وفسادًا وخشوعًا وخوفًا، قال ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»[٤].

ومما يدل على أن خشوع الجوارح تبع لخشوع القلب ووجله قوله سبحانه: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾[النازعات:٨-١٠].

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾[طه:١٠٨].

فلما وجلت القلوب وخافت وذلت وخضعت تبعتها الجوارح فخشع البصر وخشع الصوت.

فـ «الخشوع يتضمن معنيين: (أحدهما) التواضع والتذلل (والثاني) السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٨).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٤٠٣) رقم (١١٤٨)، و«الزهد» لوكيع (٢/ ٥٩٩) رقم (٣٢٨)، وانظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١/ ١٨٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٥-٥٥٦).

(٤) سبق تخريجه.

وطمأنينته أيضًا... وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب»[(١)].

قال ابن رجب: «وأصل الخشوع هو لينُ القلب ورقَّتُه وسكونُه وخضوعه وانكساره وحرقته فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له»[(٢)].

وقال القرطبي: «إن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقًا متأدبًا متذللًا»[(٣)].

علامة الخشوع:

علامة الخشوع «أنَّ العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد»[(٤)].

حكم خشوع القلب: «خشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب»[(٥)].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فدعا الله عباده إلى الخشوع وأمرهم به وحذرهم من ضده فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد:١٦] فقسوة القلب من أبرز صفات أهل الكتاب وذلك لفسقهم وبعدهم عن طاعة الله تعالى. **ففي هذه الآية دليل على وجوب الخشوع من وجهين:**

١- عتاب الله المؤمنين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد:١٦].

٢- أن في قسوة القلوب مشابهةً لليهود والنصارى، ومشابهةُ اليهود والنصارى جريمةٌ منكرة، وذنب عظيم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨-٢٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (١٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩).

درجات الخشوع:

الخشوع على درجات ثلاث هي:

١- التذلل لأمر الله والاستسلام لحكمه: ومعنى التذلل للأمر أي تلقيه بالقبول والانقياد والامتثال ظاهرًا وباطنًا مع إظهار العبد ضعفه وفقره وحاجته إلى ربه وهدايته وإعانته على فعله، قال سهل بن عبدالله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة هو الخوف من الله تعالى»[١].

وهذا يجعله يستسلم لحكم الله الديني الشرعي فلا يعارضه برأي أو شهوة، ويستسلم لحكمه القدري فيقابله بالصبر والرضا ولا يتلقاه بالتسخط والاعتراض ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقال ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[٢].

وقال ﷺ: «**إنَّما الصَّبر عند الصدمة الأولى**»[٣]، ولا يصبر إلا إذا استسلم لحكم الله.

٢- مراقبة آفات النفس ورؤية فضل كل ذي فضل عليك:

وذلك بالنظر في عيوب النفس من الكبر والعُجْب والغرور والرياء وضعف الإخلاص وقلة اليقين، وغير ذلك من عيوبها واتهامها دائمًا بالتقصير وضعف العمل وكثرة الذنوب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦٣) كتاب «الجنائز»/ باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم (١/ ٩٩) كتاب «الإيمان»/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية. رقم (١٠٣).

(٣) سبق تخريجه.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لو كان للذنوب رائحة ما جلستم عندي». وقال محمد بن واسع: «لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني»[١].

وقال أبو العتاهية:

نح على نفسك يا مسكين إنْ كنت تنوح لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح فإذا المستور منا بين جنبيه فَضُوح

وعندما سئل الإمام أحمد: «أطلبت العلم لله، قال: أما لله فعزيز».

وذلك أن «النظر في عيوب النفس يجعل القلب خاشعًا لا محالة»[٢].

وأما رؤية الفضل فأعلى فضل هو فضل الله علينا، فجميع النعم التي نتقلب فيها هي محض فضل الله علينا بداية من خلقنا، ثم هدايتنا إلى هذا الدين. قال أهل الجنة معترفين بفضل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣] فهو المانُّ بها سبحانه بلا سبب من العبد.

وأما في تعامله مع الخلق، فإن الخاشع لا يرى له على غيره فضلًا، قال بكر بن عبدالله المزني: «إني لأخرج من بيتي فما ألقى أحدًا إلا رأيت له الفضل عليّ، لأني من نفسي على يقين، أما من الناس في شك»[٣].

وقال: «إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا خيرٌ مِنِّي سبقني إلى الجنة، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: هذا خير مني سبقته إلى الذنوب، وإذا رأيت أصحابك يجلونك فقال: هذا كرم منهم لا أستحقه، وإذا رأيت منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته»[٤].

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (٢١٨).

(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٦)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٨).

قال شيخ الإسلام: «العارف لا يرى له على أحد حقًا ولا يشهد له على غيره فضلًا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»(١) وقال ابن القيم: «وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك»(٢).

٣- ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال:

قد يعجب بعض الناس بعمله فيظن أن له فضلًا وإحسانًا حتى قد يصل به الأمر أن يمن بذلك على الله، ومن كان كذلك فقد أصيبت مقاتله ولما منّ قوم في عهد رسول الله ﷺ عليه بإسلامهم أنزل الله قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الحجرات:١٤]. وهذا خلل كبير سببه فقد الخشوع أو ضعفه.

فالخاشع الموفق هو الذي يضبط نفسه بالاستمرار والمداومة على استشعار الذل والفاقة والانكسار بين يدي الله عز وجل حتى عند نشوة النصر، فها هو نبينا ﷺ دخل مكة فاتحًا منتصرًا قد أعزه الله على عدوه دخلها حين دخلها متواضعًا متخشعًا متذللًا لله تعالى مطأطئًا رأسه حتى إنه ليكاد رأسه يمس مورك رحله.

وهكذا أتباعه من بعده:

كما قال عمر رضي الله عنه: «وددت أني خرجت كفافًا، لا لي، ولا عليّ»(٣).

وعندما ألف البخاري كتابه «الصحيح» ذكر أول حديث فيه: «**إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكُلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها؛ فهجرته**

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

إلى ما هاجر إليه»[(١)]، فترك أول الحديث لئلا يزكي نفسه.

ولما قال رجل للإمام أحمد: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا ثم قال: «ومن أنا؟ وما أنا»[(٢)].

وكان شيخ الإسلام إذا أثني عليه في وجهه يقول: «والله إني إلى الآن أجدِّدُ إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

ومن شعره الذي كتبه في آخره عمره (وهو محبوس بالقلعة):

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي
وهذ الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عَبْدٌ له آتي[(٣)]

منزلة الخشوع وأهميته:

الخشوع عبادة عظيمة منبعها من القلب وتفيض وتظهر على الجوارح، ولذلك خص به النبي ﷺ ربه فكان من دعائه في ركوعه: «**اللهمَّ لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٧٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٥) و«العقود الدرية» (٢٥٠).

(٤) مسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥) كتاب «صلاة المسافرين»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧١).

وبما يبين منزلة الخشوع وأهميته ما يلي:

١) أن الخشوع صفةُ الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم: أثنى الله عليهم ومدحهم به. فقال سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

وهو حال أكملهم نبينا ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنهما حال خروجه لصلاة الاستسقاء، فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعًا متبذلًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا»(١).

والتخشع لله: هو الإخبات والتذلل(٢).

وأثنى على أهل العلم بخصوصهم بالخشوع عند سماعهم لكلامه فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩]. بل ذكره الله وصفًا عامًا لأتباع الرسل من عباده الصالحين الذين أعدّ لهم المغفرة والنعيم المقيم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥].

٢) الأمر به بصيغة عتاب من لم يخشع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:١٦].

---

(١) الترمذي (٢/ ٤٤٥)، كتاب «أبواب الصلاة»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (٥٥٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١٥٦) كتاب «الاستسقاء»/ باب الحال التي يستحب للإمام أن يكون عليها إذا خرج، وأبو داود (١/ ٦٨٨-٦٨٩)، كتاب «الصلاة»/ باب جماع أبواب صلاة الاستسقاء. رقم (١١٦١)، وابن ماجه (١/ ٤٠٣)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (١٢٦٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١/ ١٥٢).

أي أما آن للمؤمنين أن تلين قلوبهم لذكر الله، وتنقاد له، قال ابن مسعود ﵁: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»(١).

٣) عظيم ثمراته:

للخشوع ثمرات عظيمة منها:

أ) الرفعة في الدنيا والآخرة:

قال ابن مسعود ﵁: «من تواضع لله تخشعًا رفعه الله يوم القيامة»(٢) وقال ابن القيم: «وقد اقتضت حكمته أنَّ خِلَعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾[القصص٥-٦](٣).

ب) يسر العبادات وسهولتها:

قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[البقرة:٤٥].

ج) حماية العبد من الشيطان:

قال سهل بن عبدالله: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان»(٤)، «فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي خشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتًا له»(٥).

---

(١) مسلم (٤/ ٢٣١٩)، كتاب «التفسير»/ باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]. رقم (٣٠٢٧).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٤٧٨).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢).

(٥) «الروح» (٢٣٢).

٤) شموليته للقلب والجوارح:

لما كان الخشوع أصله في القلب ويظهر على الجوارح، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح ظهر من ذلك شموليته لهما معًا.

قال سهل: «لا يكون خاشعًا حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر:٢٣]»[١].

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه:١٠٨].

ووصف تعالى خشوع الأبصار بقوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[القلم:٤٣] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾[النازعات:٨-٩].

وتقرب النبي ﷺ إلى ربه بخشوع أعضائه له سبحانه فكان يقول في ركوعه: «**اللهم لك ركعت، وبك آمنت، خشع لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي**»[٢].

ومدح الله عباده الصالحين بظهور الخشوع على وجوههم فقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح:٢٩].

قال قيس بن عباد واصفًا عبدالله بن سلام: «فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع»[٣].

قال مجاهد مبينًا ما المقصود بسيماهم في هذه الآية: «ليس بهذا الأثر الذي في الوجه ولكنه الخشوع والتواضع»[٤].

قال ابن رجب: «إذا خشع القلب فإنه يسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ عن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٢٩) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مناقب عبدالله بن سلام رضي الله عنه. رقم (٣٨١٣).

(٤) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٩٨).

اتباع الهوى وينكسر ويخضع لله عزوجل فيزول بذلك ما كان فيه من الترفع والتعاظم والتكبر ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت»(١) ويدرك خشوع القلب «بسكون الجوارح إذ الظاهر عنوان الباطن»(٢).

٥) ترتب الفلاح عليه:

مدح الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عباداتهم لترتب فلاحهم عليه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢].

٦) التحذير من فقده:

تَخَوَّف النبي ﷺ على أمته من فقد الخشوع وما ذلك إلا لسرعة فقده لقلة من يتعلمه فهو أول علم يرفع من هذه الأمة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «**هذا أوان يختلس العلم من النّاس، حتّى لا يقدروا منه على شيءٍ**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنّه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التّوراة والإنجيل عند اليهود والنّصارى، فماذا تُغني عنهم**». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء؟ قال: صدق أبو الدرداء إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»(٣).

---

(١) «الذل والانكسار» (٣٧).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٢٢٦).

(٣) الترمذي (٥/ ٣١-٣٢) كتاب «العلم»/ باب ما جاء في ذهاب العلم. رقم (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والدارمي في «سننه» (١/ ٨٤) «المقدمة»/ باب من قال: العلم الخشية وتقوى =

وفي رواية عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ نظر إلى السماء يومًا فقال: «**هذا أوان يرفع العلم**»، فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله كيف يرفع وقد أثبت ووعته القلوب؟ فقال له النبي ﷺ: «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة**»، ثم ذكر له ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله، قال فلقيت شداد بن أوس بحديث عوف فقال: ألا أخبرك بأَوَّلِ ذلك يرفع؟ فقلت بلى. قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعًا»[(١)].

ولكي نحذر ونخاف من فقده حذرنا ربنا من حال أهل الكتاب قبلنا فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[الحديد:١٦].

«أي لا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزله الله ولا ينبغي الغفلة فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين»[(٢)].

الله. رقم (٢٨٨)، والحاكم في «المستدك» (١/ ٧٩)، وقال: «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين». وله شاهد من حديث زياد بن لبيد عند أحمد (٤/ ١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٤)، كتاب «الفتن»/ باب ذهاب القرآن والعلم. رقم (٤٠٤٨). قال القرطبي: «إسناده صحيح». «التذكرة» (٢/ ٥١١)، وقال ابن كثير: «هذا إسناد صحيح». «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٨).

(١) أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١٠٥-١٠٦) رقم (٣٣٧-٣٣٩)، واللفظ له. والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٣٩٢) رقم (٥٨٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ٤٣٣) رقم (٤٥٧٢). قال القرطبي: «حديث حسن». «التذكرة» (٢/ ٥١٠)، وقال ابن مفلح بعد ذكره لحديث أبي الدرداء، وعوف بن مالك: «هذان حديثان جيدا الإسناد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٦٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٤٠).

أنواع الخشوع:

ينقسم الخشوع إلى ثلاثة أقسام هي:

الأول: الخشوع التوحيديّ العباديّ:

وهو الذُّل والتطامن والخضوع واستشعار الفقر والحاجة لله وحده لا شريك له.

قال تعالى حاثًّا عباده على الخشوع له سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد:١٦].

وضرب المثل لعباده بخشوع الصم الصلاب لكلامه سبحانه فكيف تكون قلوبهم أقسى منها، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١]. فمن تفكر قاده ذلك التفكر إلى الخشوع والذل لله سبحانه.

وأثنى على رسله بالخشوع له وحده فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

ومدح المؤمنين بخشوعهم له وحده فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢].

«أفلحوا وفازوا ونالوا البغية وأحرزوا البقاء الدائم بخشوعهم في الصلاة لاستشعار قلوبهم هيبة الموقف في الصلاة بين يدي الله وخشوعهم فيها وتذللهم لله فيها بطاعته وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها»(١).

ومدح الصالحين من أهل الكتاب بإفرادهم الخشوع له فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[آل عمران:١٩٩].

---

(١) «جامع البيان» (١٦/ ٣٤٩-٣٥٠).

﴿خَٰشِعِينَ﴾: «أي خاضعين لله بالطاعة مستكينين له بها متذللين»[١].

وكان الخشوع التوحيدي العبادي لله سمة رسول الله ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنه عند خروجه لصلاة الاستسقاء فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعًا متبذلًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا»[٢] هذه صفة خروجه لصلاة الاستسقاء.

أما في يوم عرفة في الموقف العظيم فخشوعه من أعجب العجب، قال ابن عباس: «رأيت رسول الله ﷺ بعرفة يدعو ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين»[٣]. ووصفه جرير رضي الله عنه بقوله: «رأيت رسول الله ﷺ واقفًا بعرفة متأبطًا رداءه رافعًا يديه لا يجاوزان رأسه وعضلتاه ترعدان»[٤].

الثاني: الخشوع الشركي الكفري:

وهو خشوع العبد لغير الله كخشوع بعض الناس لأصحاب القبور وذلهم لهم وانكسارهم أمام قبورهم تقرُّبًا إليهم ورجاءً لما عندهم كما يزعمون وخوفًا منهم كما يتوهمون.

ومن ذلك ما حكاه عبد الله بن محمد بن خميس عن مشاهداته قائلًا: «لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق، فوجدت فئامًا من الناس يغدون إليه ويروحون... وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه، وتنادي: أغثني يا محيي الدين... وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن ويتضرعن»[٥].

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٣٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «أخبار مكة» (٤/ ٣٢٠) رقم (٢٧٥٦)، و«المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٩) رقم (٢٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ١٩٠) رقم (٩٤٧٤).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٣٣٢) رقم (٢٣٨٦).

(٥) «شهر في دمشق» (٦٤-٦٥) نقلًا عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (١/ ٣٢٩).

وهذا النوع من الخشوع يلقي صاحبه في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية:٢-٤] أي ذليلة خاضعة لا ينفعها ذلها وخضوعها وتعبها بل يضرها فبسببه تصلى النار عقوبة لها على خشوعها لغير الله.

الثالث: الخشوع النفاقي:

وهو ما يسميه السلف خشوع النفاق وهو خشوع الجسد دون خشوع القلب فيتكلف خشوعَ جوارحه وإسكانُها وقلبُه عارٍ من الخشوع. فظاهر جسده شيء وباطنه وقلبه شيء آخر.

ويصوره ابن القيم فيقول: «وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عبد تكلف إسكان الجوارح تصنعًا ومراعاةً، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة»[(١)]. وهذا النوع من الخشوع أكثر ما يخاف منه على العباد والقراء.

وسببه حرمان الخشوع الحقيقي، وذلك أن من حرم الخشوع الحقيقي الإيماني الشرعي ابتلي بأمرين أو أحدهما.

وهما:

١- قسوة القلب:

قسوة القلب من الأمراض العظيمة، فصاحبه لا يرعوي لزاجر ولا يأتمر بأمر ولا ينتهي عن عصيان. ولو سمع كلام الله ما تأثر. فقلبه أقسى من الحجر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:٧٤].

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾: أي اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة حتى صار من غلظها أنها أشد قسوة من الحجارة علمًا أنّ الحجارة أشدُّ قسوة من الحديد لأن الحديد والرصاص إذا

(١) «الروح» (٢/ ٦٩٥).

أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار. فما أعظم قسوة هذه القلوب! وما أقبح هذه الصفة! ولقبحها تعوّذ النبي ﷺ منها فقال: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها**»(١).

جمع ﷺ بين هذه الأمور الأربع؛ لأن عدم خشوع القلب دليل على أن علمه لم ينفعه؛ لأنه علم لسان وليس علم قلب، فنفسه جشعة منهومة بالدنيا فتفكيره فيها وحبه لها وبغضه لها، وربما جمع المال من غير حِلِّه فلذلك لا تستجاب دعوته لما يوجد من الصوارف عن إجابتها.

قال عبدالأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علمًا ينفعه لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(٢) [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقسوة القلب من أعظم عقوبات الذنوب، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾[المائدة:١٣].

«أي غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرًا»(٣).

بل يقع فيها عكس ذلك فهي تستجيب لإلقاء الشيطان وتسويله السوء، قال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج:٥٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٥)، «المقدمة»/ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله. رقم (٢٩١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٢٥).

فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله ولهذا قال الله سبحانه بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[الحج:٥٣].

فبذلك استحقوا وعيد الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر:٢٢].

٢- خشوع النفاق:

مَنْ حُرِمَ خشوع القلب ابتلي بقسوته، ثم استهواه الشيطان، فزيَّن له خشوع النفاق، فأظهر للناس الخشوع تكلفًا وتصنعًا وليس في قلبه من ذلك شيء.

ولخطورته على المصلين العابدين حذّر منه السلف أيما تحذير قال حذيفة رضي الله عنه: «إياكم وخشوع النفاق، فقيل له وما خشوع النفاق، قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع»[(١)].

وبمثله قال أبو الدرداء إلا أنه قال: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق...»[(٢)]. وبنحوه عن أبي هريرة[(٣)]، أما سفيان الثوري فقال: «إياك وخشوع النفاق، وأن تظهر على وجهك خشوعًا ليس في قلبك»[(٤)].

وكان أهل الخير والاستقامة يكرهونه أشد الكره، كما قال الفضيل بن عياض: «كان يكره أَنْ يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ مما في قلبه»[(٥)].

وكما كانوا يحذِّرُون منه كانوا أيضًا يَحْذَرُونه على أنفسهم فيتعوذون بالله منه فها هو

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٧٦) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٤/ ٩٥).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (٤٦)، و«شرح السنة» (١٤/ ٣٢٧).

(٤) «حلية الأولياء» (٧/ ٤٨).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ من خشوع النفاق[١] وكذلك سفيان الثوري[٢]، وغيرهم رحمهم الله.

الأسباب الجالبة للخشوع:

عندما يحس المسلم بقسوة قلبه يتألم، فيتساءل: هل بالإمكان إزالة هذه القسوة، فيلتفت يمنة ويسرة، فلا يجد، فيتوجه صوب كتاب الله، فيجد النور هناك، فيتبعه، فيحيا قلبه، وتلين قسوته: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[الحديد:١٧].

قال ابن كثير: «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحيي الأرض المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة»[٣].

ومن الأسباب الجالبة للخشوع ما يلي:

١) معرفة الله تعالى واستشعار رؤيته:

من كان بالله أعرف كان منه أخوف وله أخشع فإن العلم بالله يثمر للعبد الخشوع ولقد قال سيد الخائفين من الله والخاشعين له: «**والله إِنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»[٤].

فلقوة علمه بالله صار هو أخشع الخلق لله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾[النازعات:٤٠].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٢٥).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٣٦٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٩).

(٤) مسلم (٢/ ٧٨١) كتاب «الصيام»/ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

«وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له كان أشدَّ خشوعًا وإنما يفارق -الخشوع- القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه»(١).

«وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشع.

وتتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

فمن خاشع لقوة مطالعته قرب الله من عبده واطلاعه على سِرِّه وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى ومراقبته في الحركات والسكنات ومن خاشع لمطالعته لجلال الله وعظمته وكبريائه المقتضي لهيبته ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته ومن خاشعٍ لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه»(٢).

٢- قراءة القرآن وسماعه:

للقرآن أثر بالغ على إزالة قسوة القلوب وتليينها: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٣].

«ولين القلوب هو زوال قسوتها بحدوث الخشوع فيها»(٣).

قال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدنه من الذكر»(٤).

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «الذل والانكسار» (٣٩).

(٣) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (٣٢٦).

٣- طلب العلم:

طلب العلم النافع لا بُدَّ أن يورث القلب الخشية والخشوع.

قال الحسن: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره، وبرِّه»[(١)].

وقال ابن رجب: «فالعلم النافع هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار»[(٢)].

فمن لم يورثه العلم خشية وخشوعًا، فليعلم أن هناك صارفًا منعه، فليراجع نفسه.

٤- مطالعة عيوب النفس:

مطالعة عيوب النفس توجب للعبد خوفه من ربه وحياءه منه فيذل له ويخشع له.

---

(١) المرجع السابق (٣١٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (٢٥).

والخشية.

....

الخشية لغة: الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر.. ويقال هذا المكان أخشى من ذلك: أي أشد خوفًا[(١)].

وفي الاصطلاح: خوفٌ يشوبه تعظيم.

وإنما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص الله العلماء بها وحصرها فيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(٢)] [فاطر:٢٨].

قال ابن رجب عند قوله تعالى: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ دلت هذه الآية على إثبات الخشية للعلماء بالاتفاق وعلى نفيها عن غيرهم على أصح القولين، فإن صيغة «إنما» تقتضي تأكد ثبوت المذكور بالاتفاق لأن خصوصية إنّ إفادة التأكيد. وهذه الآية كقوله: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[إبراهيم:٥٢]، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[طه:٩٨].

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء. فنفى الخشية عمّن ليس من العلماء، وأثبتها للعلماء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)] [الزمر:٩].

فمن كان بالله أعرف كان له أشد خشية وتعظيمًا، فأخشى الناس على الإطلاق هو رسولنا ﷺ لكمال علمه بالله ومعرفته به وبصفاته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئًا فرخّص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «**ما بال**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٤-١٨٥) مادة (خشى).

(٢) «المفردات» (١٥٥) بشيء من التصرف.

(٣) إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨-٤٧)، كل هذه الصفحات في بيان حصر الخشية في العلماء.

أقوامٍ يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنِّي لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[(١)].

فتبين بذلك أن الخشية أخصُّ من الخوف، ولأجل ذلك فسر ﷺ أعلى مراتب الدين بها عندما سئل عن الإحسان. فقال: «**أن تخشى اللهَ كأنك تراهُ**»[(٢)].

وخص عبد الله بن مسعود رضي الله عنه العلم بها، فقال: «كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار به جهلًا»[(٣)].

وحصر الشعبي العلم بها فقال لما قال له رجل: أيها العالم، فقال: «إنما العالم مَنْ يخشى الله»[(٤)].

وجعلها الفضيل بن عياض علامة الفقيهِ الفارقَةَ له عن غيره، فقال: «إنما الفقيهُ الذي أنطقته الخشية، وأسكتته الخشية، إن قال قال بالكتاب والسنة، وإن سكت سكت بالكتاب والسنة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده، ورده إلى عالمه»[(٥)].

قال ابن القيم: فالخشية أخص من الخوف فإنها للعلماء فهي خوف مقرون بمعرفة فالخوف حركة، والخشية: انجماع وانقباض وسكون، ثم وضح ذلك بالمثال فقال: مثاله: العدو والسيل عندما يراهما الإنسان **فله حالتان:**

١. حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

٢. سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية. فصاحب الخوف يلتجئ

---

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥١٣) كتاب «الأدب»/ باب ما لم يواجه الناس بالعتاب. رقم (٦١٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩) كتاب «الفضائل»/ باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته. رقم (٢٣٥٦).

(٢) مسلم (١/ ٤٠) كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٧٨).

(٥) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٥٠).

إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم ومثلهما مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية(١).

أهمية الخشية وعظيم منزلتها:

خشية الله عمل عظيم من أعمال القلوب كان النبي ﷺ يسألها ربه، فيقول: «**وأسألك خشيتك في الغيب والشّهادة**»(٢)، وتتجلى أهميتها بما يلي:

(١) الثناء على أهلها:

مدح الله تعالى رسله الكرام بها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[الأحزاب:٣٩].

وأثنى على أتباعهم بإفرادهم إياه بها فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[التوبة:١٨].

فأتى بالنفي والإثبات الذي يفيد الحصر والقصر فقال: ولم يخش إلا الله.

وأثنى على ملائكته بها فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨].

(٢) الأمر بصرفها له وحده:

أنكر الله سبحانه على من صرف الخشية لغيره، فقال: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ ثم بين أن الخشية

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٢) سبق تخريجه.

حقه وحده، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ وجعلها شرطًا في صحة الإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[التوبة:١٣]، فدل على أن من فقد خشية الله، أو صرفها لغيره، فقد فَقد الإيمان.

(٣) مغفرة الله لمن خَشِيَهُ بالغيب:

يظهر صدق الخشية عندما تكون بالغيب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[الملك:١٢] وذلك أن من يخشى الله بالغيب أي في الحالة التي لا يطلع عليه فيها إلا الله فقد صدق في خشيته لله، لعدم وجود من يرائيه، أو يخشاه من المخلوقات، ومن خشي الله بالغيب فهو في المشاهدة أحرى وأولى، فأُعطي بذلك أمران عظيمان هما المغفرة والأجر الكبير.

(٤) منع العبد من ارتكاب الذنوب:

الخشية تمنع العبد وتحجزه عن ارتكاب الذنوب والخطيئات كما في قصة النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ومنهم الذي أراد أن يزني بابنة عمه التي هي من أحب الناس إليه، فلما خوفته بالله تركها خشية الله قال في دعائه: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا»[(١)]، قال سعيد بن جبير: «الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية»[(٢)].

(٥) الإعانة على فعل الطاعات:

كما أن الخشية مانعة من ارتكاب الآثام فهي من أكبر ما يعين على فعل الطاعات قال عبيد الله بن أبي جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله عز وجل»[(٣)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٥-٥٠٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث الغار. رقم (٣٤٦٥).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٥) رقم (١٣٨)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩).

(٦) محبة الله لها ولآثارها:

ولعظم الخشية عند الله؛ فإنه يحبها بل يحب أثرها كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس شيءٌ أحبُّ إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموعٍ من خشية الله، وقطرة دمٍ تُهْراق في سبيلِ الله. وأما الأثران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثر فريضة من فرائض الله**»[(١)].

ولم يحب الله الدمعة من خشيته إلا لعظم منزلتها عنده، واستوعب ذلك عمرو بن العاص، فقال: «لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار»[(٢)].

ومما سبق نعلم أن الخوف والرهبة والخشية مراتب.

فالمرتبة الأولى: الخوف

والمرتبة الثانية: الرهبة.

والمرتبة الثالثة وهي أعلاها: الخشية.

فكل خاشٍ راهب خائف وليس كلُّ خائف راهب خاشياً.

ومن جميل الترتيب ذكر الإنابة بعد الخشية لأن الذي يخشى الله لابد أن يخاف عقابه فينيب إليه.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٣١-٣٣].

---

(١) الترمذي (٤/ ١٩٠)، كتاب «فضائل الجهاد»/ باب ما جاء في فضل المرابط. رقم (١٦٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، و«المعجم الكبير» للطبراني (٨/ ٢٣٥) رقم (٧٩١٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٠).

والإنابة.

....

والإنابة في اللغة: مأخوذة من النَّوْب وهو رجوع الشيء مرّة بعد أخرى ومنه سميت النحل نُوْبًا لرجوعها إلى مقارها[١].

وفي الاصطلاح: انصرافُ دواعي القلب وجواذبه إلى الله بعكوفه عليه محبة وتعظيمًا وخضوعًا.

وينبغي أن يُعْلَمَ أن عكوف القلب يثمر عكوف الجوارح على الطاعات.

وهذه الإنابة هي: إنابة أولياء الله لألوهيته فهي إنابة عبودية ومحبة متضمنة لأمور أربعة هي:

١-محبته.

٢- الخضوع له.

٣- الإقبال عليه.

٤- الإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك[٢].

درجات المنيبين:

المنيبون إلى الله تعالى على درجات متفاوتة بعضهم أعلى من بعض.

---

(١) «المفردات» (٥٠٩) وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٣٦٧) مادة (نوب).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

وهذه الدرجات هي:

١) المنيب إلى الله بالرجوع من المخالفات والمعاصي «مصدرها مطالعة الوعيد».

٢) المنيب إلى الله بفعل الطاعات والقربات «مصدرها مطالعة الوعد».

٣) المنيب إلى الله بالتضرع والافتقار والدعاء وسؤال الحاجات «مصدرها شهود فضل الله ومنته وكرمه وغناه وقدرته».

٤) المنيب إلى الله بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجوارحه «مصدرها شدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى الله».

فإنابة الروح بجملتها هي أعلى درجات المنيبين وأرفعها، وذلك أنها لما أنابت إلى الله دخلت كلَّ مَفْصِل وعِرْق، فأنابت بذلك جميع قوى الإنسان وجوارحه[1].

أنواع الإنابة:

تنقسم الإنابة إلى قسمين:

الأول: الإنابة الشرعية العبادية التوحيدية:

وهي الإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له وهي التي أمر الله بها جميع الناس بقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[الزمر:٥٤].

ثم بين أنها هي الواقية من عذابه فقال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر:٥٤].

وحصر قدوتنا ﷺ الإنابة إليه تعالى فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر كما قال الله عنه إنه قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[الشورى:١٠].

وفي دعائه ﷺ إذا قام يتهجد من الليل: «**اللَّهُمَّ لك الحمد أنت قيُّوم السَّماوات**

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١٧٣-١٧٤).

والأرض ومن فيهنَّ... اللَّهُمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبتُ...»[(١)].

بل جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام إبراهيم عليه السلام ومن معه حصروا إنابتهم إلى الله وحده، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الممتحنة:٤].

فمن أكثر التوبة لله صار من المنيبين كفعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والله لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[(٢)].

وقال ابن عمر رضي الله عنه: إنْ كنا لنعدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرةٍ: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»[(٣)].

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثَرَ أَنْ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[(٤)].

---

(١) البخاري (٢/ ٦٠) كتاب «التهجد»/ باب التهجد بالليل. رقم (١١٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦) كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧١٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠١)، كتاب «الدعوات»/ باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة. رقم (٦٣٠٧).

(٣) الترمذي (٥/ ٤٩٤-٤٩٥)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا قام من المجلس. رقم (٣٤٣٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأبو داود (٢/ ١٧٨)، كتاب «الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥١٦) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٣)، كتاب «الأدب»/ باب الاستغفار. رقم (٣٨١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٢) رقم (٦١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٧١-٧٢) رقم (١٢٨٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٠) رقم (٤٥٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٢) رقم (٣٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٠٧) رقم (٩٢٨).

فمن شعر بكثرة ذنوبه وخطورتها عليه وعلم عِلم قلب بعفو الله ومغفرته وفرحه بتوبة عبده إليه قاده ذلك إلى كثرة الإنابة إليه والرجوع إليه فيفر منه إليه وحده.

الثاني: الإنابة الشركية الكفرية:

وهي الإنابة إلى غير الله فيما هو من أمور الشرع والدين.

كما يفعله كثير من مريدي الشيوخ الذين إذا ارتكبوا الذنوب والعصيان جاؤوا إلى شيوخهم فاعترفوا عندهم وذلوا وخضعوا لهم زاعمين بجهلهم أنهم مذنبون ولا يستطيعون أن يدعوا الله مباشرة أو يتوبوا إلى الله مباشرة وإنما يتوبون إلى الشيخ فإذا قبل الشيخ توبتهم وإنابتهم رفعها الشيخ إلى الله فتاب الله عليهم وقبل منهم زعموا.

أهمية الإنابة وعلو منزلتها:

مما يدل على أهمية الإنابة وعلو شأنها ومنزلتها ما يلي:

١) أن الله أثنى على رسله بها فقال عن خليله عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود:٧٥].

«والمنيب إلى الله: هو المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه»[(١)].

فأناب عليه السلام بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجسده وجوارحه إلى الله تعالى وعكف قلبه على ربه فصار يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله.

فمن حرم هذا العكوف «فلم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان حظُّه العكوفَ على الربِّ الجليل»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

(٢) «الفوائد» (٣٣٩).

ومدح الله داود عليه السلام بالإنابة فقال: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[ص:٢٤].

ومثله سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[ص:٣٤].

٢- الوقاية من العذاب. قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[الزمر:٥٤].

فأمر بالإنابة إليه لأنها هي الواقية من العذاب.

٣- البشرى للمنيبين: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[الزمر:١٧].

لهم البشرى التي لا يقادِرُ قدرَها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم الله بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي قبورهم ويوم القيامة ويتوجون بتلك البشارة وهي رضوان الله عليهم فلا يسخط عليهم أبدًا[1].

٤- الانتفاع والذكرى بما يرى من الآيات: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[سبأ:٩].

وذلك لأن المنيب مقبل على ربه ليس له همٌّ إلا مرضاة ربه فيكون نظره إلى المخلوقات نظر تفكر واعتبار فيستدل بنظره إلى السماء والأرض على قدرة الله وعظمته.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٦-٨].

بل إن الله حصر المتذكرين في المنيبين فقط، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر:١٣].

٥- تقريب الجنة للمنيبين وإدخالهم إياها:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[ق٣١-٣٤].

فجاء وصف القلب بالإنابة لأن الإنابة من أعمال القلوب، فأصل الدين ما وقع في القلب وثبت فيه. وذلك من أعظم أسباب دخول الجنة.

٦- أن الإنابة سبب للهداية:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[الرعد:٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[الشورى:١٣].

فهذا السبب من الأسباب التي يتوصل بها العبد إلى هداية الله تعالى له، وهو إنابته لربه وانجذاب دواعي قلبه إليه وكونه قاصدًا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾(١) [المائدة:١٦].

٧- الأمر باتباع سبيل المنيبين:

الذين أنابوا إلى الله انجذبوا إليه بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وهممهم وإراداتهم وأعرضوا عما سوى الله، فلذلك حَسُنَ اتباع سبيلهم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٥٥).

إِلَيَّ ﴾[لقمان:١٥]، لأنهم لا تصرفهم الصوارف مهما عظمت عن الله وعن مرضاته.

والتوبة: أصل تاب عاد إلى الله ورجع إليه وأناب، وتاب الله عليه، أي عاد عليه بالمغفرة[(١)].

وقيل: «الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»[(٢)].

وقيل: «الرجوع إلى الله بعد الإباق منه»[(٣)].

والتوبة والإنابة كالإسلام والإيمان بينهما عموم وخصوص فكل منيب تائبٌ وليس كل تائبٍ منيبٌ.

وذِكْرُ المؤلف للإنابة بدلًا من التوبة أولى لأمور:

١ - أنها أعلى من التوبة لأنها تشعر الاعتماد على الله واللجوء إليه[(٤)].

٢ - أن الإنابة ورد وصف القلب بها في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيكون ارتباطها بأعمال القلوب أقوى من أعمال الجوارح.

٣- أن الإنابة تشارك التوبة بالإقلاع عن المعاصي والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إلى الذنب وبفعل الطاعات والافتقار إلى الله وتزيد عليها أن المنيب يقبل على ربه بكليته مستمرًا على الدوام.

٤ - أن صورة العبادة بالنسبة للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة بسبب زيادة الإقبال على العبادة[(٥)].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣٣٢).

(٢) «التوبة» لابن تيمية (٤٢).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢٣١).

(٤) «شرح الأصول» للشيخ العثيمين (٥٧).

(٥) «حصول المأمول» (٩١).

والاستعانة.

....

الاستعانة لغة: طلبُ العون[١]. لأن الألف والسين والتاء في اللغة للطلب، فإذا قيل استعان فمعناه طلب الإعانة وإذا قيل: استغاث أي طلب الغوث وإذا قيل: استخبر أي طلب الخبر[٢].

وفي الشرع: طلب العون من الله مع الاعتماد عليه والثقة به في تحصيل ما يطلب.

أركان الاستعانة:

١) الثقة بالله.

٢) الاعتماد عليه.

فلا بُدَّ من اجتماع هذين الركنين في الاستعانة بالله فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره. مع ثقته به. لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه -مع عدم ثقته به- لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به[٣].

وتنقسم إلى قسمين:

١- **استعانة عبادية**، وضابطها: «هي الاستعانة المطلقة التي يستقل بها المغيث»[٤].

٢- **استعانة مباحة**، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب».

---

(١) «المفردات» (٣٥٦).

(٢) «حصول المأمول» (٩٢)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠١).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٧٥)، وانظر أيضًا: (١/ ٨٢).

(٤) قاعدة: «كل عمل قلب أو جوارح فوق الأسباب العبادية؛ فهو عبادة».

الفرق بين الاستعانة والتوكل:

أن الاستعانة لجلب المنفعة والتوكل لجلب المنفعة ودفع المضرة.

قال شيخ الإسلام: «يكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾»[1] [آل عمران:١٧٣].

أنواع الاستعانة:

الاستعانة ثلاثة أنواع هي:

(١) الاستعانة التوحيدية العبادية:

وهي الاستعانة بالله وحده في جميع أمور العبد. لأن العبد ضعيف لا يستطيع أن يستقل بنفسه في أفعاله فلا بُدَّ له من معين وهو الله تعالى.

ومن ثم شرع الله له الاستعانة به وحده فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر، فكأنه قال: لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك.

وأرشد النبي ﷺ إلى الاستعانة بالله فقال: «**استعن بالله، ولا تعجز**»[2]، وقال ﷺ: «**وإذا استعنت؛ فاستعن بالله**»[3]، وأمر موسى عليه السلام قومه بها عندما خافوا من فرعون. ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾[الأعراف:١٢٨].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٧٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٢)، كتاب «القدر»/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٢٦٦٤).

(٣) سبق تخريجه.

(٢) الاستعانة الشرْكِيَّةِ الكُفْرِيّةِ:

وهي الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعانة بأصحاب القبور في قضاء الحوائج أو الاستعانة بالطفل الصغير الذي لا يميز ولا يعقل وكالاستعانة بالأحياء الغائبين لأن من استعان بهؤلاء فقد ظن أو اعتقد أن لهم قوة غيبية لا يقدر عليها سائر الناس وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله.

ومن ذلك: استعانة المريدين بمشايخهم في رفع دعائهم إلى الله تعالى. قال شيخ الإسلام: «وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم لا ظاهرًا ولا باطنًا بهذه الوسائط والحجاب فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا»[١]. ومن أمثلة الاستعانة الشركية ما نقله البريلوي:

نادِ عليًّا مظهر العجائب ... تجده عونًا لك في النوائب

كلّ هَمٍّ وغَمٍّ سينجلي ... بولايتك يا علي يا علي[٢]

ويقول البريلوي: «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور»[٣].

(٣) الاستعانة المباحة (الجائزة):

وهي الاستعانة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وهذا لا خلاف في جوازه عند أهل العلم بل هو في غاية الوضوح والظهور ومن أدلة ذلك طلب ذي القرنين من الذين اشتكوا إليه يأجوج ومأجوج الإعانة حتى يبني لهم السد ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[الكهف:٩٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٩).

(٢) «البريلوية» إحسان إلهي ظهير (٥٧).

(٣) المرجع السابق (٦٤).

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**والله في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**»[١]، وقوله ﷺ: «**ويعين الرّجل على دابته، فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة**»[٢].

ومن أقوال الصحابة في الاستعانة الجائزة قول حكيم بن حزام لما أخبره عبدالله بن الزبير عن دين على أبيه فاستكثره وظن أن ما خلّف الزبير لن يُوفيَ دينه الذي عليه فقال حكيم له: «ما أراكم تطيقون هذا فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي»[٣].

منزلة الاستعانة:

للاستعانة بالله منزلة عظيمة من الدين ومما يدل على عظمة منزلتها ما يلي:

١ - **أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات**، وذلك لأن الله سبحانه لا يعبد إلا بمعونته[٤]، ولهذا كان النبي ﷺ يرشد أصحابه إذا أرسلهم للجهاد أن يستعينوا بالله على قتال المشركين كما في حديث بريدة رضي الله عنه، وفيه:

«فإذا هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»[٥].

بل كان النبي ﷺ يستعين بالله في جميع أموره، كما يقول في خطبه ﷺ: «**إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه**»[٦].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر»/ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم، وعلى الذكر. رقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ١٣٢)، كتاب «الجهاد»/ باب من أخذ بالركاب ونحوه. رقم (٢٩٨٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٨)، كتاب «فرض الخمس»/ باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا مع النبي ﷺ، وولاة الأمر. رقم (٣١٢٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٦).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٥٧)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام. رقم (١٧٣١).

(٦) مسلم (٢/ ٥٩٣)، كتاب «الجمعة»/ باب تخفيف الصلاة والخطبة. رقم (٨٦٨).

ومن دعائه ﷺ: «**ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ**»[١].

وربَّى أصحابه على الاستعانة بالله، ومن ذلك ما قاله لمعاذ رضي الله عنه: «**يا مُعاذ، والله إنِّي لأُحِبُّك فلا تدعنَّ في دُبُر كلّ صلاةٍ مكتوبةٍ أن تقول: اللهمَّ أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٢].

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قنوته: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك...»[٣]. وبمثله عن علي بن أبي طالب، وأبيّ بن كعب[٤]، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم[٥].

فعباد الله الصالحون الذين جعلوا عبادة الله وطاعته غاية مرادهم علموا أنه لا يمكنهم ذلك إلا بمعونة الله تعالى فسألوا الله العون على ذلك، قال شيخ الإسلام: «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته تعالى ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]»[٦].

«فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاة الله وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها»[٧].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٣١٤)، قال ابن حجر: «إسناده صحيح». «تلخيص الحبير» (٢/ ٢٥).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٣١٤).

(٥) المرجع السابق (٢/ ٣٠١).

(٦) «مدارج السالكين» (١/ ٧٨).

(٧) المرجع السابق.

«ومن المعلوم أن العبد لا بُدَّ له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجلَّ منها عبادةُ ربه والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة فهذه أشرف الغايات وتلك أشرف الوسائل»(١).

٢- أن الاستعانة بالله تدفع الكبر والعجب والشرك:

من أعظم الأمراض التي تعرض للعُبّاد وغيرهم مرض العجب، فيشرك الإنسان بنفسه فيستكبر «والكبر مستلزم للشرك»(٢) ولا دفع لها إلا بتحقيق الاستعانة بالله وإظهار الافتقار والحاجة إليه في جميع الأمور، كما قال سهل بن عبدالله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار»(٣).

قال شيخ الإسلام: «وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر. فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ خرج من الإعجاب»(٤).

٣- أن من لم يستعن بالله خذل:

من استعان بغير الله خذله أحوج ما يكون إليه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾[الإسراء:٢٢] أي مخذولًا لا ناصر لك.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٩).

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

وذلك أنه يُوكَلُ إلى من استعان به من الخلق الضعفاء المحتاجين إلى الإعانة، وقد كتب الحسن رحمه الله إلى عمر بن عبدالعزيز: «لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه»(١).

فكل من لم يحقق الاستعانة بالله: «مخذولون فيما يقصدونه، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة والإعجاب أخرى، فإن لم يحصل له مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فَيُخْذَلُ»(٢).

٤- أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للتغلب على المصائب والملمات:

قال يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

وقال موسى عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾[الأعراف:١٢٨].

ولما آذى المشركون النبي ﷺ ولم يقبلوا دعوته استعان بالله وحده، حيث قال الله عنه إنه قال: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:١١٢].

وربَّى النبي ﷺ أمته على ذلك فقال: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ؛ فلا تقل: لو أنِّي فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتحُ عمل الشَّيطان**»(٣).

ومن ثم انغرست الاستعانة بالله وحده في قلوب السلف عند الملمات والمصائب.

---

(١) «نور الاقتباس» (٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٢)، كتاب «القدر»/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٢٦٦٤).

فعثمان رضي الله عنه لما بشر بالجنة على بلوى تصيبه حمد الله، ثم قال: «الله المستعان»(١).

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما رميت بالزنا، قالت: «والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ١٨﴾[يوسف:١٨] (٢).

والزبير رضي الله عنه لما أحسَّ بالوفاة أوصى ابنه أَنْ يقضي دينه وكان دينًا كثيرًا وقال له: إِنْ عجزت فاستعن بمولاي، فقال له: يا أبت من مولاك؟ قال: الله عز وجل، قال: فما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه»(٣).

٥- أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للعصمة من الذنوب والخطيئات:

ويوضحه ويدل عليه عصمة الله ليوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز مع وجود المغريات الكثيرة من جمالها وكونها في بيت الملك وإغلاق الأبواب وكونه شابًا عزبًا غريبًا فلما استعان بالله صرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

لماذا الاستعانة بالله وحده؟

أجاب عن هذا التساؤل ابن رجب فقال:

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فَلِأَنَّ العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى لا تَحَوُّلَ للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٣)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب مناقب عمر بن الخطاب. رقم (٣٦٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٤)، كتاب «التفسير»/ باب ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. رقم (٤٧٥٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٧)، كتاب «فرض الخمس»/ باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميتًا. رقم (٣١٢٩).

المحظورات والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ يوم القيامة ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»[(١)].

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وَكَلَهُ الله إلى من استعان به فصار مخذولًا[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧٢-٥٧٣).

والاستعاذة.

....

الاستعاذة: الألف والسين والتاء دالة على الطلب فقوله: أستعيذ بالله أي أطلب العياذ به كما إذا قلت: أستخير الله أي أطلب خيرته.

ولفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا ويسمى ملجأً ومنه الحديث «**فمن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به**»(١)(٢).

فيكون معناها لغة: ألتجئ وأعتصم وأتحرز(٣).

اصطلاحًا: الالتجاء إلى الله والاعتصام به من شر كل ذي شر.

فائدة الاستعاذة: «إظهار العبد فاقته لربه وتضرعه إليه»(٤).

أصل الاستعاذة:

في أصلها قولان:

١- أنه مأخوذ من السِّتْر.

٢- أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معًا فإن المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٩-٣٠) كتاب «الفتن»/ باب تكون فتنة القاعد خير فيها من القائم. رقم (٧٠٨١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٩٨)، «المفردات» (٣٥٥).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٤٩).

معتصم به، فقد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفًا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفرّ إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه[١].

وتنقسم إلى قسمين:

١- استعاذة عبادية، وضابطها: «الاستعاذة المطلقة التي يستقل بها المعيذ».

٢- استعاذة مباحة، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب»[٢].

أنواع الاستعاذة:

الاستعاذة ثلاثة أنواع هي:

الأول: الاستعاذة العبادية التوحيديّة الإيمانيّة:

وهي الاستعاذة بالله وحده من شرِّ كل ذي شر.

وهي الاستعاذة التي أمر الله بها بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل:٩٨]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[فصلت:٣٦]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨].

والاستعاذة بالله هي حال رسل الله وعباده الصالحين:

فهذا نوح عليه السلام استعاذ بالله وحده لما نهاه أن يَدْعُوَ لابنه الكافر فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[هود:٤٧].

وموسى عليه السلام استعاذ بالله من الجهل: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) هذا التقسيم يصح في الاستغاثة.

[البقرة:٦٧]، ولما خشي من فرعون وقومه استعاذ بالله والتجأ إليه واعتصم به من شرهم فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾[الدخان:٢٠].

ومريم ابنة عمران عند ما جاء إليها جبريل عليه السلام بصورة بشر خافت منه فاستعاذت بالله منه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[مريم:١٨].

وأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخصه بالاستعاذة به سبحانه، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١] وشرعها لنا المصطفى ﷺ عند دخول المسجد فكان يقول «**أعوذُ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشَّيطان الرجيم**»(١).

أو بصفة من صفاته كقوله ﷺ: «**أعوذُ بكلمات الله التّامات من شرِّ ما خلق**»(٢).

«وقد نص الأئمة كأحمد وغيره أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله عز وجل غير مخلوق»(٣).

وقوله ﷺ «**أعوذ بعزّة الله وقدرته من شرِّ ما أجد وأحاذر**»(٤).

قال شيخ الإسلام: «والمستعيذ يطلب مَنْعَ المستعاذ منه أو رَفْعَهُ، فإذا كان مخوفًا طلب

---

(١) أبو داود (١/ ٣١٨)، كتاب «الصلاة»/ باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد. رقم (٤٦٦)، قال النووي: «حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد». «الأذكار» (٣١) رقم (٨٢)، وصححه الألباني في تحقيقه «الكلم الطيب» لشيخ الإسلام (٥١) رقم (٦٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٨٠)، كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من سوء القضاء. رقم (٢٧٠٨).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧) قوله: «وهذا مما استدلوا به» يقصد حديث: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».

(٤) مسلم (٤/ ١٧٢٨)، كتاب «السلام»/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء. رقم (٢٢٠٢).

منعه، كقوله ﷺ: «**أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر**»(١).

وإن كان حاضرًا طلب رفعه كقوله في الحديث الصحيح: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»، فتعوذ بالله من شر الموجود، وشر المحاذر»(٢).

وقال ابن القيم: «تعوّذ بالله من شر الموجود طالبًا رفعه ودفعه كقوله: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾[آل عمران:١٩٣] وشر المحاذَر الذي لم يقع طالبًا عدم وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران:١٩٤]»(٣).

وقوله ﷺ: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك**»(٤). وهذا النوع «وهو الاستعاذة الكاملة التي يستقل بها المغيث»(٥)، لا يجوز أن يطلب إلا من الله.

٢- الاستعاذة الشركية:

وهي الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعاذة بالأموات والغائبين، وهي استعاذة ضارة في الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]، طلبوا الأمن في الدنيا فأصيبوا بالرهق وأما في الآخرة فصاحبها مخلد في النار أبد الآبدين.

وهذا النوع من الاستعاذة الشركية ممنوع بالنص والإجماع، قال شيخ الإسلام: «نُفِيَ عنه -أي النبي ﷺ- وعن غيره من الأنبياء والمؤمنين وهو أنهم لا يُطْلَبُ منهم بعد الموت شيء ولا يطلب منهم في الغيبة شيء لا بلفظ الاستغاثة، ولا الاستعاذة، ولا غير ذلك، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا حكم ثابت بالنص وإجماع علماء الأمة مع

---

(١) مسلم (١/ ٤١٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب ما يستعاذ منه في الصلاة. رقم (٥٨٨).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٨).

(٤) مسلم (١/ ٣٥٢)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (٤٨٦).

(٥) «تلخيص الاستغاثة» (٣١٦).

دلالة العقل على ذلك»[(١)].

٣- الاستعاذة المباحة: وهي الاستعاذة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه:

وهذا النوع يختص بالعمل الظاهر، أما القلب فهو معتمد على الله وحده.

ويدل له قول النبي ﷺ: «**من استعاذ بالله، فأعيذوه**»[(٢)].

ويجب: اعتقاد أنها سَبَبٌ إن شاء الله أمضاها، وإن شاء منعها.

---

(١) «تلخيص الاستغاثة» (٣٦٩)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٣١).

(٢) أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود (٢/ ٣١٠)، كتاب «الزكاة»/ باب عطية من سأل بالله. رقم (١٦٧٢)، والنسائي (٥/ ٨٢)، كتاب «الزكاة»/ باب من سأل بالله عز وجل، وقال النووي: «حديث صحيح رواه أبو داود والنسائي بأسانيد الصحيحين». «رياض الصالحين» (٥٤٧-٥٤٨) رقم (١٧٣٢).

والاستغاثة.

....

الاستغاثة لغة: الغين والواو والثاء كلمة واحدة وهي الغوث من الإغاثة وهي الإغاثة والنصرة من الشدة.

قال الأزهري: الغياث ما أغاثك الله به ويقول الواقع في بلية أغثني أي فَرِّجْ عني(١).

واصطلاحًا: طلب الغوث وهو طلب كشف الشدة والتخليص منها(٢).

ومنه سميت صلاة الاستغاثة لأنها طلب كشف الجدب وإبداله بالخصب والنبات.

وكان من دعائه ﷺ فيها: «**اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا، اللهمَّ أغثنا**»(٣).

الفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أنَّ الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾[الأنفال:٩]. قال الحليمي: «الغياث هو المغيث وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ومعناه: المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم»(٤). وأما الدعاء فيكون من المكروب وغيره فهو أعم من الاستغاثة فبينهما عموم وخصوص فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ١٥٨) مادة (غوث) و«معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٠).

(٢) انظر: «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٨٧)..

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠٧)، كتاب «الاستسقاء«/ باب الاستسقاء في خطبة الجمعة. رقم (١٠١٤)، مسلم (٢/ ٦١٢)، كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب الدعاء في الاستسقاء. رقم (٨٩٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١١).

أنواع الاستغاثة:

الاستغاثة ثلاثة أنواع:

١- الاستغاثة التوحيدية العبادية الإيمانية:

وهي التي لا تطلب إلا من الله تعالى وحده فقط، وضابطها: «الاستغاثة المطلقة التي يستقل بها المغيث»، فلا يجوز أن تطلب إلا منه سبحانه لأن الأمور كلها بيده، قال شيخ الإسلام: «فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل»[١].

وعلى هذا إجماع علماء المسلمين[٢].

«قال أبو عبدالله القرشي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون» وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوَّةً وحولًا وإلا فليس له من نفسه شيء قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾»[٣] [البقرة:١٠٢].

والمقصود بها الاستغاثة المطلقة الكاملة التي يستقل بها المغيث وهي التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.كإنزال المطر وغفران الذنوب، وإزالة المرض والانتصار على العدوّ، وهداية القلوب، وليست الإغاثة التي هي من باب فعل الأسباب[٤].

وقال الشوكاني: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستغاث إلا به كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥]

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٧).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٦)، و«الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤ و٥٢٠).

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[القصص:٥٦]»[1].

ولأجل ذلك وبّخ سبحانه من يستغيث بغيره بصيغة الاستفهام، فقال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢].

أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده وهل يكشف الضر والبلاء والنقمة إلا هو، فلماذا تستغيثون بغيره.

وحَصَرَ الاستغاثة به وحده، فجمع بين النفي والإثبات فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس:١٠٧]، فأثبت لذاته كشف الضر، ونفاه عن غيره

والله قريب مجيب يغيث من استغاث به ومن أمثلة ذلك:

استغاثة النبي بربه في غزوة بدر لما رأى كثرة المشركين وكثرة عدتهم وعتادهم، وقلة المسلمين وعدتهم وعتادهم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه[2]: «**اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهمَّ آت ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال:٩] فأمده الله بالملائكة.

---

(١) «الدر النضيد» (٤).

(٢) أي يستغيث بربه.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أَقْدِمْ حَيْزُوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صَدَقْت، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين»[(١)].

وكذلك استغاثة يونس عليه السلام لما التقمه الحوت، وغير ذلك.

وينبغي أن تكون الاستغاثة قبل نزول العذاب فإن العبد إذا خشي من عذاب الله بسبب ذنوبه وما اقترفت يداه ثم استغاث بالله وتاب إليه رفع عنه العذاب كما وقع لقوم يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس:٩٨].

«لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فلما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا»[(٢)].

أما إذا وقع العذاب فلا تنفع الاستغاثة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[المؤمنون:٦٤-٦٥].

فإن المنعمين بالدنيا إذا أصابهم عذابُ الله وبأسه ونقمته، يصرخون ويستغيثون

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. رقم (١٧٦٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٦٨).

ولكنهم لا يجيرهم أحد مما حلَّ بهم سواء جأروا أو سكتوا إذْ لزم الأمر ووجب العذاب[١].

وكذلك إذا استغاثوا وهم في النار ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف:٢٩].

٢- الاستغاثة المباحة:

وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وضابطها: «ما كانت في الأسباب العادية، بحيث لا يستقل بها المغيث».

قال صنع الله الحلبي: «والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العاديّة من الأمور الحسّية في قتال أو إدراك عدوٍّ أو سبع ونحوه»[٢].

ولها وقتان: أحدهما: في الدنيا، والثاني: يوم القيامة.

أما في الدنيا فمن أدلته قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[القصص:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾[الأنفال:٧٢].

لكن يجب عليك أن تعلم أن المستغاث به سبب «والنصر المطلق وهو خلق ما به يغلب العدو لا يقدر عليه إلا الله»[٣].

يوضحه أنه ﷺ في حياته، وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يتركون أحدًا يُشرك بهم في حضورهم بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه فدل ذلك على أنهم

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٩٣٥).

(٢) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (٤٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١٣).

إذا أقروا أحدًا استغاث بهم في حياتهم فيما يقدرون عليه أنه جائز كما أغاث النبي ﷺ خزاعة.

وكما أجاب النبي ﷺ من طلب منه أن يستغيث للمسلمين لإزالة الكرب والشدة فاستسقى لهم النبي ﷺ فأغاثهم الله وأنزل المطر[(١)].

وأما في يوم القيامة فكذلك: عندما يضيق بالناس الموقف ويرغب الناس في إراحتهم منه يذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام ثم محمد ﷺ، فيذهب النبي ﷺ إلى ربه فإذا رآه خرّ ساجدًا ويحمده بمحامد يفتحها الله عليه لا يحسنها الآن فيقال له: «**ارفع محمد وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع**»[(٢)].

وعلى هذا أجمع المسلمون[(٣)].

قال الشوكاني: «ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يَقْدِرُ على الغَوْثِ فيه من الأمور ولا يحتاج مثل ذلك إلى استدلال فهو في غاية الوضوح»[(٤)].

٣- الاستغاثة الشركية الكفرية:

هي الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كهداية القلوب، وإنزال المطر، وإحياء الموتى، ومغفرة الذنوب ونحو ذلك من الأمور المعنوية أو يعتقدون التأثير منهم في قضاء حاجاتهم استقلالًا[(٥)].

---

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١)، كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في المسجد الجامع. رقم (١٠١٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٩٢)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. رقم (٧٤١٠).

(٣) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٢٤٤).

(٤) «الدر النضيد» (٤).

(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٦٤)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤).

أو فيما لا يقدر عليه المستغاث به لكونه ميتًا أو غائبًا، ونحو ذلك، فلا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني وانصرني وادفع عني، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك، بل كل هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله... وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخاطبهم كما تخاطب الشياطين الكهان، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء حتى فعل ذلك ويقول أحدهم: هذا سِرُّ الشيخ وحاله وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به. وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيوخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان[(١)].

بل إن «من أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب»[(٢)].

بل إن الاستغاثة بالموتى أصلُ شرك العالم وذلك لأن الميت لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فضلًا عمَّن استغاث به[(٣)].

ولهذا لم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين

---

(١) انظر: «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٣٠٠-٣٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٤).

يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم[(١)].

وقال شيخ الإسلام عند ذكره أنواع الاستغاثة: (الرابع) استغاثة في تفريج الكربة، لكن لا يجوز ذلك من ميت ولا غائب ولا من حي حاضر إلا فيما يقدر عليه خاصة[(٢)].
وقال رحمه الله: «نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحدًا من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله»[(٣)].

وقال رحمه الله: «ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعًا أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلًا، بل كانوا ينهون عن ذلك مَنْ كان يفعله من جهالهم»[(٤)].

«بل أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن طلب الحاجات من الأموات والغائبين والاستغاثة بهم أنه الشرك الأكبر»[(٥)].

ولذلك أبطلها الله بأنهم لا يملكون كشف الضر إذا وقع ولا تحويله، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[الإسراء:٥٦].

وليست عندهم القدرة على رد ضر أراده الله، ولا كشفه، ولا إمساك رحمته عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨٠-٨١)
(٢) «تلخيص الاستغاثة» (١٢٣).
(٣) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٦٢٩).
(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).
(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٥٧).

عبــاده، فقــال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨].

وإن تعجب فعجب فعل المشركين، فإنهم مع علمهم التام أنه لا يكشف الكروب إلا الله، فيستغيثون به عندما تَدْلَهِمُّ الخطوب سريعًا ما ينكثون عهودهم، ويعودون إلى شركهم وكفرهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[النحل:٥٣-٥٤].

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ «أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به»[(١)].

ومن نماذج الاستغاثة الشركية استغاثة إبراهيم عبد الدامغ بالشيخ خوجلي وهو ميت في قبره، حيث يقول:

اليوم يا خوجلي يا غوث مَنْ ذُعِرا ... أبناؤك الغر من بين الورى أُسَرا
وقد عهدناك طودًا يستغاث به ... لدى الشدائد والأمر الذي عَسِرا
كم مرة صاح محزونٌ فكنت له ... في الحال خير مغيث عندما قُهِرا
وكم أتاك كئيب القلب في نُوَبِ ... أَعْيَت فجاء له النصر الذي انتصرا

ثم زاد فاستغاث بآخرين، ومما قال:

ألا إغاثة قطب الوقت تنجدهم ... ألا الإمامان أعني صحبه الوزرا
ألا الذين هم في العد أربعة ... أهل الولاية والسر الذي بهرا
ألا من البلا ألا تأتي إغاثتهم ... إلا من العشر سيف النصر قد شهرا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٦٠).

ألا الجنيـد ألا الجـيلاني ينـصرهـم ألا الدسـوقـي ألا المتبـولي منـه قـرا
ألا الرفـاعي ألا المـشهور سيـدنــا أبو اللئام الذي كم فك مـن أسـرا[١]

الفرق بين الاستعانة والاستغاثة:

(١) أن الاستعانة على أمر يريد أن يفعله، أما الاستغاثة على أمر يريد التخلص منه.

(٢) أن الاستعانة تكون في الشدة وغيرها، أما الاستغاثة فإنها لا تكون إلا في حال الشدة فقط.

=

(١) «تاريخ السلطنة السنارية» (١٠٧-١٠٩)، نقلًا عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (١/ ٣١٩).

والذبح.

....

الذبح في اللغة: الشق.

وفي الاصطلاح: قطع الحلقوم من باطن عند النصيل وهو موضع الذبح من الحلق[(١)].

أنواع الذبح:

ينقسم الذبح إلى ثلاثة أقسام:

١- الذبح التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو ما ذبح باسم الله تقربًا إلى الله عز وجل وابتغاء مرضاته، قال النبي ﷺ عندما أراد ذبح نسكه وأضحيته: «**اللهمَّ منك ولك، وعن محمد وأمته. بسم الله واللهُ أكبر**»[(٢)]، ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تَعَبَّدَ اللهُ العبادَ بها[(٣)]. قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر:٢].

وقد نقل الشنقيطي الإجماع على أن الذبح على وجه القربة عبادة[(٤)]، «لأن الذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له»[(٥)]. وضابط الذبح العبادي هو «ما كان الذبح فيه أصلًا

---

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٤٧٠-٤٧١). والنصيل هو مفْصِلُ ما بين العنق والرأس.

(٢) أبو داود (٣/ ٢٣١)، كتاب «الضحايا»/ باب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٤٣)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (١/ ٥٣٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٨٥).

(٣) «شرح الصدور» للشوكاني (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٤) «دفع إيهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان» (١٠/ ١٠٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

لا تبعًا». أي المقصود به ذات الذبح، وليس أكل اللحم، فلولا أنها عقيقة ما ذبحها.

وأنواع الذبائح التي هي قربة لله وعبادة ثلاثةٌ «الهدي والأضحية والعقيقة»[١] ويزاد رابع وهو «الفدية».

ويوضح ابن القيم أن التقرب إليه بالهدايا وإشعارها إظهار للتوحيد وتقرب إلى رب العبيد فيقول: «ولو لم يكن في حكمة الإشعار إلا تعظيم شعائر الله وإظهارها وعلم الناس بأن هذه قرابين الله عز وجل تساق إلى بيته تذبح له ويتقرب بها إليه عند بيته كما يتقرب إليه بالصلاة إلى بيته عكس ما عليه أعداؤه المشركون الذين يذبحون لأربابهم ويصلون لها فشرع لأوليائه وأهل توحيده أن يكون نسكهم وصلاتهم لله وحده وأن يظهروا شعائر توحيده غاية الإظهار ليعلو دينه على كل دين»[٢].

٢- الذبح الشركي الكفري:

وهو الذبح باسم الله تقربًا لغير الله تعالى، أو الذبح بغير اسم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[المائدة:٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أُهِلَّ للطواغيت كلِّها»[٣]، وقال مجاهد: «ما ذبح لغير الله»[٤] وبمثله قال عطاء[٥]، وقال الربيع: «ما ذكر عليه غير اسم الله»[٦]، وقال الزهري: «الإهلال أن يقول باسم المسيح»[٧].

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣١٢).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٣٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٨٣).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع البيان» (٢/ ٨٦).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٨٥).

(٧) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٦٥).

قال ابن عطية: «يعني ما ذبح لغير الله تعالى وقصد به صنم أم بشر من الناس كما كانت العرب تفعل وكذلك النصارى وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به فذلك إهلاله»[(١)].

قال أحمد: «أكره كُلَّ ما ذبح لغير الله والكنائس إذا ذبح لها.. وإذا ذبح يريد به غير الله فلا نأكله، وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه»[(٢)].

وقال الأوزاعي: «سألت ميمونًا -ميمون بن مهران- عما ذبحت النصارى لأعيادهم وكنائسهم فكره أكله»، وقال أحمد بن حنبل ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: على الأصنام وقال: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»، قال حنبل: سمعت أبا عبدالله قال: «لا يؤكل لأنه أهل لغير الله به»[(٣)].

وقال ابن أبي موسى: «ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ولا يؤكل ما ذبح للزّهرة»[(٤)].

وقال الشافعي: «وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم أو للكعبة ونحو ذلك فكل هذا حرام ولا تحل الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا، نص عليه الشافعيُّ واتفق عليه أصحابنا»[(٥)].

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٠).

(٢) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٣) المرجع السابق (٣٧١-٣٧٢).

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦١) ففيه زيادة بيان.

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١).

والكراهة عند المتقدمين تطلق ويراد بها التحريم[(١)].

«فالمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح باسم غير الله لم يبح وإن كان يكفر بذلك»[(٢)] فتكون ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يشمل ما قصد به التقرب إلى غير الله[(٣)]. يعني ذبح لغير الله وما ذبح باسم غير الله.

و﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة:٣] والنصب أصنام كانوا يذبحون ويهلون عليها كذا قاله ابن عباس. وقال قتادة: النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك[(٤)].

قال الحسن: «هو بمنزلة ما ذبح لغير الله»[(٥)].

وقال أحمد بن حنبل: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»[(٦)].

قال ابن كثير: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله»[(٧)].

ومنه الذبح عند القبور:

وهذه من مسائل الجاهلية فقد كانوا يذبحون عندها فأبطلها المصطفى ﷺ حيث

---

(١) انظر: «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤/ ٢٥٢). وقد أطال ابن القيم في «إعلام الموقعين» في بيان هذه الكراهة وأن المقصود بها عندهم هو التحريم وذكر الأمثلة على ذلك (١/ ٣٩-٤١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٠).

(٣) المرجع السابق (٢/ ٦٨).

(٤) «جامع البيان» (٦/ ٤٨-٤٩).

(٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨) وقال: رواه ابن أبي شيبة.

(٦) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٧) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٢).

قال: «**لا عقر في الإسلام**»، قال عبدالرزاق: «كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة»[(١)].

والنحر عند القبور عبادة لها قال الشوكاني: «ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبَّد الله العباد بها كالهدايا والفدايا والضحايا فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرِّ به وهذه عبادة لا شك فيها وكفاك من شرٍّ سماعه»[(٢)].

ويبطل ذلك الزعم الكاذب القائل بأنهم لا يقصدون العبادة فيقول: «ومن قال إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر عليهم عبادتهم فقل له: فلأي مقتض صنعت هذا الصنع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمرٍ بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله وتنذر لله فَلِأَيِّ معنىً جعلت ذلك وحملته إلى قبره فإنَّ الفقراء على ظهر البسيطة في كلِّ بقعة من بقاع الأرض، وفِعْلُك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قصدته أو أمر أردته وإلا فأنت مجنون»[(٣)].

ويزيد هذا البيان بيانًا وإيضاحًا الصنعانيُّ فيقول: «فإن قال إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه فقل: إن كان النحر لله فلأيِّ شيءٍ قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم، فقل له هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس

---

(١) أحمد (٣/ ١٩٧)، وأبو داود (٣/ ٥٥٠)، كتاب «الجنائز»/ باب كراهية الذبح عند القبر. رقم (٣٢٢٢) واللفظ له، قال ابن مفلح: «رواه أحمد بإسناد صحيح». «المبدع» (٢/ ٢٨٣)، وصححه الشوكاني في «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية، والألباني في «صحيح الجامع» (٦/ ١٩٩) رقم (٧٤١١)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٩/ ٣٩٤).

(٢) «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٣) «الدر النضيد» (٢١) ضمن الرسائل السلفية.

الداخلين؟ أنت تعلم يقينًا أنك ما أردت ذلك أصلًا ولا أردت إلا الأول ولا خرجت من بيتك إلا قصدًا له»[(١)].

ومن ذلك ما رواه الجبرتي حيث قال: «حضر حسين باشا القبطان من الجيزة، ودخل المدينة وتوجه إلى المشهد الحسينيّ، فزاره وذبح به خمس جواميس وسبعة كباش، واقتسمها خَدَمة الضريح»[(٢)].

ومثله الذبح للجن، والذبح لاستقبال السلطان:

وذلك أن يمسك بالذبيحة فإذا وصل السلطان ذبحها في مقدمه وأهرق دمها لمقدمه، فهذا مما أُهِلَّ به لغير الله[(٣)] لما في ذلك من تعظيمه بالذبح.

وكذلك معاقرة الأعراب: وهي أن يتبارى الرجلان ويتفاخرا في عقر الإبل ويتكاثرا في ذلك فأيهما يعقر أكثر من صاحبه تكون له الغلبة[(٤)] فهذه الصورة كرهها ابن عباس ولما سئل عنها قال: «إني أخاف أن تكون مما أهل لغير الله به»[(٥)].

أما علي بن أبي طالب فقد جزم بتحريمها وأنها مما أهل به لغير الله، وذلك أن سحيم بن وثيل الشاعر نَافَرَ غالب بن صعصعة أبا الفرزدق الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء، فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بأسيافهما فجعلا ينسفان عراقيبها. فخرج الناس على الحُمرات والبغال يريدون الحمل - أي حمل اللحم- وعلي رضي الله عنه بالكوفة فخرج على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي:

---

(١) «تطهير الاعتقاد» (ص٣٣).

(٢) «عجائب الآثار» (٢/ ٤٧٩).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١)، وانظر: «فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٠٨)، و«الدين الخالص» (٢/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «معالم السنن» حاشية أبي داود (٣/ ٢٤٦).

(٥) «تفسير ابن أبي شيبة» نقلًا عن «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦).

«يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله»[(١)].

قال شيخ الإسلام بعد ذكره هذين الخبرين: «فهؤلاء الصحابة قد فسروا ما قصد بذبحه غير الله داخلًا فيما أهل به لغير الله»[(٢)].

وقال ابن عطية المالكي عندما ذكر أثر عليٍّ رضي الله عنه: «ألا ترى أن عليّ بن أبي طالب راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق فقال: إنها مما أهل به لغير الله فتركها الناس»[(٣)]. ولذلك منع مالك أكل ما ذبحه اليهود والنصارى في يوم عيدهم. أو لأنصابهم كما قال عند قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[المائدة:٥]: «تؤكل ذبائحهم المطلقة إلا ما ذبحوا يوم عيدهم لأنصابهم»[(٤)].

قال ابن عبدالبر: «وكره مالك ما صنعه الكفار لأعيادهم من الطعام وخشي أن يكون مما أهل به لغير الله»[(٥)].

ولما سئل الحسن عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرسًا فذبحت جزورًا. قال الحسن: «لا يحل أكلها فإنها إنما ذبحت للصنم». ذكره ابن عطية، ثم قال: «فأنكر أن يذبح لغير الله وجعله شركًا»[(٦)].

ومن ذلك ما ينحر لأجل إقامة البدع ومن ذلك ما ينحر لأجل أكبر وليمة في الشرق الأوسط ونحو ذلك.

---

(١) رواه أبو إسحاق بن دحيم في «تفسيره» نقلًا عن «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧-٦٨) وابن كثير في «تفسيره» (٢٩٣)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨).

(٣) «المحرر الوجيز«(٢/ ٧٠).

(٤) «أحكام القرآن» (٢/ ٥٥٤).

(٥) «الكافي» (١/ ٣٧٨).

(٦) «أخبار الحسن» نقلًا عن «المحرر الوجيز» (٢/ ٧٠).

بل ذهب الإمام مالك أبعد من ذلك فمنع من ذكر الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح معللًا: «أن تلك الذبيحة التي يصلى على النبي ﷺ عندها مما أهل به لغير الله»(١).

ويعلل ابن القاسم المنع من الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع فيقول: «وذلك موضع لا يذكر هنا إلا اسم الله وحده»(٢). وعلى هذا درج العلماء رحمهم الله كما قال القرطبي: «وكره العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح وقالوا: لا يذكر هنا إلا الله وحده»(٣).

ويجب الحذر من الذبح بمكان أعياد الكفار وأوثانهم فهو معصية لله تعالى لا يجوز فعله، حتى ولو كان قد تُرك العيد، أو أُزيل الوثن، بدليل حديث ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ: أن ينحر إبلًا ببوانة فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة فقال النبي ﷺ: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**»، قالوا: لا، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»، قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «**أوف بنذرك فإنه لا وفاء في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**»(٤).

٣- الذبح المباح:

وهو الذي لم يقصد بذبحه التقرب وإنما قصد به التوصل إلى أكل اللحم، وضابطه:

---

(١) «الحاوي» للماوردي (١٥/ ٩٦).

(٢) «المدونة» (٢/ ٦٦).

(٣) «المفهم» (٥/ ٣٦٣).

(٤) أبو داود (٣/ ٦٠٧)، كتاب «الأيمان»/ باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر. رقم (٣٣١٣)، وقال شيخ الإسلام: «وهذا الإسناد على شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير، وهو متصل بلا عنعنة». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٩٠)، وصحح إسناده ابن حجر في «تلخيص الحبير» (٤/ ١٨٠) رقم (٢٠٧٠). والرجل هو كردم بن سفيان الثقفي كما ورد مصرحًا به في الرواية التي بعدها كما في «السنن». رقم (٣٣١٤).

«ما كان الذبح فيه تبعًا لا أصلًا».

كالذبح لأكل اللحم، أو لإكرام الضيف أو لهدية اللحم كما كان النبي ﷺ يذبح الشاة ويهديها إلى صواحب خديجة[١]. أو لوليمة العرس قال أنس: «ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أَوْلَمَ بشاة»[٢]، وقال ﷺ لعبد الرحمن بن عوف: «**أَوْلِمْ ولو بشاة**»[٣].

---

(١) البخاري (٥/ ٣٨)، كتاب «النكاح»/ باب تزويج النبي خديجة وفضلها. رقم (٣٨١٨)، ومسلم (٤/ ١٨٨٨)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضائل خديجة. رقم (٢٤٣٥).

(٢) البخاري (٧/ ٢٤)، كتاب «النكاح»/ باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٨).

(٣) البخاري (٧/ ٢٤)، كتاب «النكاح»/ باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٧)، ومسلم (٢/ ١٠٤٢)، كتاب «النكاح»/ باب الصداق. رقم (١٤٢٧).

والنذر.

....

النذر لغة: ما كان وعدًا على شرط[١].

وهو: إلزام المكلف نفسه بشيء ما «وهو الإيجاب».

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾[البقرة:٢٧٠] «أي أوجبتم على أنفسكم شيئًا من التطوع»[٢].

قال شمر وأبو سعيد الضرير: «إنما قيل له نذر لأنه نُذِرَ فيه، أي أوجب من قولك: نذرت على نفسي أي أوجبت»[٣].

وفي الاصطلاح: هو إيجاب المكلف على نفسه عبادة ليست واجبة بأصل الشرع.

أقسام النذر:

ينقسم النذر إلى ثلاثة أقسام هي:

١ - النذر التوحيدي العباديّ:

وهو النذر لله تعالى نذر الطاعة، فمن نذر نذر طاعة وجب عليه الوفاء به لقوله ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فلاَ يَعْصه**»[٤].

«وذلك لأن الناذر لله وحده قد علّق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٣) و«القاموس المحيط» (٦١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٢).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢٠).

(٤) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٨١)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب النذر في الطاعة. رقم (٦٦٩٦).

ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله»[١].

وقد مدح الله الموفين به فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧] وكل أمر مدح الشارع من فعله فهو عبادة فمن جعله لله تعالى فقد فعل قربة يرفعه الله بها درجات.

وهو قسمان:

(أ) نذر مطلق لم يعلق بشرط وذلك يفعله من يريد إلزام نفسه بأمر يعمله كمن يقول: لله عليّ نذر أن أصوم أيام البيض، وكنذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام.

(ب) نذر معلق بشرط:

كمن يقول: إن شفى الله مريضي لأصومن ثلاثة أيام.

والوفاء به واجب بالكتاب والسنة والإجماع[٢].

٢- نذر المعصية:

ونذر المعصية لا يجوز الوفاء به لقوله ﷺ: «**ومن نذر أن يعصيه؛ فلا يعصه**» كمن نذر أن يصوم يوم العيد[٣].

٣- النذر الشركي:

وهو النذر لغير الله تعالى كالنذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نَذْرُ شِرْكٍ ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة أو ذهبًا أو

---

(١) «قرة عيون الموحدين» (٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ٣٦).

(٣) انظر: «البخاري مع الفتح» (١١/ ٥٩٠-٥٩١)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب من نذر أن يصوم أيامًا فوافق النحر أو الفطر. رقم (٦٧٠٥، ٦٧٠٦).

غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام[١] وقد اتفق العلماء على أن هذا النذر شرك لا يوفى به»[٢].

قال الشيخ ابن باز: «النذر لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة ومن اعتقد جواز النذر للمقبورين فاعتقاده هذا شرك أكبر مخرج من الملة يستتاب صاحبه ثلاثة أيام ويضيق عليه فإن تاب وإلا قتل»[٣].

وهؤلاء الذين ينذرون النذور الشركية إنما ينذرونها «لأنهم يعتقدون أنها باب الحوائج إلى الله وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ مصر ومن اعتقد هذا فهو كافر مشرك يجب قتله»[٤]، وقال الصنعاني مبيناً هذه الحقيقة: «قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك وهذا اعتقاد باطل ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهمًا»[٥].

ومن نماذج النذر الشركي: ما ينذره بعض الناس للبدوي، قال محمود أبو ريّة: «لما فتح صندوق النذور القائم بجوار أحمد البدوي وجد فيه خمسون ومائة ألف جنيه، وما يقدر بثلاثمائة جنيه من الحلي الذهبية، ووجد فيه التماسات يرغب فيها أصحابها من البدوي أن ينظرهم إلى ميسرة فيما له عليهم من دين»[٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٨٦).

(٣) «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ١١٠).

(٤) «مجموعة الرسائل والمسائل» (١/ ٦٨).

(٥) «تطهير الاعتقاد» (٣٣).

(٦) «البدوي» لمحمود أبو ريّة (٢٢٤).

وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم:

أحياؤنـا لا يـرزقــون بـدرهـــم ... وبـألف ألـف تـرزق الأمـــوات
للـسيد البـدوي مُلْـكٌ دخـلــه ... خمـسون ألفًـا والحظـوظ هبـات
مـن لي بِحَـظِّ النـائمين بـحفْـرَةٍ ... قامـت عـلى أرجائهـا الـصلوات
يـسعى الإمـام لهـا ويجـري حولهـا ... بَحْـرُ النـذور وتقــرأ الآيـــات
ويقال هـذا القطب بـاب المصطفى ... ووسـيلة تقـضى بهـا الحاجــات(١)

لماذا نهى النبي ﷺ عن النذر؟

نهي عن النذر، وإن كان طاعة؛ لأمور:

١ - أن النذر لا فائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لا يرضى به فيبقى آثمًا، وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيرًا له.

٢ - أن النذر ليس سببًا في حصول المطلوب ودفع المرهوب حتى وإن كان نذر طاعة، وإنما الخير الذي يحصل للناذر يوافقه موافقة فقط. بدليل قوله ﷺ: «**إنَّ النذر لا يُقرّب من ابن آدمَ شيئًا لم يكن الله قدّرهُ له، ولكنَّ النذر يُوافقُ القدر فيخرجُ بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يُريد أنْ يخرج**»(٢).

٣ - أن في النذر زيادة تكليف على الناذر مع أنه كان في حِلٍّ منه.

٤ - ندم كثير منهم حيث لا يستطيع الوفاء بنذره فيذهب يبحث عن مخرج.

٥ - أن في هذا دليل على ثِقَلِ الطاعة عليه فليحذر أن يكون فيه شبه من المنافقين.

٦ - أن النذر المقيد فيه نوعُ مشارطة مع الله، وهذا فيه سوء أدب مع الله تعالى.

---

(١) المرجع السابق (١٩)، ولك أن تلاحظ الفرق بين مبلغ النذور؛ لأن السنوات مختلفة.

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٧٦)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الوفاء بالنذر. رقم (٦٦٩٤)، ومسلم (٣/ ١٢٦٢)، كتاب «النذر»/ باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا. رقم (١٦٤٠) واللفظ له.

٧- أن الناذر يقصد بالنذر تحصيل مطلبه، والله لا يعطي العبد ويقضي حاجته بمجرد ذلك النذر وإنما يعطيه ليبتليه أيشكر أم يكفر.

قال شيخ الإسلام: «فمن ظن أن حاجته إنما قضيت بالنذر فقد كذب على الله ورسوله»(١).

فإذا كان نَذْرُ الطاعة لم يجعله الله سببًا لإدراك الحاجة فكيف يكون نذر المعصية سببًا لإدراك الحاجة وهو محرم أوله لا يجوز الوفاء به(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣١٤).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٣٢ و٢٦٨) و«مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣١٤ و١٠/ ٤٢٠).

وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله تعالى. والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨]. فمن صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر.

....

وفي قوله: وغير ذلك من أنواع العبادة: بيان أنه لم يقصد حصر أنواع العبادة وإنما جاء بهذه الأنواع لأمرين:

١- التمثيل لا الحصر.

٢- أن هذه الأنواع هي التي يكثر الخلل فيها، فإذا صلحت كان غيرها إلى الصلاح أقرب.

التي أمر الله بها: الأمر هو الطلب على سبيل الإلزام والإيجاب أو الاستحباب، وقيدها بالأمر لأن العبادات توقيفية. فما لم يرد فيه أمر فليس لأحد أن يتعبد لله به.

قوله: كلها لله تعالى:

أي: جميعها يجب صرفها لله تعالى وحده لا شريك له، فلا يصلح أن تصرف لأحدٍ غيره مهما علت رتبته وارتفع شأنه ولذلك أكد هذا المعنى بقوله: «كلها».

واستدلال المؤلف بهذه الآية لبيان أمرين مهمين هما:

١- تخصيص الله وحده بالعبادة، حيث قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

٢- النهي عن ضده وهو دعاء غيره معه حيث قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

لا: ناهية والنهي يقتضي التحريم والمنع.

وأحدًا: نكرة في سياق النهي فتشمل كل شيء غير الله تعالى.

والقاعدة تقول: «**إذا وردت لفظة أحدٍ أو شيءٍ في سياق النهي أو النفي أفادت العموم**».

من: شرطية.

صرف: فعل الشرط.

صرف: الصرف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره[١].

وقيل: التقلّبُ والحيلة قال الليث تصريف الرياح: أي صرفها من جهة إلى جهة[٢].

منها: الضمير يعود إلى العبادات المذكورة قبل ذلك، كصرف الدعاء أو التوكل أو غيرها من العبادات لغير الله.

قوله: فهو مشرك كافر

الشرك في اللغة: هو المخالطة بين شيئين. يقال: شَرِكَه في الأمر يَشْرُكُهُ إذا دخل معه فيه[٣]. فالشرك ضد التوحيد.

وفي الاصطلاح: صرف شيء مما يختص الله به لغيره سواء في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢].

وأما الكفر: فهو السَّتْرُ والتغطية[٤].

«قال الليث: سمي الكافر كافرًا لأن الكفر غطى قلبَه كُلَّه، وقال: الكفر نقيض الإيمان آمنَّا بالله وكفرنا بالطاغوت»[٥].

---

(١) «المفردات» (٢٨٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٦١).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٧).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٩).

(٥) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٣ و١٩٦).

وفي الاصطلاح: عدم قبول الحق والإيمان به[(١)].

وينقسم الكفر إلى قسمين:

(١) أكبر وهو الكفر المخرج من الملّة.

(٢) أصغر وهو ما لم يخرج من الملّة.

والكفر الأكبر أنواع، هي:

١- كفر الإنكار: أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ولا يعترف به[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة:٦].

والإنكار ضد العرفان، يقال أنكرت كذا ونَكَرْت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾[هود:٧٠] وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب[(٣)].

فمن أنكر أصلًا من أصول الدين أو حُكْمًا من أحكامه أو خبرًا من أخباره المعلومة من الدين بالضرورة كفر.

كمن أنكر ألوهية الله تعالى أو اسمًا من أسمائه أو أنكر جبريل أو رسالة محمد ﷺ أو أنكر صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ونحو ذلك.

٢- كفر الإباء والعناد: وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل[(٤)].

---

(١) قال شيخ الإسلام: «والكفر عدم الإيمان، باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئًا ولم يتكلم». «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، وتفسير السمعاني (١/ ٤٦).

(٣) «المفردات» (٥٠٧).

(٤) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤) ولفظ الأزهري (كفر المعاندة)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، وتفسير =

فالكافر كفر عناد ممتنع عن الانقياد للحق الذي جاءت به الرسل مع معرفته صدق الرسول ﷺ وأن الحق هو الذي جاء به من عند الله تعالى.

وقد «أجمع العلماء على أن من دفع شيئًا أنزله الله وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر»[١].

وهذا الكفر يَدُلُّ على وجود «خلل في الإيمان بالربوبية وخلل في الإيمان بالرسالة وخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته»[٢].

ومن أسبابه الحسد أو الكبر أو الخوف أو محبة دين الآباء والأجداد أو احتقار أهل الإيمان وغير ذلك من الأهواء الصارفة عن اتباع الرسل[٣].

فكفر إبليس سببه الكبر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

وكفر اليهود سببه الحسد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[البقرة:٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[البقرة:١٠٩]، وينبغي أن يُعْلَمَ أن اليهود والنصارى كلهم كفار ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[البقرة:١٠٥] «فـ(مِنْ) هنا لبيان الجنس فيصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار»[٤].

= السمعاني (١/ ٤٦).

وقال ابن الأثير عند تعداده أنواع الكفر: «كفر عناد وهو أن يعترف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسدًا وبغيًا ككفر أبي جهل وأضرابه» «النهاية» (٤/ ١٨٦).

(١) «التمهيد» (٤/ ٢٢٦).

(٢) «الصارم المسلول» (٥٢١-٥٢٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٩١-١٩٤).

(٤) تفسير «القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٣٤٠).

وآخرون منعهم من الإيمان احتقار أهله كما أوضح الله حالهم بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[الشعراء:١١١].

أما أبو طالب فمنعه محبة دين الآباء وخشية المسبة. فلما قال عند موته:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سَمْحًا بذاك مبينًا(١)

«وهذا النوع هو الغالب على كفر أعداء الرسل»(٢).

٣- كفر الجحود: أن يعرف بقلبه ولا يقرَّ بلسانه(٣).

والمقصود بالمعرفة هنا استيقان القلب لصحة الرسالة فمن كتم الحقَّ مع العلم بصدقه فكفره كفر جحود. قال تعالى عن الجاحدين: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[النمل:١٤].

«﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾: في ظاهر أمرهم، ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾: أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلۡمٗا﴾: أي ظلمًا من أنفسهم سجية ملعونة، و﴿وَعُلُوّٗا﴾: أي استكبارًا عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة»(٤).

وقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣] فإنهم لا يكذبونك: أي لا يعتقدون كذبك.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤)، «معالم التنزيل» (١/ ٤٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٠٠٦).

ومما ورد في سبب نزولها أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: «إنا لا نُكَذِّبك ولكن نكذِّبُ بما جئت به»[١].

فتبين بذلك أنهم يعلمون صدقه ولكنهم جحدوا ذلك حبًا للزعامة والرياسة، وقد **أجمع العلماء على كفر الجاحد**[٢] سواء جحد جميع الرسالة أو بعضها مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٤ - **كفر النفاق**: أن يكفر بقلبه ويقرَّ بلسانه[٣].

قال الإمام أحمد: «النفاق هو الكفر أن يكفر بالله ويعبد غيره ويظهر الإسلام في العلانية»[٤]، وقال علي بن المديني: «النفاق هو الكفر: أن يكفر بالله عز وجل ويعبد غيره في السر، ويظهر الإيمان في العلانية»[٥]، وبمثله قال البربهاري[٦] وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٨].

«أجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق وأن هذه الصفة صفتهم»[٧].

وقال الحسن البصري: «كانوا يقولون: من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية»[٨].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٨٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٣٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤) و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، و«تفسير السمعاني» (١/ ٤٦).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٢)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٥) و(١/ ٣١١).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٩).

(٦) «شرح السنة» (٣٠).

(٧) «جامع البيان» (١/ ١١٦).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٦٩٠).

وبيّن الله واقعهم لرسوله ﷺ فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١] «أي واللهُ يشهد إنّ المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد إنك لرسولُ الله وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك»(١).

فكفر النفاق أغلظ أنواع الْكُفْرِ وذلك لأنهم وصل إليهم من معرفة الدين وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة وسبب وصوله إليهم أنهم خالطوا المسلمين وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء «فالمنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم تجاهل، وأَقَرَّ ثم أنكر وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرًا وأخبث قلبًا وأعتى على الله ورسوله فاستحق الدرك الأسفل من النار»(٢).

٥- كفر التكذيب: هو اعتقاد كذب الرسول ﷺ فيما أخبر به(٣).

والتكذيب يقابله التصديق، فإذا انتفى تصديق القلب كان الكفر كفر تكذيب قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[العنكبوت:٦٨].

«والتكذيب أَخَصُّ من الكفر، فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر وليس كل كافر مكذبًا»(٤).

قال ابن بطة: «فكل من ترك شيئًا من الفرائض التي فرضها الله ﷻ في كتابه أو أكدها رسول الله ﷺ في سنته على سبيل الجحود لها والتكذيب بها فهو كافر بيّن الكفر، لا يشك

(١) «جامع البيان» (١٤/ ١٠٦).

(٢) «طريق الهجرتين» (٤٠٣-٤٠٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٧٩).

في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر»[١].

وهذا أمر مُجمع عليه عند أهل العلم[٢]. وصار التكذيب كفرًا لأنه إبطال لدين الله تعالى.

٦- **كفر الشكّ**: الشكّ هو التردد وعدم الجزم بصدقه ولا بكذبه. كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥].

«﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في شكهم متحيرون وفي ظلمة الحيرة مترددون لا يعرفون حقًا من باطل»[٤].

وصاحب الجنة كفر بمجرد شكه في البعث كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٥-٣٧].

وكُفْرُ الشاكِّ في أمرٍ من أمور الدين المعلومة بالضرورة أمر مجمع عليه عند أهل العلم، بل أجمعوا على كفر من شك في كفر الكافرين من يهود ونصارى ومشركين[٥].

---

(١) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٦٤).

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ١٠٧٣ و١٠٧٦).

(٣) «الضياء الشارق» لسليمان بن سحمان (٣٧٤).

(٤) «جامع البيان» (١٠/ ١٤٣).

(٥) «الشفاء» (٢/ ١٠٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٨).

٧- **كفر الإعراض:** الإعراضُ هو الصدود والتولي التام عن النظر في دين الرسول ﷺ.

قال تعالى واصفًا الكفار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾[الأحقاف:٣] أعرضوا عن النُّذُر، فلا يريدون العلم ولا الإيمان.

والمعرضون لا أَظْلَمَ منهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[الكهف:٥٧].

أي: «فأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يصغ لها ولا ألقى لها بالًا»[١].

وصفة الإعراض «أن يُعْرِضَ بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ «والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك[٢]»[٣].

وضابط الإعراض المكفر «هو الإعراض عن تعلم الأصل الذي يدخل به الإنسان في الإسلام لا ترك الواجبات والمستحبات»[٤].

٨- **كفر السب والاستهزاء:**

السب: هو الشتم الوجيع[٥]. وهو الوصف بما يقتضي النقص. وضابطه «ما عده أهل العرف سبًا وانتقاصًا أو عيبًا أو طعنًا ونحو ذلك فهو من السب»[٦]. قال تعالى في حق من استهزأ بالنبي ﷺ ومن معه من أصحابه في غزوة تبوك كفر هو ومن معه، وخرجوا من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨٢٣).

(٢) «سير ابن هشام (٢/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٤) «الدرر السنية» (١٠/ ٤٧٣).

(٥) «المفردات» (٢٢٤).

(٦) «الصارم المسلول» (٥٣١) وانظر: (٥٤٠ و٥٤٦).

الملة بذلك قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦](١).

والسب أعظم وأشنع من مجرد الكفر لأن «السب والشتم إفراطٌ في العداوة وإبلاغ في المحادة مصدره شدة سفه الكافر وحرصه على فساد الدين وإضرار أهله»(٢)، ومما يبين أن السب قَدْرٌ زائد على الكفر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[الأنعام:١٠٨].

«ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله ﷺ ثم نهي المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم الله، فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادى»(٣).

وقد أجمع العلماء على كُفْرِ من سب الله أو سب رسوله ﷺ(٤).

قوله: مشرك كافر: أي اتصف بالشرك والكفر معًا فاجتمعا فيه، فهو مشرك لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله وكافر لأنه عاند الله في أمره ونهيه.

والقاعدة تقول: «**كل مشركٍ كافرٌ وليس كل كافر مشركاً**».

قال شيخ الإسلام: «كل مشركٍ مكذب برسول الله متنقص له، وليس كل من كذب الرسول أو تنقصه يكون مشركًا»(٥).

---

(١) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٢٩) رقم (١٠٠٤٧)، و«جامع البيان» (١٤/ ٣٣٣-٣٣٤) رقم (١٦٩١٢).

(٢) «الصارم المسلول» (٣٦٩).

(٣) «الصارم المسلول» (٥٥٢).

(٤) «التمهيد» (٤/ ٢٢٦).

(٥) «الرد على البكري» (١٤٧).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المؤمنون:١١٧].

....

مَنْ: شرطية.

يدع: فعل الشرط وجوابه «فإنما حسابه عند ربه». وكلمة يدع تشمل نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

مع الله: مع تفيد المشاركة؛ فمن دعا غير الله فقد جعله شريكًا لله في العبادة، ولهذا قال: «إلهًا آخر» فكلمة الإله تطلق على كل معبود حقًا كان أو باطلًا. ولفظة «إلهًا آخر» تشمل كل معبود غير الله من مَلَكٍ أو نبي أو ولي أو غير ذلك.

لا: نافية للجنس.

برهان له به: البرهان: هو الحجة والبينة والدليل الذي لا يترك في الحق لَبْسًا.

وقوله لا برهان له به: صفة كاشفة مطابقة للواقع لازمة له.

وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام:٣٨] ومعلوم أن كل طير إنما يطير بجناحيه.

وجيء بها للتوكيد. وهي تفيد التهكم بمدعي إله مع الله تعالى(١).

والمعنى كل من دعا مع الله غيره فلا حجة له ولا بينة له على فعله.

«ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ لا مفهوم مخالفة له فلا يصح أن يقال: أما من عبد معه إلهًا آخر له برهان به فلا مانع من ذلك لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه بل البراهين القطعية المتواترة دالة على أنه هو المعبود وحده جلّ

---

(١) «تفسير القاسمي» (١٢/ ٤٤٢٢).

وعلا ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة»[١].

فكلُّ دعوى بألوهية أحد مع الله هي دعوى ليس لها برهان لا من الدلائل الشرعية ولا الكونية ولا من الفطرة ولا من العقل.

فإنما حسابه: الفاء رابطة لجواب الشرط.

والحساب هو الجزاء على الفعل، ولم يبين ما هو جزاؤه ليكون أبلغ في الزّجْرِ.

وخص الحساب بأنه عند ربه ليفيد أمرين:

١- أنّه القادر على المجازاة والعقاب على هذا الفعل السيء فقط، ولن ينجو أحدٌ من أهل الشرك من عقابه.

٢- إذا استشعر العبد أن العقاب عنده وحده أوجب له ذلك إفرادَهُ بالعبادة، والخوفَ منه وحده فقط والبعد عن الشرك وعبادة الأصنام؛ لأنها لا تستطيع أن تعاقب ولا تثيب.

إنه: إن للتوكيد، الهاء: ضمير الأمر والشأن.

لا يفلح: لا نافية تنفي الفلاح عن الكافرين. والفلاح: هو الظفر وإدراك البغية.

ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه فلا يدرك ما يريد ولا يظفر به. وهو خالد مُخَلَّدٌ في النار، ولهذا فإنه في الغالب يؤخر عذابه حتى يلقى ربه ليكون عذابه أشدّ.

الكافرون: الكفر هو الستر والتغطية وسمي الكافر كافرًا لأنه يغطي الحق.

قال شيخ الإسلام: «حقيقة الكفر ومسماه هو عدم الإيمان باتفاق المسلمين»[٢].

فالكافرون هم الذين ليس عندهم شيء من الإيمان، وأتى بالكافرين بالألف واللام ليبين أن كفرَهم أكبرُ ناقل عن الملة.

---

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٨٣٣) وإن شئت الاستزادة فراجعه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٦).

وقبل أن نبدأ بالأدلة يحسن كتابة قاعدتين توضحان الاستدلال بها وهما:

القاعدة الأولى: كل أمر أَمَرَ الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

مثال ما أمر به، قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:١١٠].

وأما ما مدحه كقوله: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة:١٩]، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنة»(١).

وقال ﷺ: «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»(٢).

أما الثناء على من فعله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠]، وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾[الإنسان٧].

القاعدة الثانية: ما كان صَرْفُه لله عبادة فَصَرْفُه لغير الله شِركٌ.

يوضحها المثال: قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥].

فالدعاء مما أمر الله به فهو عبادة يجب صرفه لله، فيدعى وحده، ومثله الصلاة والزكاة والرغبة والرهبة والنذر وغيرها، فيصلي لله، ويزكي لله، ويرغب إلى الله، ويرهب الله، وينذر له وحده، فمن دعا غير الله فقد أشرك، ومن دفع زكاة ماله قاصدًا غير الله فقد

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٦٤)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. رقم (٧٤٩٢).

(٢) مسلم (١/ ٢٠٣)، كتاب «الطهارة»/ باب فضل الوضوء. رقم (٢٢٣).

أشرك، ومن رغب إلى غير الله فقد أشرك، ومثله لو رهب غير الله، ونذر لغير الله، ونحو ذلك.

وفي كتاب التوحيد بوب المؤلف بابًا سماه: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» ثم ذكر تحته قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] فكيف يكون الاستدلال بهذه الآية؟

وجه الاستدلال أن الله أمره أن يكون ذبحه لله فيكون الذبح عبادة فلو صرفه لغير الله صار شركًا.

وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»(١).

....

الدعاء مخ العبادة: أي خالص العبادة ولُبُّها، فَمُخُّ الشيء هو خالصه ولبه، وصار الدعاء مخ العبادة لأنه تَبرُّؤٌ من الحول والقوة واعتراف بأن الأشياء كلها منه وله ﷻ.

قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[غافر:١٤].

«وضع كلمة الدين موضع كلمة الدعاء -وهو في القرآن كثير جدًا- يدل على أن الدعاء هو لُبُّ الدين وروحُ العبادة»(٢).

فمعناه أن الدعاء هو أعظم العبادة وذلك كقوله ﷺ: «**الحجُّ عرفَة**»(٣) أي ركنه

---

(١) الترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعوات»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧١)، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». والطبراني في «الدعاء» (٢/ ٧٨٩) رقم (٨)، قال الألباني بعد أن ضعفه: «لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان». «أحكام الجنائز» (٢٤٧). ويظهر أن المؤلف أتى به هنا لأن اللفظ أصرح في بيان أهمية الدعاء فهو تفسير لقوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» فلا يضر ضعفه. وفعل ابن باز يشعر بذلك حيث قال عند هذا الحديث وفي الحديث «**الدعاء مخ العبادة**» وفي لفظ آخر: «**الدعاء هو العبادة**» «شرح الأصول الثلاثة» لابن باز (٤٦).

(٢) «القواعد الحسان» (١٥٥).

(٣) أحمد (٤/ ٣٠٩)، والترمذي (٣/ ٢٣٧)، كتاب «الحج»/ باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع، فقد أدرك الحج. رقم (٨٨٩)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦)، كتاب «المناسك»/ باب من لم يدرك عرفة. رقم (١٩٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣)، كتاب «المناسك»/ باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع. رقم (٣٠١٥)، والنسائي (٥/ ٢٥٦)، كتاب «مناسك الحج»/ باب فرض الوقوف بعرفة. وصححه النووي في «المجموع» (٨/ ٩٥)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٦/ ٢٣٠)، «قال سفيان بن عيينة: هذا أجود حديث رواه سفيان الثوري. قال أبو عيسى: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق».

الأعظم[١] ويقويه الحديث الذي رواه النعمان بن بشير ﭬ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: «**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادة ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [غافر: ٦٠][٢].

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (٥).

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٧) رقم (٧١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٥٠)، والترمذي (٥/ ٤٥٦)، كتاب «الدعاء»/ باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (٢/ ١٦١)، كتاب «الصلاة»/ باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨)، كتاب «الدعاء»/ باب فضل الدعاء. رقم (٣٨٢٨)، وصححه النووي في «الأذكار» (٣٨٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال ابن حجر: «أخرجه أصحاب السنن بسند جيد». «فتح الباري» (١/ ٤٩).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

....

وقال ربكم: أتى بكاف الخطاب ليدل على اختصاصهم بالرب جل وعلا، وذلك لأنهم عبدوه وحده دون المشركين.

ادعوني أستجب لكم: هذا من كرم الله ولطفه بعباده أَنْ دعاهم لما يصلح حالهم وهو دعاؤهم إياه ووعدهم بالاستجابة.

قال ابن عباس: وحِّدُوني أَغْفِرْ لكم، وقال السدي: سلوني أُعْطِكُمْ فيكون معنى أستجب لكم: أتقبل عبادتكم وأغفر لكم وأعطكم.

فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة(١).

قال الشوكاني: جعل جزاء الدعاء الإجابة ولهذا جزمه لكونه جوابًا للأمر(٢).

وقال القرطبي: «أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط»(٣)، وهذا من كمال فضله وجوده وإحسانه.

الباعث للدعاء ونتيجته:

يبعث على الدعاء أحدُ أمرين:

١- **طلب الحاجة وتفريج الكربة**: فيتضرع إلى الله بالدعاء ثم يفتح له التضرع من أبواب الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ما يكون أحب إليه من تلك الحاجة التي أهمته.

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ١٠٣).

(٢) «رسالة في وجوب توحيد الله عزَّ وجلَّ» (٥٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٧).

٢- العبادة والإنابة وامتثال الأمر: وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية[١].

إن الذين يستكبرون: الاستكبار هو التعالي والتعاظم الذي يقود الإنسان إلى الامتناع عن قبول الحق والإذعان لله بالعبادة.

«فمن استكبر عن عبادة الله فلم يستسلم له فهو مُعطِّلٌ لعبادته وهو شر من المشركين، كفرعون وغيره»[٢].

عن عبادتي: أي عن طاعتي والخضوع لي.

سيدخلون جهنم: أي فعقوبتهم دخولهم النار دخولًا أبديًا جزاءً لهم على عدم عبادتهم لله.

داخرين: الداخر: هو الذليل الصاغر، أي: أنهم حال دخولهم النار ذليلين مهانين صاغرين.

وذلك أن العبادة لله هي غاية التذلل والافتقار والمسكنة له سبحانه فلما استكبر ولم يرض بالتذلل لله في الدنيا أذله الله يوم القيامة. وجعل جزاء ذلك النار والهوان والصغار.

فاجتمع عليهم عذابان:

١- حسي.

٢- معنوي.

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) «الصفدية» (٢/ ٤١٣).

وهذه الآية تضمنت نوعي الدعاء وهي في دعاء العبادة أظهر ولهذا أعقبها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [غافر:٦٠][١].

وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين ﴿ٱدْعُونِي﴾ أي اعبدوني وأطيعوا أمري أستجب دعاءكم، وقيل: سلوني أعطكم. وكلا المعنيين حق[٢].

تطبيق القاعدة الأولى: وهي كل أمر أَمَرَ الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

نظرنا إلى الآية فإذا فيها الأمر بدعاء الله.

إذًا: الدعاء عبادة.

تطبيق القاعدة الثانية:

ما كان صرفه لله عبادة فصرفه لغير الله شرك فنقول لما كان الدعاء لله عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

فمن دعا غير الله فقد أشرك.

(١) «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤/ ٢٩٧).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٣).

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

....

أول هـذه الآيـة قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

إنما: تفيد الحصر.

ذلكم: إشارة إلى جميع ما جرى من أخبار الركب الذين طلب منهم أبو سفيان أن يبلغوا رسولنا محمدًا ﷺ الرسالة.

والشيطان: هو المثبط لكم بمكره ومن مكره أنه ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي يخوف المؤمنين من أوليائه ولهذا قال الله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقيل: يخوفكم بأوليائه يعني: يعظمهم في صدوركم لئلا تجاهدوهم وتأمروهم بالمعروف وتنهوهم عن المنكر.

كأن يقول: عندهم من القوة والعتاد ما ليس باستطاعتكم مُقَابَلَتُهُ، والمقصود: «بأولياء الشيطان» هم جندُه وأنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر والكفر.

فلا: لا ناهية تفيد التحريم والمنع.

تخافوهم: أي لا تخافوا أنصار الشيطان وامضوا فيما أمرتكم به وأوجبته عليكم من الجهاد ونصرة الدين.

وخافون: أي أن الذي يجب أن يُخَافَ هو الذي يملك الأمور وهو الله وحده.

إن: شرطية.

كان: فعل الشرط، **وكنتم مؤمنين**: جملة الشرط.

فإذا وجد الشرط وجد المشروط وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط، فإذا وجد الإيمان وجد الخوف من الله وحده.

وإذا انتفى الإيمانُ وجِدَ الخوفُ من غير الله.

«فَكُلَّما قَوِيَ إيمانُ العبد زال مِنْ قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»[١]. قال الإمام أحمد: «لو صححت ما خفت أحدًا»[٢]. وجواب الشرط محذوف تقديره: فخافوني. أي فلا تخافوهم وخافوني.

ويؤخذ من قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فائدتان:

١ - أن الإنسان إذا كان الله معه فإنه لا يغلب ولكن يحتاج إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام.

٢ - أن وساوس الشيطان التي يلقيها على ابن آدم لا يمكن صرفها إلا بالإيمان[٣].

أقسام الخوف في هذه الآية:

١ - تخويف الشيطان للمؤمنين بأوليائه أو من أوليائه وهذا شرك (الخوف الشركي).

٢ - أَمْرُ الله المؤمنين أن يخافوه وحده وهذا إيمان وتوحيد (الخوف العبادي التوحيدي).

تطبيق القاعدة:

أَمْرُ الله بالخوف منه يدل على أن الخوف عبادة، فصرفه لغير الله شرك، فالخوف من غيره شرك أكبر.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٠).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٣) انظر: «القول المفيد» (٣/ ١٦٨).

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [**الكهف:١١٠**].

....

قال الله قبل هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فالنبي ﷺ بشر أكرمه الله بالوحي. وأعظم ما أكرمه به هو أن إلهه إله واحد وهو الله فمن آمن به وجب أن يوحده ويفرده بالعبادة.

فقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: إنما تفيد الحصر فيكون معناها: ما أنا إلا بشر مثلكم فلا حق لي من العبادة، ثم بين من يستحقها، فقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أنما تفيد الحصر والقصر فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد وهو الله، فإذا ثبت ذلك فإنه لا يليق بكم أن تشركوا معه غيره في العبادة[1] ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾.

من: شرطية.

كان: فعل الشرط.

ويرجو لقاء ربه: جملة فعلية خبر كان أي يؤمل لقاء ربه لقاء رضا وقبول، وهو اللقاء الخاص بالمؤمنين.

فليعمل: الفاء رابطة لجواب الشرط. واللام لام الأمر، والمقصود بالعمل هو فعل الطاعات.

والأمر هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه فليعمل عملًا صالحًا[2].

صالحاً: صفة للعمل والعمل الصالح ما كان موافقًا للشرع في هيئته ونيته. أما في

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

هيئته، فلقوله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا؛ فهو رَدّ**»(١).

ونيته: أي مُبْتَغىً به وَجْهُ الله تعالى لقوله ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات**»(٢)(٣).

ولا يشرك: لا ناهية.

أي لا يعبد ربه رياءً وسمعة ولا يصرف شيئًا من حقوقه لأحد من خلقه.

بعبادة ربه: خص العبادة لأنها خالص حق الله تعالى ولهذا أتى بعدها بكلمة ربّ إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولم يشاركه أحد في خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده(٤).

أحدًا: نكرة في سياق النهي فتفيد تأكيد العموم.

مفهوم المخالفة للآية: أن الذي يشرك أحدًا في عبادة ربه ولا يعمل صالحًا، أنه لا يرجو لقاء ربه، والذي لا يرجو لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾[الكهف:١٠٥-١٠٦] لأن من كفر بلقاء الله فإنه لا يرجو لقاءه، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣] وغير ذلك كثير(٥).

فدلت الآية بمنطوقها ومفهوم المخالفة أيضًا أن الراجي حقيقة لا يقع منه الشرك، ومن وقع منه الشرك فرجاؤه غير حقيقي ولا مقبول.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالعمل الذي هو علامة الرجاء الحقيقي بل لا رجاء إلا به فدلَّ على أن الرجاء عبادة. ولما كان الرجاء عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذان الحديثان ميزانا الأعمال فالأول: ميزان الأعمال الظاهرة، والثاني: ميزان الأعمال الباطنة.

(٤) «القول المفيد» (٢/ ٢٣٠).

(٥) «أضواء البيان» (٤/ ١٩٩).

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣].

....

بعد أن ذكر قصة موسى عليه السلام مع قومه وكيف أنهم جبنوا عن الدخول إلى الأرض المقدسة بيّن أن أهم ما يعينهم على الدخول هو صدق الاعتماد والتوكل على الله تعالى فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

الواو: استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتوصيتهم بالتوكل على الله.

على الله فتوكلوا: أي اعتمدوا على الله وفوضوا أموركم إليه وحده.

إن: شرطية. **كنتم**: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي **فتوكلوا** وهذا دليل على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر أي لا تتوكلوا إلا على الله، لا على غيره فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو مِنْ أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥][1].

قال ابن القيم عند هذه الآية: «فجعل التوكل شرطًا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل»[2].

مَنْ: شرطية.

يتوكل على الله: أي يعتمد عليه ويفوض أمره إليه، ويتوكل فعل الشرط.

---

(١) «فتح المجيد» (٢/ ٥٨٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٥).

فهو حسبه: أي كافيه من كل سوء مكروه.

فجعل التوكل سببًا لكفاية الله عبده ولهذا قال الله لما أمر رسوله بالتوكل عليه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء:١٧١].

قال ابن مسعود: «إن أكبر آية في القرآن تفويضًا ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]»[١].

قال الربيع بن خثيم: «من كل ما ضاق على الناس»[٢].

«وفي هذه الآية دليل على أن التوكل على الله أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْبًا له»[٣].

«حسبه: أي كافيه ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذىً لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما ما يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبدًا... قال بعض السلف: «جعل الله لكل عمل جزءً من نفسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره»[٤].

---

(١) «جامع البيان» (٢٨/ ١٤٠)، والتوكل على الله لابن أبي الدنيا (٨٧) رقم (٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٠٥) كتاب «الرقاق»/ باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠٢).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٠).

ومن الأمثلة على أن من توكل على الله كفاه شر عدوه: ما حدث للصحابة بعد معركة أحد حيث إن عدوَّهم لما قفلوا راجعين إلى مكة تشاوروا أن يرجعوا إلى المدينة ليستأصلوا شأفة المؤمنين على حدِّ زعمهم ولكن المؤمنين توكلوا على ربهم فكفاهم كيد عدوهم ورده خاسئًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤] «عقّب الله هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل، بحرف الفاء وهي تفيد السبب فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل.

وفي الأثر: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[(١)][(٢)].

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالتوكل عليه وحده فدل على أن التوكل عبادة يجب صرفها لله سبحانه وحده.

ولما كان التوكل عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) «جامع الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام (١/ ٩٠).

(٢) وقد رفعه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف في كتابه «التوكل على الله» (٦٠) رقم (٦٠).

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

....

إنّ: للتوكيد.

هم: يعود على جميع الأنبياء المذكورين في السورة على القول الراجح.

يسارعون في الخيرات: الخيرات كل طاعة، مدحهم الله في مسارعتهم في فعل الطاعات لدلالته على حرصهم العظيم على ما يقربهم من ربهم، قال القاسمي: «إيثار «في» على «إلى» للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير»[١].

ويدعوننا رغبًا ورهبًا: رغبًا في رحمة الله ورهبًا من عذابه فجمعوا بين الخوف والرجاء وهذه هي حال عباد الله الصالحين، قال عبدالله بن حكيم: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو له أهل وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٢].

وقال ابن زيد: «خوفًا وطمعًا ليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر»[٣].

وكانوا لنا خاشعين: مُخبتين متواضعين أذلاء وذلك لكمال معرفتهم بربهم.

---

(١) «تفسير القاسمي» (١١/ ٤٣٠٥).

(٢) «المصنّف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨).

(٣) «جامع البيان» (١٠/ ٨٤).

فضموا إلى المسارعة بفعل الطاعات أمرين:

١ - الفزع إلى الله وذلك بالرغبة في الثواب والرهبة من العقاب.

٢ - المخافة الثابتة في القلب. فالخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفًا من الإثم.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الراغبين الراهبين الخاشعين ومدحهم فدل ذلك على أن الرغبة والرهبة والخشوع عبادة يجب إخلاصها كلها لله.

ولما كانت الرغبة والرهبة والخشوع عبادات صار صرف كلٍّ واحدة منها لغير الله شركاً.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة:٣].

....

أما الخشية فإن الله لما ذكر الله المحرمات التي كان يفعلها الكفار نهى عنها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي خروج عن أمر الله وطاعته إلى ما نهى عنه وزجر من معاصيه وفي الغالب يكون خروج الإنسان من الطاعة إلى المعصية ومن التوحيد إلى الشرك بسبب خوفه من الناس وخشيته منهم. لأجل ذلك بيَّن الله ضعف الكافرين فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾[المائدة:٣]، ولما أخرج هيبتهم من قلوب المؤمنين نهى عن خشيتهم، وأوجب خشيته وحده، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾[المائدة:٣].

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فاء التفريع والسبب، أي: بسبب ضعفهم لا تخشوهم.

لا: ناهية تفيد التحريم والمنع من خشية غير الله، لأنه لا يملك النفع والضر إلا الله كما في حديث ابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّة لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَك، ولَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُروكَ لَمْ يَضُروكَ إلاَّ بِشَيءٍ قدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْك**»[(١)].

﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: أي أفردوا الله بالخشية كي تسعدوا في الدنيا والآخرة فإنه هو المستحق لها وحده كما قال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١٣] والأمر للوجوب بل هو أعظم الواجبات لأنه أمر بتوحيده وإفراده سبحانه بالخشية، ونهى عن خشية الناس.

وأمر سبحانه بإفراده وحده بالخشية لأمرين:

١- أن غيره لا يملكون القوة فليس لخشيتهم مسوِّغ ولا فائدة بل هي مضرة.

٢- لأن خشية الناس شرك، وخشية الله عبادة فلا يجتمعان في قلب عبد أبدًا.

---

(١) سبق تخريجه.

وخشية الله رأس كل خير فهي أساس العلم ورأسه قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار به جهلًا»[1] وقال أيضًا: «رأس الحكمة مخافة الله»[2].

تطبيق القاعدة:

أمر الله بخشيته وحده فدلَّ على أن الخشية عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الخشية عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٧٧).

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾[الزمر:٥٤].

....

وبعد أن ذكر الله المشركين والعصاة من بني آدم -بين أن لهم موعدًا سيندمون فيه ويتحسرون على ذنوبهم وتفريطهم حتى تصل بهم الرغبة بالخلاص من هوله وشدته أن لو افتدوا بما في الأرض جميعًا ومثله معه ولكن هيهات، لا يمكنهم ذلك، ثم فتح لهم بابًا يسلمون إن هم ولجوه في هذه الدنيا وهو باب الرجاء المستلزم للتوبة والعمل الصالح، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣] ثم بيَّن لهم أعظم أسباب المغفرة وهي الإنابة إليه والإسلام له، فليسارعوا إليها قبل حلول العذاب.

فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: الإنابة: هي الرجوع إلى الله بمعرفته والإقبال عليه والإعراض عما سواه أي: ارجعوا إلى ربكم وأعرضوا عن غيره.

﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾: الإسلام: هو الخضوع والطاعة. وقيل: أخلصوا له العمل، قال البغوي: أخلصوا له التوحيد.

فيكون المراد بالإسلام هنا الإسلامَ الشرعيَّ لأمر الله، فهو استسلام لله بالتوحيد وانقياد له بالطاعة وبراءة من الشرك وأهله.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالإنابة إليه وحده فدلّ على أن الإنابة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الإنابة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]. **وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»**[١].

....

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي إياك نوحد ونخاف ونرجو، فحصر العبادة لله تعالى، سواء كانت العبادة قلبية أو بدنية وذلك أنه قدم ما حقه التأخير وهو المعبود ليفيد الاختصاص والحصر فهو بمثابة قول القائل: لا نعبد إلا إياك.

وإياك نستعين: أي لا نستعين في أمورنا وعبادتنا إلا بك فقدم ما حقه التأخير وهو المستعان به ليفيد الاختصاص والحصر، فهو بمثابة قول القائل: لا نطلب العون إلا منك وحدك، «وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر»[٢].

قال بعض السلف: «الفاتحة سِرُّ القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تَبَرُّؤٌ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحوْل والقوة»[٣].

وينبغي أن يعلم أن القلب فيه فقر ذاتي إلى ربه ومعبوده فلا تحصل له الراحة واللذة والطمأنينة إلا بعبادة ربه ولا يستطيع أن يعبد ربه إلا بإعانته له فهو مفتقر دائمًا إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولهذا كان النبي ﷺ يربي صحابته على الاستعانة بالله وحده كما في حديث ابن عباس: «**وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٢).

(٣) «تفسير القاسمي» (٢/ ١٢).

(٤) سبق تخريجه.

وقدم العبادة على الاستعانة في الآية لأمور:

١- أنَّ العبادة غاية والاستعانة وسيلة فالغاية مقدمة على الوسيلة[١].

٢- إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه الله، وإياك نستعين متعلق بربوبيته واسمه الرب، فقدم إياك نعبد كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة.

٣- العبادة المطلقة تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابدٍ لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس.

٤- العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.

٥- العبادة: حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة.

٦- العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، وكلما كان العبد أتم عبودية لله كانت الإعانة من الله له أعظم.

٧- «(إياك نعبد) له (وإياك نستعين) به، وما «له» مقدم على ما «به»؛ لأن ما «له» متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته»[٢].

فائدة تكرار إياك: الدلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحدٍ من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه[٣].

أما قوله: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله**»: «أي إذا أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة»[٤]، فاستعن بالله وحده.

---

(١) «النبوات» (١/ ٣٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٧٦-٧٧).

(٣) المرجع السابق (١/ ٧٨).

(٤) «تحفة الأحوذي (٧/ ٢٢٠).

فعليك أن تحصر الاستعانة بالله فتفرده بها فلا تستعين بغيره.

تطبيق القاعدة:

أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله وحده فدلّ على أنَّ الاستعانة عبادةٌ يجب صرفها لله وحده. ولما كانت الاستعانة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١].

....

قل: يا محمد.

أعوذ برب: أي ألوذ به وألتجئ وأعتصم بالرب، وهو الله جل وعلا وأستجير به.

الفلق: كل ما فلقه الرب فهو فلق، قال الزجاج: الفلق: بَيانُ الصُّبْح، ثم ذكر قولاً آخر فقال: والفلق الخلق. وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق؛ كانفلاق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، فالفلق جميع المخلوقات وفلق الصبح من ذلك[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[الأنعام:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[الأنعام:٩٦].

فالمعنى أن القادر على إخراج النبات من الأرض وإنزال المطر من السحاب والقادر على إزالة الظلمة وإحلال النور محلها قادر على أن يدفع عن المستعيذ كل ما يخافه من شرور الإنس والجن. فاستعذ به وحده.

قل أعوذ: أي قل يا محمد أعوذ.

برب الناس: الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره.

وخص الناس بالذكر لأنهم هم المستعيذون بربهم الذي يصونهم من شر كل ذي شر.

ففي الآيتين:

١- مستعاذ به: وهو رب الفلق والناس.

٢- مستعيذ: وهو النبي ﷺ وأتباعه من المؤمنين.

(١) «تهذيب اللغة» (٩/ ١٥٦-١٥٧).

٣- مستعاذ منه: وهو شر كل ذي شر ومنه الوسواس والغاسق إذا وقب والنفاثات والحاسد.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالاستعاذة به وحده فدلَّ على أن الاستعاذة عبادةٌ يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الاستعاذة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

....

خرج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يريدون عير قريش فأراد الله غير ذلك، فَنَجَّا العيرَ منهم، ولكن قريشًا خرجت بخيلائها وفخرها وجيوشها تحارب المسلمين، وليس مع المسلمين من العدة والعتاد ما يكفي للقاء العدو فوقعوا في شدة عظيمة حتى إن النبي ﷺ خشي أن تموت هذه العُصابُة فلا يعبد الله أبدًا.

فاستغاث بربه فاستجاب الله دعاءه ونصره ومَنْ معه من المسلمين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا. فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه «**اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني. اللهمَّ آت ما وعدتني. اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة(١).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي تطلبون الغوث(٢) من ربكم، وتستجيرون به من عدوكم.

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٤)، كتاب «الجهاد»/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم. رقم (١٧٦٣).

(٢) وهو التخلص من الشدة.

«إذ: متعلق بفعل محذوف تقديره واذكروا إذ تستغيثون»[١].

والمغيث بمعنى المجيب لكن الإغاثة أخص بالأفعال والإجابة أخص بالأقوال وقد يقع كلٌّ منهما موقع الآخر[٢].

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾: أي فأجاب دعاءكم وأمدكم بالملائكة ونصركم على عدوكم فهو المغيث في الكرب والشدائد فاستغيثوا به وحده.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على المستغيثين به وحده مؤكدًا هذا الثناء باستجابته لاستغاثتهم به وهذا دليل رضاه عنهم إذْ حصروا الاستغاثة به وحده فدل على أن الاستغاثة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الاستغاثة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

---

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٥)، و«الرد على البكري» (٢١٤).

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

ومن السنة: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»(١).

....

﴿قُلْ﴾: أي يا محمد قل للمشركين رافعًا صوتك مبينًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص وأنك مخالف لما هم عليه من الشرك.

﴿صَلَاتِي﴾: جميع الصلوات التي أُؤديها.

﴿وَنُسُكِي﴾: أي ذبحي(٢) لله تعالى، فالنُّسُك هو الذبيحة ابتغاء وجهه، لذلك جعله الله تقوى فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[الحج:٣٧]، وذلك أنّ «الذبحَ للمعبود غايةُ الذل والخضوع له»(٣).

وسميت الذبيحة نسكًا لدخولها تحت التعبد ولهذا لا يسمون ما يذبح للأكل نسكًا.

والذبح لله وحده هو الموافق للفطرة ولذلك لما استقامت فطرة زيد بن عمرو بن نفيل استنكر على قريش الذبح لغير الله فعن عبدالله بن عمر، قال: «إن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: إني لست آكلُ مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكلُ إلا ما ذكر اسم الله عليه وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها

---

(١) مسلم (٣/ ١٥٦٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، ولعن فاعله. رقم (١٩٧٨).

(٢) وهذا هو الذي رجحه جمع من السلف، انظر «جامع البيان» (٥/ ١١٢). وتفسير ابن كثير (٥١٧).

ورأى بعض أهل العلم أن معنى النسك أي العبادة بعمومها.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له»[(١)].

الحكمة من ذكر هاتين العبادتين والجمع بينهما:

أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به العبد إلى الله، فأجل العبادات البدنية الصلاة وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أصحاب القلوب الحية وأصحاب الهمم العالية فهي دالة على القرب والتواضع والافتقار وطمأنينة القلب إلى الله.

وأجل العبادات المالية النحر وما يجتمع للعبد في نحره من إيثار الله وحسن الظن به وقوة اليقين والوثوق بما في يد الله أمر عجيب. إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص[(٢)].

﴿وَمَحْيَايَ﴾: أي وما آتيه في حياتي من عمل صالح[(٣)].

﴿وَمَمَاتِي﴾: أي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح وما يكون بعد الموت كالوصية والتدبير[(٤)].

فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الألوهية كالصلاة والنسك.

وقيل: هو يحييني ويميتني[(٥)]، فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الربوبية.

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١-٥٣٢).

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ١٤٦)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٩٢).

(٤) المرجع السابق. وانظر: «حاشية ابن قاسم» على كتاب «التوحيد» (٩٦).

(٥) المرجع السابق. وقد ذكر هذين القولين عامة المفسرين.

والقول الأول أرجح لما يلي:

١- الآية التي قبلها. فإن الله أمره أن يصدع بالأصل الذي هو عليه، وهو التوحيد، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

٢- أن هذه الآية تابعة لما قبلها فَمَثَّلَ فيها بأعلى العبادات البدنية والمالية ثم عطف عليها جميع ما يفعله في حياته من طاعة لله وما يموت عليه من ذكره للشهادة عند الموت.

٣- قوله في الآية التي بعدها: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أني أمرت بإخلاص العبادة لله -سواء كانت صلاة أو نسكًا أو غيرها- ولو كنتم تخالفونني وتشركون مع الله غيره في العبادة.

أما توحيد الربوبية فلم ينازعوا رسول الله ﷺ فيه. فلم يَحْتَجْ أن يقول لهم أمرت أن أقر بأن الله هو المتصرف في حياتي ومماتي. والله أعلم.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي خالصة لله الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له فهو رب العالمين ومدبر أمورهم فلا يستحق العبادة غيره.

قال الطبري: «أي أَنّ ذلك كلَّه له خالصًا دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان»(١).

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾: أي لا أصرف لأحد منها شيئًا مهما عظمت مرتبته وعلا شأنه.

ودلت هذه الآية على وجوب التوحيد وإفراده لله بالعبادة من وجوه:

(١) تأكيدها «بإنّ» ومجيء التأكيد في الجمل الخبرية يفيد أن المخاطب مُنْكِرٌ لذلك أو مُنَزَّلٌ منزلة من أنكره فيكون الاستدلال بها على التوحيد لكونه خوطب بها من ينكر أن

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ١٢٥).

تكون الصلاة والذبح لله استحقاقًا وهم المشركون فدل على أنها في التوحيد وأن الذبح يجب أن يكون لله.

(٢) أن هذه الألفاظ الأربع «صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي» تدل على التوحيد وذلك لأن اللام في قوله «لله رب العالمين» متعلقة بمحذوف خبر إِنَّ فتفيد الاستحقاق.

(٣) قوله: «لا شريك له» فالعبادة كلها له والملك كله له سبحانه.

﴿وَبِذَٰلِكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بِأُمِرْتُ فيكون دالًا على الحصر والتخصيص وإنما خص بذلك لأنه أعظم المأمورات «أي الإخلاص لله ونفي الشرك»[١].

﴿أُمِرْتُ﴾: الآمر هو الله تعالى وأبهم الآمر للتعظيم والتفخيم[٢]. وفيه فائدة: وهي أن أَمْر النبي ﷺ بالتوحيد أمْرٌ لأمته.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أي أسبقهم انقيادًا لأمر الله تعالى وذلك لكمال علمه بالله والمسلمون هنا هم مسلمو أُمَّة محمد ﷺ فأولهم هو رسول الله ﷺ.

الأولية تطلق ويراد بها:

(١) الأولية الزمنية: فهو أول هذه الأمة إسلامًا لأنه نبيها.

(٢) أولية معنوية: وذلك أنه أكمل الخلق أجمعين إسلامًا وطاعة وتعبدًا فتكون أولية مطلقة.

(٣) أنه أول الخلائق يوم القيامة لقوله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة**»[٣]، وقوله ﷺ عن خازن الجنة أنه يقول له يوم القيامة: «أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»، ولا

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) مسلم (٢/ ٥٨٥)، كتاب «الجمعة»/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة. رقم (٨٥٥).

منافاة بينها فهي له كلها ﷺ.

لعن الله: أي لعنه وطرده وأبعده عن رحمته. ولعن: هنا خبر من النبي ﷺ «أن كل من ذبح لغير الله فهو ملعون ومطرود من رحمة الله. وذلك لأن الخبر أبلغ لأنه يفيد وقوع اللعن بخلاف الدعاء فقد يستجاب وقد لا يستجاب»[١].

من ذبح لغير الله: من: تفيد العموم أي كل ذابح لغير الله أَيَّ ذبيحة كانت فهو ملعون مطرود من رحمة الله.

لغير الله: أي كل ما سوى الله حتى لو كان المذبوح له ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا.

وذلك أن الذبح عبادة والعبادة خالص حق الله تعالى فلا يجوز صرفها لغيره، فهذا التصرف هو أظلم الظلم وأشنعه.

تطبيق القاعدة:

أمر الله نبيه ﷺ أن يكون ذبحه لله وحده فدلّ على أن الذبح عبادة يجب صَرْفُها لله وحده، ولما كان الذبح عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٢٢٣).

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

....

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: خبر وثناء[١]. ويدل لذلك ما قبلها من الآيات ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٥-٧].

قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم. كأنه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟[٢].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي يخافون من يوم القيامة وما فيه من الأهوال، ولذلك علّل سبب خوفهم فقال: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾: أي فاشيًا منتشرًا في السموات والأرض من انشقاق السموات وتناثر الكواكب، وفزع الملائكة، وتكوير الشمس والقمر، ونسف الجبال، وتسجير البحار، وغيرها، فخافوا أن ينالهم شره فتركوا كل سبب موجب لذلك.

وكانوا مخلصين لله في وفائهم بالنذر وإطعامهم الطعام فلذلك قبل الله منهم ووقاهم شر ذلك اليوم ولقَّاهم نضرةً وسرورًا.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الموفين بالنذر فدلَّ على أن النذر عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كان النذر عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٤٤).

(٢) «تفسير القاسمي» (١٧/ ٦٠١١).

تنبيه العقول

إلى

كنوز ثلاثة الأصول

تأليف/

د. عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الأصل الثاني: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

....

الدِّيْنُ لغة: «الدال والياء والنون أصل واحد إليه ترجع فروعه كلها وهو جنس من الانقياد والذل»(١). ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أَسْلَمَتْ ... له الأرض تحمل صخرًا ثقالًا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبًا زلالًا
إذا هي سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبَّت عليهم سجالًا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الريح تُصْرَفُ حالًا فحالا(٢)

أي استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الأرض والمزن والريح وانقادت له.

و«هو الطاعة والجزاء والعادة والخُلُق»(٣).

فالخلق يفسر بالدين وكذلك الدين يفسر بالخلق كما قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤] أي لعلى دين عظيم(٤).

حالات كلمة الدين بحسب اشتقاقها وتعديتها:

١ - أَنْ يتعدى بنفسه فيقال دانه دينًا فيكون بمعنى الحساب والجزاء ومنه ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣١٩).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٦).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٨١-١٨٢) و«تاج العروس» (٩/ ٢٠٨) و«المفردات» (١٨١) و«نزهة الأعين النواظر» (١/ ١٨٤) و«النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٤٨).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٠٧).

﴿ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة:٣] أي يوم الجزاء والحساب.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾[النور:٢٥] دينهم الحق: أي جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحق[١] ويكون بمعنى القهر فيقال دنته فدان أي قهرته فذل، فيكون من الأعلى إلى الأدنى.

٢- أَنْ يُعَدَّى باللام فيقال: «دان له» أي أطاعه وخضع له، ومنه قوله ﷺ لقومه لما شكوه على عمه أبي طالب: «**إنِّي أريد منهم كلمةً واحدةً تدين لهم بها العربُ، وتؤدي إليهم العَجَمُ الجزية...**»[٢].

أي تطيعهم وتخضع لهم[٣] فيكون من الأدنى إلى الأعلى.

٣- أن يعدى بالباء فيقال: «دان به» أي اتخذه دينًا وعادةً وخلقًا.

أما في الاصطلاح: «الدين هو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخُلُقًا»[٤].

الإسلام ينقسم إلى قسمين:

الأول: الإسلام العام: وهو دين الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم جميعًا.

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[يونس:٧٢] وقال مبينًا وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٦٥).

(٢) أحمد (١/ ٢٢٧)، والترمذي (٥/ ٣٦٥-٣٦٦)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة (ص). رقم (٣٢٣٢)، وقال: «هذا حديث حسن». واللفظ له، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨/ ٩٠) رقم (٨٧١٦).

(٣) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١٤٨).

(٤) «قاعدة في المحبة» (٣٢) لابن تيمية.

﴿وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢]. وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[النمل:٤٢] وغير ذلك من الآيات.

قال شيخ الإسلام: «وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو الإسلام: الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين وهو دين الأنبياء وأتباعهم كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين»(١).

الثاني: الإسلام الخاص: وهو مقصود المؤلف هنا، وهو الدين الذي بعث الله به نبينا محمدًا ﷺ وقد صار اسم الإسلام علمًا عليه، فإذا ذكر الإسلام عرف السامع أن المقصود به دين نبينا محمد ﷺ. وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

﴿وَمَن﴾: هنا شرطية فتفيد العموم أي أن عموم الخلق مطالبون باتباعه ومن لم يتبعه منهم فهو كافر مردود عليه عمله غير مقبول.

قال شيخ الإسلام: «قوله ومن يبتغ غير الإسلام دينًا. صيغة عامة، وصيغة «من» الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧، ٨]»(٢).

قال ابن جرير: «أي ومن يطلب دينًا غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه وهو في الآخرة من الخاسرين»(٣).

---

(١) «الجواب الصحيح» (١/ ٨١) وقد ذكر تسع أدلة على ذلك فراجعه إن شئت.

(٢) «الجواب الصحيح» (٢/ ١١٨) ولكلامه بقية فراجعه إن شئت.

(٣) «جامع البيان» (٣/ ٣٣٩).

وقال شيخ الإسلام: «الإسلام الخاص هو الذي بعث الله به محمدًا ﷺ المتضمن لشريعة القرآن، ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا»(١).

بالأدلة: الدليل هو المرشد والهادي الموصل إلى المقصود(٢).

فيجب تعلمها؛ لأن «من فارق الدليل ضل السبيل»(٣).

وأعظم الأدلة في باب معرفة دين الله هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وربط معرفة الإسلام بالأدلة لما يلي:

١ - أن الكتاب والسنة هما حُجَّةُ الله التي أنزلها الله على خلقه قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩] «فكل من بلغه القرآن فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله به»(٤).

٢ - أن الكتاب والسنة هما مصدرا العلم بالله وبدينه. قال ابن عبدالبر: «وأما أصول العلم فالكتاب والسنة»(٥).

ولهذا وجب اتباعهما دون غيرهما وتحليل ما أحلا وتحريم ما حرما(٦).

٣ - أنه لا يمكن أن يجتمع الناس إلا على الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:١٠].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٤).

(٢) «انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٦٦).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

(٤) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٧٣٥).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٣٣).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩).

وما ذلك إلا لأن الكتاب والسنة هما الميزان الحق لمعرفة صحيح الأقوال من سقيمها.

والإسلام لغة: هو الدخول في السِّلْم ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[البقرة:٢٠٨] قال الأزهري: «عنى به الإسلام وشرائعه كلها»[١].

وقال: «أما الإسلام ففيه قولان: **أحدهما:** هو المستسلم لأمر الله. **والثاني:** هو المخلص لله العبادة من قولهم سلَّم الشيء لفلان أي خلّصه، وسَلِمَ له الشيءُ أي خلص له»[٢].

وقال به علماء السلف ومنهم: أبو عمرو الداني حيث قال: «الإسلام هو الاستسلام والانقياد والمتابعة»[٣].

أما في الاصطلاح: فكما عرفه المؤلف حيث قال الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

الاستسلام: مشتق من المسالمة وعدم المنازعة ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[النمل:٤٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾[الصافات:١٠٣] أي استسلما لما أُمِرا به. وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾[آل عمران:٨٣]،

إذًا الاستسلام: انقياد القلب لأمر الله مع ترك الاعتراض فيما لا يلائم الإنسان ومنه قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾[يوسف:١٠١] «أي اجعلني ممن استسلم لرضاك»[٤]. و«الاستسلام لله وحده هو أصل عبادته وحده وذلك يجمع معرفته ومحبته والخضوع له»[٥].

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤٩).

(٢) المرجع السابق (١٢/ ٤٥١).

(٣) «الرسالة الوافية» (٨٨) وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٤) و«شرح حديث مثل الإسلام» للحافظ ابن رجب (٢٠ و٢٣).

(٤) «المفردات» للراغب (٢٤٦) وانظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤٩)، وانظر: «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١١٥).

وحصره ابن القيم في أحواله الأربع بالقلب فقال: «هو الخلاص من شُبْهَةٍ تعارض الخبر، أو شهوة تعارض الأمر، أو إرادة تعارض الإخلاص، أو اعتراض يعارض القدر والشرع» ثم علق عليه فقال: «وصاحب هذا التخلص هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به»[١].

فمن استسلم لله وحده دون ما سواه فهو المسلم الموحد. الذي لا أحسن دينًا منه، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء:١٢٥].

ومعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: أي أخلص نيته لله وابتغى بعمله وجهه.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الإحسان هو الانقياد في فعل الطاعة مع المتابعة للنبي ﷺ[٢] ومن استسلم لله حقَّ الاستسلام ذاق طعم الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا**»[٣].

فالرِّضى بالله ربًا: هو الرضى بربوبيته وألوهيته.

والرضى بإلاهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل إليه وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به وهذا يتضمن رضاه بما يقدر عليه[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٤٧).

(٢) انظر: «النبوات» (١/ ٤١٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (١٠١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).

فالاستسلام لله بالتوحيد: هو «الإخلاص وهو حقيقة الإسلام»(١) لأن المستسلم لله هو «المتخلص من شوائب الشرك فسَلِمَ لربه وخَلَصَ له كالعبد الذي سَلِمَ لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون»(٢).

وينافي الاستسلام أمر ويفسده آخر:

أما الذي ينافيه فهو الكبر: فمن استكبر ولم يستسلم لله لم يكن مسلمًا، كاليهود الذين قال الله فيهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة:٨٧].

ولذلك صارت عقوبة المستكبرين نار جهنم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:٦٠].

وأما الذي يفسده فهو الشرك: لأنه استسلام لله ولغيره معًا كما صنع أهل الكتاب الذين استسلموا لله ولغيره، قال جل وعلا: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١] ولذلك هددهم وتوعدهم على شركهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[يونس:٢١].

ويَخْدِشُه آفاتٌ ثلاثٌ هي:

١- رؤية العمل.

٢- طلب العوض عليه.

٣- رضاه به وسكونه إليه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٣).

فعلاج رؤيته عمله هو مشاهدته جهل نفسه وظلمها كما قال تعالى في وصفه لنفس الإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢] وأن طبعها الكسل والبطالة وحب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾[آل عمران:١٤]، وفي الوقت نفسه يشاهد منّة الله عليه وفضله عليه وتوفيقه له وأنه بالله لا بنفسه، فالخير الذي يصدر منه إنما هو من الله وبالله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[النور:٢١] حتى أكرم خلقه وأتقاهم لا يمكن أن يثبت على الدين إلا بتثبيت الله إياه. ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٧٤]. فكيف بغيره، والله هو المتفضل على المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، ولو لم يحبب الإيمان ويزينه في قلوبهم لما آمنوا. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[الحجرات:٧] ولما كانت نعمة الهداية منه سبحانه ولا يمكن حصولها إلا منه اعترف بها أهل الجنة فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

فتكون رؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخَلْقية من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، وسلامة أعضائه، فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله.

أما ما يخلصه من طلب العوض على العمل: فعلمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه.

وأما علاج رضاه بعمله وسكونه إليه فأمران:

١- مطالعةُ العبدِ عيوبَه وتقصيرَه في عمله، وما في العمل من حظٍّ للنفس ونصيب للشيطان قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يجعل أحدكم للشيطان شيئًا من صلاته، يرى أنَّ حقًّا

عليه ألا ينصرف إلا عن يمينه»(١).

فجعل هذا القدر اليسير النزر حظًا ونصيبًا للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه.

٢- العلم بما يستحقه الرب سبحانه من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقها ويرضى بها لربه.

ولهذا كان السلف يجتهدون في العبادة ويخشون ألا تقبل منهم فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠] قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال: «**لا يا بنت الصّديق، ولكنّهم الّذين يصومون ويصلّون، ويتصدّقون وهم يخافون ألا تقبل منهم، أولئك الّذين يسارعون في الخيرات**(٢)»(٣).

ثم ثنّى بالأساس الثاني وهو الانقياد له بالطاعة والانقياد هو: المتابعة مع المطاوعة(٤). وقيل: الاستجابة بسهولة(٥) لسلامته من الإباء والامتناع(٦) وفي ذلك إجلال وإكرام(٧).

والطاعة: هي فعل الأوامر وترك النواهي.

والانقياد يكون بالجوارح ولهذا قيل: «الانقياد هو: الاتباع بالأفعال»(٨). فيفعل العبد بجوارحه كل طاعة لله راضية بذلك نفسه.

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٣٧)، كتاب «الأذان»/ باب الانفتال والانصراف عن اليمين. رقم (٨٥٢).

(٢) الترمذي (٥/ ٣٢٧)، كتاب «التفسير»/ باب ومن سورة المؤمنين. رقم (٣١٧٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢-٩٥).

(٤) «شرح مختصر الروضة» (١/ ٧٣).

(٥) «الواضح» (١/ ١٣٣) لابن عقيل.

(٦) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٠)

(٧) «الصارم المسلول» (٥٢١).

(٨) «الشهادتان» للجبرين (٨١).

فمن حُرِمَ الانقياد لله حرم الدين كلّه. وذلك أن «من لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح»[(١)].

ككفر إبليس فإنه لما أمره الله بالسجود لآدم لم ينقد لأمره وامتنع عن السجود ظانًا أنه خير من آدم لأن مادته من النار ومادة آدم من الطين ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف:١٢].

فكان سبب كفره استكباره وامتناعه عن السجود وعدم انقياده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤].

قال شيخ الإسلام: «فإنه سمع أمر الله، فلم يكذب رسولًا، ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافرًا»[(٢)]. وذلك «أنَّ العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه، فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق، ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة»[(٣)] وذلك أن العاصي المشتهي «يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويحب أن يفعله، لكن الشهوة منعته من الموافقة، فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد، وذلك قول وعمل لكن لم يكمل العمل»[(٤)].

وقد جمع الله بين استسلام القلب له بالتوحيد وانقياد الجوارح بالعبادة في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:١١٢].

---

(١) «الصارم المسلول» (٥٢١).

(٢) «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٣) «الصارم المسلول» (٥٢١) بشيء من التقديم والتأخير.

(٤) «الصارم المسلول» (٥٢٢).

قال السعدي: «من أسلم وجهه لله أي أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه وهو مع إخلاصه محسن في عبادة ربه بأن عبده بشرعه فأولئك هم أهل الجنة وحدهم»[١].

كما جمعها النبي ﷺ في حديث حكيم بن معاوية عن أبيه حين جاءه يسأله عن الإسلام فقال فبالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك به قال: «**الإسلام**» قال: وما الإسلام: قال: «**أن يسلم قلبك لله تعالى، وأن توجه وجهك إلى الله تعالى، وتصلي الصَّلاة المكتوبة، وتؤدي الزَّكاة المفروضة...**»[٢].

وحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده حين سأل النبي ﷺ بم بعثك ربك إلينا؟ قال: «**بالإسلام**»، قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: «**أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله، وتخليت، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة**»[٣].

وحديث عمرو بن عبسة قال: قال رجل يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: «**أن يُسْلِمَ قلبك لله عز وجل، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك...**»[٤].

فـ «قوله أن يسلم قلبك لله إشارة إلى تصحيح الاعتقاد وقوله أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك إشارة إلى تصحيح المعاملات الظاهرة»[٥].

ومن الأمثلة على ذلك:

ما روته أم سلمة قالت: «لما نزلت ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٩] خرج نساء

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٦).

(٢) أحمد (٥/ ٣).

(٣) النسائي (٥/ ٤-٥)، كتاب الزكاة/ باب وجوب الزكاة.

(٤) أحمد (٤/ ١١٤)، قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» بنحوه، ورجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (١/ ٥٩) رقم (١٩٩).

(٥) «شعب الإيمان» (١/ ١٥٠).

الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية»[(١)].

ويوضحه حديث صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة قالت وذكرت نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة: إن لنساء قريش لفضلًا وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار وأشدَّ تصديقًا بكتاب الله ولا إيمانًا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣١] فانقلب رجالهن إليهن يتلون ما أنزل إليهن فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابة ما منهنّ امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجّل فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن يصلين وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[(٢)].

أما البراءة من الشرك وأهله: فهي بغض المؤمن للشرك والمشركين بغضًا ينتج عنه عداوتهم وتكفيرهم والبعد عنهم في مساكنهم والهجرة من ديارهم وجهادهم بالقلب واللسان والجوارح[(٣)].

ويدل لذلك فعل الخليل عليه الصلاة والسلام ومن معه حيث تبرؤوا من المشركين ومن معبوداتهم، فكانوا لنا أسوة وقدوة.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

فأوجب الله في هذه الآية البراءة من العامل (المشرك) ومن العمل (الشرك).

والبراءة من الشرك وأهله هي سُنَّةُ المرسلين عليهم الصلاة والسلام فها هو نوح

---

(١) أبو داود (٢/ ٤٥٩)، كتاب «اللباس»/ باب في قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾. رقم (٤١٠١).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ١٠٧) رقم (١٥٢٣٣).

(٣) انظر: «قاعدة في المحبة» لشيخ الإسلام (١٣٣).

عليه السلام لشدة بغضه للمشركين وعداوته لهم يدعو عليهم بالهلاك فيقول فيما ذكره الله عنه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح:٢٦].

وهود عليه السلام أظهر للمشركين البراءة منهم ومن معبوداتهم والتحدّي لهم كما قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾[هود:٥٤-٥٥].

وخاتمهم ﷺ أمره ربه بعداوتهم ومفاصلتهم فأنزل عليه سورة كاملة في ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «ليس في القرآن سورة أشد لغيظ إبليس من هذه السورة؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك»[١].

بل «مقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءة المطلوبة»[٢].

ولما كان الله حقيقًا بالتبري من الكافرين وجب علينا نحن أَنْ نتبرأ منهم قال ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ «لما كان الكفر وصفًا ثابتًا -أي للكافر- لازمًا لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه... فحقيق بالموحد البراءة منه براءة محضة»[٣].

---

(١) «النكت والعيون» للماوردي (٦/ ٣٥٨).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٣٨).

(٣) «بدائع الفوائد» (١/ ١٣٩-١٤٠).

عوامل ضعف البراءة من الكفار

لضعف البراءة من الكفار أسباب من أهمها:

١) **الجهل بأحكام الدين**: من أعظم أسباب التهاون في أمر ما: هو الجهل بحكمه أو الجهل بخطورة إهماله. ولهذا بين الله حكم الولاء والبراء أوضح بيان وأجْلاه في آي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة:١].

٢) **الجهل بحال العدو**: لما كان الجهلُ بحال العدو سبباً رئيساً في ضعف البراءة منه جلّى الله لنا حال أعدائنا وأوضحه مبينًا بغضهم لنا وحقدهم الشديد علينا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا ....﴾[آل عمران:١١٨-١٢٠].

واستهزاءهم بربنا ورسولنا وعقولنا وديننا وعباداتنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾[المائدة:٥٧-٥٨].

وحسدهم إيانا على هذا الخير الذي منّ الله به علينا ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة:١٠٩]، وأنهم لا يرضون عنا إلا بالرّدة عن دين الله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾[البقرة:١٢٠]. متخذين جميع الوسائل لذلك دائماً إلى قيام الساعة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن

دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[البقرة: ٢١٧] نسأل الله أن يثبتنا على دينه.

٣) **ضعف الإيمان**: كلما ضعف الإيمان ضعف التمسك بدين الله تعالى وصار المرء لا يبالي بأمر الله ونهيه بل ولا يبالي بمحبة من يحب وبغض من يبغض.

فهاهم المنافقون لما ضعف إيمانهم أو عُدِم خافوا الدوائر فصاروا ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[النساء:١٤٣] فأرادوا أن يجعلوا يدًا مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين.

٤) **حُبُّ الدنيا**: حب الدنيا يضعف البراءة من المشركين وربما أفقدها نهائيًا لظنه أنّ صلاح دنياه لا يكون إلا بمداهنتهم وموالاتهم وإرضائهم والتقرب إليهم. وأحسن من شخَّص هذه الظاهرة ابن عباس رضي الله عنه حيث قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وعادى في الله، ووالى في الله فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجدُ رجلٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم في أمر الدنيا وذلك لا يجزئ عن أهله شيئًا يوم القيامة»(١) ورواه المروزي وزاد ثم قرأ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف:٦٧](٢).

قال شيخنا العثيمين معلقًا على قول ابن عباس: «فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه فما بالك بالناس اليوم؟ فقد صارت مؤاخاة الناس -إلا النادر- على أمر الدنيا بل صار أعظم من ذلك. فباعوا دينهم بدنياهم قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال:٢٧] ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو حب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٢٨]»(٣).

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢٠-١٢١) رقم (٣٥٣).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤٠٦) رقم (٣٩٦).

(٣) «القول المفيد» (٢/ ١٥٦-١٥٧).

٥- **دعوى التسامح**: وهذه شِنْشِنَةٌ ظهر بها قوم غيّروا مناط الولاء والبراء فجعلوه حول طمع الدنيا وانتهاب خيراتها فقط أما الدين فلا يبغض من أجله ولا يعادى من أجله ومن ذلك قول أحدهم: «إن التسامح يعد خطًا حضاريًا يقضي بمنح الآخرين حرية التعبير عن الآراء والأفكار التي تغاير الآخرين كما يسمح بالعيش وفقًا للمبادئ والمعتقدات التي لا ندين بها سوية. إن التسامح أصبح إذًا مسألة لا يمكن فصلها عن الحرية وحقوق الإنسان. إن التسامح يجب أن يشمل الجميع وكل الأديان على وجه الأرض»[1].

ويقول الآخر: «نحن لا نعادي اليهود لأنهم يهود ولكن نعاديهم لأنهم اغتصبوا فلسطين وشردوا أهلها وقتلوهم».

عوامل قوة الولاء والبراء:

لقوة الولاء والبراء عوامل أهمها:

١) معرفة حكمه في الإسلام:

فمن عرف حكم موالاة المسلمين وبغض الكافرين وعداوتهم وأنَّه السياج الواقي من الوقوع في الشرك وأن من موالاة الكفار ما يكون كفرًا ومنه ما يكون ذنباً عظيماً أوجب له ذلك بغض الكفار وعداوتهم والبعد عنهم.

٢) معرفة حال العدو:

وذلك بأن يعرف المسلمون ما يُكنُّه الكفار لهم من الحقد الشديد، والحسد الأكيد، والحرص المستمر على إغوائهم وإخراجهم من دينهم مع الاستهزاء المتواصل بربهم ودينهم ورسولهم فإذا عرف المسلم هذا كله اشتد بغضه لهم وعداوته إياهم.

---

(١) «دعوة التقريب بين الأديان» (٤/ ١٥٢٦).

٣) قوة الإيمان:

كلما قوي إيمان العبد بربه قاده ذلك إلى عظيم محبته له ولأمره وبغضه لما يبغضه فإنه لا يجتمع حب الله وحب أعدائه.

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حبًّا له ما كان ذاك في إمكان

إضافة إلى أنه إذا قوي إيمان العبد قوي توكله على الله ومن قوي توكله على الله لم يبال بالكافرين ولم يخش قوتهم وسطوتهم.

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لهَا أَرْكَان. فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ.

....

وهو: أي دين الإسلام ثلاث مراتب بعضها فوق بعض فأدناها وما فيها دني: الإسلام ثم أعلى منه الإيمان ثم أعلى منهما الإحسان.

قال شيخ الإسلام: «فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي الإسلام والإيمان والإحسان داخلة في الدين كما قال في الحديث الصحيح: «**هذا جبريل جاءكم يعلِّمكم دينكم**» بعد أن أجابه عن هذه الثلاث»[(١)].

ومراتب: جمع مرتبة، والمرتبة والرتبة هي المنزلة الرفيعة[(٢)] وبيان ذلك أَنَّ الكافر قد بلغ في الضلال منتهاه قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٤٤] ولذلك انحطت مرتبته في الحضيض في أسفل سافلين، فإذا أسلم تبوأ منزلة عالية رفيعة، فإن ترقى في مدارج الكمال بلغ مرتبة الإيمان، وإن كان ذا همة عالية وعزيمة صادقة اجتهد في طاعة ربه حتى بلغ أعلى المراتب وأزكاها وهي مرتبة الإحسان فكل محسن مؤمن مسلم وكل مؤمن مسلم ولا عكس.

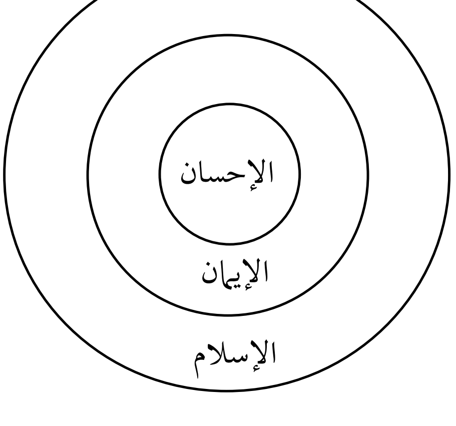

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٥٨).

(٢) «اللسان» (١/ ٤١٠).

أي كل مرتبة من مراتب الدين لها أركان وأسس تقوم عليها ثم بدأ ببيان أركان الإسلام وأنها خمسة، فقال: فأركان الإسلام خمسة.

يدل لهذه الأركان الخمسة حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بني الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزّكاةِ، وصومِ رمضان**»[1].

وفي لفظ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمس دعائم**»[2].

قال ابن رجب: «إن الإسلام مثله كبنيان، وهذه الخمس دعائمه وأركانه التي يَثْبُتُ عليها البنيان، وإذا كانت هذه دعائم البنيان وأركانه، فإنها إذا زالت كلها سقط البنيان ولم يثبت بعد زوالها»[3].

والأركان لغة: جمع ركن وهو جانب الشيء الأقوى الذي يستند إليه.

اصطلاحًا: ما توقف الشيء على وجوده وكان جزءًا من حقيقته.

إذًا أركان الشيء أجزاؤه التي لا يتحقق بدونها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤١٩).

(٣) «فتح الباري» (١/ ٢٠).

شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ الله الحَرَامِ.

....

الركن الأول هو الشهادتان معًا وإنما جعلا ركنًا واحدًا لأمرين:

١) أن شهادة أن لا إله إلا الله مشتملة على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزمة له كما أن الإيمان بالرسول ﷺ مستلزم للإيمان بالمرسل ولا بد[١]، ولذلك صار الطعن في الرسول طعناً في مرسله وقدحاً في صفاته. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[الأنعام: ٩١].

٢) أن صحة العبادات تنبني على تحقيقهما معًا وذلك أن العمل لا يقبل إلا إذا توفر فيه شرطا الإخلاص والمتابعة فالإخلاص لله ﷻ تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله، وأما المتابعة فتضمنتها شهادة أن محمدًا رسول الله[٢]. فبالشهادة الأولى يعرف المعبود وما يجب له وبالثانية كيف يعبده وبأي طريق يصل إليه[٣].

معنى الشهادة لغة:

ذكر الأزهري للشهادة معانيَ هي العلم والقول والبيان والكتابة[٤]، والشاهد: هو العالم الذي يبين ما علمه[٥].

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (٥٥٤).

(٢) انظر: «شرح الأصول» للعثيمين (١١٤).

(٣) «معارج القبول» (٢/ ٣٩).

(٤) أي الحكم والقضاء.

(٥) «تهذيب اللغة» (٦/ ٧٣).

وقال في «اللسان»: «الشهادة خبر قاطع تقول به»[(١)].

ولا تنافي بين هذه المعاني الأربع لأن كل معنى منها يدل على مرتبة من مراتب الشهادة كما حقق ذلك أهل العلم[(٢)].

وسأتناول هذه المراتب بالاختصار:

المرتبة الأولى: العلم: وذلك أن الشاهد بالحق لا بُدَّ أن يكون عالمًا به معتقدًا بقلبه صحة المشهود به وثبوته قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦].

المرتبة الثانية: القول والتكلم: فمن قال قولًا وتكلم به فقد شهد به وإن لم يكن معلمًا به لغيره، ولا مخبرًا به سواه ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة:٨].

المرتبة الثالثة: البيان والإخبار والإعلام أي بيان الشيء للناس وإخبارهم به فمن أخبر عن شيء فقد شهد به سواء ذكره بلفظ الشهادة أو بدون لفظها ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩] فهؤلاء أخبروا خبرًا مجردًا ومع ذلك سماه الله شهادة.

المرتبة الرابعة: الحكم والقضاء: أي حكم الله وقضى وكتب أنه لا إله إلا الله[(٣)].

وفي هذا إلزام وإيجاب بتوحيده سبحانه وإفراده بالعبادة ويدل لذلك آي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[النحل:٥١].

---

(١) «لسان العرب» (٣/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٦٨-١٧١)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٥١-٤٥٥).

(٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ٧٣)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٣) والذي يظهر أن هذه المرتبة خاصة بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[القصص:٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

«وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرم عليهم عبادة ما سواه، فقدحكم وقضى أنه لا إله إلا هو»[١]. و«وجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبيّن وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها»[٢]. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢] وقال تعالى عن لقمان إنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وفي الاصطلاح: الإخبار بالشيء بعد تيقن صحته.

فيكون معنى شهادة أن لا إله إلا الله. أعلم -بقلبي-، وأقول وأبيّن -بلساني- أنه لا إله إلا الله وألتزم بما دلت عليه من التوحيد[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧١).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٤).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٧٣).

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨].

....

شهادة الله لنفسه بالتوحيد هي أجل شهادة وأعظمها وأصدقها وأعدَلُها وأَوَّلُها.

قال ابن عباس: «شهد الله بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق، ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال شهد الله أنه لا إله إلا هو»(١).

﴿ٱللَّهُ﴾: اسم مشتق من إله، قال أبو الهيثم: الله أصله إله قال الله عز وجل: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾[المؤمنون:٩١].

وإله: بمعنى مألوه أي معبود على وزن فعال بمعنى مفعول، قال الليث: «التأله بمعنى التعبد»(٢). قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[الزخرف:٨٤]. أي مألوه فيهما قال قتادة: «يعبد في السماء ويعبد في الأرض»(٣)، وبهذا فسره أهل العلم:

قال ابن عباس: الله: «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»(٤).

وقال شيخ الإسلام: «الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا»(٥) وبمثله قال ابن القيم(٦) وابن رجب(٧) وغيرهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٦٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٢٢-٤٢٤) و«اللسان» (١٣/ ٤٦٨-٤٦٩) و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٢٤).

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٦٦) رقم (٢٧٩٥).

(٤) «جامع البيان» (١/ ١٢٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٢).

(٦) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٦٠).

(٧) «تحقيق كلمة الإخلاص» (٢٣-٢٤).

أنه: أن للتوكيد والضمير يعود على الله عز وجل.

لا: نافية للجنس بمعنى ليس.

إله: اسمها مبني على الفتح.

فـ(لا إله): تنفي جميع الآلهة والمعبودات.

إلا: أداة استثناء فاستثنى من المعبودين معبودًا واحدًا فقط، وهو الله عز وجل فأثبت له العبادة وحده لا شريك له، فقال إلا هو: فالضمير (هو) يعود إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الذي يجب أن يخضع، ويذل له وحده مع كامل محبته.

وشهادة الرب بوحدانيته بطريقين:

١) **طريق القول**: وذلك بما أنزله من كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

وبين تعالى أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بذلك فقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء:٢٤].

٢) **طريق الفعل**: وذلك أن الله شهد على وحدانيته بمخلوقاته التي جعلها آياتٍ دالةً على ذلك قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت:٥٣].

قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمات عند خلقه أنه لا إله إلا هو»[(١)].

---

(١) «زاد المسير» (١/ ٣١١).

وقال شيخ الإسلام: «الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به كما قيل: سل الأرض من فجر أنهارها، وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيا نباتها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارها، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا»(١).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: ومعنى شهادة الملائكة وأولو العلم الإقرار(٢)، وقيل الإظهار والإعلام والبيان وجميعها حق فهي متضمنة لها معًا فهم أقروا وأظهروا وأعلموا وبينوا دين الله تعالى(٣).

فشهدوا لله بالتوحيد وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه. واستشهاد الرب جل وعلا أهل العلم على أجل مشهود به، وهو توحيده يدل على فضلهم ورفعتهم:

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾: أي قائمًا بالعدل كما في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[النساء:١٣٥]. والقيام بالقسط يتناول أمرين:

١) **القول**: فقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ بعد ذكر الشهادة: معناه أي متكلمًا بالعدل مخبرًا به آمرًا به. وذلك أن العدل هو إفراد المستحق للعبادة بها والمستحق للعبادة هو الله سبحانه فأخبرنا بها. بل وأمرنا بها.

٢) **الفعل**: ففي قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ تنبيه على عدل الله في أفعاله ومجازاته حيث يجازي المخلصين بجنات النعيم ويعاقب المشركين بالنار.

فالله جل وعلا يشهد وهو قائل بالقسط عامل به لا بالظلم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٦٨).

(٣) انظر: «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤/ ٧١).

وقوله ﴿قَآيِمًۢا﴾ منصوب على الحال وفيه وجهان:

١) أنه حال من فاعل ﴿شَهِدَ﴾ أي شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو.

٢) حال من ﴿هُوَ﴾ أي لا إله إلا هو قائمًا بالقسط ومعنى ذلك أنه وحده هو الإله المستحق للعبادة مع كونه قائمًا بالقسط ورجّح شيخ الإسلام الثاني لتضمنه شهادة الملائكة وأولي العلم بالأمرين معًا فقال: «وهذا الوجه أرجح فإنه يتضمن أنَّ الملائكة وأُولي العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط»(١).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أعادها الله مرة أخرى مجردة لتكون شهادة للتالي نفسه.

قال جعفر بن محمد: «الأُوْلَى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، أي قولوا لا إله إلا الله. ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولوا العلم، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها، فأعاد الله ذكرها مجردة ليقولها التالي، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو»(٢).

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ العِزُّ في الأصل: القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع(٣) **ويأتي العزيز في أوصاف الله على عدة معان:**

١- القويُّ الشديد من عز يعَزُّ بفتح العين إذا اشتد وصلب.

٢- الممتنع فلا يغلبه شيء من عز يعِز بكسر العين إذا امتنع.

٣- الغالب على كل شيء من عز يعُز بضم العين إذا غلب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٧) وانظر: «مدارج السالكين» (٤٥٧-٤٥٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٧٩ - ١٨٠)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٥٩).

(٣) «لسان العرب» (٥/ ٣٧٤-٣٧٩).

٤- عزيز القدر فليس كمثله شيء[١].

فيكون معنى العزيز: هو الذي له العزة كلها عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة الغلبة وعزة القدر. فقهر جميع المخلوقات وامتنع أن يناله أحد منها ودانت له وخضعت لعظمته وارتفع قدره وعظم شأنه فلا يماثله أحد.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: بمعنى الحاكم وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل، فهو الحاكم بين عباده أو ذو الحكمة أو العالم. والحكْم: هو العلم والفقه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[مريم:١٢] أي علمًا وفقهًا. والقضاء بالعدل[٢].

والمحكم للأشياء المتْقِنْ لها كما قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾[النمل:٨٨].

قال ابن جرير: «الحكيم الذي لا يدخل تدبيرَه خللٌ ولا زلل»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «والحكيم يتضمن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله فإذا أمر بأمر كان حسنًا، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا، وإذا أراد خلق شيء كان صوابًا، فهو حكيم في إرادته وأفعاله وأقواله»[٤].

وقرن الله سبحانه بين اسميه العزيز والحكيم في ست وأربعين آية من كتابه وذلك لحكم عظيمة منها:

١) أَنَّ اقترانهما يدل على كمال القدرة والعلم وذلك «أَنَّ العزة: كمال القدرة، والحكمة: كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه ما يشاء، ويأمر وينهى، ويثيب

---

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٨٢-٨٥).

(٢) «تفسير الأسماء الحسنى» للزجاج» (٥٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ١٤٠-١٤٥).

(٣) «جامع البيان» (١/ ٣٤٦).

(٤) مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨٠).

ويعاقب فهاتان الصفتان: مصدر الخلق والأمر»[١].

٢) أن اقترانهما يدل على كمال الملك والحمد كما في هذه الآية، فاسمه العزيز يتضمن الملك واسمه الحكيم يتضمن الحمد.

ومن المعلوم أن كمالهما لا يكون إلا لله وحده فتضمن هذان الاسمان «عزته المنافية للذل وحكمته المنافية للسفه والجهل والعيب»[٢].

٣) أن عزته وقوته وامتناعه محكومة بحكمته وعدله[٣].

فتضمنت هذه الآية: وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم وعزته المنافية للعجز والذل وحكمته المنافية للسفه.

ففيها إثبات التوحيد، والعدل، والحكمة، والقدرة ولهذا كانت أعظم شهادة.

---

(١) «الجواب الكافي» (١٨٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٨١)، وإن أردت الاستزادة فارجع إلى «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٦٨-٢٠١).

(٣) «أسماء الله الحسنى» لعمر الأشقر (٧٢).

ومعناها: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا الله.

....

لا: حرف نافٍ للجنس تعمل عمل إن ويكون اسمها نكرة.

إله: فعال بمعنى مفعول أي مألوه بمعنى معبود، والمعبود: هو الذي يخضع له ويذل له مع كمال محبته.

فيكون لا إله: أي لا معبود. ففي هذا نفي لجميع ما يعبد من دون الله. وخبر (لا) محذوف لأن العرب جرى في لغتها أَنَّ خبر لا النافية للجنس يحذف إذا كان واضحًا.

قال ابن مالك في آخر باب «لا» النافية للجنس:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوطه ظهر[1]

وتقديره: «حق» وهو الصواب من وجهين:

الأول: أنه هو الذي ورد به الدليل قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج:٦٢].

الثاني: أن الآلهة المعبودة كثيرة ولم ينازع المشركون في وجودها وإنما نازعوا في كون العبادةِ خاصةً لله دونها ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥].

وقوله بحق: أي لا يستحق العبودية إلا هو سبحانه. فعبوديته وحده حق واجب ثابت له سبحانه لا يشركه فيه غيره.

إلا: أداة استثناء.

الله: فاستثنى من المعبودين إلهًا واحدًا هو الله عز وجل؛ لأنه هو المستحق للعبادة وحده.

---

(١) «ألفية ابن مالك» (٢٣).

قال الطبري عند تفسير لا إله إلا الله: «فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية، ويجوز لك وللخلق عبادته إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كل شيء»(١).

والله: أصله إله ولا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا وحتى يكون لعابده خالقًا ورازقًا ومدبرًا وعليه مقتدرًا، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عُبِدَ ظلمًا، بل هو مخلوق ومُتَعَبَّد(٢).

قال البقاعي: «لا إله إلا الله» أي انتفى انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودًا بحق غير الملك الأعظم»(٣).

وبهذا يتضح أن معناها لا معبود بحق إلا الله.

خاصيتا كلمة التوحيد:

١) أن جميع حروفها جوفية، ليس فيها من الحروف الشفهية، للإشارة إلى الإتيان بها من خالص جوفه وهو القلب لا من الشفتين.

٢) أنه ليس فيها حرفٌ مُعْجَمٌ بل جميعها متجردة عن النقط، إشارة إلى التجرد عن كل معبود سوى الله تعالى(٤).

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ٥٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٣) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٧/ ١٦٤).

(٤) «معنى لا إله إلا الله» للزركشي (٨٩-٩٠) ذكرت هاتين الخاصتين لما فيهما من التأكيد على الإخلاص.

لاَ إلَهَ: نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله. إلَّا الله: مُثْبِتًا العِبَادَةَ لله. وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ ليس له شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ.

ركنا لا إله إلا الله هما:

١) **النفي**: حيث بدأ به فقال: «لا إله» وللبداءة بالنفي سر عجيب وذلك «لأن النفي تفريغ القلب. فإذا كان خاليًا كان أقرب إلى ارتسام التوحيد فيه، وإشراق نور الله تعالى»[١].

والمنفي «إله» ورد نكرة مفردًا، وفائدة كونه نكرة أن النكرة المنفية تفيد العموم[٢] فتنفي كل آلهة.

وأما كونه مفردًا فلأن نفي المفرد يدل على استغراق نفي الجنس فكان أبلغ من نفي الجمع[٣]. ففي قوله «لا إله» نَفْيٌ لجميع الآلهة المعبودة. ولذا ورد النفي بـ(لا) «لأنها أبلغ وأدل على دوام النفي»[٤].

٢) **الإثبات**: وهو إثبات الألوهية لله وحده. حيث استثناه من جميع المعبودات فقال «إلا الله».

والقاعدة في ذلك: «أن الاستثناء من النفي إثباتٌ ومن الإثبات نفيٌ»[٥].

(١) «معاني لا إله إلا الله» للزركشي (٨٩).

(٢) المرجع السابق (٩٦ و١٠٩).

(٣) المرجع السابق (٩٨-١٠٠).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ١٣٧).

(٥) «معاني لا إله إلا الله» (١١١).

ويتضح سر الجمع بين النفي والإثبات من وجهين:

١) أن الجمع بين النفي والإثبات أبلغ صيغ الحصر[١] أي حصر الإلهية لله تعالى وحده.

٢) أن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء فلا يثبت به توحيد. أما الإثبات المجرد فإنّه لا يمنع المشاركة فلا يثبت به لوحده توحيد فوجب الجمع بينهما حتى يتم حصر الألوهية لله تعالى وقصرها عليه وحده فلا يشاركه في العبادة أحد.

ولأجل ذلك صارت طريقة القرآن الجمع بينهما:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[يوسف:٤٠].

قال ابن القيم في تفسيره لسورة الكافرون: «طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد، وكذلك الإثبات بدون النفي. فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله»[٢].

وأكد المؤلف وجوب إفراد العبادة لله بقوله: **(وحده)** ثم زاد ذلك بيانًا ووضوحًا فقال: **(لا شريك له في عبادته)**. قال شيخ الإسلام: «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق ويثبت في قلبه ألوهية الحق فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات مثبتًا لألوهية رب العالمين رب الأرض والسماوات وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه»[٣].

---

(١) المرجع السابق (٩١).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٣٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٢٥).

وقوله: (**كما أنه ليس له شريك في ملكه**): استدلال بالربوبية على الألوهية أي كما أنه المتفرد بالملك فليس له شريك ولا معين ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[سبأ:٢٢] فيجب أن يفرد بالعبادة وحده[١].

والقاعدة تقول: «من انفرد بالملك والخلق والتدبير وجب إفراده بالألوهية والعبادة».

ومَنْ بخلقه وملكه تفردا فاعبده وحده كذاك السعدا

شروط لا إله إلا الله:

الشرط: هو ما توقف الشيء على وجوده، فإذا عدم الشرط عدم المشروط.

فلا بد للانتفاع بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» من تحقيق شروطها، ومما يدل على أن لها شروطاً: قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[٢].

وهذا الحديث دليل على أن لها شروطاً من وجهين:

١ - قوله: «فإذا فعلوا» فأتى بـ«إذا» التي هي أحد أدوات الشرط، فدلّ ذلك على أن لهذه الكلمة العظيمة شروطاً.

٢ - قوله: «إلا بحقها» فمن لم يقم بحقها لا تنفعه هذه الكلمة، كما فهم ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأقره عليه الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن بطال عند هذا الحديث: (فمن أقر بها عليه قوتل فقد حرم دمه وماله إلا بظهور نقض شرائط ما أقر به بعد الإقرار بجملته، وذلك هو الحق الذي قال ﷺ: «إلا

(١) انظر: «شرح الأصبهانية» (١١٤).

(٢) البخاري.

بحقها»)[١].

ولذلك أكد عليها العلماء:

ومن ذلك ما قال الحسن البصري رحمه الله للفرزدق وهو يدفن امرأته: «ما أعددت لهذا اليوم؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العُدَّة، لكن لـ (لا إله إلا الله) شروطًا فإياك وقذف المحصنة»[٢].

وكما في جواب وهب بن منبه عندما سئل عن مفتاح الجنة كما في البخاري «قيل لوهب بن منبه أليس مفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك»[٣] والأسنان هي الشروط. وإليها أشار البربهاري بقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله لا تقبل من صاحبها إلا بصدق النية، وخالص اليقين»[٤]. وصرح بذلك ابن عبد الهادي، فقال: «فإن من شروط كلمة الإخلاص باللسان: التصديق بذلك وتحقيقه بالقلب وإلا فهو منافق»[٥].

وقال حافظ حكمي:

وبشروط سبعة قد قيدت ... وفي نصوص الوحي حقًا وردت
فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حين يستكملها[٦]

---

(١) شرح صحيح البخاري (٢/ ٥٣).
(٢) «الإخلاص» لابن رجب (١٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٤).
(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ١٠٩)، كتاب «الجنائز»/ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله.
(٤) «شرح السنة» (٤٧).
(٥) «مسألة في التوحيد» ٧٧-٧٨.
(٦) «معارج القبول» (١/ ٣٠٧).

وجمعها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

الأول: العلم المنافي للجهل.

العلم في اللغة نقيض الجهل(١).

واصطلاحًا: معرفة معناها وما دلت عليه من نفي الإلهية عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، والبراءة من الشرك وأهله(٢).

قال المعلمي: «وقد دل الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على أنه لا يكفي النطق بها بدون معرفة معناها»(٣).

وأدلة هذا الشرط كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف:٨٦].

والشهادة بالحق هي قول لا إله إلا الله(٤).

و«الاستثناء منقطع أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم»(٥) بحقيقة توحيد الله فـ«يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم»(٦).

وقال الألوسي: «إلا من شهد بالحق الذي هو التوحيد، وهم يعلمون؛ أي: يعلمونه الجملة في موضع حال، وقيّد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يُعَوَّلُ عليها»(٧).

---

(١) «لسان العرب» (١٣/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «العبادة» للمعلمي (١٥٨-١٥٩).

(٣) «العبادة» (١٤٤).

(٤) «جامع البيان» (٢١/ ٦٥٤)، و«معالم التنزيل» (٤/ ١٤٧).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٣).

(٦) «معالم التنزيل» (٤/ ١٤٧).

(٧) «روح المعاني» (٢٥/ ١٤٨).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد:١٩].

أي: «واعلم يا رسولنا أنه لا معبود تنبغي له العبادة منك ومن الخلق إلا الله تعالى الذي خلق الخلق»(١).

وقال السعدي عند هذه الآية: «العلم لا بُدَّ فيه من إقرار القلب ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه، وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان لا يسقط عن أحدٍ كائنًا من كان. بل كل مضطر إلى ذلك»(٢).

وبالعلم قيدها رسول الله ﷺ فقال: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(٣).

قال الشيخ سليمان بن سحمان:

فأولها العلم المنافي لضده ... من الجهل إن الجهل ليسَ بمُسْعِدِ

فلو كان ذا علم كثيرٍ وجاهلا ... بمدلولها يوماً فبالجهل مُرْتَدِ(٤)

الثاني: اليقين المنافي للشك.

اليقين في اللغة: إزاحة الشك وتحقيق الأمر(٥).

---

(١) «جامع البيان» (٢٦/ ٥٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٨٧) ولقد أطال في بيان الطرق الموصلة إلى العلم بأنه لا إله إلا هو فراجعها إن شئت.

(٣) مسلم (١/ ٥٥)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا. رقم (٢٦).

(٤) «عقد الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٥) «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٤٥).

وقال الجوهري: اليقين هو العلم وزوال الشك[١].

واصطلاحًا: اعتقاد ما دلّت عليه كلمة التوحيد اعتقادًا جازمًا ينافي الشك[٢]، فهو «العلم الراسخ في القلب الثابت فيه»[٣]، و«لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا»[٤]، ولذا قال الشيخ حافظ حكمي: «اليقين المنافي للشك بأن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين، لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك»[٥]. ومما يدل على اشتراطه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

إنما هنا للحصر حصر المؤمنين على الحقيقة وهم الذين استيقنت قلوبهم بالإيمان، ثم لم يشكوا في وحدانية الله وحققوا ذلك بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس واستمروا على ذلك إلى الممات.

ولذا أتى بـ (ثُمَّ) للإشعار بأنَّ اشتراط عدم الارتياب ليس في حال إنشاء الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت:٣٠] [٦].

قال السعدي: «وشرط الله تعالى في الإيمان عدم الريب وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه»[٧].

---

(١) «الصحاح» (٧/ ٦٩).

(٢) «الدرر السنية» (٢/ ١٢٢).

(٣) «المفهم» (١/ ٢٠٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨١).

(٥) «معارج القبول» (١/ ٣٠٨).

(٦) «التحرير والتنوير» (٤/ ٤١١١).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠٢).

ومما يدل على اشتراط اليقين قوله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل وفيه: «**فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلَّا الله مستيقنًا بها قلبه فبشِّره بالجنَّة**»(١).

وكذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «**أشهد أنَّ لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب الجنّة**»، وفي رواية: «**إلا دخل الجنة**»(٢).

«فاشترط ﷺ في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنًا بها قلبه غير شاكٍّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط»(٣).

فالشك والإيمان نقيضان لا يجتمعان في قلب عبد أبدًا، فمن شك فقد كفر، كما هي حال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة:٤٥]، وكذلك الكفار الصرحاء الذين قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[إبراهيم:٩-١٠]، ولما قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾[الكهف:٣٦]، ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[الكهف:٣٧]، كفر لأنه شك في قيام الساعة، فكيف بمن شك في التوحيد كله.

---

(١) مسلم (١/ ٥٩-٦٠)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا. رقم (٣١).

(٢) مسلم (١/ ٥٦-٥٧)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا. رقم (٢٧).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٣٠٩).

قال الشيخ سليمان بن سحمان:

ومن شك فليبكي على رفض دينه ويعلم أن قد جاء يومًا بِمُوئِدِ
ويعلم أن الشك ينفي يقينها فلا بد فيها باليقين المؤبّدِ
بها قلبه مستيقنًا جاء ذكره عن السيد المعصومِ أكملِ مرشدِ
ولا تنفع المرء الشهادة فاعلمن إذا لم يكن مستيقنًا ذا تجرد[١]

الثالث: الإخلاص المنافي للشرك:

الإخلاص لغة: «الخاء واللام والصاد أصل مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه»[٢].

والإخلاص اصطلاحًا: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة[٣].

فالإخلاص مناف للشرك ولذا قال شيخ الإسلام: وتحقيق الإخلاص بخلو القلب مما سوى الله وسكونه إلى الله تعالى[٤].

ومن أدلته قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥].

قال شيخ الإسلام: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه... وهذا هو حقيقة لا إله إلا الله»[٥].

---

(١) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٠٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩١) وقريب منه تعريف ابن القيم حيث يقول الإخلاص: تجريد القصد طاعة للمعبود «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٢).

(٤) «الاستقامة» (١/ ١٩٥).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٩-٥١).

ومن السنة حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أسعد النّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»(١).

فـ«قلبه متعلق بخالصًا فيكون تقديره ناشئًا من قلبه»(٢).

قال ابن حجر: «أكد الإخلاص بقوله «من قلبه» لأن الإخلاص محله القلب. فإسناده إلى محله أبلغ في التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلۡبُهُۥ﴾[البقرة:٢٨٣]» (٣).

«فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى»(٤). وأوجب له إخلاص العبادة كلها لله تعالى، ونُجِّيَ من عذاب جهنم، ولهذا قال ﷺ: «**فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله**»(٥).

وفي رواية: «**لن يوافي عبد يوم القيامة يقول لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله، إلا حرم الله عليه النار**»(٦).

ومَنْ حُرِمَ الإخلاص وقع في الشرك. والمشرك لا قيمة له ولا لعمله عند الله تعالى. قال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٧).

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٣)، كتاب «العلم»/ باب الحرص على الحديث. رقم (٩٩).

(٢) «عمدة القاري» (٢/ ١٢٧).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٤) و(١١/ ٤٤٣).

(٤) «فتح المجيد» (١/ ١٣٨).

(٥) مسلم (١/ ٤٥٦)، كتاب «المساجد»/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر. رقم (٣٣).

(٦) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٤١)، كتاب «الرقاق»/ باب العمل الذي يبتغي به وجه الله. رقم (٦٤٢٣).

(٧) سبق تخريجه.

قال الشيخ سليمان بن سحمان:

وثالثها الإخلاص فاعلم وضده هو الشرك بالمعبود في كل مقصد
وإخلاص أنواع العبادة كلها كذا النفي للشرك المفنَّد والنِّدِّ[(١)]

الرابع: الصدق المنافي للكذب:

والصدق لغة: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولًا أو غيره، ومن ذلك: الصدق الذي هو ضد الكذب، سمي بذلك لقوته في نفسه[(٢)].

وفي الاصطلاح: هو مطابقة الخبر للواقع، وذلك بأن يواطيء القلب اللسان فيتطابق الظاهر والباطن عند الإقرار بكلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

قال ابن عبد الهادي: «فإن من شروط كلمة الإخلاص باللسان: التصديق بذلك وتحقيقه بالقلب، وإلا فهو منافق»[(٣)].

وذلك لأن «الإيمان الحقيقي: ما تواطأ عليه القلب واللسان»[(٤)].

ومن أدلة ذلك: قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت:١-٣].

«أي وليظهرنَّ الله صدق الصادق منهم في قيله آمنًا من كذب الكاذب»[(٥)].

ومن السنة: حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحدٍ يشهد**

---

(١) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٦).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٣٩).

(٣) «مسألة في التوحيد» (٧٧-٧٨)، وانظر: «الدرر السنية» (٢/ ٣٥٩)، و«قرة عيون الموحدين» (١٥).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٢)، وانظر: «معارج القبول» (١/ ٣١٠).

(٥) «جامع البيان» (١٩/ ٨) انظر: «معالم التنزيل» (٦/ ٢٣٢).

أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله صدقًا من قلبه إلا حرَّمهُ اللهُ على النَّار»[١].

وفي رواية لأحمد: «**من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمّدًا رسولُ الله صادقًا من قلبه دخل الجنَّة**»[٢].

«فاشترط ﷺ في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقًا من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب»[٣].

وذلك لأن الصدق في «هذه الكلمة مطهر للقلب من كل ما سوى الله ﷿. فمن صدق في قوله لا إله إلا الله لم يحبَّ سواه، ولم يرج إلا إياه، ولم يخش أحدًا إلا الله، ولم يتوكل إلا على الله، ولم يبق له بقية من أثر نفسه وهواه. ومتى بقي في القلب أثر لسوى الله فمن قلة الصدق في قولها»[٤].

ولما كانت قلوب المنافقين مرضى ولم يَصْدُقُوا في شهادتهم كذّبهم الله وفضحهم فأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن لم يكن مخلصًا فهو مشرك، ومن لم يكن صادقًا فهو منافق»[٥].

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٢٢٦)، كتاب «العلم»/ باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا. رقم (١٢٨).

(٢) أحمد (٥/ ٢٢٩).

(٣) «معارج القبول» (١/ ٣١١).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٢٦).

(٥) «قرة عيون الموحدين» (١٤-١٥).

الخامس: القبول المنافي للرد: والقبول لغة: هو الرضا بها وميل النفس إليها[١].

واصطلاحًا: هو رضا القلب بهذه الكلمة والتزامه بما دلت عليه من إخلاص العبادة لله، وترك عبادة ما سواه[٢].

ومعنى ذلك: أَنَّ كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إذا نطق بها، ولو كان عالمًا بمعناها، مخلصًا فيها، مصدقًا بها، حتى يقبلها ويلتزم العمل بها حتى يموت.

قال المعلمي: «ومنها[٣]: أن يكون النطق بها على سبيل الالتزام؛ أي: التزام أن يعمل طول عمره بمضمون كلمة التوحيد، ولا يخالفها»[٤].

ومن أدلة القبول قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

قال المعلمي: وهذا متضمن الالتزام لتصريحه بأن إرسال الرسل إلى قومهم كان لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غيره، وإجابة الرسل معناها قبول ما أرسلوا به، ولما جعلت الشهادة إعلانًا بقبول ما أرسل به الرسل كانت متضمنة التزام الشاهد ألا يعبد إلا الله»[٥].

وقال أيضًا بعد كلام سبق: «فَعُلِمَ مما سبق أَنَّ من شرط الاعتقاد بكلمة الشهادة أن تكون على سبيل الالتزام»[٦].

---

(١) «تاج العروس» (١/ ٧٤٣٣) و«اللسان» (١١/ ٥٤٠) و«المصباح المنير» (١٨٦).

(٢) «مجموع فتاوى ابن باز» (١/ ٢٣٢) جمع الطيار.

(٣) أي من شروط لا إله إلا الله.

(٤) «العبادة» (١٤٩).

(٥) المرجع السابق (١٥٠).

(٦) المرجع السابق (١٥٨).

قال الحليمي: «لو قال الوثني: لا إله إلا الله وكان يزعم أَنَّ الصنم يقربه إلى الله لم يكن مؤمنًا حتى يتبرأ من عبادة الصنم»[(١)].

ويوضح ذلك: أن الكاهن الكتابي الذي أقر لرسول الله بأنه نبي، والحبرين اللذين سألاه عن ثلاث مسائل، وأبا طالب لم يدخلوا في الإسلام مع شهادتهم بأنه نبي؛ لأنهم لم يلتزموا بالإسلام والعمل بما دلت عليه الشهادة[(٢)]، فقبول كلمة التوحيد يقتضي أن يقبل الإسلام كله، أخباره وأحكامه، فيقبل أخباره بالتصديق، فمن كذب منها شيئًا ثابتًا فقد انتقض شرط القبول، وإذا انتقض القبول انتقضت شهادة أن لا إله إلا الله، ويقبل أحكامه فيلتزمها، فمن ظَنَّ أَنَّه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ، أو أنه غير مكلف بها، فقد انتقض شرط القبول، وبالتالي انتقضت شهادة أن لا إله إلا الله.

وقبول كلمة التوحيد وما تقتضيه هو سبب النجاة قال تعالى في شأن من قبلها: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[يونس:١٠٣].

أما رادُّها فعقوبته النار. قال الله في شأن من ردّها: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٢-٢٣] ثم بيّن الله تبارك وتعالى أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله وعدم قبولهم لها هو سبب تعذيبهم بالنار فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[الصافات:٣٥-٣٦] ثم أكد تعذيبهم مرة أخرى جزاء ردّهم وعدم قبولهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٣٨-٣٩].

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٣٥٩).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥٥٧).

ثم بين نجاة من قبل كلمة التوحيد فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[الصافات:٤٠-٤٩]، وضرب النبي ﷺ المثل في بيان أهمية القبول وخطورة الرد فقال: «**مثل ما بعثني اللهُ به من الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضًا فكان منها نقيّة قبلتِ الماءَ فأنبتت الكلأَ والعشب الكثيرَ، وكانت منها أجادب أمسكت الماءَ، فنفع اللهُ بها النّاس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تُمْسِك ماءً ولا تنبتُ كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعهُ ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعَلَّم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به**»[1].

قال ابن سحمان:

وثانيها وهو القبول وضده ... هو الرّد فافهم ذلك القيد ترشد
كحال قريش حين لم يقبلوا الهدى ... وردُّوه لمّا أن عتوا في التمرّد
وقد علموا منها المراد وأنها ... تدل على توحيده والتفرد
فقالوا كما قد قاله الله عنهمُ ... بسورة (ص) فاعلمن ذاك تهتدِ[2]

السادس: الانقياد المنافي للترك: وعَرَّفه أهلُ اللغة بأنه الخضوع تقول قدته فانقاد واستقاد لي. إذا أعطاك مقاده[3]. وهو: الاستجابة بسهولة «وقيل: المتابعة مع المطاوعة».

واصطلاحًا: هو الخضوع لله والاستجابة لما دلت عليه كلمة التوحيد من إفراد الله بالعبادة والإتيان بحقوقها ولوازمها بالقلب والجوارح.

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٧٥)، كتاب «العلم»/ باب فضل من علم وعلّم. رقم (٧٩)، ومسلم (٤/ ١٧٨٧)، كتاب «الفضائل»/ باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم. رقم (٢٢٨٢).

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٣) «لسان العرب» (٣/ ٣٧٠) و«الصحاح» (٢/ ١٠٠) مادة (قود).

قال ابن باز: «فإن قالها ولم يعبد الله وحده، ولم ينقد لشريعته، بل استكبر عن ذلك؛ فإنه لا يكون مسلمًا كإبليس وأمثاله»[١].

وهذا الشرط هو المحكّ العملي الحقيقي للإيمان فإنه لا يتحقق إلا بأداء حقوق لا إله إلا الله والعمل بما تقتضيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[لقمان:٢٢].

ومعنى قوله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ أي: ينقاد بسهولة ويتذلل له بالعبودية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي محسن فيها بأن يعبد الله وحده كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ والعروة الوثقى هي شهادة أن لا إله إلا الله[٢].

ثم بين تعالى أن من لم ينقد ولم يسلم وجهه إلى الله وعاند أمر الله وشرعه فقد كفر، فقال بعدها مباشرة: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ...﴾ وأن مآله العذاب الشديد فقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[لقمان:٢٣-٢٤].

قوله: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: «شديد ثقيل لا ينقطع عنهم أصلًا ولا يجدون لهم منه مخلصًا»[٣]. وهذا هو الترك المنافي للانقياد، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٤٧].

قال شيخ الإسلام: «فنفى الإيمان عمّن تولى عن العمل، وإنْ كان قد أتى بالقول»[٤].

وذلك لأنّ «حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول

---

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن باز» (١/ ٢٣٢) جمع الطيار.

(٢) «جامع البيان» (٢١/ ٩٧)، «تيسير الكريم الرحمن» (٦٥٠) و«أضواء البيان» (١/ ٣٤٥).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي (٦/ ٣٥٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٤٢).

فقط، فمن لم يفعل لله شيئًا، فما دان لله دينًا، ومن لا دين له، فهو كافر»[(١)].

قال ابن سحمان:

وخامسها فالانقياد وضده ... هو الترك للمأمور أو فعل مفسد
فتنقاد حقاً بالحقوق جميعها ... وتعمل بالمفروض حتماً وتقتدِ
وتترك ما حرّم الله طائعاً ... ومستسلماً لله بالقلب ترشُد
فمن لم يكن لله بالقلب مسلماً ... ولم يك طوعاً بالجوارح يقتد
فليس على نهج الشريعة سالكاً ... وإن خالَ رُشداً ما أتى من تعبد[(٢)]

السابع: المحبة المنافية للبغض: أي محبة هذه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله» ولما اقتضته ودلّت عليه محبة خالصة لا يشوبها بشرك، ولا ينقضها ببغض شيء مما دلت عليه بل يجب عليه بغض ما يناقضها.

واشتراط المحبة لكونها أَصْلَ كلِّ عمل ديني فـ«ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله»[(٣)].

قال ابن القيم مبينًا شرطية المحبة: المحبة روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.... فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله[(٤)].

---

(١) «شرح العمدة» لابن تيمية، كتاب الصلاة (٢/ ٨٦).

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢) وانظر: (١٠/ ٤٨-٤٩).

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٧- ٢٧)، وانظر: «طريق الهجرتين» (٥٧٧).

ومن أدلة المحبة قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾[البقرة:١٦٥].

«﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾: أي من أهل الأنداد لأندادهم لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا ومحبته عين شقاء العبد وفساده وتشتت أمره فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾»(١).

ويجب على العبد في المحبة أمور:

١) أن يحبَّ الله محبة خالصة من كل قلبه فهو أعظم محبوب بل هو المحبوب لذاته. قال شيخ الإسلام: «فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما»(٢). وذلك لأن «القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده»(٣).

٢) أن يحب دين الله كله ويفرح به. قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨].

٣) أن يحب رسول الله ﷺ أعظم من محبته لنفسه ووالده وولده والناس أجمعين لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والنَّاس أجمعين**»(٤).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٦).

(٣) المرجع السابق (١٠/ ١٣٤).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٥٨)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب حب الرسول ﷺ من الإيمان. رقم (١٥)، =

٤) أن يحب أهل الإيمان العاملين بـ (لا إله إلا الله) الملتزمين بشروطها وأركانها لقول النبي ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبّهُ إلا لله، وأنْ يكره أن يعود في الكفرِ كما يكره أنْ يُقذفَ في النار**»(١).

٥) بُغْضُ كلِّ ما يناقض هذه الكلمة العظيمة فيكره الكفر والكافرين كرهًا شديدًا.

قال الشيخ ابن سحمان:

ورابعها شرط المحبة فلتكن — مُحِبًّا لِما دلت عليه من الهدِ
ومن كان ذا حب لمولاه إنما — محبته للدين شرط فقيِّدِ
وأحْبِبْ رسول الله أكمل من دعا — إلى الله والتقوى وأكمل مرشد
أحبَّ من الأولاد والنفس بل ومن — جميع الورى والمال من كل أتلد
وطارفه والوالدين كليهما — بآبائنا والأمهات فنفتد
وأحبِب لِحُبِّ الله من كان مؤمنًا — وأبغض لبغض الله أهل التَمرُّدِ
وما الدينُ إلا الحبُ والبغضُ والولا — كذاك البرا من كُل غاوٍ ومعتدِ(٢)

فضائل لا إله إلا الله:

هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله هي كلمة التقوى التي ألزم الله بها عباده قولًا وعملًا واعتقادًا فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح:٢٦].

= ومسلم (١/ ٦٧)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة. رقم (٤٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «عقود الجواهر» (٣/ ١٧٦).

وكلمة التقوى هي لا إله إلا الله قال ابن جرير: ألزمهم لا إله إلا الله التي يتقون بها النار وأليم العذاب. ثم نقل مثل ذلك عن جمع من السلف منهم ابن عباس وعلي رضي الله عنهما وكذلك عن عمرو بن ميمون ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة وعطاء وغيرهم[(١)].

فإلزام الناس بها يدل على علوها ورفعتها وعظم فضلها، ولذلك اعتنى العلماء بذكر فضائلها وألفوا فيها المصنفات[(٢)].

ومن فضائلها:

١- أنها أول ما يدخل به في الإسلام.

٢- أنها توجب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب.

٣- أنها توجب عدم الخلود في النار.

٤- أنه لأجلها خُلِقَ الخلْقُ والجنة والنار وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وشرع الجهاد في سبيل الله.

٥- أنها أثقل من السموات والأرض في الميزان.

٦- أنها أعلى شعب الإيمان كلها.

٧- أن قائلها أحق الناس بشفاعة النبي ﷺ.

٨- أنها أفضل الكلام.

٩- أن عدم قبولها يوجب الخلود في النار.

١٠- أنها تطرد الشيطان وتقمعه.

١١- أنها تمنع شيطان الإنس أيضًا.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٣٦٣).

(٢) مثل «فضل لا إله إلا الله». تأليف يوسف بن حسن بن عبد الهادي.

١٢- أنها ترضي الرحمن.

١٣- أنها تزيل الهمَّ والغمَّ.

١٤- أنها تجلب الفرح والسرور.

١٥- أنها تقوي القلب.

١٦- أنه لا يقاتل على شيء من الكلام إلا عليها.

١٧- أن مَنْ قالها فقد عصم نفسه وماله.

١٨- أنها آخر كلام ينبغي أن يقوله العبد.

١٩- أنها توجب إجابة الدعاء.

٢٠- أنها توجب لصاحبها الدخول من أي أبواب الجنّة الثمانية شاء.

٢١- أنها أثقل الأعمال في الميزان.

٢٢- أنها أحب إلى الله مما طلعت عليه الشمس مع سبحان الله والحمد لله.

٢٣- أنها تُفْتَحُ لها أبواب السماء حتى تُفْضِيَ إلى العرش.

٢٤- أنها توجب المغفرة لقائلها.

٢٥- أن قولها مع ما ورد معها يعدل عتق الرقاب.

٢٦- أنها تمحو السيئات وتتساقط بها الذنوب.

٢٧- أنها الفرق بين دار الإسلام ودار الكفر، وبين المسلم والكافر.

٢٨- أنها تبرِّئُ صاحبها من الشرك[١].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٤) و«فضل لا إله إلا الله» لابن عبدالهادي و«الإخلاص» لابن رجب (٥٢-٦٧)، و«الكلام المنتقى» لابن حجي (٦٨-٧٦).

وفي الجملة: فـ «فضائل هـذه الكلمـة وحقائقهـا وموقعهـا مـن الـدين فـوق مـا يـصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله»[١].

مقتضى لا إله إلا الله:

يظن بعض الناس أنَّ النطق بلا إله إلا الله كاف في أن يكون العبد مسلمًا وما درى أن النطق بها دون اعتقاد القلب وعمل الجوارح من سمات المنافقين.

ومن هنا تعيَّن بيان مقتضاها ويتضح ذلك بما يلي:

١) **معرفة معناها:** ومعناها أنه لا معبود بحق إلا الله. وهو المعنى الذي كان النبي ﷺ يبينه لجميع الناس جهرة من غير مواربة حتى فهم مقصده المشركون فضلًا عن المؤمنين فاعترض معترضهم قائلًا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥].

ولم يعترض أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية على النبي ﷺ عندما دعا أبا طالب إلى قول لا إله إلا الله إلا بقولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب»[٢].

٢) **توجه القلب إلى الله وحده وتحققه بذلك، ونفي الشرك:**

«إن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله وصدقه فيها وإخلاصه بها يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده إجلالًا وهيبة ومخافة ومحبة ورجاءً وتعظيمًا وتوكلًا ويمتلئ بذلك وينتفى عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبه»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٥٦).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٠٦)، كتاب «التفسير»، باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. رقم (٤٧٧٢)، ومسلم (١/ ٥٤)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت. رقم (٢٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٢٥)، وانظر: «الإخلاص» لابن رجب (٢٣).

٣) عمل الجوارح بما دلّت عليه:

العلم النظري الذي لا رصيد له في أرض الواقع هو في الحقيقة أَمانٍ لا حقيقةَ لها. وهذا النوع لا وجود له في دين الإسلام البتة؛ لأن الإسلام علم وعمل، ولهذا أجمع أهل السنة قاطبة على أن الإيمان قول وعمل لا ينفع قول بلا عمل ولا عمل بلا قول وهذا هو فهم الصحابة ﭬ فما إن يصدر أمر النبي ﷺ إلا ويسارعون فيه ويتسابقون إليه متقربين إلى الله بذلك العمل عالمين أَنَّ ذلك من مقتضيات تلك الكلمة العظيمة لا إله إلا الله فتركوا ديارهم واسترخصوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم لأجل إعلاء لا إله إلا الله.

وهذه المقتضيات الثلاث متلازمة لا يصح أحدها بدون الآخر، قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «من قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها عاملًا بمقتضاها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به فهذا هو المسلم حقًا فإن عمل بها ظاهرًا من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها»[(١)].

نواقض شهادة أن لا إله إلا الله:

لما كانت لا إله إلا الله هي أس الدين وأعلاه ولا يثبت قدم الإسلام إلا بها كان لزامًا على المسلم أن يعرف معناها وأركانها وشروطها ولوازمها ولا يقل عن ذلك أهمية معرفة ما ينقضها لئلا يقع فيما ينقضها وهو لا يشعر.

ونواقض (لا إله إلا الله) اعتقادية وقولية وعملية، لأنها تعود إلى القلب واللسان والجوارح. قال السعدي: «كل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص وصرفه لغيره شرك وكفر»[(٢)].

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧٨)

(٢) «القول السديد» (٥٢).

وضابطها: «كل اعتقاد أو قول أو فعل أوشك أو ترك مما قام على اعتباره ناقضًا الدليل الواضح والبرهان الساطع من الكتاب والسنة والإجماع»(١).

ولما كانت النواقض كثيرة يصعب حصرها رأيت أن أسير على هذا التقسيم وأذكر نماذج لكل نوع:

أولًا: النواقض الاعتقادية:

وهو أن يعتقد الإنسان في قلبه شيئًا يناقض لا إله إلا الله ويبطل مدلولها ومن أمثلة ذلك:

١) **استحلال المحرمات** (استحلال أمر معلوم من الدين بالضرورة) استحلال المحرمات ناقض من نواقض لا إله إلا الله ويدل لذلك قصة قدامة بن مظعون رضي الله عنه ومن معه حينما شربوا الخمر بعد تحريمها ظنًّا منهم حل الخمر لهم متأولين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ...﴾[المائدة:٩٣]. «فاتفق عمر بن الخطاب هو وعلي بن أبي طالب، وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا»(٢).

قال القاضي عياض: «أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شربَ الخمر أو الزنا مما حرّم الله بعد علمه بتحريمه كأصحاب الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة»(٣) ونقل الإجماع على كفر مستحل المحرمات شيخ الإسلام، ثم بيّن العلة في كفره هي عدم إيمانه بالقرآن والرسول فقال: «فإنَّه ما آمن بالقرآن من استحلَّ محارمهُ، وكذلك لو استحلها من غير فعلٍ، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها وتارة بعدم اعتقاد

---

(١) «درء الفتنة عن أهل السنة» (٣٠) لبكر أبو زيد.

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٢/ ٤٤٧).

(٣) «الشفاء» (٢/ ١٠٧٣) وانظر: «المغني» (٨/ ١٣١).

أن الله حرمها وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية، ولخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة»[١].

٢) **الشك**: كالشك في الله وأسمائه وصفاته أو اليوم الآخر أو عذاب القبر ونعيمه أو غير ذلك من أمور الغيب.

فالشاك غير مؤمن بما تقتضيه هذه الكلمة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥] وذلك أن النبي ﷺ اشترط لصحتها اليقين كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «**اذهب بِنَعْلي هاتين فَمَنْ لَقِيْتَ وَرَاءَ هَذَا الحَائِط يَشْهدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاّ الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبه فبَشِّرْهُ بِالجنّةِ**»[٢].

فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط. ولما شك صاحب الجنة باليوم الآخر كفر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٥-٣٧]، فوصفه بالكفر لشكِّه في قيام الساعة.

٣- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ وكراهية انتصاره:

الفرح بانخفاض شيء دليل على بغضه، والفرح بعلوه وانتصاره دليل على محبته، فمن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فرح بعز الدين وعلوه وانتصاره.

ومن كان عكس ذلك فرح بانخفاض دين الرسول محمد ﷺ وهزيمة أهله، ومن كان كذلك؛ فقد نقض لا إله إلا الله بإجماع العلماء. قال تعالى مبينًا ما في قلوب هذه الفئة الضالة من بغض دين الله وأهله ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ

(١) «الصارم المسلول» (٥٣١).

(٢) سبق تخريجه.

يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾[التوبة:٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾[آل عمران: ١٢٠].

فهؤلاء قد نقضوا لا إله إلا الله «فإن المساءة بالحسنة والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدل على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية»[(١)] «وهؤلاء كفار بلا شك»[(٢)].

وقد يتساءل متسائل قائلًا هل يمكن أن يقع هذا ممن يزعم أنه مسلم فنقول له نعم وقع هذا من قوم ادعوا الإيمان بلا إله إلا الله ولكنهم نقضوها بمحبتهم نصرة أعداء الله على المؤمنين كما في الآية السابقة.

وكما يفعله الروافض حين يتغلب الكفار على المسلمين قال شيخ الإسلام: «وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور»[(٣)].

ثانيًا: النواقض القولية:

وذلك بأن ينطق المسلم بقول ينقض لا إله إلا الله فيخرج بذلك من الإسلام إلى الكفر ومن ذلك:

١) سب الله ورسوله والاستهزاء بالله وبرسوله ﷺ:

سب الله والاستهزاء به تنقص له واستخفاف بقدره ولهذا صار ناقضًا من نواقض لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ..﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٣٦٩).

(٢) «المحلى» (١١/ ٢٠٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٦-٦٣٧).

فهذا دليل على أَنَّ «من سبَّ الله تعالى كفر سواء كان مازحًا أو جادًا. وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسله أو بكتبه»[(١)].

بل نقل إسحاق بن راهويه إجماع العلماء فقال: «قد أجمع العلماء على أن من سبَّ الله عزَّ وجلَّ أو سب رسوله ﷺ أو دفع شيئًا مما أنزله الله، أو قتل نبيًا من أنبياء الله وهو مع ذلك مُقِرٌ بما أنزل الله أنه كافر»[(٢)].

٢) إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة:

وضابط المعلوم من الدين بالضرورة: ما كان معلومًا عند الخاص والعام يعلمه جميع المسلمين لا يقع فيه شبهة ولا شك كالتوحيد والصلوات الخمس وما أشبه ذلك.

فمن أنكر شيئًا من ذلك فقد نقض لا إله إلا الله.

قال الإمام ابن بطة: «لو أن رجلًا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئًا واحدًا كان برد ذلك الشيء كافرًا عند جميع العلماء»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «إن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين، والجاحد لها كافر بالاتفاق»[(٤)].

ووجه كونه ناقضًا أنه جَحْدٌ وتكذيب لما اقتضته هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

٣) إنكار اليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء والجنة والنار:

ومعنى الإيمان باليوم الآخر: هو الإقرار والتصديق الجازم بوقوعه والعمل لأجل ذلك.

---

(١) «المغني» (١٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) «التمهيد» لابن عبدالبر (٤/ ٢٢٦) وللاستزادة انظر: «الصارم المسلول» لشيخ الإسلام.

(٣) «الإبانة الصغرى» (٢١١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٦).

قال السعدي: «الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرهبة من الشر الذين هما أساس الخيرات»[(١)].

ووجه كون إنكار البعث ناقضًا لـ (لا إله إلا الله) أنه كفر بحكمة الله وقدرته وآياته المنزلة على رسوله ﷺ.

ثالثًا: النواقض الفعلية:

النواقض الفعلية كثيرة منها:

١) الشرك بالله تعالى:

لما كانت لا إله نافية لجميع المعبودات مثبتة العبادة لله وحده لا شريك له فهي عنوان التفريد والتوحيد. ولما كان جعل شريك مع الله في عبادته مناقضاً للتوحيد صار الشركُ كالسجود للصنم أو دعاء صاحب القبر والنذر له ونحو ذلك أعظمَ نواقضِ لا إله إلا الله.

ومن هنا صار ذنبًا لا يغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

ومحبطًا لكل عمل ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥].

ونتيجته الحرمان من الجنة والخلود في النار ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

٢) الامتناع عن الانقياد لما تأمر به لا إله إلا الله وتنهى عنه:

الإيمان بالله يقتضي استسلام القلب لله ومن ثم عمل الجوارح بجميع ما أمر الله به فعلًا أو تركًا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦٠).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

فالممتنع عن فعل ما يأمر الله به قد ناقض لا إله إلا الله «وهذا بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولًا، ولكن لم ينقد للأمر»[1].

ومن ذلك الامتناع فعل ما أمر الله به أو ترك ما نهى عنه. قال معقل بن عبدالله العبسي سألت نافعًا مولى ابن عمر عن قوم يقولون: «نحن نُقِرُّ بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونحن نشربها، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن نفعله، قال فنتر يده من يدي ثم قال من فعل هذا فهو كافر»[2].

٣) مظاهرة المشركين على المسلمين:

أجمع المسلمون على كفر من أعان المشركين على المسلمين قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١].

ووجه كونها ناقضًا لـ (لا إله إلا الله) أنها نَصْر للشرك على التوحيد، ومن ثم إزالة التوحيد من القلوب والبقاع[3].

---

(١) «الصارم المسلول» (٥١٩).

(٢) «السنة» لعبدالله بن الإمام أحمد (١/ ٣٨٣).

(٣) انظر «نواقض الإسلام» الناقض الثامن.

وَتَفْسِيرَهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[**الزخرف:٢٦- ٢٨**].

....

التفسير هو: التبيين والإيضاح، والضمير في قوله: «وتفسيرها» يعود على (لا إله إلا الله) أي معناها وحقيقتها: الولاء لله والبراءة من أعدائه وخير ما تفسر به الحقائق الشرعية كلام الله ورسوله ﷺ،ولذلك قال المؤلف: «وتفسيرها الذي يوضحها»، ثم ذكر الآية.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾: خَبَرٌ عن أبينا إبراهيم عليه السلام يراد به الأمر أي اتبعوا إبراهيم عليه السلام في البراءة من كل معبود سوى الله بل ومن كل مشرك كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة:٤].

ونسبه إلى إبراهيم عليه السلام لأنه أشرف آبائهم، وهذا من قلب الحجة على المبطل وذلك أنهم ردوا التوحيد ولم يقبلوه بحجة أنه سفَّه آباءهم فرد الله عليهم بأنهم إن لم يقبلوا التوحيد، فقد سفّهوا أباهم الأول الذي هو أشرف الآباء وسفّهوا أنفسهم ورضوا لها بالدون فقال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[البقرة:١٣٠].

﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾: ذكر الله التبري من الأب والقوم ولم يقل وإذ قال إبراهيم لمن دعاهم.

لأن معاداة القريب والتبري منه لأجل الله من أشقِّ الأمور على النفس ولا يستطيعها إلا قوي الإيمان فمن كانت هذه حاله فبراءته من البعيد أولى وأحرى.

﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾: براء مصدر فلا يُجْمَع ولا يثنى ولا يؤنث وعبر به لأنه أبلغ من

التعبير بالفعل قال القاسمي: «أريد به معنى الوصف مبالغة»(١).

ومعناه أنني متخل عن معبوداتكم غاية التخلي ومبغض لها غاية البغض، ومعاد لها غاية العداوة.

﴿تَعۡبُدُونَ﴾: العبادة هي: ما جمعت غاية الذل مع غاية المحبة.

وعبادة الرحمن غاية حُبِّهِ   مع ذل عابده هما قطبان

والمقصود براءته عليه الصلاة والسلام من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله من الكواكب والأصنام وغيرها.

وقوله: ﴿بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾: نفي فهو بمعنى (لا إله).

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾: فطرني بمعنى خلقني وأوجدني من العدم، وذكر الفَطْر وهو الخلق؛ لأنه من أخص خصائص الإله، فلا يصح أن يعبد إلا من كان خالقًا.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. فاستثنى من المعبودين ربه جل وعلا الذي خلقه وأوجده من العدم فهي بمعنى (إلا الله).

قال شيخ الإسلام: «فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا»(٢).

والاستثناء متصل لأمرين:

١) أن الأصل في الاستثناء هو الاتصالُ، فلا يقال: منقطع إلا بدليل.

٢) أن الدليل دل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾[الأنعام:٨١]، فأثبت أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ٥٢٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٢) وانظر: (١٠/ ٨٢ و٢٨/ ٣٢).

فإنه: إن للتوكيد، والضمير يعود إلى الله عز وجل

وفي عود الضمير إلى الله فائدة هي: أنني لا حاجة لي في معبوداتكم.

﴿سَيَهْدِينِ﴾: الهدى هو: البيان والتوفيق، أي: أنه سيبين لي الصواب ويرشدني ويدلني عليه ويوفقني لاتباع سبيل الرشد.

فالهداية قسمان:

١) هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

٢) هداية التوفيق لفعل الطاعات[١].

وهاتان الهدايتان كلتاهما حصلتا لإبراهيم عليه السلام فإن الله دلّه وأرشده إلى الطريق الصحيح ووفقه له وثبته عليه.

وقد أنعم الله على أبينا إبراهيم عليه السلام بالهداية في أحواله الثلاث في الماضي والحاضر والمستقبل ولذلك قال إبراهيم عليه السلام شاكرًا فضل الله عليه بهدايته في الماضي كما ذكر الله ذلك عنه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ...﴾[الأنعام:٨٠]. وقد هنا للتحقيق لورود الفعل الماضي بعدها.

وأنه عليه السلام باق على هداية ربه له في حاله الحاضر فقال كما ذكر الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء:٧٨].

وفي هذه الآية صدرت الهداية بالسين التي تدل على ثبوت الهداية واستمرارها في المستقبل[٢] وفي هذا عظيم ثقة إبراهيم عليه السلام بربه وأنه لن يخذله.

(١) وهذه لا يملكها إلا الله وحده، فلا يجوز أن تطلب من غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦]، والقاعدة تقول: «طلب الهداية القلبية من غير الله شرك».

(٢) انظر: «إعراب القرآن وبيانه» (٧/ ٨٠-٨١) محيي الدين الدرويش.

﴿وَجَعَلَهَا﴾: الضمير في جعلها يعود على كلمة التوحيد: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[الزخرف:٢٧].

من هو الجاعل؟ فيه قولان:

الأول: أنّ الجاعل هو الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي يملك القلوب ويوفقها لاتباع سبيل المرسلين.

الثاني: أن الجاعل هو إبراهيم عليه السلام وذلك لأن السياق يدل عليه ولأنه لم يتقدم اسم الجلالة ليعود عليه الضمير، و المعنى أي صيَّر إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه وذلك أنه تسبَّبَ في بقائها بأمرين:

١) وصيته عليه السلام لأولاده بالتمسك بالتوحيد قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ....﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٠].

٢) دعاء إبراهيم عليه السلام ربّه أَنْ يصلح له ذريته كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[إبراهيم:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة:١٢٨].

وقد أجاب الله دعاءَه فبقيت كلمة التوحيد في ذريته بل ستبقى إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[العنكبوت:٢٧].

وقال ﷺ مبينًا إجابة الله دعاء نبيه إبراهيم عليه السلام عندما سأله أبو أمامة: يا نبيَّ الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم...**»(١).

---

(١) أحمد (٥/ ٢٦٢)، قال الهيثمي: «ورواه أحمد وإسناده حسن، وله شواهد تقويه». «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٢).

=

ولا منافاة بين القولين، فإبراهيم عليه السلام دعا الله فقبل الله دعوته، فوفق ذريته وهدى قلوبهم للتوحيد.

﴿كَلِمَةً﴾: والكلمة هي لا إله إلا الله[1].

والكلمة في اصطلاح الشرع تطلق على الجملة المفيدة ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[إبراهيم:٢٤] وهذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:٩٩-١٠٠].

فالكلمة في هذه الآية هي قوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

وقوله ﷺ لعمه أبي طالب عند موته: **«يا عم! قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**[2].

والكلمة في هذا الحديث هي قول: «لا إله إلا الله».

وقول النبي ﷺ: **«أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»**[3].

= ومن شواهده: ما رواه أحمد (٤/ ١٢٧) عن العرباض بن سارية، وحسن إسناده شيخ الإسلام في «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ١٣٧)، والذهبي في «السيرة النبوية» (١٦).

ومنها: رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢٨) رقم (٣٣) عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال ابن كثير بعد أن ذكره: «وهذا إسناد جيد قوي». «البداية والنهاية» (٣/ ٤١٣).

(١) قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم. «تفسير القرآن العظيم» (١٢٣١).

(٢) البخاري مع الفتح (٧/ ١٩٣)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب قصة أبي طالب. رقم (٣٨٨٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٩)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب أيام الجاهلية. رقم (٣٨٤١).

والكلمة في هذا الحديث هي: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

قال شيخ الإسلام: «الكلمة في لغة العرب هي الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية وهي القول التام وكذلك الكلام التام عندهم هو الجملة التامة قال سيبويه: واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلامًا ولا يحكون به ما كان قولًا»[(١)].

﴿بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾: أي دائمة مستمرة في ذريته إلى قيام الساعة فلا يزال في ذرية إبراهيم عليه السلام من يعبد الله وحده لا شريك له فلا تخلو الأرض من موحد إلى قيام الساعة قال قتادة: «لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده»[(٢)].

قال ابن القيم: «أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»[(٣)].

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل المشركين الضالين منهم يرجعون من الشرك والكفر إلى التوحيد بسبب إرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق مادام قائمًا في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجُوٌّ مأمول[(٤)].

وفي قوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ «تشبيه حال الإشراك بموضع الغربة، لأن الشرك ليس من مقتضى الفطرة فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه ويقتضي

---

(١) «الجواب الصحيح» (٣/ ٢٦٥)، وقد أطال بذكر الأمثلة هناك (٢٦٦-٢٧٠)، وانظر: «التحرير والتنوير» (١٣/ ١٩٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٧).

(٣) «الجواب الكافي» (٢٣٣)، وفيه بقية كلام مفيد حول هذه الكلمة، فراجعه إن شئت.

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٧/ ٢٣٣).

أيضًا تشبيه حال التوحيد بِمَحَلِّ المرء وحَيِّه الذي يأوي إليه»[١].

من فوائد هذه الآية:

١) قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ دليل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره وأن عبادتهم لله في هذه الحال لا تنفعهم.

٢) أن علة إفراد الله بالعبادة هي انفراده بالخلق.

فكما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة، وقد أشار إليها المؤلف بقوله: «لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه».

٣) أن من علامة بطلان عبادة غير الله أنها لا تخلق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾[النحل:١٧].

٤) تفسير لا إله إلا الله وهو «عبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله».

٥) أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله وغيره بل لا بُدَّ من إفراد الله بالعبادة.

٦) الجمع بين النفي ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، والإثبات ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ دالٌّ على أن التوحيد لا يحصل إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦].

٧) أن أكمل الناس تحقيقًا للولاء والبراء هم أكمل الناس عبادة لله، ولذلك أمرنا الله بالاقتداء بهما فقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٦/ ٩).

قال شيخ الإسلام: «أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه، إذ تبرؤوا من المشركين ومما يعبدون من دون الله، لأن حقيقة التوحيد ألا تحب إلا الله وتحب ما يحبه الله لله. فلا تحب إلا لله، ولا تبغض إلا لله. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لآلهتهم وحب النصارى للمسيح وحب أهل الأهواء رؤوسهم»(١).

أما نبينا ﷺ فقد بلغ أعلى مراتب البراءة من الكفار هو وأصحابه رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩].

وكان من مظاهر براءته ﷺ إهداؤه جملًا كان لأبي جهل عام الحديبية ليغيظ به المشركين.

بوب على ذلك ابن خزيمة في «صحيحه» فقال: «باب استحباب إهداء ما قد غنم من أموال أهل الشرك والأوثان أهل الحرب منه مغايظة لهم».

ثم ذكر قول ابن عباس رضي الله عنه: «أهدى رسول الله ﷺ عام الحديبية في هداياه جملًا لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك»(٢).

قال ابن القيم في بعض فوائد قصة الحديبية: «ومنها استحباب مغايظة أعداء الله فإن النبي أهدى في جملة هديه جملًا لأبي جهل في أنفه بُرَةُ من فضة يغيظ به المشركين.

وقد قال تعالى في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح:٢٩].

---

(١) «جامع الرسائل» المجموعة الثانية (٨٤-٨٥) تحقيق محمد رشاد سالم.

(٢) (٤/ ٢٨٧) رقم (٢٨٩٨)، وأحمد (١/ ٢٦١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٦٣٩)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

وقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة:١٢٠]»[١].

٨- أن البراءة من الكفار سبب لكثير من النعم.

قال تعالى مبينًا بعض نعمه على إبراهيم عليه السلام لما تبرأ من أبيه وقومه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[مريم:٤٩-٥٠].

وهذه النِّعَم هي: إيناس الله له وحشته من فراقهم، وإبداله عنهم بمن هو أكرم على الله منهم وهم إسحاق ويعقوب، ووهب لهم جميعًا من رحمته، ورزقهم الثناء الحسن والذكر الجميل عند الناس[٢].

فأعطي عليه السلام من النعم بخلاف ما يتوقعه المداهنون.

٩- أن البراءة من الكفار سبب للعز والتمكين:

قد يظن بعض الناس أن موالاة الكفار في هذا العصر أمر حتمي، وذلك لأن التودد لهم يحقق المصالح للمسلمين. ويدفع عن المسلمين غوائلهم ومكائدهم وهذه هي بعينها دعوى المنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢].

بل إنَّ الأمر خلافُ ذلك فإن معاداة الكفار سبب للعز والتمكين كيف لا يكون

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٨/ ٢٠٨).

كذلك والله بمنه وفضله وكرمه يؤيد المؤمنين به كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ كَانُوٓاْ .. وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة:٢٢].

قال شيخ الإسلام: «وصلاح الدين وأهل بيته ما كانوا يوالون النصارى ولم يكونوا يستعملون منهم أحدًا في شيء من أمور المسلمين أصلًا، ولهذا كانوا مؤيدين منصورين على الأعداء مع قلة المال والعدد... وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين وصلاح الدين ثم العادل كيف مكنهم الله وأيدهم وفتح لهم البلاد وأذل لهم الأعداء، لما قاموا من ذلك بما قاموا به، وليعتبر بسيرة من والى النصارى كيف أذله الله تعالى وكبته»(١).

١٠- أن البراءة من الكفار من أسباب دخولهم في الإسلام:

شرع الله بُغْضَ الكفار وعداوتهم والبراءة منهم لحكم عظيمة ومن هذه الحكم أن البراءة من الكفار سبب في ظهور الإسلام وقبوله كما وقع في القرون المفضلة:

ومن ذلك أن اليهود خافت وذلت من يوم قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: «فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بِعَدُوِّ الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه»(٢).

ولما قال النبي ﷺ: «مَنْ ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، وثب محيّصة بن مسعود على ابن سنينة -رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله، وكان حويّصة -أخوه- إذ ذاك لم يسلم وكان أَسَنَّ من محيّصة، فلما قتله جعل حويّصة يضربه ويقول: أي عدو الله قتلته؟ أما والله لربّ شحم في بطنك من ماله. فقلت: «والله لو أمرني بقتلك لضربت عنقك». قال: فوالله إِنْ كان لأول إسلام حويصة. قال: والله لئن أمرك محمد بقتلي لتقتلني

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٩-٦٤٣).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٣٠٠)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٥٦٣)، و«الصارم المسلول» (٢٢٠).

قال محيّصة: نعم والله. قال حويصة: فوالله إنّ دينًا بلغ هذا إنه لعجب، فأسلم حويصة»[١].

ورواه ابن إسحاق إلا أنه قال: «والله إن دينًا بلغ بك هذا لدين له شأن، انطلق إلى صاحبك حتى أسمع منه، فانطلق إلى رسول الله ﷺ فكان أول إسلام حويصة فقال محيصة:

يلوم ابنُ أم لو أمرت بقتله ... لطبقت ذفراه بأبيض قاضب
حسام كلون الملح أُخْلِصَ صَقْلُهُ ... متى ما أصوبه فليس بكاذب
وما سرني أني قتلتُك طائعًا ... وأَنَّ لنا ما بين بُصرى فَمأْرِبِ[٢]

ومما ينبغي أن يعلم أن من أسباب نشر التوحيد هو الجهاد في سبيل الله الذي هو مظهر من مظاهر البراء من الكفار قال النبي ﷺ: «**أُمرت أن أُقاتل النّاس حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله**»[٣].

(١) «المعجم الكبير» (٢٠/ ٣١١). رقم (٧٤١).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٣٠٠)، وذكره شيخ الإسلام مستدلًا به، حيث قال: «فإن هذا يدل على أنهم -أي اليهود-، لم يكونوا موادعين، وإلا لما أمر بقتل من صودف منهم». «الصارم المسلول» (٩١)، وبمثله قال ابن القيم. «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٤٥١).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٧٥)، كتاب «الإيمان»/ باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾. رقم (٢٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٦٤].

....

﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ ولأمته من بعده، وإنما كان الخطاب له لأنه هو القدوة لأمته والأصل العموم إلا ما ورد الدليل بتخصيصه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: هذا الخطاب عام في أهل الكتاب من يهود ونصارى بل ومن جرى مجراهم[(١)].

﴿تَعَالَوْا۟﴾: تعالوا: تفاعل من العلو، أي: هلموا وأقبلوا نجتمع نحن وأنتم على شيء معين بينه بقوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ويفهم من قوله «تعالوا» أن المسلمين ثابتون على ما هم عليه فلا يتنازلون عن شيء من دينهم، وأنهم الأعلون وغيرهم الأدنى والأسفل، وأنهم هم أصحاب الحق فقط وأن غيرهم على الباطل، وأنه لا التقاء في عرض الطريق، لأنه لا يجتمع التوحيد والشرك ولا الإيمان والكفر في قلب العبد أبدًا.

ولما طلب المشركون من النبي ﷺ أَنْ يتنازل عن شيء من دينه مقابلَ تنازلهم عن شيء من دينهم فقالوا: يا محمد اعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة، أمره الله بإعلان المفاصلة التامة والبراءة الكاملة وبيّن له أن الشرك والتوحيد لا يجتمعان فأنزل عليه سورة الكافرون.

إذًا نحن على الحق وأنتم على الباطل فإن آثرتم السعادة على الشقاوة فأقبلوا إلينا ودعوا ما أنتم عليه من الدين الباطل وإن أبيتم إلا الشقاوة فالويل لكم من عذاب الله.

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٨٥) و«تفسير ابن كثير» (٢٤٠)، و«الجواب الصحيح» (١/ ٢٠٩).

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾: بيَّن الله الكلمة بأنها لا إله إلا الله حيث قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ألا نعبد بمعنى «لا إله» إلا الله (إلا الله) فجمع بين النفي والإثبات.

﴿سَوَآءٍ﴾: أي عَدْل ونَصَف[1] بيننا وبينكم نستوي نحن وأنتم في تطبيقها وقبولها، وإنما قيل للنصف سواء؛ لأن أعدل الأمور وأفضلها وسطها[2].

وقال البخاري سواء: أي قصد[3]. والمعنى واحد قال ابن حجر: «القصد: هو الوسط المعتدل»[4].

فهي دعوة مبنيَّة على الإنصاف وعدم الحيف اتفقت عليها الرسالات كلها قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

فمعنى كلمة سواء: أي كلمة عادلة مستقيمة مستوية.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾:أي نحن وأنتم. و﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هذه الجملة تفسير لقوله كلمة: ﴿سَوَآءٍ﴾.

ففيها إفراد الله بالعبادة، وقصرها عليه، والبراءة من كل معبود سواه.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾: أي لا نصرف شيئًا من العبادة لغير الله والضمير في قوله (به) يعود إلى الله عز وجل.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكره في سياق النفي فتفيد العموم.

---

(١) نصف: أي إنصاف من بعضنا للبعض. انظر: «جامع البيان» (٦/ ٤٨٣) و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥).

(٢) «معالم التنزيل» (٢/ ٤٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٢١٤)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

(٤) «فتح الباري» (٨/ ٢١٦).

وقوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: تأكيد لنفي الشرك وبيان أن العبادة لا تصح إلا بالتخلي عن الشرك كثيره وقليله.

قال الطبري: «والكلمة العدل هي أن نوحد الله فلا نعبد غيره ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئًا»[١].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: هذه الجملة مُؤكِّدٌ ثالث لبيان وجوب التوحيد والتحذير من ضده.

واتخاذ الأرباب فسره أهل العلم بتفسيرين، أرجحها:

لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله. كما هي حال أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله يطيعونهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله مع علمهم بذلك. فعن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي اطْرح عنك هذا الوثن**»، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٣١] قلت: يا رسول الله! إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يحرّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه ويحلّون ما حرَّم الله فتستحلونه**». قلت: بلى قال: «**فتلك عبادتهم**»[٢].

وبهذا فسر الآية حذيفة رضي الله عنه لما قيل له أكانوا يصلون لهم؟ قال: «لا ولكنهم كانوا يحلون لهم ما حرّم الله عليهم فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم فيحرمونه فصاروا بذلك أربابًا»[٣].

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٩٨) رقم (٢٠٣٥١).

وفي لفظ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم في المعاصي»[(١)].

«فكل من ادعى أنّ له حقَّ الطاعة لذاته بزعامته أو قداسته فقد جعل لنفسه الألوهية في الأرض ولو لم يصرح بكلمة فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وتشجيعُه بالإقرار والثناء عليه وإضفاء ثوب الشرعية والقداسة على ما يصدر منه شرك بالله وكفر به»[(٢)].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: أي أعرضوا عما دعوتموهم إليه فلم يقبلوا دين الله وأبوا أن يوحدوا الله ويتبعوا هذا النبي الكريم وبقوا على ما هم عليه من الكفر والضلال.

وذلك أن المدعو له حالتان:

إما الاستجابة: فيصير أخًا لنا له ما لنا وعليه ما علينا.

أو الإعراض وعدم القبول[(٣)]: فيحتاج المسلمون إلى بيان موقفهم منه فبينه الله بقوله: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿فَقُولُواْ﴾: أي تكلموا وانطقوا بألسنتكم.

﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، قيل: أي أشهدوهم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم[(٤)].

وقيل: أي لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم. كما يقول

---

(١) «شعب الإيمان» (٧/ ٤٥) رقم (٩٣٩٤).

(٢) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤/ ١٥٠).

(٣) هل الذي منع أهل الكتاب من اتباع النبي ﷺ هو جهلهم بحاله؟ كلا. بل هم «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» ولكن الذي منعهم الكبر والحسد أو حب حظوظ الدنيا من رئاسة وغيرها كما فعل هرقل عندما جاءه خطاب النبي يدعوه إلى الإسلام فدعا بطارقته للدخول في الإسلام فتناخروا ولم يقبلوا وخشي على ملكه قال إنما سألتكم لأختبر ثباتكم على دينكم.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢٤٠).

الغالب للمغلوب اعترف بأني أنا الغالب ولازمه اعترافكم على أنفسكم بأنكم كفار لتوليكم عن الحق[(١)].

وليس بين القولين منافاة فنحن ثابتون على إسلامنا مستمرون عليه واثقون من صحته مفتخرون به فرحون به أشد الفرح حامدون الله أن جعلنا من أهله، الذين هم خير أمة أخرجت للناس.

وأما أنتم فقد قامت عليكم الحجة فيجب عليكم أن تعترفوا بأنا نحن المسلمين وأنتم الكفار الضالون.

قال شيخ الإسلام: «فَأَمْرُهُ لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن إقامة الحجة عليهم كما كان المسيح عليه السلام يقول»[(٢)].

وأختم تفسير هذه الآية بكلام نفيس للشيخ عبدالرحمن الدوسري حيث قال: «وهذه الآية أساس الدين الحنيف وأصله الأصيل إذْ بها تقرير وحدانية الربوبية ووحدانية الألوهية ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من قراءتها في صلاة ركعتي الفجر ويدعو بها أهل الكتاب إلى الإيمان فقد أودعها كتابه إلى هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر ونصّ كتابه عليه الصلاة والسلام هذا كما أثبته البخاري رحمه الله: **«من محمَّدٍ رسول الله إلى هرقل عظيم الرُّوم سلامٌ على من اتَّبع الهُدى، أمَّا بعد، فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يُؤتيك اللهُ أجرك مرَّتين، فإن تولَّيت؛ فإنَّ عليك إثم الأَريسين»**.

(١) «محاسن التأويل» (٣/ ٨٦٢).

(٢) «الجواب الصحيح» (٣/ ٨٣).

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[(١)][(٢)]».

وجمع الشيخ هنا دليلين على خلاف عادته لأن كل دليل يوضح ويبين أمرًا غير الذي بينه الآخر، وذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي بغض أعداء الله وعداوتهم ومفاصلتهم مفاصلة تامة حتى ولو وجدت وشائج القربى. مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾[الزخرف:٢٦] ثم وضح ﵀ قضية يغفل عنها كثير من الناس وربما استبعدوها وهي أن المفاصلة لا تمنع من دعوتهم إلى الإسلام بل ولا تمنع دخولهم في الإسلام فذكر الدليل الثاني. قال شيخ الإسلام في معرض حديثه عن أهل الكتاب: «مثل الآصار والأغلال التي على أهل الكتاب وإذلال المسلمين لهم وأخذ الجزية منهم، فهذا قد يكون داعيًا له أن ينظر في اعتقاده: هل هو حق أو باطل؟ حتى يتبين له الحق، وقد يكون مرغبًا له في اعتقاد يخرج به من هذا البلاء، وكذلك قهر المسلمين عدوهم بالأسر يدعوهم للنظر في محاسن الإسلام»[(٣)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢١٤-٢١٥)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. رقم (٤٥٥٣).

(٢) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٤/ ١٥٠-١٥١).

(٣) «جامع الرسائل» المجموعة الأولى (٢٣٨).

ودليلُ شَهَادَةِ أنَّ مُحَمّدًا رَسُولُ الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

....

قدم المؤلف دليل الشهادة على المعنى لأن المرء إذا شهد وأيقن في قلبه بأنه رسول الله ﷺ قاده ذلك إلى العمل بما تقتضيه هذه الشهادة من طاعة ومتابعة وتصديق بخلاف من علم المعنى ولم يشهد ويستيقن بقلبه ذلك.

﴿لَقَدْ﴾: اللام الموطئة للقسم أي: والله لقد.

وقد: هنا للتحقيق لمجيء الفعل الماضي بعدها، ولدلالة السياق على ذلك.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أي أرسل إليكم.

﴿رَسُولٌ﴾: الرسول هو محمد ﷺ؛ لأن الخطاب جاء لأمته.

ونكر الرسول للتعظيم، فيكون المعنى لقد جاءكم رسول عظيم القدر، فهو أعظم الناس قدرًا وأعلاهم منزلة عند الله ﷻ، وله من المناقب ما ليس لغيره فهو صاحب الشفاعة العظمى والحوض المورود وهو أول من تفتح له الجنة، وغير ذلك.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: إما أن يكون الخطاب لقريش: فيكون المعنى منكم لا من غيركم تعرفون نسبه وصفته ولغته ومدخله ومخرجه كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حواره مع النجاشي: «فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان»(١).

وإما أن يكون عامًّا: فيكون المعنى أي من جنسكم بشر مثلكم ولا منافاة بين

(١) أحمد (٥/ ٢٩١)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ١٣) رقم (٢٢٦٠).

القولين. فهو ﷺ من قريش وهو من بني آدم.

والحكمة في كونه بشرًا ليكون أسهل للتلقي عنه وأدعى للاقتداء به وآكد للحجة على المدعووين.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: من عزَّ يعِزُّ إذا اشتد وثقل[١]، والمعنى شديد وشاق عليه ما يشق عليكم.

قال ابن عاشور: «إذا عدي بعلى دل على معنى الثقل والشدة على النفس.

قال بشر بن عوانة في ذكر قتله الأسد ومصارعته إياه:

فقلت له يعز عليَّ أني قتلت مناسبي جلدًا وقهرًا»[٢]

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾: خبر مقدم يفيد الحصْر.

﴿عَنِتُّمْ﴾: «العنت: هو المشقة الشديدة»[٣].

قال الأزهري: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ «معناه: عزيز عليه عنتكم وهو لقاء الشدة والمشقة»[٤].

والمعنى شديد وشاق عليه ﷺ ما يلحقكم من المكروه كسوء العاقبة والوقوع في العذاب والآصار والأغلال. حتى إنه كان يتألم أشد الألم ويتحسر على عدم إيمانهم قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[فاطر:٨].

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف:٦].

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٨٢-٨٤) و«لسان العرب» (٥/ ٣٧٤-٣٧٨).

(٢) «التحرير والتنوير» (١/ ٤١٤).

(٣) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٧٣) قاله أبو إسحاق الزجاج.

(٤) المرجع السابق (٢/ ٢٧٤).

﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾: «الحِرْص: شدة الإرادة والشَّرَه إلى المطلوب»[١].

قال الخليل: «حريص عليك أي حريص على نفعك»[٢].

والمعنى شديد الرغبة في إيمانكم وهدايتكم ووصول النفع إليكم دنيا وأخرى.

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: جميعهم من عرب ومن عجم لا فرق بينهم.

﴿رَءُوفٞ﴾: الرؤوف هو المبالغ في الشفقة.

﴿رَّحِيمٞ﴾: الرحمة هي رِقَّةُ القلب وعطفه.

فالرأفة: أشد الرحمة فهي أخص منها وأرق، ولا تكاد تقع في الكراهة، أما الرحمة فقد تقع في الكراهة للمصلحة[٣].

وقدَّم ما حقُّه التأخير في قوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ليفيد الحصر أي حصر الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكأنه قال: لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين يوضح رأفته ورحمته بالمؤمنين دعاؤه لهم وبكاؤه شفقة عليهم، كما في حديث عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[إبراهيم:٣٦] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨] فرفع يديه وقال: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وبكى فقال اللهُ ﷻ: يا جبريل اذهب إلى محمدٍ، وربُّكَ أعلم، فسله ما يبكيك، فأتاهُ جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام، فسألهُ فأخبرهُ رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمَّد، فقل: إنَّا سنرضيك في أمَّتك، ولا نسوءك**»[٤].

---

(١) «لسان العرب»ا (٧/ ١١).

(٢) «العين» (٣/ ١١٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٣٨) و«اللسان» (٩/ ١١٢ و٢/ ٢٣٠).

(٤) مسلم (١/ ١٩١)، كتاب «الإيمان»/ باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم. رقم (٢٠٢).

وكما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقْرَأ عَلَيّ**» قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «**إنّي أشتهي أن أسمعه من غيري**». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١] قال لي: «**كُفَّ أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان**»[١]. وفي رواية لمسلم: «**فرأيت دموعهُ تسيل**»[٢].

قال ابن حجر: «بكى النبي رحمة لأمته لأنه علم أنه لابد أن يشهد عليهم بعملهم. وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم»[٣].

أما الكافرون فلا رأفة ولا رحمة بهم بل أمره الله بالغلظة عليهم كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التحريم:٩].

وهذه الآية من أبلغ الأدلة على رسالة النبي ﷺ وذلك لأمور:

١- أن الله أكد رسالته ﷺ بالقسم.

٢- أن الله أكد رسالته ﷺ بقد الدالة على التحقيق.

٣- أن الله ذكر صفاته ﷺ الموجبة لمحبته وطاعته والإيمان به وهي:

أ- الرسالة وبدأ بذكرها لأنها أشرف الصفات التي وصف بها.

ب- كونه منا ومن جنسنا وثَنَّى بها لأنها صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه والأنس والاقتداء به.

جـ- كونه يشق عليه ما يشق علينا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (١/ ٥٥١)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب فضل استماع القرآن. رقم (٨٠٠).

(٣) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).

د- حرصه على هدايتنا لعبادة الله وحده.

هـ- رأفته ورحمته بنا.

فهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال وغاية الشفقة تدل على أن بعثة هذا النبي الكريم من أعظم منن الله علينا وأجزل نعمه، وقد نبه الله على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

ومَعْنَى شَهَادَةِ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله طَاعتُه فيما أمر وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَاب ما نَهَى عَنْهُ وَزَجَر، وَألا يُعْبَد الله إلا بِمَا شَرَعَ.

....

معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: هو الإيقان التام بالقلب بأنه رسول الله حقًا إلى جميع الثقلين الإنس والجن مع النطق باللسان وعمل الجوارح بما يقتضيه من فعل طاعته والبعد عن معصيته وتصديق خبره واتباعه في عبادة ربه، ولهذا قال المؤلف في معناها طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

قال شيخ الإسلام: «والشهادة بأن محمدًا رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر. وطاعته في كل ما أمر»[(١)]. وذلك أن «الكفر وإن اختلفت شعبه يجمعه خصلتان:

الأولى: تكذيب الرسول في خبره.

والثانية: عدم الانقياد لأمره.

كما أن الإيمان يرجع إلى أصلين:

الأول: طاعة الرسول فيما أمر.

والثاني: تصديقه بما أخبر»[(٢)].

الطاعة: هي فعل الأوامر أي: فعل جميع ما أمر به النبي ﷺ. ولما كان الأمر يستوجب الانقياد. قال المؤلف: طاعته فيما أمر.

ولما كانت طاعة النبي ﷺ بهذه المثابة وردت في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعًا.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٤-٣٧٥)، وانظر: «النبوات» (١/ ٣٢٩).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٨٣٥-٨٣٦).

«قال الإمام أحمد(١) في رواية الفضل بن زياد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[النور:٦٣]. وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك. لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء:٦٥]»(٢).

وقال الآجري: «فرض الله على الخلق طاعته ﷺ في نيف وثلاثين موضعًا من كتابه عز وجل»(٣).

وقد نقل الشافعي إجماع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على وجوب طاعة النبي ﷺ واتباع شرعه(٤).

فطاعة الرسول ﷺ فرض على كل أحدٍ من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان في سره وعلانيته وفي جميع أحواله(٥) حتى وإن تعارضت مع هوى النفس أو رغبة قريب أو غالٍ فإن طاعة الرسول ﷺ مقدمة على كل شيء.

يوضحه قول أبي بكر رضي الله عنه لفاطمة رضي الله عنها عندما سألته نصيبَها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة: إن النبي ﷺ قال: «**لا نُورث ما تركنا صدقة**» فغضبت. فصار أبو بكر بين أمرين إما أن يترك شيئًا من أمر رسول الله ﷺ ليرضي فاطمة رضي الله عنها. أو

(١) وقد صنف الإمام أحمد كتابًا سماه طاعة الرسول ﷺ. انظر: «العدة» لأبي يعلى (٢/ ٥١٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢٢٣)، و«مختصر الصواعق» (٤/ ١٦٤٣).

(٢) «الصارم المسلول» (٥٦).

(٣) «الشريعة» (٤٩).

(٤) «الرسالة التبوكية» (٤٥).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٦٠).

يطيع النبي ﷺ وإن غضبت فاطمة، وكلاهما صعب وشاق. فهو لا يريد أن يرد أمر رسول الله لخطورة ذلك على دينه، ولا يريد أن تغضب فاطمة رضي الله عنها لقرابتها من رسول الله ﷺ، ولكنه آثر طاعة النبي ﷺ ورضاه على رضى غيره ثم جعل يسترضي فاطمة ويقول لها: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[(١)].

فانظر إلى اعتذاره لفاطمة رضي الله عنها مبينًا لها أنه منعها مما تطلب؛ لأن النبي ﷺ منعها ذلك ولم يجعل لها حقًا فيه، وأنه لو أعطاها لترك شيئًا من دين رسول الله وأن عقوبة ذلك زيغ القلب عن الهدى ومن زاغ قلبه عن الهدى هلك. فكأنه يقول فهل ترضين لي ذلك.

ولما لطاعة الرسول ﷺ من الأهمية البالغة تنوعت الأساليب في الأمر بها ومن ذلك:

١- أَنَّ طاعة الرسول ﷺ طاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠].

الفاء هنا رابطة تدل على ارتباط الطاعتين بعضهما ببعض، وقد هنا للتحقيق، قال سهل بن عبدالله عند هذه الآية «من يطع الرسول في سنته فقد أطاع الله في فريضته»[(٢)].

٢- الأمر المباشر بطاعة الرسول ﷺ:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[الأنفال:٢٠].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾[محمد:٣٣] فكرَّر الله الطاعة مع الرسول ﷺ لبيان أَنَّ طاعة الرسول تجب استقلالًا[(٣)].

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٩٧)، كتاب «الخمس»/ باب فرض الخمس. رقم (٣٠٩٣).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١/ ٢٢٢).

(٣) «إعلام الموقعين» (١/ ٤٨).

٣- دخول المطيع جنات النعيم:

ويدل له حديث المصطفى ﷺ حيث يقول: «**كُل أُمَّتي يدخلون الجنَّةَ إلا من أبى**». قالوا: يا رسول الله! ومَنْ يأبى؟ قال: «**مَنْ أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبى**»[١].

٤- الفوز والرحمة والاهتداء:

بين ذلك ربنا بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[النور:٥٤].

فأخبر تعالى في هذه الآية «أَنَّ الهداية في طاعة الرسول ﷺ لا في غيرها فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه»[٢].

الشرط هو (إن تطيعوه)، والنتيجة (الهداية).

٥- أن الحياة الحقة في طاعة رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[الأنفال:٢٤].

«فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ»[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الرسالة التبوكية» (٤٥-٤٦).

(٣) «الفوائد» (١٢٧-١٢٨).

٦- ضرب الأمثال للحث على طاعته ﷺ:

ضرب المثل من أكبر ما يحرك القلوب ويقود إلى التفكر والتذكر، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر:٢١].

ومن الأمثلة التي ضربها النبي ﷺ أو ضربت له ما يلي:

المثل الأول: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إنَّما مثلي ومثل ما بعثني اللهُ به كمثل رجلٍ أتى قومًا فقال: يا قوم! إنِّي رأيتُ الجيش بعيني وإنِّي أنا النَّذير العريان، فالنَّجاء النَّجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذّبت طائفةٌ منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ من أطاعني، فاتَّبَع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به**»(١).

المثل الثاني: قول النبي ﷺ: «**إنَّما مثلي ومثل النّاس كمثل رجلٍ استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراشُ وهذه الدوابُ التي تقعُ في النارِ يقعن فيها، فجعل الرجل ينزعهُنَّ ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذٌ بحجزكم عن النّار، وأنتم تقحّمُون فيها**»(٢).

أما المثل الذي ضرب له ﷺ فهو المثل الذي ضربته الملائكة عندما جاؤوا إليه وهو نائم فعن جابر رضي الله عنه قال: «جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إنّ لصاحبكم هذا مثلًا قال بعضهم: فاضربوا له مثلًا فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣١٦)، كتاب «الرقاق»/ باب الانتهاء عن المعاصي. رقم (٦٤٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٩)، كتاب «الفضائل»/ باب شفقة النبي ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. رقم (٢٢٨٤).

من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا فقد عصى الله ومحمد فَرْقٌ بين الناس»(١).

فمن فَقهَ هذه الأمثال سارع إلى طاعة رسول الله ﷺ لعله أن ينجو.

٧- **الأمر باتباعه والتمسك بسنته:** أمر الله باتباع سنته ﷺ فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[آل عمران:٣١].

وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقال سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨].

فجاء الأمر بالاتباع عقب الأمر بالإيمان به مع العلم أَنَّ الاتباع داخل في الإيمان لتأكيده والتنبيه على أهميته، أما الرسول ﷺ، فأمرنا باتباع سنته فقال: «**عليكم بسنَّتي وسُنة الخلفاء المهديين الرّاشدين، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور**»(٢).

ونهانا عن مخالفتها فقال ﷺ: «**فمن رغب عن سنَّتي فليس منِّي**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٤)، كتاب «النكاح»/ باب الترغيب في النكاح. رقم (٥٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠)، كتاب «النكاح»/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. رقم (١٤٠١).

٨- **وجوب التسليم لحكمة:** ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

وقد أكد التسليم والطاعة بمؤكدات:

١- تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله «لا يؤمنون» وهذا منهج معروف في كلام العرب إذا أقسموا على شيء منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي. مثل هذه الآية.

٢- تأكيده بنفس المقسم.

٣- تأكيده بالمقْسَم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته.

٤- تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم.

٥- تأكيده الفعل بالمصدر.

وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وأنه مما يعتنى به، ويقرر في نفوس العباد بما هو أبلغ أنواع التقرير[(١)].

٩) **حسرة من لم يطع الرسول ويتبع سنته:** الحسرة شديدة على القلوب ولاسيما إذا لم يمكن تدارك الأمر. قال تعالى عن المتحسرين: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾[الأحزاب:٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٢٧].

فمن استشعر هذا الموقف سارع إلى طاعة رسول الله لئلا يتحسر ويندم ولات حين مندم.

---

(١) «الرسالة التبوكية» (٣٤).

ومن الأمثلة على طاعة النبي ﷺ:

ما رواه عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر رضي الله عنه يا رسول الله! لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ: «**لا والّذي نفسي بيده حتّى أكون أحبَّ إليك من نفسك**»، فقال عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»(١).

ولما قال النبي ﷺ في غزوة بدر: «**قوموا إلى جنّة عرضها السّموات والأرض**» قام عمير بن الحمام وألقى التمرات التي كان يأكلها، ثم قاتلهم حتى قُتل(٢).

ولما أمر النبي ﷺ أصحابه الذين جاهدوا معه في أحد أن يخرجوا معه للحاق بقريش خرجوا كلهم، «... وأمر النبي ﷺ أصحابه وبهم أشد القرح بطلب العدو ليسمعوا بذلك، وقال: لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال.. فانطلقوا فقال الله عز وجل في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٧٢] ... فطلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد، ونزل القرآن في طاعة من أطاع...»(٣).

ذكر ابن إسحاق أنَّ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهد أُحدًا مع رسول الله ﷺ قال: شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، والله ما لنا دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل...»(٤).

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٥٢٣)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ. رقم (٦٦٣٢).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٠-١٥١١)، كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت الجنة للشهيد. رقم (١٩٠١).

(٣) «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧١).

(٤) «السيرة النبوية» (٣/ ٦٨٢-٦٨٣).

وهذا هو الرضا بمحمد ﷺ رسولًا قال ابن القيم: «وأما الرضا بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه»(١).

وقد يحرم المخذول طاعة النبي ﷺ فيبتلى بالرد والامتناع والعصيان لشح بملكه كـ (هرقل). **قال هرقل:** «وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه»، وفي آخر الحديث: «فأذن هرقل لعظماء الروم ودهاقنتهم في دسكرةٍ له في حمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليَّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدّتكم على دينكم»(٢).

وهو في الحقيقة ليس قصده اختبار إيمانهم، ولكن لما حاصوا خشي على ملكه أن يؤخذ منه، فشح بملكه فَحُرِمَ هذا الخير.

أو خشية الملامة والمسبة كأبي طالب: فإنه منعه من طاعة النبي ﷺ خشية المسبة والملامة كما في قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا(٣)

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢).
(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٣١-٣٢)، كتاب «بدء الوحي». رقم (٧).
(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤).

أو الحسد كما هي حال أبي جهل:

قال الأخنس بن شريق لأبي جهل عندما سمعوا قراءة النبي ﷺ في الليل: ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه»(١).

قال المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفت فيه النبي ﷺ أنّي كنت أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، وقال النبي ﷺ لأبي جهل: يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله، قال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا، هل تريد ألا نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك، فانصرف رسول الله ﷺ.

وأقبل علي فقال: «فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل»(٢).

أو حب الرئاسة والزعامة، كعبد الله بن أبي سلول، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهم.

(وتصديقه فيما أخبر):

الصدق لغة: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة في الشيء قولًا وغيره.

---

(١) «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٠٧).

والصدق: خلاف الكذب. سمِّي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له، هو باطل[1].

وفي الاصطلاح: هو اليقين التام بصحة جميع ما أخبر به النبي ﷺ في الماضي والحاضر والمستقبل.

وربط التصديق في الخبر لأن الخبر يستوجب التصديق كما أنَّ الأمر يستوجب الانقياد.

وتصديقُ ما جاء به النبي ﷺ جزءٌ من شهادة أن محمدًا رسول الله فـ «يجب على الخلق الإقرار بما جاء به النبي ﷺ جملةً وتفصيلًا عند العلم بالتفصيل، فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى، فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة، إذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[الحاقة: ٤٤-٤٦]»[2].

ففي هذه الآيات أعظم دليل على أن النبي ﷺ لم يقل إلا الحق الذي أوحاه إليه ربه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤].

فمن اعتقد في قرارة قلبه أن النبي صادق في جميع ما بلغه عن الله فهو مؤمن ومن لا فلا. أرأيت أنه «لو قال الحاكم: إن هؤلاء الشهود صادقون في كل ما يشهدون به وهو لا يثبت بشهادة أحدٍ منهم حقًا لم يكن في تعديلهم فائدة»[3].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٢٦٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٤).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٣٣٨).

ويتعلق بتصديقه ﷺ أمران عظيمان[١]:

الأول: إثبات نبوته:

وهذا مختص به فيقال (آمنت له) قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣].

ويكفي في إثبات نبوته ﷺ تحدّي العرب الفصحاء أن يأتوا بشيء من مثل ما جاء به، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[هود:١٤][٢].

ويتعلق بإثبات نبوته أمور:

١- الإيمان بعموم رسالته للناس أجمع.

٢- الإيمان بأنه خاتم النبيين.

٣- الإيمان بأن رسالته ﷺ ناسخة للأديان السابقة.

٤- الإيمان بأنه بلغ الرسالة ولم يكتم منها شيئًا.

٥- الإيمان بعصمته فيما يبلغ عن ربه.

٦- الإيمان بما له من حقوق على أمته كالطاعة والاتباع والمحبة والتعزير والتوقير ونحو ذلك.

الثاني: تصديقه في جميع ما جاء به من عند الله:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[الزمر:٣٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٩١-٩٣).

(٢) الأدلة على إثبات نبوته كثيرة جدًا. ألفت فيها مؤلفات كاملة كدلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، وأبي القاسم التيمي الأصبهاني، والبيهقي والفريابي وغيرهم.

فكل ما أخبر به النبي ﷺ من الغيب فهو حق لا مرية فيه سواء كان غيبًا نسبيًا أو مطلقًا.

والغيب النسبي: هو الذي يعلمه قوم ويجهله آخرون كما في أخبار الأمم الماضية من عقوبات المعاندين للرسل فإن الله لما ذكر قصة نوح مع قومه قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩].

وكما قال بعد أَنْ ذكر قصة يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف:١٠٢].

أما الغيب المطلق: فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله من الأمور المستقبلة وغيرها ومن ذلك:

١- إخباره ﷺ بأسماء الرب وصفاته كاليد والنزول والاستواء ونحوها.

٢- أشراط الساعة الكبرى والصغرى كخروج المسيح الدجال ونزول عيسى بن مريم والدابة وطلوع الشمس من مغربها والخسوف ونحوها.

٣- البرزخ وما فيه من إقعاد الميت في قبره وسؤاله عن ربه ودينه ونبيه وعن تثبيت الله للمؤمنين. وما يقال للمؤمن بعد السؤال، ومن ثم يفتح له باب إلى الجنة فيشتاق إليها ويتمنى قيام الساعة، وكيف يضل المنافق فلا يستطيع الإجابة فيضرب بِمِرْزَبَةٍ من حديد يصيح منها صيحة يسمعه من يليه إلا الثقلين ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من حَرِّها وسمومها حتى تقوم الساعة.

٤- يوم القيامة من النفخ في الصور وبعث الخلائق ثم الموقف الرهيب الذي تشيب من هوله الولدان وتطاير الصحف فآخذ باليمين وآخذ بالشمال والحساب والجزاء والميزان والصراط ثم النهاية جنة أو نار. وغير ذلك مما أخبر به النبي ﷺ.

وكان يقينُ سلفنا الصالح بصحة ما يقوله ويخبر به أعظم من رؤيتهم الشيء بأعينهم وما ذلك إلا لقوة إيمانهم بالنبي وهذا هو الإيمان الحق برسالته ﷺ.

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابَهُ ... إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطعُ

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أَنَّ ما قال واقعٌ[1]

ومن الأمثلة على ذلك:

عندما أسري بالنبي ﷺ وعرج به إلى السماء استغلت قريش ذلك للتشكيك في رسالة النبي ﷺ فذهبوا إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أوتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أَنْ يصبح؟ قال: نعم. إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة؛ فلذلك سمي أبو بكر الصديق»[2].

أما المثال الثاني:

تصديق خزيمة بن ثابت للنبي ﷺ عند شرائه الفرس، وذلك «أن النبي ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه فأسرع رسول الله ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه فنادى الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعته. فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أوليس قد ابتعته منك**»، فقال الأعرابي: لا والله

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٩)، كتاب «التهجد»/ باب فضل من تعار من الليل فصلى. رقم (١١٥٥).

(٢) «المستدرك» (٣/ ٦٥) رقم (٤٤٠٧) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد»، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٦١).

ما بعتكه. فقال النبي ﷺ: «**بلى قد ابتعته منك**»، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «**بم تشهد**»، فقال: بتصديقك يا رسول الله! فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين»(١).

أما المثال الثالث:

جَزْمُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تعيين الخوارج الذين أخبر بهم النبي ﷺ حتى حلف مرتين أو ثلاثًا على صحة ذلك:

فعن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أَنَّ الحرورية لما خرجت، وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله. قال عليّ: كلمةُ حق أريد بها باطل. إن رسول الله وصف ناسًا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء «يقولون الحق بألسنتهم لا يجوز هذا منهم. (وأشار إلى حلقه) من أبغض خلق الله إليه منهم أسود: إحدى يديه طبي شاة أو حلمة ثدي». فلما قتلهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «انظروا فنظروا فلم يجدوا شيئًا. فقال: ارجعوا فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْت مرتين أو ثلاثًا. ثم وجدوه في خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه. قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليّ فيهم»(٢).

وإنْ تعجب فاعجب من سرعة تصديق عمير بن الحمام لرسول الله ﷺ في غزوة بدر وتفاعله مع خبر النبي ﷺ، كما في حديث أنس بن مالك قال: «دنا المشركون فقال رسول الله «**قوموا إلى جنّةٍ عرضها السَّموات والأرض**» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا

---

(١) أحمد (٥/ ٢١٦)، وأبو داود (٤/ ٣١-٣٢)، كتاب «الأقضية»/ باب إذا علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم به. رقم (٣٦٠٧) واللفظ له، والنسائي (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، كتاب «البيوع»/ باب التسهيل في ترك الإشهاد على البيع». قال ابن كثير: «إسناده صحيح حجة». «تحفة الطالب» (٢٩٠) رقم (١٨٤)، وصححه ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٥/ ٧٧-٧٨) رقم (٣٢٦٠).

(٢) مسلم (٢/ ٧٤٩)، كتاب «الزكاة»/ باب التحريض على قتل الخوارج. رقم (١٠٦٦).

رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ فقال رسول الله: «**ما يحملك على قولكَ بخ بخ**» قال: لا والله يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «**فإنَّك من أهلها**». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه. إنها لحياة طويلة. قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قتل»(١).

وغير ذلك كثير.

(**وَاجْتِنَاب مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ**):

لفظة: «اجتناب» أولى من «ترك»، وذلك لأن الاجتناب هو التباعد

جنّب الشيء وتجنبه وجانبه وتجانبه واجتنبه: بَعُدَ عنه.

ومنه سمي الجُنُبُ جُنبًا لأنه نُهِيَ أَنْ يقرب مواضع الصلاة ما لم يتطهر فتجنبها وأجنب عنها أي: بعد.

ومنه قول علقمة بن عبدة:

فلا تحرمني نائلًا عن جنابة ... فإني امرؤٌ وَسْطَ القِباب غريبُ

عن جنابة: أي بُعْدٍ وغربة(٢).

فالاجتناب: هو البعد عن المحرمات بأن يكون المسلم في جانب والمنهيات في جانب آخر ولا يكون ذلك إلا بترك المشتبهات التي لم يتضح للعبد حلها أو حرمتها وذلك لأنها برزخ بين الحلال والحرام فمن تساهل فيها تساهل في أكل الحرام.

قال ﷺ: محذرًا من التساهل في المشتبهات موضحًا أن التساهل في المشتبهات هو

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١١٧-١٢٣) و«اللسان» (١/ ٣٧٧-٣٧٩).

سبيل الولوج في المحرم: «**إنَّ الحلال بيّنٌ وإنَّ الحرام بيّنٌ وبينهما مشتبهات، لا يعلمهنَّ كثيرٌ من النَّاس، فمن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالرَّاعي يرعَى حول الحمى يوشك أَنْ يرتع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى ألا وإنَّ حمى الله محارمه** -ثم ذكر خطورة المتشابهات على القلب، فقال- **ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب**»[(١)].

وحسمه النبي ﷺ أيما حسم فأمر بترك المتشابه تركًا مطلقًا فقال: «**دَعْ مَا يرِيبُكَ إِلَى مَا لا يرِيبُكَ**»[(٢)].

وأفضل من طبّق الورع هو رسول الله ﷺ حين قال: «**إنِّي لأنقلب إلى أهلي فأجد التّمرة ساقطةً على فراشي فأرفعها لآكلها، ثُمَّ أخشى أن تكون صدقة فألقيها**»[(٣)].

قال ابن حجر: «والنكتة هنا ما فيه من تعيين المحل الذي رأى فيه التمرة وهو فراشه ﷺ ومع ذلك لم يأكلها وذلك أبلغ في الورع»[(٤)].

وكان لتربية النبي ﷺ أصحابه على الورع أبلغ الأثر في أقوالهم وأفعالهم ومن أقوالهم:

قول ابن عمر: «إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال ولا أحرمها»[(٥)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الترمذي(٤/ ٦٨٦)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٥١٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٣٢٧)، كتاب «الأشربة»/ باب الحث على ترك الشبهات.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «فتح الباري» (٤/ ٢٩٤).

(٥) «الورع» لأحمد (٤٣).

وبمثله قال أبو الدرداء: «إنّ إتمام التقوى أن يتقي الله العبدُ في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام فإن الله ﷻ قد بيّن للعباد الذي مصيرهم إليه»[١].

وكان الْوَرَعُ علمًا يتعلم على أيدي أهل العلم. قال الضحاك بن عثمان (ت١٥٣هـ): «أدركت الناس وهم يتعلمون الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام»[٢] بل هو أفضل العلم كما قال الحسن البصري: «أفضلُ العلم الورع والتوكل»[٣]. وزينته كما قال الشافعي: «زينة العلم الورعُ والحِلْم»[٤] ولذلك جعله السلف هو الميزان لتقويم الأشخاص حتى قال حبيب بن أبي ثابت رحمه الله: «لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه ولكن انظروا إلى ورعه فإن كان ورعًا مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد الله حقًّا»[٥]. ولذلك جعله سفيان بن عيينة حقيقة الإيمان، فقال: «لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال وحتى يدع الإثم وما تشابه منه»[٦].

بل نفى طاووس الخيرية عن فاقد الورع فقال: «مَثَلُ الإسلام كمثل شجرة فأصلُها الشهادة وثمرها الورع، لا خير في شجرة لا ثمر لها، ولا خير في إنسان لا ورع له»[٧].

ولقد كانت حياة السلف حافلةً بتطبيق الورع ولكن أكتفي من ذلك بمثالين اثنين:

١- فِعْلُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع غلامه الذي يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل

---

(١) المرجع السابق (٤٢).

(٢) «الورع» لابن أبي الدنيا (٥٠).

(٣) «الزهد» لأحمد (٣٢٥).

(٤) «الآداب الشرعية» (٣/ ٢٧٠).

(٥) «الورع» لابن أبي الدنيا (٦٠).

(٦) «الورع» لأحمد (١٠٥-١٠٦).

(٧) «الورع» لابن أبي الدنيا (١٠٩).

من خراجه فجاء يومًا بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»[(١)].

٢- روى ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبدالعزيز ﵀ أتي بغنائم مسك فأخذ بأنفه فقالوا: يا أمير المؤمنين تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: «إنما ينتفع من هذا بريحه فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين»[(٢)].

نَهَى: قال الليث «النهي ضد الأمر»[(٣)]، وهو طلب الكف عن الفعل ولما كانت المنهيات على مراتب بعضها أشد في التحريم من بعض. فمنها ما هو مكروه ومنها ما هو محرم ومنها ما هو أشد تحريمًا عطف عليه (وزجر).

والزَّجْر: «الزاء والجيم والراء كلمة تدل على الانتهار»[(٤)].

ومنه زجرت فلانًا فانزجر وهو كالرّدْع للإنسان[(٥)] فيكون معنى الزجر هو: المنع من فعل المنكر بشدة.

قال تعالى زاجرًا عن ارتكاب المنهيات: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣].

أي: «تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، أو يصيبهم عذاب أليم في الدنيا من قتل أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك»[(٦)] فهذه عقوبة دنيوية.

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٩)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب أيام الجاهلية. رقم (٣٨٤٢).

(٢) «الورع» (٧٤) / باب الورع في الشم.

(٣) «تهذيب اللغة (٦/ ٤٣٩).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٤).

(٥) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٦٠٢).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٩٧٣).

أما العقوبة الأخروية ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[النساء:١٤].

فقد يجتمع في الزجر كلتا العقوبتين وقد تنفرد إحداهما.

ولقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة في اجتناب ما نهى عنه النبي فبمجرد معرفتهم أن النبي ﷺ يكره شيئًا ما. تركوه وابتعدوا عنه، ولو لم ينههم، فكيف إذا نهاهم، ومن ذلك:

فعل عبدالله بن عمر كما روى ذلك نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: «**لو تركنا هذا الباب للنِّساء**» قال نافع فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات»[(١)].

أما المثال الثاني: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب فقال النبي ﷺ: «**إنِّي اتَّخذت خاتمًا من ذهبٍ، فنبذه، وقال: إنِّي لن ألبسهُ أبدًا**»، فنبذ الناس خواتيمهم»[(٢)].

(وألا يُعبَد الله إلَّا بما شرعَ):

أي أَنْ تكون عبادتك لله وخضوعك ومحبتك له وحده وتقربك إليه بأنواع الطاعات والقربات من صلاة وصيام وصدقة وبر وجهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغيرها على وفق ما شرعه النبي ﷺ مما أوحاه إليه ربه؛ وذلك لأنها لا تقبل إلا إذا كانت موافقة لهديه ﷺ.

---

(١) أبو داود (١/ ٣١٧)، كتاب «الصلاة»/ باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال. رقم (٤٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١/ ٣٠٣-٣٠٤) رقم (١٠١٨). قال الذهبي: «متفق على صحته». «تاريخ الإسلام» (٥/ ٤٥٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٧٤)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ. رقم (٧٢٩٨).

قال أبو عبدالله بن بكر عندما سئل عن أصل الدين: «إثبات صدق الافتقار إلى الله ولزوم الاقتداء برسول الله ﷺ»[١] وذلك أن الدين يقوم على أصلين عظيمين «أحدهما: ألا نعبد إلا الله والثاني ألا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بعبادة مبتدعة. وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢].

قال الفضيل بن عياض: «أخلصه وأصوبه»[٢].

«فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة لم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ومن خرج عما أمره به الرسول ﷺ من الشريعة وتعبد بالبدعة لم يحقق شهادة أنّ محمدًا رسول الله ﷺ»[٣].

ولأجل هذا حصرها المؤلف بشرعه ﷺ فجمع بين النفي والإثبات فقال: «وألا يعبد اللهُ إلا بما شرع».

فنفى جميع العبادات المبتدعة وأثبت العبادة الشرعية الموافقة لهدي النبي ﷺ فقط.

وهذا موافق للقاعدة المعروفة «الأصل في العبادات المنع إلا لنص» المبنية على قول النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**»[٤].

قال شيخ الإسلام: «الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله تعالى وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى:١]»[٥].

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (٢٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦١٧-٦١٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٩/ ١٧) وانظر: (٤/ ١٩٦) و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩).

فاشتراط التوقيف دال على بدعية وبطلان العبادة التي لم يرد بها دليل.

قال ابن القيم: «الأصل في العبادات البطلان حتى يقوم دليل على الأمر»(١)، «فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه»(٢).

فثبوت العبادة إذًا يتوقف على الدليل من جهتين:

١- ثبوت الدليل الدال على مشروعية تلك العبادة.

فيخرج بذلك إثبات العبادة بحديث غير صحيح، أو برأي أحد، أو بالمنامات، أو بالكشوفات، أو الأذواق، ونحو ذلك.

٢- ثبوت الدليل الدال على صفة هذه العبادة وكيفيتها.

فإذا اختل هذا الشرطان أو أحدهما صار العمل مبتدعًا.

مثال اختلال أحد الشرطين: رجل صلى الظهر ست ركعات.

أصل مشروعية صلاة الظهر ثابت عن النبي ﷺ ومع ذلك صار هذا العمل بدعة لأن هذه الكيفية بركعاتها الست لم تثبت عن النبي ﷺ.

مثال اختلال الشرطين كليهما: بدعة المولد. صلاة الرغائب.

وفي هذا تقرير لوجوب اتباع النبي ﷺ وحده:

بل جعل الله اتباع نبيه ﷺ هو الدليل الصحيح على إيمان العبد، وصحة محبته له، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[آل عمران:٣١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٣٤٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٨).

النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»(١).

وأمرنا الله باتباعه والاقتداء به في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[الأحزاب:٢١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»(٢).

وحث ﷺ على اتباع سنته والعَضِّ عليها بالنواجذ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسَّمع والطَّاعة؛ فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين تمسّكُوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ**»(٣).

وكانت نتيجة تركيز النبي ﷺ على أهمية اتباع سنته أَنْ تشرَّب أصحابه ذلك وطبقوه واقعًا عمليًا وربَّوا على ذلك من تحت أيديهم ومن ذلك:

قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»(٤).

ومثله وصية عبدالله بن عباس رضي الله عنه لعثمان بن حاضر الأزدي حيث يقول: «دخلت على ابن عباس فقلت: أوصني فقال: نعم عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع»(٥).

وطبقوها في الشدة كما كانوا يطبقونها في الرخاء فعن إبراهيم بن هانيء قال: «اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعًا حتى أتحول إليه، قلت: لا آمن

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣١-٢٣٢).

(٢) المرجع السابق (١٠٨٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «سنن الدارمي» (١/ ٦٥)، «المقدمة»/ باب في كراهية الأخذ بالرأي. رقم (٢٠٥).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٥٢)، «المقدمة»/ باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع. رقم (١٣٩)، و«الإبانة» (١/ ٣١٩) والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٤).

عليك يا أبا عبدالله، قال: إذا فعلت أفدتك، فطلبت له موضعًا، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحول، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ونتركه في الشدة»[١].

بل وينكرون أشد الإنكار على من قدم رأيه على سنة رسول الله ﷺ ومن ذلك ما رواه الحميدي قال: «كنت بمصر فحدَّث محمد بن إدريس الشافعي بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له رجل: يا أبا عبدالله تأخذ بهذا؟ فقال: هل رأيتني خرجت من الكنيسة أو ترى عليَّ زنارًا. إذا ثبت عندي عن رسول الله ﷺ حديث قلت به وقَوَّلته إياه ولم أزِلْ عنه»[٢].

وفي التمسك بالسنة صِحَّةُ العمل وقبوله، قال سفيان الثوري: «لا يستقيم قول إلا بعمل ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»[٣] وبمثله قال الأوزاعي[٤]، والحسن البصري[٥]، والحميدي[٦]، وغيرهم.

ولو لم يكن بالتمسك بالسنة إلا صحة العمل لكفى فكيف والمتمسك بها قد سلَّم لله أمره وسلم من الخطأ والزلل. كما في وصية عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن القدر: «أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ١٨٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١٠٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٤).

(٣) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٢)، «شرح اصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٥١) رقم (٣١٤).

(٤) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٨٠٧) رقم (١٠٩٧)، و«حلية الأولياء» (٩/ ١٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٦٤).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٥٧) رقم (١٨).

(٦) «أصول السنة» (٣٧-٣٨).

اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحُمْقِ والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه، لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم. ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم، فجفوا، وطمح عنهم أقوام، فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»(١).

نواقض شهادة أن محمدًا رسول:

يجمع نواقض شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ أمران:

الأول: الطعن في شخص النبي ﷺ:

فمن طعن في شخص النبي ﷺ كفر وخرج من الدين، ويستوي في ذلك الجاد والهازل، ويدل لذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

وذلك أَنَّ رجلًا قال في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال رجل(٢) في المجلس: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو

(١) أبو داود (٥/ ١٩)، كتاب «السنة»/ باب لزوم السنة. رقم (٤٦١٢).

(٢) عوف بن مالك، كما بينته الرواية الأخرى. «جامع البيان» (١٠/ ١٧٢).

يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾(١).

وفي هذه الآية دليل على أنهم كانوا مؤمنين قبل أن يقولوا ما قالوا لأن الله أثبت لهم ذلك بقوله: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فلما قالوا ما قالوا قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾(٢).

قال محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ) من أئمة المالكية: «أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر»(٣).

وذلك لأن سب النبي ﷺ يتعلق به ثلاثة حقوق هي:

١- حقّ الله تعالى:

ويتضح ذلك بما يلي:

أ- أنه كفر برسوله وعاداه وبارزه بالحرب.

ب- طعن في كتابه ودينه: لأن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة.

جـ- طعن في ألوهيته: لأن الطعن في الرسول طَعْنٌ في المرسل وتكذيب الرسول تكذيب للمرسل وهو الله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

٢- حق جميع المؤمنين:

ويتضح بما يلي:

أ- أَنَّ الخير الذي أصابهم في دينهم كله عن طريقه ﷺ لأنه هو المبلغ عن الله تعالى.

---

(١) «جامع البيان» (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٧٢-٢٧٤).

(٣) «الصارم المسلول» (٤).

وما أصابهم في دنياهم من خير وعز وتمكين فهو بسبب تمسكهم بهذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ.

ب- أن النبي ﷺ أحب إلى المؤمنين به من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم والناس أجمعين فيكون سبه ﷺ يؤذيهم أشد مما يؤذيهم سب أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وسب الناس أجمعين.

٣- حق الرسول ﷺ نفسه:

وبيانه بأمرين:

أ- أن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله بل وأكثر مما يؤذيه الضرب والجراح.

ب- أن هتْك عرض من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة أعظم عنده من الكفر به ومحاربته، بل ومن قتله. لأَنَّ قَتْلَه لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره، كما أن موته كذلك بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة[1].

الثاني: الطعن فيما جاء به ﷺ من عند الله تعالى:

كمن يُكَذِّبُ ما جاء به النبي ﷺ من ربه، أو يكذب شيئًا منه كما يفعل بعض أهل البدع الذين يردون أخباره لأنها لا توافق عقولهم الكليلة كمن يردون حديث أن موسى فقأ عين ملك الموت مع صحة الحديث.

---

(١) انظر: «الصارم المسلول» (٢٩٣-٢٩٤).

وكمن يعتقد أَنَّ غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون القانون الوضعي على حكم الله وشرعه.

وكمن يبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ.

وكمن يعتقد أَنَّه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ ويرى أن السعادة تحصل بمتابعة النبي ﷺ وبغير متابعته. وينبني على هذا عدم تكفير المشركين بل وتصحيح مذهبهم.

ولما كانت «شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله متلازمتان فهما كالإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكرت شهادة أن لا إله إلا الله وحدها دخلت فيها شهادة أن محمدًا رسول الله، ولا تقبل من قائلها إلا بذلك، وكذلك إذا ذكرت شهادة أن محمدًا رسول الله دخل فيها شهادة أن لا إله إلا الله ولم تقبل إلا بذلك. فإذا اجتمعا صار لكل منهما معنى»[(١)]، لما كانتا كذلك صارت شروط كل واحدة تشمل الأخرى ونواقضُ هذه ناقضةٌ لتلك ومقتضياتها كذلك فلذلك آثرت عدم التكرار كيف وقد رأيت لي سلفًا في ذلك[(٢)].

---

(١) «الحكم بغير ما أنزل الله» للمحمود (٣٨).

(٢) انظر: «فاكهة القلوب والأفواه» لشيخنا د. عبدالله بن سليمان الغفيلي (٢٠٥-٢٥٢)، و«حقوق النبي ﷺ على أمته» د. محمد خليفة التميمي (١/ ٣٧-٦٠).

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ **[البينة:٥]**.

....

اختار المؤلف رحمه الله هذا الدليل لأَنَّ الله جمع فيه بين التوحيد والصلاة والزكاة ليدل على أنهما مع عظمهما في الأعمال لا تقبلان ولا تنفعان إلا بالتوحيد.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾: أمروا من الأمر وهو واحد الأوامر ومعناه طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

أي: وما أمروا في سائر الشرائع إلا بالإخلاص لله وحده.

﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ﴾: إلا استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ «أي: ما أمروا بأي شيء إلا بأن يعبدوا»[1]. أي: يعبدوا الله وحده.

وإذا أمر الله العبد بالعمل وجب عليه فيه سبع مراتب:

الأولى: العلم به.

الثانية: محبته.

الثالثة: العزم على فعله.

الرابعة: العمل (فعله).

الخامسة: أن يقع على المشروع خالصًا صوابًا.

السادسة: الحذر من فعل ما يحبطه.

السابعة: الثبات عليه[2].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٦/ ٣٥٥).

(٢) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٣٨-٣٩).

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. والاستثناء من النفي إثبات. فأثبت الله العبادة له وحده لا شريك له.

﴿لِيَعۡبُدُواْ﴾: أي إلا أن يعبدوا الله. وهي قراءة ابن مسعود.

﴿ٱللَّهَ﴾: مشتق من أَلَهَ يَأْلَهُ أُلُوهَةً فهو مألوه أي معبود.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾: نفي. ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: إثبات فهي بمعنى لا إله إلا الله، ثم أكد التوحيد بقوله:

﴿مُخۡلِصِينَ﴾: خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد وهو تنقية الشيء وتهذيبه[1] والتخليص: التصفية[2]، ومنه ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[النحل:٦٦].

والإخلاص: هو تجريد النية عن شوائب الشرك.

﴿لَهُ﴾: الضمير يعود إلى الله.

﴿ٱلدِّينَ﴾: هو الطاعة الدائمة اللازمة وهو دين الإسلام.

فمعنى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي مفردين لله الطاعة والعبادة. فلم يشوبوا أعمالهم برياء ولا سمعة ولا شرك.

﴿حُنَفَآءَ﴾: أي مستقيمين مخلصين متبعين وذكره بعد الإخلاص للتأكيد.

وقدّم الإخلاص على الصلاة والزكاة لأمور:

١- أن الإخلاص عمل قلب وعمل القلب هو الأصل لعمل الجوارح.

٢- التنبيه على أهمية الإخلاص بداية واستمرارًا.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٦٨).

(٢) «تاج العروس» (١/ ٤٤٠١).

٣- أن الصلاة والزكاة لا تصحان ولا تقبلان إلا به.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: إقام الصلاة هو أداءُ الصلوات المكتوبات في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها قدر الطاقة والاستطاعة.

وذَكَرَ الصلاة بعد التوحيد لأنه «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله، لأَنَّه افتتحها بالتوحيد، والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله وثناء عليه وتمجيد له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفض ورفع كل ذلك توحيد لله، وتعظيم له وختمها بالشهادة له بالتوحيد ولرسوله بالرسالة وكان ركوعها وسجودها خشوعًا له وتواضعًا، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع ورفع الرأس تعظيمًا وإجلالًا له ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللًا له وإذعانًا بالعبودية»(١).

﴿وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي يعطوها مستحقيها من الفقراء والمحتاجين محسنين بإعطائها لهم عند وجوبها دون تأخير.

وجمع الله بينهما مع التوحيد لأن الصلاة أشرفُ الأعمال البدنية. والزكاة أشرف الأعمال المالية، فمن فعلهما على الوجه المطلوب كان حريًّا به أن يفعل غيرهما من شرائع الدين.

﴿وَذَٰلِكَ﴾: أي الذي أُمروا به من التوحيد وإخلاص العمل لله وفعل الطاعات وعلى رأسها الصلاة والزكاة.

﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: أي دين الملة المستقيمة والهاء للمبالغة كقولك: علامة ونسابة فيكون معنى القيمة: أي التي بلغت في الاستقامة غايتها وأعلاها(٢) وأهلها من الرسل عليهم السلام وأتباعهم هم القائمون بالحق فاجتمع في ذلك أمران:

١- استقامتها هي. ٢- استقامة أهلها.

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢٦٨).

(٢) انظر: «التحرير والتنوير» (١٦/ ٣٥٦) و«أضواء البيان» (٩/ ٢٥٩).

وَدَلِيلُ الصيَامِ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣].

....

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾: تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به لأنَّ النداء يوجب انتباه المنادى.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾: آمنوا بالله ورسوله وأقروا: ناداهم الله بوصف الإيمان. وفي هذا دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان وعلى أن فواته نقص في الإيمان. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فَأَرْعِهَا سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه»(١).

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾: كتب: أي فرض وأوجب. وحذف الفاعل للعلم به.

الصيام في اللغة: الإمساك. ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ بدليل قوله في آخر الآية: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾[مريم:٢٦].

ومنه قول الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة ... تحت العجاج وأخرى تَعْلُكُ اللُّجُما(٢)

خيل صيام: أي ممسكة عن الجري.

في الاصطلاح: هو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس (٣).

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٩٦).

(٢) «العين» (١/ ٢٠٢).

(٣) وعرفه الطبري: «بأنه الكف عما أمر الله بالكف عنه». «جامع البيان» (٤/ ٤٠٩). وانظر: «شرح مراقي السعود» للشنقيطي (١/ ١٢٧).

﴿كَمَا كُتِبَ﴾: الكاف تفيد التشبيه تشبيه الكتابة بالكتابة «كتب عليكم ككتابته على الذين من قبلكم» لأن الكاف دخلت على الفعل الذي يؤول على مصدر [(١)] أي فرض عليكم كما فرض على الذين من قبلكم.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: أي على جميع الأمم وفي ذلك فائدتان:

١- أن لنا فيهم أسوة وقدوة.

٢- ننافسهم فنجتهد في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله من كان قبلنا.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: لعل هنا للتعليل أي لتصلوا بذلك إلى رتبة التقوى. وهذه هي الحكمة من فرض الصوم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون بالصوم لأن الصوم موصل إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات.

قال ﷺ: «**يا معشر الشَّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصَّوم؛ فإنَّه له وجاء**»[(٢)].

والتقوى أصلها (وَقْوَى) وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله وذلك بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه[(٣)].

وعرف العلماء التقوى بعدة تعريفات منها:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل».

---

(١) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٢/ ٣١٦).

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٦)، كتاب «النكاح»/ باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوج. رقم (٥٠٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠١٨)، كتاب «النكاح»/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. رقم (١٤٠٠).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٣٣٥).

وقال طلق بن حبيب: «التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نورٍ من الله والتقوى ترك معصية الله مخافة عقاب الله على نور من الله»(١).

وفسرها السلف تفسيرًا عمليًا؛ لأن التفسير العملي أبلغ في الفهم ومن ذلك:

أَنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعب الأحبار عن التقوى؟ قال كعب: هل أخذت طريقًا ذا شوك. قال: نعم. قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمرت. قال كعب: وذلك التقوى(٢).

ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه لما سأله رجل ما التقوى؟ قال أبو هريرة: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال أبو هريرة «ذاك التقوى»(٣).

وأعلى درجات التقوى أن يترك المسْلِمُ بينه وبين الحرام حاجزًا؛ حذرًا من الوقوع في الحرام. قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتَّى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس**» (٤).

وبمعنى الحديث يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «إِنَّ تمام التقوى أَنْ يتَّقي الله العبْدُ في مثقال ذرّة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»(٥).

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٢٣) رقم (١٠٤٠٥).

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٤٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٢).

(٤) الترمذي (٤/ ٦٣٤)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥١)، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٥) «الورع» لأحمد (٤٢) رقم (١٦١).

وَدَليلُ الحجِّ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

....

قال ابن كثير: «هذه آيةُ وجوبُ الحجِّ عند الجمهور»(١).

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: لله خبر مقدم. وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر -أي حصر الحج لله وحده- قال الطبري: أي الحج فرض واجب لله(٢).

وقوله ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: دليل على وجوب الحج على الإنس والجن معًا.

﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾: والمقصود بالبيت هو الكعبة التي شرفها الله والألف واللام للعهد الذهني فالناس كانوا يحجونه قبل بعثة نبينا محمد ﷺ وذلك من بقايا دين إبراهيم عليه السلام.

وتخصيص الحج بالبيت (الكعبة) دليلٌ على أن حج غيره باطل كالحج إلى المشاهد.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: أي وجد ما يتمكن به من الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج. «قال مالك: السبيل: القدرة. والناس على قدر طاقتهم وسيرهم وجلدهم»(٣).
وقيل: القدرة على الحج الزاد والراحلة وأضاف بعضهم الصحة، ولعل القول الأول أرجح.

ولما كان الحج ظاهرًا بين الناس ويعتري الحاج ما يعتريه من حب الثناء والرياء والرفعة في قلوب الخلق أو حب الدنيا والحج من أجلها، نبَّه اللهُ على وجوب الإخلاص فيه قبل أن يأمر به فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٤٩).
(٢) «جامع البيان» (٣/ ١٥).
(٣) «التحرير والتنوير» (٣/ ١٦٧).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الوفد كثير والحاج قليل»[١].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: أي ومن كفر بتركه الحج ولم يرفع به رأسًا ولم يُجِبْ داعي الله فهو الخاسر ولهذا عقبها بقوله:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾: «إنَّ» لتوكيد غنى الله عز وجل. ولقد كرر الله غناه عن العباد في مواضع كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[إبراهيم:٨].

وقوله: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[التغابن:٦]، فإحسان المرء لنفسه وإساءته عليها كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[الإسراء:٧].

ومعنى الغنيِّ: الذي ليس بمحتاج إلى غيره، فليس الغني على الحقيقة إلا الله؛ لأنه الغني في الحقيقة عن جميع الأشياء، وكلنا إليه مفتقر محتاج[٢]. وهذا هو الغنى المطلق وهو خاص بالله تعالى.

﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: كلهم فلا حاجة به إليهم ولا إلى عبادتهم، فمعصية العاصي، وكفر الكافر لا يضر الله شيئًا، وذلك لكمال غناه.

قال الشنقيطي عند قوله تعالى: «﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يدل على أن من لم يحج كافر، والله غني عنه»[٣].

وعن عمر بن الخطاب أنه قال: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه يهوديًا مات أو نصرانيًا»[٤].

---

(١) «معالم التنزيل» (١/ ١٦٦).

(٢) «اشتقاق الأسماء» (١١٧-١١٨).

(٣) «أضواء البيان» (١/ ٢٣٦).

(٤) «مسند الفاروق» لابن كثير (١/ ٢٩٢) وقال: «إسناده صحيح».

واشتملت هذه الآية على أنواع من التأكيدات على وجوب الحج هي:

١ - قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ فكونه إلهًا ألزمهم بهذه الطاعة وكونهم عبيدًا له وجب عليهم الانقياد.

٢ - كونه تعالى ذكر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ثم ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فأجمل أولًا ثم فصّل ثانيًا، دليل على شدة الاهتمام.

٣- أنه سبحانه عبّر عن الوجوب بعبارتين إحداهما لام الملك في قوله ﴿وَلِلَّهِ﴾ وثانيهما حرف (على) في قوله ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهي دالة على الوجوب أيضًا.

٤ - أنه سبحانه نكّر السبيل في سياق الشرط إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت فعلّق الوجوب بما يسمى سبيلًا.

٥ - أنه سبحانه قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ موضع (ومن لم يحج) وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج حيث هدَّد تارك الحج بالكفر.

٦ - تعظيمه سبحانه الشأن وتأكيده الوعيد حيث أخبر باستغنائه عنه فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ قال ابن القيم: «والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى حج أحد وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له، وسخطه عليه، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه»[(١)].

٧- ذكره تعالى غناه ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عمومًا، ولم يقل فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد فكان أدلَّ على عِظَمِ مَقْتِهِ لتارك حقه الذي أوجبه إليه[(٢)].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٥).

(٢) هذه التأكيدات مستفادة من «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٤٢-٤٥).

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ.

....

لفظ المرتبة: يدل على العلو والترقي. قال الأصمعي المرتبة: المرقبة وهي أعلى الجبل. ومعناها: المنزلة الرفيعة(١).

وقوله المرتبة الثانية: أي المرتبة الثانية من مراتب الدين هي مرتبة الإيمان.

الإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن وأصله من الأَمْنِ وهو ضد الخوف، وفُسِّرَ بعدة معان فقيل هو التصديق، وقيل الثقة، وقيل الطمأنينة، وقيل الإقرار(٢).

وأولى هذه الأقوال في معنى الإيمان هو (الإقرار) لأنه أصدق في الدلالة على معنى الإيمان من غيره من الألفاظ التي فسر بها الإيمان.

ويتضح ذلك بما يلي:

١ - أن لفظة الإقرار هي الواردة في الشرع:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران:٨١].

ومن السنة حديث جرير بن عبدالله عندما ذكر الراكب الذي جاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإيمان فقال: يا رسول الله! علمني ما الإيمان؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجُّ البيت**» قال: قد

---

(١) «الصحاح» (١/ ١٣٣)، و«اللسان» (١/ ٤١٠).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٥١٣-٥١٦). و«الصحاح» (٥/ ٢٠٧١) و«القاموس المحيط» (١٥١٨) و«المفردات» (٣٥) و«الصارم المسلول» (٥١٩).

أقررت...»[١].

٢- أَنَّ لفظ الإقرار يتضمن إنشاء الالتزام بالعمل بخلاف التصديق فإنه لا يلزم منه العمل كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ﴾[آل عمران:٨١]. فأقروا ملتزمين بالإيمان بالرسول وبنصره[٢].

الإيمان اصطلاحًا: قول وعمل يزيد وينقص[٣].

بل أجمع أهل العلم على ذلك وممن نقل الإجماع الإمام الشافعي، فقال: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحدٌ من الثلاثة إلا بالآخر»[٤].

ونقله ابن عبدالبر فقال: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم إيمان»[٥]، وكذلك البخاري[٦]، والبغوي[٧]، وغيرهم.

وتارة يزيدون التعريف بيانًا فيقولون: «قول وعمل ونية وسُنَّة».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وجزم بصحته من ستة أوجه. «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٩٠-٢٩٧) و (٥٢٩-٥٣٢).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٧٦) وانظر: «صريح السنة» (٢٥) و«التمهيد» (٩/ ٢٣٨) وغيرهم.

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٣/ ٩٥٦-٩٥٧).

(٥) «التمهيد» (٩/ ٢٣٨).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٢).

(٧) «شرح السنة» (١/ ٧٨).

يفسره سهل فيقول: «لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل فهو كفرٌ. وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة فهو بدعة»(١).

ومعنى قول السلف قول وعمل، أي: «قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح»(٢).

فـ«قول القلب هو: التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ»(٣).

فقول القلب إذًا هو: العقائد التي يعتقدها المسلم وينطوي عليها قلبه(٤).

واختصره ابن القيم بكلمة واحدة فقال: قول القلب «هو الاعتقاد»(٥).

وأدلة ذلك كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر:٣٣-٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام:٧٥].

وأما قول اللسان: فهو النُّطْق بالشهادتين وبما يؤمن به.

وضابطه: «هو الخبر عما في القلب»(٦).

---

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٨١٤).

(٢) «العقيدة الواسطية» (١٢٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٧٢)، وانظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٠).

(٤) انظر: «الصلاة» لابن القيم (٥٤).

(٥) «الصلاة» (٢٤).

(٦) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١).

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ...﴾[البقرة:١٣٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[فصلت:٣٠].

وقوله ﷺ: «**من قال: أشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأنَّ الجنَّة حقٌّ والنَّار حقٌّ، أدخله اللهُ الجنَّة على ما كان من عمل**»[١].

ففي هذه الأدلة بيان أن النطق بالشهادتين وبما يؤمن به هو قول اللسان وما عداه فهو عمله.

وأما عمل القلب: فهو انقياده لما صدَّق به[٢].

وضابطه: حركة القلب.

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[الأنفال:٢]. فالوجل هنا حركة القلب من خشية الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وقوله ﷺ: «**آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآيةُ النِّفاق بغضُ الأنصار**»[٣].

قال السعدي: «والفرق بين أقوال القلب وبين أعماله أن أقواله هي: العقائد التي يعترف بها القلب، ويعتقدها، وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله»[٤].

---

(١) مسلم (١/ ٥٧)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا. رقم (٢٨).

(٢) «الإيمان» لشيخ الإسلام (١٦٢)، نقلًا عن «ظاهرة الإرجاء» (١/ ٢٢٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٦٢)، كتاب «الإيمان»/ باب علامة حب الأنصار. رقم (١٧)، ومسلم (١/ ٨٥)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على حب الأنصار وعلى رضى الله عنهم من الإيمان وعلاماته. رقم (٧٤).

(٤) «التنبيهات اللطيفة» (٨٥).

وأما عمل اللسان: فهو فعل جميع العبادات التي لا تؤدَّى إلا به:

كقراءة القرآن والذكر والتسبيح والتهليل ونحو ذلك(١).

ويدل لذلك الحديث السابق في قول اللسان؛ حيث جعل الشهادتين وما يؤمن به قول اللسان وما عدا ذلك عمله.

وأما عمل الجوارح: فهو العبادات التي لا تؤدى إلا بها:

كالقيام والركوع والسجود والمشي إلى المساجد والطواف والسعي والوقوف بعرفة، والجهاد في سبيل الله.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[البقرة:٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[الحج:٧٧-٧٨].

وينبغي أن يعلم أن هذه الأمور الخمسة سلسلة متصلة يأخذ بعضها برقاب بعض فيبدأ أولًا قول القلب ثم ينشأ عنه عمله وعن ذلك ينشأ عمل الجوارح.

ويتضح ذلك بالمثال:

١ - الإيمان بالنار:

إذا آمن العبد بوجود (النار) وصدّق بها قلبه أول الأمر: نتج عن ذلك حركة القلب بخوفه منها وبسبب ذلك الخوف تحركت الجوارح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي لأجل النجاة من هذا الأمر المخوف وهو النار.

٢ - الإيمان بالجنة: إذا آمن العبد بوجود (الجنة) وصدق بها قلبه أول الأمر نتج عن ذلك حركة القلب بمحبتها والرجاء أن يكون من أهلها وبسبب تلك المحبة والرجاء

---

(١) انظر: «الإيمان» لابن منده (١/ ٣٩٢).

تحركت الجوارح بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي والمشتبهات أملًا في الوصول إليها كما فعل عمير بن الحمام.

قال شيخ الإسلام: «وإذا قام بالقلب التصديق بالحق والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة»(١).

وقال حافظ حكمي مؤكدًا ترابطها: «ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب» قال النبي ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**(٢)»(٣).

يزيد بالطاعة: أي أن الإيمان يزداد بفعل الطاعات.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢]. ففي هذه الآية التصريح الواضح بزيادة الإيمان وهي كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[الإسراء:١٠٩]، والخشوع من أعمال القلب فإذا زاد الخشوع زاد الإيمان. ومثله طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى لأجل اطمئنان قلبه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة:٢٦٠].

فالطمأنينة من أعمال القلوب فإذا زادت الطمأنينة زاد الإيمان. قال سعيد بن جبير ومالك بن أنس: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ليزداد إيماني(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[النساء:١٣٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «معارج القبول» (٢/ ٢٢-٢٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٨٩٦).

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «فلولا أن هناك موضع مزيد ما كان لأمره بالإيمان معنى»[١] وكان من دعاء عبدالله بن مسعود: «اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفهمًا»[٢]، وقوله ﷺ: **«مَن حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**[٣].

وينقص بالمعصية:

ومما يدل على أن الإيمان ينقص أنه يَخْلَقُ في جوف العبد كما قال ﷺ: **«إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثَّوب، فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم»**[٤].

فكونه يخلق أي: يبلى ويدخله النقص والضعف مما يقع العبد فيه من الآثام[٥].

وقال الحميدي: سمعت سفيان يقول: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص» فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا ابا محمد لا تقول: ينقص. فغضب وقال: اسكت يا صبي بل حتى لا يبقى منه شيء»[٦].

ومن الأمثلة على نقص العمل بالمعصية قول النبي ﷺ: **«من اقتنى كلبًا إلا كلبًا ضاريًا لصيدٍ أو كلب ماشية؛ فإنَّه ينقص من أجره كلَّ يوم قيراطان»**[٧].

---

(١) «الإيمان» (٦٥).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٩/ ١٠٥) رقم (٨٥٤٩)، و«الشريعة» (٢/ ٥٨٥) رقم (٢١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢)، «كتاب الحج»/ باب فضل الحج المبرور، رقم (١٥٢١).
ومسلم في (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج»/ باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. رقم (١٣٥٠).

(٤) «المستدرك» (١/ ٤٥)، وقال: «رواته مصريون ثقات»، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤/ ٦٩) رقم (١٤٦٦٨)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن». «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢) رقم (١٥٨).

(٥) انظر: «منهاج السنة» (٥/ ٢٩٧).

(٦) «أصول السنة» (٤١).

(٧) البخاري مع الفتح (٩/ ٦٠٨)، كتاب «الذبائح والصيد»/ باب من اقتنى كلبًا ليس بكلب صيد أو =

بل إن الغفلة لتنقص الإيمان كما في حديث حنظلة الأسيدي قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله قلت: نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا فقال رسول الله: «**والّذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونُون عندي، وفي الذّكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طُرقُكم. ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً، ثلاث مرّات**»[(١)].

فانظر رحمك الله كيف يزداد إيمانهم بالذكر حتى كأنهم يرون النار والجنة ماثلتين أمام أعينهم. ثم ينشغلون في أمور دنياهم فيحسون بنقص ذلك عندهم.

فرضي الله عنهم وأرضاهم ما أقوى إحساسهم بزيادته ونقصه وأحرصهم على المحافظة عليه.

وقال عمير بن حبيب بن خماشة (من أصحاب الشجرة) مبينًا أن الغفلة من أسباب نقص الإيمان: «الإيمان يزيد وينقص فقيل فما زيادته وما نقصانه قال: إذا ذكرنا ربنا وخشيناه فذلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه»[(٢)].

= ماشية. رقم (٥٤٨١)، ومسلم (٣/ ١٢٠٢)، كتاب «المساقاة»/ باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخها، وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع، أو ماشية. رقم (١٥٧٤).

(١) مسلم (٤/ ٢١٠٦)، كتاب «التوبة»/ باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات. رقم (٢٧٥٠).

(٢) «الإيمان» لابن أبي شيبة (٧) رقم (١٤).

بقي أن نتساءل: ما مدى تأثير إيماننا بزيادة الإيمان ونقصه علينا في حياتنا؟ هل نحن لمّا عرفنا أن الإيمان يزيد بالطاعات حرصنا عليها وأكثرنا منها ليزداد إيماننا ويقوى؟.

وهل نحن لما عرفنا أن الإيمان ينقص بالمعاصي اجتنبناها كي يسلم لنا إيماننا.

ينبغي أن يراجع كلٌّ منّا نفسه؛ ويحرص على فعل كل ما فيه زيادة إيمانه والمحافظة عليه.

وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أعلاها قول: لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

....

البضع: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

قال الفراء: البضع ما بين الثلاثة إلى ما دون العشرة.

وقال شمر: البضع لا يكون أقل من ثلاث ولا أكثر من عشرة(١).

وذكر ابن حجر: اتفاق المفسرين على أنَّ البضع ما بين الثلاث إلى التسع(٢).

ويؤيده ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾[الروم:١-٢] قال: غُلِبَتْ وغَلَبَتْ قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنَّهم سيغلبون**» قال: فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «**أَلاَ جَعَلْتَها إِلَى دُون**» قال: أراه قال: العشر؟ قال: قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعدُ فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: يفرحون ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾(٣).

---

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٤٨٨).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥١).

(٣) أحمد (١/ ٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٣٤٣-٣٤٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الروم. رقم (٣١٩٣)، وقال: «حسن صحيح غريب»، قال ابن القيم: «وإسناده على شرط الصحيح، وقد صححه الترمذي وغيره». «الفروسية» (١٤٥)، وقال ابن حجر: «رواه الترمذي بسند صحيح». «فتح الباري» (١/ ٥١).

فقوله: بضع وسبعون ما بين ثلاث وسبعين وتسع وسبعين شعبة.

والشعبة: في الأصل واحدة الشُّعَبِ وهي الفرقة والطائفة من الشيء والقطعة منه[(١)].

قوله بضع وسبعون: ورد في عدِّ الشعب عدة روايات:

الأولى: بضع وستون. قال ﷺ: «**الإيمانُ بضعٌ وستُّون شعبة، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[(٢)].

الثانية: بضع وسبعون شعبة. ويدل لها قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون أو بضع وستُّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطّريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[(٣)].

الثالثة: بضع وتسعون ويدل لها قول النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وتسعون أو بضع وسبعون شعبة، أعظم ذلك قولُ: لا إله إلا الله، وأدنى ذلك كفُّ الأذى عن الطّريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»[(٤)].

ورجح الإمام أحمد رواية (بضع وستين) لأن سليمان لم يشك فقال: «وهذا الشك وقع من سهيل بن أبي صالح في (بضع وستين) أو في (بضع وسبعين) وسليمان بن بلال قال: (بضع وستون) لم يشك فيه وروايته أصح عند أهل العلم بالحديث»[(٥)].

---

(١) «اللسان» (١/ ٤٩٩) و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ١١٦٧) مادة (شعب).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٥)، كتاب «الإيمان»/ باب أمور الإيمان. رقم (٩) من طريق سليمان بن بلال عن عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٣) مسلم (١/ ٦٣)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. رقم (٣٥) من طريق سهيل عن عبدالله بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة.

(٤) «الإيمان» لابن منده (١/ ٢٩٧) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة،.

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ١٠٠).

وكذلك ابن حجر حيث قال: رواية (بضع وستين) هو المتيقن وما عداه مشكوك فيه، وردَّ على من قال بأن الزيادة زيادة ثقة بأن الذي زادها لم يستمر على الجزم بها لاسيما مع اتحاد المخرج. قال: وبهذا يتبين شُفُوف نظر البخاري(١).

وهو ما رجحه ابن الصلاح لأن الأقل هو المتيقن(٢).

ومن العلماء من رجح بضعًا وسبعين شعبة وقال: إنها زيادة ثقة، وزيادة الثقة مقبولة ويفهم من صنيع المؤلف رحمه الله أنه يرجح هذا القول.

واختلف العلماء هل خصال الإيمان وشعبه تنحصر في بضع وسبعين أو بضع وستين على أقوال أقربها للصواب:

١- أن ذكر السبعين على وجه التكثير للعدد لا على وجه الحصر وذلك لأن خصال الخير تزيد على ذلك زيادة كثيرة.

٢- أن خصال الإيمان كلها تنحصر في بضع وسبعين أو بضع وستين نوعًا وإن كانت أفراد كل نوع تتعدد تعددًا كثيرًا(٣).

ولعل هذا هو الراجح لأمور:

أ- أن النبي ﷺ ذكرها على سبيل البيان والإيضاح.

ب- أن النبي ﷺ حدد أعظمها وأدناها وفي هذا دليل على أن العدد مقصود.

جـ- تتابع العلماء على تعدادها فمنهم من أفرد لها كتابًا مستقلًا ومنهم من عدها في ثنايا كتابه.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٢).

(٢) «صيانة صحيح مسلم» (١٩٧).

(٣) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ٣٠-٣١)، وانظر: «الإيمان» لأبي عبيد (٦١).

ومن الكتب المفردة:

١- «وصف الإيمان وشعبه» لابن حبان وعدد الشعب ٧٩ شعبة.

٢- «المنهاج» للحليمي وعدد الشعب ٧٧ شعبة.

٣- «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي وعدد الشعب ٧٧ شعبة.

٤- «مختصر شعب الإيمان» للقزويني وعدد الشعب ٧٧ شعبة.

٥- «خصال الإيمان» لأبي حفص عمر بن شاهين، وعدد الشعب (٧٥) شعبة[١].

وممن اعتنى بحصرها في ثنايا كتبهم:

١- الإمام اللالكائي وعدد الشعب التي عدها ٧٢ شعبة[٢].

٢- الإمام ابن بطة وعدد الشعب التي عدها ٧٠ شعبة[٣].

٣- البخاري حيث تتبع ابن رجب تبويباته على خصال الإيمان والإسلام فبلغت فوق السبعين[٤].

(أعلاها قول: لا إله إلا الله):

أعلاها: فسرتها الروايات بأنها أرفعها[٥] وأعظمها[٦] وأفضلها[٧].

---

(١) «الإيمان» للقاضي أبي يعلى (١٨٥).

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ٩١١-٩٤٠).

(٣) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٦٥٠-٦٥٣) تحقيق رضا نعسان.

(٤) «فتح الباري» (١/ ٣٠-٣١).

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٣) رقم (٢).

(٦) «المصنف» لابن أبي شيبة (٨/ ٥٢١-٥٢٢) رقم (٥٣٩١)، و«الإيمان» لابن منده (١/ ٢٩٧).

(٧) سبق تخريجه.

وصارت لا إله إلا الله أعلاها لأمور:

١- أن لا إله إلا الله هي قطب رحى الإيمان وأصل الدين وإليها يرجع الأمر كله فهي الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار وهي ثمن الجنة ولا يصح إسلام إلا بها ومن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة.

٢- فضيلة آية الكرسي على غيرها من القرآن. فهي أفضل آي القرآن وذلك لأن فيها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥].

٣- أن الكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] وهي معنى لا إله إلا الله.

٤- لا إله إلا الله تقتضي الإخلاص والتوكل، والإخلاص يقتضي الشكر فهي أفضل الكلام وأعلى شعب الإيمان.

٥- أن الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله من معنى لا إله إلا الله؛ فتكون لا إله إلا الله أفضل منهن[(١)].

(وأدناها إماطة الأذى عن الطريق):

أدناها: أي أقلها وأوضعها كما في رواية النسائي: «**وأوضعها إماطة الأذى عن الطريق**»[(٢)].

وليس في قوله أدناها تنقيص لها ومذمة لها، بل هو وصف لها بأنها أقل من غيرها من الشعب وإلا فأجرها عظيم عند الله تعالى قد تصل بالعبد إلى أن يغفر الله له ذنوبه كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ وجد غصن**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٢٠-٤٢١) و (٢٤/ ٢٣٥-٢٣٩)، و«التمهيد» (٦/ ٤٢-٥٩).

(٢) «سنن النسائي» (٨/ ١١٠)، كتاب «الإيمان وشرائعه»/ باب ذكر شرائع الإيمان.

شوكٍ على الطّريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له»(١).

«ففي هذا دليل على أن الرجل لم يكن هو الملقي للغصن على الطريق فيكون واجبًا عليه أن يميطها إنما كان متطوعًا بإماطتها»(٢) ومع ذلك كسب هذا الأجر العظيم.

وحديث أبي برزة الأسلمي قال: قلت يا رسول الله! دلني على عملٍ يدخلني الجنة أو أنتفع به قال: «**اعزل الأذى عن طريق المسلمين**»(٣).

ومما يوضح أنها ليست مذمة حديث أبي هريرة الطويل في سوق الجنة وفيه: «**فيزورون الله ﷻ، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنَّة، فتوضع لهم منابرُ من نورٍ، ومنابرُ من لؤلؤٍ، ومنابرُ من ياقوتٍ، ومنابرُ من زبرجدٍ، ومنابرُ من ذهبٍ، ومنابرُ من فضَّةٍ، ويجلسُ أدناهُمْ (وما فيهم دني) على كثبان المسكِ والكافور..**»(٤).

قال المباركفوري: «(ويجلس أدناهم) أي أدونهم منزلة (وما فيهم دني) أي والحال أنه ليس في أهل الجنة دون ولا خسيس. قال الطيبي: وهو تتميم صونًا لما يتوهم من قوله أدناهم الدناءة والمراد به الأدنى في المرتبة»(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ١٣٩)، كتاب «الأذان»/ باب فضل التهجير إلى الظهر. رقم (٦٥٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢١)، كتاب «الأمارة»/ باب بيان الشهداء. رقم (١٩١٤).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٢١).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٢١)، كتاب «البر والصلة»/ باب فضل إزالة الأذى عن الطريق. رقم (٢٦١٨)، وأحمد (٤/ ٤٢٣) واللفظ له.

(٤) ابن ماجه (٢/ ١٤٥٠- ١٤٥١)، كتاب «الزهد»/ باب صفة الجنة. رقم (٤٣٣٦)، والترمذي (٤/ ٦٨٥)، كتاب «صفة الجنة»/ باب ما جاء في سوق الجنة. رقم (٢٥٤٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وقال شيخ الإسلام: «وقد روى هذا الحديث ابن بطة في «الإبانة» بأسانيد صحيحة». «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤١٩).

(٥) «تحفة الأحوذي» (٧/ ٢٦٠).

إماطة الأذى عن الطريق: أي إزالة كل ما يؤذي الناس من شوك وحجر ونحوهما.

سواء كان الأذى حسيًا أو معنويًا، وهو أعم من كف الأذى لأن كف الأذى كف لأذى الشخص نفسه، وأما إماطته فيعم كون الأذى منه أو من غيره.

وينبغي إماطة الأذى كله عن الطريق ولذلك ذكره النبي ﷺ بالألف واللام الدالة على الاستغراق فقال: «**كُلُّ سُلامى من الناس عليه صدقة...، ويُميطُ الأذى عن الطّريق صدقة**»(١).

(والحياء شعبة من الإيمان):

الحياء لغة: الحاء والياء والحرف المعتل أصلان... والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة(٢)، وهو الانقباض والانزواء(٣).

وقال الجرجاني: الحياء انقباض النفس من شيء، وتركه حذرًا من اللوم(٤).

واصطلاحًا: «الحياء خلق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح»(٥).

أركان الحياء ثلاثة:

١- مُسْتَحْيٍ (وهو العبد).

٢- حياءٍ (حال العبد).

٣- مستحيا منه (وهو الرب).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٣٢)، كتاب «الجهاد»/ باب من أخذ بالركاب ونحوه. رقم (٢٩٨٩)، ومسلم (٢/ ٦٩٩)، كتاب «الزكاة»/ باب بيان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف. رقم (١٠٠٩).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٢٢).

(٣) «المصباح المنير» (١٦٠) مادة (ح ي ي).

(٤) «التعريفات» (٦٦) باب الحاء.

(٥) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢/ ٢٢٧).

حقيقة الحياء: هي حفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وذكر الموت والبلى.

ويدل لذلك ما روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا من الله حقَّ الحياء**»، قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله قال: «**ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء من الله حقّ الحياء، أن تحفظ الرَّأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذْكُر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيا، فمن فعل ذلك، فقد استحيا من الله حقَّ الحياء**»[1].

حفظ الرأس وما وعى يكون بحفظ السمع والبصر واللسان عن الأمور المحرمة.

وأما حفظ البطن وما حوى فيكون بحفظه ألّا يدخله طعام محرم وكذلك حفظ القلب من الخطرات الرديئة.

وأما ذكر الموت والبلى فثمرته حماية العبد من العصيان لكونه دائمًا يخاف أن ينقل إلى المقابر فيسأل عن أعماله ويستحيي من لقاء ربه وسؤاله إياه. بل وتعزف نفسه حتى عن ملاذ الدنيا ومباحاتها، ولذلك قال ﷺ بعد ذكر الموت: «**ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا**».

قدر الحياء وقيمته:

خُلُقُ الحياء من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء.. إن للإنسان آمرين وزاجرين آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع

---

(١) أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٤/ ٦٣٧)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥٨)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٢٣) رقم (١٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٥٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، وحسنه النووي في «المجموع» (٥/ ١٠٥)، والألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٣١٨) رقم (٩٤٨).

آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولا بد[١].

ويدل لذلك: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الحياء والإيمان قرنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[٢].

أنواع الحياء:

ينقسم الحياء من حيث حصول العبد عليه إلى قسمين:

الأول: حياء غريزي (فطري):

وهو خلق يمنحه الله العبد ويجبله عليه فيكفه عن ارتكاب الرذائل ويحثه على فعل ما يجمل من الأمور الحسنة وهو من أعلى المواهب التي يهبها الله للعبد.

قال محمد بن نصر المروزي: «الحياء خير كله كما قال النبي ﷺ غير أنه أمر يدعيه الصادق والكاذب وأصله فعل من الطبيعة الكريمة غريزةً يختص الله تعالى به مَنْ يشاء من خلقه ينفع العاصي والمطيع. أما المطيع فقد زال عنه كل خلق دني وأما الفاسق فلم يجمع مع فسقه تهتكًا»[٣].

الثاني: حياء كسبي:

أي أنه حياء مكتسب من شرع الله ومن أعراف الناس.

وينقسم الحياء الكسبي إلى قسمين:

١- حياء عرفي: أي مكتسب من أعراف الناس وعاداتهم فهو حياء من الناس.

وضابطه «أن تكف عن كل ما يخالف المروءة والأخلاق».

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٧).

(٢) البخاري في «الأدب المفرد» (٤٧٨) رقم (١٣١٣٩، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٥) رقم (٥٤٠٢)، وصححه الألباني في تحقيقه لـ «الأدب المفرد» (٤٧٨).

(٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٥١).

ومن أمثلة ذلك: حياء النبي ﷺ من أصحابه الذين استضافهم عند زواجه بزينب كما في حديث أنس، وفيه: «فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا وبقي طائفة منهم، فأطالوا عليه الحديث، فجعل النبي ﷺ يستحيي منهم أن يقول لهم شيئًا، فخرج وتركهم في البيت، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ عَزَلْتَ ..﴾[الأحزاب:٥٣]»[(١)].

وقول أبي سفيان في قصته مع هرقل: «فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عليه»[(٢)].

وكما في قصة أبي موسى ﷺ عندما اعتدى رجل من جشم على صاحبه أبي عامر، «قال أبو موسى فقصدت له فاعتمدته فلحقته فلما رآني ولّى عني ذاهبًا فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحيي ألست عربيًا؟ ألا تثبت؟ فكفّ، فالتقيت أنا وهو فاختلفنا أنا وهو ضربتين فضربته بالسيف فقتلته»[(٣)].

٢- حياء شرعي ديني: وهو الحياء من الله:

وضابطه: «أن تستحيي من الله أن يراك حيث نهاك وأن يفقدك حيث أمرك».

ولما كان الحياء حياءان حياء من الله وحياء من الناس، كان الأولى تقديم الحياء من الله على الحياء من الناس قال عبيد بن عمير: «آثِر الحياء من الله تعالى على الحياء من الناس»[(٤)].

---

(١) البخاري (٧/ ٢٢)، كتاب «النكاح»/ باب الهدية للعروس. رقم (٥١٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٥٢)، كتاب «النكاح»/ باب زواج زينب. رقم (١٤٢٨)، واللفظ له.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (٤/ ١٩٤٣)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل أبي موسى، وأبي عامر الأشعريين. رقم (٢٤٩٨).

(٤) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٥٥).

وأفضل الناس وأعظمهم في كلا الحيائين هو رسول الله ﷺ كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه «كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»(١).

قال ابن حجر: «الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي، غير أنَّ من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب وقد ينطبع بالمكتسب حتى يصير غريزيًّا، وكان النبي ﷺ قد جُمِعَ له النوعان فكان الغريزي أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان في الحياء المكتسب في الذروة العليا ﷺ»(٢).

والحياء الشرعي من حيث حكمه قسمان:

أ- فرض.

ب- فضيلة ونافلة

قال النبي ﷺ: «**استحيوا من الله حقَّ الحياء...**»(٣)، فحق الحياء أن يكون بفرضه ونفله.

ومن أمثلة الحياء من الله:

١) ما رواه أبو حصين قال: أتيت سعيد بن جبير بمكة فقلت: «إن هذا الرجل قدم يعني -خالد بن عبدالله- ولا آمنه عليك فأطعني واخرج فقال: والله لقد فررت حتى استحييت من الله»(٤).

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥١٣)، كتاب «الأدب»/ باب من لم يواجه الناس بالعتاب. رقم (٦١٠٢)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩)، كتاب «الفضائل»/ باب كثرة حيائه ﷺ. رقم (٢٣٢٠).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

٢) قال عبدالله بن أبي الهذيل: «أدركنا أقوامًا وإن أحدهم يستحيي من الله تعالى في سواد الليل». قال سفيان يعني التكشف(١).

٣) ابنة الرجل الصالح التي قال الله عنها: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص:٢٥].

قال عمر: «ليست بسلفع -سليطة اللسان جريئة- من النساء لا خرّاجة وَلَّاجَة، ومعها ثوبها على وجهها»(٢).

٤) حياء البكر عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ «عن الجارية ينكحها أهلها أتستأمر أم لا؟ فقال لها رسول الله: «**نعم تستأمر**» فقالت: فقلت له: فإنها تستحيي، فقال رسول الله ﷺ: «**فذلك إذنها إذا هي سكتت**»(٣).

٥) أم سلمة لما قال النبي ﷺ عن الثوب: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، قالت: فكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: «**يرخينه شبرًا**»، **قالت: إذًا تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعًا لا يزدن عليه**»(٤)، فمن شدة حيائها خشيت أن يظهر قدمها فيراه الناس.

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٣٥٩).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠-٥٣١) رقم (١١٨٩١)، وصحح إسناده ابن كثير في «التفسير» (١٠٢٣).

(٣) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣١٩)، كتاب «الإكراه»/ باب نكاح المكره. رقم (٦٩٤٦)، ومسلم (٢/ ١٠٣٧)، كتاب «النكاح»/ باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق، والبكر بالسكوت. رقم (١٤٢٠) واللفظ له.

(٤) الترمذي (٤/ ٢٢٣)، كتاب «اللباس»/ باب ما جاء في جر ذيول النساء. رقم (١٧٣١)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٢٠٩)، كتاب «الزينة»/ باب ذيول النساء.

وأختم بالمرأة التي كانت تُصرع وتتكشف فتشكو حالها للنبي ﷺ طالبة منه أن يدعو لها فلما رغبها في الصبر وثمرته اختارت الصبر على الشفاء رغبة في الجنة. ولكنها تذكرت أمرًا وهو التكشف فاستحيت أن تتكشف مع أنه خارج عن إرادتها فقالت للنبي ﷺ: إني اتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف. فدعا لها[(١)].

وينقسم الحياء بحسب متعلقاته إلى عشرة أقسام:

الأول: حياء الجناية: كحياء آدم عليه السلام لما فرّ حياءً من الله في الجنة. «فناداه الرحمن يا آدم. مِنِّي تَفِر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب، ولكن استحياءً»[(٢)].

الثاني: حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون فإذا كان يوم القيامة قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

الثالث: حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياءه منه.

الرابع: حياء الكرم: كقصة النبي ﷺ عندما أولم لزينب.

---

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ١١٤)، كتاب «المرضى»/ باب فضل من يصرع من الريح. رقم (٥٦٥٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤)، كتاب «البر والصلة»/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك. رقم (٢٥٧٦).

(٢) ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٨٨) رقم (٣٨٨)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٣٦٧)، «وروي ابن أبي حاتم بإسناد حسن عن أبي بن كعب مرفوعًا...» ثم ذكره.
والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٨)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
والطبري في «جامع البيان» (٨/ ١٤٢)، وقال ابن كثير: «وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ مرفوعًا، والموقوف أصح إسنادًا». «التفسير» (٥٢٢). وروي مرفوعًا في «الزهد» لابن المبارك في زيادات نعيم بن حماد (٤٥)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢-٨٤٣).

الخامس: حياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب ﷺ عندما استحيا أن يسأل النبي ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

السادس: حياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه ﷻ حين يسأله حوائجه احتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها، وقد يكون لهذا النوع سببان **الأول**: استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه وخطاياه. **الثاني**: استعظام مسئوله وهو الله جل وعلا.

السابع: حياء المحبة: وهو حياء المحبِّ من محبوبه.

الثامن: حياء العبودية: وهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأجلَّ منها فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

التاسع: حياء الشرف والعزة: كحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل وعطاءٍ وإحسان فإنه يستحيي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان أحدهما هذا والثاني استحياء من الآخِذْ.

العاشر: حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة لرضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحييًا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بأحدهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء؛ فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر(١).

أسباب الحياء من الله:

للحياء من الله أسباب منها:

١- تذكر اطلاع الله على قلبه وجوارحه وقربه منه: وذلك أن العبد إذا استشعر اطلاع الله على ما في قلبه من النيات والإرادات وجوارحه من الأعمال وغلب ذلك على قلبه «ثبت تعظيم الله في قلبه فأورثه الحياء من الله»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٢-٢٧٤) باختصار.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٢٦).

قال ابن القيم: «يتولد الحياء من علم العبد بنظرِ الحقِّ إليه»(١).

كما أن المسلم إذا استشعر قرب الله منه أورثه ذلك الحياء منه كما قال أحدهم لوهيب المكي: يا وهيب: «استحي من الله لقربه منك»(٢).

٢- ذكر الوقوف بين يدي الله وسؤاله عن أعماله:

يجمع الله الأولين والآخرين في مقام واحد فيحاسبهم ويسألهم عما عملوا في حياتهم شيبًا كانوا أو شبانًا، قال ﷺ مبينًا هذا الموقف العصيب: «**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاهُ**».

وفي رواية: «**لا تزول قدم ابن آدم من عند ربِّه حتَّى يسأل عن خمسٍ، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**»(٣).

وهذا هو الذي حدا بأبي الدرداء أن يكثر التفكير في السؤال يوم القيامة فيقول رضي الله عنه «إنما أخشى من ربي أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول: يا عويمر فأقول: لبيك ربي فيقول: ما عملت فيما علمت»(٤). وقال الحسن البصري رحمه الله لما جاء رجل إليه فسأله فقال: العبد إذا تاب من الذنب أيغفر له. قال: نعم. قال: فيمحوه الله عنه؟ قال: لا والله حتى يوقفه عليه ويسائله عنه، ثم بكى الحسن. فقال: لو لم يبك العبد إلا للحياء من الله تعالى لكان ينبغي له أن يبكي(٥).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٥).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٣٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣١١) و«تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤١) وغيرهم.

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

وقال المروزي بعد ذكره لهذه الروايات: «فالمستحيي من سؤال الله تعالى غدًا يعد الجواب والتطهر من كل ما يكره الله لا يفارقه الحياء مع الطهارة؛ إذ قد علم أنـما ترك من الذنوب وتاب منه لن ينجو من الله أو يسأله عنه»[١].

٣- استشعار دوام نعم الله علينا مع تضييعنا للشكر:

من أعظم أسباب الحياء: إسداء النعم، قال محمد بن نصر المروزي: «وأما ما يهيج من الحياء عند ذكر دوام النعم وكثرة الإحسان وتضييع الشكر، وذلك موجود في الفطر أن من دام إحسانه إليك وكثرت أياديه عندك، وقلّت مكافأتك له، غضضت طرفك إذا رأيته حياءً منه فكيف بمن خلقك ولم تك شيئًا، ولم يزل محسنًا إليك منذ خلقك» إلى أن قال: «فإذا ذكر المستحيي دوام النعم وتضييع الشكر، وكثرة الإساءة مع فقره إلى الله تعالى، وإحسان الله تعالى إليه، هاج منه الحياء والحصر من ربه عز وجل حتى كاد أن يذوب حياءً منه»[٢].

ثمرات الحياء:

للحياء فوائد وثمار كثيرة أجملها فيما يلي:

١- أن الحياء متمحض للخير:

بهذا وصفه النبي ﷺ فقال: «**الحياءُ خيرٌ كلّه**»، أو قال: «**الحياءُ كله خيرٌ**»[٣].

ولكونه خيرًا كله فإنه لا يأتي إلا بالخير من فعل الطاعات والبعد عن الخطيئات، قال ﷺ: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ**»[٤].

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٤-٨٤٥).

(٣) مسلم (١/ ٦٤)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان. رقم (٣٧).

(٤) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥٢١)، كتاب «الأدب»/ باب الحياء. رقم (٦١١٧)، ومسلم (١/ ٦٤)،=

وتأمل هذا الحديث حيث جمع فيه النبي ﷺ بين النفي والإثبات وفي هذا أكبر دلالة على حصر الخير بالحياء، ومما ورد عن السلف في ذلك قول عمر رضي الله عنه: «من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وقي»[١].

٢- الخوف من الله:

الحياء من الله يوجب للعبد الخوف منه قال سفيان رحمه الله: «لا يخاف العبد حتى يستحيي».

٣- ترك الذنوب والبعد عنها:

وذلك أن العبد المستحيي يستحيي من الله أن يراه على معاصيه ولهذا لما مر النبي ﷺ على رجل يعاتب أخاه في الحياء نهاه وقال له: «**دعه؛ فإنَّ الحياءَ من الإيمان**»[٢].

قال أبو عبيد: «معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي»[٣].

وقال ابن قتيبة: عندما ذكر قول النبي ﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**»: «إن المستحيي ينقطع بالحياء عن المعاصي، كما ينقطع بالإيمان عنها، وكأنه شعبة منه»[٤].

وهذا أمر متفق عليه بين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من لدن نوح إلى محمد ﷺ توارثه الناس قرنًا بعد قرن كما في قول النبي ﷺ: «**إنَّ مما أدرك النّاس من كلام النبُّوّة**

= كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان. رقم (٣٧).

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٤٠) رقم (٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٧٤)، كتاب «الإيمان»/ باب الحياء من الإيمان. رقم (٢٤)، ومسلم (١/ ٦٣)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان. رقم (٣٦).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢).

(٤) «تأويل مختلف الحديث» (٦٣٦).

الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[(١)].

وهذا الحديث ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء ولكنه على معنى الذم والنهي عنه قال ابن رجب وأهل هذه المقالة لهم طريقان:

١- أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد.

والمعنى إذا لم يكن لك حياء فاعمل ما شئت فإن الله يجازيك عليه كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[فصلت:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[الزمر:١٥].

٢- أنه أمر ومعناه الخبر:

والمعنى أن من لم يستحي صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر على حد قوله ﷺ: «**مَنْ كذبَ عليَّ مُتَعَمّدًا؛ فليتبوّأْ مقعدَهُ من النّار**»[(٢)]. «فإن لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر وأن من كذب عليه تبوأ مقعده من النار»[(٣)]، وجمع بينهما ابن القيم فقال عنه: «إنه أمر تهديد ومعناه الخبر أي من لم يستح صنع ما يشاء»[(٤)].

قال الجراح بن عبدالله الحكمي مبينًا السبب الذي من أجله ترك الذنوب: «تركت الذنوب حياءً أربعين سنة ثم أدركني الورع»[(٥)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٢٣)، كتاب «الأدب»/ باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت. رقم (٦١٢٠).

(٢) البخاري (١/ ٢٠٢)، كتاب «العلم/ باب إثم من كذب على النبي ﷺ. رقم (١١٠)، ومسلم (١/ ١٠)، كتاب «المقدمة»/ باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ. رقم (٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٩٢-٥٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٩٧).

وقال أحدهم:

وَرُبَّ قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياءُ
فكان هذا الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياء فلا دواءُ(١)

وقال القحطاني:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني(٢)

ومن نزع الحياء من قلبه أو قلَّ لم يبال بارتكاب المعصية فصار بغيضًا عند الله وعند الناس.

قال عمر رضي الله عنه مبينًا خطورة قلة الحياء: «من قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه»(٣).

وقريب من ذلك قول سلمان رضي الله عنه: «إن الله إذا أراد بعبد شرًا أو هلكة نزع منه الحياء فلم تلقه إلا مقيتًا ممقتًا»(٤).

٤- تزيين كل شيء وتجميله:

الحياء يزين كل شيء يكون فيه لقوله صلى الله عليه وسلم: «**ولا كان الحياءُ في شيءٍ إلا زانهُ**»(٥).

ومعنى زانه أي زينه. قال الطيبي: «قوله: في شيء مبالغةٌ أي: لو قدر أن يكون الحياء في جماد لزانه فكيف بالإنسان»(٦).

---

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (٣٨) و«العقد الفريد» (١/ ٢٢٧).

(٢) «نونية القحطاني» (٢٥).

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٤) «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٤)

(٥) أحمد (٣/ ١٦٥)، والترمذي (٤/ ٣٤٩)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في الفحش والتفحش. رقم (١٩٧٤)، وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق، وفي الباب عن عائشة»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠)، كتاب «الزهد»/ باب الحياء. رقم (٤١٨٥)، وقال ابن عبد البر: «وفي الحياء أحاديث مرفوعة حسان»، وذكر هذا الحديث منها. «التمهيد» (٩/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٦) «تحفة الأحوذي» (٦/ ٩٣).

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنُ بِاللهِ.

....

الإيمان بالله: هو اعتقاد أن الله رب كل شيء ومليكه والمدبر له. خالق كل شيء، وأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن ذلك يقتضي أن يعبد وحده لا شريك له.

فالإيمان بالله من وجوه ثلاثة:

١- ربوبيته.

٢- ألوهيته.

٣- أسمائه وصفاته

قال الإمام أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ):

أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

١- أن يعتقد العبد أَنِّيته[١] ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا[٢]. «توحيد الربوبية».

٢- أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره. «توحيد الألوهية».

٣- أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه[٣]. «توحيد الأسماء والصفات».

---

(١) أي: ربوبيته.

(٢) أي: خالقًا.

(٣) «الإبانة الكبرى» قسم الرد على الجهمية تحقيق د. يوسف الوابل (٢/ ١٧٢-١٧٣).

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٢هـ): «وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده -جلا وعلا- في ربوبيته.

الثاني: توحيده -جل وعلا- في عبادته.

الثالث: توحيده -جل وعلا- في أسمائه وصفاته[(١)].

وبعد هذا العرض السريع لأنواع التوحيد أنتقل إلى شرحها باختصار فأقول أولًا: توحيد الربوبية:

ويتضح بالنقاط التالية:

١- معنى الرب:

ورد الرب بعدة معان هي:

أ- المالك. ومنه قوله ﷺ في ضالة الإبل: «**فذرها حتَّى يلقاها ربّها**»[(٢)].

ب- السيد المطاع. ومنه قوله ﷺ في أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربّها**»[(٣)].

جـ- المصلح للشيء المدبر له: قال الراغب: «الرب في الأصل التربية وهو إنشاء

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠-٤١٤).

هذان نموذجان أحدهما في القرن الرابع والآخر في القرن الرابع عشر من بين علماء كثر قالوا بهذا التقسيم، وأكدوا صحته.

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٦)، كتاب «العلم»/ باب الغضب في الموعظة والتعليم وإذا رأى ما يكره. رقم (٩١)، ومسلم (٣/ ١٣٤٦)، كتاب «اللقطة». رقم (١٧٢٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١١٤)، كتاب «الإيمان»/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩).

الشيء حالًا فحالًا إلى التمام»[(١)].

«وقد يتصرف معنى الرب في وجوه غير ذلك غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة»[(٢)].

ضابط إطلاق كلمة الرب:

تطلق كلمة رب على الله تعالى فقط في حالتين:

١- إذا وردت معرفة بالألف واللام؛ لأن الألف واللام تقتضي العموم. عموم الربوبية واستغراقها لله تعالى.

٢- إذا وردت غير معرفة وغير مضافة كقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[سبأ:١٥] أما إذا أضيفت فتطلق على الله تعالى وعلى غيره ويتضح ذلك من خلال السياق. ففي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢] أطلقت على الله تعالى.

أما في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[يوسف:٤٢] فإنها أطلقت على غير الله.

تعريف توحيد الربوبية:

هو إفراد الله بأفعاله: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور فتعتقد في قرارة قلبك أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو ولا محيي ولا مميت إلا هو ونحو ذلك من أفعاله سبحانه.

وقيل: **إفراد الله بالخلق والملك والتدبير.**

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١]. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) «المفردات» (٣٣٦) وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٢) وانظر «بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢).

(٢) «جامع البيان» (١/ ٦٢).

﴿وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[هود:١٢٣]، وكلا التعريفين يعودان إلى معنى واحد.

وقد جُبِلَتْ على الإيمان به فِطَرُ العقلاء قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧] ولم يجحد ربوبية الله تعالى إلا مكابر قال تعالى مبينًا قول موسى لفرعون لما أنكر ربوبية الله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء:١٠٢]. وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

أدلة توحيد الربوبية:

أدلة ربوبية الله تعالى أكثر من أن تحصر لكن يمكن أن نجملها في أربعة أنواع:

الأول: الشرع: الأدلة الشرعية على ربوبية الله كثيرة جدًا منها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٨].

الثاني: الفطرة: وتتضح دلالة الفطرة على ربوبية الله بما يلي:

١- لجوء الإنسان إلى الله تعالى حال الكرب والشدة سواء كان مؤمنًا أو كافرًا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس:١٢].

فلجوء هذا العبد إلى الله نابع من شعوره بربوبية الله وأنه القادر على كشف الضر عنه.

٢- لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وربوبيته أمرًا فطريًا لكانت بداءة دعوة الرسل أقوامهم إليه أولًا. لأن الأمر بتوحيد الله في العبادة فرع عن الإيمان بربوبيته فلما بدؤوهم بتوحيد العبادة دل ذلك على أن الإيمان بربوبية الله أمر فطري عند الخلق(١).

---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ١٢٩-١٣٠).

٣- لو لم يكن الإقرار بالله وبربوبيته أمرًا فطريًا لقال معارضو الرسل للرسل عندما دعوهم إلى الله تعالى من هو هذا الرب؟ فنحن لا نعرفه فكيف تأمرنا بعبادته، ونحن لا نعرفه.

ولما لم يحدث ذلك منهم دلَّ على أن معرفتهم بالله تعالى مستقرة في فطرهم(١).

قال شيخ الإسلام: وأما الرب فهو معروف بالفطرة ثم استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم:١٠] (٢).

وهذا الاستفهام استفهام إنكار بمعنى النفي، فالمعنى ليس في الله شك وأنتم أيها المخاطبون تعلمون هذا وتستيقنونه، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار بربوبيته(٣).

الثالث: العقل:

وأما دلالة العقل على ربوبية الله تعالى فلا أدل عليها من كون الخلق لا بُدَّ أن لهم خالقًا خلقهم كما يدل لذلك حديث جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾[الطور:٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير». زاد في رواية: «وذلك أوَّل ما وقر الإيمان في قلبي»(٤).

---

(١) انظر المرجع السابق (٨/ ٤٤٠).

(٢) «رسالة في الكلام على الفطرة» ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢/ ٣٣٧) وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٣٩).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٤١) بتصرف.

(٤) سبق تخريجه.

فالاحتمالات ثلاثة:

١- أن يكونوا وجدوا من دون موجد أوجدهم، وهذا مستحيل؛ لأن المعدوم لا بُدَّ له من موجد ولهذا أنكره عليهم بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فانتفى هذا الاحتمال.

٢- أن يكونوا هم خلقوا أنفسهم وأوجدوها وهذا مستحيل؛ لأنهم كانوا عدمًا، والعدم لا يوجد شيئًا فانتفى هذا الاحتمال.

فلما انتفى هذان الاحتمالان تعين الثالث وهو أن الله خلقهم.

قال الخطابي: «كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه»[(١)].

الرابع: الحس والواقع:

ويتضح ذلك من أوجه متنوعة هي:

١- دليل الخلق: كونه الخالق لكل شيء دليل على ربوبيته الكاملة قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[غافر:٦٢].

«وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته»[(٢)].

٢- دليل الملك والتدبير: أي أن ملكه المطلق الكامل من كل وجه، الشامل لكل شيء دليل على ربوبيته وكماله، ولذلك تمدح الله به فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الملك:١]، وتبارك: أي تعالى وتعاظم وتقدس سبحانه.

وأثبت تدبيره، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[لقمان:٢٠].

ونفى تدبير أحد معه فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٠٣).

(٢) «شفاء العليل» (٩٦).

إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون:٩١].

وقد وضح شيخ الإسلام دلالة هذه الآية على توحيد الربوبية ببرهانين هما:

البرهان الأول: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾.

فإذا وجد إله آخر فلا بد أن يكون مستقلًا في الفعل. وعلى هذا سيكون متميزًا عن مفعول الآخر. فهذا يذهب بمخلوقاته وهذا بمخلوقاته وهذا غير واقع.

البرهان الثاني: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: أنه لا بد أن يكون أحدهما عالٍ على الآخر بقدرته فيكون هو المستقل بالفعل ويكون الآخر مقهورًا، والمقهور لا يمكن أن يستقل بالفعل(١).

٣- **دليل العناية:** أي أن الاعتناء المقصود بهذه المخلوقات دليل على ربوبية موجدها.

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[الفرقان:٦١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[النبأ:٦-١٦].

٤- **دلالة الإتقان والتقدير:** هذا الإتقان العجيب لهذه المخلوقات أكبر دليل على ربوبية الله تعالى. قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣].

التفاوت: الاختلاف في الأوصاف(٢).

وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل:٨٨] وكونه بتقدير لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عن ما قدر له دليل ربوبية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المؤمنون:١٨].

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٣/ ٣١٥-٣٢٩).

(٢) «المفردات» (٣٨٦).

٥- دلالة الخلق على الخالق: كل من رأى مخلوقًا تبادر إلى ذهنه أن يسأل مَنْ خلقه؟

قال شيخ الإسلام: «كل مخلوق فهو دليل وآية على الخالق نفسه»(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك:٣].

مقتضيات الإقرار بالربوبية:

١- أن لا يعتقد العبد تدبيرًا ولا تصريفًا ولا ملكًا ولا منعًا ولا إعطاءً ولا إحياءً ولا إماتة ونحو ذلك إلا لله تعالى.

٢- إثبات رب مباين للناس بالذات كما باينهم بالصفات.

٣- أن يكون الإقرار بالربوبية طريقًا للعبد إلى الإقرار بالألوهية ولا بُدَّ وذلك أن القلب يتعلق بتوحيد الربوبية أولًا ثم يرتقي إلى توحيد الألوهية.

ولذلك نجد أن الله سبحانه في آي كثيرة يقرر المشركين بالربوبية ويحتج عليهم بها ثم يدعوهم إلى إقرارهم بعبادته وحده(٢).

قال الشيخ الشنقيطي: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته -جل وعلا- على توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٨).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤١٣) و«بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٢).

منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده».

ثم ذكر على هذا التقرير ثلاثة عشر مثالًا[1].

وقد وردت دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية من وجهين:

الوجه الأول العموم: أي عموم ربوبيته سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

وجه الاستدلال: أن الله ذكر العبادة بالفاء التي تدل على ارتباط الجملة الثانية بالأولى وبنائها عليها فدل على أن عموم ربوبيته مستوجب لعموم إلهيته ووجوب عبادته.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢].

الوجه الثاني: الخصوص: أي اختصاصه سبحانه بالملك والأمر والخلق والتدبير ومن أمثلة الملك:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما اعترفوا بأن المالك هو الله وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فلما أقروا وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ثم قال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، فلما أقروا وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[المؤمنون:٨٤-٨٩].

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٢-٤١٤).

ومن أمثلة الخلق:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فلما صح اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت:٦١] ولا شك أن الخلق من أعظم العلامات الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق[١] قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[النحل:١٧]، ولذلك جعل النبي ﷺ اتخاذ ندٍّ لله لم يخلق هو أعظم الذنوب في جوابه، لما سئل: «أي الذنب أعظم قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»[٢].

ومن أمثلة التدبير «تصريف الأمور».

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فلما أقروا بربوبيته ومنها تدبير الأمور وبّخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس:٣١][٣].

قال السعدي: «﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات فقل لهم إلزامًا بالحجة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان»[٤].

---

(١) بل إن الشيخ الشنقيطي ذهب إلى أنها هي العلامة الفارقة فقال: «علم من استقراء القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها هو كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال». «أضواء البيان» (٧/ ٣٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذه الأمثلة مستفادة من «أضواء البيان» (٣/ ٤١١-٤١٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٦٣).

ثانيًا: توحيد الألوهية:

ويتضح من خلال الآتي:

معنى الألوهية:

الألوهية مأخوذة من كلمة إله فهي مصدر أله يأله إلهة أي عبد عبادة. فإله بمعنى مألوه أي معبود. قال ابن عباس: الله «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»(١).

فالألوهية: صفة الله تعالى تعني استحقاقه جل وعلا للعبادة لما له من الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله(٢).

تعريف توحيد الألوهية:

هو: «إفراد الله بالتعبد له بجميع أنواع العبادات المشروعة ونفي عبادة ما سواه». أو: «إفراد الله بأفعال العباد».

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

ضابط توحيد الألوهية:

حدده الشيخ الشنقيطي بقوله: «وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله»، ثم شرح الضابط فقال: وهي متركبة من نفي وإثبات فمعنى النفي منها: خلْع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاصٍ، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله»(٣).

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٢) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٢٧) و«تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦) و«جامع البيان» (١/ ٥٤).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٠).

أدلة توحيد الألوهية:

ثبت توحيد الألوهية بالشرع والفطرة والعقل.

أولًا: الشرع: أما الشرع فأكثر آيات القرآن الكريم في هذا النوع من التوحيد، بل جميع الكتب المنزلة على الرسل كلها تنطق بذلك وتأمر به وتحث عليه وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥].

وجاءت أدلة الشرع على صور كثيرة متعددة منها:

١- حصر الدين كله فيه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[الأنبياء:١٠٨].

٢- أن جميع الرسل بعثوا فيه. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

٣- التحذير من عبادة غير الله بوصف فاعل ذلك بالكفر قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة:٧٣].

٤- بيان أن إمكانية الاجتماع والالتقاء والاتفاق لا تكون إلا به قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:٦٤].

٥- الأمر المباشر به قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩].

٦- أن توحيد الألوهية خالص حق الله تعالى. كما في حديث معاذ وفيه: «**حق الله على العِبَادِ أَنْ يَعبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئًا**»[(١)].

---

(١) سبق تخريجه.

٧- إبطال عبادة غير الله، لعدم وجود شيء من خصائص الإله فيها فهي مخلوقة لا تخلق، ضعيفة لا تدفع الضر عن نفسها ولا عابديها ولا تجلب النفع لنفسها ولا إياهم ولا تملك الحياة ولا الموت.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٣] ومن كانت هذه حالها فكيف تعبد ويصلى لها ويسجد.

ثانيًا: الفطرة:

خلق الله العبد مفطورًا على الإيمان به وإفراده بالعبادة كما بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: «**ما من مولودٍ إلَّا يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يهودّانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه كما تنتجُ البهيمة بهيمة جَمْعاء هلْ تحسون فيها من جَدْعَاء حتَّى تكونوا أنتُمْ تَجْدَعُونَها**» ثم قرأ أبو هريرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم:٣٠][(١)].

قال شيخ الإسلام: «والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبته وتخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد -وهو التوحيد- وهذا هو معنى قول «لا إله إلا الله» كما جاء مفسرًا «**كُلُّ مولودٍ يولدُ على هذه الملّة**»، وروي: «**على ملّةِ الإسلامِ**».

ويوضح ذلك ويؤكده حديث عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء كُلّهُم...**»[(٢)].

فأخبر أنه خلقهم حنفاء وذلك يتضمن معرفة الرب ومحبته وتوحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية وهي معنى قول: «لا إله إلا الله»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٤٤-٣٤٥).

ولما أمر الله نبيه أن يقيم الدين بيَّن له أنه هو الفطرة فقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[الروم:٣٠].

قال معاذ لعمر رضي الله عنهما لما سأله ما قوام هذه الأمة قال: «ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾...»(١).

وقال مجاهد وعكرمة فطرت الله: الإسلام(٢).

قال ابن عبدالبر: «وهو المعروف عند عامة السلف»(٣).

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ...﴾ [هود:١٧].

«يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو ثم استدل بما سبق من الآية والحديثين»(٤).

ويدلك على قوة دليل الفطرة حتى مع وجود المؤثرات ما قاله عمرو بن عبسة رضي الله عنه حاكيًا ما كان يختلج في قرارة نفسه تجاه المشركين «كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان»(٥). فدلته فطرته على بطلان عبادة غير الله مع أنه لم يسمع رسولًا، ولم يقرأ كتابًا.

---

(١) «جامع البيان» (٢١/ ٤٠).

(٢) المرجع السابق (٢١/ ٤٠، ٤١).

(٣) «التمهيد» (١٨/ ٩٢).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٧١).

(٥) مسلم (١/ ٥٦٩)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب إسلام عمرو بن عبسة. رقم (٨٣٢).

ثالثًا: العقل:

اتفق العقلاء على أن المحسن صانع المعروف يجب أن يشكر على جوده ومعروفه وإحسانه، ومن المعلوم أن أعظم محسن على الخلق هو الله ﷻ. وذلك أن جميع النعم منه سبحانه قال تعالى مبينًا كثرتها وعدم القدرة على حصرها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[النحل:١٨].

فشعورنا بأن النعم كلها منه تفضلًا وإحسانًا ما ظهر منها وما بطن يقودنا إلى الاعتراف بها، ومن ثم عبادته وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له.

يوضح النبي ﷺ هذا بضرب المثل فيقول: «إن الله ﷿ أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن... أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بِوَرِقٍ أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم سره أن يكون عبده كذلك، وأن الله ﷿ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا»(١).

قال شيخ الإسلام مبينًا حسن التوحيد بالعقل عند قوله تعالى عن الخليل: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٨٥-٩٦].

«فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي وقبل إنكاره عليهم ولهذا استفهم استفهام منكر فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾... فلولا أن حسن التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر معلوم

---

(١) أحمد (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٥/ ١٤٨)، كتاب «الأمثال»/ باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة. رقم (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». قال ابن كثير: «هذا حديث حسن». «تفسير القرآن العظيم» (٤٠).

بالعقل لم يخاطبهم بهذا؛ إذ كانوا لم يفعلوا شيئًا يذمون عليه، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم»[(١)].

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١].

ففي هذه الآية «نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذًا﴾ أي لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول... ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها وأفهمت ببديع أشكالها أن المدبر لها واحد كامل الأسماء والصفات قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته كذلك لا صلاح ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة»[(٢)].

منزلة توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية هو أساس الملة وروحها ولبها، فإذا وُجِدَ وجد الدين، وإذا فُقِد فقد الدين. قال شيخ الإسلام مبينًا منزلة توحيد الألوهية: «وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن كثير جدًا، بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي ﷺ: «**أمرتُ أن أُقاتلَ النَّاس حتَّى يشهدُوا أن لا إله إلَّا اللهَ وأنَّ محمدًا رسولُ الله**»[(٣)]،

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٨١-٦٨٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٧٥)، كتاب «الإيمان»/ باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾. رقم (٢٥)، ومسلم (١/ ٥٣)، كتاب «الإيمان»/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله. رقم (٣٦).

وقال: «**إنّي لأعلمُ كلمةً لا يقُولها رجل عند الموتِ إلّا وجد روحه لها روحًا حين تخرج من جسده، وكانت له نورًا يوم القيامة**»[(١)]، وقال: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة**»[(٢)]، فهو قلب الدين والإيمان، وسائر الأعمال كالجوارح له»[(٣)]. ولذا صار هو الفارق بين الموحدين والمشركين.

الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

فرّق السلف بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية. ومن أقوالهم:

١- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦] يعني النصارى، يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧]، «ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض ليقولن الله»، وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون للأنداد دونه»[(٤)].

٢- قال عكرمة: «﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦] ولئن سألتهم من خلقهم وخلق السماوات والأرض ليقولن الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره».

وصنيع البخاري يدل على التفريق بينهما، فإنه بوب باباً فقال: باب قول الله تعالى:

---

(١) أحمد (١/ ٢٨)، وصححه ابن القيم في «الجواب الكافي» (٢٣٤)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد حسن». «مسند الفاروق» (١/ ٢٢٥)، وهذه الكلمة هي لا إله إلا الله، كما بيّن ذلك عمر في آخر الحديث.

وفي رواية عند أحمد أيضًا (١/ ١٦١): «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته...»، قال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (١/ ٥٧-٥٨) رقم (١٣) تحقيق د. سليمان العريني، وصححه السيوطي في «شرح الصدور» (٤٦)، وقال الألباني: «إسناده صحيح». «أحكام الجنائز» (٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٠).

(٤) «جامع البيان» (١٣/ ٧٨).

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢] وذكر تحته: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[الفرقان:٦٨]، وحديث: «**أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»، ثم ذكر قول عكرمة السابق(١).

٣- قال مجاهد عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦] قال: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره»(٢).

٤- قال قتادة عن هذه الآية نفسها «في إيمانهم هذا أنك لست تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته». وبمثل هذا قال ابن زيد، وعطاء، وعامر، وابن جرير(٣).

والفروق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كثيرة، من أهمها:

١- اختلاف الاشتقاق:

فاشتقاق الربوبية من الرب والرب مأخوذ من التربية والملك كما سبق. أما اشتقاق الألوهية فهو من الإله والإله مأخوذ من التأله وهو التعبد.

٢- أنَّ توحيدَ الربوبية طريقٌ للألوهية ولذلك استدل الله بربوبيته على إلهيته في آي كثيرة ولو كانا شيئًا واحدًا لما كان أحدهما طريقًا للآخر.

٣- أن توحيد الربوبية أقر به المشركون أما توحيد الألوهية فوقعت فيه الخصومات الطويلة بين الرسل وأممهم ولو كانا شيئًا واحدًا لما وقعت تلك الخصومات ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾[ص:٥-٦].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٩٠-٤٩١) وانظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٥٣٣-٥٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٧٧-٧٨).

(٣) المرجع السابق، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٨).

٤- أن متعلقَ الربوبية الأمورُ الكونية كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك أما متعلق الألوهية فهي الأمور الشرعية مما أمر الله به ونهى عنه في كتابه أو على لسان رسوله.

٥- أن توحيدَ الربوبية هو توحيدُ الله بأفعاله هو، أما توحيد الألوهية فهو توحيد الله بأفعال العباد. فهل يمكن أن تكون أفعال الله هي أفعال عباده.

٦- انعقاد الإجماع على أن من آمن بالربوبية ولم يأت بالألوهية أنه كافر لم يدخل في دين الله[(١)].

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات: أي أسماء الله وصفاته.

معنى الأسماء والصفات:

الاسم لغة: هو ما دل على معنى. «وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها»[(٢)].

وفي الاصطلاح: كل اسم دل على ذات الله متضمنًا صفة كمال قائمة به. كالقادر دل على ذات الله ودل على ما قام به من القُدْرَة.

الصفة لغة: هي الأمارة اللازمة للشيء[(٣)].

وفي الاصطلاح: هي صفات الكمال القائمة بذات الله، كالعلم والحكمة، والرحمة، والكلام، ونحو ذلك.

تعريف توحيد الأسماء والصفات:

هو إفراد الرب سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في الكتاب والسنة مع الإيمان بمعانيها وأحكامها[(٤)].

---

(١) انظر: «حقيقة التوحيد بين السلف والمتكلمين» (١٠٨-١١١) و«الماتريدية» لشمس الدين الأفغاني (٣/ ١٨٨) و«المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية» للبريكان (٩٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٩٥).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٤٤٨).

(٤) انظر: «القول السديد» (١٠).

طريقة السلف في وصف الله تعالى:

وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١][(١)].

قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث»[(٢)].

وقال ابن عبد البر: «لا يصفه -أي: الله- ذوو العقول إلا بخبر، ولا خبر في صفات الله إلا ما وصف نفسه به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فلا نتعدى ذلك إلى تشبيه، أو قياس، أو تمثيل، أو تنظير، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾»[(٣)].

أدلة توحيد الأسماء والصفات:

ثبت توحيد الأسماء والصفات بالشرع والعقل والفطرة والحس.

أولًا: الشرع: أكثر آيات القرآن الكريم في بيان أسماء الله وصفاته وأفعاله ولا يمكن حصرها إلا بمشقة وكلفة ومن ذلك:

١- ما ختم الله به كثيرًا من الآيات في الأحكام وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨]. «وقد وردت أسماء الله في خواتم الآيات خمسمائة وتسع عشرة مرة»[(٤)].

٢- أن الله ذكر أسماءه وصفاته متمدحًا بها، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ

(١) «منهاج السنة» (٢/ ٥٢٣).

(٢) «الفتوى الحموية» (٢٧١).

(٣) «التمهيد» (٧/ ١٤٥).

(٤) «ختم الآيات بأسماء الله الحسنى» لعلي العبيد (٣٩).

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحشر:٢٢-٢٤] وغير ذلك من الآيات.

ثانيًا: الفطرة: استقر في فطر الناس أن الرب جل جلاله له الكمال المطلق من جميع الوجوه بدون سابق تعليم وتفهيم وبيان. فيعتقدون أن له الصفات الكاملة قال شيخ الإسلام: ومن القضايا البديهية المستقرة في الفطر أن الذي يعلم أكمل من الذي لا يعلم، كما أن الذي يقدر أكمل من الذي لا يقدر، ولهذا يذكر سبحانه هذه القضية بخطاب استفهام الإنكار الذي يبين أنها مستقرة في الفطر وأن النافي لها قال قولًا منكرًا في الفطرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩]. وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:١٧].

وكون العالم أكمل من الذي لا يعلم، وكون عدم العلم نقصًا هو من أبين القضايا البديهية المستقرة في فطر بني آدم(١).

ولذلك لما سأل النبي ﷺ الجارية التي لم تتعلم أين الله؟ كان جوابها بفطرتها أنّ الله في السماء(٢).

قال ابن عبدالبر مبينًا فطرية الصفات ممثلًا بصفة العلو: «ومن الحجة أيضًا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم

---

(١) «درء التعارض» (١٠/ ١٥٣-١٥٦) باختصار، وقد استطرد في ذكر الأدلة على ذلك، فراجعه إن شئت.

(٢) مسلم (١/ ٣٨١-٣٨٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته. رقم (٥٣٧).

عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم»[١]، ومناظرة الهمداني مع الجويني من أوضح وأصرح ما يدل على أن الفطرة تدل على أسماء الله وصفاته، وذلك أن أبا جعفر الهمداني حضر مجلس أبي المعالي الجويني وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: «كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبو جعفر الهمداني: دعنا من ذكر العرش -يعني: لأن ذلك إنما جاء في السمع-، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني، ونزل»[٢].

ثالثًا: دليل الحس:

يرفع الناس أكفهم ضارعين إلى الله بالدعاء طالبين منه قضاء حاجاتهم فإذا به جل وعلا يجيبهم ويعطيهم سؤلهم، وفي هذا أوضح دليل على سمعه لسؤالهم وعلمه بمطلوبهم وقدرته على إجابتهم ورحمته بهم.

كما أجاب دعاء النبي ﷺ عندما طلب الأعرابي منه أن يدعو الله أن يغيثهم كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أصابت الناس سنة في عهد النبي ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا فرفع يديه -وما نرى في السماء قزعة-، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي، أو قال: غيره، فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: «**اللهم**

---

(١) «التمهيد» (٧/ ١٣٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤).

حوالينا ولا علينا»، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجُوْبة، وسال الوادي قناة شهرًا، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدَّث بالجود»[(١)].

إنزال المطر وإيقافه عنهم أكبر دليل على سمعه سؤالهم، وعلمه بمطلوبهم، وقدرته التامة على إعطائهم ما سألوه.

وكما في خبر النبي ﷺ عندما خرج مهمومًا فلم يستفق إلا بقرن الثعالب بسبب إعراض المشركين عن دعوته وفيه: «**فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريلُ فناداني فقال: إنَّ اللهَ عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم..**»[(٢)].

ففي هذا الحديث سماعه سبحانه لأقوالهم وعلمه بإعراضهم وقدرته على عقوبتهم حيث أرسل ملك الجبال إلى النبي ﷺ ليأمره بما أراد.

وهكذا في قصة المجادلة -امرأة حيية خافضة صوتها يخفى بعضه على من بجوارها، فيسمعه الرب من فوق سبع سماوات، سمع صوتها وأوحى إلى نبيه ﷺ متكلمًا في أمرها- قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل تعالى على النبي ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[المجادلة:١]»[(٣)].

وفي لفظ: «قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ.. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[(٤)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٤١٣)، كتاب «الجمعة» باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة. رقم (٩٣٣).

(٢) مسلم (٣/ ١٤٢٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. رقم (١٧٩٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٢)، كتاب «التوحيد»/ باب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

(٤) ابن ماجه (١/ ٦٦٦)، كتاب «الطلاق»/ باب الظهار. رقم (٢٠٦٣).

رابعًا: العقل:

العقل السليم يدرك تمام الإدراك أن الرب لا بُدَّ أن يكون له الكمال المطلق من جميع الوجوه وذلك لأن الكمال الموجود في المخلوق من الله ﷻ فواهبه أولى بالكمال، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧] ومعنى المثل الأعلى: أي الوصف الأكمل والأعلى والأفضل[١].

بيّن هذا ربنا أكمل بيان وأوضحه في رده على عاد لما انخدعوا بقوتهم، واغتروا بها، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فأجابهم بأن الذي أعطاهم قوتهم التي افتخروا بها أقوى منهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت:١٥].

أسس الإيمان بأسماء الله وصفاته:

١- الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصفه بعد الله أعلم من رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٤٠] وقال ﷺ: «**إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»[٢].

٢- تنزيه الله أن يشابهه أحد من خلقه في أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١] وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص:٤].

٣- قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

لأن الله أخبرنا بالصفة ولم يخبرنا بالكيفية.

وذلك لأن العلم بالشيء يكون بأحد ثلاثة أمور:

أ- رؤية الشيء. ونحن لم نره ولا يمكن أن نراه في الدنيا.

---

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (١/ ١٠٣٠-١٠٣٦).

(٢) سبق تخريجه.

ب- رؤية نظيره. والله ليس كمثله شيء، فليس له نظير.

ج- الخبر الصادق عنه. والخبر الصادق جاءنا عن الله وعن رسوله بالصفة ولم يأتينا بالكيفية.

إحصاء أسماء الله:

جعل النبي ﷺ إحصاء أسماء الله هو الموصل إلى جنات النعيم فقال: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا، مائةً إلَّا واحدًا، من أحصاها دخل الجنّةَ**»[(١)].

ولإحصائها مراتب هي:

١- إحصاء ألفاظها وعددها.

٢- فهم معانيها.

٣- دعاؤه وعبادته بها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠].

وأعلى منازل الإحصاء التعبد «وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاح والفلاح»[(٢)] «فمن تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه»[(٣)].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غافر:٦٥].

فرتب الله الأمر بالدعاء في هذه الآية بالفاء على ما سبقه من الوصف بالحياة وانتفاء الألوهية عن غير الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٤).

(٣) «عدة الصابرين» (٢٨٦).

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر:٢٢-٢٤].

بدأ الله الآيات بذكر الألوهية ثم ثنى بذكر أسمائه الحسنى ثم أعاد الألوهية مرة أخرى فأخبر أنه هو المعبود وذلك لكمال عظمته في أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال شيخ الإسلام بعد ذكره بعض الآيات التي ذكرت صفات الكمال لله: «والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقدير صفات الكمال له. بل ذكرها لبيان أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه»(١).

ترابط أقسام التوحيد الثلاثة:

من المعلوم أَنَّ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وأَنَّ العبودية الحقة لا تكون إلا بمعرفة الأسماء والصفات. فإنه لا يمكن أن يذل العبد إلا لمن يعرف سطوته وجبروته ولا يرجو إلا من يعرف حلمه وكرمه وغناه ورحمته.

ولهذا ذكر الله أقسام التوحيد في آي كثيرة من كتابه وجمعها في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

قال السعدي: «فجعل تفرده ﷻ بالربوبية واختصاصه بالأسماء الحسنى برهانًا قاطعًا على استحقاقه للعبودية وحده وإبطال عبادة من سواه»(٢).

وفي بيان ترابطها يقول حافظ حكمي: «فإن توحيد الإثبات هو أعظم حجة على

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٨٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٧٩).

توحيد الطلب والقصد الذي هو توحيد الإلهية، وبه احتج الله تعالى في كتابه في غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية لتلازم التوحيدين، فإنه لا يكون إلهًا مستحقًا للعبادة إلا من كان خالقًا رازقًا مالكًا متصرفًا مدبرًا لجميع الأمور حيًّا قيومًا سميعًا بصيرًا عليمًا حكيمًا موصوفًا بكل كمال منزهًا عن كل نقص غنيًا عما سواه مفتقرًا إليه كل ما عداه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات وفي الأرض فمن كانت هذه صفاته فإنه لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز لغيره ومن كان منفردًا بالخلق وجب إفراده بالعبادة»(١).

ثمرات الإيمان بالله تعالى:

١- **صدق الاعتماد على الله.** لعلمه بأنه هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء وأنه القادر على كل شيء وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. ومن ذلك توكل إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار والنبي ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

٢- **محبة الله** عز وجل. لعلمه بأن ما هو فيه من نعم فمنه سبحانه وأنه مع ذلك كريم يعفو ويصفح عن زلات عباده ويشكر للمطيعين منهم طاعاتهم وعبادتهم.

٣- **تحقيق التوحيد.** لعلمه بأَنَّ المستحق للعبادة هو الله وحده وأما غيره فهم عبيد مربوبون لا حظ لهم في الربوبية ولا حقَّ لهم في الألوهية.

٤- **الحرص على فعل الطاعات والبعد عن الخطيئات** تعظيمًا لله وشعورًا بعلمه به واطلاعه على خفاياه قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١] قال الشنقيطي: «فالخبير هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها، وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه»(٢).

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٢٨٦) بشيء من الاختصار.

(٢) «معارج الصعود» (٣٩).

قال أبو العباس بن سريج (ت٣٠٦هـ) لما سئل متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة؟ قال: «إذا علم أن عليه رقيبًا»(١).

وقال سهل بن عبدالله: «لا يبلغ العبد حقيقة الخوف حتى يخاف مواقع علم الله فيه ويحزن على ذلك»(٢).

٥- الشجاعة في قول كلمة الحق:

وَسِرُّ ذلك اعتقاده بأن الله يراه وأنه معه ينصره ويؤيده. ولهذا لما اعتذر موسى عليه السلام عن دعوة فرعون بخوفه من طغيانه وجبروته قواه الله برؤيته له وسماعه لكلامه فقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦] فما كان من موسى إلا أن ذهب لفرعون ودعاه ولم يبال به بل إنه لما تعنت فرعون أغلظ له القول فقال كما ذكر الله عنه: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء:١٠٢].

وعن الأسود قال: «أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثماني سنين، وهاجر وهو ابن ثماني عشرة سنة، وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير، ويدخن عليه بالنار، وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا»(٣).

وقال ابن أبي دؤاد: «ما رأيت أحدًا أشد قلبًا من هذا -يعني الإمام أحمد ابن حنبل- جعلنا نكلمه وجعل الخليفة يكلمه يسميه مرة ويكنيه مرة، وهو يقول يا أمير المؤمنين: أوجدني شيئًا من كتاب الله، أو سنة رسوله حتى أجيبك إليه»(٤).

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٥) رقم (١٥٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢١٥) رقم (١٧٢).

(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٨٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٥).

٦- الخوف من الله:

إذا تذكر المسلم صفات الله التي منها الغضب والانتقام ممن عصاه وشدة عقوبته وقوته وجبروته خاف منه. يوضح ذلك حديث الشفاعة الطويل وفيه اعتذار آدم وأربعة من أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام فكان مما اتفقوا جميعًا على قوله: «إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»[(١)].

قال ابن القيم: «وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر»[(٢)].

٧- الطمع والرجاء:

عندما يخلو العبد بنفسه فيحاسبها محاسبة صريحة فيستشعر ذنوبه ومعاصيه يوقن بالهلاك. لكنه إذا تذكر أن العفو أحب إلى الله من العقوبة، وأن رحمة الله سبقت غضبه وأنها وسعت كل شيء وأنه حليم على عباده رؤوف بهم مع كثرة معاصيهم وذنوبهم فلا يعاجلهم بالعقوبة.

انفتح له باب الرجاء فتوسل إلى الله باسمه العَفُوُّ وطمع في رحمة أرحم الراحمين ولهذا فتح النبي ﷺ الرجاء لأُمِّنا عائشة رضي الله عنها حينما سألته إن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها؟ فقال: «قولي: **اللَّهُمَّ إنَّك عفُوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي**»[(٣)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٩٥-٣٩٦)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾. رقم (٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) «الفوائد» (٩٢).

(٣) أحمد (٦/ ١٨٣٠)، والترمذي (٥/ ٥٣٤)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥١٣)، وقال: «حديث حسن =

٨- الصبر على أقدار الله من جوع ومرض وفقر وغيرها:

وذلك لأَنَّ الله قدرها لحكم عظيمة منها:

أ- أن المنع أصلح لعبده قال سفيان الثوري: «منعه عطاءً وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختيارًا وحسن نظر»[١].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام:٥٣].

«فهو سبحانه أعلم بمحال التخصيص فمن ردّه المنع إليه انقلب عطاءً، ومن شغله عطاؤه عنه انقلب منعًا»[٢].

ب- أن المرض والجوع والشدة يريد الله بها خيرًا للمسلم. قال ﷺ: «**مَنْ يُرِد اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ**»[٣].

وتكفيرًا لسيئاته قال ﷺ: «**ما يصيبُ المسلمُ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غَمّ حتى الشوكة يشاكُها إلّا كفَّر اللهُ بها من خطاياه**»[٤].

ورفعةً لدرجاته قال ﷺ: «**إِنَّ الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيهِ فصبر عوّضْتُهُ منهما الجنّة**» يريد عينيه[٥].

= صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥)، كتاب «الدعاء»/ باب الدعاء بالعفو والعافية. رقم (٣٨٥٠)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٩٨).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٥).

(٢) «مختصر زاد المعاد» (١٢٦).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٠٣)، كتاب «المرضى»/ باب ما جاء في كفارة المرض. رقم (٥٦٤٠).

(٤) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٠٣)، كتاب «المرضى»/ باب ما جاء في كفارة المرض. رقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢).

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ١١٦)، كتاب «المرضى»/ باب فضل من ذهب بصره. رقم (٥٦٥٣).

وجمعهما النبي ﷺ في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها. قال الأسود دخل شباب من قريش على عائشة وهي بمنى وهم يضحكون، فقالت: ما يضحككم قالوا: فلان خرَّ على طُنُب فسطاط فكادت عنقه أو عينه أن تذهب، فقالت: لا تضحكوا فإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلمٍ يُشاك شوكةً فما فوقها إلاَّ كُتب له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة**»(١).

ولقد كان سلفنا الصالح يعرفون قَدْرَ نعمة المرض كما يعرفون قدر نعمة الصحة ومن ذلك قول أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من مرض يصيبني أحبُّ إليّ من الحمى؛ لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله عز وجل يعطي كل عضو قسطه من الأجر»(٢).

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ففرح بذلك فقال: «ما يسرني بوصب وصبته حمر النعم وسوادها»(٣).

ويمر بأبي الدرداء رجل فيعجب من جلده فيسأله سؤالين عجيبين هما: أحممت قط؟ فيجيبه الرجل: لا. ثم يسأله سؤالًا آخر: أصدعت قط؟ فيجيبه الرجل: لا. فيقول أبو الدرداء قولًا عجيبًا يبين سر اختياره لهذين السؤالين: «بؤسًا لهذا يموت بخطيئته»(٤).

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٩١)، كتاب «البر والصلة»/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك. رقم (٢٥٧٢).

(٢) «الأدب المفرد» (١٧٢) رقم (٥٠٣)، وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ١١٠).

(٣) «الزهد» لهناد (١/ ٢٤٥)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٢).

(٤) «الزهد» لهناد (١/ ٢٤٦) و«الزهد» لأحمد (١٧٢).

وملائكته.

....

الملائكة لغة: جمع ملك وأصله مَأْلَك مشتق من الأَلُوك أو الأَلُوكة وهي الرسالة قال الليث والخليل: الأَلُوك الرسالة وهي المَأْلُكة(١).

وقال ابن فارس: «ألك: الهمزة واللام والكاف أصل واحد وهو تحمل الرسالة»(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[فاطر:١] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾[هود:٧٧].

قال ابن القيم: «ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس له من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار»(٣)، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧].

أما التاء في لفظة الملائكة فهي للمبالغة والتعظيم كعلّامة ونسّابة(٤).

وفي الاصطلاح: أجسام خلقت من نور قادرة على التشكل، منحهم الله الانقياد التام لأمره والقدرة على تنفيذه من غير ملل ولا تعب.

منزلة الإيمان بالملائكة وحكمه:

للإيمان بالملائكة منزلة رفيعة فهو الركن الثاني من أركان الإيمان فجميع الأدلة التي ذكرت أركان الإيمان ذكرت الإيمان بالملائكة بعد الإيمان بالله تعالى مباشرة.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٧٣ و ٣٧٠) و«العين» (٥/ ٤٠٩) و«الصحاح» (١/ ٢٠).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٣٧).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٧).

(٤) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٦٣) و«فتح الباري» (٦/ ٣٠٦).

ومــن ذلــك قولــه تعــالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

وكما ورد في إجابة النبي ﷺ لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه**»(١).

ومما يدل على ركنية الإيمان بالملائكة أن الله جعل الإيمان به مستلزماً للإيمان بهم وأن البر لا ينال إلا بذلك فقال: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[البقرة:١٧٧].

وحكم بكفر من أنكر وجودهم فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

قال السعدي: «اعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»(٢).

ومما يَدلُّ به على أنّ من أنكر واحدًا فقد كفر: حديث عبدالله بن عمر عندما جاءه الرجلان من البصرة أو الكوفة يسألانه عن القدر والشاهد قوله: «والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهبًا فأنفقه ما قَبِلَ اللهُ منه حتى يؤمن بالقدر»(٣)، وفي هذا دليل على أن من أنكر أي ركن من أركان الإيمان فقد كفر.

قال البهوتي: «من جحد الملائكة أو أحدًا ممن ثبت أنه ملك كفر لتكذيبه القرآن»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠٩).

(٣) مسلم (١/ ٣٦)، كتاب «الإيمان»/ باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ، وبيان الدليل على التبرئ ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه. رقم (١).

(٤) «كشاف القناع» (٦/ ١٦٨).

بل حكم الله بكفر من أبغض أو عادى واحدًا منهم ولو آمن بوجودهم كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٩٧].

وذلك والله أعلم؛ لأن الكفر بالملائكة إبطال للدين، وذلك لأن الذي ينزل بالكتب على الرسل هو جبريل عليه السلام فالكفر به كفر بما ينزل به من الوحي والقرآن.

الإيمان بالملائكة يتضمن عدة أمور هي:

١- وجودهم: وقد دل على وجود الملائكة الشرع والحس والإجماع.

فأما أدلة **الشرع** فكثيرة جدًا منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر:٢٨-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[القدر:٤-٥].

وغير ذلك من الأدلة التي سبقت والتي ستأتي إن شاء الله.

وأما الحس: فمن ذلك ما رواه ابن عباس في خبر غزوة بدر قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إِثْر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السّماء الثالثة**»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين(١).

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٤ - ١٣٨٥)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب الإمداد بالملائكة من غزوة بدر. رقم (١٧٦٣).

ومن ذلك أيضًا لما جاء رجل بالعباس يوم بدر أسيرًا قال العباس: يا رسول الله! إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله فقال: «**اسكت؛ فقد أيَّدك اللهُ تعالى بملكٍ كريم**»(١).

أما الإجماع: فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع»(٢).

٢- مادَّةُ خَلْقِهِمْ:

مادة خلق الملائكة هي النور، ويدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خلقت الملائكة من نُورٍ، وخلق الجانّ من مارجٍ من نارٍ، وخلق آدمُ ممَّا وُصف لكم**»(٣).

٣- صفاتهم الخلْقِيَّة والخُلُقِيَّة:

ومما ورد في صفاتهم ما يلي:

أ- شداد الأبدان، غلاظ القلوب على الكافرين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

قال ابن كثير: «أي طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج»(٤).

---

(١) أحمد (١/ ١١٧)، وقال أحمد شاكر في تحقيقه «للمسند» (٢/ ١٩٢): «إسناده صحيح».

(٢) «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٤-٢٥).

(٣) مسلم (٤/ ٢٢٩٤)، كتاب «الزهد والرقائق»/ باب في أحاديث متفرقة. رقم (٢٩٩٦).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٠٠).

ب- **شدة قوتهم:** وصفهم الله بشدة قوتهم فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[النجم:٥] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:١٩-٢٠] قال ابن كثير: «﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل»(١).

ويدل لقوتهم العظيمة حديث عائشة رضي الله عنها عندما سألت النبي ﷺ هل أتى عليه يوم أشد من يوم أحد فقال ﷺ: «**لقد لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبةِ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يُجبني إلى ما أردتُ فانطلقتُ، وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أستفق إلا بقرنِ الثعالبِ فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ فناداني فقال: إنَّ اللهَ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبالِ لتأْمُرهُ بما شئت فيهم. فناداني ملكُ الجبال فسلَّمَ عليَّ ثم قال: يا محمّد! فقال: ذلك فيما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**». فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(٢).

ج- ضخامة خلقهم:

ومما يدل على ضخامة خلقهم حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»(٣).

---

(١) المرجع السابق (١٤٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣١٢-٣١٣)، كتاب «بدء الخلق»/ باب إذا قال أحدكم: «آمين»، والملائكة في السماء، فوافقت أحدهما الأخرى؛ غفر له ما تقدم من ذنبه. رقم (٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين. رقم (١٧٩٥).

(٣) أحمد (١/ ٣٩٥).

التهاويل: هي الأشياء المختلفة الألوان وأصلها مما يهول الإنسان ويحيره.

وعنه ﷺ أنه قال: «ورأيت جبريل على سدرة المنتهى، وله ستمائة جناح، قال: سألت عاصمًا عن الأجنحة، فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب»(١).

وحديث عائشة رضي الله عنها عندما سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[التكوير:٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[النجم:١٣]، فقال: «**إنَّما هو جبريلُ لم أرهُ على صورته التي خلق عليها غير هاتينِ المرتين. رأَيته منهبطًا من السّماء، سادًّا عظمَ خلقِهِ ما بين السّماء إلى الأرض**»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أذن لي أن أُحَدِّث عن ملكٍ من ملائكة الله من حملةِ العرشِ: إنَّ ما بين شحمةِ أُذُنِه إلى عاتقِه مسيرةَ سبعمائة عام**»(٣).

د- هم أجنحة: للملائكة أجنحة حقيقة خلقها الله لهم ومما يدل لذلك:

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[فاطر:١]. فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك.

(١) أحمد (١/ ٤٠٧)، وقال ابن كثير: «وهذه أسانيد جيدة قوية انفرد بها أحمد». «البداية والنهاية» (١/ ١٠٠).

(٢) مسلم (١/ ١٥٩)، كتاب «الإيمان»/ باب ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾. رقم (١٧٧).

(٣) أبو داود (٥/ ٩٦)، كتاب «السنة»/ باب في الجهمية. رقم (٤٧٢٧)، وقال الذهبي: «إسناده صحيح». «العلو» (١/ ٧٤٥)،، وقال ابن كثير: «إسناده جيد». «تفسير القرآن العظيم» (١٤١٤)، وقال ابن حجر: «وإسناده على شرط الصحيح». «فتح الباري» (٨/ ٦٦٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطّريق يلتمسون أهل الذّكر فإذا وجدُوا قومًا يذكرون اللهَ تنادوا هلّموا إلى حاجتكم**» قال: «**فيَحفُونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدُّنيا**»(١).

هـ- لهم عقول بها يفهمون وهم أيضًا يتكلمون ويسمعون ويجيبون.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٣٠].

فالملائكة سمعوا خطاب الله وعقلوه وفهموه وتكلموا وناقشوا في هذا الخلق الجديد وبينوا خطورة ما فهموه من واقع هؤلاء المخلوقين الجدد.

و- لهم قلوب تفزع وتخاف:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

ففي هذه الآية: «إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ويجيبون ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾»(٢).

وفيها أيضًا أن لهم قلوبًا يصيبها الخوف والوجل.

ز- جمالهم:

وصف الله الملائكة بالجمال فقال: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم:٦].

قال ابن عباس: «ذو منظر حسن»(٣).

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٠٨)، كتاب «الدعوات»/ باب فضل ذكر الله ﷻ. رقم (٦٤٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٩-٢٠٧٠)، كتاب «الذكر»/ باب فضل مجالس الذكر. رقم (٢٦٨٩).

(٢) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (١/ ٣٢١).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/ ٤٢).

ووصف الملائكة بالجمال مستقر عند عموم الناس كما أَنَّ وَصْفَ الشياطين بالقبح مستقر في قلوب الناس وفطرهم، ولهذا لما رأت النسوة يوسف عليه السلام: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف:٣١].

٤- أعمالهم:

تنقسم أعمالهم من حيث العموم والخصوص إلى قسمين:

أ- عمل عام: وهو العبادة: عبادة الملائكة لله شملت العبادة القلبية والبدنية ففي قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠] عبادة القلب وهي: الخوف من الله. وفي قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ عبادة الجوارح.

وقد اتسمت عبادتهم بسمتين جعلتاها من أعجب العجب:

١- الطاعة المطلقة التي لا يخالطها معصية قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

٢- الاستمرار الدائم بدون تعب ولا نوم ولا ملل.

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

وقال تعالى مبينًا عدم الملل والسآمة: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[فصلت:٣٨].

ب- العمل الخاص: وهو أن الله جعل لبعضهم أعمالًا خاصة لا يشركه فيها أحد من الملائكة الآخرين:

كإسرافيل: عمله النفخ في الصور.

وجبريل: عمله النزول بالوحي على رسل الله.

ومالك: عمله خازن النار.

وملك الموت: عمله قبض الأرواح.

٥- عدم الأكل والشرب:

الملائكة لا تأكل ولا تشرب. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[هود:٦٩-٧٠]. «وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه»[١].

بل «اتفق العلماء على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون»[٢].

٦- قدرتهم على التشكل:

أعطى الله الملائكة القدرة على التشكل بصور متنوعة ومن ذلك:

الرسل الذين جاؤوا إلى لوط عليه السلام بصورة شباب مرد حسان قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:٧٧-٧٨] ضاق بهم ذرعًا لأنه خشي عليهم من قومه لظنه أنهم من بني آدم.

وجبريل عليه السلام عندما جاء إلى مريم لم تعرفه فاستعاذت بالله من شره. قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾[مريم:١٧-١٩].

بشرًا سويًّا: «أي على صورة إنسان تام كامل»[٣].

وحديث الأقرع والأعمى والأبرص الذين أتى الملك إلى كل واحد منهم في صورته

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦٨٠).

(٢) «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي (٢٦٤).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٨٤٧).

وهيئته التي كان عليها فأتى الأقرع في صورته والأعمى في صورته والأبرص في صورته[(١)].

٧- الإيمان بهم إجمالًا وتفصيلًا:

والمقصود بالإجمال: هو الإيمان بجميع الملائكة الذين خلقهم الله تعالى سواء عرفناهم أو لم نعرفهم.

فنؤمن بأن الله خلق ملائكة كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو ﷻ، ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: «**البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم**»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[(٣)].

وحديث أطيط السماء من ثقل الملائكة قال ﷺ: «**أطّت السّماء وحقّ لها أن تئطّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجدٌ لله**»[(٤)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٠-٥٠١)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل. رقم (٣٤٦٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٥-٢٢٧٦)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٦٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٠٢-٣٠٣)، كتاب «بدء الخلق»/ باب ذكر الملائكة. رقم (٣٢٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧)، كتاب «الإيمان»/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات. رقم (١٦٢).

(٣) مسلم (٤/ ٢١٨٤)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»/ باب في شدة حر جهنم وبعد قعرها، وما تأخذه من المعذبين. رقم (٢٨٤٢).

(٤) الترمذي (٤/ ٥٥٦)، كتاب «الزهد»/ باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا». رقم (٢٣١٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس»، وأحمد (٥/ ١٧٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٢)، كتاب «الزهد»/ باب الحزن والبكاء. رقم (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤٠٧-٤٠٨).

أما التفصيل: فهو الإيمان بما علمنا منهم اسمًا وصفة وعملًا.

فمثلًا جبريل: علمنا اسمه، وعلمنا من صفته أن له ستمئة جناح وعمله أنه هو الموكل بالوحي قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٤].

مالك: علمنا اسمه، وعلمنا عمله، وهو خزانة النار قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧].

ميكائيل: علمنا اسمه، وعلمنا عمله وهو أنه موكل بالقطر والنبات، فعن ابن عباس «أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام على أي شيء ميكائيل قال: على النبات والقطر»[(١)].

قال ابن كثير: «وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات»[(٢)]، وبمثله قال ابن القيم[(٣)].

إسرافيل: علمنا اسمه من حديث النبي ﷺ في استفتاحه لصلاة الليل حيث يقول: «**اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيل وإسرافيل فاطر السَّموات والأرض...**»[(٤)].

وعلمنا عمله وهو النفخ في الصور كما في قول النبي ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ**»، قال أصحاب محمد ﷺ: كيف نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**»[(٥)]، وفي رواية فكأن

---

(١) «العرش» لابن أبي شيبة (٨٥-٨٧) رقم (٧٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٣٧٩) رقم (١٢٠٦١)، وابن أبي الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٠٠-٧٠١) رقم (٢٩١)، و«شعب الإيمان» (١/ ٤٣١-٤٤٣) رقم (١٥٥).

(٢) «البداية والنهاية» (١/ ١٠٥).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٩).

(٤) مسلم (١/ ٥٣٤)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٥) أحمد (١/ ٣٢٦).

ذلك ثقل على أصحاب رسول الله[(١)].

قال القرطبي: «الأمم مجمعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام»[(٢)].

منكر ونكير: علمنا اسمهما وعلمنا عملهما وهو سؤال الميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «**إذا قُبر الميتُ -أو قال-: أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر وللآخر النّكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرّجل...**»[(٣)].

ومنهم من علمنا أعمالهم دون أسمائهم ومن ذلك (ملك الموت) فملك الموت عمله قبض الأرواح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١].

ومن ذلك الكرام الكاتبين الموكلين بحفظ أعمال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٠-١٢]، وهما اللذان وصفها الله بأنهما رقيب وعتيد في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٧-١٨] ونحو ذلك.

ثمرات الإيمان بالملائكة:

الأولى: تحقيق الإيمان والفوز والفلاح: الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة.

فمن آمن بهم حصل له الفوز والفلاح قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى

---

(١) الترمذي (٤/ ٦٢٠)، كتاب «صفة القيامة»/ باب ما جاء في شأن الصور. رقم (٢٤٣١)، وقال: «هذا حديث حسن»، وقال ابن كثير: «حديث جيد». «تفسير القرآن العظيم» (٢٧٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٠).

(٣) الترمذي (٣/ ٣٨٣)، كتاب «الجنائز»/ باب ما جاء في عذاب القبر. رقم (١٠٧١)، وقال: «حديث حسن غريب»، وقال ابن كثير: «وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر». «البداية والنهاية» (١/ ١١٠).

﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة:١-٥].

قال أبو العالية في قوله تعالى: «﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: «يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا غيب كله»[١].

فجعل الله المؤمنين بالملائكة أهلَ الفوزِ والفلاح.

الثانية: تعظيم الله عز وجل: وصفت الملائكة بأنهم غلاظ شداد يفعلون ما يؤمرون، ومن شدة قوتهم يقلب أحدهم قرى اللوطية كلها في لحظة واحدة، ويجر بعضهم جهنم مع ضخامتها.

عظام الخلقة، جناح أحدهم يسد الأفق كله، فأين بقية الأجنحة. ما بين عاتق آخر وشحمة أذنيه مسيرة خفق الطير سبعمائة سنة.

ثم هؤلاء الملائكة مع عظمتهم إذا تكلم الله صعقوا كلهم، فإذا آمنت بعظمة الملائكة وضخامتهم وضعفهم عند كلام الله دلّك ذلك على عظمة الخالق سبحانه.

الثالثة: شكر الله جلّ وعلا: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد:١١].

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لكل عبدٍ حفظة يحفظونه لا يخر عليه حائط أو يتردى في بئر أو تصيبه دابة أو يأكله سبع حتى إذا جاء القدر الذي قُدِّرَ له خلّت عنه الحفظة فأصابه ما شاء اللهَ أن يصيبه»[٢].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢٩).

(٢) «الدر المنثور» (٤/ ٦١٥).

ويقول ابن عباس رضي الله عنه: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه»[(١)].

ويقول مجاهد رحمه الله: «ما من عبدٍ إلا له مَلَك موكَّل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها من شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك وراءك إلا شيء أذن اللهُ فيه فيصيبه»[(٢)]. فعندما تتذكر أن الله هيأ هؤلاء الملائكة يحفظونك تشكر الله الذي هيأ لك حراسًا يحفظونك، وأنت لا تشعر.

الرابعة: الحذر مما يغضب الله: المعاصي سبب غضب الرب، وإذا غضب عاقب، وقد يأمر الله الملائكة بعقوبة من شاء ممّن عصاه، ومن ذلك عقوبة قوم لوط عليه السلام.

قال السهيلي: «لما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٨٢-٨٣] قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن وكنّ سبع مدن بمن فيهن من الأمم يقال: إنهم كانوا أربعمائة ألف نسمة وقيل: أربعة آلاف ألف نسمة، وما معهم من الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

قال مجاهد: «فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ والسجيل فارسي معرب وهو الشديد الصلب القوي ﴿مَّنضُودٍ﴾؛ أي يتبع بعضها بعضًا في نزولها من السماء ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه»[(٣)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧١٥).

(٢) المرجع السابق (٧١٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ٤١٩-٤٢١).

والشاهد قوله: «أن جبريل قد اقتلعهن بطرف جناحه».

إذا استشعر الإنسان قوة الملائكة خشي من غضب الله عز وجل لأن الله قد يأمرهم وهو على كل شيء قدير.

ومما يدل على أن الإنسان إذا آمن بالملائكة ابتعد عن المعاصي:

قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ**»(١).

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرتني ميمونة أن رسول الله ﷺ أصبح يومًا واجمًا فقالت ميمونة: يا رسول الله! لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ جبريل كان وعدني أن يلقاني اللَّيلة فلم يلقني. أَمَ والله ما أخلفني**»، قالت: فظل رسول الله ﷺ يومه ذلك على ذلك. ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا قال: فأمر به فأخرج ثم أخذ بيده ماءً فنضح مكانه فلما أمسى لقيه جبريل، فقال له: «**قد كنت وعدتني أن تلقاني البارحة قال: أجل ولكنَّا لا ندخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ**»، فأصبح رسول الله ﷺ يومئذ فأمر بقتل الكلاب حتى إنه يأمر بقتل كلب الحائط الصغير ويترك كلب الحائط الكبير»(٢).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٥٩)، كتاب «بدء الخلق»/ باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء. رقم (٣٣٢٢)، ومسلم (٣/ ١٦٦٥)، كتاب «اللباس والزينة»/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفراش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا كلب. رقم (٢١٠٦).

(٢) مسلم (٣/ ١٦٦٤-١٦٦٥)، كتاب «اللباس والزينة»/ باب تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة عليهم السلام لا يدخلون بيتًا فيه صورة ولا كلب. رقم (٢١٠٥).

الخامسة: محبتهم:

محبةُ عباد الله أجرها عظيم بشّر بها النبي ﷺ بقوله: «**المرءُ مَعَ مَنْ أَحبَّ**»(١)، ومن ذلك محبتك للملائكة، **ومما يوجد في قلبك محبتهم أمور هي:**

١- طاعتهم لربهم سبحانه طاعة مطلقة لا يتخللها عصيان ولا تقصير فإذا استشعرت أنهم ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦]. أحببتهم لله.

٢- دعاؤهم لنا بالمغفرة والوقاية من العذاب كل يوم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر:٧].

٣- أنهم خير محض والخير كله جعل على أيديهم(٢).

٤- تبشيرهم للمؤمنين عند الموت في أصعب اللحظات وأحلك الأوقات عند فراق هذه الدنيا والإقبال على الآخرة وقد أصاب الإنسان من الخوف ما الله به عليم لا يدري ماذا يستقبله ولا يدري إلى أين يصير.

في هذه الحالة العصيبة إذا بالملائكة يطمئنونهم على مستقبلهم ويبشرونهم بجنات النعيم فيا لها من بشارة ويا لها من فرحة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت:٣٠-٣٢].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥٥٧)، كتاب «الأدب»/ باب علامة الحب في الله. رقم (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤)، كتاب «البر والصلة»/ باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٤١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٢٦).

٥- نصرتهم للمؤمنين على أعدائهم كنصرة ملك الجبال للنبي ﷺ حين آذاه قومه فجاءه فقال له: «**إن شِئتَ أنْ أُطبِقَ عَلَيهم الأخْشَبَيْنِ**» ونصرتهم للمؤمنين في بدر وحنين.

السادسة: المحافظة على العبادات والطاعات وذلك لما يلي:

١- أن الملك يحرك بواعث الخير في نفس المؤمن فينشط على الطاعة فيحافظ على العبادات والطاعات المشروعة.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأمّا لمة الشَّيطان فإيعاد بالشَّرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ، وأمّا لَمّة الملك، فإيعاد بالخيرِ وتصديقٌ بالحقِّ، فمنْ وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى؛ فليتعوّذ بالله من الشَّيطان الرجيم، ثم قرأ:** ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[1] [البقرة:٢٦٨]».

ويوضحه حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا آوى الرّجل إلى فراشه: ابتدرهُ ملكٌ وشيطانٌ، فيقولُ الملكُ: اختم بخيرٍ، ويقول الشّيطان: اختم بشرٍّ. فإن ذكر اللهَ، ثمَّ نام بات الملكُ يكلؤُه، فإذا استيقظ، ابتدره ملكٌ وشيطان، فيقول الملك: افتح بخير، وقال الشيطان: افتح بشرٍّ، فإن قال: الحمد لله الذي ردَّ عليَّ نفسي ولم يمتها في منامها، الحمدُ لله الذي يُمْسك السّموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ منْ بعده. الحمدُ لله الّذي يمسك السّماء أن تقع على الأرض إلَّا بإذنه، فإن وقع من سريره فمات، دخل الجنة**»[2].

---

(١) الترمذي (٥/ ٢١٩-٢٢٠)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب: «ومن سورة البقرة». رقم (٢٩٨٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (١٠/ ٣٧) رقم (١٠٩٨٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٧٨) رقم (٩٩٧)، وصحح أبو زرعة وقفه على عبد الله بن مسعود. «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٢/ ٢٤٤) رقم (٢٢٢٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٣/ ٣٢٦)، والنسائي في «الكبرى»(٩/ ٣١٥). رقم (١٠٦٢٣)، قال المنذري: «رواه أبو يعلى بإسناد صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/ ٤١٥-٤١٦).

ويشهد لهما قول رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلَّا وقد وكِّل به قرينه من الجنِّ وقرينه من الملائكة**»(١).

قال ابن القيم: «فإذا أَلَمَّ به الملك حدث من لمته الانفساح والانشراح والنور والرحمة والإخلاص والإنابة ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور»(٢).

٢- كتابتهم أعمالنا:

مما يعين العبد على فعل الطاعات استشعاره كتابتها قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٠-١٢].

وهم الذين يتعاقبون بالليل والنهار كما قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللَّيل وملائكةٌ بالنَّهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجر وصلاة العصر، ثمَّ يعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون**»(٣).

ولما عمشت عينا سعيد بن المسيب رحمه الله من كثرة البكاء قيل له ألا تخرج إلى العقيق فتمر الرياح على الأشجار والأزهار فإذا مرت عليها ثم مرت على عينيك شفيتا أجابهم بقوله: «من لي بشهود العتمة والصبح» يقصد الملائكة.

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٦٨)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب تحريش الشيطان وبث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينًا. رقم (٢٨١٤).

(٢) «التبيان في أيمان القرآن» (٦٣١).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٣)، كتاب «مواقيت الصلاة»/ باب فضل صلاة العصر. رقم (٥٥٥)، مسلم (١/ ٤٣٩)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها. رقم (٦٣٢).

فإذا استشعر المسلم شهود الملائكة وتعاقبهم وكتابتهم نشط في العمل الصالح.

٣- الاقتداء بهم في فعل الطاعات:

يوضحه قول المصطفى ﷺ لأصحابه: «**ألا تصفُّون كما تصف الملائكة عند ربِّها**». قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأُوَلَ، ويتَراصّون في الصّفِّ**»(١).

---

(١) مسلم (١/ ٣٢٢)، كتاب «الصلاة»/ باب الأمر بالسكوت في الصلاة. رقم (٤٣٠).

وكتبه.

....

الكتب لغة: مادة كتب: تدور حول الجمع والضم.

قال ابن فارس: «الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد، يدل على جمع شيء إلى شيء ومن ذلك الكتاب والكتابة»[١].

وقال شمر: كل ما ذكر أبو زيد في الكتب قريب بعضه من بعض وإنما هو جمعك بين الشيئين. وكتبت الكتاب كَتْبًا وكِتَابًا فالكتاب: اسم لما كتب مجموعًا[٢].

والإيمان بالكتب اصطلاحًا: هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل كتبًا على رسله الذين أرسلهم، وأنها كلامه تكلم بها حقيقة بيّن بها عقيدة التوحيد وما ارتضى لعباده من الدين.

أدلة الإيمان بالكتب:

دل على الإيمان بالكتب الشرع والعقل والحس.

١- الشرع:

تكاثرت الأدلة من الشرع على الإيمان بالكتب، ومن ذلك قوله تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يصرح بإيمانه بها لكونه قدوةً يقتدى به: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى:١٥].

والكتاب «اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن»[٣].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٥٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٥٠-١٥٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٥).

وجاء الأمر عامًا لجميع المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[النساء:١٣٦]، وغير ذلك من الآيات.

٢- العقل:

وذلك أنه لا بُدَّ للسائر إلى الله من كتاب يهديه ويرشده في سيره. إذ إنه لا يمكن وصول الإنسان إلى ما يريده إلا بمعرفة الطريق الموصل إليه.

ولذلك أنزل الله كتبه على رسله عليهم الصلاة والسلام لتكون نورًا ونبراسًا يهتدون بها في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم.

وهذه الحقيقة أكدها الله في كتابه حيث ذكرها مسبوقة بقد التي ورد بعدها فعل ماض ليدل على تحقيق هذا الأمر وتأكيده فقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

٣- الحس والواقع:

الواقع يدل أكبر دلالة على هذه الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى فها هو القرآن بين أيدينا يحفظه الأطفال في الكُتَّابِ ويقرؤه الأئمة في المحاريب وينتشر في المساجد والأسواق والبيوت. وكل الناس تعرف أنه القرآن كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم لا يختلفون في ذلك.

وأما التوراة والإنجيل فكذلك الناس يتداولون ذكرها بينهم وإن كان هذان الكتابان قد مستهما يد التحريف والتبديل ولكن الواقع يدل على أن لهما أصلًا قد أنزله الله تبارك وتعالى.

منزلة الإيمان بالكتب وحكمه:

للإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله منزلةٌ عظمى من الدين؛ فهو أصل الإيمان وركن عظيم من أركانه، ولهذا عظم تقريره في القرآن وتنوعت الأساليب في عرضه وبيانه **ومن ذلك:**

١- الإخبار عنه كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١-٢].

وقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود:١].

٢- ثناؤه جل وعلا على ذاته لأجل إنزاله الكتب. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

٣- ذكر القدوة في ذلك قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

٤- الأمر بالإيمان بها ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[البقرة:١٣٦].

٥- الثناء على المؤمنين بما أنزله الله قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾[آل عمران:١٩٩](١).

ومن ثم حكم الله بكفر من أنكر الكتب، ولم يؤمن بجميع ما فيها فقال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

وتوعد المكذبين بالكتب بعذاب عظيم في نار جهنم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾[غافر:٧٠-٧٢].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٨-٩).

وأكد خلودهم فيها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأعراف:٤٠].

الإيمان بالكتب يتضمن عدة أمور هي:

أولًا: الإيمان بأنها كلام الله أنزله على رسله:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾[الشورى:١٥].

وأثنى الله على الراسخين في العلم الذين آمنوا بما أنزل الله وأثبتوا كونها كلها من عند الله فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧] وقال عن القرآن: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦] وغير ذلك من الأدلة.

ثانيًا: الإيمان بما اتفقت عليه وما اختلفت فيه:

المتفق عليه بين الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى هو التوحيد فمعتقد الأنبياء كلهم واحد وهو إفراد الله بالعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

أما ما اختلفت فيه فهو الشرائع وذلك أن الله لكمال حكمته، شرع لكل قوم ما يناسبهم: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] أي سبيلًا وسنّة.

وجمع النبي ﷺ بين المتفق عليه والمختلف فيه في موضع واحد ليكون أوعى للفهم فقال: «**الأنبياء إخوةٌ لعلّات أُمّهاتهم شتّى ودينهم واحدٌ**»(١).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٣).

ومعنى العلات: أي الضرائر. وأولاد العلات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى ومعنى الحديث: «أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»(١).

ثالثًا: الإيمان بالكتب إجمالًا:

ومعنى ذلك هو الإيمان بجميع كتب الله تعالى التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام سواء عرفناها أو لم نعرفها.

وذلك أننا لا نعلم عدد الكتب ولكن نعلم أنه ما من رسول إلا معه كتاب كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾(٢) [الحديد:٢٥].

ومن الأدلة على وجوب الإيمان بالكتب إجمالًا:

أن الله أمر نبيه محمدًا ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾[الشورى:١٥].

قال البغوي: «أي آمنت بكتب الله كلها»(٣).

وأمر الله بذلك عموم المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[النساء:١٣٦].

قال السعدي: «أمر هنا بالإيمان به وبرسوله وبالقرآن وبالكتب المتقدمة فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل»(٤).

رابعًا: الإيمان بالكتب تفصيلًا.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «تفسير القرآن الكريم» (٢/ ٢٨٦).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ١٢٣).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠٩).

الإيمان بالكتب تفصيلًا هو الإيمان بما عرفنا اسمه منها وعلى أي رسولٍ أنزل:

١- **الصحف**: الصحف أنزلت على كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى:١٨-١٩].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾[الأعراف:١٤٥].

٢- **الزبور**: وهو الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[الإسراء:٥٥].

٣- **التوراة**: وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة:٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾[البقرة:٨٧]، والكتاب الذي أنزل الله على موسى هو التوراة بإجماع أهل العلم(١).

٤- **الإنجيل**: وهو الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾[المائدة:٤٦].

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الكتب كلها مسّتها يد التحريف، وذلك لأن الله استحفظها أهلها فضيعوها، وخانوا الأمانة فحرفوا كثيرًا منها وأخفوا منها ما أخفوا.

قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٧٥].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[النساء:٤٦].

---

(١) «أضواء البيان» (١/ ١٤٨-١٤٩).

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: إما بتغيير اللفظ أو المعنى أو هما جميعًا(١).

وقال تعالى مبينًا شدة تحريف أهل الكتاب لكتابهم: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٧٨].

ومما يدل على تحريف الكتب المتقدمة: تعدد نسخ التوراة وتناقضها، وتعدد الأناجيل وتناقضها(٢).

وأما إخفاؤهم كثيرًا مما في كتبهم فيدل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[المائدة:١٥](٣).

فما صدق القرآن مما في هذه الكتب صدقناه، وما كذبه كذبناه؛ لأننا علمنا يقينًا أنه ليس مما أنزله الله وما لم يرد في القرآن تصديقه ولا تكذيبه فنحن لا نصدقه ولا نكذبه(٤).

٥- **القرآن الكريم**: وهذا الكتاب أنزله الله على نبينا محمد ﷺ.

والإيمان بالقرآن غير الإيمان بسائر الكتب «إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به واتباعك ما فيه»(٥).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (١٨١)، وانظر: «جهود ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود» (٢٨٣-٣١٧)، و«موقف ابن تيمية من النصرانية» (١/ ١٨٠-١٨١).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، و«التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة»، و«جهود ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود» (٣١٩-٣٢٦)، و«موقف ابن تيمية من النصرانية» (١/ ١٨٧-٢٠٧).

(٣) وقد بين الشنقيطي بعضًا مما كانوا يخفون. انظر: «أضواء البيان» (٢/ ٥٧-٥٨).

(٤) لمعرفة الأمثلة على ذلك. انظر: «الإيمان» لنعيم الياسين (٦٨-٦٩).

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٩٣).

فالإيمان بالقرآن يتضمن أمورًا هي:

أ- أنه كلام الله تعالى أنزله على رسوله محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٦] وقال عن إنزاله له: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[يوسف:٢].

ب- الاعتراف بأنه معجز. قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨].

بل تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[يونس:٣٨].

جـ- اعتقاد أن جميع القرآن الذي توفي عنه النبي ﷺ هو الموجود في المصاحف وأنه لم يحرف، ولم يزد فيه ولم ينقص منه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤١-٤٢].

وذلك أن الله تبارك وتعالى تولى حفظه بنفسه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر:٩].

د- وجوب الإيمان بجميع ما فيه وأن من أنكر حرفًا من القرآن فقد كفر وهذا هو الذي عليه السلف قاطبة قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع»(١).

قال ابن عبدالبر: «وأجمع العلماء على أَنَّ ما في مصحف عثمان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحدٍ أن يتجاوزه ويبين لك هذا: أن من دفع شيئًا مما في مصحف عثمان كفر»(٢).

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٢/ ٢٣٢).

(٢) «التمهيد» (٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

هـ- وجوب النصيحة له:

وذلك بمحبته والتمسك به واتباعه ظاهرًا وباطنًا والقيام بحقه من الحفظ والتدبر والذب عنه والدعوة إليه قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام:١٥٥].

قال محمد بن نصر: «وأما النصيحة لكتاب الله: فشدة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، ثم شدة العناية في تدبره والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم له به بعد ما يفهمه، وكذلك الناصح من القلب يتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه كتاب منه عُنِيَ بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه، فكذلك الناصح لكتاب الله يُعْنَى بفهمه ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضى، ثم ينشر ما فهم من العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه»(١).

و- شموله لبيان كل شيء:

قال تعالى مبينًا شمول القرآن الكريم لبيان كل شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام:٣٨].

ز- هيمنته على الكتب السابقة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

والمهيمن هو الشاهد والحاكم على مَنْ كان قبله، وفي هذا دليل على أن مرتبة القرآن أعلى من جميع الكتب المنزلة(٢).

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٩٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٣).

قال ابن كثير: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها»[(١)].

وهيمنته عليها من وجود متعددة:

١- شهادته بصدقها وبكذب ما حرف منها.

٢- حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه.

٣- إقراره ما أخبرت به عن الله واليوم الآخر وزاد ذلك بيانًا وتفصيلًا وبيّن الأدلة والبراهين على ذلك.

فهو شاهد بالخبريات حاكم في الأمريات[(٢)].

٤- **تصديق أخباره**: يجب تصديق ما أخبر الله به من أمور سابقة قد وقعت أو أمور غائبة مستقبلة ستقع؛ قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥] أي صدقًا في أخباره عدلًا في أحكامه.

ثمرات الإيمان بالكتب:

للإيمان بالكتب ثمار عظمية منها:

١- معرفة فضل الله وجوده ورحمته بعباده وعنايته بهم فلم يترك الخلق هملًا بدون إرشاد وتعليم فأنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به.

٢- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ويلائمها قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٣-٤٤).

٣- الفرح العظيم بهذه الكتب الموجب لشكر الله على هذه النعمة قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨].

٤- سلوك الطريق المستقيم: هذه الكتب أنزلها الله لهداية الخلق إلى الطريق المستقيم الموصل إلى جنات النعيم وبدونها لا يمكن معرفة ذلك.

قال تعالى مبينًا أن القرآن كتاب هداية إلى أصوب الطرق: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

ومعنى ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: «أي أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره»(١).

وقال تعالى عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[المائدة:٤٤].

وقال سبحانه عن الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة:٤٦].

٥- دخول جنات النعيم: لما كان الاهتداء بالكتب سبباً لسلوك الطريق المستقيم وسلوك الطريق المستقيم سبب لدخول جنات النعيم. كان دخول الجنة من ثمرات الإيمان بالكتب، ولهذا بشر الله المهتدين بالقرآن بالأجر العظيم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٩].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥٤).

وَرُسُلِهِ.

....

الرسول لغة: مشتق من رَسَلَ وهو أصل يدل على الانبعاث[(١)].

قال الأزهري: الرسول معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه. أُخِذ من قولهم جاءت الإبل رَسَلًا أي متتابعة.

والرسول اسْم من أرسلْت وكذا الرسالةُ وسمي الرسول رسولًا لأنه ذو رسالة[(٢)].

وفي الاصطلاح: هو الاعتقاد الجازم بأَنَّ لله رسلًا من البشر أوحى إليهم بشرعه وأرسلهم إلى الناس لإرشادهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم.

أدلة الإيمان بالرسل:

دلت الأدلة من الشرع والعقل والحس على وجوب الإيمان بالرسل.

أولًا: الشرع:

تكاثرت الأدلة من الشرع على الإيمان بالرسل.

ومن ذلك قوله تعالى آمرًا بالإيمان بالرسل مبينًا عظيم أجر المؤمنين بهم فقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[آل عمران:١٧٩].

وامتن علينا بإرسالهم فقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[آل عمران:١٦٤].

ووضح الحكمة من إرسالهم فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[النساء:٦٤].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٩٢).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٣٩١-٣٩٤).

وأخبر عن تعاقب الرسل وتتابعهم عَبْرَ القرون فقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[المؤمنون:٤٤].

وأن عامة المكذبين للرسل المعاندين هم علية القوم المترفون فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[سبأ:٣٤].

وبين عقوبة من لم يؤمن بالرسل في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٤].

وندامة المكذبين لهم يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٢٧].

ثانيًا: العقل:

لما كان الناس يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون الطريق الموصل إلى رضا الرب جل وعلا ولا كيفية التقرب إليه. فلا بُدَّ لهم إذًا ممن يدلهم طريق الوصول إليه وكيفية عبادته والتقرب إليه. ويبين ثمرة تلك العبادة وما لهم عنده من النعيم المقيم. وهذا لا يمكن إلا عن طريق رسل يرسلهم الله إلى عباده ليعلموهم دينه الذي ارتضاه لهم.

قال ابن القيم: «والرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله عليهم أجمعين أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعووين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضرورة في كل ملة على لسان كل رسول»(١).

ثالثًا: الحس:

أرى اللهُ العباد رُسُلَهُ في هذه الدنيا، بل إنه خلقهم بشرًا منهم ليسهل اختلاطهم بهم

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٢).

واستفادتهم منهم والاقتداء بهم والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١- نوح عليه الصلاة والسلام يشاهده قومه يدعوهم إلى الله ويشاهدونه وهو يصنع السفينة، ثم يسخرون منه، ولا يؤمن به منهم إلا القليل، ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود:٣٨]. ويشاهدونه وهو يركب السفينة هو والمؤمنون معه فينجيهم الله من الغرق، ويحاور ابنه داعيًا إياه للركوب كي ينجو، ولكن الابن الشقي امتنع ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[هود:٤٢-٤٣].

٢- إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى التوحيد فلما لم يستجيبوا فكر كيف يقتلع حب الأصنام من قلوبهم فاهتدى إلى كسرها فيأتيه قومه ليخرج يوم العيد فيعتذر بالمرض فلما تأكد أن مكان الأصنام خلو من كل أحد وأن الناس مشغولون بعيدهم خرج إلى الأصنام وبيده الفأس فكسرها وأبقى أكبرها ليقول لهم: كبيرهم هو الذي كسرها غيرة على مقامه لعل قلوبهم أن تنفتح للحق.

فلما رجعوا يا لهول المفاجأة وجدوا أن آلهتهم مكسرة. فلأول وهلة ذهب ظنهم وحدسهم إلى إبراهيم عليه السلام وحده فقط. لأنه كان دائمًا يذكرهم ببطلانها ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء:٥٩-٦٠] فبدأ التحقيق مع إبراهيم عليه السلام في القضية: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، فأجابهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، فتحركت الفطرة الإيمانية ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ثم انتكسوا مرة أخرى. فقرروا إحراقه عليه الصلاة والسلام فجمعوا له الحطب الكثير ثم أضرموا النار فلما اشتد لهيبها ألقوه فيها ولكن الله القادر على كل شيء

جعلها بردًا وسلامًا عليه ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[الأنبياء:٦٨-٧٠].

٣- موسى عليه السلام تلده أمه في سنة القتل عند فرعون فتخفيه خشية أن يقتل ثم يقدر الله أن تفقده ولا تجده إلا في بيت الطاغية فرعون، فيحميه الله منه، فتعرض زوجته عليه أن لا يقتله لعله أن يكون ولدًا لهما فيتربى في بيت فرعون عزيزًا لا يذله أحد بخلاف حياة بني إسرائيل في مصر، ويخرج ذات يوم فيستنجد به إسرائيلي على قبطي فيقتل القبطي ثم يخرج إلى مدين فيتزوج هناك ويعود بزوجته بعد عشر سنوات رسولًا نبيًا يدعو أكبر طاغية في الأرض يومئذ، فيجمع الطاغية السحرة ويجتمع الناس يوم العيد، فألقى السحرة ما عندهم فسحروا الناس وأرهبوهم، وفي هذا المجتمع الكبير من الناس يلقي موسى عليه السلام عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فيبطل سحرهم فيؤمن به السحرة ويتحملون القتل في سبيل الله، وينتهي الموقف بنصر الله لموسى على أعدائه.

٤- أختم بذكر أفضل الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ حيث يشاهده الناس أمينًا لا يكذب حتى أحبوه وارتضوه أن يكون حكمًا بينهم مع صغر سنه عليه الصلاة والسلام، ثم ينزل عليه الوحي فيدعوهم إلى التوحيد فينابذونه العداء فيقابل عداءهم بالحلم ورباطة الجأش والقوة في الحق والصدع به.

ولما لم يجد مساغًا للدعوة إذا به يترك البلدة التي نشأ فيها وأحبها ويهاجر إلى طيبة الطيبة ويكون دولة عظيمة هدّت عروش الكافرين من الفرس والروم، ويخرج إلى بدر يريد العير فيقدر الله معركة فاصلة هي معركة بدر فيقودها النبي ﷺ ويلح على الله بالدعاء فينصره الله فيأسر من الكفار سبعين ويقتل مثلهم.

وهكذا كان يقود الغزوة تلو الغزوة حتى دانت له جزيرة العرب ويشاهده الناس وهو الزوج الحاني اللطيف في التعامل مع زوجاته، ويشاهدونه وهو يصلي به ويعظهم ويذكرهم.

وفي آخر المطاف شاهدوه وهو في النزع كما تقول عائشة ﵂: «مات بين حاقنتي وذاقنتي»[(١)].

وبعد ذلك كله فالمسلمون كلهم طوال التاريخ مجمعون على أنه مدفون ﷺ في بيت عائشة ﵂، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين.

فهذه كلها شواهد من الحس والمشاهدة على وجود الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ميزاتهم وصفاتهم:

من المعلوم أن الرسل هم خير الخلق وأن لهم ميزات يتميزون بها عن غيرهم ومن ذلك:

١- الاصطفاء: أي أن الله اختار من خلقه من يصلح لرسالته قال تعالى ذاكرًا اصطفاءه لهم على سبيل العموم: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾[الحج:٧٥].

في هذه الآية بيان لحالة الرسل وما تميزوا به من الفضائل «وأن الله يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا ومن الناس رسلًا يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا من صفوة الخلق على الإطلاق»[(٢)].

ولما اعترض المشركون على اصطفاء الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ ردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف:٣١-٣٢].

وخاطب بعضهم مانًّا عليه باصطفائه إياه فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[الأعراف:١٤٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٣٨)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٣٨).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٤٦).

وسر اصطفاء الرب رسله لحمل رسالته علمه سبحانه أنهم يصلحون لحملها قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام:١٢٤].

قال ابن القيم: «فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وميراثًا فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب إليه ومن لا يصلح لذلك»(١).

٢- البلاغ وعصمتهم فيه: جعل الله وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام إبلاغ دينه للناس وحثهم على الدخول فيه قال سبحانه: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[النحل:٣٥]. ومدحهم الله وأثنى عليهم به فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب:٣٩].

ولهذا كان الرسل عليهم السلام يحرصون على البلاغ أشد الحرص. فإذا لم يقبل قومهم وجاءهم العذاب حملوهم مسئولية أنفسهم.

ومن ذلك ما قاله صالح عليه الصلاة والسلام لقومه عندما حل بهم الهلاك: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٩].

ومثله شعيب عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾[الأعراف:٩٣].

أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد خطب في أعظم مشهد شهده صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ثم قال لأصحابه رضي الله عنهم: «**وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللَّهُمَّ اشهد، اللهمَّ اشهد**» ثلاث مرات(٢).

---

(١) «طريق الهجرتين» (٩٧) وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٣٦١).

(٢) مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢)، كتاب «الحج»/ باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم. رقم (١٢١٨).

والبلاغ لهدفين عظيمين هما:

١- إصلاح النفوس قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[الجمعة:٢].

٢- إقامة الحجة قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

وهم في البلاغ معصومون من الكذب على الله؛ وذلك أنهم أهل صدق في حياتهم كلها أولها وآخرها فلا يكذبون على الناس فكيف يتركون الكذب على الناس ثم يكذبون على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[الحاقة:٤٤-٤٥].

قال ابن حجر في شرح قول النبي ﷺ يوم حنين: «**أنا النَّبِيُّ لا كذبْ، أنا ابنُ عبد المطّلب**»[(١)]، أما قوله: «لا كذب ففيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب»[(٢)].

وذلك بإجماع أهل العلم، فإن أهل السنة «متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى وهذا هو مقصود الرسالة»[(٣)].

٣- العصمة من الكبائر:

جميع الأنبياء معصومون من الوقوع في كبائر الذنوب بإجماع أهل العلم. قال شيخ

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٧-٢٨)، كتاب «المغازي»/ باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. رقم (٤٣١٥، ٤٣١٦).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٣١).

(٣) «منهاج السنة» (١/ ٤٧٠-٤٧١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٩).

الإسلام: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام... بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»(١).

٤- البشرية: فجميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشر من بني آدم كلهم من ذرية نوح وإبراهيم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾[الحديد:٢٦].

ولما اعترض المشركون على الرسل بحجة أنهم بشر والبشر لا يصلحون للرسالة لم ينكر الرسل أنهم بشر بل أثبتوها كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[إبراهيم:١٠-١١].

أي صحيح أنا بشر مثلكم ولكن الله منَّ علينا بوحيه ورسالته.

بل وأمر الله أفضل الرسل أن يعترف بأنه بشر لكن فضله الله عليهم بالوحي والرسالة فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[الكهف:١١٠].

فاعترف به النبي ﷺ قائلًا: «**يا أُمَّ سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطتُ على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بشرٌ أرضى كما يرضى البشر، وأغضبُ كما يغضب البشر، فأيُّما أحد دعوت عليه من أُمَّتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن يجعلها له طهورًا وزكاةً وقربةً يقرّبه بها منه يوم القيامة**»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٩٠-٢٠١٠)، كتاب «البر والصلة»/ باب من لعن النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلًا لذلك: كان له زكاة وأجرًا ورحمة. رقم (٢٦٠٣).

ويعرض لهم ما يعرض للبشر فيأكلون ويشربون ويناMون ويمرضون ويموتون ويحيون ويتزوجون ويرزقون بالذرية ويبتلون فيسجنون، وربما يقتلون، **ومن الأدلة على ذلك ما يلي:**

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[الشعراء:٧٩-٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد:٣٨].

أما السجن كسجن يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[يوسف:٤٢].

أما القتل فبينه الله بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧].

وقوله تعالى عن موت الرسل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران:١٤٤].

أما البلاء والابتلاء، فيدل له جواب رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما سأله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثُمَّ الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينهِ صلبًا: اشتدَّ بلاؤُه، وإن كان في دينه رقّة ابتُلي على حسبِ دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرضِ وما عليهِ خطيئة»**[1].

(١) أحمد (١/ ١٧٣-١٧٤)، والترمذي (٤/ ٦٠١-٦٠٢)، كتاب «الزهد»/ باب ما جاء في الصبر على البلاء. رقم (٢٣٩٨)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أبي هريرة، وأخت حذيفة بن اليمان»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٤)، كتاب «الفتن»/ باب الصبر على البلاء. رقم (٤٠٢٣).

الحكمة في كون الرسل بشرًا:

تتجلى الحكمة في كون الرسل بشرًا بما يلي:

أ- أن الداعي إذا كان من جنس المدعووين كان أقدر على توجيههم وكانوا أقرب إلى قبول دعوته والاقتداء به.

ولهذا لما امتنع المشركون عن قبول دعوة الرسل بحجة كونهم بشرًا مثلهم وأن الله لو أرسل لهم ملائكة لآمنوا أجابهم الله بأنهم لو كانوا ملائكة لنزل إليهم ملائكة من جنسهم، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥].

ب- أنه أعظم في الابتلاء والاختبار كما في الحديث القدسي: أن الله تعالى قال لنبيه محمد ﷺ: «**إنَّما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك**»(١).

أي «لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة وغير ذلك من الجهاد في الله حق جهاده والصبر في الله تعالى وغير ذلك، وابتلي بك من أرسلتك إليهم فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته ومن يتخلف ويتأبد بالعداوة والكفر ومن ينافق»(٢).

ج- أن في هذا إكرام لمن سبقت لهم من الله الحسنى.

٥- أنهم كلهم رجال:

ويدل لكونهم كلهم رجال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[الأنبياء:٧].

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٩٧)، كتاب «صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها»/ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. رقم (٢٨٦٥).

(٢) «شرح النووي» لمسلم (١٧/ ١٩٨).

وذلك لحكم عظيمة منها:

أ- أن جنس الرجال أفضل من جنس النساء والرسل يبعثون من أفضل الناس.

ب- أن الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه وهذه لا تتأتى في النساء من حيث ضعفهن ومن حيث استنكاف كثير من الرجال عن ذلك.

جـ- أن الرسالة لها تبعات لا تستطيعها المرأة من مقابلة الرجال وإعداد الجيوش والجهاد ومواجهة المكذبين ومخاصمتهم.

د- أن المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من وظائفها ومهماتها(١).

٦- أنهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

يدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله! تنام قبل أن توتر؟ قال: «**تنام عيني ولا ينام قلبي**»(٢).

وحديث أنس حيث قال: «والنبي نائمة عيناه ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»(٣).

٧- التخيير عند الموت:

كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يخيرون عند الموت بخلاف غيرهم كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبيٍّ يمرضُ إلَّا خُيِّرَ بين الدُّنيا والآخرة**»، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعته يقول: «**مع الَّذين**

---

(١) انظر: «الرسل والرسالات» (٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٧٩)، كتاب «المناقب»/ باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. رقم (٣٥٦٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٧٩)، كتاب «المناقب»/ باب كان النبي ﷺ تنام عيناه، ولا ينام قلبه. رقم (٣٥٧٠).

أنعمَ اللهُ عليهم من النَّبيين والصّديقينَ والشهداء والصالحين»، فعلمت أنه خُيِّر»(١).

٨- الدفن حيث يموت:

بينه النبي ﷺ بقوله: «**لن يقبر نبِيٌّ إلَّا حيثُ يموت**»(٢).

وآخرهم نبينا محمد ﷺ دفن حيث مات في بيت عائشة ﵂.

قال ابن كثير: «قد علم بالتواتر أنه ﷺ دفن في حجرة عائشة التي كانت تختص بها شرقي مسجده من الزاوية الغربية القبلية من الحجرة»(٣).

٩- تحريم أجسادهم على الأرض:

وذلك: «**أنَّ اللهَ ﷿ حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء**»(٤).

منزلة الإيمان بالرسل وحكمه:

للإيمان بالرسل منزلة عظمى في الإسلام تتضح فيما يلي:

١- أن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام أحد أركان الإيمان العظام التي يجب على المرء المسلم أن يعتقدها في قرارة قلبه مع القيام بمقتضى ذلك الاعتقاد. ولقد قرنه الله

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥٥)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. رقم (٤٥٨٦).

(٢) أحمد (١/ ٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥/ ٤٦).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٥٣)، وانظر: «الاستذكار» (٨/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٤) أبو داود (١/ ٦٣٥)، كتاب «الصلاة/ باب فضل صلاة الجمعة وليلة الجمعة. رقم (١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ٩١-٩٢)، كتاب «الجمعة»/ باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، وابن ماجه (١/ ٣٤٥)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»/ باب في فضل الجمعة. رقم (١٠٨٥)، وصححه ابن خزيمة وغيره. «فتح الباري» (٦/ ٤٨٨)، قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». «رياض الصالحين» (٤٤٩-٤٥٠) رقم (١٤٠٧)، وقال الألباني: «إسناده صحيح، وقد صححه جماعة». «مشكاة المصابيح» (١/ ٤٢٩-٤٣٠).

تعالى بالإيمان به في آي من كتابه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وأوجب الإيمان بهم جميعًا من لدن نوح إلى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، فقال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ ثم عمم الإيمان بهم جميعًا من دون تفريق بينهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٦].

ووعد المؤمنين بجميع الرسل من غير تفريق بينهم بالأجر العظيم مع المغفرة والرحمة فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٥٢]. وحكم بالكفر الأكبر على من فرق بينهم فآمن ببعضهم وكفر ببعض فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء:١٥٠-١٥١].

فدلت هذه الآية على أنّ كفرَهُم أكبر من أربعة أوجه:

أ- ضمير الفصل (هم)، وضمير الفصل يفيد الاختصاص.

ب- ذكر الكفر: معرفًا بالألف واللام، وفي هذا دلالة واضحة على أنه الكفر الأكبر.

ج- تأكيده بقوله ﴿حَقًّا﴾ أي أن كفرهم كائن لا محالة.

هـ- توعدهم بالعذاب المهين: والتوعد بالعذاب المهين لا يكون إلا في حق الكفار الخارجين عن الملة والدين.

ومما ينبغي أن يؤكد عليه أن من كفر بواحد من الرسل وكذّبه فقد كفر بهم كلهم وكذبهم جميعًا فمن آمن بموسى عليه السلام وكفر بعيسى فهو كافر، ومن آمن بموسى وعيسى ولم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر ويدل له وصف الله قوم نوح بأنهم مكذبون لجميع الرسل مع أنهم لم يروا إلا نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء:١٠٥].

ويعلل ابن كثير سبب الكفر فيقول: «الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبيّن أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًا؛ إنما هو عن غرض وهوى وعصبية»[١].

وعلى هذا أجمع أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المسلمون متفقون على كفر من أقر نبوة بعضهم دون بعض»[٢].

٢- شدة الحاجة إليهم:

الحاجة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام والضرورة إليهم فوق كل حاجة وضرورة لأنه لا سبيل إلى معرفة الحق الموصل للسعادة الدنيوية والأخروية إلا عن طريقهم بمعرفة ما جاؤوا به من الهدى والنور. قال شيخ الإسلام: «الدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، ثم استدل بقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣] [الشورى:٥٢].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣٧٣).

(٢) «منهاج السنة» (٦/ ٤٣٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٩/ ٩٣-٩٤).

فسمى الله ما جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿رُوحًا﴾ «لتوقف الحياة الحقيقية عليه فلا روح إلا فيما جاؤا به، ونورًا لتوقف الهداية عليه، فلا نور إلا في الاستضاءة به»(١).

وتتضح شدة الحاجة إلى الرسل بأمرين:

أ- عدم استغناء الإنسان عن دين الله طرفة عين:

فالناس بحاجة إلى معرفة ما جاءت به الرسل بعدد أنفاسهم وحركاتهم، ومن أحسن من صوّر هذه الحاجة إلى الرسل ابن القيم حيث قال: «الضرورة إليهم -أي الرسل- أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم»(٢).

ب- المقارنة بين الحاجة إلى ما جاء به الرسل وبين غيره:

بون شاسع وفرق بعيد بين الحاجة إلى ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام وبين الحاجة إلى غيرهم، بل لا مقارنة بينهم، ولكن على سبيل التقريب والإيضاح فقط.

من المعلوم حاجة الناس إلى الطب ومع ذلك فكثير منهم يعيشون بلا أطباء بل إن أهل البادية والريف أصح أبدانًا وأقوى طبيعة ممن هم في المدن التي يوجد فيها الأطباء، فالناس يعيشون بدون طبيب لكنهم لا يمكن أن يعيشوا ويسعدوا بدون ما جاءت به الرسل.

وأما الطعام والشراب والتنفس فغاية ما يقدر في عدمها هو موت البدن، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد وشتان بين هذا وهلاك

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٢) بشيء من التصرف.

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٦٩).

البدن بالموت[1] وذلك أن موت القلب نتيجته شقاء الأبد، وأما موت البدن فهو انتقال من دار إلى دار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[البقرة:١٩١]، وقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[البقرة:٢١٧]. فمن مات على الإيمان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا. ومن مات على الكفر شقي شقاوة لا سعادة معها.

كيفية الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل يتضمن عدة أمور هي:

١- الإيمان بهم إجمالًا:

وهو الإيمان بجميع من أرسله الله، وأنهم صادقون مصدقون، وأنهم بلغوا جميع ما أنزل إليهم سواء عرفناهم أم لم نعرفهم لأن الله لم يخبرنا بأسماء جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[النساء:١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨].

قال الإمام محمد بن نصر بعد أن ذكر الإيمان المفصل: «وتؤمن بأن لله سواهم رسلًا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم»[2].

٢- الإيمان بهم تفصيلًا:

وهو الإيمان بجميع ما وصلنا عنهم ومن ذلك:

أ- من عرفنا اسمه وكتابه وقومه:

- إبراهيم عليه السلام كتابه (الصحف) كما قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[الأعلى:١٩] وقومه هم صابئة حران.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٩٣).

- موسى عليه السلام -كتابه التوراة- أرسله الله إلى فرعون وقومه وبني إسرائيل.

- داود عليه السلام -كتابه الزبور- أرسله الله إلى بني إسرائيل.

- عيسى عليه السلام -كتابه الإنجيل- أرسله الله إلى بني إسرائيل.

- محمد صلى الله عليه وسلم -كتابه القرآن- أرسله الله إلى الناس كافة.

ب- من عرفنا اسمه وقومه ولم نعرف كتابه ومن ذلك:

- هود عليه السلام أرسله الله إلى قومه عاد.

- صالح عليه السلام أرسله الله إلى ثمود.

- شعيب أرسله الله إلى أهل مدين.

ب- من عرفنا اسمه فقط:

كنوح وإدريس وإسماعيل وإلياس وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

وجمع أحدهم من ذكر في القرآن في بيتين هما:

في تلك حجتنا[1] منهم ثمانية ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ ويبقى سبعةٌ وَهُمُ

إدريسُ هودُ شعيبٌ صالحٌ وكذا ... ذو الكفل آدمُ بالمختار قَدْ خُتموا

بقي واحد قد ورد ذكره في القرآن، ولكن الناظم لم يذكره وهو الخضر عليه السلام، ومما يدل على أنه رسول يوحى إليه ما ذكره الله عنه من قتل الغلام وخرقه السفينة وإصلاحه الجدار ثم قال بعد ذلك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[الكهف:٨٢] ففي هذه الآية أوضح دليل على رسالته؛ لأن الذي لا يفعل عن أمره في مثل هذه الحال يفعل عن أمر الله رب العالمين.

وقول الخضر لموسى عليهما السلام: «إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت

(١) سورة الأنعام (٨٣-٨٦).

على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه»[١].

٣- الإيمان بأن رسالاتهم حق من عند الله تعالى - وذلك لأن من آمن بصدق الرسول آمن بصحة ما أخبر به وصدقه في كل ما يقول.

٤ - الإيمان بتفاضلهم:

فضل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام على غيرهم من الناس. وجعل بعضهم أفضل من بعض فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[الإسراء:٥٥].

وأفضلهم أولو العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام[٢] قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب:٨].

قال أبو حاتم: «أَجْمَلَ النبيين ثم قال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، فأفردهم تفضيلًا لهم على سائر الأنبياء»[٣].

محمد إبراهيم موسى كليمه   فعيسى فنوحٌ هم أولو العزم فاعلم

وأفضلهم الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما السلام: لقوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى قد اتَّخذني خليلًا كما اتَّخذ إبراهيم خليلًا**»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٣١-٤٣٣)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. رقم (٣٤٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٤٧-١٨٥٠)، كتاب «الفضائل»/ باب من فضائل الخضر عليه السلام. رقم (٢٣٨٠).

(٢) «معالم التنزيل» (٦/ ٣٢٠)، «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٦١-١٦٢).

(٣) كتاب «النخل» (٤٠)، نقلًا عن «مباحث المفاضلة في العقيدة» (١٣٥)، وانظر: «طريق الهجرتين» (٢٤٩-٢٥٠).

(٤) مسلم (١/ ٣٧٧) كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ=

والخلة مرتبة عالية لم يبلغها أحد قبل إبراهيم عليه السلام ولا بعده إلا نبينا محمد ﷺ.

ومعنى الخلة في اللغة: هي الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله أي في باطنه[١] ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء:١٢٥].

ومنه قول بشار:

قَـدْ تَخَلَّلْـت مَـسْلَكَ الـرُّوحِ مِنِّـي وَبِـهِ سُـمِيَ الخَلِيـلُ خَلِـيلًا[٢]

وفي الاصطلاح: هي كمال المحبة ونهايتها التي لا يبقى معها سعة لغير المحبوب[٣].

وعرفها شيخ الإسلام فقال: «الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب»[٤].

فالخُلةُ أخص من مطلق المحبة وذلك أن المحبة يجوز فيها الاشتراك، وأما الخلة فلا تقبل الشركة والمزاحمة لتخللها المحب. ففيها كمال التوحيد وكمال الحب.

يوضح ذلك أن النبي ﷺ أثبت محبته لأصحابه كما في قوله لمعاذ: «**والله إنِّي لأحِبُّكَ**»[٥]، ولما سأله عمرو بن العاص أي الناس أحب إليك. قال: «**عائشة**» فقلت: ومن الرجال؟ قال: «**أبوها**». قلت: ثم من؟ قال: «**عمر بن الخطاب، فعد رجالًا**»[٦]. وقال

الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣٢).

(١) «لسان العرب» (١١/ ٢١٧).

(٢) «ديوان بشار بن برد» (٥٧٨).

(٣) انظر: «الجواب الكافي» (١٣٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) البخاري مع الفتح (٧/ ١٨)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا». رقم (٣٦٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٥٦)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. رقم (٢٣٨٤).

ﷺ: «**آية الإيمان حبُّ الأنصار**»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال: «**والذي نفسي بيده، إنكم أحب الناس إليَّ**». مرتين»(٢).

ولما كانت الخلة لا تقبل المشاركة والمزاحمة نفى النبي ﷺ خلة أحد غير الله فقال: «**إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا**»(٣).

وذلك لأن «الخلة تستلزم كمال المحبة واستيعاب القلب»(٤).

وأفضلهم على الإطلاق نبينا محمد ﷺ ويدل لذلك ما يلي:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب: ٧].

وجه الدلالة: أن تقديمه في الذكر على أولي العزم عليهم الصلاة والسلام مع أنه آخرهم ميلادًا ورسالة، يدل على أفضليته عليهم(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١١٣)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حب الأنصار من الإيمان. رقم (٣٧٨٤)، ومسلم (١/ ٨٥)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان. رقم (٧٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٧/ ١١٤)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب قول النبي ﷺ للأنصار: «أنتم أحب الناس إليَّ» رقم (٣٧٨٦).

(٣) مسلم (١/ ٣٧٧)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣٢).

(٤) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٥٢). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٧-٦٩).

(٥) ولا يرد علينا تقديم نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ =

(ب) قوله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»، وفي لفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»(١)، وقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(٢)، يدل على أنه ﷺ أفضلهم لأَنَّ من لازم السيادة الأفضليةَ.

(ج) قوله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: ومن أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك**»(٣). فكونه ﷺ أول من تفتح له الجنة دليل على أفضليته على جميع الناس.

قال الإمام أحمد: «إن بعض النبيين أفضل من بعض ومحمد ﷺ أفضلهم»(٤).

وقد أجمع المسلمون على ذلك وممن نقل الإجماع على أفضليته الإمام ابن بطة حيث قال بعد ذكره للمقدمة: «وعلى إثر ذلك شرح السنّة من إجماع الأئمة، واتفاق الأمة، وتطابق أهل الملة -إلى أن قال عن نبينا محمد ﷺ-: هو أشرف الأنبياء مقامًا وأعلاهم مكانًا وأقربهم إلى الله عز وجل وأحبهم إليه»(٥).

٥- الإيمان بوجوب طاعتهم واتباعهم:

أمر الله بطاعة رسله فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[النساء:٦٤] والأمر يقتضي الوجوب فيجب على كل قوم رسول اتباعه وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه،

= أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ ﴾ [الشورى:١٣]؛ لأن المقصود هنا ذكر الشريعة التي بعثوا بها، ومعلوم أن شريعة نوح عليه السلام هي الأولى.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (٣/ ٢١)، والترمذي (٥/ ٥٨٧)، كتاب «المناقب»/ باب فضل النبي ﷺ. رقم (٣٦١٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وقال ابن كثير: «ثبت بالتواتر». «البداية والنهاية» (٢/ ١٤٢).

(٣) مسلم (١/ ١٨٨)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٧).

(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٠٦).

(٥) «الشرح والإبانة» (٢٥٠) وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٤٥).

وبهذا أمر الرسل أقوامهم كما ذكر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب ولوط أن كلًا منهم قال لقومه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[الشعراء:١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩] وقد أجمع أهل العلم على وجوب طاعتهم كما نقل ذلك شيخ الإسلام فقال: «وقد اتفق المسلمون على أنه ليس من المخلوقين أحد أمره حتم على الإطلاق إلا الرسل»[(١)].

وبعد بعثة النبي محمد ﷺ ونسخه لكل الأديان وجب على جميع الناس طاعته واتباعه والعمل بشريعته فقط قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥].

وقال تعالى آمرًا بطاعته: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[الحشر:٧].

ومحذرًا مغبة معصيته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال:٢٤].

ثمرات الإيمان بالرسل:

ثمرات الإيمان بالرسل عليهم الصلاة السلام كثيرة، منها:

١- العلم برحمة الله وعنايته بعباده:

حيث أرسل إليهم رسله ليهدوهم إلى الطريق الصحيح ويبينوا لهم كيف يعبدون ربهم وإلههم. ولو تركوا لعاشوا ضلالًا حيارى ولهذا قال الله تعالى ممتنًا بهذه النعمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

٢- شكر الله تبارك وتعالى:

وهب الله عباده النعم فضلًا منه وتكرمًا فما بنا من نعمة إلا منه قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[النحل:٥٣] ومن كثرتها لا يستطيع العبد عدّها ولا إحصاءها ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[النحل:١٨].

---

(١) «بغية المرتاد» (٤٩٥).

وأعظم هذه النعم هي نعمة الإسلام والاهتداء إليه، ولذلك جاء الأمر بالفرح بها وحدها فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨].

ومن المعلوم أن الشرائع لا يمكن أن نعرفها إلا بواسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام: «فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى ولا كانت له شريعة في الأرض»(١).

وهذا يستوجب منا شكر الله على هذه النعمة العظيمة قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة:١٥٢].

والشكر يكون بطاعته سبحانه بفعل أوامره واجتناب نواهيه وأعلى وأعظم أوامره هو إفراده بالعبادة.

٣- محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام:

محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام من أَجَلِّ أعمال القلوب وأفضل شعب الإيمان. ولا توجد حلاوة الإيمان إلا بها قال ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممَّا سواهما..**»(٢).

كيف لا نحبهم والله اختارهم واصطفاهم ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج:٧٥] فهم خير الناس إيمانًا وعملًا ونصحًا وشفقة على أممهم، فصلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) «الصارم المسلول» (٢٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

٤ - حياة الذكر بعد الموت:

الرسل عليهم الصلاة والسلام تحملوا التهم والسب والشتم من أقوامهم لأجل الله، فبقي ذكرهم الحسن مع الناس بينما قطع الله ذكر مبغضيهم.

وكذلك محبو الرسل الذين آمنوا بهم وأحيوا سننهم يبقى ذكرهم مع الناس كما قال أبو بكر بن عياش: «أهل السنة يموتون ويحيى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم. لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح:٤] وأهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرسول ﷺ، فكان لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]»[١].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٢٨).

واليوم الآخر.

....

اليوم الآخر لغة: (أخر) الهمزة والخاء والراء أصل واحد صحيح وهو خلاف التقدم[(١)].

قال الليث: «الآخر والآخرة نقيض المتقدم والمتقدمة»[(٢)].

قال الراغب: «آخر يقابل به الأول»[(٣)] فالآخرة تقابل الدنيا.

وسمي اليوم الآخر: لأنه آخر الأزمنة المحدودة[(٤)] أو لأنه لا يوم بعده[(٥)].

اصطلاحًا: هو ما يقع بعد الموت من أحوال البرزخ والقيامة ومآل الناس بعد ذلك[(٦)].

كيفية الإيمان باليوم الآخر:

الإقرار الجازم بجميع مراحله وتفاصيله التي ورد بها الخبر إقرارًا موجبًا للعمل لذلك اليوم.

ومراحل اليوم الآخر تبدأ بالبرزخ، والبرزخ هو الحاجز بين الشيئين فهو حاجز بين الدنيا وبين القيامة والبعث وما بعدها. قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]، ثم بعد البرزخ البعث قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٧٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٧/ ٥٥٦).

(٣) «المفردات» (٢٣).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١١٨).

(٥) «رسائل في العقيدة» للعثيمين (٢٩).

(٦) ويلحق بذلك أشراط الساعة لارتباطها بها ودلالتها عليها.

﴿تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٦] ثم بعد البعث الحشر وتطاير الصحف والحساب والميزان ثم المرور على الصراط فمكردس في النار وناج مسلم قد تجاوز النار إلى الجنة، وهي نهاية المطاف لأهل السعادة.

المراحل التي يمر بها الناس:

يمر الناس بمراحل جزء منها في الدنيا وجزء منها في الآخرة:

فأما ما كان منها في الدنيا فهي:

١ - **العدم**: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان:١].

٢ - **وجوده في بطن أمه**: قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾[الزمر:٦].

٣- **خروجه من بطن أمه إلى هذه الحياة**: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[النحل:٧٨].

أما ما كان منها في الآخرة فهي:

١ - لبث الناس ومكثهم في البرزخ، قال تعالى ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٠٠]. ويقرر هذه الحقيقة نبينا محمد ﷺ فيقول: «**إنَّ القبرَ أولُ منازل الآخرة**»(١).

٢- يوم القيامة وما فيه من البعث والأهوال: قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٦].

(١) الترمذي (٤/ ٥٥٣-٥٥٤)، كتاب «الزهد». رقم (٢٣٠٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٦)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر القبر والبلى. رقم (٤٢٦٧)، وحسن إسناده الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٤٨).

٣- الاستقرار إما في الجنة أو النار: قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر:٤٨].

وقال عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٧].

وهذه هي آخر المراحل.

أدلة الإيمان باليوم الآخر:

تظافرت أدلة اليوم الآخر شرعًا وعقلًا وحسًا حتى صارت لا تحصى إلا بكلفة ومشقة وإليك شيء منها:

أولًا: أدلة الشرع:

كل ما ورد في القرآن والسنة في ذكر البرزخ والنفخ في الصور وأهوال يوم القيامة وما يحدث فيه، والجنة والنار فهو دليل على اليوم الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

«قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر»[١].

وجعل الله الإيمان باليوم الآخر من البر فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[البقرة:١٧٧].

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**من كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ؛ فلا يؤذِ جارهُ، ومنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه، ومن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرا أو ليصمت**[٢]».

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٤٥)، كتاب «الأدب»/ باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. =

٢- العقل:

دل العقل على اليوم الآخر من وجهين:

الوجه الأول: أن الناظر إلى واقع الحياة البشرية يرى ظلمة جبابرة طغاة قد ملكوا القصور والأموال وتربعوا على العروش وساموا عباد الله الخسف والذل والهوان فهتكوا أعراضهم وسلبوا أموالهم وأزهقوا أرواحهم، بل وفتنوهم عن دينهم بأشد ألوان التنكيل والتعذيب.

وفي الوقت نفسه لا يستطيع أولئك الضعفة المظلومون أخذ حقهم ممن ظلمهم ولا الاقتصاص منهم.

فهل يعقل أن يموت هؤلاء وأولئك وتكون هي النهاية لا يقتص للمظلوم من ظالمه. لا بُدَّ إذًا من يوم يقتص فيه الرب من الظالم للمظلوم وهو اليوم الآخر.

وقد بين الله ذلك وأوضحه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[البروج:١٠].

لما أحرق المشركون المؤمنين بنار الدنيا كان جزاؤهم إحراق أجسادهم بالنار يوم القيامة انتقامًا من الله لعباده المؤمنين وقصاصًا ممن ظلموهم.

وبينه رسوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري حين قال: «**إذا خلص المؤمنون من النّار، حُبِسُوا بقنطرةٍ بين الجنَّة والنّار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدُّنيا حتَّى إذا نقُّوا وهُذِّبُوا أذن لهم بدخولِ الجنةِ**»(١).

= رقم (٦٠١٨)، ومسلم (١/ ٦٨)، كتاب «الإيمان»/ باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان. رقم (٤٧).

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٩٦)، كتاب «المظالم»/ باب قصاص المظالم. رقم (٢٤٤٠).

بل إن القصاص من الظالمين لا يقتصر على الإنس والجن فقط بل يمتد إلى كل ظالم حتى وإن كان مما لا يعقل كالبهائم والدواب. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتَّى يقاد للشّاة الجلحاءِ من الشّاة القرناءِ**»[١].

ولما رأى النبي ﷺ شاتين تنتطحان وعنده أبو ذر، قال له: «**يا أبا ذر! هل تدري فيم تنتطحان؟**» قال: لا، قال: «**لكنَّ اللهَ يدري وسيقضي بينهما**»[٢].

فإذا كانت البهائم التي لا تعقل يُقتص من بعضها لبعض فكيف بمن ركب فيه العقل الذي هو مناط التكليف.

الوجه الثاني:

الناس في هذه المعمورة فريقان فريق استكبر على ربه وأبى أن يعبده ويطيعه، وأطلق لنفسه العنان ترتكب ما تشتهيه من ظلم وعصيان، لا يزجره زاجر ولا يردعه رادع.

وفريق آخر استقام على دين الله عز وجل فالتزم أوامره ففعل ما أمر به وانتهى عما نهي عنه راضية بذلك نفسه كل همه إرضاء ربه قد أعرض عن لذات الدنيا ومتاعها.

ويموت هؤلاء وأولئك فهل يمكن أن يكون الموت هو نهايتهم فيستوي المحسن والعاصي والمؤمن والكافر والطائع والعاصي والصالح والفاجر.

كلا بل لا بُدَّ من يوم يكرم الله فيه الطائعين ويعاقب فيه العاصين، وهذا هو مقتضى الحكمة ولهذا استنكر الله التسوية بينهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١].

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٧)، كتاب «البر والصلة»/ باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٨٢).

(٢) أحمد (٥/ ١٦٢)، قال ابن كثير: «هذا إسناد جيد حسن». «البداية والنهاية» (٢٠/ ١٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٥-٣٦].

ثالثًا الحس:

عندما يشتد الحرّ ويحس به الناس يهرعون مسرعين لتخفيف وقْعِه على نفوسهم وأجسادهم بجميع وسائل التبريد، وكذلك عندما يشتد البرد ويحس الناس بشدة برده القارس يبحثون عن وسائل التدفئة لعلها تخفف عنهم ما يجدون.

وفي هذا أكبر دلالة على اليوم الآخر فكلما اشتد الحر تذكر الناس النار ولهيبها وكلما اشتد البرد تذكروا النار وزمهريرها، وذلك أن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين هما شدة الحر وشدة البرد كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**اشتكت النّارُ إلى ربِّها فقالت: يا ربِّ! أكل بعضي بعضًا فأذن لي أتنفّس، فأذن لها بنفسينِ، نفس في الشّتاء ونفس في الصَّيف، فما وجدتم من بردٍ أو زمهريرٍ فمن نفسِ جهنّم، وما وجدتم من حرٍّ أو حرورٍ فمن نفس جهنَّم**»، وفي رواية: «**فأذن لها في كُلِّ عامٍ بنفسين**»(١).

منزلة الإيمان باليوم الآخر وحكمه:

تتجلّى منزلة الإيمان باليوم الآخر بأمور هي:

١- كونه ركنًا من أركان الإيمان وأصل من أصوله لا يصح الإيمان بدونه:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[البقرة:١٧٧].

وفي حديث جبريل المشهور وفيه قوله ﷺ لجبريل عندما سأله عن الإيمان: «**أن تؤمن**

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣٠)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم (٣٢٦٠)، ومسلم (١/ ٤٣١-٤٣٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر. رقم (٦١٧) واللفظ له.

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليّوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه»[١]. وغير ذلك من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة.

فالتوحيد والإيمان بالآخرة متلازمان كما أن الشرك وعدم الإيمان بالآخرة متلازمان ويدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزمر:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[فصلت:٦-٧].

٢- أن من كذب به فقد كفر وخرج من ملة الإسلام[٢]:

ومما يدل على كفره حبوط عمله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤٧﴾[الأعراف:١٤٧].

حبطت أعمالهم: «لأنها على غير أساس، وقد فقدت شرطها وهو الإيمان بآيات الله والتصديق بجزائه»[٣].

وشدة ضلاله: قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١٣٦].

فلا ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم وسلك الطريق الموصلة إلى العذاب الأليم قال السعدي: «واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الشرح والإبانة» لابن بطة (٢٠١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٣).

(٤) المرجع السابق (٢٠٩).

بل وصرح الله بكفر من لم يؤمن باليوم الآخر، فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الرعد:٥].

٣- كثرة ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله:

عظم الله الإيمان باليوم الآخر ورفع منزلته فقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به في ستةٍ وعشرين موضعًا من كتابه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٦٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

وأكثر النبي ﷺ من ربطهما معًا، ومن ذلك:

قول النبي ﷺ في الحديث الطويل الذي رواه عبدالله بن عمرو بن العاص وفيه: «**فمن أحبَّ أن يُزحزح عن النّار ويدخل الجنَّة فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**»(١).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبغض الأنصار رجلٌ يؤمنُ بالله واليوم الآخر**»(٢).

---

(١) مسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم (١٨٤٤).

(٢) مسلم (١/ ٨٦)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. رقم (٧٦).

وقول النبي ﷺ: «**لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ بالله واليومِ الآخر أن تسافرَ مسيرةَ يومٍ وليلةٍ إلَّا مع ذي محرمٍ**»[١].

وسر الجمع بينهما: «أن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود، **لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين:**

أ- جلب النفع.

ب- دفع الضر.

والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء ولا يرعوي عن شيء، ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله»[٢].

٤- كثرة أسمائه:

أكثر الله من ذكر أسماء اليوم الآخر في القرآن على صفات متنوعة وبأسماء كثيرة متعددة بلغت تسعة وتسعين اسمًا[٣]. وكثرة أسمائه «دليل على تعظيمه فإن العرب تسمي الشيء بأسماء كثيرة وتجعل له ألقابًا عديدة تعظيمًا لشأنه وإكبارًا لأمره»[٤].

قال القرطبي: «كل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه: ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم. وله نظائر،

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٦٦)، كتاب «تقصير الصلاة»/ باب من كم يقصر الصلاة، وسمى النبي ﷺ يومًا وليلة سفرًا. رقم (١٠٨٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٧)، كتاب «الحج»/ باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره. رقم (١٣٣٩).

(٢) «العذب النمير» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(٣) «العاقبة» (١٥٤-١٥٥).

(٤) المرجع السابق (١٥٦).

فالقيامة لما عظم أمرها وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ووصفها بأوصاف كثيرة»[١].

ومن أسمائه: يوم الحسرة، يوم التناد، يوم التلاق، يوم الخلود، الصاخة، الواقعة، الحاقة، الطامّة، القارعة، الغاشية، الراجفة، الآزفة[٢] وغير ذلك.

٥- كثرة وروده في القرآن والسنة:

لقد أكثر الله من ذكره حتى إنك «قل أن تمر على صفحة من القرآن إلا وتجد فيها حديثًا عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب»[٣].

وحكمة الإكثار من ذكره هي الاستشعار الدائم لذلك اليوم فيكون العباد هاربين من النار مشتاقين إلى الجنة طالبين لها.

٦- ثناء الله على المؤمنين باليوم الآخر:

مدح الله المؤمنين باليوم الآخر الخائفين من أهواله وكرباته فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور:٣٧].

كما أثنى عليهم في قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٧].

وخصهم بالهدى والفلاح فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[البقرة:٤-٥].

٧- الأمر بقتال من لم يؤمن به:

من لم يؤمن باليوم الآخر فقد استحق أن يقاتل ويذلّ قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) «التذكرة» (١/ ٣٢٩).

(٢) انظر: «عقيدة المسلمين» لشيخنا صالح البليهي (١/ ٣٢٦).

(٣) «أشراط الساعة» للوابل (٢٧)، وانظر: «الإيمان» لنعيم الياسين (٧٤).

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

أكثر الله من ذكر اليوم الآخر في كتابه وربط الإيمان به بالإيمان به ﷻ. وما ذاك إلا لعظيم ثمراته ومنها:

١- الخوف:

ذكر اليوم الآخر وما فيه من الزلازل والأهوال العظام يهيج في قلب العبد الخوف منه وهذا هو ما يقرره ربنا في كتابه فيقول: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾[الزمر:١٦].

ولم يكتف سبحانه بالإخبار، بل أمر عباده بالخوف من ذلك اليوم أمرًا مباشرًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣].

وأنذرهم إياه فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[النبأ:٤٠]، وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[الليل:١٤].

وهددهم به إن لم يؤمنوا فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم:٣٧].

وبيّن حال الناس فيه وما يصيبهم من الهلع والخوف قد شخصت أبصارهم وازرورقت ألوانهم وشابوا وهم ولدان، فروا من أقاربهم وأحبائهم فرارًا واضطربت تصرفاتهم حتى تصرفوا تصرف السكارى.

لذلك خافته الرسل على أقوامهم فحذرتهم إياه وخوفتهم مغبته. قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[هود:٣].

ومن ثم تأكد الخوف منه في قلوب المؤمنين المتقين فحذروه وخافوا منه وخوفوا منه الناس. قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾[غافر:٣٢].

وقال محمد بن أبي عميرة (وكان له صحبة) محذرًا ومخوفًا ذلك اليوم: «لو أن عبدًا خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في طاعة الله لَحَقَرَهُ ذلك اليوم وَلَوَدَّ أنه زيد كيما يزداد من الأجر والثواب»[(١)].

ويخبر الحسن البصري عن شدة خوف الصحابة من اليوم الآخر فيقول: «لقد مضى بين يديكم أقوام لو أن أحدهم أنفق عدد هذا الحصى لخشي ألا ينجو من عظم ذلك اليوم»[(٢)].

وأما سفيان الثوري فحاله عجب فإنه إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم[(٣)].

وأحوال السلف وأقوالهم كثيرة جدًا، ولكني أختم بكلام لابن القيم حيث يقول: «وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»[(٤)].

٢- الحرص على فعل الطاعات:

من آمن باليوم الآخر وخاف عقاب الله في ذلك اليوم العصيب فلا بد أن يقدم عملًا صالحًا يكون سببًا لمغفرة الله وعفوه، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[الكهف:١١٠].

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢).

(٢) المرجع السابق (٥١).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٣/ ١٩٤) رقم (٩٢٢).

(٤) «طريق الهجرتين» (٢٨٣).

يستشعر تطاير الصحف فآخذٌ صحيفته باليمين فرحًا جذلًا بما فيها من عمل صالح، ومن شدة الفرح أبرزها للناس لينظروها ويقرؤوا ما فيها ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ مآلـــه الجنـــة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾[الحاقة:١٩-٢٢].

وآخذ صحيفته بالشمال قد بلغت به الحسرة كل مبلغ، وغرق في الخزي والندامة حتى اسود وجهه من الخجل والخوف والألم فأخفى تلك الصحيفة عن الأنظار وتمنى أنه لم يبعث ولم ير تلك الصحيفة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾[الحاقة:٢٥-٢٧].

ويأكل الخوف من الساعة كبد الصحابي الجليل، فيأتي إلى النبي ﷺ يسأله عن وقت وقوعها فيصرفه النبي ﷺ إلى ما هو أهم من معرفة وقت قيامها وهو الاستعداد لها. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ «**قال: ويلك، وما أعددت لها؟**»، قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: «**إنَّك مع من أحببت**»، فقلنا: ونحن كذلك قال: «**نَعَمْ**» ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا» وفي رواية مسلم، قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**». «فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»(١).

٤- البعد عن المعاصي:

يستشعر المسلم مغبة الذنوب والمعاصي في يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين وسؤال الله العبد عنها فيخشى ألا يستطيع الجواب فيختم على فيه وتنطق الجوارح بما

(١) سبق تخريجه.

عملت وعند ذلك لا تسأل عن حسرته قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[يونس:٦٥].

قال الإمام محمد بن نصر المروزي مبينًا أثر هذا الموقف على العبد: «فالمستحيي من سؤال الله تعالى غدًا يعد الجوابَ والتّطَهُّرَ من كل ما يكره الله ثم لا يفارقه الحياء مع الطهارة. إذ قد علم أنها ترك من الذنوب وتاب منه لن ينجو من الله أو يسأله عنه. كما روي عن الحسن رحمه الله أن رجلًا سأله فقال: العبد إذا تاب من الذنب أيغفر له؟ قال: نعم، قال: فيمحوه الله عنه؟ قال: لا والله حتى يوقفه عليه ويسائله عنه، ثم بكى الحسن فال: لو لم يبك إلا للحياء من الله تعالى لكان ينبغي له أن يبكي»[١].

٥- الصبر على المصائب:

الدنيا دار الأكدار والبلايا والمصائب والنكبات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[البلد:٤] فيسر العبد حينًا ويتنغص عيشه حينًا آخر، ولكنه يصبر على ما يصيبه أملًا في سروره بلقاء ربه قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[العنكبوت:٥].

و«لما كان الألم لا مخلص منه البتة، عزّى الله سبحانه من اختار الألم المنقطع بقوله ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾». فضرب لهذا الألم المنقطع أجلًا وهو يوم لقائه فيلتذ العبد أعظم لذة بما تحمل من الألم لأجله وأكد هذا العزاء برجاء اللقاء ليحمل العبد اشتياقه إلى ربه على تحمل الألم العاجل»[٢].

فما أصابه هنا جزاؤه هناك، قال ﷺ إن الله يقول: «**إذا ابتليتُ عبدي بحَبِيبَتَيهِ فصبرَ عوّضْتهُ منهما الجنّة**». «يريد عينيه»[٣].

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٤٢).

(٢) «مختصر زاد المعاد» (١٦٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ١١٦)، كتاب «المرض»/ باب فضل من ذهب بصره. رقم (٥٦٥٣).

٦- تسلية المظلوم:

كم من مظلوم في هذه الدنيا لا يستطيع دفع الظلم عن نفسه فلا يسليه ولا يعزيه إلا إيمانه باليوم الآخر إذ به يقتص للمظلوم من ظَالِمِه قال تعالى مسليًا نبينا محمدً ﷺ ومعزيًا إياه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر:٨٥].

قال الشيخ محمد عبدالوهاب: «إن العلم بإتيانها فيه تعزية للمظلوم»(١).

وقال ميمون بن مهران عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[إبراهيم:٤٢]: هي وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم(٢).

وكما في حديث جابر قال: لما رَجَعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال رسول الله ﷺ: «**ألا تحدّثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟**»، قال فتية منهم: بلى يا رسول الله! بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدًا. قال يقول رسول الله ﷺ: «**صدقت. صدقت كيف يُقدّس الله أُمّةً لا يُؤْخَذُ لضعيفهم من شديدهم**»(٣).

---

(١) «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب/ القسم الرابع - التفسير» (١٩٥).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٢٣٦).

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٣٢٩)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠١٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١١/ ٤٤٣-٤٤٤) رقم (٥٠٥٨)، وقال الذهبي عن طريق ابن حبان: «إسناده صالح». «العلو» (١/ ٦٦٠).

في هذا المشهد سلّت تلك العجوز نفسها بيوم القيامة حين توعدته وهددته به.

٧- الزهد في الدنيا:

زُيِّنَ للناس حب الشهوات في هذه الدنيا، فقدموها، وجعلوا ينظرون إليها ويلهثون وراءها فأثقلتهم عن الانطلاق في الطاعات والجهاد في سبيل الله ولا يرفعهم عن ثقلة الأرض والحرص على المتاع الزائل إلا الإيمان بالآخرة ولذلك جعله الله هو العلاج الناجع لهذه الظاهرة فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة:٣٨].

فإذا استشعر العبد نسبة الدنيا إلى الآخرة وأنها لا تعد شيئًا وعلم أن الآخرة هي دار القرار والاستمرار زهد في الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ويزول.

٨- التوبة:

لا مخلص للعبد من الذنوب إلا بالتوبة إلى علام الغيوب إذ بها تكفر السيئات فإذا لقي الله فإذا به قد غُفرتْ سيئاته فرح بذلك أيما فرح وسعد بذلك أيما سعادة ولذلك ربط الله الأمر بالتوبة باليوم الآخر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾[التحريم:٨].

قال ابن حجر: «وفائدة الإخبار بذلك -أي اليوم الآخر- أن ينتبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات»[١].

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٩٥).

وَبِالقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

....

تعريف القدر:

القدر لغة: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته[١] تقول: قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها وبالسكون والفتح قدْرًا وقدرًا إذا أحطت بمقداره[٢].

قال الراغب: القدر والتقدير تبيين كمية الشيء، يقال قَدَرْتُهُ وقدّرته ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨][٣].

ويطلق القدر على الحكم والقضاء[٤] ومن ذلك حديث الاستخارة وفيه: «**فاقدره لي ويسره لي**»[٥].

اصطلاحًا: تقدير الله للكائنات قبل حدوثها[٦].

فيكون القدر بمعنى الكتابة.

أما تعريف القضاء لغة:

«القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته»[٧].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٦٢).

(٢) انظر: «الصحاح» (٢/ ٧٨٦).

(٣) «المفردات» (٣٩٦).

(٤) «لسان العرب» (٥/ ٧٤) وانظر: «القاموس المحيط» (٣/ ٥٩١).

(٥) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٥)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾. رقم (٧٣٩٠).

(٦) «مجموعة الرسائل النجدية» (٣/ ٢٥٢).

(٧) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٩٩).

واصطلاحًا: هو إيجاد المقدر[١].

وقيل: هو ما قضى الله به ﷻ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير[٢].

القضاء والقدر عند الاجتماع والافتراق:

«إذا اجتمع القضاء والقدر افترقا وإذا افترقا اجتمعا».

أي أنهما إذا ذكرا معًا صار لكل منهما معنى يخصه فيكون القدر بمعنى التقدير وهو الكتابة وأما القضاء فهو بمعنى الخلق[٣].

أما إذا ذكر كل منهما لوحده شمل معنى الآخر كالإسلام والإيمان. قال البغوي: «الإيمان بالقَدَرِ فرض لازم وهو أَنْ يعتقد أَنَّ الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم»[٤].

أدلة الإيمان بالقدر:

تكاثرت الأدلة وتظافرت على إثبات القدر شرعًا وعقلًا وحسًا ومنها:

أولًا: أدلة الشرع:

أدلة الشرع على الإيمان بالكتاب والسنة كثيرة جدًا ومن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨].

«أي وكان أمره الذي يقدره كائنًا لا محالة وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان

---

(١) «الدرر السنية» (٣/ ٢١٣).

(٢) «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ١٨٨).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٧٨) و«جامع الرسائل» (٢/ ٣٥٥).

(٤) «شرح السنة» (١/ ١٤٢).

وما لم يشأ لم يكن»(١).

٣- عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٨-٤٩](٢).

٤- وعن عمر بن الخطاب ﷺ في حديث طويل وفيه: «أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «**أن تُؤمِنَ بالله وملائكته وكتبه ورسُله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(٣).

٥- عن عمران بن حصين قال: إن رجلين من مزينة أتيا إلى رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «**لا بل شيءٌ قضى عليهم، ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله** عز وجل» ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[الشمس:٧-٨](٤).

ثانيًا: العقل:

يقطع العقل السليم أَنَّ خالق الإنسان وموجده من العدم هو الله سبحانه وتعالى ولهذا ناقش الله المشركين مناقشة عقلية قوية، هزت مشاعرهم، وارتجفت لها أفئدتهم، ألزمهم فيها بالإقرار بأنه سبحانه هو الذي خلقهم.

فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطور:٣٥].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٠٩٤).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٤٦)، كتاب «القدر»/ باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٤/ ٢٠٤١-٢٠٤٢)، كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٥٠).

فالاحتمالات ثلاثة، هي:

١ - أنهم جاؤوا صدفة فَخُلِقُوا وَوُجِدُوا من دون موجد وهذا محال؛ لأن كل حادث لا بّد له من محدث.

٢- أنهم خَلَقُوا وأَوْجَدُوا أنفسهم وهذا محال لأن المعدوم ليس بشيء فكيف يوجد شيئًا.

٣- فتعين أن لهم خالقًا موجدًا وهو الله تعالى. وما دام أن الله هو الذي خلقهم فكذلك هو خالق أفعالهم، وَمَنْ كان كذلك فقد علم ما سيعملون وممّ يتكونون ومآلاتهم التي إليها ينتهون وكتبها وأرادها.

وكما أن العقل يدل على أن الله خالق الإنسان فهو دال أيضًا على أنه سبحانه خالق الكون كله بسماواته المرفوعة بغير عمد نراها وبأرضه المنبسطة الفسيحة وما فيهما وما بينهما من مخلوقات كثيرة، وما في الكون من نظام بديع ونسق متآلف فكل يسبح في فلكه. يسير كما قدر له وفي هذا أكبر دليل على أن الكون لم يوجد صدفة لأن الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه واستمراره فإذا تقرر عقلًا أن الله هو الخالق لزم ألّا يقع شيء في ملكه إلا علمه وأراده وكتبه.

ثالثًا: الحس:

يفكر الإنسان بعمل أمر ما ثم ما يلبث إلا أن يغير رأيه أو يصرفه صارف عنه.

سئل سفيان الثوري بم عرفت ربك: «بفسخ العزم ونقض الهمة»(١).

بل ربما يعزم الإنسان على شيء يريد حصوله فيأخذ بأسبابه ثم لا يستطيع إدراكه فيعلم أنه لم يقدر له ومن ثم فلن يستطيع الحصول عليه فيرضى ويسلم.

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٥٢).

وربما تنزل به المصيبة فيفعل كل الأسباب لدفعها وحماية نفسه منها فلا تنفع جميع الأسباب فيعلم أن هذا قدر الله الذي يجب عليه حياله الصبر والتسليم.

وأمثلة الحس كثيرة جدًا بل لا تنحصر، فكل الكون وما يقع فيه من أمثلة الحس دليل على قدر الله. ومن ذلك:

١- آدم عليه السلام خلقه الله بيده وأسكنه جنته وأذن له في ثمر الجنة كله إلا شجرة واحدة ولأن القدر نافذ أكل من الشجرة، فغضب الله عليه وأنزله إلى الأرض، ولذلك لما احتج آدم وموسى حج آدمُ موسى فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتجَّ آدمُ وموسى فقال موسى: يا آدم! أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنّة، فقال له آدمُ: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك التوراة بيده، أتلومني على أمرٍ قدَّرهُ اللهُ عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنةً**»، فقال النبي ﷺ: «**فحجّ آدمُ موسى، فحجّ آدمُ موسى**»[1].

٢- فرعون يرى الرؤيا فتفسر له بأن نهاية ملكه على يد أحد أبناء بني إسرائيل فيتخذ الحيطة والحذر بقتل جميع من يولد من الذكور: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف:١٢٧].

فيولد موسى عليه السلام فتخفيه أمه في اليم ومع ذلك يجده آل فرعون فيلتقطونه ويذهبون به إلى فرعون، فَيَهِمُّ بقلته فلا يستطيع، ولله الحكمة البالغة، وذلك لأن فرعون رجل عقيم لا يولد له فدخلت عليه زوجته من نقطة ضعفه قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[القصص:٩] فأعطاها إياه. فكانت نهاية فرعون على يديه فلم ينفعه حذره من قدر الله.

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٤١)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب وفاة موسى وذكره بعد. رقم (٤٣٠٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢-٢٠٤٣)، كتاب «القدر»/ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام. رقم (٢٦٥٢)، واللفظ له.

٣- خرج النبي ﷺ من المدينة ومعه بعض أصحابه يريد عيرًا لقريش فيهرب أبو سفيان بالعير من طريق الساحل فتخرج قريش بقضها وقضيضها فخرًا ورِياء الناس، وصدًّا عن سبيل الله تريد بدرًا حتى يسمع بها الناس فلا يزالون يهابونها أبد الدهر.

وإذا الرب جل وعلا قد قدّر معركة عظيمة فيها عزُّ الإسلام والمسلمين وذل الكفر والكافرين لم يتواعد الجيشان في هذا الموطن ولم يخططا لمعركة فاصلة ولكن الله هو الذي قضى ذلك وأنفذ أمره ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[الأنفال:٤٢].

منزلة الإيمان بالقدر وحكمه:

للإيمان بالقدر شأنٌ عظيم ومنزلة عالية، ومما يجلي علو منزلته ما يلي:

١- أن الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة العظام التي يرتكز عليها دين الإسلام فرض الله على المؤمنين الإيمان به خيره وشره في آي كثيرة من كتابه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

قال ابن كثير: «استدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها»[(١)].

ومما يدل على فرضيته ربطه ﷺ بأركان الإيمان وجعله واحدًا منها في جوابه لجبريل حينما سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتُؤْمن بالقدر خيره وشره**».

وزاد الأمر بيانًا حينما نفى الإيمان عمن لم يؤمن بالقدر، فقال ﷺ: «**لا يؤمن عبدٌ حتَّى يؤمن بأربعٍ: يشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي محمدٌ رسول الله، بعثني بالحقِّ ويؤمن**

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٢١).

بالموت وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»[١].

وأجمع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على الإيمان بالقدر[٢].

فمن كذَّب به كفر، وخلع ربقة الإسلام من عنقه ولم يبق له في الإسلام نصيب.

قال عبادة بن الصامت في وصيته لابنه قال رسول الله ﷺ: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشرّه أحرقهُ اللهُ ﷻ بالنار**»[٣].

وعن ابن الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من القدر خشيت أن يفسد عليّ ديني وأمري فأتيت أبيَّ بن كعب فقلت: أبا المنذر! إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت على ديني وأمري فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به فقال: «لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحدٍ ذهبًا أو مثل جبلٍ تنفقه في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر فتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك وإنك إنْ مت على غير هذا دخلت النار». ثم قال: «ولا عليك أن تأتي أخي عبدالله بن مسعود فتسأله قال: فأتيت عبدالله ابن مسعود فسألته فذكر مثلما قال أبيّ وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة فأتيت حذيفة فسألته فقال مثلما قالا، وقال: أئتِ زيد بن ثابت فاسأله فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنَّ الله عذَّب أهل سمواتِه وأهل أرضِهِ لعذّبَهُم وهو غير ظالمٍ لهمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لكانت رحمتهُ خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لكَ مثل أُحُد ذهبًا أو مثل جبلِ أُحدٍ ذهبًا تُنْفِقْهُ في سبيل الله ما**

---

(١) الترمذي (٤/ ٤٥٢)، كتاب «القدر»/ باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره. رقم (٢١٤٥)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٥٣٧) رقم (١٠٤).

(٢) «الإبانة الكبرى»/ قسم القدر/ (٢/ ١٣٠-١٣١)، و«اعتقاد أئمة الحديث» للإسماعيلي (٣٧-٣٨).

(٣) «القدر» لابن وهب (١٢١) رقم (٢٦).

قبلهُ منك حتّى تُؤمِن بالقدرِ كله فتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأكَ لم يكن ليُصيبك، وأنَّك إن متَّ على غيرِ هذا دخلت النار»[1]. فالشاهد من هذا الحديث «**أنَّك إن متَّ على غير هذا دخلت النار**». فدل على أنّ من لم يؤمن بالقدر فهو كافر.

وفي حديث آخر عن يحيى بن يَعْمَر أنَّه لقي عبدالله بن عمر فقال: «يا أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفَّرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأنَّ الأمر أُنُفٌ قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»[2].

ومن الآثار عن السلف ما يلي:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والله لا يَطْعَمُ رجل طَعْمَ الإيمان حتى يؤمن بالقدر»[3].

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّدَ الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقدر نقضًا للتوحيد، ومن وحّدَ الله وآمن بالقدر كانت عروة لا انفصام لها»[4].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «من كذَّب بالقدر فقد كذّب بالحق مرتين، إن الله عز وجل قدّر خلقًا وقدّر أجلًا وقدّر بلاءً وقدّر مصيبةً وقدّر معافاةً، وقدّر معصية وقدر طاعة، فمن

---

(١) أحمد (٥/ ١٨٩)، وأبو داود (٥/ ٧٥)، كتاب «السنة»/ باب في القدر. رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠)، «المقدمة»/ باب في القدر. رقم (٧٧)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «شفاء العليل» (١/ ٣٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٦٦٧) رقم (١٢١٨).

(٤) «الإبانة» لابن بطة - قسم القدر (٢/ ١٦٠) رقم (١٦٢٤)، وانظر: «السنة» لعبدالله بن أحمد (٢/ ٤٢٢).

كذّب بشيء من القدر، فقد كذّب بالقرآن»(١).

وكان سيّار وأبو هاشم الرماني يقولان: «التكذيب بالقدر شرك»(٢). ووجهه أن من كذب بالقدر فقد كذّب أن يكون الله خالقًا فأثبت خالقًا غير الله.

ويقول مسعر بن كدام: «التكذيب بالقدر أبو جاد الزندقة»(٣).

٢- ارتباط الإيمان بالقدر بأسماء الله وصفاته:

أساس الإيمان هو الإيمان بأسماء الله وصفاته، فَمَنْ أحصاها دخل الجنة ومما ورد في صفات الله العلم، والإرادة والقدرة والخلق وهذه الصفات الأربع هي الركيزة التي يقوم عليها ساق الإيمان بالقدر.

قال الشيخ عبدالعزيز الرشيد: «القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته»(٤).

وانطلاقًا من هذا فسَّر عمر بن الخطاب القدر فقال: «القدر قدرة الله»(٥)، وتبعه الإمام أحمد فقال: «القدر قدرة الله على العباد»(٦) وبمثلهم قال زيد بن أسلم: «القدر قدرة الله فمن كذّب بالقدر فقد جحد قدرة الله تعالى»(٧).

ومعنى قولهم: (القدر قدرة الله) أَنَّ تقدير الربِّ تبارك وتعالى لكل ما هو كائن قبل خلقه السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم خلقه وإيجاده للكائنات وفق ذلك

---

(١) «الإبانة» لابن بطة قسم القدر (٢/ ١٨٩) رقم (١٦٩٥).

(٢) «الشريعة» للآجري (٢/ ٩١٠-٩١١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٦٨).

(٤) «القول الأسنى» (١٢٥) وانظر إن شئت شرحًا وافيًا لارتباط القدر بالصفات «الدرر البهية» للسعدي (٣١-٣٢).

(٥) «الإبانة» لابن بطة - قسم القدر (٢/ ١٣١) رقم (١٥٦١).

(٦) «مسائل الإمام أحمد» برواية ابن هانيء (٢/ ١٥٥).

(٧) «الشريعة» (٢/ ٨٩٥-٨٩٦) رقم (٤٨٢).

التقدير يدل على علمه المحيط بكل شيء وكتابته له ومشيئته وإرادته لخلقه وإيجاده الذي وقع كما قدر فَمَنْ أثبت ذلك كله فقد أثبت قدرة الله على الخلق والإيجاد مع علمه بذلك، ومن أنكر ذلك فقد أنكر قدرة الله تعالى.

قال ابن القيم: «إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها»(١).

أما ابن تيمية فإنه ذهب إلى أبعد من ذلك حيث جعل إثبات القدرة دالًا على تمام الملك ونفي القدرة نفي للملك فقال: «من لم يثبت له -أي لله- القدرة حقيقة لم يثبت له ملكًا»(٢).

فالإيمان بالقدر يرتبط ارتباطًا وثيقًا بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لا ينفك عنه بحال، ومن أحسن من وضح الارتباط بينهما ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذّب بالقدر كان تكذيبه للقدر نقضًا للتوحيد»(٣).

«ولهذا السبب -والله أعلم- لم يذكر ركن الإيمان بالقدر في كتاب الله تعالى مع بقية أركان الإيمان كما ورد في السنة لأن الإيمان بالقدر هو إيمان بربوبيته وأسمائه وصفاته ومراتب القدر الأربع هي صفات الله تعالى»(٤).

وذهب إلى هذا الشيخ البراك فقال: «والإيمان بالقدر يندرج في الإيمان بالله وله أدلة مفصلة في القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩]»(٥).

---

(١) «شفاء العليل» (١/ ١٣٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٠).

(٣) «الشريعة» (٢/ ٨٧٦-٨٧٧) رقم (٤٥٧)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٤/ ٦٢٣) رقم (١١١٢).

(٤) «القضاء والقدر» للمحمود (٨٤).

(٥) «شرح العقيدة الواسطية» (١٤)، وانظر: «شرح العقيدة التدمرية» (٣٣).

٣- كثرة الأدلة الدالة عليه:

تكاثرت الأدلة الدالة على إثبات القدر تكاثرًا عظيمًا من كتاب الله حتى بلغت (ستًا وثمانين وثمانمائة آية)[1] أما من كلام النبي ﷺ فكثير حتى إنه لا يكاد يحصى إلا بكلفة ومشقة.

ورد بعضها فيما سبق وسيأتي ذكر بعضها مستقبلًا ولكن أذكر دليلين اثنين للتنبيه على ذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

ومن السنة: حديث عمر بن الخطاب الطويل وفيه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ أخبرني عن الإيمان قال: «**أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه**»[2].

٤- تعلق القدر بكل الموجودات:

هذا الكون كله ناطقه وصامته حيه وجماده ساكنه ومتحركه أوله وآخره بدايته ونهايته كل ذلك قد كتب وقدِّر كما في حديث عبادة بن الصامت: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[3].

---

(١) «عقيدة المسلمين» (٢/ ٢٧٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ١١٤) رقم (١٧٧٧١).

قال علي بن المديني: «إسناده حسن». «بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام» لابن القطان (٣/ ٦١٠)، و«النكت على الأطراف» (٤/ ٢٦١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (٢/ ٧٣٦-٧٣٩) رقم (٣٠٧) تحقيق د. سليمان العريني.

وفي لفظ: «**إن أوّل ما خلق اللهُ القلم قال له: اكتب قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتبْ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»(١).

وكان ذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. كما قال رسول الله ﷺ: «**كتب اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلقَ السّمواتِ والأرضٍ بخمسين ألف سنةٍ، قال: وعرشُهُ على الماءِ**»(٢).

قال شيخ الإسلام: «وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جدًّا»(٣).

فكل ما في الكون جميعه قدره الله وقضاه وشاءه وخلقه لا يخرج من ذلك شيء، قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ شيءٍ بقدرٍ حتى العجز والكيس أو الكيس والعَجز**»(٤).

ومن ذلك أفعال العباد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦] بل والمصائب من جوع ومرض وتشريد وغير ذلك قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

وهذا هو اعتقاد الصحابة رضي الله عنهم.

قال طاووس بن كيسان: «أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كل شيء بقدر»(٥)، وتبعهم على ذلك السلف من التابعين والأئمة من بعدهم.

---

(١) أبو داود (٥/ ٧٦)، كتاب «السنة»/ باب في القدر. رقم (٤٧٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١٨٤) رقم (٢٠١٤).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٤٤)، كتاب «القدر»/ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام. رقم (٢٦٥٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٣٧).

(٤) مسلم (٤/ ٢٠٤٥)، كتاب «القدر»/ باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٥).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٤/ ٦٦١) رقم (١٢٠٠).

مراتب القدر:

مراتب القدر أربع هي العلم والكتابة والمشيئة والخلق. جمعها أحدهم فقال:

علمٌ كتابةُ مَولانا مشيئَتُه وخلقه وهو إيجاد وتكوين

المرتبة الأولى: العلم:

أي علم الله الشامل لكل شيء أزلًا وأبدًا أحاط بكل شيء علمًا ووسعه قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨].

قال قوام السنة الأصبهاني: «قال أهل السنة... علمه بكل مكان، قد أحاط بكل شيء علمًا»(١).

يعلم السر وما هو أخفى من السر، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧] و(السر) هو ما حدثت به نفسك و(أخفى) ما لم تحدث به نفسك.

يعلم ما كان وما سيكون قبل أن يكون فلذلك أجاب الملائكة عندما ناقشوا في خلق آدم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٣٠] أي: أنه سيكون في أبنائه الرسل والصالحون والمجاهدون، فعلم سبحانه ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم ومآلاتهم إلى جنة أو نار. فعن علي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ذات يوم جالسًا وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: «**ما منكم من نفس إلاَّ وقد علم منزلها من الجنَّة والنَّار...**»(٢).

---

(١) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٠٩)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾. رقم (٤٩٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠)، كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٤٧) واللفظ له.

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**إنَّ اللهَ خلق للجنَّةِ أهلًا خلقهم لها، وهم في أصلابِ آبائهم، وخلق للنار أهلًا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[(١)].

وعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فقال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨] فأخبر أن المشركين يطلبون الرجعة عندما يعاينون النار ولن يرجعوا إلى هذه الدنيا ثم بين أنهم لو ردوا إلى الدنيا وعادوا إليها فلن يؤمنوا وسيبقون على كفرهم.

ويشهد له حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الغلامَ الَّذي قتلهُ الخضر طُبِعَ كافرًا ولو عاش لأرهق أبويهِ طغيانًا وكفرًا**»[(٢)]، لم يسبق علمه جهل ولا يلحقه نسيان قال تعالى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[طه:٥٢].

المرتبة الثانية: الكتابة:

أي كتابة الرب جل وعلا مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ من بداية الخلق حتى يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، لا يشذ عن ذلك شيء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس:١٢].

والإمام المبين هو اللوح المحفوظ أحصى فيه ربنا كل شيء فكتبه فيه.

وقوله ﷺ في حديث عبادة بن الصامت: «**أوّل ما خلق اللهُ تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[(٣)].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٥٠)، كتاب «القدر»/ باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٦٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب «القدر»/ باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة» (٢٦٦١).

(٣) سبق تخريجه.

وقت الكتابة: حدَّد النبي ﷺ وقت الكتابة في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بقوله: «**كتب الله مقادير الخلائقِ قبل أن يخلُقَ السّموات والأرض بخمسينَ ألفَ سنةٍ، قال: وعرْشُه على الماء**»(١).

أنواع الكتابة:

الكتابة نوعان:

الأولى: الكتابة العامة الشاملة: وهي تقدير الرب جل وعلا لجميع الأشياء وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ويدل لها الأدلة السابقة.

الثانية: الكتابة المفصّلة وهي أنواع:

١- الكتابة العُمْرِيَّة: وهي كتابة كل ما يجري على العبد من بداية حياته إلى نهايتها، وكتابة شقاوته وسعادته.

كل ذلك قد كتبه الله تعالى كما روى ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «**ثمَّ يبعثُ اللهُ إليه ملكًا بأربعِ كلماتٍ، فيكتب عمله وأجله ورزقَهُ، وشقيٌّ أم سعيدٌ، ثُمَّ ينفخُ فيه الرّوح، فإنَّ الرّجل ليعمل بعمل أهلِ النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار**»(٢).

٢- الكتابة السنوية: أي كتابة ما يجرى على العبد في تلك السنة كلها وذلك بأن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٦٣)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب خلق آدم وذريته. رقم (٣٣٣٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦)، كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته. رقم (٢٦٤٣).

يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة ما يجري في السنة كلها بداية من ليلة القدر. قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤]. أي يكتب فيها كل ما يحدث للناس من أعمالهم وآجالهم وأرزاقهم ومعايشهم ومصائبهم وعزهم وذلهم وموتهم وحياتهم إلى آخر السنة. قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٤]: «يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يكتب الحاج يحج فلان، ويحج فلان»(١).

٣- الكتابة اليومية:

ودليلها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩].

وفسر النبي ﷺ الشأن في هذه الآية فقال: «**يغفر ذنبًا، ويُفَرِّج كربًا، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين**»(٢)، وبنحوه عن أبي الدرداء مرفوعًا(٣) وموقوفًا، قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»(٤).

وبمثله قال عبيد بن عمير، ومجاهد، وقتادة، وابن جرير(٥).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

أي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن سواء كان ذلك مما يتعلق بفعله أو مما يتعلق بفعل المخلوقين، سواء كان مخالفًا للواقع أو موافقًا له(٦).

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٢٨٧) رقم (١٨٥٢٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٣٥)، و«الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٤/ ٢٩٥) رقم (٢٣١٦).

(٣) ابن ماجه (١/ ٧٣)، «المقدمة»/ باب فيما أنكرت الجهمية. رقم (٢٠٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٠).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٢٠)، كتاب «التفسير»/ تفسير سورة الرحمن.

(٥) «جامع البيان» (٢٧/ ١٣٤-١٣٥).

(٦) انظر: «الدرر السنية» (١/ ٢٢٦-٢٢٧).

أما أن مشيئته شاملة لكل شيء من مخلوقاته فيدل له قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨].

وقوله تعالى مبينًا أن كل ما في الكون حادث بمشيئته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[المائدة:١٧].

دلت هذه الأدلة على نفوذ مشيئته في جميع المخلوقات وانفراده سبحانه باختيار وتخصيص من يشاء من الأشخاص والأزمان والأماكن والأوامر.

أما خلاف الواقع فيدل له قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[الواقعة:٦٥]، وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[الواقعة:٧٠].

وأنه لو شاء لهدى الخلق كلهم فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس:٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[الأنعام:٣٥].

وأما أنه ما لم يشأ لم يكن فدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة:٢٥٣].

فبيّن الله سبحانه أن اقتتالهم كان بمشيئته وأنه لو لم يشأ الاقتتال لم يقع.

أما ما يتعلق بفعله سبحانه فيدل له قوله تعالى عن نوح عليه السلام أنه أخبر قومه لما طلبوا منه إنزال العقوبة بهم أن ذلك بمشيئة الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[هود:٣٣].

أما ما يتعلق بفعل المخلوقين فيدل له قول موسى عليه السلام للخضر فيما أخبر الله عنه: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[الكهف:٦٩].

ومن السنة قوله ﷺ: «**اشفعوا تُؤجروا، ويقضي اللهُ على لسانِ نبيِّهِ ﷺ ما شاء**»[(١)].

تقييد القدرة بالمشيئة:

لا يصح تقييد القدرة بالمشيئة كقول بعضهم: (إن الله على ما يشاء قدير)، لوجوه:

١- أن الله إذا وصف نفسه بالقدرة لم يقيد ذلك وإنما جعل القدرة عامة كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:١٠٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة:١٧]،وغيرها من الآيات.

فالقدرة صفة أبدية أزلية كاملة شاملة لما شاءه وما لم يشأه فهي تتعلق بالموجودات والمعدومات.

٢- أن النبي ﷺ والمؤمنون معه وصفوا الله بالقدرة العامة الشاملة ولم يقيدوها بالمشيئة قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[التحريم:٨]. وخير الهدي هديهم.

٣- أن تقييد القدرة بالمشيئة نفيٌ وإنكار لشمول قدرة الله تعالى، لأنه يدل على أن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة فقط.

٤- أن في تقييد القدرة بالمشيئة مشابهة لأهل البدع[(٢)].

ولا يرد علينا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى:٢٩] لأن المقيد هنا بالمشيئة هو الجمع لا القدرة، والجمع فعل لا يقع إلا بالمشيئة؛ ولذلك قيد هنا، فمعنى

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٩٩)، كتاب «الزكاة»/ باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها. رقم (١٤٣٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦)، كتاب «البر والصلة»: باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام. رقم (٢٦٢٧).

(٢) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (١/ ٤٠٥)، و«فتاوى محمد بن إبراهيم» (١/ ٢٠٧) و«الجواب المختار» للعثيمين (٣٩).

الآية أن الله تعالى قادر على جمعهم متى شاء وليس بعاجز كما يدعيه من ينكره.

ولا يرد علينا أيضًا قوله ﷺ عن الله إنه قال لآخر من يدخل الجنة: «**ولكنِّي على ما أشاءُ قادرٌ**»(١).

وذلك لأن القدرة في هذا الحديث ذكرت لتقرير أمر واقع، والأمر الواقع لا يكون إلا بعد المشيئة وليس المراد بها ذكر الصفة المطلقة التي وصف الله تعالى بها نفسه أزلًا وأبدًا ولذلك عبر عنها باسم الفاعل «قادر»(٢).

المرتبة الرابعة: الخلق:

وهو الإيمان بأنّ الله تعالى خالق كل شيء في السموات والأرض وما بينهما خالق كل عامل وعمله وخالق كل متحرك وحركته وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله ﷻ خالقها وخالق حركتها وسكونها.

فالله سبحانه خالق أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها وما يصدر عنها من أقوال وأعمال وآثار.

فأعيان المخلوقات كالإنسان والأرض والجبال والأنهار، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[ق:١٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[السجدة:٤].

وأما صفاتها كأن يكون الإنسان حليمًا لا يغضب أو شجاعًا لا يخاف أو هلوعًا جزوعًا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾[المعارج:١٩-٢١].

وأما أقوالها: فهو ما ينطق به لسانها ككلام الآدمي.

وأما أفعالها: كالأكل والشرب والكتابة والصناعة والذهاب والمجيء ونحوها،

---

(١) مسلم (١/ ١٧٤-١٧٥)، كتاب «الإيمان»/ باب آخر أهل النار خروجًا. رقم (١٨٧).

(٢) «الجواب المختار» للعثيمين (٤٠).

والآيات على عموم خلقه كثيرة منها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[غافر:٦٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر:٦٢].

وأما أنه خالق كل عامل وعمله فدليله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦]. أي أن الله خلقكم وعملكم.

يوضحه قول النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ يصنعُ كلَّ صانعٍ وصنْعَتَهُ**»(١)، قال البخاري: «فأخبر أنَّ الصِّناعات وأهلها مخلوقةٌ»(٢).

يوضح حذيفة رضي الله عنه هذا الحديث بالمثال فيقول: «إنَّ اللهَ خلق كلَّ صانعٍ وصنعتهُ، إنَّ الله خالق صانع الخزمِ وصنْعتهُ»(٣).

ويدل على أن أقوال العباد وأفعالهم مخلوقة لله ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول:

والله لــولا الله مـا اهْتَـدَيْنَا	ولاَ صُمْـنَا ولاَ صَلَّيْنَـا
فَــأَنْزِلَنْ سَكِينَــةً عَلَيْنَـا	وَثَبِّــتِ الأَقْـدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـا

(١) «خلق أفعال العباد» (٣٩-٤٠) رقم (١١٧)، و«كتاب التوحيد» لابن منده (١/ ٢٦٧) رقم (١١٥)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٥٨) رقم(٣٥٧)، قال ابن حجر: «حديث صحيح». «فتح الباري» (١٣/ ٤٩٨).

(٢) «خلق أفعال العباد» (٤٠).

(٣) المرجع السابق (٤٠) رقم (١١٨)، والخزم بفتح الخاء والزاي هو شجر يتخذ من لحائه الحبال والمراد بصانع الخزم هو صانع ما يتخذ من الخزم من حبال ونحوه. انظر: «النهاية» (٢/ ٣٠).

وَالمُـشْرِكُونَ قَـدْ بَغَـوْا عَلَيْنَـا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا[(١)]

ففي قوله: لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا دليل على أن أفعال العباد وأقوالهم وأحوالهم مخلوقة لله تعالى.

ونستخلص مما مر صفة الإيمان بالقدر وكيفيته وهي: اليقين التام بأن الله علم كل شيء قبل وجوده وكيف سيكون بعد وجوده وكتبه في اللوح المحفوظ وأنه لا يخرج عن مشيئته وإرادته شيء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن خالق كل شيء سبحانه خلق العباد وأفعالهم خيرها وشرها خلق الكافر وكفره والمؤمن وإيمانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن:٢].

المصائب والمعائب:

احتج المشركون بالقدر على معائبهم وذنوبهم، كما في قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، فلم يقبل الله منهم ذلك الاحتجاج وإنما ردّه الله عليهم أعظم الرد بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[الأنعام:١٤٨]. وذلك لأن الاحتجاج بالقدر على المعائب (الذنوب والمعاصي) معارضة للشرع وإبطال له بالقدر.

وعندما احتج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة غلب موسى بالحجة فسكت، قال النبي ﷺ: «**فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى**»[(٢)]، وذلك لأن الاحتجاج بالقدر على المصائب رضاً بقضاء الله وقدره ولذلك فالقاعدة في هذا الباب هي: «**الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب**».

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٥١٥-٥١٦)، كتاب «القدر»/ باب: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾. رقم (٦٦٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٣٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب غزوة الأحزاب. رقم (١٨٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

صح احتجاج العبد بالأقدار إنْ في مصيبة أتت بلا اختيار
ومن عصى بطوعه فلا يحتجُّ لكونه كمشركٍ به يلجُّ

ثمرات الإيمان بالقدر:

للإيمان بالقدر ثمرات كثيرة، منها:

١- التوكل على الله:

وذلك بأن يعتمد المسلم بقلبه على ربه عز وجل؛ لعلمه أن ما قدّره الله وقضاه كائن لا محالة مهما حاول الناس منعه كما في وصية النبي ﷺ لابن عباس حيث قال له: «**واعلم أنَّ الأمَّة لو اجْتَمَعُوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(١)].

ولهذا ربط الله بين التوكل والقدر فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:٣]، فبدأها بالتوكل وختمها بالقدر ليبين أن صحة التوكل على الله لا تتم إلا بالإيمان بالقدر.

٢- العفو والمسامحة عمَّن قصر في حقك:

سبب العفو والمسامحة أن المسلم يعلم علم اليقين أن الأمر الذي طلبه وأراده لو كان مقدرًا له لتيسر له، ولم يمنعه مانع، ولم يقصّر فيه مقصّر، يوضحه حديث أنس رضي الله عنه فيقول: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما بعثني في حاجة لم تتهيأ إلا قال: «**لو قضي لكان، أو لو قدِّرَ لكان**»[(٢)]، وفي رواية قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما أمرني بأمر فتوانيت عنه، أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهل بيته إلا قال: «**دعوه؛ فلو قدّر أو**

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صحيح ابن حبان» (١٦/ ١٤٥) رقم (٧١٧٩)، و«شعب الإيمان» (١٤/ ٢٢٧-٢٢٨) رقم (٧٧١٤).

قال: لو قُضِيَ أن يكون كان»(١).

٣- هون المصائب والصبر عليها:

وقْع المصائب على النفس شديد والجزع عندها كثير. فمن شاقٍّ لجيبه، وحالقٍ لشعره، وضاربٍ خدّه، ونادبٍ حظَّه، ولا يخفف شدة وقعها إلا الإيمان بقدر الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١].

قال عبد الله بن مسعود: «﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١]: هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها، وعرف أنها من الله»(٢).

وقال علقمة رحمه الله مفسرًا هذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»(٣) وفي ذلك تهوين لوقعها على النفس وتسهيل له.

وإلى ذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**وإن أصابك شيءٌ، فلا تقُلْ: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»(٤).

٤- الحماية من العجب مع الاعتراف بالمنعم وإضافة النعم إليه:

يعتقد المؤمن أن ما أصابه من النعم إنما هو محض فضل الله ومنته وتقديره، قال النبي صلى الله عليه وسلم مبينًا فضل الله ومنته عليه: «**لَنْ يدخل أحدًا عمله الجنَّةَ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بفضل ورحمة**»(٥).

---

(١) أحمد (٣/ ٢٣١)، «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٥٧)، وصححه ابن تيمية في «درء التعارض» (٨/ ٤٢٠)، وقال الألباني: «صحيح على شرط مسلم». «ظلال الجنة» (١/ ١٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٢)، كتاب «التفسير»/ سورة التغابن.

(٣) «جامع البيان» (٢/ ١١٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ١٢٧)، كتاب «المرضى»/ باب تمنى المريض الموت. رقم (٥٦٧٣)، ومسلم=

كما أن أهل الجنة أرجعوه إلى فضل الله وتقديره، كما ذكر الله ذلك عنهم ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣].

وبه اعترف صحابة رسول الله ﷺ فكانوا يرددون:

والله لولا الله ما اهْتَدَيْنَا ولاَ صُمْنَا ولاَ صَلَّيْنَا

وهذا الاعتراف يجعله يرى أنه ليس له فضل، فلا يعجب بعمله.

٥- السرور وهناءة العيش:

من آمن بالقدر أحس بالطمأنينة والراحة في جميع أحواله إن كان في سراء شكر وإن كان في ضراء صبر، قال ﷺ: «**عجبًا لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَهُ كلّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمنِ، إن أصابتهُ سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ، صبر فكان خيرًا له**»[(١)].

قال إبراهيم بن إسحاق مبينًا أن هناءة الإنسان وسروره بالإيمان بالقدر: «أجمع عقلاء كلِّ ملَّة أَنَّهُ من لم يجر مع القدر لم يتهنَّأ بعيشه»[(٢)].

وقال الشوكاني: «ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة -الإيمان بالقدر- أنه يعلم أنه ما وصل إليه من الخير على أي صفة كان وبيد من اتفق فهو منه ﷻ، فيحصل لَهُ بذلك من الحبور والسرور مَا لا يقادر قدره، لما له سبحانه من العظمة التي تضيق أذهان العباد عن تصورها، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها... وما أحسن مَا قاله إبراهيم الحربي ؒ: «من لم يُؤمن بِالْقدرِ لم يتهنَّأ بعيشه». وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب، وضاقت بهَا الأنفس وحرجت بهَا الصُّدُور إِلَّا من ضعف الْإِيمَان بِالْقدرِ»[(٣)].

=

(٤/ ٢١٧١)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى. رقم (٢٨١٦).

(١) مسلم (٤/ ٢٢٩٥)، كتاب «الزهد والرقائق»/ باب المؤمن أمره كله خير. رقم (٢٩٩٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٦٧).

(٣) «قطر الولي» (٣٩٦).

٦- الاجتهاد في الطاعة:

وجه النبي ﷺ المؤمنين بالقدر إلى العمل الصالح وأن الجنة لا تدرك إلا بالعمل فما كان منهم إلا أن اجتهدوا في كل ما يقربهم إلى ربهم قال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله أنعمل في شيء نأتنفه أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: «**بَلْ فِي أمرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**» فقال: ففيم العمل؟ قال: «**يا عمرُ، كلا لا يدركُ إلَّا بعملِ**»، قال: فالآن نجتهد يا رسول الله»[(١)].

٧- فعل الأسباب:

يظن بعض من لا فقه عنده أن الإيمان بالقدر يقود العبد إلى تعطيل الأسباب وما درى أن العكس هو الصحيح. فعندما سأل خزامة النبي ﷺ أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «**هي من قدر الله**»[(٢)].

ولقد فهم عمر رضي الله عنه هذا فهمًا جيدًا، فعندما خرج إلى الشام وأراد دخوله فإذا هو قد أصيب بالطاعون فجمع المهاجرين فاختلفوا، ثم أخرجهم، ثم دعا الأنصار فاختلفوا، فرأى عمر الرجوع وعدم الدخول إلى مكان الوباء، فقال له أبو عبيدة رضي الله عنه: «يا أمير المؤمنين! أفرارًا من قدر الله» فقال عمر رضي الله عنه: «نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله» ثم مثل له عمر فقال: «أرأيت إن كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان أحدهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله»[(٣)].

---

(١) «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٧٢) رقم (١٦٥)، «جامع معمر بن راشد» المطبوع مع «المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ١١١)، و«القدر» لابن وهب (١٠٩-١١٠) رقم (٢٠)، و«القدر» للفريابي (٢٣)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٧٣).

(٢) أحمد (٣/ ٤٢١)، والترمذي (٤/ ٣٩٩-٤٠٠)، كتاب «الطب»/ باب ما جاء في الرقى والأدوية. رقم (٢٠٦٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١١٣٧)، كتاب «الطب»/ باب ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء». رقم (٣٤٣٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ١٦٣)، كتاب «الطب»/ باب ما يذكر في الطاعون. رقم (٥٣٩٧).

٨- الخوف من سوء الخاتمة:

لما كانت الخاتمة مغيبة، والذنوب كثيرة، وقدر الله لا يرده راد، خاف الصالحون من هول المطلع، وخافوا من تغير القلب عند الموت، فتسوء الخاتمة، قال ﷺ: «**إنَّ الرجلَ ليعمل بعملِ أهل الجنَّة حتَّى ما يكون بينهُ وبينها إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعمل بعمل أهلِ النَّار فيدخلها**»(١)، وكان أكثر دعاء النبي ﷺ: «**يا مُقلِّبَ القُلوب ثبِّتْ قلبي على دينك**»(٢).

وأكثر حلفه ﷺ: «**لا ومقلب القلوب**»(٣).

٩- الشجاعة والإقدام:

من آمن بالقدر إيمانًا خالط بشاشة قلبه، صار شجاعًا لا يبالي بالموت، لاعتقاده أنه لا يصيبه إلا ما قدر الله.

قال علي رضي الله عنه:

أيُّ يَومَيَّ مِنَ المَوْتَ أَفِرْ ... يومَ لا قُدِّرَ أوْ يَومَ قُدِرْ

يَومَ لا قُدِّرَ لا أرْهَبُهُ ... وَإِذَا قُدِّرَ لاَ يَنْجُو الحَذِرْ(٤)

وكان معاوية رضي الله عنه يتمثل بهذين البيتين:

كَأَنَّ الجَبَانَ يَرَى أَنَّهُ ... سيقتل قبل انقضاء الأَجَلْ

وقد تُدْرِكُ الحَادِثَاتُ الجَبَان ... ويَسْلَمُ مِنْهَا الشُجَاعُ البَطَلْ(٥)

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٧٧)، كتاب «التوحيد»/ باب مقلب القلوب، وقول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾.

(٤) ديوان علي رضي الله عنه (٧٩-٨٠).

(٥) «بهجة المجالس» لابن عبدالبر (٢/ ٤٨٠).

(خيره وشره حلوه ومره):

كيف نعلم خيره وشره؟

يجيب عن هذا السؤال عبادة بن الصامت رضي الله عنه «لما دخل عليه ابنه وهو مريض يُرى فيه الموت فقال: يا أبه أوصني واجتهد قال: إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره قلت: وكيف لي أن أعلم خيره وشره؟ قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»(١).

وبمثله أجاب سلمان رضي الله عنه إلا أنه زاد فقال: «ولا تقول: لو فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا ولو لم أفعل كذا وكذا لم يكن كذا وكذا»(٢).

قال الإمام أحمد: «الخير والشر مقدران»(٣).

الخير: هو ما يلائم طبيعة الإنسان الذي يولد له اللذة والسرور.

أما الشر: فهو بضد ذلك وهو ما يخالف طبيعة الإنسان مما يولد له الألم والأحزان.

والفرق بين كون القدر خيرًا وشرًا وكونه حلوًا ومرًا.

أن «الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوئها فهو حلو ومرٌّ في مبدئه وأوله وخير وشر في منتهاه وعاقبته»(٤).

إضافة الخير والشر:

الخير يضاف إلى الله بكل حال في العموم والانفراد كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٨٠] فأضاف الشفاء إلى ربه.

---

(١) «الشريعة» (٢/ ٧٧٦-٧٦٧) رقم (٣٤٦).

(٢) «الشريعة» (٢/ ٨٥٥) رقم (٤٣٣).

(٣) «السنة» للخلال (٣/ ٥٤٥) رقم (٩٠٧).

(٤) «شفاء العليل» (٢/ ٧٣٤).

أما الشر فلا يضاف إلى الله منفردًا لما يلي:

١ - لأن قضاء الله كله خير لأنه صفة من صفاته.

فقضاؤه صفةٌ به قامت ... وما المقضي إلا صنعة الإنسان[١]

٢ - أن النبي ﷺ نفى إسناد الشر إلى الله تعالى في قوله: «**والشر ليس إليك**»[٢].

٣ - أن الله لا يخلق شرًا محضًا بل يكون شرًا من وجه دون وجه كالمرض فهو شر بالنسبة لإيلامه المريض، وهو خير من جهة كونه يذهب بخطاياه ويكفرها، ومن جهة كونه سببًا عظيمًا لتذكر المؤمن.

(١) «النونية» مع شرح هراس (٢/ ٧٥).

(٢) مسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧١).

والدليل عَلَى هَذِهِ الأَرْكَان الستَّة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

....

﴿لَّيْسَ﴾: نافية.

﴿ٱلْبِرَّ﴾: البِرُّ في الأصل: الخير الكثير. ومنه سمي البَرّ لاتساعه، والبُرّ لكثرة منافعه، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة تقرب إلى الله تعالى. ولهذا «فسر البر بالإيمان وبالتقوى وبالعمل الذي يقرب إلى الله»[١].

قال ابن القيم: «البر: كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد»[٢].

﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: التولية الاتجاه.

﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: أي: أن تولية الوجه قبل المشرق والمغرب ليس في لزومه بِرُّ ولا طاعة إذا لم يكن عن أمر الله وشرعه.

وكأن هناك سؤال إذًا ما هو البر: فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾: أي ولكن البِرَّ برُّ من آمن بالله. قال مجاهد: «ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله»[٣]، فالبار حقيقة هو: القائم بالإيمان والعمل الصالح.

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧٩).

(٢) «الرسالة التبوكية» (٦)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٦٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٨٧) رقم (١٥٤٢).

قال سفيان الثوري عند قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ أنواع البر كلها[١].

قال ابن كثير: «وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله»[٢].

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: إذا قرن الإيمان بالباء صار تصديقًا متضمنًا للطمأنينة والثبات والقرار وإذا عدي باللام ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت:٢٦] فمعناه أنها تضمنت معنى الاستسلام والانقياد[٣].

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: هو يوم القيامة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: هم جميع ملائكة الله الذين خلقهم.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾: المراد به الجنس فيشمل جميع الكتب التي أنزلها الله.

﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: جميع الأنبياء والرسل.

فلما انتهى من البر في الاعتقادات انتقل إلى البر في الأعمال فقال:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾: أي أعطى المال وهو كل ما يملك مما هو مباح.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: أي حال كونه محبًا له لحاجته إليه أو لتعلق نفسه به وفي قوله «على حبه» بيان لقوة تأثير الإيمان على النفوس إذ هو السر في إعطائهم المال فإعطاؤهم لأجل الله فقط فأنفقوه لله مع قوة المانع وهو تعلق نفوسهم به.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أي قرابة معطي المال وبدأ بذوي القربى؛ لأنّ حقهم آكد من غيرهم ولأن العاطفة تتوجه إليهم قبل غيرهم من المسلمين.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٨٨) رقم (١٥٤٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٥).

(٣) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٢/ ٢٧٥).

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: ثنى باليتامى لاستحقاقهم العطف من جميع المسلمين لوفاة والديهم.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾: المسكين هو من ليس عنده مال يكفيه وسمي بذلك؛ لأنه أسكنته الحاجة، وقيل: لأن نفوسهم سكنت للرضى بالقليل عن مدِّ كفِّ الذلَّة.

والمسكين هو الفقير عند الافتراق، أما عند الاجتماع فإن الفقير أكثر احتياجًا من المسكين ولهذا بدأ الله به في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ...﴾[التوبة:٦٠].

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافر المنقطع وأضافه إلى السبيل لملازمته للطريق فصار كأنه أبوه وأمه. فهو في حالة ذل يحتاج معها إلى عطف ومساعدة.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: هم الذين يطلبون المساعدة نظرًا لحاجتهم وفقرهم.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: أي في إعتاق الرقاب وفكاكها من رق العبودية.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي أداها على أحسن الوجوه وأكملها وأقومها قد كملت شروطها وأركانها وواجباتها وسننها قدر الطاقة والاستطاعة.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي أعطى الزكاة المفروضة لمستحقيها.

ثم انتقل إلى البر في الأخلاق والمعاملات مبتدئًا بأصلها[١] وهو الوفاء بالعهد فقال:

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾: «إذا: هنا ظرفية محضة أي: الموفون بعهدهم وقت العهد أي في الحال التي يعاهدون فيها فإذا عاهدوا وفوا»[٢].

والعهد: هو ما يلتزم به المرء لغيره.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: أي الذين يتحملون ما يصيبهم من لأْواء وضرَّاء.

---

(١) انظر: «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ٢٢).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٧٩).

ونصب الصابرين مدحًا لهم دون غيرهم. نصبت بفعل محذوف تقديره: أخصُّ الصابرين، لأن تغير الأسلوب أدعى للانتباه.

قال الدوسري: «فهو -أي الصابرين- وإن كان معطوفًا على ما قبله في المعنى الحكمي إلا أنه مغاير له في الإعراب، والمخالفة في الإعراب لصفات المدح تَفَنُّنٌ لُغَوِيٌّ لأنّ تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور»(١).

﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾: شدة الفقر ومع ذلك فلا يحملهم فقرهم على الطمع في أموال الناس بغير حق لأن إيمانهم يمنعهم من ذلك.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: ما يضر الإنسان من مرض ونحوه فَلِقُوَّةِ إيمانهم لا يتسخطون قضاء الله وقدره، بل يصبرون على ما يصيبهم طالبين الأجر من الله تعالى.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: أي حين شدة الحرب وقوة اضطرامه.

وخص الله هذه الأمور الثلاثة مع أن الصبر مطلوب دائمًا لأمرين:

١- لأن من صبر عليها كان على غيرها أشد صبرًا لما في احتمالها من المشقة العظيمة على النفس والاضطراب الشديد في القلب(٢).

٢- لأنها شملت أنواع الصبر الثلاثة ففي قوله ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ صبر عن المعصية ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ صبر على أقدار الله ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ صبر على طاعة الله(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾: قال أبو العالية: تكلموا بالإيمان وحققوه بالعمل وهذا غاية الثناء والمدح قال ﷺ: «**عليكم بالصّدق؛ فإنَّ الصّدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى**

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ٢٥).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: «نور الاقتباس» (٥٩).

الجنَّة»[١]. وفيه إشعارٌ أَنّ مَنْ لم يفعل مثل فعلهم ليس صادقاً في دعواه الإيمان.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾: أي القائمون بالتقوى، والتقوى هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وذكرهم الله بالجملة الاسمية ليدل على أنها صفة ملازمة لهم؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستمرار.

فائدة تكرير الإشارة: لزيادة التنويه بشأنهم وتوسيط الضمير للإشارة على انحصار التقوى فيهم.

قال الواحدي: «هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع فمن شرائط البر وتمام شرط البار أن تجتمع فيه هذه الأوصاف»[٢].

فاستحقوا كرمًا من الله وجودًا وإحسانًا الجزاء الأوفى في الآخرة فصاروا إلى ما هو خير من هذه الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾[آل عمران:١٩٨].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٥٠٧)، كتاب «الأدب»/ باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. رقم (٦٠٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٢)، كتاب «البر والصلة»/ باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله. رقم (٢٦٠٧).

(٢) «محاسن التأويل» (٣/ ٣٩٤).

ودليل القدر: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

....

سبب نزول قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٨-٤٩][١].

﴿إِنَّا﴾: للتعظيم وسر التعظيم هنا أَنَّ الله قدر المقادير ثم خلقها كما قدرها مكانًا وزمانًا وكيفية لم تتخلف ولم تتغير وفي هذا دليل على كمال علمه وعظيم قدرته ولهذا قال بعد هذه الآية: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠][٢].

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: لفظ «شيء» أعمّ العمومات فتفيد عموم خلقه سبحانه للعوالم السُّفلية والعلوية لا مشارك له في ذلك كله.

﴿خَلَقْنَٰهُ﴾: أي أوجدناه من العدم.

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي بمقدار قدرناه وقضيناه[٣].

قال البغوي: «أي: ما خلقناه فمقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ»[٤].

قال ابن كثير: «يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل بَرْئها»[٥].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٤٦)، كتاب «القدر»/ باب كل شيء بقدر. رقم (٢٦٥٦).

(٢) «أضواء البيان» (٨/ ٢١٣).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/ ١١٠).

(٤) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٥).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٢١).

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك»[1].

وهذه الآية من أبلغ أدلة القدر حيث اشتملت على جميع مراتبه الأربع فلا يمكن كتابته وتقديره: إلا بعد العلم به ولا يتصور أن يخلقه إلا بعد أن يشاءه.

---

(١) «خلق أفعال العباد» (٤١) رقم (١٢٤)، و«القدر» للفريابي (٧٣) رقم (٢٠٦)، و«الشريعة» (٢/ ٨٦٨) رقم (٤٤٥)، و«الإبانة» - قسم القدر (٢/ ١٦٥) رقم (١٦٣٩).

المرتبة الثالثة: الإحسان - ركن واحد - وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

....

الإحسان لغة: مأخوذ من الحسن قال ابن فارس: «الحاء والسين والنون أصل واحد فالحُسْنُ ضدُّ القُبْح وليس في الباب إلا هذا»(١).

والإحسان ضد الإساءة(٢).

ويأتي بمعنى الإتقان: إذا عدى بنفسه كقولك أحسنت كذا وفي كذا إذا حسنته وكملته(٣).

وفي الاصطلاح: إتقان العمل والإتيان به على أكمل وجه وأحسنه.

منزلة الإحسان:

مرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين فمن بلغها فقد حوى مراتب الدين كلها، ومن هنا صار كلُّ محسن مؤمناً مسلماً ولا عكس فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أصحابه(٤). **وذلك لأن مراتب الدين ثلاث هي:**

الإسلام: وهذا لكلِّ من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم الإيمان وهو أعلى من الإسلام ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات:١٤].

ثم الإحسان وهو أعلى مما كان قبله لقوله ﷺ: **«أفضلُ الإيمان أن تعلمَ أن اللهَ معك**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٥٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (٤/ ١٨٣-١٨٤).

(٣) انظر: «المفهم» (١/ ١٤٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٠ و٣٥٧).

حيث كنت»[(١)].

وهذه المراتب الثلاث إذا اجتمعت صار الإسلام يقصد به الأعمال الظاهرة، أما الإيمان فيقصد به الأعمال الباطنة، أما الإحسان فهو تحسين الأعمال الباطنة والظاهرة. فيكون بذلك مستصحبًا جميع الأعمال في جميع الأوقات. قال شيخ الإسلام: «وقد مدح الله الإحسان، ورغَّب في استصحابه لجميع الأعمال القلبية والبدنية والمالية في غير موضع من كتابه»[(٢)].

ولما كانت منزلة الإحسان بهذا العلو والرفعة من الدين صارت هي «لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها»[(٣)].

ولعلو مرتبته وشموله للدين قرّر الشنقيطي أننا خلقنا لأجله ثم استدل بعدة آيات منها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[هود:٧]. ولم يقل أكثر عملًا. وقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ ثم بين الحكمة في خلق الأرض وزينتها فقال: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[الكهف:٧]، ولم يقل: أكثر عملًا[(٤)].

درجات الإحسان:

للإحسان من حيث البداءة والاستمرار درجتان هي:

١- الإحسان في القصد: بأن يكون قصدُه ونيتُه خالصةً لله سبحانه متبعًا فيها رسوله

---

(١) الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨/ ٣٣٦) رقم (٨٧٩٦)، و«حلية الأولياء» (٦/ ١٢٤)، قال شيخ الإسلام: «حديث حسن». «العقيدة الواسطية» (١٥).

(٢) «شرح حديث جبريل» (٥٨٣).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥٩).

(٤) «العذب النمير» (٣/ ٦٦).

ﷺ عازمًا على المضي في ذلك، وذلك لأَنَّ أَوّلَ المراقبة هو علم القلب بقرب الله تعالى منه قال الحسن: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن أحدًا لا يعمل حتى يهمَّ، فإن كان لله عَزَّ وَجَلَّ مضى، وإن كان لغير الله أمسك»(١).

٢- الإحسان في الأحوال: وذلك أَنَّ العبد قد تستقيم حاله على حالة حسنة من طاعة الله ومراقبته واستشعار رؤيته فعليه أن يحافظ على تلك الحال لئلا تتحول من الأعلى إلى الأدنى. ومما يعينه على ذلك الإكثار من ذكر الله وإخفاء ذلك عن الناس وعدم تحديثهم بها؛ لأن إظهار ذلك من حظوظ النفس.

أنواع الإحسان:

ينقسم الإحسان إلى قسمين:

أحدهما: الإحسان مع الله:

أي الإحسان في عبادته وطاعته والتقرب إليه «كأنه يراه إجلالًا ومهابة وحياءً ومحبة وخشية»(٢).

وهذا النوع من الإحسان «يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى»(٣).

وأبلغُ مَنْ عرَّفَه رسول الله ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأَنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ؛ فإنَّهُ يراك**»(٤).

الإحسان مع الله هو أعظم أنواع الإحسان ولذلك ذكره الله قبل أن يذكر النوع

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٥٣٩-٥٤٠) رقم (٦٨٩٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٨).

(٣) «شرح حديث جبريل» (٥٧٨).

(٤) سبق تخريجه.

الآخـــر فقـــال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء:١٢٥].

فذكر إحسان الدين أولًا وهو الإحسان المسئول عنه في حديث جبريل، ثم ذكر الإحسان ثانيًا [(١)] أي الإحسان مع الخلق.

مقامات الإحسان مع الله ومراتبه:

حدد النبي ﷺ مقامات الإحسان ومراتبه بمقامين عظيمين أعلاهما مقام المشاهدة: وهذا المقام عبّر عنه بقوله: «**أن تعبد الله كأنَّك تراهُ**».

وهي أن يغلب على العبد مشاهدة الحق تبارك وتعالى بقلبه حتى كأنه يراه بعينه.

وشرح هذا المقام ابن رجب فقال: «أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان»[(٢)].

ونظمه حافظ حكمي فقال:

وَثَالِثٌ مَرْتَبَةُ الإحْسَانِ ... وتلكَ أعلاهَا لدى الرَّحْمنِ
وِهِيَ رُسُوخُ القَلْبِ في العِرْفانِ ... حتَّى يكونَ الغَيبُ كالعَيانِ[(٣)]

ومن أدلة هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الروم:٢٧]. حيث فسر طائفة من العلماء المثل الأعلى بمقام المشاهدة. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[النور:٣٥]. والمراد مثل نور الله في قلب المؤمن كذا قاله أبيّ بن كعب وغيره من السلف[(٤)].

---

(١) «شرح حديث جبريل» (٥٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠٨).

(٣) «سلم الوصول المطبوع مع معارج القبول» (٢/ ٣٩٩).

(٤) «استنشاق نسيم الأنس» (٩٦)، وانظر: «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٩٤).

وكان ﷺ يوصي أصحابه بالإحسان، ويبدأ بمقام المشاهدة، وربما اقتصر عليه؛ لأنه أعلى المقامات ومن ذلك وصيته لأبي ذر رضي الله عنه التي ذكرها أبو ذر، فقال: أوصاني خليلي ﷺ **«أن أخشى الله كأني أراه، فإن لم أكن أراه فإنه يراني»**[(١)].

وكذلك وصيته لزيد بن أرقم عندما قال له: **«اعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك»**[(٢)].

ووصيته أيضًا لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث اقتصر على مقام المشاهدة كما يرويها ابن عمر فيقول: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: **«اعبد الله كأنَّك تراهُ»**[(٣)].

ولما طلب منه معاذ أَنْ يوصيه قال ﷺ: **«اعبد اللهَ كأنَّك تراهُ واعدد نفسك مع الموتى»**[(٤)].

ومما يدل على أَنّ مقام المشاهدة هو أعلى مقامات الإحسان أَنَّ النبيَّ ﷺ بدأ به، ثم بيّن أن من لم يستطع وصول هذا المقام أن ينتقل إلى المقام الذي دونه فرغب بالأعلى ثم أذن بالانتقال إلى ما هو دونه وما فيها دني فقال: **«اعبد اللهَ كأنَّك تراهُ فإن لم تكن تراه؛ فإنَّهُ يراك»**.

ويصور ابن القيم مقام المشاهدة أبدع تصوير فيقول: «كأنه يرى ربه سبحانه فوق سماواته على عرشه، مطلعًا على عباده ناظرًا إليهم، يسمع كلامهم. ويرى ظواهرهم وبواطنهم. وكأنه يسمعه وهو يتكلم بالوحي. ويكلم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما

---

(١) «الأربعين» لأبي نعيم (٣٩) رقم (١٢)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ١٢٩).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٣) أحمد (٩/ ١٥-١٦) رقم (٦١٥٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٨٩) رقم (١١٨٠٣).

(٤) «الزهد» لهناد (٢/ ٥٣١) رقم (١٠٩٢)، و«الصمت» لابن أبي الدنيا (٥٦) رقم (٢٢)، قال المنذري: «إسناده جيد». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٥٢٢).

يريد، ويدبر أمر المملكة. وأملاكه صاعدة إليه بالأمر، نازلة من عنده به.

وكأنه يشاهده، وهو يرضى ويغضب، ويحب ويبغض، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويثني على أوليائه بين ملائكته، ويذم أعداءه.

وكأنه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين، وقد قبضت إحداهما السموات السبع، والأخرى الأرضين السبع. وقد طوى السموات السبع بيمينه، كما يُطوى السِّجلُّ على أسطر الكتاب.

وكأنَّه يشاهده، وقد جاء لفصل القضاء بين عباده. فأشرقت الأرض بنوره. ونادى -وهو مستوٍ على عرشه- بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب «**وعزَّتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظُلم ظالمٍ**»[(١)].

وكأنه يسمع نداءه لآدم «**يآدم، قم. فابعث بَعْث النار**»[(٢)] بأذنه الآن، وكذلك نداؤه أهل الموقف: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٦٥]. و﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾[الشعراء:٩٢].

وبالجملة فيشاهد بقلبه ربًا عرّفت به الرسل كما عرفت به الكتب، ودينًا دعت إليه الرسل وحقائق أخبرت بها الرسل، فقام شاهد ذلك بقلبه... فهذا إيمانه يجري مجرى العيان»[(٣)].

ولتأثير تلك التربية على الصحابة رضي الله عنهم عاشوا مقام المشاهدة عمليًّا في واقع حياتهم، وصار هو هجيراهم في مواعظهم، ومن ذلك:

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٩٥) رقم (١٤٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٤١)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾. رقم (٤٧٤١)، ومسلم (١/ ٢٠١-٢٠٢)، كتاب «الإيمان»/ باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». رقم (٢٢٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٣-١٥٤)

ما قالته أم أبان بنت عتبة بن ربيعة عندما خطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه جوابًا لمن سألها لماذا امتنعت من الزواج به؟ قالت: «قد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه»(١).

وأما عبدالله بن عمر رضي الله فيمتنع من تكليم عروة بن الزبير لسبب واحد، يحدثنا عنه عروة بن الزبير فيقول: خطبت إلى عبدالله بن عمر ابنته، ونحن في الطواف، فسكت ولم يجبني بكلمة، فقلت: لو رضي لأجابني، والله لا أراجعه فيها بكلمة أبدًا، فقدَّر الله له: أن صدر إلى المدينة قبلي، ثم قدمت فدخلت مسجد رسول الله ﷺ فأتيت ابن عمر «فرحَّب بي وقال متى قدمت؟ فقلت: هذا حين قدومي. فقال: أكنت ذكرت لي سودة بنت عبدالله ونحن نتخايل الله بين أعيننا؟ وكنت قادرًا على أن تلقاني في غير ذلك الموطن فقلت: أمرًا قُدِّر. قال: فما رأيك اليوم؟ قلت: أحرص ما كنت عليه قط، فدعا ابنيه: سالمًا وعبيد الله فزوجني»(٢).

والشاهد هو قوله معاتبًا لعروة بن الزبير: «أكنت ذكرت لي سودة بنت عبدالله ونحن نتخايل الله بين أعيننا».

ومن مواعظهم: قال أبو الدرداء رضي الله عنه حاثًّا عموم المسلمين على استحضار مقام المشاهدة: «اعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى»(٣). ولما وصى ذلك الغازي في سبيل الله، وصَّاه به فقال له: «اتق الله كأنك تراه حتى تلقاه»(٤).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٩٧).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٩) و«أخبار مكة» للفاكهي (١/ ٣٥٠) رقم (٣٢٠).

(٣) «الزهد» لوكيع (١/ ٢٣٤-٢٣٥) رقم (١٣)، و«الزهد» لأحمد (١٦٨)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠٥) رقم (١٦٤٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٧٦).

وقال زيد بن أرقم لأحدهم: «اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه؛ فإنه يراك»[١].

الثاني: مقام المراقبة:

بيّنَهُ النبي ﷺ بقوله: «**فإن لم تكن تراهُ؛ فإنَّه يراك**».

وهو أن يستحضر العبد في قلبه مشاهدة الله إياه وإطلاعه عليه وقربه منه في جميع أحواله. قال شيخ الإسلام: «ومراقبة الله هي السر المطلوب في جميع أحوال العبد»[٢].

وعرف ابن القيم المراقبة فقال: «هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه»[٣].

وعرفها بعضهم فقال: «مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة»[٤].

وهي مرتبطة باسم الله العليم والرقيب والحفيظ والسميع والبصير. فمن استشعر أن الله رقيبٌ عليه ناظر إليه سامع لقوله عالم بسره وعلانيته مطلع على عمله كل وقت بل كل لحظة وطرفة عين، أثمر له ذلك مراقبته لربه.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[البقرة:٢٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾[الأحزاب:٥٢].

قال عبدالله بن فاتك لما سئل عن المراقبة: «إن كنت فاعلًا فانظر نظر الله إليك، وإن كنت قائلًا فانظر سمع الله لك، وإن كنت ساكتًا فانظر علم الله فيك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]»[٥]. ومثله عن حاتم الأصم[٦].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٤/ ٥٥) رقم (١٧٥٤٦).

(٢) «شرح حديث جبريل» (٥٨١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٦٦).

(٥) «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٥٨).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٥).

وما أجمل موعظة أبي حفص رحمه الله لأبي عثمان النيسابوري كي لا ينخدع باجتماع الناس عليه أثناء موعظته إياهم إذ قال له: «إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك»[(١)].

وكان الشافعي وأحمد كثيرًا ما يتمثلان بهذه الأبيات:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفل ساعةً ... ولا أن ما تُخفي عليه يَغيبُ
غفلنا لعمرو الله حتَّى تتابعتْ ... علينا ذُنُوبٍ بعدهُنَّ ذُنُوبُ
فيا ليتَ أنَّ اللهَ يغفرُ ما مضى ... ويأذنُ لي في توبة فَأَتُوبُ[(٢)]

ومن أعظم ما يورث المراقبة ذكرُ الله تعالى قال ابن القيم: «الذكر يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه»[(٣)].

وعلامة المراقبة الحقة هي: «إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله»[(٤)].

ويحدثنا عبدالله بن مسلم كيف يعظم أبوه يسار ما عظم الله فيقول قال أبي: «إني أكره أن يراني الله عز وجل أصلي له قاعدًا من غير مرض»[(٥)].

ولقد كانت هذه العلامة ظاهرة جلية على سلفنا الصالح في وصاياهم فلقد وصَّى سلمان رضي الله عنه وهو في مرض موته سعدًا فقال له: «يا سعد! اذكر الله عند همك إذا هممت

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٦).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٠٨) و«حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٠)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٩/ ٤١٧).

(٣) «الوابل الصيب» (٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

(٥) «الزهد» لأحمد (٣٠٨).

وعند يديك إذا قسمت وعند حكمك إذا حكمت»[١].

ونظر محمد بن يوسف إلى رجل يبيع المتاع بمكة، فقال له: «انظر ألا يراك الله وأنت تخادع الناس في حرمه فيمقتك»[٢].

أما عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فيبرئ ساحته من التهمة معللًا أن السر في ذلك هو مراقبة الله عز وجل، كما قال أبو النضر: «دسست إلى عمر بن عبدالعزيز بعض أهله أن قل له إن فيك كبرًا وأنك تتكبر. فقيل ذلك له. فقال عمر: لبئس ما ظننت أن كنت تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه؟ الكبرياء إنما هو رداء الرحمن أفانازعه إياه»[٣].

ولم تكن مراقبة الله خاصة بعلماء القوم وعبّادهم بل حتى عبيدهم ورعاء شائهم.

يحدثنا عن ذلك نافع فيقول: خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له ووضعوا سفرة لهم، فمرّ بهم راعي غنم، قال: فسلم. فقال ابن عمر: هلمّ يا راعي، هلُمّ فَأَصِبْ من هذه السفرة، فقال له: إني صائم، فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحارّ شديد شموسه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال له: إني والله أبادر أيامي الخالية، فقال له ابن عمر وهو يريد يختبر ورعه، فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه، فنعطيك ثمنها، ونعطيك من لحمها، فقال: إنها ليست لي، إنها غنم سيدي، فقال له ابن عمر، فما عسى سيدك فاعلًا إذا فقدها، فقلت: أكلها الذئب، فولّى الراعي عنه وهو رافع إصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله، قال: فجعل ابن عمر يردّد قول الراعي، وهو يقول: قال الراعي: فأين الله.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٤).

(٣) «سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي (١٤٨).

قال: فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي ووهب له الغنم(١).

بل حتى الصغار كان السلف يربونهم على مراقبة الله مع صغر سنهم لما في ذلك من الأثر الكبير على استقامتهم ومن ذلك ما قصه لنا سهل بن عبدالله التستري قال: كنت وأنا صغير أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟

فقال: قل في نفسك: الله معي، الله ناظري الله شاهدي، فقلت ذلك.

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما عَلَّمْتُك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في قلبي ونفسي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل من كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده. أيعصيه؟ إياك أن تعصي الله تعالى(٢).

وإذا انعدمت مراقبة الله انقلبت حال العبد إلى تعظيم المخلوق وترك الذنب والمعصية، لأجل رؤيته له وربما خوفًا منه، بينما تجده عندما يستخفي عن أنظار الناس يستهين بنظر الخالق إليه فلا يبالي ما ارتكب من المعاصي والذنوب.

قال وهيب بن الورد واعظًا أحد إخوانه «اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك»(٣).

ونظم هذه العبارة أحدهم فقال:

كُنْ حييًّا إذا خلوت بذنبٍ ... ليس يخفى على الرَّقيب الشَّهِيدِ
أتهاوَنْتَ بالإلهَ تخفيًا ... وتواريتَ عن عُيُونِ العبيدِ

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (٩/ ٤٩٠-٤٩١) رقم (٤٩٠٨).

(٢) انظر: «أنباء نجباء الأبناء» لابن ظفر المكي (١٤٤).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ١٤٢).

أَقَـرَأت القـرآن أم لـست تـدري ... أنَّ مـولاك دونَ حـبـل الوريـدِ[١]

ثانيًا: الإحسان مع الخلق:

والإحسان إلى الخلق هو بذل الخير لهم والرفق بهم، وهو عام في المعاملة مع كل خلق الله تعالى، قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ كتب الإحسان على كلِّ شيءٍ**»[٢]، قال الراغب: «فالإحسان فوق العدل، وذاك أنّ العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له»[٣].

ومن ذلك:

١ - الإحسان إلى الوالدين:

أحق الخلق بالإحسان هم الوالدان وهذا هو الذي حدا بالنبي ﷺ أن يقدمه على الهجرة والجهاد معه حين جاءه رجل يريد الهجرة والجهاد فقال له: «**فتبتغي الأجر من الله؟**». قال: نعم، قال: «**فارجع إلى والديك، فأحسن صُحْبَتَهُما**»[٤].

٢ - الإحسان إلى الزوجات:

أرشد النبي إلى الإحسان إلى الزوجات فقال: «**ألا وحقُّهُنَّ عليكم أن تُحْسِنُوا إليهنَّ في كسوتهنَّ وطعامهنَّ**»[٥].

---

(١) «طهارة القلوب» (٢٩٥).

(٢) مسلم (٣/ ١٥٤٨)، كتاب «الصيد والذبائح»/ باب الأمر بإحسان الذبح والقتل. رقم (١٩٥٥).

(٣) «المفردات» (١٢٦).

(٤) مسلم (٤/ ١٩٧٥)، كتاب «البر والصلة»/ باب بر الوالدين وأنهما أحق به. رقم (٢٥٤٩).

(٥) الترمذي (٣/ ٤٦٧)، كتاب «الرضاع»/ باب ما جاء في حق المرأة على زوجها. رقم (١١٦٣)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥٩٤)، كتاب «النكاح»/ باب حق المرأة على زوجها. رقم (١٨٥١).

٣- الإحسان إلى البهائم:

لم يقتصر الإحسان في الإسلام على البشر بل شمل البهائم، فأمر النبي ﷺ بالإحسان إليها فقال: «**في كلِّ كبدٍ رطْبةٍ أجرٌ**»(١). بل تعدى الإحسان إليها حتى عند ذبحها قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ كتب الإحسان على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنُوا الذّبحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شفرتهُ، وليرحْ ذبيحتَهُ**»(٢).

والإحسان مع الله والخلق يجمعه ثلاثة أمور:

١) طاعة الله في أخذ ما حلَّ وترك ما حرَّم.

٢) التورع عن الشبهات ما استطاع.

٣) نية نفع الخلق في كلّ يوم فيما يسّر الله من مصالحهم على يديه(٣).

ثمرات الإحسان:

للإحسان ثمرات جليلة أبرزها ما يلي:

١- النظر إلى وجه الله تعالى:

النظر إلى وجه الله أعظم ثمرات الإحسان بل هو أعظم نعيم أهل الجنة قال تعالى ممتنًا عليهم به: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس:٢٦].

والزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة كما فسرها بذلك النبي ﷺ(٤) قال ابن رجب: «وهذا مناسبٌ لجعله جزاءً لأهل الإحسان، لأنَّ الإحسان هو أن يعبدَ المؤمنُ ربَّه

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٤٠-٤١)، كتاب «المساقاة»/ باب فضل سقي الماء. رقم (٢٣٦٣)، ومسلم (٤/ ١٧٦١)، كتاب «السلام»/ باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها. رقم (٢٢٤٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «شرح حديث جبريل» (٦٠٩).

(٤) مسلم (١/ ١٦٣)، كتاب «الإيمان»/ باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم ﷻ. رقم (١٨١).

في الدُّنيا على وجه الحضور والمراقبةِ، كأَنَّهُ يراهُ بقلبه، وينظرُ إليه في حال عبادته، فكان جزاءُ ذلك النَّظر إلى وجه الله عيانًا في الآخرة»[١].

٢- قرب رحمة الله من المحسنين:

قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف:٥٦].

فمن تقرب إلى الله بالإحسان تقرّب الله إليه بالرحمة وأحسن إليه بالمغفرة وأدخله الجنة قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن:٦٠]. وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

فدلت هذه الآية ثلاث دلالات:

أ- دلت بمنطوقها على قرب الرحمة من أهل الإحسان.

ب- دلت بإيمائها وتعليلها على أن هذا القرب مستحق بالإحسان.

جـ- دلت بمفهومها على بعده من غير المحسنين[٢].

قال الشافعي:

صبرًا جميلًا ما أقربَ الفرجا ... من راقب الله في الأمور نجا[٣]

٣- محبة الله للمحسنين:

محبة الله للإنسان مرتبةٌ عليا. ترنو إليها نفوس أصحاب الهمم العالية وهي ثمرة لإحسان العبد فيما بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[البقرة:١٩٥]. فأمر الله بالإحسان وبيّن ثمرته وهي محبته للمحسن، ويا لها من ثمرة اشرأبت لها أعناق

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٧).

(٣) «ديوان الشافعي» (٤٥) و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٣٦٢).

الصحابة رضي الله عنهم عندما قال لهم النبي ﷺ: «**لأعطينَّ هذه الرَّاية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبُّ اللهَ ورسوله، ويُحِبُّهُ اللهُ ورسولُهُ**». فبات الناس يدُوكون ليلتهم أَيُّهم يعطاها[1]. حرصًا على أن ينالوا هذه المرتبة العظيمة؛ وهي محبة الله إياهم فـ «ليس الشأن أن تُحِبَّ ولكن الشأن أن تُحَب»[2].

٤- الإخلاص:

إذا عمل العبد على استِشعار رقابة الله تعالى عليه ورؤية الرب تبارك وتعالى إياه وقربه سبحانه منه ومعرفته بخلجات قلبه أوجب له ذلك الإخلاص في عبادته «لأنَّ استحضارَهُ ذلك في عمله يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ الله وإرادته بالعمل»[3].

٥) الحياء من الله تعالى:

استشعار العبد معيَّةَ الله له في أيِّ مكان كان وفي أي لحظة كانت ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤]. يوجب له ذلك شدة الحياء منه فلا يعمل إلا ما يرضيه، ولذلك حث النبي على مداومة استحضار معيَّةِ الله والحياء منه، فقال عندما سُئل عن كشف العورة خاليًا: «**اللهُ أحقُّ أن يُسْتَحْيا منه**»[4].

٦- حفظ الله ومعيته:

من أحسن العمل صار الله معه فحفظه ووقاه الشرور، ومن أبرز ما يوضح ذلك قول

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٤٤)، كتاب «الجهاد»/ باب في غزوة خيبر. رقم (٤٢١٠)، ومسلم (٤/ ١٨٧٢)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. رقم (٢٤٠٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣٢).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٢).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٣٨٥)، كتاب «الغسل»/ باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة ومن تستر فالستر أفضل.

المصطفى ﷺ لأبي بكر وهما في الغار: «**ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهُما**»(١). قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة:٤٠]، وليس هذا خاصًا بالنبي ﷺ وأبي بكر بل هو عام لكل محسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

قال سليم بن أخضر: أردت السفر إلى مكة فأتيت ابن عون لأودعه فقال: يا سليم اتق الله، وعليك بالإحسان، فإن المحسن معان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٢) [النحل:١٢٨].

٧- خشية الله وتعظيمه:

وذلك أَنَّ العبد إذا استشعر قرب الرب منه واستشعر أسماءه وصفاته كأنه يراه ولَّد ذلك عنده خشية الله وتعظيمه وإجلاله وهيبته، وهو الذي أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: «**أن تخشى اللهَ كأنَّكَ تراهُ**»(٣).

٨- صلاح العبادة:

وذلك أن «مشهد الْإِحْسَان أصل أَعمال الْقُلُوب كلهَا فَإِنَّهُ يُوجب الْحيَاء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سُبْحَانَهُ والذل لَهُ وَيقطع الوساوس وَحَدِيث النَّفس وَيجمع الْقلب والهمّ على الله.

فحظ العبد من القرب من الله على قدر حَظه من مقَام الإحسان وبحسبه تتفاوت

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٢٥)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. رقم (٤٦٦٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل أبي بكر الصديق. رقم (٢٣٨١).

(٢) «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٦٢).

(٣) سبق تخريجه.

الصَّلاة حتَّى يكون بين صلاة الرجلَيْن من الفضل كما بين السَّماء والأرض وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد»[(١)].

قال حسين بن غنّام: «وحقيقة الإحسان: أَنْ يعبد المؤمنُ ربَّه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته، فإذا عبد الله تعالى على هذه الصفة أوجبت له النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها»[(٢)].

٩- اجتناب الذنوب والإقلاع عنها:

أعظم ما يمرض القلب وقد يقتله ارتكاب الذنوب والمعاصي سواء كانت قلبية أو بدنية. والعبد معرَّض لها بحكم طبيعته البشرية وتزيين الشيطان لها عنده.

فيحاول فعلها مستخفيًا عن الخلق ولكنه لا يستطيع الاستخفاء عن نظر الله قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ ثم بيّن أن سبب عدم قدرتهم على الاستخفاء من الله هو معيته لهم ورقابته عليهم وإحاطة علمه بهم فقال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾[النساء:١٠٨]. فاتضح من هذه الآية أنه لا يحمي العبد من ارتكاب الذنوب إلا شعوره الوقاد برقابة الله تعالى عليه في كل لحظة وخطرة ونظرة.

أثقلت كاهل أحدهم النظرات إلى النساء ولم يستطع التخلص منها فشكا حاله على أحد الصالحين قائلاً: بم أستعين على غض البصر؛ فأجابه بقوله: «بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظر إليه»[(٣)].

ولما قدم أبو العباس بن سريج قاضيا على بلاد فارس سأله أبو عبد الله النجراني قال:

---

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٣٨-٣٩).

(٢) «العقد الثمين» (٥٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٩).

«متى يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة؟ فكان جوابه: إذا علم أن عليه رقيبًا»(١).

ومن الخطورة بمكان أن يُزَيِّنَ العبدُ ظاهره بالصالحات وقد شان باطنه بالخطيئات.

قال بلال بن سعد: «لا تكن وليَّ الله في العلانية وعدوَّه في السر»(٢).

ويُهَوِّنُ الشيطان الخطرات والوساوس بحجة أنه قد عفي عن أمة محمد ﷺ ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم، فإذا ركن إليها نقله إلى الهم والعزم ثم العمل وهناك تقع الكارثة، ولذلك كان السلف يعالجون الأمر في مبدئه، قال أحدهم: «من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه»(٣).

ويقول أبو حفص النيسابوري: «حرست قلبي عشرين سنة ثم حرسني عشرين سنة»(٤).

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (٣/ ١٤٢) رقم (٨٥٤).

(٢) «الزهد» لأحمد (٣١٢)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢٢٨)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٢٧٤) رقم (٦٥٤٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥١١).

والدليلُ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨].

....

﴿ إِنَّ ﴾: للتوكيد. توكيد معية الله للمحسنين الذين علت رتبتهم حتى وصلوا مرتبة الإحسان.

﴿ٱللَّهَ ﴾: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين.

﴿مَعَ ﴾: إثبات صفة المعية لله سبحانه معية تليق بجلاله وعظمته وهي قسمان:

١- **معية عامة**: تشمل جميع المخلوقات بالعلم والإحاطة والاطلاع، وضابطها: «أن ترد مطلقة غير مقيدة».

قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾[المجادلة:٧].

٢- **معية خاصة**: خاصة بالمؤمنين بالحفظ والنصر والتأييد والتوفيق، وضابطها: «أن ترد مقيدة بوصف أو شخص».

ومثال المقيدة بشخص كقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠].

مثال المقيدة بوصف كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٦].

وتجتمع هاتان المعيتان في المؤمن وتفترقان في الكافر فهو سبحانه عالم بكل خلقه مؤمنهم وكافرهم مطلع عليهم محيط بهم كلهم لا تخفى عليه منهم خافية، ولكن نصره وتأييده وحفظه خاص بالمؤمنين دون الكافرين.

مَعِيَّــةُ الله عَمّــتْ كـــلَّ مَوْجُــودِ إِنْ أُطْلِقَـتْ يـا عُظْـمَ مَعْبُـودِي
أَوْ قُيِّـدَتْ بِـشَخْصِ عَبْـدٍ صَـالِحِ أَوْ وَصْفِه تَخَصَّصَتْ بِمُؤْمِنٍ مُنَافِحِ

﴿ٱتَّقَواْ﴾: التقوى إذا جاءت لوحدها فهي فعل المأمور واجتناب المحظور، وحقيقتها أن يجعل الإنسان بينه وبين المخوف واقيًا يقيه.

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم﴾: ضمير الفصل يفيد الاختصاص أي: اختصاص المحسنين بكون الله معهم. وهم: مبتدأ. ومحسنون: خبرها.

﴿مُّحۡسِنُونَ﴾: الإحسان هو غاية ما يستطيعه العبد في تحسين العمل فهو درجة فوق التقوى (هذا إذا ورد لوحده).

أما إذا وردت التقوى مع الإحسان في موضع واحد صارت التقوى لاجتناب المحظور والإحسان لفعل المأمور. قال الحسن: «اتقوا الله فيما حرَّم عَلَيْهِمْ. وأحسنوا فيما افترض عَلَيْهِمْ»(١). أي أنهم اتقوا المحارم فاجتنبوها لأجل الله، وأحسنوا فيما افترض الله عليهم فلزموا طاعته.

ومما يدل على هذا جواب النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة حيث قال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»(٢).

قال شيخ الإسلام: «فيدخل في تقوى الله حِفْظُ الْفَرْجِ وغَضُّ الْبَصَرِ، ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق»(٣).

(١) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٣١٣) رقم (١٥٢٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٠٧) رقم (١٢٦٩١).

(٢) الترمذي (٤/ ٣٦٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في حسن الخلق. رقم (٢٠٠٤)، وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ٥٩٦)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الذنوب. رقم (١٨٥٧)، و«الأدب المفرد» (١٠٦) رقم (٢٩٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٨٨).

وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الشعراء:٢١٧- ٢٢٠].

....

بعد أن أمر الله نبيه بدعوة قومه إلى التوحيد بقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤] أرشده إلى ما يعينه على ذلك وهو الاعتماد عليه وحده؛ لأنه العزيز الذي يغلب ولا يغلب فلا تغلب قوته قوة ومع عزته فهو رحيم بك فلم يكلفك ما لا تطيق وهو رحيم بعباده يوفقهم للاستقامة على أمره وشرعه فقال:

﴿ وَتَوَكَّلْ﴾: أي اعتمد على ربك وفوض أمرك إليه.

﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ﴾: العز في اللغة القوة والشدة والغلبة والامتناع رجل عزيز أي منيع لا يغلب ولا يقهر(١).

قال ابن كثير: «العزيز الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه(٢).

ونظمها ابن القيم فقال:

وهو العزيزُ فلنْ يرام جنابُهُ ... أنَّى يُرامَ جنابُ ذي السُّلْطَان
وهو العزيز القاهر الغَّلاب لَمْ ... يغلِبْهُ شيءٌ هذه صفتان
وهو العزيزُ بقُوَّةٍ هي وصفهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ معان(٣)

---

(١) انظر: «اللسان» (٤/ ٢٩٢٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٦٩).

(٣) «الكافية الشافية» (٢/ ٢١٨).

فصارت معاني العزيز ثلاثة هي:

١- المنيع الذي لا يرام جنابه (عزة الامتناع)

٢- القاهر الذي لا يغلب (عزة الغلبة)

٣- القوي الشديد (عزة القوة)

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: مشتق من الرحمة[١] وهو ذو الرحمة الواصلة، فالرحيم دال على تعلقها بالمرحوم.

وفائدة جمعه سبحانه بين العزيز والرحيم لبيان أنه يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾: في قوله يراك إثبات رؤية الله لعباده تعالى كما يليق بجلاله وعظمته فيرى كل شيء لا تخفى عليه خافية، بصره نافذ في جميع خلقه. وهذا هو مقام المراقبة.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الحين هو الوقت من الزمان[٢] أي وقت قيامك من نومك للتهجد لوحدك في ظلمة الليل لا يعلم بك أحد ولا يراك أحد فإن الله يراك ويرى عبادتك وطاعتك، وذكر القيام لشرفه بما يتلى فيه، وهو القرآن؛ لأنه كلام الله.

﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾: عطف على مفعول يراك أي ويرى تقلبك في حال الصلاة ما بين قيام وركوع وسجود وقعود؛ وذلك لأنّ المصلي لا يثبت على حال واحدة بل يراوح بين تلك الهيئات.

﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: أي في المصلين، وعبّر عن المصلين بالساجدين لأن العبد أقرب ما

---

(١) «المحيط في اللغة» (٣/ ٩٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (٥/ ٢٥٥).

يكون من ربه وهو ساجد[١] وهي أفضل هيئات المصلي. فيراك حين تقوم للصلاة لوحدك ويراك إذا صليت مع المصلين جماعة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾: أي وحده سبحانه.

﴿هُوَ﴾: ضمير الفصل يفيد الاختصاص، اختصاصه بالرؤية التامة والسمع والعلم التامَّيْن.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: أي السميع لجميع أقوالكم. قال الطبري: السميع لتلاوتك يا محمد وذكرك في صلاتك ما تتلو وما تذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها مَنْ يتقلب فيها معك مؤتمًا بك، فرتل فيها القرآن وأقم حدودها فإنك بمرأى من ربك ومسمع[٢].

والسميع من صيغ المبالغة فهو «السميع لما ينطق به خلقه من قول»[٣].

قال ابن القيم:

وهو السَّميعُ يرى ويسْمَعُ كلَّ ما ... في الكونِ مِنْ سرٍّ ومِنْ إعلانِ
ولكُلِّ صوتٍ منه سمعٌ حاضرٌ ... فالسرُّ والإعلانُ مستويانِ
والسَّمْعُ منه واسعُ الأصوات لا ... يخفى عليه بعيدُها والدَّاني[٤]

ومناسبة ذكره ﷻ السمع مع الرؤية أنّ استشعار العبد سماع الله لقوله يوجب له مراقبة الله تعالى في جميع أقواله فلا يتكلم بالفحش والخنا ولا يقول إلا ما يرضي الله واستشعار الرؤية يوجب له مراقبة الله في أعماله فلا يعمل إلا ما يرضي الله.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: المحيط علمه بكل شيء ظاهر أو خفي، ماض أو حاضر أو مستقبل، واقع

(١) مسلم (١/ ٣٥٠)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (٤٨٢).

(٢) «جامع البيان» (١٩/ ١٢٤).

(٣) «جامع البيان» (٢٥/ ١٣).

(٤) «الكافية الشافية» (٢/ ٢١٥).

أو لم يقـع ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

وجمع الله بين اسميه السميع والعليم؛ لأن الصلاة فيها لفظُ يُسمع ونية بالقلب تعلم، فأخبر الله أنه سامع للأقوال عالم بالنيات وهذا من أعظم موجبات مراقبة الله تعالى والإحسان في عبادته.

ومن فوائد هذه الآية:

١ - أَنّ علة الأمر بالتوكل على الله هو عزته وقهره وجبروته، فهو غالب لا يُغْلَب ومن ثم ينصرهم على عدوهم.

٢ - أَنّ الذي يستشعر مراقبة الله له في صلاته يحسنها عملًا ركوعًا وسجودًا وقيامًا ويحسنها نية فلا يلتفت بقلبه إلى غير الله تعالى.

٣ - أَنّ الذي يستشعر رؤية الله وهو في صلاته تهون عليه مشقتها فيجد في قلبه اللذة العظيمة حين يؤديها ولهذا قال سيد ولد آدم ﷺ: «**وجعلت قرَّةُ عيني في الصَّلاة**»(١).

---

(١) أحمد (٣/ ٢٨٥)، والنسائي (٧/ ٦١)، كتاب «عشرة النساء»/ باب حب النساء، وقال الذهبي: «إسناده قوي». «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٧٧)، وصححه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٤٠)، وابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٥).

وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١].

....

﴿ وَمَا تَكُونُ ﴾: ما نافية تفيد تخليص المضارع للحال «فقصد أولًا استحضار الحال العظيم من شأن النبي ﷺ ومن قراءته القرآن»(١).

والخطاب للنبي ﷺ ولعله شامل له ولجميع أمته.

وفي خطابه سبحانه للنبي ﷺ ذكر ما فيه تفخيم وتعظيم فقال:

﴿فِي شَأْنٍ﴾: في للظرفية فتفيد شدة التلبس بالشيء، والشأن هو الأمر العظيم أو العمل المهم. قال الأزهري الشأن: الخطْب(٢) ولعل الشأن هنا هو الشأن الذي يهم النبي كثيرًا وهو دعوة الناس إلى التوحيد.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾: الواو واو العطف حيث عطف تلاوة القرآن على الشأن وخص تلاوة القرآن لأنه من أعظم شؤونه ﷺ أي وما تقرأ من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: لا نافية تفيد تخليص المضارع للاستقبال للدلالة على استمرار ذلك في الأزمنة كلها(٣) والعمل عام في كل فعل يفعل فيكون ولا تعملون أي عمل كان. وهذا تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم وأعلاهم شأنًا وقدرًا. فلما عمم ذكر

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٤١٥).

(٣) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٤).

كل عمل يتناول الجليل والحقير، الصغير والكبير، الخير والشر.

﴿إِلَّا﴾: استثناء مفرغ من أعم الأحوال التي اقتضاها الشأن وعموم العمل.

﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: ذكر الله ذاته بصيغة الجمع للتعظيم وذكر الله (كنا) بصيغة الماضي مع أن الأفعال التي قبلها كلها في صيغة المضارع (تكون - تتلو - تعملون) للتنبيه على أن ما حصل ويحصل وسيحصل سواءٌ في علم الله تعالى ورؤيته واطلاعه[١].

﴿شُهُودًا﴾: الشاهد هو: الحاضر، وجاء بصيغة الجمع تبعًا لضمير الجمع المستعمل للتعظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: إذ ظرف أي: حين تفيضون فيه. ومعنى تفيضون أي تفعلون كما قاله ابن عباس[٢]، وقيل: تندفعون فيه أي تشرعون في العمل بقوة واهتمام.

والهاء في (فيه) عائدة على العمل[٣] أي حين تعملون أي عمل.

والمعنى: أي ما تعملون من شيء في أي حال من الأحوال إلا حال كنّا مطلعين عليكم ناظرين لعملكم عالمين به باطنًا وظاهرًا وعبّر بالشهادة؛ لأنها لا تكون إلا عن علم محقق ورؤية تامة.

فائدة:

وهذه الآية تدعو المسلم إلى مراقبة الله على الدوام سواء عند أداء العمل الصالح كي يخلصه لله ويجتهد في موافقة السنة. أو عندما تهم نفسه بالعمل السيء فيخشى رؤية الله له فيعود سريعًا إلى تركه والبعد عنه طاعة لله تبارك وتعالى.

---

(١) «التحرير والتنوير» (٧/ ٩٤).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٦٢) رقم (١٠٤٤٨).

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ٣٥٩).

والدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حديثُ جبريلَ المشهُورُ عن عُمرَ ﵁ قال: بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رسول الله ﷺ إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حتى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فقال: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قال: صَدَقْتَ. قال: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ.

....

نسب الحديث إلى جبريل ﵇ لأنه إجابة أسئلة وجهها جبريل ﵇ إلى النبي ﷺ:

واستدلالُ المؤلف به حسنٌ لأمرين:

١- شموله لأمور الدين كلها مع جمعه لها في موضع واحد، ولا يخفى ما في الجمع من استيعابها كلها ومعرفة الفروق بينها.

٢- تعظيم العلماء لهذا الحديث، ومن ذلك قول القرطبي: «يصلح هذا الحديث أن يقال فيه: إنه (أم السنة) لما تضمنه من جمل علم السنة كما سميت الفاتحة أم الكتاب لما تضمنته من جمل معاني القرآن»[1].

(بينما) (بين): ظرف زمان متضمن معنى الشرط وما زائدة كفتها عن العمل[2] زيدت للتوكيد[3].

نحن: تأتي للجمع فتفيد أن هناك جمعاً من الصحابة حضروا هذا الموقف.

____

(١) «المفهم» (١/ ١٥٢) وانظر: «شرح الأربعين» لابن دقيق العيد (١١).

(٢) «حصول المأمول» (١٤٣).

(٣) «شرح الأربعين» للعثيمين (٢٠).

عند النبي: عند ظرف مكان أي أنهم يجتمعون جلوسًا في المسجد بجوار النبي ﷺ يتعلمون منه إما مباشرة أو يسمعون إجابته على أسئلة السائلين فبينما هم كذلك على عادتهم (**إذ**) هنا الفجائية تضاف إلى الجملتين الاسمية والفعلية ولكن (**إذ**) تكون لما مضى بخلاف إذا: فإنها تضاف إلى المستقبل ولا تضاف إلا إلى الفعلية[١].

طلع رجل: أي ظهر رجل، وهو جبريل عليه السلام جاء إليهم بصورة آدمي.

شديد بياض الثياب: وهذا يدل على أن بياض ثيابه أشد ما يكون من البياض.

شديد سواد الشعر: والمقصود بالشعر هنا شعر اللحية[٢] والرأس[٣].

لا يرى عليه أثر السفر: أثر السفر هو: رثاثة الثياب وشعث الرؤوس وغبرة الأقدام[٤].

فإذا لم يكن عليه أثر السفر فحاله حال مقيم كما ورد في بعض الروايات «**وثيابه ثياب مقيم**»[٥] وفي بعضها: «**أحسن الناس وجهًا وأطيب الناس ريحًا وأنقى الناس ثوبًا**»[٦].

وفي لفظ: «**كأن ثيابه لم يمسها دنس**»[٧].

فمنظره لا يدل على أنه قادم من سفر حتى يقال: إنه غريب لا يعرف. وليس من أهل المدينة حتى يعرفوه، فتحيروا في أمره. ولهذا قال: ولا يعرفه منا أحد بل إنّ النبي ﷺ لم

---

(١) انظر: «المفهم» (١/ ١٣٧).

(٢) «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٠٥) رقم (٢٥).

(٣) ابن ماجه (١/ ٢٤)، «المقدمة»/ باب في الإيمان. رقم (٦٣).

(٤) انظر: «صحيح مسلم» (٢/ ٧٠٣)، كتاب «الزكاة»/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب. رقم (١٠١٥).

(٥) «السنة» لعبد الله بن أحمد (٢/ ٤١٣) رقم (٩٠١)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٥٥) رقم (١٢٠).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٨٥) رقم (٣٧٨).

(٧) النسائي (٨/ ١٠١)، كتاب «الإيمان»/ باب صفة الإيمان والإسلام.

يعرفه حتى ذهب بدليل قول النبي ﷺ: «**هذا جبريلُ أتاكُمْ ليُعلّمَكُمْ دينكُم فخُذُوا عنه والَّذي نفسي بيده ما شُبِّه عليَّ منذُ أتاني قبل مرتي هذه، وما عرفته حتَّى ولَّى**»[(١)].

وفي رواية أحمد: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ما أتاني في صورة إلا عرفته غير هذه الصورة**»[(٢)].

وفي رواية البخاري: «**ذاك جبريل جاء يعلمكم دينكم، لم يأتني على حال أنكرته قبل اليوم**»[(٣)].

(حتى جلس إلى النبي): ولم يقل جلس عنده ليفيد الغاية أي: أن جلوسه كان ملاصقًا للنبي ﷺ ولهذا قال بعدها مباشرة «**فأسند ركبتيه إلى ركبتيه**»، أي أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ بدليل الرواية الأخرى: «**فألزق ركبته بركبته**»[(٤)]، وفي رواية «**حتى وضع ركبتيه على ركبتي رسول الله ﷺ**»[(٥)].

(ووضع كفيه على فخذيه): أي وضع ذلك السائل كفيه على فخذي النبي ﷺ بدليل ما ورد عند المروزي «**فدنا منه حتى وضع ركبتيه على ركبتي رسول الله ﷺ ويديه على فخذي رسول الله ﷺ**»[(٦)].

وقال: يا محمد وكان الأحرى به أن يقول: يا رسول الله! وأن يخصه في المخاطبة بما يليق

---

(١) «الإيمان» لابن منده (١/ ١٤٧-١٤٩) رقم (١٣ و١٤)، والدارقطني (٢/ ٢٨٢) رقم (٢٠٧)، وقال في نفس الموضع: «إسناد ثابت صحيح».

(٢) أحمد (٥٢-٥٣).

(٣) «خلق أفعال العباد» (٦١-٦٢) رقم (١٩١).

(٤) الترمذي (٥/ ٦)، كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام. رقم (٢٦١٠)، و«الإيمان» لابن منده (١/ ١٢٦-١٢٧) رقم (٥).

(٥) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٧٤) رقم (٣٦٧).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٣٧٤) رقم (٣٦٧)، وانظر: «سنن النسائي» (٨/ ١٠١).

به دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[النور:٦٣] فنهى أَنْ يقولوا: يا محمد أو يا أحمد أو يا أبا القاسم ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله ﷻ أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدًا من الأنبياء فلم يدعه باسمه في القرآن قط بل يقول: يا أيها النبي...، يا أيها الرسول...

أما غيره فناداهم بأسمائهم ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[البقرة:٣٥] ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[هود:٤٦]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾(١) [المائدة:١١٠].

إذًا السر في ذلك والله أعلم أنه أراد التعمية.

قوله: **(أخبرني عن الإسلام)**: فأجاب بذكر أركان الإسلام ومبانيه العظام وأسسه التي يرتكز عليها. فبدأ بالشهادتين ليبين أن التوحيد هو أصل الدين وأساس العمل وأنه لا يصح ذلك إلا بمعرفة النبي ﷺ والإيمان به واتباعه ولذلك قال بعد قوله أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، «ولم يقل: وأني رسول الله مع أن السياق يقتضيه لأنه يخاطبه، لأن إظهاره باسمه العلم أوكد وأشد تعظيمًا»(٢).

ثم ثنى بإقام الصلاة لعظم قدرها من الدين، ومما يدل على عظم قدرها من دين الله ما يلي:

١- فرضها بعد التوحيد مباشرة:

افترض الله على موسى عليه السلام الصلاة بعد التوحيد مباشرة لم يكن بينهما فاصل، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه:١٣-١٤].

«فدل ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال؛ إذ لم يبدأ مناجيه

---

(١) «الصارم المسلول» (٤٢٢-٤٢٣).

(٢) «شرح الأربعين» للعثيمين (٢١).

وكليمه بفريضة أولى منها»[١].

٢- الأمر بوجوبها: أمر الله بالصلاة وأوجبها فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[النساء:١٠٣]. أي كتابًا واجبًا[٢].

٣- وَعِيدُ من ضَيَّعها: توعد الله من أضاع الصلاة بالعذاب الشديد في نار جهنم فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم:٥٩]. والغي «نهر في جهنم بعيد القعر، خبيث الطعم»[٣].

٤- مدح المصلين: الصلاة أعظم أمور الدين العملية التي أثنى الله على من قام بها، ولذلك كان يبدأ بها قبل أي عمل، قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢].

فمدحهم في أول نعتهم بالخشوع فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر الآيات إعظامًا لقدرها في القربة إليه ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب ونعيم المآب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:٩-١١].

فقوله: **(تقيم الصلاة)**: أي تأتي بها قويمة ولا تكون قويمة إلا بفعل شروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

قال الراغب: «إقامة الشيء توفية حقه قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[المائدة:٦٨] أي توفون حقوقها بالعلم والعمل. ولم يأمر تعالى

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٩٦).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١١٨).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ٢٠١).

بالصلاة حيثما أمر ولا مدح بها حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة تنبيهًا أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيئاتها نحو ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»[١].

قوله (**وتؤتي الزكاة**): أي تعطيها لمستحقها، لأن ذلك حقهم أعطاهم الله إياه لا فضل لك في ذلك.

وقوله: (وتصوم رمضان): صيام رمضان على البالغ العاقل هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

قوله: (وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا): وهو قصد بيت الله الحرام لأداء النسك المشروع في عشر ذي الحجة ولكن الله قيده بالاستطاعة لبعد الشقة بينه وبين كثير من المسلمين وصعوبة الوصول إليه فالحمد لله على رحمته بهذه الأمة.

(قال: صدقت): **الصدق**: هو الخبر المطابق للواقع. ولهذا قال الراغب: ويستعمل التصديق في كل ما فيه تحقيق قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾[الأحقاف:١٢][٢].

أي أنَّ جوابك صحيح مطابق للواقع فهذا الذي قلت هو الإسلام.

قال (**فعجبنا له يسأله ويصدقه**): التعجّب هنا مما خفي سببه ولم يعلم[٣]. وذلك لأن حال السائل أن يكون مستفهمًا غير عالم بما يسأل عنه.

أما التصديق فيدل على علمه بجواب سؤاله. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أَنَّ ما جاء به النبي ﷺ لا يعرف إلا من جهته وليس هذا السائل ممن عرف بلقاء النبي ولا بالسماع منه ومع ذلك يسأل سؤال عارف عالم محقق مصدق لمن يجيبه. فلذلك تعجب الصحابة رضي الله عنهم من صنيعه.

---

(١) «المفردات» (٤١٨).

(٢) «المفردات» (٢٨١).

(٣) «تاج العروس» (٣/ ٣١٩).

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

....

ولما سأله عن الإيمان فسر الإيمان بالأمور الباطنة وذلك لاجتماعه مع الإسلام في موضع واحد.

وبدأ بالإيمان بالله لأنه أصل الدين، وَثَنَّى بالإيمان بالملائكة لأن الملائكة هم أصل الإيمان بالوحي فهم الواسطة بين الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وأعاد لفظة تؤمن عند ذكر القدر؛ لبيان أهميته فالإيمان به جزء من الإيمان بالله ولكثرة ما سيقع من الخلط والخطأ فيه. بخلاف الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر.

قوله: (**أن تعبد الله كأنك تراه**) دليل على عدم إمكانية رؤية الله بالبصر في هذه الدنيا لأنه قال كأنك؛ ولم يقل: وأنت تراه.

ويؤيده الحديث الآخر: «**إنه لن يَرَى أحدٌ منكم ربَّه عز وجل حتَّى يموتَ**»[1].

قال شيخ الإسلام: «أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة، وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم، ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا، فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة»[2].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٤٥)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب ذكر ابن صياد. رقم (٢٩٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥١٢).

(فإن لم تكن تراه فإنه يراك): في تفسيرها قولان للعلماء:

الأول: أنه تعليل لقوله **(أن تعبد الله كأنك تراه)** فإن العبد لما أمر باستحضار قرب الله منه حتى كأنه يرى الله عز وجل فإنه قد يشق عليه أن يصل إلى هذا المقام العالي.

فينبغي له أن يستعين على ذلك بإيمانه ويقينه بأن اللهَ مُطَّلِعٌ عليه في جميع أحواله سرِّه وعلانيته وباطنه وظاهره، وذلك أنه إذا تحقق له هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الأعلى وهو مقام المشاهدة.

الثاني: أنه إشارة إلى أَنَّ من شق عليه أن يعبد الله كأنه يراه فليعبده مستشعرًا أن الرب سبحانه مطلع عليه يرى جميع أفعاله وتصرفاته وحركاته وسكناته بل وخلجات ضميره(١).

«قال وهيب: بينما أنا قاعد، إذ أخذ بقفاي رجل، فقال: يا وهيب، خف الله لقدرته عليك، واستحي من الله لقربه منك»(٢).

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٣٥).

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخبرني عَنْ أَمَاراتها؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ.

....

قوله: (**فأخبرني عن الساعة**): أي أخبرني عن وقت قيام الساعة، متى يكون؟ وفي هذا السؤال نوع استغراب إذ كيف يسأل عن وقت قيام الساعة مع أنه يعلم أن الله استأثر بعلمه.

يجيب عن هذا الاستشكال القرطبي فيقول: «مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[النازعات:٤٢] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف:١٨٧]. وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلا الله - كما في الرواية الأخرى: «في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان:٣٤]»(١) - يئس السائلون من معرفتها فانكفوا عن السؤال عنها»(٢).

وقال ابن رجب: «أراد بسؤاله عن الساعة إظهار انفراد الله بعلمها دون خلقه حتى ينقطع السؤال عنها»(٣).

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١١٤)، كتاب «الإيمان»/ باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة. رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٣٩)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩).

(٢) «المفهم» (١/ ١٥٤).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٨).

والساعة في اللغة: جزء من الليل والنهار وتجمع ساعاتٍ وساعًا، وتصغَّر سُوَيْعَةً والليل والنهار معًا أربع وعشرون ساعة[١].

واصطلاحًا: الوقت الذي تقوم فيه القيامة.

وسميت بالساعة: لقربها، أو لأنها تأتي بغتة تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة أو لسرعة الحساب فيها ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[الأنعام:٦٢][٢].

وتطلق الساعة ويراد بها ثلاثة أشياء:

١- **الساعة الصغرى:** وهي موت الإنسان فمن مات فقد قامت قيامته وذلك لدخوله في عالم الآخرة.

٢- **الساعة الوسطى:** وهي موت أهل القرن الواحد ويدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: «**إن يَعِشْ هذا لا يُدْرِكه الهرم حتّى تقومَ عليكم سَاعَتُكم**»، قال هشام: يعني أي موتهم[٣].

قال الكرماني: «هذا الجواب من الأسلوب الحكيم، أي: دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى، فإنها لا يعلمها إلا الله واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم؛ لأن معرفتكم به تبعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته؛ لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر»[٤].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٣/ ٨٩).

(٢) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٤٢٢) و«حاشية الدرة المضية» (٧٨)، و«الرد القويم» لحمود التويجري (٣٣٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٦١-٣٦٢)، كتاب «الرقاق»/ باب سكرات الموت. رقم (٦٥١١).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ٣٦٤).

٣- الساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم أحياءً للحساب والجزاء وهذا هو المقصود في القرآن إذا ذكرت الساعة.

كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[الأحزاب:٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر:١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[النحل:٧٧] وغيرها من الآيات.

ولما كان وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله أجابه النبي ﷺ بقوله: «**ما المَسْئُولُ عنها بأعلمَ مِنَ السَّائِلِ**»؛ أي: أن العلم بوقتها منتف عني وعنك على حد سواء، فكما أنك لا تعلمها فأنا لا أعلمها أيضًا والباء في «بأعلم زائدة للتوكيد»[1].

وجزم النبي ﷺ بأن السائل لا يعلمها؛ لأن ذلك مما استأثر الله بعلمه، ولذلك قال: «**في خمسٍ لا يعلمهُنَّ إلَّا الله**، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾»[2] [لقمان:٣٤].

ولما كان العلم بوقت الساعة غير ممكن انتقل إلى السؤال عن علاماتها الدالة على قربها فقال: أخبرني عن أمارتها.

(أمارتها): بدون ألف بعد الراء هكذا لفظ مسلم.

والأمارة: هي العلامة.

ومنه قولهم: هي أمارة ما بيني وبينك، أي: علامة. قاله حميد، وأنشد:

إذا طلعت شمسُ النَّهار فإنَّها ... أمارةُ تَسْليمي عليك فَسَلِّمِي[3]

---

(١) «حصول المأمول» (١٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٩٤).

أي علامة قرب قيام الساعة التي تسبقها فتأتي قبل قيامها، والأمارات والأشراط بمعنى واحد، فأشراط الساعة علاماتها ولذلك ورد في بعض الروايات، وسأحدثك عن أشراطها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد:١٨] أي علاماتها.

وأمارات الساعة وعلاماتها كثيرة جدًّا(١).

وتنقسم إلى قسمين:

١- علامات (أشراط) الساعة الصغرى.

٢- علامات (أشراط) الساعة الكبرى.

وضابط العلامات الكبرى: هو ما قارب قيام الساعة وكان غير معتاد الوقوع، كطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة التي تَسِمُ الناس وتخاطبهم.

أما الصغرى: فهي ما عدا ذلك. أي: أنها قد تتقدم الساعة بزمن، وتكون كالمعتاد الوقوع كالتطاول في البنيان وقبض العلم ونحو ذلك(٢).

الحكمة من بيان أمارات وأشراط الساعة:

الحكمة هي: «إيقاظ الغافلين وحثهم على التوبة والاستعداد»(٣).

وذلك أن ظهور هذه الأمارات والأشراط في عالم الناس تجعلهم يتذكرون الآخرة كلما رأوا شيئًا من ذلك فَيستعدوا لها بفعل الطاعات والتوبة من الخطيئات، ويشبهها بعضهم «بالمريض إذا صادف أشراط الموت عليه شيئًا فشيئًا فإنه لا يألو في ذلك الوقت أن

---

(١) ذكرها أهل العلم في ثنايا كتبهم، وأفردها بعضهم بمصنفات مستقلة، وأوسعها: «إتحاف الجماعة في أشراط الساعة» للشيخ حمود التويجري، فقد ذكر مائة وثلاثين علامة من علامات الساعة.

(٢) انظر: «النهاية في الفتن والملاحم» (١/ ٢١٤) و«أشراط الساعة» للوابل (٧٧).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٥٠).

يتوب ويوصي وينظر لنفسه ولورثته»(١).

قال السفاريني: «لما كان أمر الساعة شديدًا وهولها مزيدًا وأمرها بعيدًا كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة ونبه أمته وحذّرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة»(٢).

«**أن تلدَ الأَمَةُ رَبَّتَها**» الأمة هي العبدة المملوكة (**رَبَّتَهَا**) وفي لفظ (**ربها**) وفي لفظ (**بعلها**) وهذه الألفاظ كلها وردت في «الصحيح» فربتها وربها أي سيدتها أو سيدها والبعل هنا بمعنى الرب والسيد قال تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾[الصافات:١٢٥].

فمعنى هذه الألفاظ الثلاثة واحد وهو أَنَّ الأمةَ تلدُ سيِّدَها ومالكها، وذلك أن الرجل الحر المسلم يمتلك الأمة فيجامعها فتحمل منه وتلد فيكون الولد بمنزلة أبيه ويؤيده ما رواه محمد بن بشر عن أبي حيان التيمي قال: «إذا ولدت الأمة بعلها يعني السراري»(٣).

قال الخطابي قوله: «إذا ولدت الأمة ربها» معناه: «اتساع الإسلام واستيلاء أهله على بلاد الكفر وسبي نسائهم وذراريهم فإذا ملك الرجل الجارية منهم فاستولدها كان الولد منها بمنزلة ربها؛ لأنه ولد سيدها»(٤)، «وهو قول الأكثرين»(٥).

(**وأن ترى الحفاة**): الحفاة جمع حاف وهو الذي ليس له نعال يلبسها من الفقر.

---

(١) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ٣٤٣).

(٢) «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٦٥-٦٦).

(٣) مسلم (١/ ٣٩)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (٩)، والسراري جمع سُرِّية وهي الجارية المتخذة للوطء.

(٤) «أعلام الحديث» (١/ ١٨٢).

(٥) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٥٨).

(والعراة) جمع عار وهو من ليس له ثياب تستره بسبب الفقر.

(العالة): جمع عائل وهو الفقير الذي لا يجد شيئًا من المال يشتري به ثيابًا تستره ونعالًا يلبسها.

(رعاء الشاء): رعاء جمع راع وهم الذين مهنتهم رعي الغنم، وخصهم بالذكر؛ لأنهم أضعف الرعاة.

وأهل هذه الأوصاف الأربعة الدالة على الفقر الشديد لا يلبثون إلا مدة يسيرة فيغنيهم الله وتكثر أموالهم فـ **(يتطاولون في البنيان)** تباهيًا بطولها وزخرفتها.

والتطاول في البنيان يكون على ضربين:

١- إطالتها طولًا أي ارتفاعًا في السماء إما برفعها أو بتعدد طوابقها.

٢- تزيينها وتجميلها وزخرفتها بالأصباغ ونحوها كما قال النبي ﷺ: **«لا تقوم السَّاعة حتَّى يبني النَّاس بيوتًا يُشَبِّهُونَهَا بالمراحلِ»**، قال إبراهيم: يعني الثياب المخططة[(١)].

علمًا أن التطاول في البنيان لم يكن معهودًا على عهد النبي ﷺ بل كان بنيانهم قصيرًا بقدر الحاجة[(٢)]. قال الحسن: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي»[(٣)]. ولكن التطاول حدث بعدهم مصداقًا لقول النبي ﷺ: **«لا تَقومُ السّاعةَ حتَّى... وحتَّى يتطاولَ النَّاسُ في البُنْيانِ»**[(٤)].

---

(١) «الأدب المفرد»/ باب نقش البنيان (١٥٧) رقم (٤٥٩)، وقال الألباني: «وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال البخاري في «صحيحه»، غير عبد الله بن أبي يحيى، وهو ثقة اتفاقًا». «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٥٨) رقم (٢٧٩).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٤).

(٣) «الأدب المفرد»/ باب التطاول في البنيان (١٥٥) رقم (٤٥٠)، وقال محققه الألباني: «صحيح الإسناد».

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٨١-٨٢)، كتاب «الفتن». رقم (٧١٢١).

قال: ثم انطلق فلبثت مَلِيًّا. ثم قال لي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فإنه جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

....

مضى: أي ذهب.

فلبثنا: اللبث هو المكث.

ومليًا: هو الوقت الطويل باتفاق أهل اللغة والتفسير[١].

قال ابن فارس: «الميم واللام والحرف المعتل كلمة واحدة هي الزمن الطويل وأقام مليًّا أي دهرًا طويلًا»[٢].

وقال الشنقيطي: «والتحقيق في قوله مليًا أن المراد به الزمن الطويل».

ومنه قول مهلهل:

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجَبَالِ لِمَوْتِهِ ... وَبَكَتْ عَلَيْهِ الْمُرْمِلَاتُ مَلِيًّا[٣]

أي: فمكثنا وقتًا طويلًا.

وقد ورد تحديد مدة اللبث هنا بـ (ثلاثة أيام)[٤].

---

(١) انظر: «العين» (٨/ ٣٤٥) و«الصحاح» (٧/ ٣٤٧) و«اللسان» (١٥/ ٢٩) و«النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٧٩٢) ومن المفسرين انظر: «جامع البيان» (٧/ ٤٢١) وابن أبي زمنين (١/ ٤٠٥) و«الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ١١١) و«معالم التنزيل» (٢/ ١٤٠) «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٣) «الدر المنثور» (٥/ ٥١٤) «التحرير والتنوير» (٩/ ٩٢) وغيرهم.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٣٤٦).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤٢٩).

(٤) «الإيمان» لابن منده (١/ ١٣٢) رقم (٧)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣)، كتاب «السنة»/ باب في القدر. رقم (٤٦٩٥)، والنسائي (٨/ ٩٧-١٠١).

ثم سأل رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه عن الشخص الذي جاء يسأل عن الدين بعد ثلاثة أيام وهو يريد أن يخبره من هو.

ولما كان عمر رضي الله عنه لا يعرفه ردَّ العلم إلى عالمه فقال: (**الله ورسوله أعلم**) وعطف الرسول على الله بالواو هنا جائز «لأن علم الشريعة الذي يصل إلى النبي ﷺ من علم الله فصح أن يقال الله ورسوله أعلم كما قال الله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾[التوبة:٥٩] ولم يقل ثم رسوله لأن الإيتاء هنا إيتاء شرعي، وإيتاء النبي ﷺ الشرعي من إيتاء الله.

أما المسائل الكونية كالمشيئة وما أشبهها فلا يقال الله ورسوله، بل يقال الله ثم رسوله، ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ «**ما شاء الله وشئت**» قال: «**أَجَعَلْتَني لله نِدًّا، بَلْ ما شاء اللهُ وحدَهُ**[(١)]»[(٢)].

وأرشدهم ﷺ إلى أن يقولوا: «**مَا شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ مُحَمد**»[(٣)].

والجمع بين الله ورسوله في رد العلم كان في حياة النبي ﷺ أما بعد وفاته إذا سئل المسلم عن شيء لا يعلمه فإنه يقول: الله أعلم.

فنسب التعليم إلى جبريل مع أنه سائل فقط؛ لأن السائل إذا سأل العالم عن شيء يعلمه بقصد انتفاع غيره كان معلمًا لهم؛ لأنه كان سببًا في إجابة العالم لهذه الأسئلة التي في

---

(١) «الأدب المفرد» (٢٧٣) رقم (٧٨٣)، وأحمد (١/ ٢٨٣)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦-٣٤٧) رقم (٩٦٢٢)، وصححه ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٢).

(٢) «شرح رياض الصالحين» لشيخنا العثيمين (١/ ٢٧٣).

(٣) أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤-٦٨٥)، كتاب «الكفارات»/ باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت. رقم (٢١١٨)، والدارمي في «سننه» (٢/ ١٧٥-١٧٦)، كتاب «الاستئذان»/ باب النهي عن أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان. رقم (٢٦٩٩). قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم». «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» (٢/ ١٣٧).

إجابتها بيان للدين، فصار جبريل عليه السلام معلمًا إياهم دينهم من هذا الوجه.

وقوله (**دينكم**): لأنه مشتمل على أصول العقائد وأصول الأعمال.

ولما كان الحديث مبينًا لأصول الدين التي لا يقوم إلا بها تحتم الانتباه لإجابة ما يُسأل عنه فلأجل ذلك كثرت المثيرات فيه **وتنقسم هذه المثيرات إلى أربعة محاور هي**:

أولًا: هيئته وشكله الخارجي: والمثيرات في شكله الخارجي هي:

١-شدة بياض الثياب.

٢- شدة سواد الشعر أكثر من المعتاد.

٣- ليس عليه من علامات المسافر شيء.

٤- أن علاماته علامات مقيم ومع ذلك لا يعرفه أحد من الصحابة.

ثانيًا: أسلوبه في التعامل مع النبي ﷺ: والأمور المثيرة في تعامله مع النبي ﷺ هي:

١- ذهابه إلى النبي ﷺ مباشرة، وعادة الغريب أنه يسأل عن النبي ﷺ.

٢- قربه الزائد أثناء جلوسه حتى إنه أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ.

٣- وضعه يديه على فخذي النبي ﷺ وهذا فيه نوع جفاء وأذية.

٤- أسلوبه في نداء النبي ﷺ حيث ناداه باسمه المجرد، وهذا دليل على عدم توقيره للنبي ﷺ وهو جفاء ظاهر.

٥- تصديقه النبي ﷺ عند إجابة سؤاله وهذا من أكثر ما يثير الاستغراب.

ثالثًا: اختفاؤه:

ومن المثيرات في حال هذا السائل أنه قام وذهب ثم اختفى بسرعة على غير عادة الناس حيث إن النبي ﷺ أمرهم بردِّه فلم يجدوه.

رابعًا: تأخر النبي ﷺ في إخبار الصحابة من هو السائل:

نفوس الصحابة متشوقة غاية الاشتياق لمعرفة هذا السائل ومع ذلك لم يخبرهم النبي ﷺ إلا بعد ثلاثة أيام، كلُّ ذلك لأجل أن ينشغلوا بما سمعوا من أمور دينهم.

الأصلُ الثالثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ محمَّدٍ ﷺ. وهو مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الله بن عبد المطّلبِ بنِ هاشم، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ.

....

المعرفة: هي العلم اليقيني الذي لا يخالطه أدنى شك، بدليل حديث معاذ عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وفيه: «**فإذا عرفُوا ذلك فأخبرهُم...**»[١].

ويرى الراغب أَنَّ المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره وأنها أخص من العلم[٢].

ويشترط شيخ الإسلام لتسمية العلم بالمعرفة وجود المحبة فيقول: «والعلم الذي يقترن به حب المعلوم قد يسمى معرفة كما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمعروف ما تحبه القلوب مع العلم»[٣].

الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ:

الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ فوق كل حاجة، والضرورة إلى معرفته ﷺ فوق كل ضرورة وذلك لأمور:

١- لا ينال رضى الله البتة إلا على يديه وذلك أَنَّ الطيّب من الأقوال والأعمال والأخلاق ليس إلا هَدْيَه وما جاء به.

٢- أنه لا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا مِنْ جهته.

٣- لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا من طريقه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المفردات» (٣٣٤).

(٣) «درء التعارض» (٣/ ١٣٧).

٤- لا يتميز أهل الهدى من أهل الضلال إلا بمتابعته[١].

ولقد كان السلف يعرفون قدر معرفة النبي ﷺ وسيرته فيعلّمونها مَنْ تحت أيديهم ويحرصون على ذلك. قال علي بن الحسين: «كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن». وقال الزهري مرغبًا في معرفة النبي ﷺ وحاثًّا عليها: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»[٢].

ومعرفته ﷺ تشمل أمورًا هي:

أولًا: نسبه:

«محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»[٣].

أثبته المصطفى ﷺ كما في حديث الأشعث بن قيس قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد كندة، ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، ألستم منا؟ فقال: «**نحنُ بنو النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ، لا نَقْفُوا أُمَّنا، ولا نَنْتَفِي مِنْ أبينا**»، قال الأشعث بن قيس: «والله لا أسمع أحدًا نفى قريشًا من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد»[٤].

قوله: «**لا نَقْفُوا أُمَّنَا**»: أي لا نتهم أمنا ولا نقذفها.

---

(١) وانظر: «زاد المعاد» (١/ ٦٩).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ١٩٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٦٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مبعث النبي ﷺ.

(٤) أحمد (٥/ ٢١٢)، وابن ماجه (٢/ ٨٧١)، كتاب «الحدود»/ باب من نفى رجلًا من قبيلة. رقم (٢٦١٢)، قال ابن كثير: «هذا إسناد جيد قوي، وهو فيصل في هذه المسألة، فلا التفات إلى قول من خالفه». «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٣/ ١١٨).

وعلى هذا أجمع أهل السير والعلم بالأثر[(١)].

قال ابن القيم بعد أن ذكر نسبه ﷺ إلى عدنان «إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة،.... ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل»[(٢)]. وبمثله قاله الذهبي[(٣)].

وهاشم: هو عمرو بن عبد مناف، وسمّي هاشمًا لهشمه الثريد مع اللحم لقومه ولأهل مكة في سنوات المحل والجوع، وفيه قال عبدالله بن الزبعرى.

عمرو العُلا هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[(٤)]

والمسنتون: هم الذين أصابتهم السنة المجدبة الشديدة

وقريش: هو النضر بن كنانة[(٥)]، فمن كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي[(٦)]، فعن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي ﷺ زينب بنت ابنة أبي سليمة، قال: قلت لها: «رأيت النبي ﷺ أكان من مضر؟ قالت: فممن كان إلا من مضر. من مضر من بني النضر بن كنانة»[(٧)].

---

(١) «الاستيعاب» (١/ ١٠٧).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٧١).

(٣) «السيرة النبوية» (١).

(٤) «البداية والنهاية» (٣/ ٣٥٦ و٤/ ٣٥٤).

(٥) «سيرة ابن هشام» (١/ ٩٣).

(٦) انظر: «البداية والنهاية» (٣/ ٢١٩).

(٧) البخاري مع الفتح (/ ٥٢٥)، كتاب «المناقب»/ باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾. رقم (٣٤٩١ و٣٤٩٢).

وذكر ابن كثير في تسميته قريشًا أسبابًا كثيرة لعل أقربها هذين القولين:

١- سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة.

٢- وقيل سمي النضر بن كنانة قريشًا لأنه يَقْرُشُ عن خلة الناس وحاجتهم فيسدها بماله، والتَقَرُّش هو التفتيش وكان بنوه يَقْرُشُونَ أهل الموسم عن الحاجة فيرفدونهم بما يبلّغهم بلادهم فَسُمّوا بذلك من فعلهم وقرشهم قريشًا[(١)].

ويدل على أنه من ذرية إسماعيل حديث واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ اصطفى كنانةَ من ولدِ إسماعيلَ، واصطفى قُرَيْشًا من كنانةَ، واصطفى من قريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ**»[(٢)].

وفي قوله ﷺ: «**اصطفى واصطفاني**» دليل على أن النبي ﷺ هو خيار أهل الأرض وذلك أَنَّ معنى اصطفى: اختار صفوة الشيء وخالصه وخياره، والاصطفاء منّة من الله تعالى تدل على رفعة وعلو. وأن قريشًا هي أعلى الناس نسبًا.

ولذلك قال ابن القيم: «هو أي رسول الله ﷺ خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق»[(٣)].

والعرب: هم الذين يتكلمون اللغة العربية وهم قسمان:

١- **العرب العاربة:** وينتسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد سكنوا اليمن ثم تفرقوا في بقية الجزيرة العربية.

٢- **العرب المستعربة:** (العدنانيون) وقد نشأوا في مكة ومنها تفرقوا في جهات كثيرة من الحجاز وتهامة وينتهي نسبهم إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإنه صاهر قبيلة

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٢٢-٢٢٥).

(٢) مسلم (٤/ ٧٨٢)، كتاب «الفضائل»/ باب فضل نسب النبي ﷺ. رقم (٢٢٧٦).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٧١) ويدل على علو نسبه سؤال هرقل لأبي سفيان عن نسبه. البخاري مع الفتح (١/ ٣٢)، كتاب «بدء الوحي» رقم (٧).

«جرهم» وكان من نسله «عدنان» الذي تنتسب إليه العرب المستعربة[١].

ويدل على أنهم من ذرية إسماعيل حديث واثلة بن الأسقع المتقدم.

وأما أن إسماعيل ابنٌ لإبراهيم فلم ينازع في ذلك أحد فهو ابنه الأكبر الذي وهبه الله إياه على كِبَر منه ففرح به وحمد الله على ذلك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[إبراهيم:٣٩].

ثانيًا: ولادته ومكانها:

ولد النبي ﷺ بمكة في شهر ربيع الأول من عام الفيل، بلا خلاف[٢]، ويؤيده قول ابن عباس «ولد رسول الله ﷺ عام الفيل»[٣]، وأما يوم ولادته فهو يوم الاثنين ويدل لذلك قول النبي ﷺ عندما سئل عن صوم يوم الاثنين: «**ذاك يومٌ ولدتُ فيه، ويومٌ بعثتُ أو أنزلَ إليَّ فيه**»، وفي لفظ: «**فيه ولدتُ وفيه أنزل عليَّ**»[٤].

وأما تاريخ ولادته ﷺ فقيل كانت ولادته في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول وقيل في اليوم الثامن، وقيل في العاشر، وقيل في الثاني عشر، وقيل في السابع عشر، وقيل لثمان بقين منه، وذكر ابن كثير عن الزبير بن بكار وابن عساكر أنهما قالا: «ولد في الثاني عشر من رمضان» وردّه، وكذلك رده ابن حجر لشذوذه.

وقيل: أنه ولد في السابع والعشرين من شهر رجب ورده ابن حجر لشذوذه[٥].

---

(١) انظر: «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (١/ ٣).

(٢) «التمهيد» (٣/ ٢٦).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (١٢/ ٤٧) رقم (١٢٤٣٢)، وقال الذهبي: «صحيح». «السيرة النبوية» (٥).

(٤) مسلم (٢/ ٨١٩-٨٢٠)، كتاب «الصيام»/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس. رقم (١١٦٢).

(٥) «الاستيعاب» (١/ ١٩) و«شرح مسلم» للنووي (١٥/ ١٠٠) و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٧٣-٣٨٠) و«السيرة النبوية» للذهبي (٥/ ٨) و«فتح الباري» (٦/ ٥٧٠).

ثالثًا: أسماؤه ﷺ:

أسماء النبي ﷺ التي وردت في الكتاب والسنة هي:

١- **محمد**: معناه اسم مفعول من حمد أي كثير الخصال التي يحمد عليها، فيحمد حمدًا بعد حمد وذلك دليل على كثرة حامديه من أهل السماء والأرض في الدنيا وفي الآخرة[١].

دليله قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩].

٢- **أحمد**: معناه أفعل تفضيل من الحمد أي الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره[٢].

«والفرق بينهما أن «محمدًا» كثير الخصال التي يحمد عليها وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره فمحمد في الكثرة والكمية وأحمد في الصفة والكيفية»[٣].

دليله قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦].

٣- **الماحي**: معناه: الذي يمحو الله به الكفر.

فلم يُمْحَ الْكُفْرُ بأحد من الخلق مثل ما مُحِيَ بالنبي ﷺ وذلك أن الله بعثه ﷺ وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب فأظهر دينه على يد النبي ﷺ فمحى الكفر وأعز الله التوحيد وبلغ هذا الدين مشارق الأرض ومغاربها، فلله الحمد والمنة.

٤- **الحاشر**: معناه هو الذي يُحشر الناس على قدمه ﷺ، فكأنه بعث ليحشر الناس.

قال نافع: «فأما حاشر فبعث مع الساعة نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد»[٤].

٥- **العاقب**: معناه الذي جاء عقب الأنبياء فليس بعده نبي فهو خاتمهم ﷺ قال ابن

---

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (١٨٣-٢٢٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٩٣).

(٤) «الشريعة» (٣/ ١٤٨٨) رقم (١٠١٤).

الأعرابي: «العاقب والعَقُوب الذي يخلف من كان قبله في الخير»(١).

ودليل هذه الأسماء الخمسة حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لي أسماءً، أنا محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يمحُو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الَّذي يُحْشَرُ النَّاسُ على قدميَّ، وأنا العاقبُ الَّذي ليس بعدهُ أحدٌ**». والمقصود بقوله ليس بعده أحد أي ليس بعده نبي كما فسره بذلك الزهري(٢).

٦- **المتوكل**: معناه: أي المعتمد على ربه في جميع شؤونه قال ابن القيم «وهو ﷺ أحق الناس بهذا الاسم؛ لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلًا لم يشركه غيره»(٣).

دليله حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عندما سأله عطاء بن يسار قائلًا له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل...)(٤).

٧- **المقفِّي**: معناه الذي قفَّى من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم فهو بمعنى العاقب.

٨- **نبي التوبة**: معناه هو الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله. وكان أكثر الناس استغفارًا وتوبة...

---

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ٢٧١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٤٠-٦٤١)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. رقم (٤٨٩٦)، ومسلم (٤/ ١٨٢٨)، كتاب «الفضائل»/ باب في أسمائه ﷺ. رقم (٢٣٥٤).

(٣) «زاد المعاد» (١/ ٩٣-٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٤/ ٣٤٢-٣٤٣)، كتاب «البيوع»/ باب كراهية السخب بالأسواق. رقم (٢١٢٥).

وكذلك توبة أمته أكمل من توبة سائر الأمم وأسرع قبولًا وأسهل تناولًا[١].

٩- نبي الرحمة: معناه أن الله أرسله رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧][٢].

دليل هذه الأسماء الثلاثة: حديث أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: «**أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمُقَفِّي والحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»[٣].

١٠- نبي الملحمة: معناه أنه بعث بجهاد أعداء الله وقتالهم، بل فرض الله عليه جهاد الكفار، وجعله شريعة باقية إلى قيام الساعة، ولذلك فالمعارك بينه هو وأمته من جهة، وبين الكفار من جهة أخرى، طوال التاريخ الإسلامي.

دليله: حديث أبي موسى الأشعري قال: «سمى لنا رسول الله ﷺ لنفسه أسماء وذكر منها نبي الملحمة»[٤].

رابعًا: صفاته الخُلقية:

جمع الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ الأخلاق الفاضلة كلها فما من خلق حسن إلا ولنبينا محمد ﷺ أعلاه وأكمله قال أنس: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس»[٥].

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٩٥).

(٢) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٩٦) فإنه علق على ذلك تعليقًا جميلًا أبان فيه كيف نالت الخلق جمعاء رحمته.

(٣) مسلم (٤/ ١٨٢٨-١٨٢٩)، كتاب «الفضائل»/ باب في أسمائه ﷺ. رقم (٢٣٥٥).

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٤٥٧-٤٥٨) رقم (١١٧٣٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٢٢١-٢٢٢) رقم (٦٣١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٥٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٥٥)، كتاب «الأدب»/ باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل/ رقم (٦٠٣٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٢)، كتاب «الفضائل»/ باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب. رقم (٢٣٠٧).

ورواه أبو الشيخ إلا أنه قال: «وأسمح الناس بدل وأجود الناس»(١).

وبيّن شيخ الإسلام كمال صفات النبي ﷺ بعد وصفه لأمته، فقال: «وكذلك كان صفة محمد ﷺ نبيهم أكمل النبيين وأفضل الرسل بحيث قال: «**أنا محمّد، وأنا أحمد، وأنا نبيُّ الرَّحمة، وأنا نبيُّ الملحمةِ، وأنا نبيُّ التَّوبةِ، وأنا الضَّحُوك القتّال**»، فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة وأنه نبي الملحمة وأنه الضحوك القتال، وهذا أكمل ممن نعت بالشدة والبأس غالبًا أو باللين غالبًا»(٢).

ومن تلك الصفات:

١ - الشجاعة:

كان ﷺ أشجع الناس كما وصفه أنس بن مالك فقال: «كان رسول الله ﷺ أَحْسن النَّاس، وكان أَجود النَّاس، وَكَان أَشجع النَّاسِ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلةٍ فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرسٍ، لِأَبي طلحة عريٍ، فِي عنقه السَّيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»(٣).

وأما في المعارك فكان أصحابه رضي الله عنهم إذا ادلهم الخطب وحمي الوطيس واشتد القتال يتقون بالنبي ﷺ، قال البراء بن مالك: «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقي به، وإنَّ الشجاع منَّا للَّذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ»(٤).

ولقد تجلت شجاعته ﷺ التي لا مثيل لها في جميع المعارك، ومن ذلك شجاعته في غزوة حنين فإنه لما فر المسلمون كان يركض بغلته تجاه الكفار مع أَنَّ عددهم يربو على عشرين ألف مقاتل.

---

(١) «أخلاق النبي وآدابه» (١/ ٣٣١) رقم (١١١).

(٢) «الجواب الصحيح» (٥/ ٨٠-٨١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٣/ ١٤٠٠)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٦).

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفها إرادة ألا تسرع...»(١).

وفي رواية البراء: «فما رئي من الناس يومئذ أشد منه»(٢).

٢- الكرم:

ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في الجود والكرم حتى بهر الناس بكرمه حتى بلغ به الأمر أنه لا يسأل شيئًا إلا أعطاه مهما كثر، ومن ذلك أن رجلًا سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين، ومن شدة تأثره وانبهاره بكرم المصطفى ﷺ ذهب إلى قومه فقال: «أي قوم أسلموا، فوالله إنَّ محمَّدًا ليعطي عطاءَ من لا يخافُ الفقرَ»(٣).

وتجلى كرمه ﷺ في مواقف كثيرة منها مقفله من حنين فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «بينما أسير مع رسول الله ومعه الناس مَقْفَلَهُ من حنين فعلقت الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ، فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان عددُ هذه العضاه نعمًا لقسمْتُهُ بينكُم، ثمَّ لا تجدوني بخيلًا، ولا كذُوبًا، ولا جبانًا**»(٤).

الله أكبر من يستطيع أن يقسم هذا على الناس مع كثرته ثم لا يبقي لنفسه من ذلك شيئًا.

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٩٨)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ١٦٤)، كتاب «الجهاد»/ باب من قال: خذها وأنا ابن فلان. رقم (٣٠٤٢).

(٣) مسلم (٤/ ١٨٠٦)، كتاب «الفضائل»/ باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه. رقم (٢٣١٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٥)، كتاب «الجهاد»/ باب الشجاعة في الحرب والجبن. رقم (٢٨٢١).

إنه الكرم الذي لا يمكن أن يصل إليه أحد من البشر غيره.

٣- التواضع:

بلغ النبي ﷺ الكمال في التواضع فكان يركب الحمار، ويردف عليه، كما في حديث معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: «**يا معاذُ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟...**»(١).

ويركب الدابة مسافرًا عليها ورحلها قديم بال، قال أنس رضي الله عنه: «حجَّ النبي ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ قطيفة تساوِي أربعةَ دراهم أو لا تساوي، ثم قال: «**اللَّهُمَّ حجّةً لا رياء فيها ولا سمعةَ**»(٢).

وكان يجيب من دعاه إلى أي طعام كان. قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب»(٣) والإهالة السنخة: هي الدهن المتغير الرائحة من طول المكث.

ويقضي حاجات الناس ولا يستنكف من أحد مهما قل شأنه فعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إنَّ لِي اليك حاجة فقال: «**يا أم فلان، أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك**»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن ماجه (٢/ ٩٦٥)، كتاب «الحج»/ باب الحج على الرحل. رقم (٢٨٩٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٤/ ١٠٦)، وصححه الألباني بمجموع الطرق. «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٢٢٨-٢٣٠) رقم (٢٦١٧).

(٣) الترمذي في «الشمائل» (١٩٠) رقم (٣١٦)، وأبي يعلى في «مسنده» (٧/ ٨٣) رقم (٤٠١٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤/ ٢٦٢) رقم (٤٨١٥).

(٤) مسلم (٤/ ١٨١٢-١٨١٣)، كتاب «الفضائل»/ باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به. رقم (٢٣٢٦).

والغرض من البعد لأجل أن لا يسمع بشكواها أحد غير النبي ﷺ.

وكان ينام على الحصير، قال عمر: استأذنت على النبي ﷺ فأذن لي، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظًا مصبورًا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»(١).

٤- الحلم:

كان النبي ﷺ يحب الحلم ويرغب فيه ويثني على من اتصفوا به، ومن ذلك ثناؤه على أشج عبد القيس بقوله: «**إنَّ فيك لخصلتينِ يحِبُّهما اللهُ: الحلم، والأناةُ**»(٢).

وأما هو ﷺ، فحلمه لا يبلغه أحد من البشر، كان ﷺ لا يزيده الجهل عليه إلا حلمًا، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانِيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدركهُ أعرابيٌّ فَجَبَذَهُ بردائِهِ جبذْةً شديدةً، حتَّى نظرتُ إلى صفحةِ عاتقِ رسول الله ﷺ قد أثَّرَتْ به حاشيةُ البردِ من شدَّةِ جبذْتِه، ثمَّ قال: يا محمَّد مُرْ لي من مال الله الَّذي عندك، فالتفت إليه رسولُ الله ﷺ ثمَّ ضحكَ، ثمَّ أمر له بعطاءٍ»(٣).

٥- الصدق:

اشتهر ﷺ بالصدق وعرف به. اعترف بذلك أعداؤه قبل محبيه فهذا أبو سفيان بن

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٧-٦٥٨)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾. رقم (٤٩١٣).

(٢) مسلم (١/ ٤٨-٤٩)، كتاب «الإيمان»/ باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين. رقم (١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠/ ٣٧٥)، كتاب «اللباس»/ باب البرد والحبر والشملة. رقم (٥٨٠٩)، ومسلم (٢/ ٧٣٠-٧٣١)، كتاب «الزكاة»/ باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة. رقم (١٠٥٧).

حرب وهو على الشرك لما سأله هرقل قائلًا فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال. قال أبو سفيان لا[(١)].

بل اعترفت قريش كلها بصدقه لما سألهم رسول الله ﷺ، وذلك أنه لما نزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]. صعد الصَّفا فهتف: واصباحاه فقالوا: من هذا؟، فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتُمْ إنْ أخبرتُكُم أنَّ خيلًا تخرُجُ من سفحِ هذا الجبلِ، أكُنْتُمْ مُصدِّقِيَّ؟**»، قالوا: ما جربنا عليك كذبًا...»[(٢)]، وغيرها من الصفات الطيبة.

خامسًا: صفاته الخَلْقِيَّة:

وصف الصحابة رضي الله عنهم صفات النبي ﷺ كاملة ومن ذلك:

حديث جابر بن سمرة قال: كان وجه رسول الله «مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا»[(٣)].

وقال أبو الطفيل: «كان أَبْيَضَ مَلِيحَ الْوَجْهِ»[(٤)].

ولم يخضب ﷺ لقلة الشيب قال ابن سيرين سألت أنس بن مالك هل كان رسول الله ﷺ خضب؟ قال: «لم يبلغ الخضاب كان في لحيته شعراتٌ بيضٌ».

وفي لفظ قال: «لو شئت أن أعد شمطات كنّ في رأسه فعلت، وقال: لم يختضب، وقد اختضب أبو بكر بالحناء والكتم، وقد اختضب عمر بالحناء بحتًا، وفي لفظ: لم يختضب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٣٧)، كتاب «التفسير»/ باب تفسير سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾. رقم (٤٩٧١)، ومسلم (١/ ١٩٤)، كتاب «الإيمان»/ باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. رقم (٢٠٨).

(٣) مسلم (٤/ ١٨٢٣)، كتاب «الفضائل»/ باب شيبه ﷺ. رقم (٢٣٤٤).

(٤) مسلم (٤/ ١٨٢٠)، كتاب «الفضائل»/ باب كان النبي ﷺ أبيض مليح الوجه. رقم (٢٣٤٠).

رسول الله ﷺ، إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين، وفي الرأس نبذٌ»[١].

ووصف جابر بن سمرة فمه وعينه وعقبه فقال: كان رسول الله ضَلِيعَ الْفَمِ، أَشْكَلَ الْعَيْنِ مَنْهُوسَ الْعَقِبَيْنِ» قَالَ محمد بن جعفر: قلت لسماك بن حرب: ما ضليع الفم؟ قال: «عَظِيمُ الْفَمِ»، قال قلت: ما أَشْكَلُ الْعَيْنِ؟ قال: «طَوِيلُ شَقِّ الْعَيْنِ»، قال: قلت: ما منهوس العقب؟ قَالَ: «قَلِيلُ لَحْمِ الْعَقِبِ»[٢]، والعرب تذم بصغر الفم وتحمد سعته[٣]، قال ثعلب: عظيم الفم، واسع الفم، وقال شمر: عِظم الأسنان وتراصفها[٤]، ووصفه أنس بن مالك فقال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، وَليس بالآدم، وليس بالجَعْد القَططْ، ولا بالسّبط، بعثه الله على رأس أربعين سنةً، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاء»[٥].

سادسًا: بشريته:

خلقه الله بشرًا لأنه أرسله إلى البشر قال تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[الإسراء:٩٣]. وُلِد من أم وأب كما يولد غيره، فأبوه عبد الله، وأمه آمنة بنت وهب، ومات ﷺ كما يموت البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠]. قال ﷺ مبينًا بشريته: «**إنَّهُ لو حدثَ في الصَّلاة شيءٌ لنبَّأْتُكُمْ به، ولكنْ إنَّما أنا بشرٌ مثْلُكُمْ، أنسى كما**

(١) مسلم (٤/ ١٨٢١-١٨٢٢)، كتاب «الفضائل»/ باب شيبه ﷺ. رقم (٢٣٤١).

(٢) مسلم (٤/ ١٨٢٠)، كتاب «الفضائل»/ باب في صفة فم النبي ﷺ وعينيه وعقبه. رقم (٢٣٣٩).

(٣) «تهذيب اللغة» (١/ ٤٧٨).

(٤) «لسان العرب» (٨/ ٢٢٦).

(٥) مسلم (٤/ ١٨٢٤)، كتاب «الفضائل»/ باب في صفة النبي ﷺ ومبعثه وسنه. رقم (٢٣٤٧).

الأمهق: شديد البياض، الآدم: شديد السمرة.

تنسون، فإذا نسيتُ فذكِّرُوني...»[١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**إنَّما أنا بشرٌ، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجَّتِه من بعضٍ، فأقضي له على نحو ما أسمعُ، فمنْ قضيتُ له من حقِّ أخيهِ شيئًا فلا يأخذه، فإنَّما أقطعُ له قطعةً من النَّار**»[٢].

وعن رافع بن خديج قال: قدم نبيُّ الله ﷺ المدِينة، وهم يأبرون النخل، يقولون يلقحون النخل، فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كنا نصنعه، قال: «**لعلَّكُمْ لو لم تفعلوا كان خيرًا**» فتركوه، فنفضت أو فنقصت، قال فذكروا ذلك له فقال: «**إنَّما أنا بشرٌ، إذا أمرْتُكُمْ بشيءٍ من دينكم فخُذُوا به، وإذا أمرْتُكُم بشيْءٍ من رأيي، فإنَّما أنا بشرٌ**»[٣].

وعن أنس أن النبي ﷺ قال لأم سليم: «**يا أُمَّ سُليمٍ أما تعلمين أنَّ شرطي على ربِّي، أنِّي اشترطتُ على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بشرٌ، أرضى كما يرضى البشرُ، وأغضب كما يغضبُ البشرُ، فأيُّما أحد دعوتُ عليه، من أُمَّتي، بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ، أن يجعلها له طهورًا وزكاةً، وقُربةً يُقرِّبُهُ بها منه يوم القيامةِ**»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٥٠٣)، كتاب «الصلاة»/ باب التوجه نحو القبلة حيث كان. رقم (٤٠١)، ومسلم (١/ ٤٠٠)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب السهو في الصلاة والسجود له. رقم (٥٧٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣٣٩)، كتاب «الحيل». رقم (٦٩٦٧)، ومسلم (٣/ ١٣٣٧)، كتاب «الأقضية»/ باب القضاء بالظاهر واللحن بالحجة. رقم (١٧١٣).

(٣) مسلم (٤/ ١٨٣٥-١٨٣٦)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب امتثال قوله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي. رقم (٢٣٦٢).

(٤) مسلم (٤/ ٢٠٠٩-٢٠١٠)، كتاب «البر والصلة»/ باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس لذلك أهل. رقم (٢٦٠٣).

سابعًا: اصطفاؤه:

الرسالة ليست مكتسبةٌ وإنما هي اصطفاء من الله تعالى. قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾: [الحج:٧٥]. ولما اعترض المشركون على نبوته ﷺ فقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ ردّ الله عليهم بقوله: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾[الزخرف:٣٢]. فاختاره الله للرسالة من بين البشر كلهم مع أنه لم يكن يتطلع إليها كما كان يتطلع إليها بعض أهل الجاهلية. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾[القصص:٨٦].

ثامنًا: عصمته ﷺ:

نبينا ﷺ معصوم في ما يبلغ عن الله تعالى، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣-٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[الحاقة:٤٤-٤٧].

فهذا نص صريح أن الله لا يؤيد من يكذب عليه، بل يعذبه، فإذا كان كذلك دلّ على أنه معصوم فيما يبلغه عن الله.

ومن السنة قوله ﷺ: «**ولكن إذا حدَّثْتُكُمْ عن الله شيئًا، فخُذُوا به**».

وفي رواية: «**إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به**»[(١)].

وقوله ﷺ لعبد الله بن عمرو: «**اكتبْ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منّي إلَّا حقٌّ**»[(٢)].

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٣٥ - ١٨٣٦)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب امتثال قوله شرعًا دون ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي. رقم (٢٣٦١ و٢٣٦٢).

(٢) أحمد (٢/ ١٦٢ و١٩٢)، وأبو داود (٤/ ٦٠-٦١)، كتاب «العلم»/ باب في كتاب العلم. رقم=

وأجمعت الأمة على عصمته قال شيخ الإسلام: «إن الْأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه»(١).

وكذلك هو معصوم مما وقع فيه أهل الجاهلية من الشرك وعبادة الأصنام ومن الكبائر بالإجماع. وقد شهد له بذلك ربه، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢].

تاسعًا: البلاغ.

بلغ النبي رسالة ربه كاملة كما شهد له ربه بذلك فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

وجه الدلالة: أن الله أخبر بأنه أكمل الدين، وإنما كمل بما بلغه رسوله ﷺ؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم من ذلك أنه ﷺ قد بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده(٢).

وشهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ حين قال لهم: «**وقد تركتُ فيكمْ ما لن تضلُّوا بعدهُ إن اعتصمتُم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عنِّي، فما أنتم قائلون؟**»، قالوا: نشهدُ أنَّك قد بلَّغْت وأدَّيْت ونصحتَ، فقال: بإصبعه السَّبَّابة، يرفعها إلى السَّماء ويَنْكُتُها إلى النَّاس: «**اللهُمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ» ثلاث مرات**»(٣).

(٣٦٤٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٤٩-٥٠) رقم (٦٤٧٩)، والدارمي (١/ ١١٩-١٢٠)، «المقدمة»/ باب من رخص في كتابة العلم. رقم (٤٨٤)، قال ابن حجر: «ولهذا طرق أخرى عن عبد الله بن عمرو يقوي بعضها بعضًا». «فتح الباري» (١/ ٢٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ٣٨٥) رقم (١٢٠٧).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٥).

(٣) مسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢)، كتاب «الحج»/ باب حجة النبي ﷺ. رقم (١٢١٨).

فشهد له خير القرون وهم صحابته رضوان الله عليهم، وكانوا في ذلك الموقف مائة ألف أو يزيدون.

وقالت عائشة ﵂: «من حدَّثك أنَّ محمدًا كتم شيئًا ممَّا أنزل الله عليه، فقد كذب»، والله يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[المائدة:٦٧][1].

عاشراً: عموم رسالته:

كان الأنبياء السابقون يرسلون إلى أقوامهم خاصة، أما نبينا ﷺ فإن الله بعثه للناس أجمع. والأدلة التي تثبت عموم رسالته كثيرة جدًا منها:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ:٢٨].

ومعلوم أن لفظة الناس تشمل الجن والإنس، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس:٥-٦]. فسمى الله الجن في هذا الموضع ناسًا كما سماهم في سورة الجن رجالًا. ويدل على دخول الجن في الناس قوله تعالى ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾[الجن:١].

وقوله: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾[الأحقاف:٢٩]. (جن نصيبين)، فأثبت الله رسالته إلى الجن، فدلّ على دخولهم في الناس، إذًا رسالته عامة للإنس والجن.

ويدل على عموم رسالته ﷺ أنها جاءت ناسخة لجميع الأديان. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

ومن السنة القولية: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي... ومنها: وكان النَّبيُّ يُبعثُ

---

(١) سبق تخريجه.

إلى قومِه خاصَّةً، وبُعثتُ إلى النَّاس عامَّةً»[(١)].

ومن السنة العملية: إرساله ﷺ الرسائل إلى جميع الناس «فكتبَ إلى كسرى، وإلى قَيْصَرَ، وإلى النَّجاشيِّ، وإلى كلِّ جبَّارٍ يدعوهم إلى الله تعالى»[(٢)]، ثم سير الجيوش لغزو النصارى ومشركي العرب، وكذلك فعل أصحابه من بعده، والتابعون لهم بإحسان.

حكم الإيمان به:

الإيمان بالنبي ﷺ أصل من أصول الدين لا يصح دين ولا إيمان بدونه[(٣)]، أمر الله به في كتابه وقرنه بوجوب الإيمان به في آي كثيرة من كتابه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[الحديد:٧].

وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[التغابن:٨] وتوعد من لم يؤمن به بالنار فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾[الفتح:١٣].

وجعله النبي ﷺ مفتاح دعوته وأسها بعد الإيمان بالله فقال في حديث معاذ عندما أرسله إلى اليمن «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فادعُهُم إلى شهادةِ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ الله، فإنْ هم أطاعوك لذلك، فأعلمهُم أنَّ اللهَ افترض عليهم خمس صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ...**»[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٣/ ١٣٩٧)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب كتب النبي إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل. رقم (١٧٧٤).

(٣) انظر: «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ٥٣٨).

(٤) سبق تخريجه.

وتوعد ﷺ من لم يؤمن بنبوته ورسالته بنار جهنم، فقال: «**والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِه، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأُمَّةِ يهودِيٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثمَّ يموتُ ولم يُؤمنْ بالَّذي أُرسلتُ به، إلَّا كان من أصحاب النَّار**»[١].

وقد أجمعت الأمة على وجوب الإيمان به ﷺ[٢]. فمن لم يؤمن به كفر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «شرح السنة» للبربهاري (٩٦)، و«عقيدة السلف» للصابوني (١٦١)، و«مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩).

وَلَهُ مِنَ العمرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا.

....

ثم انتقل إلى بيان عمر النبي ﷺ فقال: (**وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً**)، ويدل لذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قبض رسولُ الله ﷺ وهو ابن ثلاثٍ وستِّينَ سنةً، وأبو بكرٍ، وهو ابن ثلاثٍ وستِّينَ، وعمرُ وهو ابن ثلاثٍ وستِّينَ»[١]. وبمثله قالت عائشة[٢]، وعبدالله بن عمر[٣]، ومعاوية[٤]، وابن عباس[٥] رضي الله عنهم.

قوله: (منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رسولًا): أي أنه نُبِّئَ بعد أن بلغ من العمر أربعين سنة ويدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأَربعين سنةً فَمَكَثَ بِمكة ثلاثَ عشرة سنةٍ يُوْحَى إِلَيهِ ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرةِ فَهَاجَرَ عَشر سِنين وماتَ وَهُوَ ابنُ ثلاثٍ وَستّين»[٦].

ولم يكن ﷺ قبل أن يوحى إليه نبيًا؛ لأنه لا علم له بذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ...﴾[الشورى:٥٢].

---

(١) مسلم (٤/ ١٨٢٥)، كتاب «الفضائل»/ باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٤٨).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٥٩)، كتاب «المناقب»/ باب وفاة النبي ﷺ. رقم (٣٥٣٦)، ومسلم (٤/ ١٨٢٥)، كتاب «الفضائل»/ باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٤٩).

(٣) مسلم (٤/ ١٨٢٦)، كتاب: «الفضائل»/ باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٥٢).

(٤) المرجع السابق.

(٥) مسلم (٤/ ١٨٢٧)، كتاب «الفضائل»/ باب كم سن النبي ﷺ يوم قبض. رقم (٢٣٥٣).

(٦) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٢٧)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٢).

قال البغوي: «﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ قبل الوحي ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ يعني شرائع الإيمان ومعالمه»(١).

وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على ذلك فقال: «فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره، وقد قال له: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[يوسف:٣] وقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾[الضحى:٧] وفي «الصحيحين»: أن الملك قال له حين جاءه: اقرأ فقال: «**لستُ بقارئ**» ثلاث مرات(٢)، ومن قال إن النبي ﷺ كان نبيًا قبل أن يُوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين»(٣).

قوله: (وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا رَسُولًا)؛ أي: أن مدة جمعه بين الرسالة والنبوة ثلاث وعشرون سنة. ويدل لذلك حديث ابن عباس السابق حيث قال: «بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنةً، فمكث بمكة ثلاَث عشرة سنةً يوحى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة».

فإذا جمعت ثلاثَ عشرةَ مع عشر سنين صارت ثلاثًا وعشرين سنة.

قوله نَبِيًّا رَسُولًا: أي جمع بين النبوة والرسالة.

النُّبُوَّة: مشتقة مِنَ الإِنباء بمعنى الإخبار أَوْ مِنَ النَّبْوةِ بمعنى الرفعة والعلوّ أو من النبِيّ وهو الطريق الواضح(٤).

والنُّبُوة تشمل هذه الأمور الثلاثة وإن كان شيخ الإسلام يرجح أَنّ النبيَّ مشتقٌ من

---

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٢٣)، كتاب «بدء الوحي». رقم (٣)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٢)، كتاب «الإيمان»/ باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم (١٦٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٨٣-٢٨٤) وفيه بقية كلام نفيس فراجعه إن شئت.

(٤) «لسان العرب» (١/ ١٦٢) مادة (نبأ).

الإنباء؛ لأنّ الرفعةَ والعلوَّ قد تكون لغيرهم وإن كانوا هم أعلى الناس وأرفعهم[(١)].

والنبيّ فَعِيل. وفعيل قد يكون بمعنى فاعل أي مُنْبِئ وقد يكون بمعنى مفعول أي مُنَبَّأٌ وهما متلازمان، وذلك أَنَّ الله قد أنبأه وأمره أن يُنْبِئَ الناس بما نَبَّأَهُ الله به[(٢)].

وفي الاصطلاح: هو رجل بشر أوحي إليه بشرع مَنْ قَبْله وأرسل إلى قوم مؤمنين[(٣)].
وقيل: «المَبْعُوث لتقريرِ شَرْعَ مَنْ قَبْلَهُ».

أما كونه رجلًا فلأن الله لما ذكر الأنبياء ذكرهم بصيغة التذكير فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فقال: «نبي» بصيغة المذكر ولما جمع الأنبياء قال: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[الأنبياء:٨٤] فأتى بصيغة جمع المذكر السالم، وأما كونه أوحي إليه بشرع من قبله فيدل له قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[المائدة:٤٤].

فالنبيون يحكمون بالتوراة والتوراة منزلة على موسى عليه السلام وأما أنهم أرسلوا وأمروا بالتبليغ فيدل له قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢].

ففي هذه الآية دليلٌ على أَنَّ الإرسال وقع على كلٍّ من الرسول والنبي فإذًا الرسول مرسل والنبي مرسل قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «فذكر إرسالًا يعمُّ النوعين»[(٤)].

وقال الشنقيطي بعد كلام سبق: «وآية الحج هذه تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أَنَّ النبيَّ هو مَنْ أُوحي إليه وَحْيٌ ولم يؤمر بتبليغه، وأَنَّ الرسول هو النبي الذي

---

(١) انظر: «النبوات» (٢/ ٨٨٣).

(٢) انظر: «النبوات» (٢/ ٨٧٣ و٦٨٧-٦٨٨).

(٣) انظر: «النبوات» (٢/ ٧١٤-٧١٨)، و«أضواء البيان» (٥/ ٧٣٥).

(٤) «النبوات» (٢/ ٧١٤).

أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يدل على أن كلًّا منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير»[1].

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كانت بنو إسرائيلَ تسُوسُهُم الأنبياءُ، كلَّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ**»[2].

«والسياسة: هي القيام على الشيء بما يصلحه»[3] في أمور الدين والدنيا ولما كانت الأنبياء تسوسهم وتعلمهم، وكان الناس يطلبون منهم ما يريدون مما يصلح دينهم ودنياهم. قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٦].

والمراد بقولهم مؤمنين أنهم يؤمنون بأنَّ ما جاء به حق فلا يحتاج الأمر إلى إقناعهم بصحة الكتاب الذي يأمرهم باتباعه.

يوضحه حال المجددين من العلماء في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم لا يحتاجون إلى إقناع الناس بصحة القرآن أو برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإن كانت عندهم المعاصي والمخالفات الكثيرة التي ربما تصل إلى حد الشرك الأكبر.

قال شيخ الإسلام: «فقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولًا عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**العلماءُ ورثةُ الأنبياء**[4]»[5].

---

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٤٢١).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «النبوات» (٢/ ٧١٨).

أما الرسول في اللغة فمشتق من الرَّسَلَ وهو الانبعاث فيكون معنى الرسول المنبعث[١].

أو من الرَّسل وهو التَابع فيكون هو الذي يتابع أخبار من بعثه[٢].

وفي الاصطلاح: رجلٌ بشر أوحي إليه بشرع جديد، وأرسل إلى قوم كافرين[٣].

أما كونه رجلًا بشرًا من بني آدم فيدل له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[يوسف:١٠٩].

وأما كونه بشرع جديد فذلك لأَنَّ كلَّ رسول نزل عليه كتاب من عند الله يدعو إليه.

أما إنه أرسل إلى قوم كافرين فيدل له حال أقوام الرسل كلهم من نوح إلى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين فإنهم كذبوهم وحاربوهم واتهموهم بكل نقيصة ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

وقوله نبيًّا رسولًا: يدل على أنه يرى أنَّ الرسول غير النبي، وهذا هو الحق فمرتبة النبوة أدنى من مرتبة الرسالة فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول. **ومن أدلة التفريق بينهما ما يلي:**

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢].

وجه الاستدلال بالآية من وجهين: **أحدهما**: أن الله عطف النبي على الرسول بالواو والعطف يقتضي المغايرة: مغايرة الذات أو مغايرة الصفات. فلما تغيرت صفتاهما دل على أن الصفة التي صار بها رسولًا غير الصفة التي صار بها نبيًا.

---

(١) «المفردات» (١٩٥) مادة (رسل).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٣٩١-٣٩٥) مادة (رسل).

(٣) انظر: «النبوات» (٢/ ٧١٤).

قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «فذكر إرسالًا يعم النوعين وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح»(١).

الثاني: مجيء «لا» هنا في تأكيد النفي في أول الآية وهو قوله «ومَا أرسلنا» فهو على تقدير تكرير الجملة المنفية من أولها كأنه قال: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا أرسلنا من قبلك من نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيَّتِهِ(٢).

٢- ما ورد في وصف نوح عليه السلام «أنه أول رسولٍ بعثه إلى أهل الأرض»(٣). مع أن آدم كان قبله وقد وصفه النبي ﷺ بالنبوة فقال: «**آدمُ نبيٌّ مُكَلَّم**»(٤).

فوصف نوح بأنه أول رسول مع أَنَّ آدم كان قبله يدل على التغاير بينهما ولو كانا شيئًا واحدًا لما صح أن يوصف نوح بأنه أول رسول إلى أهل الأرض.

٣- أن الله وصف بعض رسله بذلك من دون عطف بعضها على بعض فدل على أنها أوصاف متغايرة لموصوف واحد كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾[الأعراف:١٥٧].

فالرسول غير النبي غير الأمي.

وفي وصفه تعالى لكل من موسى وإسماعيل عليهما السلام ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[مريم:٥١-٥٤].

---

(١) «النبوات» (٢/ ٧١٤).

(٢) «اللالئ البهية شرح الواسطية» (١/ ٥٤-٥٥).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ١٦٠)، كتاب «التفسير»/ باب قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾. رقم (٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٣).

(٤) سبق تخريجه.

نُبِّئ باقْرَأ، وأُرسلَ بالمدَّثِّر.

أي: جعله الله نبيًا حين أنزل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق:١]. وذلك أول ما نزل عليه ﷺ ويدل على أنه نبئ باقرأ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من الوحيِ الرُّؤْيا الصَّادقةُ في النَّومِ، فكان لا يرى رُؤْيا إلَّا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخلاءُ، فكان يَخْلُو بغارِ حراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيه (وهو التَّعَبُّدُ) اللَّيالِيَ ذواتِ العَدَدِ قبلَ أَنْ يَنْزِعَ إلى أهلِهِ، ويتَزَوَّدُ لذلك، ثمَّ يرجعُ إلى خديجة فيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حتَّى جاءهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَهُ الملكُ فقال: اقْرَأْ، قال: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، قال: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجهدَ ثمَّ أَرْسَلَنِي**»، فقال: اقْرَأْ، قلت: «**ما أَنَا بِقَارِئٍ**»، قال: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي**» فقال: اقْرَأْ، فقلت: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثمَّ أرسلني**»، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾» [العلق: ١-٢]. فرجعَ بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زمِّلُوني زمِّلُوني**»، فزَمَّلُوهُ حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ...»[(١)]. وكان ذلك في العشر الأواخر من رمضان، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر:١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[الدخان:٣-٤].

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ﴾: الباء للاستعانة أي اقرأ مستعينًا به لأن أسماء الله كلها خير وبركة.

﴿رَبِّكَ﴾: ذكره باسم الربوبية لأن المقام مقام ربوبية وتصرف وتدبير للأمور وابتداء رسالة.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: الخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق. وحذف المفعول إشارة إلى العموم لأن حذف المفعول يفيد العموم إذ لو ذكر المفعول لتقيد الفعل به أي عموم خلق كل شيء ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢].

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: «خص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه»(١). ولذلك كرّمه وفضّله فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠].

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾: العلق هو الدم والمراد به من علقة أي قطعة الدم الصغيرة، وإنما ذكر العلق بصيغة الجمع ليتناسب مع ذكر الإنسان(٢).

قوله «**وأرسل بالمدثر**»: أي بعث بها وصار رسولاً، وذلك أنه جاءه الأمر بإنذار الناس ودعوتهم إلى الدين الحنيف.

وهذه السورة نزلت بعد العلق ويدل لذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله وهو يحدث عن فترة الوحي «**بينا أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتًا من السَّماءِ، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الَّذي جاءني بحراءٍ جالسٌ على كُرْسِيٍّ بين السَّماءِ والأرضِ، ففرِقْتُ منه، فَرَجَعْتُ فقلتُ: زمِّلُوني زمِّلُوني**»؛ فدَثَّروه، فَأَنْزَلَ الله تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر:١-٥](٣).

«فهذا يبين أَنّ المدثر نزلت بعد تلك الفترة، وأَن ذلك بعد أَنْ عاين الملك الذي جاءه

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٥٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢٤/ ٥٢٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٧١٥)، كتاب «التفسير»/ باب سورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. رقم (٤٩٥٤).

بحراء أوّلًا. فكان قد رأى الملك مرتين»[(١)]. «فسورة اقرأ هي أول ما نزل من القرآن... فلما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ فقيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فبالأولى صار نبيًا، وبالثانية صار رسولًا»[(٢)].

دلائل نبوته ﷺ:

دلائل نبوته ﷺ كثيرة جدًا اعتنى بها العلماء حتى ألف فيها أربعون مؤلفًا أو تزيد.

ولما كان المقام هنا مقام اختصار وليس مقام بسط فإني أقسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسة وأذكر نماذج منها تدل على المقصود:

القسم الأول: الدلائل المقروءة والمسموعة:

وأنواعها أربعة، هي:

١- القرآن الكريم:

أعظم دلائل النبوة على الإطلاق هو القرآن الكريم، ولذلك لما ذكر النبي ﷺ آيات الأنبياء التى آمن بسببها من آمن لم يذكر له آية غير القرآن حيث قال: «**ما من نبيٍّ إلَّا أُعطيَ من الآياتِ ما مثلُه آمن عليهِ البشرُ، وإنَّما كان الَّذي أُوتِيتهُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجُو أن أكونَ أكثرهُمْ تابعًا يوم القيامةِ**»[(٣)].

وسرّ عظمة القرآن وكونه أعظم دلائل النبوة هو أنّ المعجزات الحسية مخصوصة بزمنها ومن شاهدها، أما القرآن الكريم فهو كلام الله، ودائم بدوام الدنيا -إلى أن يرفعه الله- مشتمل على الحجة والبيان والفصاحة، مستمر على تحدي الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله إلى أبد الدهر، ولهذا صار النبي ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٢٥٨).

(٢) المرجع السابق (١٦/ ٤٧٧).

(٣) سبق تخريجه.

٢- بشارات الكتب السابقة:

بشّرت الكتب السابقة بنبينا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦]، بل إنّها ذكرت صفاته حتى كأن الناس رأوه بأعينهم من شدة وضوح صفاته: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[البقرة:١٤٦].

والبشارات في هذا كثيرة ومنها:

أ- قوله: «جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران»[١]

وفاران هي مكة، وذلك أنّه ثبت عندهم أن إسماعيل تربى في برية فاران، ومن المعلوم المتفق عليه أن إسماعيل تربى في مكة[٢].

والاستعلان هو الظهور، ودين الله ظهر على يدي النبي محمد ﷺ من مكة.

وقوله: «جاء الله من التيمن وظهر القُدُس على جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد «أحمد» وملك بيمينه رقاب الأمم وأنارت الأرض لنوره وحملت خيله في البحر»[٣].

وقال أشعياء النبي معلنًا باسم رسول الله ﷺ: «إني جعلت أمرك يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد»[٤].

وصرح في اسمه ﷺ دانيال عليه السلام فقال: «ستنزع في قِسِيِّك إغراقًا وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواءً»[٥].

---

(١) «سفر التثنية الإصاح الثالث والثلاثون«(١-٣) «العهد القديم» (٣٦٢) نقلًا عن «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٠٧).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٥/ ٢١٠-٢١٣).

(٣) «سفر حبقوق، الإصحاح الثالث» (٣-٨) «العهد القديم» (١٠٤٦) نقلًا عن «الجواب الصحيح» (٢٢٢-٢٢٣).

(٤) «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٥٧).

(٥) «الجواب الصحيح» (٥/ ٢٧٥).

٣- الإخبار بالغيوب الماضية:

كالإخبار بقصة خلق آدم وإسكانه الجنة وما وقع له مع إبليس ونزوله إلى الدنيا، ونوح مع قومه، ويوسف مع إخوته، وغير ذلك من الأخبار التي لا يمكن أن يعلمها إلا نبي أو من أخذها من نبي ولما قص الله عليه قصة نوح قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩].

فإذا كان هو لا يعلم ذلك ولا يعلمها قومه ولم يكن قارئًا فيقرأ كتب من سبقه، ولم يتعلم من بشر تعين أن يكون ﷺ نبيًا[١].

٤- الإخبار بالغيوب المستقبلة:

وردت الأخبار بالغيوب المستقبلة فمنها ما وقع كما جاء في الخبر، ومنها ما سيقع ولكنه لم يحن وقت وقوعه بعد.

ومن الأخبار التي وقعت: دخول المسلمين المسجد الحرام، وإخبار النبي ﷺ فاطمة ابنته بأنها أول أهل بيته لحوقًا به[٢]، وفتح بيت المقدس قال ﷺ «**اعدد ستًّا بين يدي السَّاعةِ: موتي، ثمَّ فتحُ بيت المقدس**»[٣]، وغيرها كثير.

ومن الأخبار التي لم يحن وقت وقوعها بعد وستقع كما أخبر ﷺ إخباره أنه «**لا تقوم الساعة... حتى تعود أرض العرب مُروجًا وأنهارًا**»[٤]، وأنه: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئَ اليهوديّ من وراء الحجر والشجر فيقول**

---

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٥/ ٣١٩-٣٥٢).

(٢) مسلم (٤/ ١٩٠٤-١٩٠٥)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ. رقم (٢٤٥٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٧٧)، كتاب «الجزية والموادعة»/ باب ما يحذر من الغدر. رقم (٣١٧٦).

(٤) مسلم (٢/ ٧٠١)، كتاب «الزكاة»/ باب الترغيب في الصدقة قبل ألّا يجد من لا يقبلها. رقم (١٥٧).

الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود»(١). وعودة الأصنام مرة أخرى: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تضطربَ ألياتُ نساءِ دوسٍ على ذي الخلصةِ**»(٢)، وغير ذلك من الأخبار الكثيرة التي أخبر بها النبي ﷺ.

القسم الثاني: الآيات الفعلية:

وتنقسم الآيات الفعلية إلى قسمين هما:

آيات العالم العلوي، ومنها:

انشقاق القمر، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[القمر:١].

انشق القمر حتى رآه الناس، كما في حديث أنس بن مالك قال: «سأل أهل مكة رسول الله أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر». وفي رواية ابن مسعود رضي الله عنه: «انشق القمر على عهد رسو الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»، وفي لفظ: «فقال لنا: اشهدوا، اشهدوا»(٣)، «شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء»(٤).

وجعل الله انشقاق القمر دون الشمس والكواكب لأمرين:

١ - أنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٣٩)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب لا تقوم حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. رقم (٢٩٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٦١٧)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾. رقم (٤٨٦٧، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥)، ومسلم (٤/ ٢١٥٨-٢١٥٩)، كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب انشقاق القمر. رقم (٢٨٠٠).

(٤) «المستدرك» (٢/ ٥١٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة».

٢- أن جسمه مستنير يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهورًا لا يتمارى فيه(١).

ومنها **حراسة السماء بالشهب** التي تمنع الجن من استراق السمع قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩].

ومنها عروجه إلى السماء حتى بلغ مبلغًا لم يبلغه أحد غيره ووصل إلى سدرة المنتهى وسمع صريف الأقلام(٢). وغير ذلك.

٢- آيات العالم السفلي:

أي ما ورد من الآيات التي وقعت على الأرض وهذا النوع من الآيات كثيرة جدًا ومنها:

أ- عن جابر ﷺ قال: «عطِشَ النَّاسُ يوم الحُدَيبيةِ والنَّبِيُّ ﷺ بين يديْهِ ركوةٌ فتوضَّأَ، فجهِشَ النَّاسُ نحوه، قال: «**ما لكُمْ؟**» قالوا: ليس عندنا ماءٌ نتوضَّأُ ولا نشربُ إلَّا ما بين يديك، فوضع يده في الركْوَة، فجعل الماءُ يثُورُ بين أصابعه، كأمثال العُيُون، فشربنا وتوضَّأْنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنَّا مائة أَلْفٍ لكفانا، كنَّا خمس عشرة مائةً»(٣).

ب- ما وقع للرسول ﷺ في غزوة حنين حيث إنه ﷺ أَخَذَ حَصَيَاتٍ فَرَمَى وُجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «**انهزموا وربِّ محمد**»، قَالَ العباس: فذهبتُ أنظُرُ فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى، قال: فوالله، ما هو إلَّا أن رماهُمْ بحصيَاتِهِ فما زلت أرى حدَّهُمْ كليلًا، وأمرهُمْ

---

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٦/ ١٦٠).

(٢) انظر: البخاري مع الفتح (١/ ٤٥٨-٤٥٩)، كتاب «الصلاة»/ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء. رقم (٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩)، كتاب «الإيمان»/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات. رقم (١٦٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٨١)، كتاب «المناقب»/ باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٥٧٦).

مدبِرًا، زاد في لفظ: حتَّى هزمهم الله»[١].

ج- عن ابن عباس، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: بم أعرف أنك نبي، قال: إن دعوت هذه العذق من هذه النخلة، أتشهد أني رسول الله، فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع فعاد، فأسلم الأعرابي[٢].

د- **نصر الله له على أعدائه**: نصر الله لنبيه محمد ﷺ على أعدائه دليل واضح على صدق نبوته فقد وعد سبحانه رسله وأولياءه بالنصر على أعدائهم فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾[غافر:٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات:١٧١-١٧٣].

ولقد تحقق وعد الله بنصر نبيه محمد ﷺ على الأديان كلها، وزوى له الأرض مشارقها ومغاربها فبلغ ملك أمته ما زوي له منها فتدكدت عروش كسرى وقيصر أمام جيوش المسلمين.

قال شيخ الإسلام: «وقد أيده -الله- تأييدًا لا يُؤَيَّدُ به إلا الأنبياء، بل لم يؤيد أحدٌ من الأنبياء، كما أُيِّدَ به، كما أنَّه بعثه بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ، فلا يعرف قط أحدٌ ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره»[٣].

---

(١) مسلم (٣/ ١٣٩٨)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب في غزوة حنين. رقم (١٧٧٥).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٩٤)، كتاب «المناقب» رقم (٣٦٢٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١١٠) رقم (١٢٦٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٧٦)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٣) «الجواب الصحيح» (١/ ٤١٠).

القسم الثالث: صفاته وخلاله الكريمة:

صفاته الخلقية والخُلقية كلها تدل على نبوته ﷺ وكرمه على الله عز وجل، استدلت بها خديجة رضي الله عنها على علو منزلته فقالت له لما نزل عليه الوحي وقال: «**لقد خشيتُ على نفسي**»: كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا إنكَ لتصل الرّحم وتحمل الكَلَّ وتُكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق(١).

ومن أعظم خلاله الدالة على نبوته صدقه حتى إن هرقل لما سأل أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله(٢).

وكانت أخلاقه تدعو الناس للإيمان بنبوته قال الجُلندي ملك عمان «لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر. ويُغْلَبُ فلا يَضْجر، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي(٣).

وأما صفاته الخلقية فهي صفات الكمال من الرجال صلوات ربي وسلامه عليه(٤).

حقوق النبي ﷺ وثمرات معرفته:

للنبي ﷺ حقوق يجب أن تؤدى ولمعرفته ثمرات عظيمة أهمها:

١- اتباعه في جميع ما يأمر به وينهى عنه:

اعتقاد عصمة الرسول ﷺ في إبلاغ دين الله توجب على العبد اتباع جميع ما يقوله

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الشفا» (١/ ١٦٥)، و«الروض الأنف» (٧/ ٥١٦).

(٤) انظر: «مختصر الشمائل» للترمذي (١٨-٢٦).

ﷺ. قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩].

قال شيخ الإسلام: «فأمر عند التنازع بالرد إلى الله وإلى الرسول إذ المعصوم لا يقول إلا حقًا. ومَنْ عُلِمَ أنه قال الحق في موارد النزاع وجب إتباعه»[١] بل «اتفقوا أن حبه ﷺ لا يتحقق إلا باتباع آثاره، والتسليم لما جاء به، والعمل على سنته، وترك ما خالف قوله»[٢].

٢- معرفته ﷺ عند الرؤيا:

الشيطان لا يتمثل به ﷺ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال النبي ﷺ «**من رآني في المنام فقد رآني، فإنَّ الشَّيطانَ لا يتمثَّلُ بي**»[٣].

(**فإن الشيطان لا يتمثل بي**): أي لا يستطيع أن يكون مرئيًا بصورتي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي يقول: «**من رآني في المنامِ فسيراني في اليقظةِ، ولا يتمثَّلُ الشَّيطانُ بي**»، قال أبو عبدالله: قال ابن سيرين: إذا رآه في صورته[٤].

وعن أيوب قال: «كان محمد (ابن سيرين) إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي قال: صف لي الذي رأيته فإن وصف له صفة لا يعرفه قال: لم تره»[٥].

وفي رواية لمسلم: «**من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكأنَّما رآني في اليقظة لا يتمثَّلُ الشَّيطان بي**»[٦]، وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٢١) وفيها زيادة فراجعها إن شئت.

(٢) «مختصر الصواعق» (٤/ ١٤٤٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣٨٣)، كتاب «التعبير»/ باب من رأى النبي ﷺ في المنام. رقم (٦٩٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (١٢/ ٣٨٣)، كتاب «التعبير»/ باب من رأى النبي ﷺ في المنام. رقم (٦٩٩٣).

(٥) «فتح الباري» (١٢/ ٣٨٤) قال ابن حجر: «سنده صحيح».

(٦) مسلم (٤/ ١٧٧٥)، كتاب «الرؤيا»/ باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام؛ فقد رآني». رقم (٢٢٦٦).

بي»[١]، وأحسن الأقوال في قوله «فَسَيَرَاني في اليَقَظةِ»:

أ- أنه يراني يوم القيامة.

ب- لكأنما رآني في اليقظة فتكون اللفظة الثانية مفسرة للأولى، ولعلها أقرب.

٣- الثقة بصحة ما يقول: الإيمان بنبوته ﷺ تحتم على المسلم الثقة بصحة ما يقول أوثق من رؤيته للشيء بعينه؛ لأن عينه قد تزيغ وتطغى، أما قول الرسول ﷺ فهو وحي من الله جل وعلا فلا أصدق منه، ومن أصدق من الله قيلا، ومن أصدق من الله حديثًا، وليكن القدوة في ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما أراد المشركون أن يشككوه في رسالة النبي ﷺ فقالوا له: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق... إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غُدْوَةٍ أو رَوْحَةٍ، فلذلك سمي أبو بكر الصديق[٢].

٤- محبته ﷺ ومحبة ما يحب:

محبته ﷺ من أعظم حقوقه علينا، والأدلة على محبته ووجوبها كثيرة متنوعة منها:

أ- ما يدل على نفي الإيمان عمن لم يقدم محبة الرسول على غيره حيث قال: «**لا يؤمنُ أحدُكم، حتَّى أكُون أحبَّ إليه من ولده ووالده والنَّاس أجمعين**»[٣]، وفي رواية: «**فوالَّذي نفسي بيده لا يُؤمنُ...**»[٤].

ب- أن حلاوة الإيمان لا توجد إلا بها. قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسُولُه أحبَّ إليهِ ممَّا سواهُما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لله،**

---

(١) مسلم (٤/ ١٧٧٦)، كتاب «الرؤيا»/ باب قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني». رقم (٢٢٦٨).

(٢) «المستدرك» (٣/ ٦٥)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٥٨)، كتاب «الإيمان»/ باب حب الرسول ﷺ من الإيمان. رقم (١٤).

وأن يكرهَ أن يعود في الكفرِ كما يكرهُ أن يُقذفَ في النارِ»[١].

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أنَّ المحبة لا تحصل إلا بثلاثة أمور:

أ- **تكميل هذه المحبة**: فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ب- **تفريعها**: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ج- **دفع ضدها**: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار[٢].

فيبغض الكفر وأهله ﴿**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾[المجادلة:٢٢].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾[الممتحنة:٤].

ولقد حاز الصحابة رضي الله عنهم قصب السبق في محبته صلى الله عليه وسلم ومن ذلك:

ما قال عمر رضي الله عنه للعباس: «أسلم فوالله أن تُسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب؛ لأن ذلك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٣].

وعندما سئل علي بن أبي طالب كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: «كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ»[٤].

وقال عمرو بن العاص: «وما كان أحد أحبَّ إليّ من رسول الله ولا أجلّ في عيني

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٦).

(٣) «مسند البزار» (١١/ ١٨٢).

(٤) «الكامل» (٢/ ١٧٩)، و«الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٥٢).

منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه»[١].

وقول خبيب لأهل مكة لما رفعوه على الخشبة أتحب أن محمدًا مكانك قال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدميه»[٢].

وحينما أرادوا قتل زيد بن الدثنة اجتمع رهط من قريش، ومنهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك إلى الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا[٣].

ويصف عروة بن مسعود محبة أصحاب النبي ﷺ له، فيقول: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت على كفِّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له[٤].

قال شيخ الإسلام: «ومن ذلك أنه أخبر أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن حقه أن يحب. أن يؤثره العطشان بالماء والجائع بالطعام، وأنه يجب أن يوَقّى بالأنفس والأموال كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟

(١) مسلم (١/ ١١٢)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج. رقم (١٢١).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٣/ ٩٧٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٢٩-٣٣٣)، كتاب «االشروط»/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[التوبة: ١٢٠].

فعلم أن رغبة الإنسان بنفسه أَنْ يصيبه ما يصيب رسول الله ﷺ من المشقة معه حرام»[(١)].

أما محبة ما يحب، فيدل لها قوله ﷺ: «**الأنصارُ لا يُحبُّهم إلاَّ مؤمنٌ، ولا يُبغضُهم إلَّا منافقٌ، فمن أحبَّهم أحبَّهُ اللهُ، ومن أبغضَهم أَبْغَضَهُ اللهُ**»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**آيةُ الإيمانِ حُبُّ الأنصارِ، وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنصارِ**»[(٣)].

وقال عن أصحابه: «**فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»[(٤)].

فربط النبي ﷺ محبة الصحابة ﷺ بمحبته فمن لم يحب الصحابة لم يحب النبي ومن أبغض الصحابة فقد أبغض النبي ﷺ.

قال أنس رضي الله عنه فرحًا بمحبته لرسول الله ﷺ وصحابته لما سمع قوله ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**»، فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»[(٥)] بل تعدى ذلك، فأحبوا ما يحبه ﷺ من الأمور الاعتيادية كمحبة أنس رضي الله عنه للدباء لما رأى رسول الله ﷺ يتتبع الدباء من حول القصعة، قال: «فلم أزل أحب الدباء

---

(١) «الصارم المسلول» (٤٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (٧/ ١١٣)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حب الأنصار من الإيمان. رقم (٣٧٨٣)، ومسلم (١/ ٨٥)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق. رقم (٧٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أحمد (٤/ ٨٧).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٣٢-٢٠٣٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٣٩).

من يومئذ»[١].

٤- تعزيره وتوقيره:

التعزيز: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه[٢].

والتوقير: «هو التعظيم والإجلال والتفخيم»[٣]، وعرفه شيخ الإسلام، فقال: «اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوقار»[٤].

وعرفه ابن القيم فقال: «هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال»[٥].

قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩] وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧].

ومن ذلك:

أ- أن لا ينادى باسمه قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور:٦٣].

قال قتادة: «أمرهم أن يفخّموه ويشرفوه»[٦].

فيفرق بين النداء والإخبار، فالنداء لا ينادى باسمه، أما الإخبار فيخبر عنه باسمه

(١) البخاري مع الفتح (٩/ ٥٦٣)، كتاب «الأطعمة»/ باب من ناول أو قدم إلى صاحبه على المائدة شيئًا. رقم (٥٤٣٩).

(٢) «الصارم المسلول» (٤٢٢).

(٣) «جامع البيان» (٢٦/ ٥٧).

(٤) «الصارم المسلول» (٤٢٢).

(٥) «طريق الهجرتين» (٢/ ٦٣٥).

(٦) «جامع البيان» (١٨/ ١٧٧).

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب:٤٠]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾[الفتح:٢٩].

ب- عدم التقدم عليه: نهى الله عن التقدم عليه ﷺ في حياته وبعد مماته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[الحجرات:١] والنهي عن التقدم عليه بعد مماته بعدم التقدم على سُنَّتِه.

ج- غض الصوت عنده: نهى الله عن رفع الصوت فوق صوته فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[الحجرات:٢].

قال ابن أبي مليكة: «كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي قال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ ...﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله بعد هذه الآية حتى يستفهمه»(١) وقال أبو بكر: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله»(٢).

ومدح الذين يغضون أصواتهم عنده فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٩٠)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾. رقم (٤٨٤٥).

(٢) «المستدرك» (٢/ ٥٠١)، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[الحجرات:٣].

وبعد موته غَضُّ الصوت عند سنته باحترامها وإتباعها وعدم مخالفتها بآراء الرجال أو بأهوائهم. ومن ذلك غَضُّ الصوت عند قبره ﷺ وفي مسجده.

٥- الصلاة عليه:

أمر الله المؤمنين بالصلاة على نبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾[الأحزاب:٥٦]، وأوجبها النبي ﷺ على كلِّ مَنْ سَمِعَ ذكره، فقال: «**من ذُكِرْتُ عندهُ فليُصَلِّ عليَّ**»[1]. «والأمر ظاهر في الوجوب»[2].

ودعا ﷺ على كلِّ مَنْ سمع اسمه فلم يصل عليه، فقال: «**رغم أَنْفُ رجلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ**»[3].

٦- جعله في مقامه فلا غلوَّ ولا جفاء:

حدّد النبيُّ ﷺ مقامه بكلمتين اثنتين فقال: «**عبد الله ورسوله**»، فعبد الله تحمي المسلم من الغلو ورسوله تحمي المسلم من الجفاء.

فالعبد لا حق له في العبودية كما قال ﷺ: «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ،**

(١) النسائي في «الكبرى» (٩/ ٣٠) رقم (٩٨٠٦)، و«عمل اليوم والليلة» (٣١٥) رقم (٦١). قال ابن القيم: «إسناده صحيح». «جلاء الأفهام» (٤٤٥).

(٢) «جلاء الأفهام» (٤٥٥).

(٣) أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي (٥/ ٥٥٠-٥٥٦)، كتاب «الدعوات»/ باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل». رقم (٣٥٤٥)، وقال: «وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٣٢) رقم (١٦). قال ابن حجر بعد أن ذكر عدة أحاديث في الصلاة على النبي ﷺ، وذكر منها هذا الحديث: «فهذا الجيد من الأحاديث الواردة في ذلك». «فتح الباري» (١١/ ١٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣/ ١٧٨) رقم (٣٥٠٤).

فإنَّما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[١].

لأن العبودية لا تصلح إلا لله فمن أعطيها فقد شارك الله في حقه ولهذا نهى النبي ﷺ المؤمنين به عن رفعه فوق منزلته فقال: «**أنا محمَّدُ بن عبدِ الله عبدُ الله ورسولُه، والله ما أُحِبُّ أن تَرْفَعُوني فوق منزلتِي الَّتي أنزلَني اللهُ** ﷻ»[٢].

والرسالة توجب محبته، وعدم التقدم عليه وعلى سنته، وتعزيره، وتوقيره، والصلاة عليه، واتباع أمره وحده.

قال ابن عبد الهادي: «فمن عظَّمه بما لا يحب؛ فإنما أتى بضدِّ التعظيم»[٣].

وأما الجفاء في حقه ﷺ فضابطه: كلّ ما فيه تنقصٌ له أو عدم توقير. كعدم احترام سنته أو عدم الاهتمام بالعمل بها أو عدم تعلّم سيرته، أو ضعف محبته، أو محاربة دينه، وإيذاء المؤمنين به، أو إيذائه ﷺ بتكذيب أخباره، أو الطعن في أهل بيته وزوجاته، ورميهم بالفاحشة أو وصفه بالجبن والذلة أو سب صحابته وتكفيرهم ونحو ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧][٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (٣/ ١٥٣)، وقال ابن عبد الهادي: «وفي «المسند» بإسناد صحيح على شرط مسلم». «الصارم المنكي» (٢٨٨).

(٣) «الصارم المنكي» (٣٣٨).

(٤) وانظر إن شئت: «الصارم المسلول» (٤٧٥-٤٧٧).

وَبَلَدُهُ مَكَّةُ وَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ. بَعَثَهُ اللهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

....

قوله: «**وبلده مكّة**»: أي البلد التي ولد فيها ونشأ فيها وعاش فيها غالب حياته حتى بلغ من العمر ثلاثًا وخمسين سنة.

قوله: «**وهاجرَ إلى المدينة**»: أي انتقل إليها وترك مكة البلد التي عاش فيها وأحبها حبًا شديدًا، ومن ثم علل سبب خروجه منها فقال ﷺ لمكة: «**ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**»(١).

وهذه المحبة الشديدة أسباب هي:

١- أنها أحب الأرض إلى الله:

ويدلّ لذلك ما رواه عدي بن الحمراء الزهري رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ وهو واقف بالحزورة في سوق مكة يقول: «**والله إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ الله، وأحبُّ الأرضِ إلى الله عز وجل، وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(٢) ومن المعلوم أن الرسول ﷺ يحب كل ما أحبه الله تعالى،

---

(١) الترمذي (٥/ ٧٢٣)، كتاب «المناقب»/ باب فضل مكة. رقم (٣٩٢٦)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وابن حبان في «صحيحه» (٩/ ٢٣) رقم (٣٧٠٩)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ٢٧٦) رقم (١٠٦٢٤)، و«المستدرك» للحاكم (١/ ٦٦١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٢) أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي (٥/ ٧٢٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب في فضل مكة. رقم (٣٩٢٥)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

قال ابن عبدالبر: وقد ثبت عن النبي ﷺ في هذه المسألة ما يغني عن قول قائل، ثم ذكر الحديث بروايته ثم قال: قال أبو عمر هو حديث حسن صحيح ثابت عند جماعة أهل العلم بالحديث ولم يأت عن النبي ﷺ من وجه صحيح يعارضه. «الاستذكار» (٢/ ٤٦٤) وانظر: «التمهيد» (٢/ ٢٨٨) و(٦/ ٣٣).

ومن ذلك حبه لمكة، ولهذا دعا الله فقال: «**اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكَّةَ أو أشد**»(١).

٢- أنها خير أرض الله تعالى:

وفي هذا تفضيل لها على غيرها من البلدان فقد جعل الله فيها بيته، وعظّمه، فحرم ما حوله، وباركه وضاعف العمل فيه، وجعله مأوى أفئدة عباده المؤمنين، فَمَنْ كانت هذه صفته تعلقت القلوب بمحبته والمكث والسكنى فيه.

٣- أنها البلد الذي شب وترعرع وعاش فيها جُلَّ حياته:

كيف لا يحبها وفيها شبّ وترعرع، بل إن ذلك مما جبلت عليه النفوس في بلدان وأماكن أقل من مكة بكثير فكيف بمكة التي شرفها الله وأعلى قدرها وجعل في قلوب المؤمنين محبتها ومع هذا كله «هاجر إلى المدينة» وتركها.

وقدم المؤلف ذكر هجرته ﷺ إلى المدينة مع أنه لم يَحِنْ بعد. إشارةً وتنبيهًا إلى أهمية تقديم الدين على الدنيا حتى وإن كان في ذلك هجر الأوطان وفقد الأهل والخلان.

ولما ذكر المرسَل بيّن من الذي أرسله فقال: «**بعَثَهُ الله**»: البعث هو الإثارة والإرسال أي أرسله الله.

قال الإمام أحمد قواعد الإسلام أربع:

١- دالٌّ: وهو الله تعالى.

٢- دليل: وهو القرآن.

٣- مُبَيِّنٌ: وهو الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل:٤٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٦٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة. رقم (٣٩٢٦)، ومسلم (٢/ ١٠٠٣)، كتاب «الحج»/ باب الترغيب في سكنى المدينة. رقم (١٣٧٦).

٤- مستدل: وهم أولو الألباب وأولو العلم[١].

قوله: «**بِالنَّذَارةِ عَنِ الشِّرْكِ ويدْعُو إلى التوحيدِ**»: هذه هي أعظم مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي أساس دعوتهم قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

والنذارة هي الإنذار: يقال أنذره أي حذره وخوفه في إبلاغه ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾[٢] [غافر:١٨].

وتناذر القوم أي خوّف بعضهم بعضًا.

والإنذار: هو الإعلام بالشيء المخوف على سبيل التحذير منه، وعرفه الشنقيطي فقال: «هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد»[٣]، وشرطه: أن يمكن تداركه.

فإنذاره عن الشرك: إبلاغه أمته خطورة الشرك وتحذيرها من الوقوع فيه لعلمه ﷺ بمنافاته للدين وإحباطه للعمل وشقاوة المشرك شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا.

من أمثلة إنذاره ﷺ:

فعله ﷺ لما أنزلت عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]: «صَعِدَ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يا بني فِهْرٍ، يا بني عَدِيٍّ**» -لبُطُونِ قريشٍ- حتَّى اجتمعُوا فجعلَ الرَّجلُ إذا لم يستطعْ أن يَخْرُجَ أرسل رسولًا لِيَنْظُرَ ما هو، فجاءَ أَبُو لَهَبٍ وقريشٌ، فقال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خيلًا بالوادي تريدُ أن تُغِيرَ عليكم، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جرَّبْنا عليك إلَّا صدقًا، قال: «**فإِنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ**».

---

(١) «العدة» للقاضي أبي يعلى (١/ ١٣٥)، و«النبوات» (١/ ٢٤٨).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/ ٤٢١-٤٢٢) و«تاج العروس» (١٤/ ٢٠٠).

(٣) «العذب النمير» (٢/ ٢٧٣).

وفي رواية لأبي هريرة قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «**يا معشرَ قريشٍ -أو كلمةً نحوها- اشترُوا أنفسَكُمْ لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا، يا بني عبدِ منَافٍ لا أُغْنِي عنكم من الله شيئًا، يا عبَّاسُ بن عبدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عنك من الله شيئًا، ويا صفيَّةُ عمَّةَ رسولِ الله لا أُغْنِي عنك من الله شيئًا، ويا فاطمةُ بنتَ مُحَمَّدٍ سليني ما شئتِ من مالي لا أُغْنِي عنك من الله شيئًا**»[1].

واستمر طيلة حياته ﷺ يحذر من الشرك حتى وهو في النزع حيث قال: «**لعنةُ الله على اليهودِ والنَّصارى، اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ**». يُحَذِّرُ ما صنعوا[2].

ويدعو إلى التوحيد: دعا الرجل دعْوًا ودعاءً: أي ناداه والاسم الدعوة ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس:٢٥][3].

والمقصود بدعوة الناس إلى التوحيد: حثهم على التمسك به وترغيبهم فيه ببيان فضائله وثمراته وخطورة إضاعته.

ومن أمثلة ذلك:

١- عن الأشعث بن سليم، عن رجل من كنانة قال: «**رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا وإذا رجل من خلفه يسفي عليه التراب، فإذا هو أبو جهل، وإذا هو يقول: يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعُزَّى**»[4].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٠١)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾. رقم (٤٧٧٠، ٤٧٧١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ١٢٠-١٢٣) و«اللسان» (١٤/ ٢٥٨).

(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٦)، قال الذهبي: «إسناده قوي». «السيرة النبوية» (٨٦).

وفي رواية عن ربيعة بن عباد رضي الله عنه قال: «رأيتُ النبي ﷺ في الجاهليَّةِ في سُوق ذي المجازِ، وهو يقولُ: «**يا أيُّها النَّاسُ قولُوا: لا إلـهَ إلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**». والنَّاسُ مجتمعونَ عليهِ، ووراءَهُ رجلٌ وضيءُ الوجهِ، أحولُ ذُو غديرَتَيْنِ يقول: إنَّهُ صابِئٌ كاذبٌ، يتْبَعُهُ حيث ذهب، فسألتُ عنه فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ، وقالوا لي: هذا عمُّهُ أبو لَهَبٍ»[1].

٢- في عرضه نفسه ﷺ على القبائل حيث عرض نفسه على بني شيبان بن ثعلبة قوم مفروق فسأله مفروق بن عمرو: إلام يدعو الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**أدْعُوكُمْ إلى شهادةِ أنَّ لا إلـهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ، وإلى أنْ تُؤْوني وتنصُرُوني...**»[2].

ولما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «**فليكُنْ أوَّلَ ما تدعوهُم إليه شهادةَ أن لا إله إلَّا الله...**»[3]. وغير ذلك كثير.

---

(١) أحمد (٤/ ٣٤١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥/ ٦١) رقم (٤٥٨٢)، وقال الألباني: «إسناده جيد». «صحيح السيرة النبوية» (١٤٢-١٤٣).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٢٥).

(٣) سبق تخريجه.

والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر:١- ٧].

ومعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ **: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد** ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ **أي: عظمه بالتوحيد.** ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **أي: طهر أعمالك عن الشرك.** ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ **الرجز: الأصنام وهجْرها: تركها والبراءة منها وأهلها.**

....

استدل المؤلف بصدر سورة المدثر لعدة أمور:

١- أنها من أوائل ما نزل على النبي ﷺ(١).

٢- البداءة بأمره ﷺ بالتوحيد والدعوة إليه بقوة وحزم حيث قال ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

٣- التحذير من الشرك ليس بتركه فقط بل بالبعد عنه بهجرانه وأهله والبراءة منهم.

يا: حرف نداء.

أيّ: منادى مفرد مبني على الضم.

والهاء: للتنبيه والتوكيد وهو نداء للنبي ﷺ.

﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾: هو المتلفف بقطيفةٍ أو بثيابه التي تغطى بها عندما أصابه الرعب من رؤيته للملك، ونداؤه بالمدثر من باب الملاطفة وليس من باب العتاب؛ «فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها»(٢)، كما فعل النبي ﷺ مع علي عندما غاضب فاطمة رضي الله عنهما حين وجده نائمًا قد سقط رداؤه عن شقه،

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٧٦-٦٧٧)، كتاب «التفسير». رقم (٤٩٢٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٣٣).

وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «**قُمْ أبا تُرابٍ. قم أبا تراب**»[١].

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: أي انهض وشَمِّرْ عن ساق العزم وأَعْلِمِ الناس وحذِّرْهم وخوِّفْهم من عذاب الله إن هم بقوا على الشرك. وفي ذلك فائدة لطيفة وهي أَنَّ أَوّلَ ما أمره الله به الإنذارُ عن الشرك قبل بقية المنكرات والمعاصي التي كانوا متلبسين بها، وما ذلك إلا لخطورة الشرك، وأنه أقبح المنكرات لمنافاته للتوحيد بالكلية ولإحباطه جميع الأعمال.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أي عظمه بالتوحيد. قال البغوي: «أي عظمه عما يقوله عبدة الأوثان»[٢]. وتكبيره سبحانه في أمور خمس:

١- تكبير الله سبحانه في ربوبيته: فلا منازع له في الربوبية في «الخلق والملك والتدبير» ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾[الأعراف:٥٤]، ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ**﴾ [فاطر:١٣].

٢- تكبير الله سبحانه في ألوهيته: فلا يستحق العبادة إلا هو، فمن صرف العبادة لغير الله لم يكبره في ألوهيته ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[الحج:٦٢].

٣- تكبير الله في أسمائه وصفاته: فإن صفاته عُليا وأسماءه حسنى فيها كمال الجلال والكمال والعظمة ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[الروم:٢٧]، ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الإخلاص:٤]، ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾[مريم:٦٥]، ﴿**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[النحل:٧٤].

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣٥)، كتاب «الصلاة»/ باب نوم الرجال في المسجد. رقم (٤٤١)، ومسلم (٤/ ١٨٧٤-١٨٧٥)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. رقم (٢٤٠٩).

(٢) «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٣).

٤- تكبير الله في قضائه وقدره: أي أَنَّ قضاءه هو الخير وفيه الحكمة البالغة ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[الأنعام:١٤٩].

٥- تكبير الله في شرعه وأمره: أي اعتقاد كمال شرعه وأنه لا نقص فيه بوجه من الوجوه والعمل به في كل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه وأنه أكبر من جميع ما يشرعه العباد بعضهم لبعض(١).

قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء:٦٥].

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ «الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدل على نقاء وزوال دَنَسٍ، ومن ذلك الطهر خلاف الدنس. والتطهّر التنزه عن الذم وكلّ قبيح»(٢).

أي نَقِّ أعمالك من الشرك، وهذا هو قول عامة المفسرين. قال سعيد بن جبير «وقلبك ونيتك فطهر» وقال قتادة ومجاهد: «نفسك فطهّر من الذنب» فكنى عن النفس بالثوب وهو قول إبراهيم والضحاك والشعبي والزهري.

قال السدّي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا إنه لطاهر الثياب، وإن كان فاجرًا إنه لخبيث الثياب»(٣).

قال ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أَنَّ المرادَ بالثياب ههنا القَلْبُ والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»(٤).

---

(١) انظر: «شرح الأصول الثلاثة» لصالح آل الشيخ، ضمن «جامع الشروح» (٧٠٨).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٤٢٨).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٣).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/ ٥٢).

ويؤيد هذا المعنى ما يلي:

١- أنه ورد في القرآن استعمال اللباس في الأعمال قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦].

٢- أنَّ التكنية عن النفس بالثياب واردٌ عن العرب، كقول عنترة:

فشككْتُ بالرُّمْحِ الأصَمِّ ثيابَهُ ليس الكريمُ على القَنا بمُحَرَّمِ

٣- أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام قبل أن تفرض الصلاة وتوجب لها الطهارة.

قال البخاري بعد أن ساق حديث النبي ﷺ حينما جاءه الملك وهو في بطن الوادي بعد نزوله من حراء فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. ثم قال: «قبل أن تفرض الصلاة»(١).

إذًا المقصود بطهارة الثياب هو طهارة القلب من دنس الشرك بالتوحيد.

وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: الأوثان(٢) أو الأصنام فالمعنى واحد. «والرجز والرجس: العذاب»(٣)، وسميت الأصنام رجزًا لأنّها سبب العذاب الأبديّ.

﴿فَٱهْجُرْ﴾ : الهاء والجيم والراء أصلان يدلّ أحدُهما على قطيعة وقَطْع(٤).

وقال الجوهري: الهَجْر ضد الوَصْل(٥)، والتهاجر: التقاطع(٦). والمهاجرة في الأصل

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٧٨-٦٧٩)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. رقم (٤٩٢٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٧٩)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. رقم (٤٩٢٦)، و«معالم التنزيل» (٤/ ٤١٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ٣٤).

(٥) «الصحاح» (٢/ ٨٥١).

(٦) «مختار الصحاح» (٣٢٤).

مصارمة الغير ومتاركته[١]. فأصل الهجر البغض والفراق والترك.

ولهذا قال المؤلف وهجرها: تركها والبراءة منها وأهلها.

فالهجر والهجران مفارقة الإنسان غيره بالبدن أو اللسان أو القلب.

فمن الهجر بالبدن قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾[النساء:٣٤].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨].

ومن الهجر بالقلب واللسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان:٣٠].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر:٥] حث على المفارقة بالوجوه كلها.

والهجرة مشتقة من الهجْر[٢] وهي نوعان:

أحدهما الهجرة القلبية: وهي هجرة القلب إلى الله ورسوله بمحبة الله ومحبة ما يحب مع فعله تقربًا إلى الله، وبغض ما يبغض مع مجانبته والبعد عنه والبراءة منه.

وهي أصل أنواع الهجرة ولبها وروحها ولأجل ذلك حصر النبي ﷺ الهجرة فيها فقال: «**المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه، والمهاجِرُ من هجر ما نهى اللهُ عنه**»[٣]. وفي رواية: «**والمُهاجرُ من هجر السُّوء**»[٤].

---

(١) «تاج العروس» (١٤/ ٣٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٨٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣)، كتاب «الإيمان»/ باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. رقم (١٠).

(٤) أحمد (٣/ ١٥٤)، قال المنذري: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وإسناد أحمد جيد». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٥٤).

وفي رواية: «**والمُهاجرُ من هجر الخطايا والذُّنوبَ**»(١).

وفي الألفاظ السابقة جعل النبي ﷺ المبتدأ وهو المهاجر معرفًا ليكون محصورًا في الخبر وهو (**مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**) وهذا حصر نسبي يدل على أن أفضل أنواع الهجرة هي الهجرة القلبية.

يوضحه جواب النبي ﷺ لما سئل أي الهجرة أفضل: قال: «**أَنْ تهجُرَ ما كره ربُّكَ**»(٢)، وفي رواية: «**وإنَّ أفضل الهجرةِ من هجرَ ما نهى اللهُ عنه**»(٣).

قال ابن القيم: «وهذه الهجرة هي الهجرة على الحقيقة وهي الأصل وهجرة الجسد تابعة لها»(٤).

وقال ابن رجب عند قوله ﷺ: «**والمُهاجرُ من هجر ما نهى اللهُ عنه**»، فأصل الهجرة: هجران الشر ومباعدته لطلب الخير ومحبته والرغبة فيه.. فأصل الهجرة أن يهجر ما نهاه الله عنه من المعاصي فيدخل في ذلك هجران بلد الشرك رغبة في دار الإسلام وإلا فمجرد هجره بلد الشرك مع الإصرار على المعاصي ليس بهجرة تامة كاملة، بل الهجرة التامة الكاملة هجران ما نهى الله عنه ومن جملة ذلك هجران بلد الشرك مع القدرة عليه»(٥).

وهي ذات شقين:

الأول: الهجرة إلى الله سبحانه «هجرةٌ تتضمن (مِنْ) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومِنْ خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى

---

(١) أحمد (٦/ ٢١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨)، كتاب «الفتن»/ باب حرمة دم المؤمن. رقم (٣٩٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٤٩).

(٢) أحمد (٢/ ١٩١)، والنسائي (٧/ ١٤٤)، كتاب «البيعة»/ هجر البوادي. والدارمي في «نقضه على المريسي» (٥٦٢).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (١٣/ ٥٩١) رقم (١٤٥٠٧).

(٤) «الرسالة التبوكية» (١٩).

(٥) «فتح الباري» (١/ ٣٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢١٠-٢١٢).

خـوف الله ورجائـه والتوكـل عليـه، ومِـنْ دعـاء غـيره وسـؤاله والخضوع لـه والـذل لـه والاستكانة له إلى دعاء الله وسؤاله والخضوع له والذلّ له والاستكانة له، وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[1] [الذاريات:٥٠].

الثاني: الهجرة إلى رسول الله ﷺ بتحكيمه في كل شيء والتسليم لـه والانقيـاد لحكمـه وأمره ونهيه باطنًا وظاهرًا، «فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالـدليل المـاهر في ظلـم الليل ومتاهات الطريـق»[2]. قـال تعـالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[النساء:٦٥].

فلك عنـد كـل عمـل هجرتـان إحداهما إلى الله بـالتقرب والإخـلاص، والأخـرى إلى رسوله ﷺ بالاتباع.

فعندما تريد أن تتوضأ تهاجر إلى الله بالتقرب إليه بذلك العمل وتهاجر إلى رسـول الله فتتوضأ كما توضأ النبي ﷺ، وعندما تريد الصلاة تهاجر إلى الله بالتقرب إليـه وحـده بتلـك الصلاة، وتهاجر إلى رسول الله فتصلي كما صلى رسول الله ﷺ.

قال ابن القيم ناظمًا شقي الهجرة القلبية:

وَاجْعَـلْ لِقَلْبِـكَ هِجْـرَتَيْنِ ولا تَنَـمْ ... فَهُـمَا عَـلَى كُـلِّ امْـرِئٍ فَرْضَـانِ
فَالهِجْـرة الأُولَى إِلَى الرَّحْمَـنِ بِالـ ... إِخْـلاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْـلانِ
فَالقَـصْدُ وَجْـهُ الله بِالأَقْـوالِ وَالـ ... أَعْـمالِ وَالطَّاعَـاتِ وَالـشُّكْرانِ
فَبِـذَاكَ يَنْجُـو العَبْدُ مِـنْ إِشْـرَاكِـهِ ... وَيَـصِيرُ حَقًّـا عَابِـدَ الرَّحْمَـنِ
وَالهِجْرِةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُـوثِ بِالـ ... حَـقِّ المُبِـينِ وَوَاضِـحِ البُرْهَـانِ
فَيَـدُورُ مَـعَ قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَفِعْلِـهِ ... نَفْيًـا وَإِثْبَاتًـا بِـلا روغَـانِ[3]

---

(١) «الرسالة التبوكية» (١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٣) وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٢).

(٣) «النونية مع شرح ابن عيسى» (١/ ١٢٧) وإن أردت الاستزادة فانظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم.

وإليها أشار عمر رضي الله عنه بقوله: «خالطوا الناس بالأخلاق، وزايلوهم بالأعمال»[١].

فلا يلزم من هذا النوع من الهجرة مفارقة الناس، وعلى هذا أكّد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: «خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم وزايلوهم بأعمالكم وقلوبكم، فإن للمرء ما اكتسب، وهو يوم القيامة مع من أحب»[٢].

وتبعهم على ذلك الحسن البصري فقال: «خالطوا الناس في الأخلاق الكريمة، وزايلوهم في الأفعال القبيحة»[٣].

حكم الهجرة القلبية:

الهجرة القلبية «فرضُ عَيْنٍ على كلِّ أحد في كلِّ وقت»[٤].

والأدلة على الهجرة القلبية كثيرة جدًا فكل دليل ورد في إفراد العبادة لله، وكل دليل ورد في الأمر باتباع الرسول ﷺ هو دليل على الهجرة القلبية.

وسأكتفي بدليل واحدٍ يكفي في الدلالة على المقصود وهو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[الذاريات:٥٠].

أمر الله بالفرار إليه والأمر يقتضي الوجوب والاستعجال بالهجرة إلى الله، وعدم التأخر والتواني ولذلك عبر عنه بالفرار. والفرار هو أقصى درجات السرعة لأنّ القلب قد يعرض له ما يمنعه من الهجرة فأمر بالفرار إليه كي يتخلّص من كلّ ما يثقله من هوى وشيطان ودنيا وأولاد ونحو ذلك.

ولخطورة المعوقات عن الفرار إلى الله كان الأنبياء يوصون أولادهم به في كل لحظة

---

(١) «مداراة الناس» لابن أبي الدنيا (٣٧) رقم (٢١).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٣٤٥) رقم (٣٢٠).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (٤٥).

(٤) «الرسالة التبوكية» (١٨).

من لحظات أعمارهم قال تعالى:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

ومن المعلوم أنهم لا يدرون متى ينزل بهم الموت ولكن عليهم أن يلزموا الفرار إلى الله حتى إذا جاءتهم مناياهم فإذا هم على أحسن حال فيختم له بخاتمة أهل السعادة.

منزلتها:

يتجلى عظيم منزلة الهجرة القلبية بأمور:

١- أَنَّ الهجرة القلبية هي مقتضى الشهادتين وثمرتها السعادة في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم بعد أَنْ نعى على أولئك الذين ينشغلون بتفريع مسائل الهجرة البدنية - التي قد لا تقع لبعضهم أصلًا- عن الهجرة القلبية التي هم بأمسِّ الحاجة إليها في كل وقت وحين «وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس، فإنه لا يُحَصِّلُ فيها علمًا ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من عشَت بصيرته وضعُفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال»[1].

٢- أنّ كلَّ الناس يُسألون عنها في البرزخ ويوم القيامة ويطالبون بها في الدنيا.

قال قتادة: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين»[2].

٣- خطورة فقدها:

من فقد الهجرة القلبية بشقيها أو أحدهما، فقد فقد الإيمان، وانتقل إلى الكفر، قال ابن القيم: «فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فَلْيَحْثُ على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من

(١) «الرسالة التبوكية» (٢٤).

(٢) المرجع السابق (٢٨).

أصله فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال ذلك على الصراط من وراء السور، والله المستعان»[١].

زمنها ووقتها: زمنُها ووقتها كلُّ لحظة من لحظات العمر من بدايته إلى نهايته، وذلك لأن المعوقات التي تعوق العبد عن الله والدار الآخرة تحيط به من كل جانب، ولا يكاد يسلم منها إلا بالمجاهدة المستمرة مع الاستعانة بالله تعالى.

قال ابن القيم: «وإذا كان نفسُ العبد وهواه وشيطانُه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه الله ويرضاه وقد بُلي بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أَنْ يهاجر إلى الله ولا ينفك في هجرته إلى الممات»[٢].

أما أعظمُ دوافعها فهو المحبة؛ وذلك أَنَّ المهاجر من شيء إلى شيء لا بُدَّ أن يكون ما هاجر إليه أحب إليه مما هاجر منه فيقدم أحبهما إليه على الآخر وتكون قوتها وضعفها «بحسب داعي المحبة في قلب العبد فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يتحرك لها إرادة[٣]»[٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾[المدثر:٦-٧].

(مَنَّ): الميم والنون أصلان أحدهما يدل على قطع. ومنه: مننت الحبل أي قطعته ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾[التين:٦] أي غير مقطوع. والمنون: المنية؛ لأنها تنقص العدد وتقطع

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٦٣).

(٢) «الرسالة التبوكية» (٢٣).

(٣) المرجع السابق.

(٤) ملحوظة: الهجرة البدنية أرجأتها إلى موضعها من الكتاب.

المدد... وربما قالوا: منَّ بيد أسداها إذا قرّع بها، وهذا يدل على أنه قطع الإحسان[١].

قال الأزهري: ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾: أي لا تعط شيئًا مقدرًا لتأخذ به ما هو أكثر منه[٢].

﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾: السين والتاء للمبالغة، أي لا تعد الشيء كثيرًا فتستعظم ما تبذله. فمعنى قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ قال الحسن: لا تمنن عملك تستكثره على ربك[٣].

أي لا تعدّ عملك في الدعوة إلى الله شيئًا عظيمًا تستعظمه في عينك فإنَّه نعمةٌ من الله عليك، وهو فيما أنعم الله به عليك وأعطاك قليلٌ[٤]، وهو درس للأمة كلها.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾: أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك[٥].

قال مجاهد: فاصبر على ما أوذيت فيه[٦].

فالعمل وآثاره وما ينتج عنه اجعله لله وذلك أنه حمل أمرًا عظيمًا وهو دعوة الناس أجمع إلى التوحيد ونبذ الشرك، فلا شك أنهم سيؤذونه أذى عظيمًا فليصبر على أذاهم لوجه الله تعالى.

قال السعدي: «أي احتسب بصبرك واقصد به وجه الله تعالى»[٧].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٢٦٧) مادة (المنّ).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٤٧١).

(٣) «جامع البيان» (٢٩/ ١٤٩).

(٤) انظر: «جامع البيان» (٢٩/ ١٤٨-١٥٠)، و«معالم التنزيل» (٤/ ٤١٤)، و«التحرير والتنوير» (٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٤).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٩٥).

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشَر سِنِينَ يَدْعُو إلى التَّوْحِيدِ[١] وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِه إلى السَّماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس.

....

أي أنه ﷺ استمرَّ عشر سنوات يقرر التوحيد ويدعو إليه ويحذر من ضده قبل أن تفرض الفرائض **وتشرع الأحكام وذلك لأمور:**

١- أَنَّ الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك هي المقصود الأعظم من دعوة الرسل.

٢- أَنَّ الفرع لا يصح إلا بالأصل. فالتوحيد هو الأصل والعبادات هي الفرع فلا بُدَّ من ترسيخه في النفوس أولًا.

٣- أن من صح توحيده وتعظيمه لله وخوفه منه انقادت نفسه لطاعة ربه.

قوله: «**وبعد العشر**»: أي بعد عشر سنوات من بعثته ﷺ أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء.

والإسراء: مأخوذ من السُّرى وهو السير ليلًا، ومنه قولهم «عند الصباح يحمد القوم السُّرى» والمقصود هنا: هو سير النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس على البراق.

عدد مرات الإسراء: الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء والمعراج كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة[٢].

وكانت بدايته من المسجد الحرام[٣] بنص القرآن والخبر المتواتر، واتفاق الناس[٤].

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٤/ ٢٦٩).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣٧).

(٣) «منهاج السنة» (٥/ ٦٧).

(٤) «الجواب الصحيح» (٥/ ٤٠٩ و٤٢٦).

ومما يدل على أنَّه مرة واحدة: فرض الصلاة.

قال ابن القيم في رَدِّه على الذين ظنوا أَنَّ الإسراء والمعراج تكرر أكثر من مرة: «ويا عجبًا لهؤلاء الذين زعموا أنه مرارًا، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسًا ثم يقول: «**أَمْضَيْتُ فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادِي**»، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها عشرًا عشرًا وقد غلّط الحفاظ شريكًا في ألفاظ من حديث الإسراء. ومسلم أورد المسند منه ثم قال: «فقدم وأخر وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، فأجاد وأفاد»[(١)].

المِعْرَاج: هو الصعود والرقي ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[المعارج:٤] أي تصعد. وعرج في الشيء أي رقي. والمعارج: المصاعد والدرج[(٢)].

والمقصود هنا: هو عروج النبي ﷺ من بيت المقدس إلى ما فوق السموات العلى.

أدلّة الإسراء والمعراج:

ثبت الإسراء من المسجد الحرام إلى بيت المقدس بالقرآن الكريم. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الإسراء:١].

ومن السنة:

حديث أنس بن مالكٍ؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، (وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الحِمَارِ، وَدُونَ البَغْلِ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ)، قال: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ، قال: فَرَبَطْتُهُ بِالحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، قال: ثُمَّ دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ**

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٢).

(٢) «اللسان» (٢/ ٣٢١).

اللَّبَنَ، فقال جبريلُ ﷺ: اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ، إِذَا هُوَ قَدِ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عليه السلام، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللهُ

إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عليه السلام حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» وفي رواية للبخاري «بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيمِ، -وَرُبَّمَا قَالَ: فِي الحِجْرِ- مُضْطَجِعًا»(١).

وينبغي أن يعلم أن الإسراء: بجسد النبي ﷺ وروحه يقظة لا منامًا(٢) ويدل لذلك ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[الإسراء:١]

وجه الاستدلال: أن الله وصفه بالعبد «والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٣٠١-٣٠٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب المعراج. رقم (٣٨٨٧)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧)، كتاب «الإيمان»/ باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات. رقم (١٦٢).

(٢) انظر: «الشريعة» للآجري (٣/ ١٥٢٦)، و«الرسالة الوافية» للداني (٩٩)، و«الاقتصاد في الاعتقاد» لعبد الغني المقدسي (ص١٥٥)، وابن كثير في «التفسير» (٧٨٨)، و«شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٧٣) وغيرهم.

أَنَّ الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصحيح فيكون الإسراء بهذا المجموع»[(١)].

٢- أنه قال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ فمجد نفسه وعظمها والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام فلو كان منامًا لم يكن له كبير شأن.

٣- قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم:١٧]؛ لأن البصر من آلات الذات لا الروح وكذلك قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾[الإسراء:١].

٤- لو كان الإسراء منامًا لما كذبت به قريش[(٢)]؛ لأن المنام يحصل فيه أشياء كثيرة ولا تستنكر.

٥- أن المخاطبين فهموا أنه بالجسد والروح ولذلك كذبوه وحاولوا تشكيك المسلمين في دينهم حتى ارتد بعض من أسلم.

٦- أن الأحاديث التي ذكرت ذلك يدل منطوقها أنه أسري به بجسده وروحه.

٧- أنه ركب البراق والركوب من حاجة البدن وليس مما تحتاجه الروح[(٣)].

٨- أن هذا هو فهم السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم.

قال ابن عباس عند قوله تعالى: «﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء:٦٠] هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به»[(٤)].

وبمثله قال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد ومسروق والضحاك وقتادة وابن جريج

---

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٧٦).

(٢) «الشريعة» للآجري (٣/ ١٥٣٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٨٨) و«أضواء البيان» (٣/ ٣٩١-٣٩٣).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٩٨)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. رقم (٤٧١٦).

وابن زيد. وقال عكرمة: هي رؤيا يقظة، ولو كانت رؤيا نوم لم تكن فتنة حتى ارتاب قوم وارتد قوم عن الإسلام. وذلك أنه غير مستغرب على النائم أن يرى مسيرة سنة وليس مسيرة شهر فقط[١]. وقال الآجري: «من زعم أَنَّه -أي: الإسراء والمعراج- منامٌ فقد أخطأ في قوله، وقصّر في حقِّ نبيه، وردّ القرآن والسنة، وتعرض لعظيم سخط الله»[٢].

الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس أولًا:

الحكمة هي: إظهار صدق دعوى الرسول ﷺ في عروجه إلى السماء وذلك لأن المخاطبين يعرفون بيت المقدس معرفة تامة ولهذا سألوه عن صفته فلما أخبرهم بها وجب عليهم تصديقه. وأمر آخر وهو أَنّ لهم عِيراً في الطريق فسألوه عنها فأخبرهم بها فوقع كما أخبر فظهر في ذلك صدق قوله بعروجه إلى السماء[٣].

حكم الاحتفال بالإسراء والمعراج:

الاحتفال بالإسراء والمعراج بدعة منكرة لما يلي:

١- أَنَّ النبي ﷺ لم يأمر به ولم يفعله ولو كان مشروعًا لكان هو أولى الناس بفعله، والخير كل الخير في فعل ما فعله النبي ﷺ وترك ما ترك.

٢- أَنَّ أي أمر عبادي لم يأمر به النبي ﷺ ولم يفعله ولم يقرّه فهو بدعة في الدين قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرُنا؛ فهو رَدٌّ**»[٤].

٣- أَنَّ أصحاب القرون المفضلة الثلاثة لم يفعلوه. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٤- أَنَّه لم يرد دليل صحيح في تحديد وقته، وهذا يدل على أنه لا ينبني على معرفته عبادة وقربة.

---

(١) انظر: «الرسالة الوافية» للداني (٩٩-١٠٠).

(٢) «الشريعة» (٣/ ١٥٤٠).

(٣) انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (١/ ٢٧٧).

(٤) سبق تخريجه.

قال ابن أبي شامة: «ذكر بعض القصاص أن الإسراء كان في رجب وذلك عند أهل التعديل والتجريح عين الكذب. قال الإمام أبو إسحاق الحربي: أُسري برسول الله ﷺ ليلة سبع وعشرين من ربيع الأول، قال: وقد ذكرنا ما فيه من الاختلاف والاحتجاج في كتابنا المسمى «بالابتهاج في أحاديث المعراج»[١].

وقال شيخ الإسلام: «لم يقم دليل معلوم على شهر ليلة الإسراء ولا على عشرها ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يقطع به»[٢].

(١) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (٧١).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٥٧) وللاستزادة انظر: «البدع الحولية» (٢٦٨-٢٨٢).

وَصَلَّى في مَكَةَ ثَلاثَ سِنِينَ وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالهجرةِ إلى المدينة. والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

....

قوله: «**وصلّى في مكة**» أي أنه بقي بمكة بعد الإسراء وفرض الصلاة عليه ثلاث سنين قبل أن يهاجر إلى المدينة، وكانت صلاته في مكة ركعتين ركعتين، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «فُرِضَت الصّلاة ركعتين، ثمّ هاجرَ رسولُ الله ﷺ ففرضت أرْبعًا، وتُرِكَتْ صلاةُ السَّفرِ على الأُولى»[(١)].

قال وبعدها: أي بعد أن تم ثلاث عشرة سنة من مبعثه في مكة أمره الله بالهجرة إلى المدينة ودليل ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بُعث رسول الله لأربعين سنةً فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أُمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستّين»[(٢)].

أُمِرَ: من الأمْر، والمقصود هنا: الطلب على سبيل الإلزام.

بالهجرة إلى المدينة: وهي الهجرة البدنية إلى طيبة الطيبة.

بعد أن بين المؤلف الهجرة القلبية انتقل إلى بيان القسم الآخر من الهجرة وهو الهجرة البدنية، فعرفها بقوله: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

والانتقال: النون والقاف واللام أصل صحيح يدل على تحويل شيء من مكان إلى مكان[(٣)] إذًا هو الخروج والسفر من ديار الشرك إلى ديار الإسلام بنية المقام المستمر في بلاد

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٦٧-٢٦٨)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب التاريخ. من أين أرخوا التاريخ. رقم (٣٩٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ٤٦٣).

الإسلام وعدم الرجوع إلى دار الشرك مرة أخرى.

والمؤلف هنا قسم الدار إلى قسمين هما:

١- دار شرك وكفر.

٢- دار إسلام وإيمان.

وهذا التقسيم هو الذي درج عليه علماء الأمة أجمع لا خلاف بينهم.

ومن أدلة ذلك:

أولًا: الأمر بالهجرة:

أمر الله بالهجرة بصيغة عتاب تاركي الهجرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:٩٧].

وقطع الولاية بين المهاجرين وبين غيرهم ممن لم يهاجر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[الأنفال:٧٢].

والهجرة تكون من دار إلى دار، ولو كانت الدار واحدة لما شرعت الهجرة، ولما شرع القتال. فدل ذلك على أن الدنيا داران دار كفر ودار إسلام.

قال ابن عبد البر: «وقد بقي باب باق إلى يوم القيامة وهو المسلم في دار الحرب إذا أطاقت أسرته، أو كان كافرًا فأسلم، لم يحل له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج عنها فرضًا واجبًا»[1].

وقال البغوي عند حديث: «**لا تنقطعُ الهجرةُ حتَّى تنقطعَ التوبةُ**»: أراد بها هجرة من أسلم في دار الكفر عليه أن يفارق تلك الدار ويخرج من بينهم إلى دار الإسلام»[2].

---

(١) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠).

(٢) «شرح السنة» (١٠/ ٣٧٣).

ثانيًا: البراءة من المسلم الذي يقيم بين المشركين:

أمر النبي ﷺ بفراق المشركين وشدد عليه حتى تبرأ ممن يقيم في ديارهم فقال ﷺ: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يُقيم بين أظهرِ المشركين**»(١).

ولو كانت دارًا واحدة لم يبرأ النبي ﷺ ممن يقيم بين أظهر المشركين.

ثالثًا: التصريح بذكر اسم الدارين:

ورد التصريح باسم دار الشرك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «إنّ رسولَ الله ﷺ وأَبَا بكرٍ وعُمرَ كانوا من المُهاجرين لأنهم هَجَروا المشركينَ وكانَ من الأنصارِ مُهَاجرون لأنَّ المدينةَ كانتْ دارَ شركٍ فَجاؤوا إلى رسول الله ﷺ ليلةَ العَقَبَةِ»(٢).

أما دار الإسلام فقد وردت في حديث بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيشٍ أو سريّةٍ أوصاه ثم قال: «**وإذا لَقِيْتَ عدُوَّكَ منَ المشركين فَادْعُهُمْ إلى ثلاثِ خصالٍ فَأَيّتهُنَّ ما أجابُوكَ فاقبل منهم وكُفَّ عنهم: ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ، فإنْ أَجَابُوكَ فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. ثم ادعهُمْ إلى التَّحَوّل مِنْ دارهِمْ إلى دار المهاجرين**»(٣).

وقد صرح النبي ﷺ في هذا الحديث بالدارين كلتيهما فقال: «**ادعهم إلى التّحَوّلِ مِنْ دارهِمْ إلى دارِ المهاجرين**»، فجعلهما دارين متغايرتين.

ودار المهاجرين هي دار الإسلام كما في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم: أيَّما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفةٌ أو كان غنيًا فافتقرَ وصار أهل دينه يتصدقونَ عليهِ طَرحتُ عنه جزيته وعِيلَ من بيتِ مالِ المسلمين وعِياله ما أقامَ بدارِ الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا من دار الهجرة ودار الإسلام فليس علَى المسلمين النفقة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) النسائي (٧/ ١٤٤-١٤٥) كتاب «البيعة»/ باب تفسير الهجرة.

(٣) مسلم (٣/ ١٣٥٧) كتاب «الجهاد»/ باب تأمير الإمام الأمراء. رقم (١٧٣١).

على عِيالِهِم»[١].

ضابط دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر.

أما ضابط دار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها أحكام الإسلام.

ومما يوضح ذلك بلاد الأندلس لما كان المسلمون هم حكامها وتجري فيها أحكام الإسلام وشعائره ظاهرة كانت بلاد إسلام. فلما غلب الكفار عليها وحكموها وعذبوا المسلمين وهجّروهم وظهرت فيها شعائر الشرك والوثنية النصرانية عادت دار كفر.

فغلبة الأحكام هي المناط الذي ينبني عليه الحكم كما صرح بذلك أهل العلم وإليك طرفًا من أقوالهم:

قال في «المدونة»: «وكانت الدار يومئذ دار الحرب (يعني: مكة)؛ لأن أحكام الجاهلية كانت ظاهرة يومئذ»[٢].

وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن: «إذا أظهروا الشرك فقد صارت دارهم دار حرب؛ لأن البقعة إنما تنسب إلينا أو إليهم باعتبار القوة والغلبة»[٣].

وقال عبدالقاهر البغدادي: «كل دار ظهرت فيها دعوة الإسلام من أهلها بلا خفير ولا مجير ولا بذل جزية، ونفذ فيها حكم المسلمين على أهل الذمة إن كان فيهم ذمي، ولم يقهر أهل البدعة فيها أهل السنة، فهي دار الإسلام وإذا كان الأمر على ضدِّ ما ذكرناه في الدار فهي دار الكفر»[٤].

---

(١) «الخراج» لأبي يوسف (١٥٥-١٥٦).

(٢) «المدونة» (١/ ٥١١).

(٣) «المبسوط» (١٠/ ١١٤).

(٤) «أصول الدين» (٢٧٠).

وقال ابن حزم: «الدار إنما تنسب للغالب عليها والحاكم فيها والمالك لها»[(١)].

وقال أبو يعلى الحنبلي: «وكل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الإسلام دون أحكام الكفر فهي دار إسلام، وكل دار كانت الغلبة فيها لأحكام الكفر دون أحكام الإسلام فهي دار كفر، وإنّ الدارَ لا تخلو من أن تكون دار كفر أو دار إسلام»[(٢)].

ويقول الكاساني: «لا خلاف بين أصحابنا في أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها»[(٣)].

ويقول الرافعي: «ليس من شرط دار الإسلام أن يكون فيها مسلمون، بل يكفي كونها في يد الإمام»[(٤)].

قال ابن القيم: «قال الجمهور: دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم تجر عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها، فهذه الطائف قريبة إلى مكة جدًّا، ولم تصر دار إسلام بفتح مكة، وكذلك الساحل»[(٥)].

ويقول ابن مفلح: «فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدارُ الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكفار فدارُ الكفر، ولا دار لغيرهما.. وهو الذي ذكره القاضي والأصحاب»[(٦)]. وقال عن دار الحرب: «هي ما يغلب فيها حكم الكفر»[(٧)].

---

(١) «المحلى» (١٢/ ١٢٦).

(٢) «المعتمد في أصول الدين» (٢٧٦).

(٣) «بدائع الصنائع» (٧/ ١٣٠).

(٤) «الفتح العزيز» (٨/ ١٤).

(٥) «أحكام أهل الذمة» (٢/ ٧٢٨).

(٦) «الآداب الشرعية» (١/ ١٩٠).

(٧) «المبدع» (٣/ ٣١٣).

وقال المرداوي: «ودار الحرب ما يغلب فيها حكم الكفر»[١].

وقال الحجاوي: «وتجب أي: (الهجرة) على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر»[٢].

وقال الشيخ أبو بطين: «قال الأصحاب: الدار داران دار إسلام ودار كفر فدار الإسلام هي التي تجري أحكام الإسلام فيها، وإن لم يكن أهلها مسلمين وغيرها دار كفر»[٣].

وقال الشيخ سليمان بن سحمان:

وَالله حَرَّمَ مُكْثَ مَنْ هُوَ مُسْلِمٌ ... فِي كُلِّ أَرضٍ حلّها الكُفَّار
وَلَهُمْ بها حُكْمُ الوِلاَيَةِ قَاهِرٌ ... فَارْبَأ بِنَفْسِكَ فالمقام شَنار[٤]

وقال السعدي: «فبلاد الإسلام التي يحكمها المسلمون وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفارًا»[٥].

ويستدل له بما يلي:

١- اتفاق الفقهاء على أن دار أهل الذمة دار إسلام سواء كانوا منفردين في بلد لم يمازجهم فيه أحد من المسلمين كما في بلاد نجران أو كانوا أكثرية كاثرة كما في بلاد خيبر في عهد رسول الله ﷺ، فقد عين عليها رسول الله ﷺ واليًا مسلمًا يقيم فيهم حكم الله. أو مختلطين مع المسلمين كاليهود والنصارى في بلاد الشام؛ وذلك لأنهم تحت حكم الإسلام،

(١) «الإنصاف» (٤/ ١٢١).

(٢) «الإقناع» (٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) «مجموعة الرسائل» (١/ ٦٥٥).

(٤) «ديوانه» (١/ ٣١٩-٣٢٠).

(٥) «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ/ قسم الفقه» (٢/ ٢٧٠).

وهكذا كل بلد فتحها المسلمون، وصارت تحت حكمهم: صارت دار إسلام.

وفي هذا دليل على أن مجرد السكنى لا يصح أن يكون مناطًا للحكم على الدار بدار إسلام أو كفر.

٢- أَنَّ الإسلام والكفر في مسائل الدولة رُبطا بالحكم ولم يُربطا بالسكان، ومن المسلم به أن الحكم من خصائص الدولة وليس من خصائص السكان.

٣- أَنَّ المقصود بالأحكام هو فرضها على الناس والالتزام بها عمليًا وهذه من أعمال الحاكم.

٤- أن النبي ﷺ ربط بقاء الهجرة بقتال العدو، والذي يقاتل ويعقد ألوية القتال هي الدولة بحكامها وجنودها وليس عامة الناس.

أقسام الهجرة من حيث البلاد وأهلها:

تنقسم الهجرة من حيث البلاد وأهلها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام:

وهذا النوع من الهجرة هو أصل أقسامها الثلاثة وأعظمها وأشهرها ولهذا اكتفى المؤلف بذكره دون بقية الأقسام وهذا النوع هو الذي قال الله في أهله مادحًا إياهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[الحشر:٨].

وعلى رأس هؤلاء المهاجرين رسول الله ﷺ فإنه أري دار هجرته وهو في مكة، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأيتُ في المنامِ أنّي أُهاجرُ من مكّة إلى أرضٍ بها نخلٌ فذهب وَهلي إلى أنّها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب...**»(١).

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٢٧)، كتاب «المناقب»/ باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٢)، ومسلم (٤/ ١٧٧٩-١٧٨٠)، كتاب «الرؤيا»/ باب رؤيا النبي ﷺ. رقم (٢٢٧٢).

وأخبر بأنها دار هجرته وهجرة أصحابه فقال فيما روته عائشة رضي الله عنها أنه قال ﷺ للمسلمين: «**إِنِّي أُرِيْتُ دار هجرتِكُمْ ذات نخلٍ بين لابتينِ**» -وهُمَا الحَرّتان- فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»(١). وهجرة أصحابه ﷺ من مكة أشهر من أن تذكر.

الثاني: الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة:

الهجرة من بلد البدعة إلى بلد السنة سنة متبعة مأثورة عن سلفنا الصالح رحمهم الله رحمة واسعة ومن ذلك هجرة بعض أصحاب النبي ﷺ ومنهم جرير بن عبدالله البجلي وعدي بن حاتم الطائي وحنظلة بن الربيع الكاتب فإنهم خرجوا من الكوفة حتى نزلوا قرقيسيا وقالوا: لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان بن عفان(٢) وكذلك من تبعهم بإحسان ومنهم محمد بن عبدالعزيز التيمي فإنه باع داره وقال: لا أقيم بالكوفة بلدة يشتم فيها أصحاب رسول الله ﷺ(٣).

وعمر بن الحسين الخرقي فإنه خرج من مدينة السلام لما ظهر سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين(٤) وخرج محمد بن نظيف المالكي من القيروان إلى مصر عند ظهور سب السلف رحمهم الله تعالى(٥)، بل أوجب ذلك مالك رحمه الله فقال: «لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سُبَّ فيها السلف»(٦).

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٣٠-١٣٢)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٥).

(٢) «الإبانة الصغرى» لابن بطة (١٦٤)، و«تاريخ بغداد» (١/ ٥٤٨).

قال البغدادي: قال لي محمد بن علي الصواري: «أنا رأيت قبورهم بقرقيسيا».

(٣) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٧٥).

(٤) «الإبانة الصغرى» لابن بطة (١٦٤).

(٥) «ترتيب المدارك» (٦/ ٢٠٦).

(٦) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٤٨٤).

وقال القصري: «وفي البخاري: والفرار من الفتن من الإيمان، فما كان من الإيمان فهو من شعبه بلا شك... فالفرار ظاهرًا من بين ظهراني المشركين واجب على كل مسلم، وكذلك كل موضع يخاف فيه الفتنة في الدين من ظهور بدعة أو ما يجر إلى كفر في أي بلد كان من بلاد المسلمين فالهجرة منه واجبة إلى أرض الله الواسعة»(١).

وقال في «الإقناع وشرحه»: «وتجب الهجرة على من يعجز عن إظهار دينه بدار الحرب وهي ما يغلب فيها حكم الكفر... زاد جماعة وقطع به في المنتهى أو بلدُ بُغاةٍ أو بِدَع مُضِلّة كرَفْضٍ واعتزال فيخرج منها إلى دار أهل السنة وجوبًا إن عجز عن إظهار مذهب أهل السنة فيها»(٢).

الثالث: الهجرة من بلد المعصية إلى بلد الطاعة

إذا كثرت المعاصي في بلد من بلدان المسلمين ولم يستطع المسلم إنكارها ومحاربتها فإنّ عليه أن يهاجر منها إلى بلد تظهر فيه الطاعة ويعزّ فيه أهلها وتختفي فيه المعصية ويذل أهلها. قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[العنكبوت:٥٦].

قال سعيد بن جبير عند قوله: «﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ إذا عمل فيها بالمعاصي فاخرج منها».

وقال عطاء: «﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ أي مجانبة أهل المعاصي».

وقال مجاهد: «﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ فهاجروا وجاهدوا».

وقال ابن جرير: «قال بعضهم: أريد بذلك أنها لم تضق عليكم فتقيموا بموضع منها لا يحل لكم المقام فيه، ولكن إذا عمل بمكان منها بمعاصي الله فلم تقدروا على تغييره

(١) «شعب الإيمان» للقصري (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) «كشاف القناع عن متن الإقناع» (٣/ ٤٣).

فاهربوا منه» ثم أيّده وصوّبه[(١)].

وقال الإمام مالك: «إني لأكره المقام بالبلدة التي يعصى الله فيها علانية، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[النساء:٩٧]»[(٢)].

وقال البغوي بعد أن ذكر هذه الآثار: «وكذلك يجب على كلّ من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة»[(٣)].

ومن أدلة ذلك قصة الذي قتل مائة نفس وفيه: «ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب...، فأتاهم ملك على صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى؛ فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[(٤)].

ويلحق بهذه الأنواع:

الهجرة الاضطرارية: وهي الانتقال (من دار الخوف إلى دار الأمن) وإن كانتا كلتيهما دارا كفر، وذلك إذا كان المسلم في دار لا يأمن فيها على دينه فإنه يهاجر إلى دار يأمن فيها على دينه. كما هاجر أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة فإنهم لما أوذوا في مكة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة.

فعن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي أنها قالت: «لَمَّا ضاقَت عَلَينا مكة وَأُوذِي أصحاب

---

(١) «جامع البيان» (٢١/ ٩-١٠).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٩٩).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٢)، وانظر: «الدرر السنية» (١٢/ ٣٩٩-٤٠٢).

(٤) مسلم (٤/ ٢١١٨)، كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. رقم (٢٧٦٦).

رسولِ الله ﷺ وفُتِنُوا ورَأَوا ما يُصيبهم من البلاءِ والفِتنةِ فِي دِينهم وأنّ رسول الله ﷺ لاَ يَستطيع دفعَ ذلكَ عنهم... فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إنَّ بأرض الحبشةِ ملكًا لا يُظْلَم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتَّى يجعلَ اللهُ لكمْ فرجًا ومخرجًا ممَّا أنتم فيه**»، فخرجنا إليها أرسالًا حتّى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دارٍ إلى خير جارٍ أَمِنًا على ديننا، ولم نخشَ منه ظُلمًا...»[1].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «بلغنا مخرجُ النّبيّ ﷺ ونحنُ باليمن، فخرجنا مُهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرُهُم، أحدُهُما أَبُو بُردة، والآخرُ أَبُو رُهمٍ، إمّا قال في بضع، وإمّا قال: في ثلاثةٍ وخمسين، أو اثنين وخمسين رجُلًا من قومي، فركبنا سفينةً، فألقتنا سفينتُنا إلى النّجاشيّ بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ، فأقمنا معهُ حتّى قدمنا جميعًا، فوافقنا النّبيّ ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أُناسٌ من النّاس يقُولُون لنا، يعني لأهل السّفينة سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماءُ بنتُ عُميسٍ، -وهي ممّن قدم معنا- على حفصة زوج النّبيّ ﷺ زائرةً، وقد كانت هاجرت إلى النّجاشيّ فيمن هاجر، فدخل عُمرُ على حفصة، وأسماءُ عندها، فقال عُمرُ حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنتُ عُميسٍ، قال عمر: آلحبشيّةُ هذه آلبحريّةُ هذه؟ قالت أسماءُ: نعم، قال: سبقناكُم بالهجرة، فنحنُ أحقُّ برسُول الله منكُم، فغضبت وقالت: كلّا والله، كُنتُم مع رسُول الله يُطعمُ جائعكُم، ويعظُ جاهلكُم، وكُنّا في دار أو في أرض البُعداء البُغضاء بالحبشة، وذلك في الله، وأيمُ الله لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا، حتّى أذكُر ما قُلت لرسُول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذبُ ولا أزيغُ، ولا أزيدُ عليه، فلمّا جاء النّبيُّ قالت: يا نبيّ الله إنّ عُمر قال: كذا وكذا قال: «**فما قُلت لهُ؟**» قالت: قُلتُ لهُ: كذا وكذا، قال: «**ليس بأحقّ بي منكُم، ولهُ ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ، ولكُم أنتُم أهل السّفينة هجرتان**» قالت

---

(١) «سيرة ابن إسحاق» (١٩٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٩/ ١٦) رقم (١٧٧٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١٧٠).

أسماءُ: فلقد رأيتُ أبا مُوسى وأصحاب السّفينة يأتُونني أرسالًا، يسألُوني عن هذا الحديث، ما من الدُّنيا شيءٌ هُم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفُسهم ممّا قال لهُمُ النَّبيُّ ﷺ(١).

فضل الهجرة:

لما كانت الهجرة لها أثر كبير على صلاح الفرد والمجتمع وعزة المسلمين وعلوهم ورفعتهم ونصرهم على أعدائهم تكاثرت الأدلة في بيان فضلها على صفات متنوعة ومن ذلك:

١- سعادة المهاجر:

الهجرة من أسباب سعادة العبد المهاجر دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾[النحل:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾[الحج:٥٨-٥٩].

٢- محو الذنوب وغفرانها:

الهجرة يمحو الله بها الذنوب السالفة، وإن عظمت وكثرت، كما حدَّث بذلك عمرو بن العاص قائلًا: «لما جَعَلَ الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعنّك فبسط يمينه قال: فَقبضتُ يدي قال: «**مالك يا عمرو؟**»، قال: قلتُ: أردتُ أن أشترطَ قال: «**تشترط بماذا؟**»، قلت: أن يُغفرَ لي قال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإسلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ**

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٨٤-٤٨٥)، كتاب «المغازي»/ باب غزوة خيبر. رقم (٤٢٣٠-٤٢٣١)، ومسلم (٤/ ١٩٤٦-١٩٤٧)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل جعفر بن أبي طالب، وأسماء بنت عميس، وأهل سفينتهم ﭫ. رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

قَبْلَهَ، وَأَنَّ الْهِجرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا...»[١].

بل ويغفر الله بها الذنوب اللاحقة كما في حديث الطفيل بن عمرو الدوسي وفيه: «فلمّا هَاجَرَ النبيُّ ﷺ هَاجرَ إليه الطفيل بن عمرو، وهَاجرَ معه رجلٌ من قومه، فاجْتووا المدينة فمَرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع به بَرَاجمه فَشخَبت يداهُ حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة ورآه مغطيًا يديه فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بِهجرتي إلى نبيه ﷺ. فقال: مالي أراكَ مغطيًا يديك قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت، فقصها الطفيل على رسول الله. فقال رسول الله: «**اللَّهُمَّ وليديه فاغفر**»[٢].

٣- عظيم أجرها:

عندما تقع المصائب والنكبات بالمجتمعات ينشغل بها الناس عن العبادة والذكر، ولا يتذكر العبادة إلا القليل من الناس فيكون لها مزية فضل على غيرها من الأوقات والأحايين. والهجرة تعادل بفضلها تلك العبادة قال ﷺ: «**العبادةُ في الهرجِ كهجرةٍ إليَّ**»[٣].

أهداف الهجرة وثمارها:

أهداف الهجرة كثيرة منها:

١ - حفظ الدين:

الهجرة من أعظم أسباب حفظ الدين، وذلك أن البقاءَ مع المشركين في ديارهم سببٌ رئيس في فتنة الإنسان عن دينه؛ إما بالترغيب أو بالترهيب، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان

---

(١) مسلم (١/ ١١٢)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج. رقم (١٢١).
(٢) مسلم (١/ ١٠٨-١٠٩)، كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر. رقم (١١٦).
(٣) مسلم (٤/ ٢٢٦٨)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب فضل العبادة في الهرج. رقم (٢٩٤٨).

المؤمنونَ يفرُّ أحدُهم بدينِه إلى الله تعالى وإلى رسولهِ ﷺ مخافةَ أنْ يُفْتَنَ عليه»[١].

٢- الجهاد في سبيل الله:

وذلك أن المسلمين إذا انحازوا إلى مكان وتجمعوا فيه صارت لهم شوكة ودولة ومن ثم شرعوا في جهاد أعداء الله وفتح بلاد الكفر، كما هي حال النبي ﷺ وأصحابه في المدينة.

٣- مراغمة أعداء الله:

مراغمةُ أعداء الله مطلبٌ شرعي ذكره الله بقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء:١٠٠].

«أي مكانًا يراغم فيه أعداء الله»، وذلك أن «علامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم»[٢]، بل «لا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه وإغاظته له» لكن «لا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة»[٣]. ولأجل ذلك قدَّم الله المراغمةَ على السعة بل مدح مغيظي الكفار وأثنى عليهم فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح:٢٩].

وكتبه في الأعمال الصالحة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة:١٢٠].

قال ابن القيم: «فمغايظةُ الكفّار غايةٌ محبوبةٌ للربّ مطلوبةٌ له، فموافقته فيها من كمال

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٢٦)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٠).

(٢) «روضة المحبين» (٤٧٢).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٦-٢٢٧) بشيء من التصرف.

العبودية... فَمَنْ تعبد الله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصّدّيقيّة بسهم وافر. وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته، ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة... وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول»[(١)].

٤ - تكثير سواد المسلمين:

تكثير سواد المسلمين يفيد فائدتين إحداهما: تقوية قلوب المؤمنين، والأخرى إرهاب الكافرين وتخويفهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾[آل عمران:١٦٧]، أو ادفعوا: أي: كثِّروا المؤمنين، فإنّ ذلك يرهب الأعداء.

قال السدي: «أي: كثروا سواد المسلمين، ورابطوا، وإن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعًا وقمعًا للعدو»[(٢)].

قال أنس بن مالك: «رأيت يوم القادسية عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجر أطرافها، وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكنّي أكثر المسلمين بنفسي، وفي لفظ: «أكثر سواد المسلمين»[(٣)].

٥ - السلامة والراحة من رؤية المنكرات:

رؤيةُ المنكرات تؤثّر في القلب ولو على المدى البعيد فيصاب بالبرود وفقد الغيرة، بل ربما أُشرب حبها، فارتكبها، فأضرّت بدينه، فإذا هاجر إلى بلاد الإسلام سلم من ذلك كله.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «معالم التنزيل» (١/ ٥٣٣).

(٣) «المحرر الوجيز» (١/ ٥٣٩)، وأصله عند عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٨٢) رقم (٣٤٩٧).

٦- الأمن من غدر الكفار:

إذا انتقل المسلم وهاجر إلى إخوانه المؤمنين وتحيّز إلى تلك الفئة المؤمنة سَلِمَ من غدر الكفار وخداعهم وصار في مأمن منهم ومِنْ غوائلهم.

٧- تمييز أولياء الله من أعدائه:

المايزة بين الموحدين والمشركين من أصول هذا الدين وهي التي يعبر عنها العلماء بالولاء والبراء، ومن أعظم وسائلها الهجرة من ديار الكفر والشرك إلى بلاد الإسلام، فإن لم تكن هجرة وممايزة صارت الفتنة والفساد الكبير.

آثار ترك الهجرة:

كما أنّ للهجرة ثمرات عظيمةً فتركها له أضرار جسيمة على الفرد والمجتمع منها:

١- انقطاع الولاية بينه وبين المهاجرين:

نهى الحق سبحانه عن موالاة المؤمنين الممتنعين عن الهجرة، فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾[الأنفال:٧٢].

وحتى للغاية فلا تكون ولاية إلا بالهجرة في سبيل الله، فلما هاجروا جعلهم الله من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[الأنفال:٧٥].

٢- غضب الله على من ترك الهجرة وعقوبته:

توعد الله بالنار من توفي ظالمًا لنفسه بترك الهجرة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:٩٧] ولم يتوعدهم الله بالنار إلا لشناعة فعلهم الذي أغضبه عليهم.

٣- حرمانهم من الغنيمة والفيء:

من عقوباتهم الدنيوية جراء تقصيرهم في الهجرة حرمانهم من الغنيمة والفيء كما في حديث بريدة الطويل، وفيه قال: «**اغْزُوا باسمِ الله في سبيلِ الله، قاتلُوا مَنْ كفر بالله... إذا لقيْتَ عدُوَّكَ من المشركين فادعُهُمْ إلى إحدى ثلاثِ خصالٍ -أو خلالٍ- فَأَيَّتَهُنَّ ما أجابُوك؛ فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهُم إلى التَّحَوّل مِنْ دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلُوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرينَ، فإنْ أبَوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنَّهُم يكونُون كأعرابِ المسلمينَ يجري عليهمْ حكمُ الله الذي يجري على المؤمنينَ، ولا يكون لهمْ في الغنيمةِ والفيء شيءٌ إلَّا أَنْ يُجاهدُوا مع المسلمين...**»(١).

٤- ضياع الدين:

من عاش بين المشركين يرى شركهم وكفرهم وسكت على ذلك، هانت في قلبه شركياتهم، فإنه كلما كثر الإمساس قلّ الإحساس، بل ربما تنازل عن شيء من دينه لإرضاء الكفار أضف إلى ذلك حرمانه من الجهاد في سبيل الله ومراغمة أعدائه وتكثير سواد المؤمنين، وكفى بهذا ضياعًا للدين.

---

(١) سبق تخريجه.

والهِجْرَةُ: فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِن بَلَدِ الشرْكِ إلى بَلَدِ الإِسْلاَمِ. وهي باقية إلى أن تقوم الساعة.

....

انتقل المؤلف إلى بيان حكم الهجرة ووجوبها على هذه الأمة؛ لأَنَّ مَنْ «كان كافرًا فأسلم لم يحل له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج فرضًا واجبًا... وكيف يجوز لمسلم المقام في دار تجري عليه فيها أحكام الكفر، وتكون كلمته فيها سفلى ويده، وهو مسلم، هذا لا يجوز لأحد»(١).

والهجرة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع.

ومن أدلة ذلك ما يلي:

أولًا: أن الله عاتب المؤمنين الذين قعدوا ولم يهاجروا حتى ماتوا فوصفهم بالظالمي أنفسهم وتوعدهم بالعذاب العظيم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:٩٧]، «هذا وعيد شديد يدل على الوجوب؛ لأن القيام بواجب دينه واجبٌ على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب، وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»(٢).

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في كل مَنْ أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع وبنص هذه الآية»(٣).

---

(١) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠-٣٩١).

(٢) «المغني» (١٣/ ١٥١).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٣).

ثانيًا: أنّ النبي ﷺ منع من إقامة المسلم بين المشركين إذا كان قادرًا على الهجرة فقال: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يُقِيمُ بين أَظْهُرِ المشركينَ**»، قيل: يا رسول الله! ولمَ؟ قال: «**لا تراءى ناراهُما**»(١). «ومعناه: لا يكون بموضع يرى نارهم، ويرون ناره إذا أوقدت في آي وأخبار سوى هذين كثير»(٢).

وقوله ﷺ: «**لا يقبل اللهُ من مشركٍ بعدما أسلم عملًا أو يُفارِق المشركينَ إلى المسلمين**»(٣).

وقال ﷺ: «**من جامع المشركَ وسكنَ معهُ؛ فهوَ مثلُهُ**»(٤)، وفي لفظ: «**لا تُساكِنُوا المشركين، ولا تُجامعُوهُم، فمن ساكنهم أو جامعهم؛ فليس منَّا**»(٥)، فلازم المنع من الإقامة في ديار الكفار هو الهجرة. قال العبدوسي المالكي الأندلسي: «المقام بين أظهر الكفار مع القدرة على الهجرة عنهم حرام بإجماع»(٦).

ثالثًا: الأمر بالهجرة والتأكيد عليه من أَوّل إسلام المسلم:

أكد النبي ﷺ على الهجرة عند بيعته أصحابه على الإسلام، كما في حديث جرير بن عبدالله أنه حين بايع النبي ﷺ أخذ عليه: أَلّا يُشْرك بالله شيئًا، وَيُقِيمَ الصَّلاةَ، وَيُؤْتِي الزّكاةَ، وَيَنْصَحَ المسلمَ، ويُفارقَ المشركَ(٧).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المغني» (١٣/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) أحمد (٥/ ٤)، والنسائي (٥/ ٨٢-٨٣)، كتاب «الزكاة»/ باب من سأل بوجه الله ﷻ، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨)، كتاب «الحدود»/ باب المرتد عن دينه. رقم (٢٥٣٦)، وقال الألباني: «إسناده حسن». «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٤٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) «نوازل ابن طركاط» (٩٣-٩٤) نقلاً عن «الصراع العقائدي في الأندلس» (٦٤٠).

(٧) سبق تخريجه.

رابعًا: قطع العلاقة بين المهاجرين ومَنْ لم يهاجر، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾[الأنفال:٧٢]،وقطع العلاقة يدل على وجوب الهجرة؛ لأنه لا تقطع العلاقة إلا لترك واجب، أو فعل محرم.

خامسًا: الإجماع على وجوب الهجرة.

قال النووي: «واتفق الجميع على أنّ الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم»(١). وهذا من مكة لما كانت دار كفر -وهي أفضل البقاع- فغيرها من البلدان من باب أولى.

قال ابن هبيرة: «واتفقوا على وجوب الهجرة من ديار الكفار إن قدر على ذلك»(٢).

واستثني من الوجوب من يستطيع إظهار دينه في بلاد الكفر فإن الهجرة في حقِّه مستحبة وليست بواجبة.

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار كحكم الإقامة يمنع منه مَنْ عَجِزَ عن إظهار دينه(٣)، واشترط له شيخنا محمد العثيمين ثلاثة شروط هي:

١- أن يكون عنده علم يمنعه من الشبهات.

٢- أن يكون عنده دين يحميه من الشهوات.

٣- أن يكون لحاجة وضرورة(٤).

فمن لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاثة لم يجز له السفر إلى ديار الكفر.

صفة إظهار الدين:

تتضح كيفية إظهار الدين بمعرفة أصله الذي يقوم عليه فمن أظهره فقد أظهر الدين

---

(١) «شرح مسلم» (٩/ ١٢٢)، وانظر: «الدرر السنية» (٨/ ١١٠).

(٢) «الإفصاح» (٢/ ٢٧٣).

(٣) «الدرر السنية» (٨/ ٣١٨).

(٤) «المجموع الثمين» (١/ ٤٩-٥٠).

ومن لم يظهره لم يظهر الدين.

وأصله هو الشهادتان اللتان بهما يدخل الإنسان دين الله عز وجل فيفرد الله بالعبادة، ويفرد النبي ﷺ بالإتباع، ويحب الله ويحب فيه ويوالي فيه، ويبغض لله ويعادي فيه، فيبغض الشرك والمشركين ويعاديهم.

وضابط إظهار الدين: مجاهرة المسلم بالتوحيد والبراءة مما عليه المشركون من الشرك بالله في العبادة وغير ذلك من أنواع الكفر والضلال(١).

ويوضحه الشيخ حسين بن غنام الإحساني حيث يقول رادًا على من ظن أن إظهار الدين هو الأذان والصلاة والصوم وغير ذلك من أنواع العبادات:

«ليس الأمر كما زعمتم فإن الله سبحانه ذكر في كتابه المراد من إظهار الدين وأنه ليس ما توهمتم فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون١-٦].

فأمره أن يقول لهم: إنكم كافرون وإنه بريء من معبوداتهم وأنهم بريئون من عبادة الله وهو قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

وقوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: تصريح بالبراءة من دينهم الذي هو الشرك، وتمسّك بدينه الذي هو الإسلام، فمن قال ذلك للمشركين ظاهرًا في مجالسهم ومحافلهم وغشاهم به فقد أظهر دينه».

ثم استدل بقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

---

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٩١-٩٢).

ثم نقل كلام الشيخ حمد بن عتيق على هذه الآية فقال: «قال شيخنا حمد بن عتيق رحمه الله: فأخبر الله تعالى عن جميع المرسلين أنهم تبرؤوا من الشرك والمشركين فإن معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي من المرسلين وقوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي ظهر وبان. وهذا هو الواجب أن تكون العداوة والبغضاء ظاهرة يعلمها المشركون من المسلم وتكون مستمرة»(١). «فمن حقق ذلك علمًا وعملًا وصرّح به حتى يعلمه منه أهل بلده لم تجب عليه الهجرة من أي بلدٍ كان. وأما من لم يكن كذلك بل ظن أنه إذا ترك يصلي ويصوم ويحج سقطت عنه الهجرة فهذا جهل بالدين وغفول عن زُبْدَةِ رسالة سيد المرسلين»(٢).

وللشيخ إسحاق بن عبدالرحمن بن حسن استدلال لطيف بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أبطل فيه دعوى من قصر إظهار الدين على مجرد العبادة، فقال: «لأنه إذا حمل على ذلك فقد تساوى المستثنى والمستثنى منه؛ إذ هو مناط الرخصة في زعم المجيز ولا يتصور في المستضعف أن يترك عبادة ربه»(٣).

قال الشيخ سليمان بن سحمان مبينًا صفة إظهار الدين:

فَاسْمَع إذًا إظْهَارَهُ عَنْ ظَاهِرِ القُـ ... ـرآنِ بَلْ جَاءَتْ بِهِ الآثَارُ
إظِهَارُ هذَا الدِّينِ تَصْرِيحٌ لَهُمْ ... بَالكُفْرِ إذْ هُمْ مَعْشَرٌ كُفَّارُ
هَذَا ولَيْسَ القَلْبُ كَافٍ بُغْضُهُ ... وَالحُبُّ مِنْهُ وَمَا هُوَ المِعْيَارُ
لَكنَّما المِعْيَارُ أنْ تَأْتِي بِهِ ... جَهْرًا وَتَصْرِيحًا لَهُمْ إذْ جارُوا(٤)

---

(١) «الدرر السنية» (٨/ ٤٣٣) ثم استمر الشيخ/ في ذكر الأدلة والنقول عن أهل العلم تركتها خشية الإطالة من (٤٣٣-٤٣٦) فراجعه إن شئت.

وانظر: «الجيوش العمرية» لابن سحمان (١٢٠-١٢٢)، و«سبيل النجاة والفكاك» (٩٢).

(٢) «الدرر السنية» (٨/ ٤١٨).

(٣) المرجع السابق (١٢/ ٤٠٢).

(٤) «ديوانه» (٣٢٠).

أقسام الهجرة بالنسبة لحال المهاجر:

١- واجبة على مَنْ كان قادرًا على الهجرة ولا يمكنه إظهار الدين.

٢- مستحبة لمن كان قادرًا على الهجرة لكنه يمكنه إظهار الدين.

٣- مَعْفُوَّةٌ عن العاجز الذي لا يستطيع الهجرة من أَسْرٍ أو مرض أو إكراه على الإقامة، أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، أو نحو ذلك(١).

وقوله: «**وهي باقية إلى أن تقوم الساعة**» أي أن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام مستمرة إلى قيام الساعة لحديث عبد الله السعدي: أنه ﷺ قال: «**لا تنقطعُ الهجرةُ ما دام العدوُّ يقاتل**». فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «... ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل»(٢)، وفي لفظ: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو»(٣).

وفي لفظ: «**لا تنقطعُ الهجرةُ ما قُوتِلَ الكفّارُ**»(٤)، وقتال العدو يبقى إلى قيام الساعة.

وعن جنادة بن أبي أمية: «أن رجالًا مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ قال بعضهم: إنّ الهجرةَ قد انقَطَعت فاختلفوا في ذلك. قال: فانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله! إن أُناسًا يقولون: إنَّ الهجرةَ قد انقطعت، فقالَ رسول الله ﷺ: «**إنَّ الهجرةَ لا تنقطع ما**

---

(١) انظر: «المغني» (١٣/ ١٥١).

(٢) أحمد (١/ ١٩٢)، قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي». «البداية والنهاية» (١١/ ٢٦٣).

(٣) أحمد (٥/ ٢٧٠).

(٤) النسائي (٧/ ١٤٦-١٤٧)، كتاب البيعة/ ذكر الاختلاف في الهجرة، قال أبو زرعة: «الحديث صحيح مثبت عن عبد الله بن السعدي، كذا رواه الثقات الأثبات، منهم: مالك بن مخامر، وأبو إدريس الخولاني، وعبد الله بن محيريز، وغيرهم». «تاريخ دمشق» (٣١/ ٤٠٣).

كان الجهادُ»[١].

قال ابن عبدالبر بعد كلام سبق: «وقد بقي من الهجرة بابٌ باقٍ إلى يومِ القيامةِ وهو المسلم في دارِ الحربِ إذا أطاقت أُسرته أو كان كافرًا فأسلمَ لم يحلّ له المقام في دار الحرب، وكان عليه الخروج عنها فرضًا واجبًا»[٢].

وقال ابن قدامة: «وحكم الهجرة باق لا ينقطع إلى يوم القيامة في قول عامة أهل العلم»[٣].

وقال ابن العربي المالكي بعد كلام سبق: «فأما الهجرة من أرض الكفر فهي فريضة إلى يوم القيامة»[٤].

وقال ابن حجر: «وهذه الهجرة باقية الحكم في حقِّ مَنْ أسلم في دار الكفر وقَدِرَ على الخروج منها»[٥].

ولا يرد علينا قول النبي ﷺ: «**لا هجرةَ بعدَ الفتحِ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ**»[٦]؛ لأن المقصود بذلك لا هجرة من مكة بعد أن فتحت وصارت دار إسلام ويدل على خصوصيتها بمكة ثلاثة أمور:

١ - أن هذا الحديث خطاب لأهل مكة؛ لأن مناسبته فتح مكة لما استأذنه بعضهم بالهجرة، كما في رواية ابن عباس: أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «**لا هجرة ولكن جهاد**

---

(١) أحمد (٤/ ٦٢)، وصححه ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) «التمهيد» (٨/ ٣٩٠).

(٣) «المغني» (١٣/ ١٥٠)، وانظر: «سبل السلام» (٤/ ٤٣).

(٤) «عارضة الأحوذي» (٧/ ٨٨).

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٣٩)، وانظر (٧/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٦) البخاري مع الفتح (٦/ ٣)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب فضل الجهاد والسير. رقم (٢٧٨٣).

ونيَّة»[(١)].

٢- أن مكة صارت دار إسلام فلا معنى للهجرة منها. قال البغوي: «قوله «**لا هجرةَ**» يريد بها الهجرة من مكة إلى المدينة فإنها ارتفعت يوم الفتح، لأن مكة صارت يوم الفتح دار إسلام، وكانت الهجرة عنها واجبة قبل ذلك لكونها مساكن أهل الشرك، وكل من أسلم اليوم في بلدة من بلاد أهل الشرك فإنه يؤمر بمفارقتها والهجرة عنها إلى دار الإسلام»[(٢)].

٣- الأحاديث الدالة على استمرار الهجرة حتى طلوع الشمس من مغربها تدل على أن المقصود بقوله: «**لا هجرةَ بعد الفتحِ**» مخصوص بمكان معيّن وهو مكة، وكذلك بلاد الكفر، إذا فتحت وصارت الدولة للإسلام.

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١٨٩)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب: «لا هجرة بعد الفتح». رقم (٣٠٧٧)، ومسلم (٣/ ١٤٨٧)، كتاب «الإمارة»/ باب المبالغة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، ومعنى: «لا هجرة بعد الفتح». رقم (١٨٦٣).

(٢) «شرح السنة» (٧/ ٢٩٥).

والدليل: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[النساء:٩٧- ٩٩].

....

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ﴾: إن للتوكيد.

﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾: إما أن تكون ماضيًا فهي تخبر عن حال قوم معينين قال ابن عباس: هم قوم تخلفوا بعد النبي ﷺ وتركوا أن يخرجوا معه. وقال عكرمة: نزلت في قيس بن الفاكه ابن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود وقيس بن الوليد بن المغيرة وأبي العاص بن منبه ابن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف... فقتلوا ببدر(١).

أو تكون مستقبلًا على تقدير إن الذين تتوفاهم الملائكة. فعلى هذا تكون الآية عامة وهو الراجح لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتكون إحدى التاءين من توفاهم محذوفة وهي مرادة في الكلمة؛ لأن العرب تفعل ذلك والتوفي: هو قبض الروح.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ملائكة الموت أي ملك الموت وأعوانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[الأنعام:٦١]، أو ملك الموت وحده، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾[السجدة:١١]، والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: في محل نصب على الحال؛ أي تتوفاهم الملائكة في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة والمقام في دار الشرك.

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ٢٣٤).

قال ابن جرير: «مُكسبي أنفسِهم غضَبَ الله وسخطه»[١].

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾: الملائكة يسألونهم سؤال توبيخ، أي: أكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مع المشركين؟ على أي حال كنتم وبأي شيء تميزتم عنهم بل كثرتم سوادهم.

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: الضعف خلاف القوة قال مقاتل: «كنا مقهورين بأرض مكة لا نطيق أن نُظهر الإيمان»[٢].

﴿قَالُوٓاْ﴾: أي الملائكة.

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾: والاستفهام هنا للتوبيخ، أي: لماذا لم تهاجروا من بلاد الشرك ما دامت أرض الله واسعة؟ والأرض: هنا قيل المدينة، وقيل: المراد مطلق الأرض.

والسعة: المقصود بها سعة الرزق وسعة الحرية في التمسك بالدين.

﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾: أي تهاجروا إليها فتنتقلوا من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام.

وفي هذا بيان لعدم قبول اعتذارهم لعدم صحته. ولما بين عدم قبول اعتذارهم ذكر وعيدهم فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة في قوله فأولئك إلى الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم بترك الهجرة.

﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: أي منزلهم الذي يأوون إليه هو جهنم، واشتقت من قولهم: بِئْرٌ جِهْنام، أي: بعيدة القعر، وقيل: مِنَ الجُهْمَةِ، وهو آخر الليل[٣]، فسميت بذلك لبعد قعرها وظلمتها واسودادها.

---

(١) المرجع السابق (٥/ ٢٣٣).

(٢) «تفسير مقاتل» (١/ ٤٠١).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١٢/ ١١٠-١١٢).

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾: هذا كقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وذلك أَنَّ ساء فعل جامد لإنشاء الذم (كبئس)، والمعنى قبح مرجعهم الذي يصيرون إليه، وعبّر في هذه الآية بساءت؛ لأن النار كل ما فيها يسوء ولا يسرّ، وهذا وعيد شديد يدل على أن الهجرة واجبة على القادر وأَنّ مَنْ لمْ يهاجر فقد ارتكب ذنبًا عظيمًا؛ لأنه لا يتوعد بمثل هذا الوعيد إلا على ترك واجب عظيم الوجوب.

ثم استثنى الله أهل الأعذار الحقيقيين فقال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا﴾[النساء:٩٨].

﴿إِلَّا﴾: الاستثناء منقطع[(١)] بمعنى «لكن»؛ لأن المستثنى منه عاصون بالتخلف عن الهجرة، فخرج من ذلك المستضعفون فلم يتوجه إليهم الوعيد.

و﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: جمع مستضعف وهو العاجز المقهور.

﴿مِنَ﴾: بيانية تبين المستضعفين مَنْ هُم.

وهم: ﴿ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ الذين لا يستطيعون الهجرة إما لِحَبْسٍ أو مرض ونحوه كالأعمى.

قال ابن عباس: «كنت أنا وأمي من المستضعفين»، وفي رواية: «كنت أنا وأمي ممّن عَذَر الله»[(٢)].

﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾: أي لا يقدرون على الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، ولهذا قال: ﴿حِيلَةً﴾ وحيلة هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم. وهي مشتقة من الحَوْلِ وهو

---

(١) «اللباب في علوم الكتاب» (٦/ ٥٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥٥)، كتاب «التفسير»/ باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾. رقم (٤٥٨٧ و٤٥٨٨).

القوة، أي: لا قوة لهم على الهجرة، أو من التحيّل: أي التوصل إلى الشيء على وجه لا يشعر به الغير(١) والمقصود أنهم لا يستطيعون حيلة يتخلصون بها من الكفار.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: السبيل هو الطريق أي لا يعرفون طريقًا يسلكونها للخروج إلى المدينة أو إلى الأرض التي يرغبون الهجرة إليها؛ لعدم خبرتهم بالدروب، ولا يجدون دليلًا يوصلهم فجمعوا بين العجز وعدم معرفة الطريق، فهؤلاء عذرهم الله.

قال الطبري: «استثنى جل ثناؤه المستضعفين الذين استضعفهم المشركون من الرجال والنساء، وهم العجزة عن الهجرة بالعسرة، وقلة الحيلة، وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم»(٢).

ومن المعذورين: عياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، ولقد كان النبي ﷺ يدعو لهم إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة فيقول: «**اللهمَّ أنج عيّاش بن أبي رَبيعةَ. اللهمَّ أنْجِ سلمةَ بن هشام، اللَّهُمَّ أنْجِ الوليد بن الوليد، اللَّهُمَّ أنجِ المستضعفينَ من المؤمنين...**»(٣).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى المستضعفين الذين قبل الله عذرهم لصحته فعفا عنهم ولذلك قال: «**عسى اللهُ أن يعفوَ عنهم**».

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبةٌ»(٤)، وذلك لأن عسى للإطماع والإطماع من الكريم حاصل.

---

(١) انظر: «لسان العرب» مادة (حول)، (حيل) و«إعلام الموقعين» (٣/ ٢٥٢).

(٢) «جامع البيان» (٥/ ٢٣٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٤٩٢)، كتاب «الاستسقاء»/ باب دعاء النبي ﷺ: «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف». رقم (١٠٠٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٩١)، قال القرطبي: «عسى من الله واجبة في جميع القرآن؛ إلا قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾. «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٣٩).

قال ابن رجب: «إن الكريم إذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع»[١].

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَى﴾ فائدتان:

١- لئلا يغتر الإنسان بعفو الله فيأمن مكره. ففيها الجمع بين الخوف والرجاء.

٢- أَنَّ تركَ الهجرة أمر مضيّقٌ لا توسعة فيه، وذلك أَنَّ المعذور يقال في حقه: عسى الله أن يعفو عنه فكيف الحال بغيره. وفي هذا حضٌ على الهجرة وتوكيد لوجوبها.

و ﴿كَانَ﴾ هنا: مسلوبة الزمان تفيد دوام استمرار وصف الله به، أي: أنه جل وعلا لم يزل ولا يزال عفوًا غفورًا. قال محمود شاكر: «فهو خبرٌ عن مغفرة كانت ولا أوّل لها، وهي كائنة أبداً لا انقطاع لها؛ لأنها من صفات الله سبحانه»[٢].

﴿عَفُوًّا﴾: العَفُوُّ: فَعُول من العفْو، وهو بناء المبالغة، وهو الصفح عن الذنوب وترك مجازاة المسيء[٣]، ولهذا علَّم النبي ﷺ أمَّنا عائشة رضي الله عنها أن تتوسل بعفو الله في دعائها فقال لها قولي: «**اللهمَّ إنَّك عفوٌّ كريم تُحبُّ العفو فاعفُ عنِّي**»[٤].

﴿غَفُورًا﴾: فَعُول من الغَفْرِ وهو الستر والتغطية، ومنه المِغْفَر قال الزجاج: «ومعنى الْغَفْر في الله سبحانه هو الذي يستر ذنوب عباده ويغطيهم بستره»[٥] قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُدْنِي**

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩٠).

(٢) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (١٣).

(٣) «شأن الدعاء» (٩٠).

(٤) الترمذي (٥/ ٥٣٤)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥١٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٥)، كتاب «الدعاء»/ باب الدعاء بالعفو والعافية. رقم (٣٨٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧/ ١٤٦) رقم (٧٦٦٥)، وصححه النووي في «الأذكار» (١٩١) رقم (٥٥١)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٤/ ٢٩٨).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٣٨).

المؤمنَ حتَّى يضع عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرَه ويُقَرِّرَهُ بِذُنُوبِهِ، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا، فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سَتَرْتُهَا عليكَ في الدُّنيا، وأنا أَغْفِرْهُا لك اليوم»(١).

وغفوراً: من أبنية المبالغة، فالله غَفورٌ؛ لأَنَّه يفعل ذلك لعباده مرة بعد مرة إلى ما لا يحصى(٢).

وفائدة جمع هذين الاسمين بيان أن الله يتجاوز عن الذنوب ويعفو عن أصحابها ويسترها عن الناس فلا يفضحهم. فبالعفو يزول المرهوب وبالمغفرة يحصل المطلوب.

وثمت عوائق قد تمنع المسلم من الهجرة تحتاج إلى علاج ناجع يرفع المسلم عن ثقلة الأرض ويحركه بسرعة متوجهًا إلى بلاد الإسلام.

وهذه العوائق يجمعها أمران:

١ - خوف المشقة وضيق العيش وكراهية مفارقة الوطن:

وهذا العائق ذكر الله علاجه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[النساء: ١٠٠].

﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل الشرط.

و﴿يَجِدْ﴾: جوابه وفيه تحقيق لدفع ضيق العيش والمشقة والذل ولهذا قال: ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قال ابن كثير: «هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٩٦)، كتاب «المظالم»/ باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. رقم (٢٤٤١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠)، كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. رقم (٢٧٦٨).
(٢) «اشتقاق أسماء الله الحسنى» للزجاجي (٩٤).

حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه»[١]. وهو ما عناه بقوله: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾.

﴿مُرَٰغَمٗا﴾: مأخوذ من الرُّغَام، وهو التراب، أي: أَنَّه يجد في الأرض مهاجرًا ومتحولًا يمتنع فيه ويتقوى ويرغم به أنوف أعدائه ويذلهم ويغيظهم ومنه قوله ﷺ: «**تَرغيمًا للشَّيْطانِ**»[٢] ووصف المراغم بالكثرة لما في ذلك من التحفيز على الهجرة.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣٥٣).

(٢) مسلم (١/ ٤٠٠)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب السهو في الصلاة والسجود له. رقم (٥٧١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾[العنكبوت:٥٦]. **قَالَ البَغَوِيُّ** رحمه الله **: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المسلمين الذين بمكةَ لَمْ يُهَاجِرُوا نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمانِ.**

....

﴿وَٰسِعَةٞ﴾: تشمل سعة الحرية في الدين وسعة الرزق.

٢- خوفه ألا يصل إلى مكان هجرته:

وهذا العائق عالجه بقوله ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء:١٠٠].

قوله ﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ﴾: إشارة إلى أنه خرج من دار الشرك فارًّا بدينه هاربًا به لكن الموت لحقه فأدركه قبل بلوغه دار الهجرة.

وعلاج الله لهذا العائق: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قد: هنا للتحقيق أي أنه استوجب وثبت له ثواب الهجرة إلى ربه بمجرد خروجه من منزله، فهي صفقة رابحة دون شك، ضَمِنَ الله فيها أن ينيله أجر الهجرة كاملًا، والموت يجيء في موعده لا علاقة له بهجرة ولا بإقامة، ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده ولخسر هذه الصفقة الرابحة، فلا أجر ولا مغفرة بل تتوفاه الملائكة ظالمًا لنفسه وشتان بين صفقة وصفقة وبين مصير ومصير.

قوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾: المنادي هو الله سبحانه وأضافهم إليه سبحانه إضافة تشريف وتكريم؛ لأنهم عباده المخلصون له المختصون بعبوديته وحده خلافًا لغيرهم من أهل الشرك والوثنية.

وخاطبهم بوصفهم عباداً لأن العبودية هي أشرف منازل المكلفين ومنه قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[الإسراء:٣] وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾[ص:١٧] وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ

﴿فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣] وغيرها من الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: صفة موضحة للعباد وهم الذين آمنوا بالله وبرسوله وعبدوه لوحده.

﴿إِنَّ﴾: للتوكيد.

﴿أَرْضِي﴾: أضاف الأرض لذاته المقدسة إضافة خلق وملك.

﴿وَاسِعَةٌ﴾: الواو والسين والعين كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر[١].

فتشمل سعة المكان والحرية في الدين بحيث لا يمنعه أحد من إظهار دينه وعبادة ربه وسعة الرزق أيضًا.

﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾: أي لا تعبدوا إلا أنا. وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، والمعنى إن ضاق بكم مكان فلن يضيق بكم آخر، فإن أرضي واسعة فهاجروا وأفردوني بالعبادة، فلا تعبدوا إلا أنا.

قال الزجاج: «أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تتهيأ لهم العبادة»[٢]، ثم قال تعالى بعدها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:٥٧] وذلك ليهوّن عليهم أمر الهجرة فلا يصعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الأهل والخلان، فإنهم إن لم يفارقوهم لإرضاء الله بالهجرة إلى بلاد الإسلام فارقوهم بدون اختيارهم إلى حيث حساب الله وجزاؤه وشتان بين الفراقين، ولهذا قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[العنكبوت:٥٨] أي لننزلنهم غرف الجنة وهي علاليها.

وقوله: قال البغوي إلى آخره: مقصوده من ذلك بيان أن تارك الهجرة ليس بكافر ولكنّه عاصٍ لله مرتكبٌ كبيرةً من كبائر الذنوب.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٩/ ١٠٩).

(٢) «زاد المسير» (٦/ ١٤٤).

والدليلُ على الهجرَةِ من السُّنَّةِ قوله ﷺ: «لا تنقطعُ الهجرةُ حتَّى تَنْقطعَ التّوْبَةُ، ولا تَنْقَطِعُ التّوبَةُ حتَّى تطلع الشَّمْسُ من مَغْرِبها»(١).

....

وبعد أن ذكر دليل الهجرة من القرآن أعقبه بالدليل من السنة؛ ليبين الوقت الذي تصح فيه الهجرة وتكون مقبولة عند الله تعالى، ويشهد له: حديث عبد الله بن السعدي: أن النبي ﷺ قال: «**لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل**»، فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الهجرةَ خصلتان إحداهُما: أنْ تهجرَ السَّيِّئات، والأخرى: أنْ تُهاجرَ إلى الله ورسُولِه، ولا تَنْقَطعُ الهِجرةُ ما تقبّلت التّوبة، ولا تزالُ التّوبةُ مَقْبُولةً حتّى تَطْلَعَ الشَّمْسُ مِنَ المغربِ، فَإِذَا طلعتْ طُبِعَ على كلِّ قَلْبٍ بما فيه، وكفَى الناس العمل**»(٢). وفي رواية: «**لاَ تَنْقَطِع الهِجْرَة حَتَّى تَنْقَطِع التّوْبَة ثلاثًا، ولا تنقطع التوبةُ حتى تطلع الشمس من مغربها**»(٣).

قوله: (**لا تنقطِعُ الهِجْرَةُ**): لا نافية تنفي انقطاع الهجرة.

انقطع الشيء: ذهب وقته، ومنه قولهم: انقطع البرد والحر(٤)، والمقصود لا ينتهي وقت الهجرة بل هي باقية على مشروعيتها.

حَتَّى: لبيان الغاية.

تَنْقَطِع التَّوْبَة: قال «صاحب اللسان»: «المُنْقَطِعُ هو الشيء نفسه. ومُنْقَطَعُ كل شيء:

---

(١) أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود (٣/ ٧-٨)، كتاب «الجهاد»/ باب ما جاء في الهجرة، هل انقطعت. رقم (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨/ ٦٧) رقم (٨٦٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «سنن الدارمي» (٢/ ١٠٦) رقم (٢٥١٣).

(٤) «لسان العرب» (٨/ ٢٧٩).

آخره حيث ينتهي إليه طرفه، فينقطع كمقاطع الرمال والأودية»[١].

ومعنى انقطاع التوبة: أي عدم قبولها، لا عدم وقوعها، ويدل لذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ السّاعةُ حتَّى تَطلعَ الشَّمسُ مِن مغربِها، فإذا رآها النّاسُ آمنَ مَنْ عليها فذاك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها، لم تكن آمنتْ من قبلُ**»، وفي رواية: «**فإذا طلعتْ ورآها النّاسُ آمنُوا أجمعونَ، وذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكُنْ آمنتْ من قبلُ**»، ثم قرأ الآية: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾[الأنعام:١٥٨]»[٢]. فمن هذه الأدلة ظهر حكم بقاء مشروعية الهجرة إلى حين طلوع الشمس من مغربها.

---

(١) المرجع السابق (٨/ ٢٧٨).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٩٦-٢٩٧)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾. رقم (٤٦٣٥)، وباب: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾. رقم (٤٦٣٦).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ. مثل الزَّكَاةِ وَالصَّوم وَالحَجّ.

....

فلما: الفاء للترتيب.

استقر بالمدينة: استقر مأخوذ من القرار: وهو اللبث والإقامة في مكان بنية البقاء المستمر فيه وعدم الانتقال منه كلية إلى غيره.

والنبي ﷺ هاجر إلى المدينة وبقي فيها إلى أن مات.

أمر: الأمرُ واحد الأوامر، وهو طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

ببقية: أي ما بقي من الشرائع التي لم يؤمر بها بعد.

شرائع الإسلام: هي الأحكام؛ وذلك أَنَّ عامة الأحكامُ شُرعت في المدينة، وسميت شرائع لشروع أهلها فيها.

قال ابن كثير: «في الفرقان شريعةٌ يُحِلُّ الله فيها ما يشاء ويُحَرِّمُ ما يشاء؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل»(١).

وربط المؤلف بين التوحيد والشرائع ليبيّن وجوب الإيمان بكل الدين عقيدة وأحكامًا وأنه لا يصح الإيمان إلا بهما معًا، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة:٨٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤٣١).

ذكر المؤلف نوعين من الشرائع:

أحدهما: ما يختص نفعه بالفاعل كالزكاة والصوم والحج.

والزكاة في اللغة: النماء والزيادة.

وفي الاصطلاح: إخراج نصيب مقدر شرعًا من المال ودفعه للأصناف الثمانية.

وسُمِّيت الزكاةُ زكاةً لأن بها تزكية لنفس المتصدق قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣].

وتزكية للمال وحفظ له، بل ونماء له، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقةٌ مِنْ مَالٍ**»[(١)].

قال البغوي: «قوله: «ما نقصت صدقة من مال»: اراد أن الله تعالى يبارك فيه، فيزداد ماله، وسميت الزكاة زكاة للبركة التي تظهر في المال، يقال: زكا الشيء يزكو: إذا كَثُرَ»[(٢)].

يوضحه قول النبي ﷺ: «**تصدقوا؛ فإنه ما نقصت صدقة من مال، ولكن تزيد فيه**»[(٣)].

والصوم لغة: الإمساك

واصطلاحًا: الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

وفيه تزكية عظيمة للصائم بيّنها ربنا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٠١)، كتاب «البر والصلة»/ باب استحباب العفو والتواضع. رقم (٢٥٨٨).

(٢) «شرح السنة» (٦/ ١٣٣).

(٣) «مسند البزار» (١٧/ ١١٩).

والحج لغة: القصد.

واصطلاحًا: هو قصد مكة لأداء المناسك في أشهر الحج. وفي الحج تزكية عظيمة للمسلم فيعود من حجه كيوم ولدته أمه قال النبي ﷺ: «**من حجَّ فلم يرفُثْ ولم يفْسُقْ: رجع من ذُنوبهِ كيومَ ولدتْهُ أمُّهُ**»(١).

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢)، كتاب «الحج»/ باب فضل الحج المبرور. رقم (١٥٢١)، ومسلم (٢/ ٩٨٣)، كتاب «الحج»/ باب فضل الحج والعمرة. رقم (١٣٥٠).

والأَذَان، والجهاد، والأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهي عنِ المُنْكَرِ.

وَغَير ذَلِكَ مِن شَرَائِعِ الإسلامِ، أخَذَ عَلَى هَذَا عَشرَ سِنِين.

....

النوع الثاني: ما يتعدى نفعه إلى الآخرين، ومثّل له بالأذان والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأذان لغة: الإعلام ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[التوبة:٣].

واصطلاحًا: هو النداء للصلاة بألفاظ أولها التكبير وآخرها التوحيد.

وتعدي نفعه ظاهر، ومن ذلك:

١- أَنَّه يطرد الشيطان كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أذَّنَ المُؤَذِّنُ أدبرَ الشَّيطانُ ولهُ حُصَاص**»، وفي رواية: «**وله ضُراطٌ**»[(١)].

والحُصاص: شدة العدو[(٢)] وقيل هو الضُّراط ولا منافاة بينهما فإنه من شدة عَدْوِه يخرج منه الضراط ويبعد كثيرًا حتى يصل إلى الروحاء[(٣)] لئلا يسمع صوت المؤذن.

٢- أَنَّه دعوة للمسلمين إلى الصلاة، ولولا الأذان لم يدرك كثير من الناس الصلاة؛ وذلك لانشغالهم في أعمالهم أو مع أهليهم أو لاستغراقهم في نومهم.

٣- أن الأذان يحمي المسلمين من الغارة عليهم، فقد كان النبي ﷺ يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانًا أمسك، وإلا أغار[(٤)].

---

(١) مسلم (١/ ٢٩١)، كتاب «الصلاة»/ باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه. رقم (٣٨٩).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٤/ ٩٢).

(٣) قال سليمان: فسألته عن الروحاء، فقال: هي من المدينة ستة وثلاثون ميلًا. مسلم (١/ ٢٩٠).

(٤) مسلم (١/ ٢٨٨)، كتاب «الصلاة»/ باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان. رقم (٣٨٢).

وقد رغب النبي ﷺ في الأذان في أحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ: «**لو يعلم النّاسُ ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأوّلِ، ثُمْ لم يجدُوا إلَّا أن يستهمُوا عليه لاستهموا**»[١].

وقوله ﷺ: «**لا يسمعُ مدى صوت المؤذنِ جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلَّا شهد له يوم القيامة**»[٢].

وقوله ﷺ: «**المؤذنُونَ أطول النَّاس أعناقًا يوم القيامةِ**»[٣].

ولأجل هذه الفضائل وغيرها اشرأبت أعناق الفضلاء إليه حتى تمنى الخليفة الثاني أن يكون مؤذنًا فقال: «لو كُنْتُ أَطِيقُ الأَذَان مَعَ الخِلافَةِ لأَذَّنْتُ»[٤]. وحتى اختار بعضهم أن الأذان أفضل من الإمامة[٥].

ومن تأمل ألفاظ الأذان رأى فيها العجب وذلك أنها بدأت بتعظيم الله تعالى في القلوب وأنه أكبر من كل شيء مع تكراره أربع مرات لكي يثبت ويستقر في قلب المؤذن والمستمع إفراد الله وحده بالتعظيم والذل والخضوع، ولذلك عقبها بشهادة أن لا إله إلا الله التي هي تجريد التوحيد له سبحانه وحده والتي من أجلها خلقنا، ثم ثلث بالإيمان برسول الله ﷺ الذي بلّغ دينه حتى تُربَّى النفوسُ على قصر الاتباع على النبي ﷺ وحده والسير على منهاجه دون غيره من المتبوعين؛ وذلك لأنه لا يُوصل إلى رضوان الله وجنته

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٩٦)، كتاب «الأذان»/ باب الاستهام في الأذان. رقم (٦١٥)، ومسلم (١/ ٣٢٥)، كتاب «الصلاة»/ باب تسوية الصفوف وإقامتها. رقم (٤٣٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٨٧-٨٨)، كتاب «الأذان»/ باب رفع الصوت بالنداء. رقم (٦٠٩).

(٣) مسلم (١/ ٢٩٠)، كتاب «الصلاة»/ باب فضل الاذان». رقم (٣٨٧).

(٤) «المصنف» لعبدالرزاق (١/ ٤٨٦) رقم (١٨٦٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١/ ٢٢٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢/ ٢١٢) واللفظ له، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ٧٧).

(٥) انظر: «الاختيارات الفقهية» (٣٦).

إلا طريقُه ﷺ، ثم ربّع بدعوة السامعين والمستمعين إلى أفضل الأعمال والذي به يكون العبد من المفلحين في الدنيا والآخرة وهي الصلاة فنادى إليها مرغبًا فيها بضمان الفلاح لأهلها فكأنه قال: من أراد الفلاح فليحافظ على هذه الصلوات في المساجد جماعة مع المسلمين. وفي هذا إشعار بالبعث والجزاء والجنة والنار.

ثم أعاد تعظيم الله وتكبيره مرة أخرى مؤكدًا عليه ثم ختمه بكلمة التوحيد التي لا يصلح عمل إلا بها.

أما الجهاد لغة: فهو مأخوذ من الجهد وهو المشقة أو بذل الوسع والطاقة(١).

أما في الاصطلاح: بذل الجهد في قتال الكفار(٢).

وأما نفع الجهاد فعظيم. كيف لا يكون عظيمًا وبه قوام الملة وصلاح الأمة ومن منافعه:

١- نشر التوحيد:

وذلك أن التوحيد هو سر خلق الناس كلهم وهو السبيل الوحيد لرضا ربهم جلّ وعلا.

ومن المعلوم أن الدول الكافرة لابد أن تقف سدًا منيعًا ضد وصول التوحيد إلى عموم الناس فكان لابد من الجهاد في سبيل الله حتى يقضى على الدول الكافرة، ومن ثَمَّ يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

٢- رفع الذل عن المسلمين:

من حكمة الله تعالى أَنْ رَبَطَ عز المسلمين بالإسلام وذُلّهم بالتهاون بالتمسك به، فإذا

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٣٧)، و«المفردات» (٩٩).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (٩/ ٤٢٩٩)، و«فتح الباري» (٦/ ٣)، و«مطالب أولي النهى» (٢/ ٤٩٧) وغيرها.

أضاعوا أمر الله ونكلوا عن الجهاد سلط الله عليهم أعداءهم؛ فإذا راجعوا دينهم ومنه الجهاد في سبيل الله كان لهم العز والرفعة، ومن الأمثلة على ذلك حال المسلمين عند الحروب الصليبية حيث غزتهم دول الكفر فلما رجعوا إلى دينهم ورفعوا راية الجهاد أعزهم الله وأذل أهل الكفر وأخرجوا من بلاد الإسلام صاغرين. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[التوبة:١٤].

٣- إعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وليكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣].

وحدد هذا المقصد رسول الله ﷺ فقال: «**أُمرتُ أن أُقاتلَ النَّاسَ حتَّى يشهدُوا أن لا إلهَ إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، ويقيموا الصّلاةَ، ويُؤْتُوا الزَّكاةَ، فإذا فعلُوا ذلك عَصَمُوا منِّي دماءَهم وأموالهم إلَّا بحقِّ الإسلامِ وحسابُهم على الله تعالى**»(١).

ولما للجهاد من أثر بالغ في رفعة الدين وعلوه وخذلان الباطل ودحره أمرنا الله به فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾[الحج:٧٨].

بل واشترى منّا أنفسنا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١١١].

وأوضح أنه من أسس التجارة الرابحة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف:١٠-١١].

---

(١) سبق تخريجه.

وجعله ﷺ ذروة سنام الإسلام فقال: «**رأسُ الأمرِ الإسلام، وعمودُه الصَّلاة، وذرْوَةُ سَنامِه الجهاد في سبيل الله**»(١).

ولما سئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال جعل الجهاد أفضلها بعد الإيمان بالله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل قال: «**إيمانٌ بالله ورسولِه**» قيل: ثُمَّ ماذا قال: «**الجهادُ في سبيل الله**» قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: «**حَجٌّ مبرورٌ**»(٢).

وأوضح ﷺ علو مرتبة المجاهد عندما سئل أي الناس أفضل فقال: «**مؤمنٌ يجاهدُ في سبيل الله بنفسِهِ ومالِه**»(٣).

وعلق قلوب المجاهدين بثمرته حين قال في غزوة بدرٍ: «**قُومُوا إلى جنَّةٍ عرضُها السَّمواتُ والأَرضُ**»، فاهتزت قلوبهم اشتياقًا إلى الجنةِ فتحركت للجهاد جوارحهم فقال عمير بن الحمام: يا رسول الله! جنّةٌ عرضُها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**ما يحملُك على قولك بَخٍ بَخٍ**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكونَ من أهلها قال: «**فَإِنَّكَ مِنْ أهلها**» فأَخرج تمراتٍ من قرنِه فجعلَ يأكلُ منهنَّ ومنْ شدّة شوقه إلى الجنّة قال: لئنْ حَييتُ حتَّى آكُل تمراتي هذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، فرمى بما كان معه من التمر، ثمَّ قاتلهُمْ حتّى قتل رضي الله عنه وأرضاه(٤).

وكان أصحابه رضي الله عنهم يحركون مشاعر الناس وقلوبهم كما كان النبي ﷺ يفعل ومن ذلك ما فعله أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في أحد المعارك حيث قال: وقد حضر العدو

---

(١) أحمد (٥/ ٢٣١).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٧٧)، كتاب «الإيمان»/ باب من قال: الإيمان هو العمل. رقم (٢٦)، ومسلم (١/ ٨٨)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال. رقم (٨٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٦)، كتاب «الجهاد»/ باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله. رقم (٢٧٨٦)، ومسلم (٣/ ١٥٠٣)، كتاب «الإمارة»/ باب فضل الجهاد والرباط. رقم (١٨٨٨).

(٤) سبق تخريجه.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أبوابَ الجنَّة تحت ظلالِ السُّيُوفِ**»، فتحرك قلب أحد المجاهدينَ للجنةِ واشتَاقَت نفسه لها، فقامَ فقال: يا أبا مُوسى أأنتَ سمعتَ رسول الله ﷺ يقولُ هذا؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفهِ إلى العدو فضربَ بهِ حتّى قُتلَ»[(١)].

«والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنّة أكثر من أن يحصَر، ولهذا كان أفضلَ ما تطوّع به الإنسان. وكان باتفاق العلماء أفضلَ من الحجِّ والعمرة، ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع، كما دلَّ عليه الكتاب والسنة... وهذا بابٌ واسع، لَم يرِد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار؛ فإنَّ نفعَ الجهاد عامٌّ لفاعله ولغيره في الدّين والدنيا، ومشتملٌ على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنَّه مشتملٌ من محبّة الله تعالى والإخلاص له والتوكُّل عليه وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عملٌ آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائمًا: إمَّا النصر والظفر، وإمَّا الشهادة والجنة»[(٢)].

وقال الشيخ ابن باز: «فإنَّ الجهادَ في سبيل الله من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضلُ ما تقرَّب به المتقرِّبون، وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض، وما ذاك إلاَّ لِمَا يترتَّب عليه من نصر المؤمنين، وإعلاء كلمة الدِّين، وقمع الكافرين والمنافقين، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالَمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين»[(٣)].

---

(١) مسلم (٣/ ١٥١١)، كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت الجنة للشهيد. رقم (١٩٠٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٣) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١٨/ ٦١-٦٢).

ثم انتقل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأمر: هو طلب الفعل على سبيل الإلزام أو الاستحباب.

«**المعروف**: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح»[(١)].

والنهي: هو طلب الكف عن الفعل.

«**المنكر**: المنكر اسم جامع لكل ما نهى الله عنه»[(٢)].

و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنان وثيقان من أركان الدين يجب على المرء أن لا يهملهما»[(٣)]. بل الأمر بالمعروف «أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقدهم وسلامة سريرتهم»[(٤)].

أمر الله به فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٠٤].

وأثنى على نبيه به فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[الأعراف:١٥٧].

ولما وصف المؤمنين جعله أول أوصافهم فقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾[التوبة:٧١].

بل جعله الله مناط خيرية هذه الأمة فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠].

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٠٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٠٧).

(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٣/ ٢٤٥).

قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: «ياأيها الناس من سرَّهُ أن يكونَ من تلك الأُمَّة فليؤَدِّ شرطَ الله منها»(١).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عند هذه الآية: «خيرُ النّاسِ للنّاسِ تأتونَ بِهِمْ في السلاسلِ في أعْنَاقِهِم حتّى يدخلُوا الإسلام»(٢).

وذلك لـ«أن صلاح المعاش والعباد في طاعة الله ورسوله ﷺ ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس»(٣).

وترجم ذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام عمليًا في حياتهم فأنكروا المنكر بأيديهم، فأبونا إبراهيم عليه السلام يقوم بتكسير آلهة قومه ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[الأنبياء:٥٨].

ولما عبدت بنو إسرائيل العجل غضب موسى لله فأحرقه ونسفه في اليم: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[طه:٩٧].

ولما دخل نبينا محمد ﷺ مكة فاتحًا منصورًا لم يقر له قرار ولم يهدأ له بال حتى كسر الأصنام التي وضعت حول البيت وكان عددها ثلاثمائة وستون، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١]، و﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾»[سبأ:٤٩](٤).

وكان قلبه ﷺ يتألم أشدّ التألم من وجود منكر الشرك حتى صرح بذلك لأصحابه

---

(١) «جامع البيان» (٤/ ٤٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٢٤)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. رقم (٤٥٥٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٠٠)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ومسلم (٣/ ١٤٠٨)، كتاب «الجهاد والسير»/ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة. رقم (١٧٨١).

حاثًا إياهم على إزالة المنكر والغيرة لدين الله، ومن ذلك قوله لجرير بن عبدالله: «**ألا تريحني من ذي الخلصةِ**»، ثم أرسله ومعه مائة وخمسون فارسًا كلهم من أحمس، فسار إليها جرير وحرقها بالنار وكسرها، ثم أرسل مبشرًا من أصحابه إلى النبي ﷺ يبشره فلما أتى النبي ﷺ قال: «يا رسول الله! والذي بَعَثَك بالحقِّ ما جِئتُ حتّى تركتُها كَأنّها جَملٌ أجْرب». ففرح ﷺ بإزالة الصنم، فدعا لأحمس، وبرّك عليها خمس مرات[(١)].

وتتابعت الأمة عبر العصور تنكر المنكرات وتزيلها باليد عند القدرة ومن ذلك:

١- بعث علي رضي الله عنه أبا الهياج الأسدي فقال: «ألا أبعَثُكَ على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ: «**أن لا تدعْ صورةً إلَّا طمستها، ولا قبرًا مُشرفًا إلَّا سوّيتَهُ**»[(٢)].

٢- قال الحسن: «ليس الدفوف من أمر المسلمين في شيء وأصحاب عبدالله ابن مسعود كانوا يشققونها»[(٣)].

٣- قال إبراهيم النخعي: «كنا نتتبع الأزقة نخرق الدفوف من أيدي الصبيان»[(٤)]

٤- قال ابن معين: «رأيت وكيعًا رأى امرأة عند عطار والعطار يكلمها فقال لإنسان: اذهب إلى ذلك العطار ففرق بينهما»[(٥)].

٥- قال عمر بن صالح: «رأيت أحمد بن حنبل مرّ به عود مكشوف فقام وكسره»[(٦)].

٦- قال الوليد بن شجاع: «كنت أخرج مع سفيان الثوري فما يكاد لسانه يفتر عن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٢/ ٦٦٦-٦٦٧)، كتاب «الجنائز»/ باب الأمر بتسوية القبور. رقم (٩٦٩).

(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (٩٠)

(٤) المرجع السابق (٩١).

(٥) المرجع السابق (٦٦).

(٦) المرجع السابق (٨٥).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا»[١].

وأجمع أهل السنة والجماعة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأيديهم وألسنتهم إن استطاعوا فإن عجزوا فبقلوبهم[٢].

ومما استدلوا به قوله ﷺ: **«من رأى منكم مُنكرًا فلْيُغَيّره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضعفُ الإيمان»**[٣].

«وإنكار القلب هو الإيمان بأن هذا منكر وكراهته لذلك[٤]، والإنكار به واجب في كل حال؛ إذ لا ضرر في فعله ومن لم يفعله فليس بمؤمن قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ميت الأحياء الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه كالكوز مجخيًا»[٥].

وعندما قسم الناسَ حذيفةُ قال: «ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه فذلك ميت الأحياء»[٦].

وأما منافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكثيرة أجملها في ما يلي:

١- حماية المجتمع من العذاب العام:

المعاصي الظاهرة في المجتمع سبب للعقوبات التي إذا وقعت عمّت الصالح

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ١٣) للاستزادة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال، «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية المطبوع ضمن الاستقامة (٢/ ١٩٨-٣١١) و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لخالد السبت.

(٢) «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٩٥) و«اعتقاد أهل السنة» للإسماعيلي (٥٤) «شرح السنة» للبربهاري (٥٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٧٢).

(٥) «الاستقامة» (٢/ ٢١٢).

(٦) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٤-٢٧٥).

والطالح، ولذلك حذرنا الله منها بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾[الأنفال:٢٥] ومن أحسن ما يفسر هذه الآية إجابة النبي ﷺ أم المؤمنين زينب حينما سألته: أَنَهْلَكَ وفِينَا الصّالِحُون؟ قال: «**نعم إذا كثُر الخبَثُ**»(١).

وقوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[هود:١١٦-١١٧].

فقال سبحانه: مصلحون ولم يقل صالحون، والمصلحون هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الذي يصلحون ما أفسد الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»(٢).

وهذا فهم السلف قاطبة، قال عمر بن عبدالعزيز كان يقال: «إنّ اللهَ تبارك وتعالى لا يُعذِّبُ العامّة بذنبِ الخاصّة، ولكن إذا عُمل المنكرُ جهارًا استحقُّوا العقوبةَ كلّهم»(٣)، بل كانوا يخافون مغبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال سفيان الثوري: «إني لأرى الشيء يجب عليَّ أن آمر فيه وأنهى فلا أفعل فأبول دمًا»(٤).

٢- إقلاع العصاة عن معاصيهم وتوبتهم إلى الله:

ويشهد له إجابة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر للمخذلين الذين قالوا لهم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع البيان» (٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٦٨٢).

(٣) «الموطأ» (٢/ ٩٩١)، و«الزهد» لابن المبارك (٤٧٦) رقم (١٣٥١)، و«الزهد» لأحمد (٣٥٨)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٨).

(٤) «الجرح والتعديل» (١/ ١٢٤)، و«حلية الأولياء» (٧/ ١٤-١٥).

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأجابوهم بأنهم يطمعون في هدايتهم ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الأعراف:١٦٤].

وكثير من العصاة تابوا بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- شد ظهر المؤمن وإرغام أنف المنافق:

وذلك أَنّ المؤمنَ يَقْوى عندما يرى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عن يمينه وشماله وأمامه فينشط على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الوقت نفسه يضعف المنافق ويذل. قال سفيان الثوري ﷺ: «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»(١).

٤- حماية المجتمعات من الفساد:

وذلك أنه إذا تعطل الأمر والنهي تجرأ أهل الفساد فنشروا سمومهم ومعاصيهم فكثر الخبث، أما إذا كان الأمر والنهي قائمًا انقمع أهل المنكرات فلم يستطع أصحاب الأهواء نشرها فتبقى مجتمعات المسلمين نظيفة سالمة منها.

أراد بقوله: (**وغير ذلك من شرائع الإسلام**) أنه لم يقصد استيفاءها وإنما قصد ذكر نماذج فقط يستدل بها على غيرها.

أما قوله (**أخذ على هذا عشر سنين**): أي أنه ﷺ عاش في المدينة عشر سنين يُعَلِّمُ الناس دِينَهم، ويجاهد بِمَنْ آمن منهم مَنْ كفر حتى أظهر الله الدين.

---

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (٦٧).

وبعدها تُوفِّيَ صلاة الله وسلامُه عليه.

....

قوله: (**وبعدهَا توفي**): أي بعد عشرِ سنينَ من مقدمِه ﷺ إلى المدينة توفَّاهُ اللهُ عزوجل.

الوفاة: هي خروج الروح من الجسد.

وكانت وفاة النبيّ ﷺ يوم الاثنين(١) في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة بالإجماع(٢)، وأما اليوم فالأشهر أنه في اليوم الثاني عشر(٣).

وقد نال الشهادة كما نال الرسالة. قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يقول في مَرَضِه الذي مَاتَ فِيهِ: «**يا عائشة! ما أزالُ أجدُ ألم الطّعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوانُ وجدت انقطاعَ أبهري من ذلك السُّمِّ**»(٤).

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لأنْ أحلفَ تسعًا أن رسولَ الله ﷺ قتل قتلًا أحبُّ إليّ من أن أحلفَ واحدة أنه لم يقتل وذلك بأن الله جعله نبيًّا واتّخذه شهيدًا»(٥).

وقال الزهري: «تُوفي رسول الله ﷺ شَهيدًا»(٦)، وبمثله قال موسى بن عقبة(٧).

---

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ١٦٤)، كتاب «الأذان»/ باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة. رقم (٦٨٠)، و(٣/ ٢٥٢)، كتاب «الجنائز»/ باب موت يوم الاثنين. رقم (١٣٨٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٦٢٤).

(٣) «لطائف المعارف» (٢١٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ١٣١)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٢٨).

(٥) أحمد (١/ ٤٠٨، ٤٣٤، ٣٨١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ١٠٩) رقم (١٠١١٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٩/ ١٣٢) رقم (٥٢٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٠) رقم (٤٣٩٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، و«دلائل النبوة» (٧/ ١٧٢).

(٦) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣٧).

(٧) «زاد المعاد» (٤/ ١٢٢).

فأكرمه الله بالنبوة والرسالة بل جعله أفضل الرسل كلهم، ثم ختم له حياته الكريمة بالشهادة فكمل له مراتب الفضل كلها(١).

ولما كانت وفاة النبي ﷺ شديدة شاقة على نفوس المؤمنين قُدّم لها بمقدمات لعلها تخفف ألم المصيبة وتهون أثر الصدمة ومن هذه المقدمات:

١- **إخبار القرآن بموته**، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر:٣٠]، ومعنى (ميّت) بالتشديد؛ أي: ستموت.

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[آل عمران:١٤٤].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾[الأنبياء:٣٤].

وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[النصر:١-٣].

يوضحه: أن عمر بن الخطاب كان يدخل ابن عباس مع أشياخ بدر فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناءً مثله، فقال عمر: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم(٢).

٢- **تكرار النبي ﷺ في حجة الوداع قوله: «لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**.

فعن جابر رضي الله عنه قال: «رأيتُ النبيّ ﷺ يرمي على رَاحلتِهِ يومَ النّحرِ ويقول:

(١) انظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٢٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٢٨)، كتاب «المناقب»/ باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٧).

«**لتأخُذُوا مناسككُمْ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحجُّ بعد حجّتي هذه**»(١).

وفي رواية: «**أيها الناس خذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد عامي هذا**»(٢).

وفي رواية: «**خذوا عنِّي مناسككُمْ لعلِّي لا أراكم بعد عامي هذا**»(٣).

وفي رواية: «أفاضَ رسول الله ﷺ مِن عرفةٍ وعليه السّكينةُ وأمَرَنا بالسّكينة ثم قال: «**خذوا مناسككُمْ لعلِّي لا ألقاكمْ بعد عامي هذا**»(٤)، وهذا القول إن لم يكن تصريحًا بدنو أجله، فهو تلميح به.

٣- إخباره ﷺ أصحابه تخيير الله له بين الدنيا وبين لقاء الله وأنه اختار لقاء الله. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «جلس على المِنبرِ فقال: «**إنَّ عبدًا خيَّرَهُ اللهُ بين أن يُؤْتيهِ من زهرةِ الدُّنيا ما شاء، وبينَ ما عندَهُ، فاختارَ ما عنده**»، فبكى أبو بكر وقال: «فديْنَاك بآبائنا وأُمهاتنا»، فعجبنا له، وقال الناسُ: انظُروا إلى هذا الشّيخ يُخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيّره الله بين أن يؤتيه من زَهرةِ الدُّنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأُمّهاتنا، فكان رسولُ الله ﷺ هو المُخيرُ، وكانَ أبو بكرَ هو أعلَمُنا به. وقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ من أَمنِّ النّاس عليَّ في صحْبَتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ، ولو كنتُ مُتّخِذًا خليلًا من أُمّتي لاتّخذتُ أبا بكرٍ، إلّا خُلّة الإسلامِ. لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ خوخةٌ إلّا خُوخَة أبي بكر**»(٥).

---

(١) مسلم (٢/ ٩٤٣)، كتاب «الحج»/ باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» رقم (١٢٩٧).

(٢) النسائي (٥/ ٢٧٠)، كتاب «مناسك الحج»/ باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ١٢٥).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٢/ ٤٢٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٢٧)، كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ واصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٤)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤-١٨٥٥)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. رقم (٢٣٨٢).

٤ – إخباره ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها بقرب أجله:

وذلك أنه قال لها: «**إنَّ جبريلَ كان يعارضنِي القُرْآن كلَّ سنةٍ مرّةً، وإنَّهُ عارضني العامَ مرّتين، ولا أراهُ إلا حضرَ أجلي، وإنَّك أوّل أَهْلِ بيتي لحاقًا بي...**»، وفي رواية: «**وإنَّهُ قد عارضني به العام مرّتين، ولا أرى الأجلَ إلَّا قد اقترَبَ فاتّقِي الله واصبري؛ فإنِّي نعم السّلفُ أنا لك**»[1].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٢٨)، كتاب «المناقب»/ باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٢٤)، و(١١/ ٧٩-٨٠)، كتاب «الاستئذان»/ باب من ناجى بين يدي الناس، ولم يخبر بسر صاحبه، فإذا مات أخبر به. رقم (٦٢٨٥، ٦١٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٠٤)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب فضل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام. رقم (٢٤٥٠).

ودينَهُ باقٍ. وهَذَا دِينُهُ. لا خير إلَّا دلَّ الأمةَ عليه. وَلا شرّ إلَّا حَذَّرَها منهُ.

....

دينه: الضمير يعود إلى النبي ﷺ، وأضافه إلى النبي ﷺ؛ لأنه هو الذي بلغه إلينا: «إنْ على الرّسولِ إلا البلاغ» كما أنه يضاف إلى الله لأنه هو الذي شرعه فيقال هذا دين الله ويضاف إلى الناس ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾؛ لأنهم هم الذين اعتقدوه وعملوا به.

وقوله **باق:** بقي الشيء يبقى بقاءً وهو ضد الفناء[١] ومنه الباقيات الصالحات. وقال ابن فارس: «الباء والقاف والياء أصل واحدٍ وهو الدوام» ثم نقل كلام الخليل فقال: «بقي الشيء يبقى بقاءً وهو ضد الفناء»[٢].

وقال الراغب: «البقاء ثبات الشيء على حاله الأولى وهو ضد الفناء»[٣].

فدين الإسلام باق إلى أن تقوم الساعة ثابت على حاله الأولى كما نزل على نبينا محمد ﷺ.

ويتضح بقاؤه بالشرع والواقع:

أما الشرع ففيما يلي:

١ - حفظ الله لمصدره:

مصدر دين الإسلام وأساسه هو القرآن الكريم والسنة المطهرة التي هي وحي من الله تعالى كالقرآن قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾[النساء:١١٣].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٩/ ٣٤٨).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٢٧٦) مادة (بقي).

(٣) «المفردات» (٦٧).

قال قتادة وحسان بن عطية: «الحكمةُ هي السُّنّة»[١]. وقال الشافعي: «ذكر الله جل ثناؤه الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة فسمعتُ مَنْ أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول الحكمة: سنة رسول الله ﷺ»[٢].

وقال تعالى عنهما معًا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم:٣-٤].

فكل ما بلّغه النبي ﷺ من دين الله فهو وحي يجب قبوله ولما كان حفظ الدين لا يتأتى إلا بحفظ مصدره تكفل الله سبحانه بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر:٩].

وذلك بحفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤١-٤٢].

قال الشاطبي: «والحفظ دائم إلى أن تقوم الساعة»[٣].

٢- بقاء أهله ينافحون عنه إلى يوم القيامة:

تظافرت الأدلة بل تواترت على بقاء الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله إلى قيام الساعة، وفي هذا بيان واضح على بقاء الدين. إذ لو لم يكونوا يعرفون دين الله فكيف يطبقونه واقعًا عمليًا في حياتهم فضلًا عن أن ينافحوا عنه ومن أدلة ذلك:

قوله ﷺ: «**لا يزالُ من أُمّتي أُمّةٌ قائمةٌ بأمر الله لا يضُرُّهُمْ من خذلهم ولا من خالفهم حتَّى يأتيهُمْ أمرُ الله وهم على ذلك**»[٤]. وفي رواية: «**حتى يأتي أمر الله وهمْ ظاهرون على الناس**».

---

(١) «الإبانة الكبرى» (١/ ٣٤٥-٣٤٦) تحقيق رضا نعسان.

(٢) «السنة» للمروزي (٢٦٥).

(٣) «الموافقات» (٢/ ٤١)، وانظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٨)، و«مختصر الصواعق» (٤/ ١٤٩٣-١٤٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٦٣٨)، كتاب «المناقب». رقم (٣٦٤١).

وفي رواية: «**لا تزالُ عصابةٌ من المسلمين يُقاتلون على الحقِّ ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»[(١)].

وقوله ﷺ: «**لن يبرحَ هذا الدّين قائمًا يُقاتلُ عليهِ عصابةٌ من المسلمين حتَّى تقومَ السّاعةُ**»[(٢)]، وفي رواية: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يُقاتلونَ على الحقِّ ظاهرينَ إلى يوم القيامةِ**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**لا يَزال أهلُ الْغَرْبِ ظاهرينَ على الحقِّ حتَّى تقومَ السّاعةُ**»[(٤)].

والْغَرْبُ: هو الدلو الكبير وأهل الغرب هم العرب لاختصاصهم به غالبًا قاله علي بن المديني[(٥)].

٣- عموم رسالته إلى الثقلين:

دلت الأدلة على أن رسالة نبينا محمد ﷺ عامة إلى الإنس والجن قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨].

وقال النبي ﷺ: «**فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ**»، وذكر منها: «**وكانَ النَّبِيُّ يُبْعثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى النّاس عامَّةً**»[(٦)].

---

(١) مسلم (٣/ ١٥٢٤)، كتاب «الإمارة» باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم». رقم (١٠٣٧).

(٢) مسلم (٣/ ١٥٢٤)، كتاب «الإمارة»/ باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم». رقم (١٩٢٢).

(٣) مسلم (١/ ١٣٧)، كتاب «الإيمان»/ باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة محمد ﷺ. رقم (١٥٦).

(٤) مسلم (٣/ ١٥٢٥)، كتاب «الإمارة»/ باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم. رقم (١٩٢٥).

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ٦٨).

(٦) سبق تخريجه.

وهذه العمومية تدل على بطلان التعبد لله بغير دينه ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]. وإذا كان كذلك وجب بقاؤه إلى يوم القيامة.

٤- أنه ﷺ هو الخاتم:

ختم الله بنبينا محمد ﷺ الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب:٤٠].

فإذا كان هو الخاتم فلا بد أن يبقى دينه؛ لأن الناس لا تستقيم حياتهم بدون دين يتعبدون به لربهم وخالقهم سبحانه.

٥- دوام التكليف:

أجمع السلف والأئمة على دوام التكليف إلى يوم القيامة ولا يتحقق ذلك إلا ببقاء الشريعة وسلامتها من التغيير والتبديل وإلا فإنها لو تغيرت وتبدلت لانقطع التكليف بها[١].

أما الواقع: إذا نظرت إلى الواقع رأيت تكالبَ قوى الكفر والشر والفساد من خارج المجتمع الإسلامي وداخله وتعاونهم المستمر على حرب الإسلام وأهله وإنفاق الأموال وتجنيد الرجال والأفكار بداية بعبد الله بن سبأ اليهودي، فالدول الباطنية والتتار الذين أفسدوا البلاد، ثم تلك الدول النصرانية وحروبها العسكرية والفكرية التي لم تهدأ ولن تهدأ إلى آخر الدهر، ومعهم المنافقون في الداخل، ومع ذلك كله بقي الدين غضًّا طريًّا كما نزل على نبينا محمد ﷺ يستمسك به المؤمنون ولله الحمد والمنّة.

قوله: (وهذا دينُه): هذا اسم إشارة للقريب والضمير في دينه يعود إلى النبي ﷺ.

---

(١) انظر: «معالم طريقة السلف في أصول الفقه» د. عابد السفياني (١١٨).

والمقصود أن دين النبي ﷺ بين يديك كما أنزله الله على نبينا محمد ﷺ، أخذه الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ، وَوَرَّثُوهُ مَنْ بعدهم حتى وصل إلينا غضًا طريًا كما نزل فمن طلبه وجده في متناول يده قريباً منه؛ فلا عليك أيها الأخ المبارك إلا أن تتعلمه وتعمل بما فيه وتدعو الناس إليه.

قوله: (لا خير إلا دل الأمة عليه):

لا خير: لا نافية تنفي جميع الخير.

والخير: ضد الشر وهو اسم جامع لكل ما فيه منفعة للعبد في دينه ودنياه.

إلاّ: أداة استثناء والاستثناء من النفي إثبات.

دلّ: مأخوذ من الدلالة، وهو الإرشاد أي: أرشد الناس إليه وبينه بيانًا شافيًا كافيًا لا يحتاجون معه إلى غيره.

الأمة: تأتي لعدة معان: منها الملة والإمام والجماعة من الناس[1]، وهو المقصود هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾[القصص:٢٣]، أي: جماعة من الناس، والمقصود هنا أمة محمد ﷺ.

عليه: الضمير يعود على الخير. **فلا خير** إلا من طريق واحد وهو طريق الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وجمع رحمه الله بين النفي والإثبات لبيان حصر الخير فيما أتى به النبي ﷺ فقط وفي هذا فائدتان:

١- توحيد مصدر التلقي وهو (الكتاب والسنة فقط) بفهم السلف الصالح.

٢- أن ما عداه شر يجب البعد عنه حماية للمسلم من الابتداع في الدين وارتكاب المنكرات والمعاصي.

---

(١) «نزهة الأعين النواظر» (١٤٣-١٤٤).

ولعل هذا هو السر في كون النبي ﷺ يكرر بيانه في خطبه فيقول: «**أما بعد؛ فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْي هديُ محمّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة**»[١].

وقوله: (ولا شر إلا حذرها منه):

لا: نافية تنفي جميع الشرور.

الشر: ضد الخير وهو اسم جامع لكل ما يضرُّ العبد في دينه ودنياه.

إلاّ: أداة استثناء، والاستثناء من النفي إثبات.

حذّرها: «الحاء والذال والراء أصل واحد، وهو من التحرز والتيقظ»[٢].

فَالْحَذَر: هو الاحتراز عن مُخيف. ورجل حَذِر: أي متيقظ شديد الحذر والفزع مُتَحَرِّز. والتحذير هو التخويف. والإحذار: هو الإنذار[٣] أي أنذرها وخوفها منه لتتحصن وتحترز منه؛ وما ذلك إلا لشدة خطورته على دين العبد.

منه: الضمير يعود على الشر ففيه إثبات تحذير النبي ﷺ أمته من جميع الشرور.

ويدل لذلك قوله ﷺ: «**إنَّهُ لم يكنْ نبيٌّ قبلي إلَّا كان حقًّا عليهِ أن يدُلَّ أُمّتَه على خيرِ ما يعلمهُ لهم وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم...**»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٧).

(٣) «اللسان» (٤/ ١٧٥-١٧٦).

(٤) مسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم (١٨٤٤).

وَالخَيرُ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ: التّوْحِيد وَجَميعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ ويَرْضَاهُ. والشرُّ الّذي حَذّرَ مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَميعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ ويَأْبَاهُ.

....

شرع المؤلف ببيان الخير الذي أرشدنا إليه نبينا محمد ﷺ بكلمات معدودات شملت جميع المأمورات سواء كانت واجبة أو مستحبة، فبدأ بأصل الدين الذي لا يصح إلا به وهو التوحيد ثم ضم إليه بقية الدين، فقال وجميع ما يحبه الله ويرضاه، وذلك أن الله يحب جميع ما شرع لعباده سواء كان ذلك فريضة أو نافلة لكنَّ الفريضَةَ أحبُّ إليه سبحانه كما قال النبي ﷺ فيما يرويه عن رَبِّهِ ﷿ أَنّه قال: «**وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افْتَرَضْتُهُ عليه**»، ولما كانت النافلة محبوبة إليه سبحانه جعل جزاء المتقرب إليه بها محبته سبحانه له وحفظه من الذنوب والمعاصي فقال: «**وما يزالُ عبدي يتقرّبُ إليّ بالنوافِلِ حتَّى أُحبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنتُ سَمَعَهُ الَّذي يسمعُ به، وبصرَهُ الَّذي يُبْصرُ به، ويدَهُ الَّتي يبطشُ بها، وَرِجْلَهُ الّتي يمشي بها، ولئن سألني لأُعْطِيَنَّهُ، ولنِ استعاذني لأُعِيذَنَّهُ**»[١].

وكل ما شرعه وأحبه فقد رضيه لنا دينًا قال تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾[الزمر:٧].

وقوله ﷺ: «**إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تُشرِكُوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا**»[٢].

ثم انتقل إلى الشق الآخر من الدين وهو المنهيات الممنوعات المحرمات معبرًا عنها بالشر للتنفير منها، فهي شرٌّ محض؛ لأنها تغضب الرب وتفسد القلب وتحبط العمل وتنقص الإيمان أو تبطله بالكلية، وبدأ بالشرك لأَنَّه مناقضٌ للتوحيد محبطٌ للعمل: ﴿وَلَوۡ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٠)، كتاب «الأقضية»/ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة. رقم (١٧١٥).

﴿أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨] مُبْطِلٌ لجزائه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

ثم ذكر فروع الشرك وهي المعاصي، فقال: وجميع ما يكرهه الله ويأباه، فكل المعاصي يكرهها الله عَزَّوَجَلَّ ألا ترى أن الله لما نهى عن قتل الأولاد والزنى وقتل النفس المحرمة وأكل مال اليتيم وغيرها من المحرمات قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[الإسراء:٣٨].

قال ابن كثير: «أي قبيحهُ مكروهٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ اللهَ يكرَهُ لكم ثلاثًا: يكرهُ قِيلَ وقَالَ، وكثرَةَ السؤالِ وإضاعةَ المالِ**»(٢)، وإذا كان اللهُ يكرهُ هذه الأمورَ فلأن يكرهَ الشركَ ولا يرضى به من باب أولى، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر:٧].

وجميع ما يكرهه فقد منع منه. وقوله: ويأباه: أي يمنعه ولهذا ورد النهي عن الشرك والمحرمات في آي كثيرة من كتاب الله، وأحاديث كثيرة من سنة رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وقال ﷺ في وصيته لأبي الدرداء(٣)، ومعاذ بن جبل(٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تُشْرك بالله شيئًا،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الأدب المفرد» (١٩) رقم (١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٩)، كتاب «الفتن»/ باب الصبر على البلاء. رقم (٤٠٣٤)، و«تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٢/ ٨٨٤-٨٨٥) رقم (٩١١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن، وشهر مختلف فيه». «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٩٠) رقم (١٤٢٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٤/ ٢١٧) رقم (٧١١٥)، وقال الألباني: «حسن» في تعليقه على «الأدب المفرد» (١٩).

(٤) أحمد (٥/ ٢٣٨)، و«تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٢/ ٨٩٠-٨٩١) رقم (٩٢١).

وإن حُرِّقْتَ أو قُطِّعْتَ».

وقال عبادة بن الصامت أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خلال، فقال: «**لا تُشركوا بالله شيئًا، وإن قُطِّعْتُم، أو حُرِّقْتُم، أو صُلِّبْتُم...**»[(١)].

وفي نهيه عن الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء:٣٢].

وفي نهيه عن أكل مال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء:٣٤].

وغير ذلك مما ورد النهي عنه كله يجب اجتنابه والحذر منه قال ﷺ جامعًا ذلك كله: «**فإذا نهيتُكُمْ عن شيء فاجتنبُوه**»[(٢)].

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٨٩) رقم (٩٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥١)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٧٢٨٨).

بعثه اللهُ إلَى النَّاسِ كَافةً.

....

قوله: **بعثه الله**: البعث هو الإثارة والإرسال، أي: أرسله الله داعيًا إلى دينه، والضمير في قوله: بعثه يعود على نبينا محمد ﷺ.

إلى الناس: لفظة الناس تطلق على الجن والإنس قال ابن منظور: «الناس قد يكون مِنَ الإنْسِ وَمِنَ الجِنِّ»(١).

ويدل له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[الناس:١-٥] ثم بين أقسام الناس فقال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾[الناس:٦].

قال الراغب: «النّاسُ جَماعة حيوان ذوو فكر ورَوِيّة، والجِنّ لَهُم فِكرٌ وَرَوِيّة، ويتَحرَكونَ في مُرَادَاتِهِم وَلِهَذا دَخَلُوا في عُمومِ النّاسِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢).

كافة: كف الشيء يكُفُّه كفًا أي جمعه(٣). والكافة: الجماعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[البقرة:٢٠٨] أي جميعكم. قال أبو إسحاق: «كافة بمعنى الجميع والإحاطة»(٤)، ويدل لذلك الكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

---

(١) «اللسان» (٦/ ٢٤٤).

(٢) «تحقيق البرهان في رسالة محمد ﷺ للجان» (٦٤٤).

(٣) «اللسان» (٩/ ٣٠١).

(٤) «تهذيب اللغة» (٩/ ٤٥٤).

يَعۡلَمُونَ﴾[سبأ:٢٨] أي أرسله الله لجميع الناس.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١]، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[التكوير:٢٧].

والعالم كل ما سوى الله. ولكن هذا من العام المخصوص. وذلك أن العام المخصوص دال على ما بقي بعد التخصيص فيكون المراد بالعالمين هنا هم الإنس والجن قال ابن عباس: «العَالمونَ الجِنّ والإنس دليله قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ولم يكن نذيرًا للبهائم»(١).

ولهذا هدد الله من لم يؤمن بالنبي ﷺ فقال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾[هود:١٧]، وطبق النبي ﷺ ذلك عمليًا خلال دعوته فدعا جميع الناس إلى دين الله كما بيّن ذلك أنس رضي الله عنه بقوله: «كَتَبَ النبيُّ ﷺ إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كُلِّ جبّارٍ يدْعُوهُم إلى الله تعالى، وليس النَّجاشيّ الّذي صلّى عليه النبي ﷺ»(٢)، وكذلك دعوته ﷺ أهل الكتاب إلى الإيمان به وقتال من لم يؤمن وفرض الجزية عليهم ثم خلفاؤه رضي الله عنهم من بعده قاتلوا الفرس والروم وألزموهم إمّا بالإسلام أو دَفْعِ الجزية(٣).

وأكد المؤلف عموم رسالته بقوله «**كافة**».

ويدل لذلك قوله ﷺ: «**أُعْطِيْتُ خمسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي. نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلتْ لِي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجلٌ من أُمّتي أدْرَكَتْهُ الصّلاةُ، فَلْيُصَلِّ، وأُحِلّتْ لي الغنائم، ولم تحلُّ لأحدٍ قبلي، وأُعْطِيتُ الشّفاعة، وكان النَّبيُّ**

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٣٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٠٦).

يُبْعَثُ في قومه خاصةً، وبُعِثْتُ إلى النّاس عامَّةً»، وفي لفظٍ لمسلم: «**فُضّلْتُ على الأنْبياءِ بِستٍّ**» وذكر منها «**وأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافةً**»[1]، قال ابن رجب: قوله: «**إِلَى الخَلْقِ كَافةً**» يدخل فيه الجن بلا ريب[2].

ولما كانت اعتراضاتُ أهل الكتاب أكثرَ من غيرهم والبليَّةُ بهم أشدَّ وردت نصوص خاصة بهم تدل دلالة واضحة على شمول رسالة محمد ﷺ لهم ووجوب اتباعهم له ﷺ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى آمرًا نبيه ﷺ بدعوتهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤].

ويؤكد ﷺ شمول رسالته لليهود والنصارى بالقسم فيقول: «**والّذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأُمّةِ يهوديّ ولا نصرانيّ ثمَّ يموتُ ولم يُؤْمِنْ بالّذي أُرْسِلْتُ به إلّا كان من أهل النّار**»[3].

قال شيخ الإسلام: «وفي القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن دعوة المشركين وعبّاد الأوثان وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام»[4].

ومما يدل على أنه رسول للجن أيضًا سورة الجن وما ذكر الله عنهم في سورة الأحقاف

(١) سبق تخريجه.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٢٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «الجواب الصحيح» (١/ ٣٣٦-٣٣٧).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[الأحقاف:٣٠-٣١].

وكذلك سورة الرحمن: فإنها خطاب للجن والإنس معًا، ولهذا قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن:١٣].

وكذلك إجابته ﷺ داعي الجن ودعوتهم وقراءته القرآن عليهم(١).

«وقد اتفق العلماء على أن كفارهم يدخلون النار، كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[الأعراف:٣٨]. وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود:١١٩]»(٢).

وقال شيخ الإسلام: «ونبينا محمد ﷺ قد أرسل إلى الثقلين»(٣)، «وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين»(٤).

---

(١) مسلم (١/ ٣٣٢)، كتاب «الصلاة»/ باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن. رقم (٤٥٠).

(٢) «النبوات» (٢/ ١٠٠٩).

(٣) المرجع السابق (٢/ ١٠٠٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩).

وافْتَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى جميعِ الثَّقَلَيْنِ: الجِنِّ والإنس. والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

....

الفرض: هو الإيجاب ومنه قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا﴾[النور:١] أي أوجبنا عليك العمل بها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:٨٥] أي أوجب عليك العمل به[(١)].

قال الأزهري: «فرض رسول الله ﷺ أي أَوْجَبَ وجوبًا لازمًا... قال الله ﷻ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾[البقرة:١٩٧]. أي أوجبه على نفسه بإحرامه»[(٢)].

فمعنى **افترض الله طاعته**: أي أوجب الله طاعته وجوبًا لازمًا. وفي هذا دليل على أن الإنسان ليس مخيرًا بين طاعة الرسول ﷺ وعدمها، بل إن طاعته من معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

وطاعته: فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه راضية بذلك نفسه.

ولما كان وجوب طاعته ﷺ أصلاً من أصول الدين أبدأ الله فيه وأعاد على صور متنوعة كثيرة:

فمرة يذكر الغرض من إرسال الرسل وهي طاعتهم واتباعهم فيقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[النساء:٦٤].

وأخرى يقرنها بطاعته سبحانه فيقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[النساء:٨٠].

وثالثة بالأمر المباشر فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩].

---

(١) «المفردات» (٣٧٨).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٤).

ورابعة بذكر ثمرة الطاعة فيقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[النساء:١٣].

ويقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[النور:٥٤].

وخامسة ببيان حسرة من عصى الرسول ﷺ فلم يطعه في وقت لا ينفع فيه الندم والتحسر فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[الفرقان:٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[الأحزاب:٦٦].

وقد أجمع العلماء على أَنَّ دين الإسلام الذي جاءنا به رسول الله ﷺ «فرض على من بلغه من جن وإنس»(١).

فمن اعتقد أَنَّ لأحد من جميع الخلق خروجًا عن اتباعه وطاعته فهو كافر(٢)، بل أجمع العلماء على كفره، قال شيخ الإسلام: «ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين باتفاق جميع المسلمين: أَنَّ مَنْ سَوَّغَ اتباع غير دين الإسلام، أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ؛ فهو كافر»(٣).

على جميع الثقلين: أي على كل الثقلين.

والثقلان: هما الجن والإنس قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[الرحمن:٣١].

وقد أجمع المفسرون على أن الثقلين هما الجن والإنس، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «**وأَمَّا المنافقُ والكافرُ فيُقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرَّجُلِ؟ فيقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ النَّاسُ، فيُقالُ: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حديدٍ**

(١) «منازل الأئمة الأربعة» للسلماسي الشافعي (١٣١).

(٢) انظر: «مراتب الإجماع» (٢٦٧) و«مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٤).

ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُها مَنْ يليه غير الثَّقَلَينِ»(١).

وورد في سبب تسميتها بالثقلين أقوال عدة هي:

١- لتفضيل الله إياهما على سائر المخلوقات بالعقل الذي خصا به.

٢- لأنها أثقلا الأرض.

٣- لأنها أُثقلا بالتكاليف.

٤- لثقلها بالذنوب(٢).

ولعل سبب التسمية بها مجتمعة؛ إذ لا تنافي بينها والله أعلم.

الجِنّ: من جن الشيء يجنه إذا ستره ومنه ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾[الأنعام:٧٦] أي ستره بظلمته ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه، وسمي القلب جنانًا لأن الصدر أجنّه وستره.

والجن: جماعة ولد الجان، وجمعهم الجِنَّةُ والجانّ، وإنما سموا جنًا؛ لأنهم استجنوا من الناس فلا يرونهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:٢٧]، وأبوهم إبليس خلق من النار ثم خلق منه نسله. قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر:٢٧](٣).

والإنس: أَنِسَ الهمزة والنون والسين أصلٌ واحد وهو ظهور الشيء، فالإنس خلاف الجن لظهورهم(٤).

قال الأزهري: وأصل الإِنْس من الإيناس وهو الإبصار يقال: أَنَسْتُه وأَنِسْتُه، أي

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٣٢-٢٣٣)، كتاب «الجنائز»/ باب ما جاء في عذاب القبر. رقم (١٣٧٤).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٩/ ٧٨) و«تفسير القاسمي» (١٥/ ٥٦٢٣).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٤٩٦) و«اللسان» (١٣/ ٩٢) و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٣٥ و٣٤٦).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٤٥).

أبصرته ومنه: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾[القصص:٢٩]. أي أبصر، وأبوهم آدم خلق من الطين وخلق منه نسله قال تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص:٧٦](١).

﴿قُلْ﴾: أمر الله نبيه محمد ﷺ أن ينادي الناس ويخبرهم بأن الله أرسله داعيًا إياهم للدخول في دين الله تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء لجميع الثقلين الجن والإنس.

﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: إن لتوكيد الرسالة وأنها من عند الله فرسولنا محمد ﷺ مرسل من ربه بدينه ليدعو الناس إليه ويبين لهم حلاله وحرامه وما يجب عليهم فعله وما يجب تركه.

﴿إِلَيْكُمْ﴾: الضمير يعود إلى الناس أي أن الرسالة لكم أيها الناس كلكم ليست لقوم دون آخرين.

وأكد عموم الرسالة وأنها لجميع الناس من بعثته إلى أن تقوم الساعة بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ فجميعًا حال تعود على ضمير الجمع في قوله ﴿إِلَيْكُمْ﴾.

قال قوام السنة الأصبهاني حول هذه الآية: «وهذا خطابٌ لكافة الناس مَنْ كان في عصر النبي ﷺ ومَنْ جاء بعد وفاته ويجيء إلى أن تقوم الساعة»(٢).

ثم ذكر من نعوت المُرْسِل ما يوجب الخوف منه، والخضوع والذل له، والتقرب إليه بجميع محابه فقال: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فجمع في هذه الآية بين ملكه التام لمخلوقاته وقدرته التامة على تدبيرها وتصريفها خلقًا وإبداعًا وإحياءً وإماتة، فما شاء أحياه وما شاء أفناه، له الحكم والسلطان التام. ومن

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٣/ ٨٦) وانظر: «اللسان» (٦/ ١٠).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ١٧٠).

كان كذلك وجب إفراده بالعبادة؛ لأنه لا يستحق أن يعبد إلا هو ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فقررت هذه الآية أصولًا أربعة هي:

١ - إثبات أن للعالم إلهًا قادرًا مالكًا مدبرًا ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ - إثبات أنه منزه عن الشريك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣- إثبات أنه تعالى قادر على الحشر والبعث والقيامة ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

٤ - أن هذه الأمور الثلاثة لا تعلم تفصيلًا إلا عن طريق الرسل فلما ثبتت هذه الأمور الأربعة أمر بالإيمان به فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ثم بيّن ما يفيد بل يحقق صدق رسالته فقال: ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ فأميته ﷺ دليل على صدق رسالته؛ إذ كيف يأتي بهذا العلم العظيم، وهو أمي، إلا أَنَّ الله علمه ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾. أي الآيات التي أنزلها الله عليه متكلمًا بها سبحانه. وفي هذا يكمن سر الاقتداء به فلهذا حضَّ ربنا عليه فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي اسلكوا طريقه، واقتفوا أثره، وأطيعوا أمره، واعملوا بسنته ومما يزيد في عزم العبد على اقتفاء أثره أن المتبع له مهتد دنيا وأخرى ولهذا قال ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ.

....

وأَكمل «الكاف والميم واللام أصل صحيح يدل على تمام الشيء يقال: كَمَلَ الشيء وكمُلَ فهو كامل أي تام ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾»[١] [المائدة:٣].

قال الأزهري: «وأكملت الشيء أي: أجملته وأتممته»[٢].

والكمال: اسم لاجتماع أجزاء وأبعاض الموصوف[٣].

والدين كذلك فإنه يتكون من أركان وواجبات وسنن، ولكنَّ النبي ﷺ حينما دعا الناس إليه بدأ بالتوحيد، فطلب منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فلما آمنوا أمرهم بالصلاة، فلما آمنوا وصدقوا وعملوا فرض الله عليهم الهجرة ثم الصيام والزكاة والحج والجهاد وأتم لهم بقية شرائع الدين فلما تم ذلك كله أنزل الله قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٤] [المائدة:٣].

قال الإمام أحمد: «كان بدء الإيمان في أول الإسلام ناقصًا فجعل يتم»[٥].

فقوله: **أكملَ الله بِهِ الدّين**: أي أتم الله الدين بما أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ.

والأدلة على كمال الدين كثيرة منها:

١- قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٣٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٦٥) وانظر: «العين» (٥/ ٣٧٩).

(٣) انظر: «الفروق» للعسكري (٢٩٤) و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٦٥) و«العين» (٥/ ٣٧٩).

(٤) انظر: «الشريعة» (٢/ ٥٥٢-٥٥٣ و٥٥٦) و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٦٢٨-٦٣١) تحقيق رضا نعسان.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٧٥).

قال ابن مسعود ﷺ: «أنزل في هذا القرآن كلَّ علم، وكلُّ شيء قد بُيّن لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية»(١)، «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلةٌ إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»(٢) ويدل لهذا قوله في الآية: ﴿تِبْيَٰنًا﴾ «فإنها من المصادر التي بنيت على هذه الصيغة لتكثير الفعل والمبالغة فيه»(٣) ولكونه مبينًا لكل شيء انحصر الهدى فيه وأثمر لأهله الرحمة والبشرى دنيا وأخرى وانحصار الهدى فيه دليل على كماله.

٢- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

أثبت الله في هذه الآية أنه فَصَّل كل شيء وتَفْصِيلُ كلَّ شيء دليلٌ بَيّنٌ على كمال الدين فلا يحتاج إلى أن يبحث عن الهدى في غيره وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء:١٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾[المائدة:٣]. هذه الآية نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة وثمانين يومًا فقط وهذه الآية صريحة في كمال الدين.

٤- قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]. تمت كلمة الله صدقًا في أخبارها وعدلًا في أحكامها، ولهذا قال بعدها ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الكهف:٢٧]. حيث حفظها وأحكمها بأنواع الصدق وبغاية الحق فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها وتمامها في الأخبار والأحكام دليل على كمال الدين.

---

(١) «جامع البيان» (١٤/ ١٦٢).

(٢) «الرسالة» للشافعي (٢٠).

(٣) «محاسن التأويل» (١٠/ ٣٨٤٩).

ويتضح كمال الدين فيما يلي:

أولًا: كمال في الاعتقاد:

فكل ما يلزم العبد اعتقاده فقد بينه الله ووضحه رسوله ﷺ أتم بيان وأجلاه. فقد بيّن ربوبيته، وخلقه لكل شيء، وكمال قدرته وعلمه المحيط بكل شيء، وعزته، ورحمته، وحلمه، وسمعه، وبصره، وحياته الكاملة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وغير ذلك مما ورد من أسمائه الحسنى وصفاته العلى قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠].

ثم أوضح سبحانه في آي كثيرة لازم الإيمان بأسمائه وصفاته وربوبيته وهو الإيمان بألوهيته ووجوب إفراده بالعبادة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

وكذلك الأمور المغيبة سواء كانت من غيوب المستقبل كالجنة والنار، وما قبلهما من عذاب القبر ونعيمه والنفخ في الصور والحشر وتطاير الصحف ونحو ذلك، أو كانت من الأمور الحاضرة ولكنها غيبٌ بالنسبة لنا كالملائكة، أو كانت غيوب نسبية ماضية مما وقع للأمم السابقة.

وأوضح أكملَ إيضاح وأجلاه دلائلَ النبوة، ومن هو خاتم الرسل وأنه أفضل الأنبياء، وأن من ادعى النبوة بعده فهو دجال كذاب.

ثانيًا: كمال في الأحكام:

سواء كانت هذه الأحكام عبادات كالصلاة والزكاة والحج والصيام والجهاد وغيرها، أو معاملات بين الناس في بيعهم وشرائهم كإباحة البيع وتحريم الربا والغش والخداع، وأحكام الإمامة وما يجب على الحاكم والمحكوم كل منهما تجاه الآخر.

أو أخلاقاً مع الناس كالتواضع ولين الجانب والعفو والسماحة، وغير ذلك مما هو معلوم في كلام الله وكلام رسوله كما في حديث العرباض بن سارية: «**قد تَرَكْتُكُمْ على البيضاءِ، لَيْلِهَا كنهارِها، لا يزيغُ عنها بعدي إلَّا هالكٌ**»(١).

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: «خرج علينا رسول الله فقال: **أَيْمُ الله لقد تَرَكتُكُمْ على مثلِ البيضاءِ، ليلُهَا ونهارها سواءٌ**. قال أبو الدرداء: صدق والله رسولُ الله ﷺ، فقد تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»(٢).

وقال أبو ذر ﵁ : «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»(٣).

وقال أبو الدرداء: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما في السماء طير يطير بجناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا»(٤).

وجواب سلمان ﵁ لذلك المستهزئ الكافر عندما سأله هل علمكم رسولكم كل شيء حتى الخراءة. أجاب سلمان ﵁ جواب المؤمن المعتز بدينه فقال أجل: «لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن ماجه (١/ ٤)، «المقدمة»/ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. رقم (٥)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٦) رقم (٤٧)، والبزار في «مسنده» (١٠/ ٧٦) رقم (٤١٤١)، وقال: «إسناده حسن»، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٦).

(٣) أحمد (٥/ ١٥٣).

(٤) أبو يعلى في «مسنده» (٩/ ٤٦) رقم (٥١٠٩). وقال الهيثمي: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٤) رقم (١٣٩٧٣).

(٥) مسلم (١/ ٢٢٣)، كتاب «الطهارة»/ باب خصال الفطرة. رقم (٢٦١).

والإيمان بكمال الشريعة يوجب على العبد أمرين:

أولًا: الاتباع وتوحيد المصدر:

من آمن برسالة النبي ﷺ وأن ما جاء به هو الحق من عند الله أوجب له ذلك ألا يأخذ دينه إلا من مشكاة النبوة، فما جاء به قبلناه وعملنا به واعتقدنا صحته وما نهانا عنه اجتنبناه ممتثلين قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر:٧].

وجاءت الأدلة المتكاثرة على الأمر بلزوم الوحي المنزل على رسولنا ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف:٣].

وأنه الشفاء والهدى والرحمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:٥٧]. «وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وبَيَّنَهُ وبلغه البلاغ المبين، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئًا من دينه، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذي بعث به فقط»(١). وأنكر على من لم يكتف بالوحي فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[العنكبوت:٥١].

وقبل ذلك كله أمر نبيه ﷺ بتوحيد المصدر فقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الجاثية:١٨].

وقال سبحانه: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:١٠٦].

ولما كان اتباع الوحي شاقاً لأنّه يمنع حظَّ النفس أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالصبر عليه فقال: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[يونس:١٠٩].

(١) «الجواب الصحيح» (١/ ٣٦٢).

فالاتباع هو أسُّ الدين ونظامه ويتضح ذلك بما يلي:

١- أنه شرط لقبول العمل:

قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢].

﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أي أخلصه وأصوبه، والخالص هو أن يكون لله وحده، والصواب أن يكون على سنة المصطفى ﷺ.

وأكد النبي على أهمية المتابعة وأنها شرط أساس في قبول العمل فقال: «**من عملَ عملًا ليس عليهِ أمرُنا؛ فهو رَدٌّ**»(١)؛ أي: مردود عليه غير مقبول.

٢- أنه دليل المحبة الصادقة:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران:٣١].

وهذه الآية هي التي يسميها السلف آية الامتحان، قال ابن كثير «هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»(٢).

٣- أنه سبب لدخول الجنة والنجاة من النار:

لما كان الاتباع سبباً رئيساً لدخول الجنة: دعت الملائكة لأهله، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[غافر:٧].

وأكد عليه النبي ﷺ في قوله: «**كلُّ أُمَّتي يدخلونَ الجنَّةَ إلَّا من أبى**»، قالوا: يا رسول

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢٣١-٢٣٢).

الله ومن يأبى. قال: «**من أطاعني دخل الجنَّة، ومنْ عصاني فقد أبى**»(١).

قال الإمام مالك: «السنةُ سفينةُ نوح من ركبها نجا ومَنْ تخلف عنها هلك»(٢).

٤- أنه سبب لمنع العذاب:

الاتباع سبيل قوي للوقاية من العذاب، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الزمر:٥٥].

٥- بشرى المتبعين:

قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر:١٧-١٨].

ثانيًا: البعد عن الابتداع والحذر منه:

من وُفِّقَ لاتباع الوحيَيْن نفر من البدعة نفورًا عظيمًا، وكانت نتيجة ذلك الاستقامة على ما درج عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام وأهل القرون الثلاثة الذين هم خير القرون.

ولقد كان النبي ﷺ يغرس في قلوب أصحابه ﷺ بغضَ البدعة، فيقول في كل خطبة يخطبها: «**وكُلّ بدعةٍ ضلالةٍ**»(٣).

ولما وعظهم موعظةً بليغة ذرفت منها عُيونُهم ووجِلَت منها قلوبهم طلبوا منه الوصية فكان من وصيته تحذيرهم من البدعة فقال: «**وإيَّاكُم ومحدثات الأُمور، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٤٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

وكان لهذه التربية أعظم الأثر في نفوس أصحابه فكانوا ﭫ أحرص الناس على الاتباع وأبعدهم من الابتداع وأقوالهم في ذلك كثيرة مشهورة ومنها:

قول حذيفة ﭬ: «يا معشرَ القُرّاء، اسْتَقيمُوا فقد سَبْقْتُم سبقًا بعيدًا، وإن أخذتُم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»(١). ومثله عن عبدالله بن مسعود ﭬ(٢)، وقال ابن عباس: «عليكم بالاستقامة والاتباع، وإياكم والبدع»(٣).

وقال معاذ بن جبل ﭬ: «إياكم وما ابتدع، فإن كلَّ بدعة ضلالة»(٤).

وقال عبدالله بن عمر ﭬ: «كُلُّ بِدْعةٍ ضَلالَة وإن رآها النّاس حَسنة»(٥).

وسار السلف بعدهم على منهجهم في التحذير من البدع قال الإمام أحمد ﭬ بعد كلام سبق: «واحذر البدع كلّها... ولا تُشاور أحدًا من أهل البدعِ في دينك»(٦).

وقال أحمد بن سنان: «ليس في الدُّنيا مُبتدع إلا ويبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرّجل نزعت حلاوة الحديثِ من قَلبهِ»(٧).

وكانوا يفرحون بالسلامة من البدع ويعدون ذلك من أعظم نعم الله عليهم.

قال مجاهد: «ما أدري أيُّ النعْمَتين عليَّ أعظمُ، أنْ هَدَانِي للإسلامِ أوْ عَافَاني مِن هَذِهِ الأهواءِ»(٨)، وبمثله عن أبي العالية(٩).

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠)، كتاب «الاعتصام»/ باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ. رقم (٧٢٨٢).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (١/ ٣٣٢).

(٣) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١٤).

(٤) أبو داود (٥/ ١٧)، كتاب «السنة»/ باب لزوم السنة. رقم (٤٦١١).

(٥) «السنة» للمروزي (٩٤)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (١/ ٩٢).

(٦) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٤).

(٧) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (٣٠٠)، و«ذم الكلام وأهله» (٢/ ١٥٨).

(٨) «سنن الدارمي» (١/ ٨٨) رقم (٣٠٩)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٢٩٣).

(٩) «حلية الأولياء» (٢/ ٢١٨).

ويوصون بالبعد عن أصحاب البدع، ومن ذلك أن رجلًا جاء إلى سفيان الثوري فقال: «يا أبا عبدالله! أوصني قال: إيّاكَ والأَهْواء. إيَّاكَ والخُصومة، إيَاكَ والسُلْطان»[١].

وكانوا يرون أَنَّ أهل الأهواء أسرعُ الناس ردَّةً وأن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[الأنعام:٦٨][٢].

وأنهم يُحْرَمُونَ الورعَ قال الأوزاعي: «ما ابتدع رجل بدعة إلا سُلِبَ الورع»[٣].

ويعتقدون أَنّ ذنب البدعة أعظم الذنوب ما خلا الشرك، قال الشافعي: «لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من الأهواء»[٤].

وبمثل ذلك قال يونس بن عبيد لابنه كما روى ذلك ختن بن شعبة قال: «كنت عند يونس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله! تنهانا عن مجالسة عمرو بن عبيد وقد دخل عليه ابنك؟ قال: ابني. قال: نعم. فتغيظ الشيخ فلم أبرح حتى جاء ابنه فقال: يا بني قد عرفت رأيي في عمرو، ثم تدخل عليه قال: كان معي فلان وجعل يعتذر قال: أنهاك عن الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، ولأن تلقى الله بهن أحب إلي من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو»[٥].

وقال سلام بن أبي مطيع: «لأن ألقى الله بصحيفة الحجاج أحب إلي من أن ألقى الله بصحيفة عمرو بن عبيد»[٦].

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٨).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٤٣١ و٤٩٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢٥).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٥٧٠)، و«آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (١٨٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ٢٠٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٩٤).

(٦) المرجع السابق (٧/ ٤٢٨).

ولأجل ذلك رأوا أن احتراق المسجد بالنار وتهدمه من أساسه أقل خطرًا وأهون خطبًا من حدوث بدعة فيه لا تغير. قال عمر بن الخطاب: «لأن أسمع في ناحية المسجد بنار تشتعل أحب إليَّ من أن أسمع فيه ببدعة ليس لها مغيّر»(١).

وقال أبو إدريس الخولاني: «لأن أرَى في المسجدِ نارًا لا أسْتطيع إطفَاءها أحبُّ إليَّ من أن أرى فيه بِدعةً لا أستطيعُ تغييرها»(٢).

وذلك أن النار تفسد بنيان المسجد وإصلاح أمر البنيان يسير، وكل الناس يعينونك عليه وأما البدعة فإنها تفسد الأديان ثم لا يتاب منها غالبا.

واسترخصوا الدنيا حذرًا منها وخوفًا من غبها فصبروا على قطع ما يجري عليهم من بيت المال، فعن إبراهيم بن الحسين قال: «لما دعي عفان بن مسلم للمحنة، كنت آخذا بلجام حماره، فلما حضر عُرِضَ عليه القولُ بخلق القرآن، فامتنع أن يجيب، فقيل له: يحبس عطاؤك، قال: وكان يعطى في كل شهر ألف درهم، فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:٢٢]، فلما رجع إلى داره، عذلوه نساؤه، ومَنْ في داره، قال: وكان في داره نحو أربعين إنسانا، قال: فدق عليه داق الباب، فدخل عليه رجل فشبهته بسمّان أو زيات، ومعه كيس فيه ألف درهم فقال: يا أبا عثمان ثبتك الله كما ثبّتَّ الدين، وهذا في كل شهر»(٣).

وتحملوا السجن والقيد والضرب كما فعل البويطي فيما يحكيه الربيع بن سليمان، فيقول: «رأيت البويطي على بغل في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبين الغل والقيد سلسلة حديد، فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بكن، فإذا كانت كن

(١) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ٧٤) رقم (٨١٤).
(٢) «الاعتصام بالكتاب والسنة» لأحمد بن نصر الخزاعي (٨٢).
(٣) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧١).

مخلوقة فكانت مخلوقًا خلق مخلوقًا، فوالله لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت إليه لأصدقنّه، يعني -الواثق-.

قال عبد الرحمن بن أحمد المصري: كان البويطي متقشفًا، حمل من مصر أيام المحنة إلى العراق، وأرادوه على المحنة فامتنع، فسجن في بغداد وقُيِّد فتوفي في السجن والقيد سنة اثنتين وثلاثين ومائتين(١).

واسترخصوا أعضاءهم ولحومهم لأجل إماتتها. قال عمر بن عبدالعزيز: «لَوْ كَانَ بِكُلِّ بِدعة يُميتُها الله على يديّ، وكلّ سُنّةٍ يُنعشها الله على يديّ بضعةً مِنِ لحمي حتى يأتي آخرَ ذلكَ على نفسي لكانَ في الله يسيرًا»(٢).

ولم يرغبوا في البقاء في الدنيا إلا لأجل ذلك. قال عمر بن عبدالعزيز: «والله لولا أن أُنعِشَ سُنّة وأُميتُ بدعة لما سرّني أن أعيشَ في الدنيا فواقًا، ولوددتُ أني كلما أنعشتُ سُنّة وأمتُّ بدعة أن عضوًا من أعضائي سقط معها»(٣).

وجادوا بأنفسهم لله طامعين في إماتتها كما فعل أحمد بن نصر الخزاعي، وذلك حينما قال له الواثق: «يا أحمد! ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، وأحمد بن نصر مستقتل قد تنوّر وتطيب. قال: أفمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربّكَ أتَراهُ يومَ القيامة؟ قال: يا أميرُ المؤمنين! جاءت الآثارُ عن رسول الله أنه قال: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يومَ القِيَامةِ كَمَا تَرَوْنَ القَمَر لاَ تُضامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»(٤) فنحن على الخبر... فضربه الواثق ضربة

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٠٢-٣٠٣)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٩٨).

(٢) «الاعتصام بالكتاب والسنة» لأحمد بن نصر الخزاعي (٨٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤١٩)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. =

على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه، فضرب عنقه وحزّ رأسه»[(١)].

فأثنى الإمام أحمد عليه في موقفه هذا، فقال: «ما كان أسْخَاه، لقد جاد بنفسِه»[(٢)].

ولقد أثنى ابن القيم رحمه الله على أحمد بن نصر لنصره السنة والموت لأجل ذلك فقال:

ولأَجلِه قُتِلَ ابنُ نَصْرٍ أَحْمَدا ... ذاك الخُزَاعِيُّ العظيمُ الشانِ

إذ قال ذا القُرْآنِ نفسُ كلامهِ ... ما ذاك مخلوقٌ من الأكوانِ[(٣)]

و«البدعة ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات»[(٤)].

وعرفها الشاطبي فقال: «طريقةٌ في الدين مخترعة تُضاهي الشرعية يقصد بِالسلوكِ عليها المبالغةِ في التّعبدِ لله سبحانه»[(٥)].

وعرفها شيخنا العثيمين فقال: «ما أُحْدِثَ في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من عقيدةٍ أو عملٍ»[(٦)].

= رقم (٧٤٣٤)، ومسلم (١/ ٤٣٩)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها. رقم (٦٣٣).

(١) «تاريخ الطبري» (٥/ ٧٠) وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٦٧-١٩٦).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» (٣٩٩).

(٣) «الكافية الشافية مع شرح ابن عيسى» (٢/ ٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٤٦).

(٥) «الاعتصام» (١/ ٣٧).

(٦) «شرح لمعة الاعتقاد» (٢٣).

وتكمن خطورة البدعة بما يلي:

١- أنها تحبط العمل:

قال ﷺ: «**من أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ فيه؛ فهو ردٌّ**»(١).

٢- اتهام دين الله بالنقص:

فكأنه ببدعته أراد إكمال ما نقص من دين الله، ولهذا رد الله هذه الفرية العظيمة بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة:٣].

٣- اتهام الرسول ﷺ بعدم البلاغ:

والنبي ﷺ نفى ذلك أشد النفي في حجة الوداع فقال: «**وأنتم تُسألُون عنِّي، فما أنْتُمْ قائلُون؟**»، قالوا: نشهد أنَّك قد بلَّغْت، وأَدَّيْت ونصحت، فقال: بإصبعِهِ السَّبَّابةِ، يرفعها إلى السَّماء ويَنْكُتُها إلى النَّاس: «**اللهُمَّ اشهد، اللهم اشهد**»، ثلاث مرَّاتٍ(٢).

قال مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة:٣]. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»(٣).

٤- أنها مخالفة صريحة لأمر النبي ﷺ بالسنة ومجانبة البدعة حيث أمر بها فقال: «**عليكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدين المهديِّينَ، تمسَّكُوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثَات الأُمورِ، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»(٤).

وبيَّن في أكبر مجمع بعرفة في حجة الوداع أنه لا يحمي الناس من البدعة إلا التمسك

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الاعتصام» (١/ ٤٩)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٦٥).

(٤) سبق تخريجه.

بكتاب الله فقال: «**وقدْ تركْتُ فيكمْ ما لَنْ تضلُّوا بعده إن اعْتَصَمْتُمْ به، كتاب الله**»(١).

٥- أنها تغشى صاحبها بالذلة والصغار:

قال سفيان بن عيينة: «ليس في الأرض صاحبُ بدعة إلا وهو يجد ذلةً تغشاه، قال: وهي في كتاب الله قالوا: وأين هي من كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الأعراف:١٥٢] قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصة قال: كلا اتلوا ما بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[الأعراف: ١٥٢]، فهي لكل مفتر، ومبتدع إلى يوم القيامة»(٢).

وقال أبو قلابة عند هذه الآية: «فهو جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله تعالى»(٣).

وقال سلام بن أبي مطيع: «رأى أيوب رجلًا من أصحاب الأهواء، فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ ﴾[الأعراف:١٥٢]، ثم قال: هذه لكلِّ مُفترٍ»(٤).

٦- عقوبتها في الآخرة:

قال ابن عباس رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾. فأهل البدع والأهواء ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾[آل عمران:١٠٧]. فأهل السنة والجماعة»(٥).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٢٨٠).

(٣) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ٨٧-٨٨) رقم (٨٣٠).

(٤) المرجع السابق (٤/ ١٩٧-١٩٨) رقم (٩٨٩).

(٥) «تاريخ بغداد» (٧/ ٣٧٩)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٧٢).

٧- إبطال السنة وبغضها:

من مخاطر البدع العظيمة أنها لا تجتمع هي والسنة، بل تزيح السنة وتحل محلها، قال ﷺ: «**ما أَحْدَثَ قومٌ بدعةً إلَّا رُفِعَ مثلُها مِنَ السُّنَّةِ، فتمسُّكٌ بسنَّةٍ خيرٌ مِنْ إحداث بدعةٍ**»(١).

قال حسان بن عطية (من كبار التابعين): «مَا ابتَدَعَ قومٌ بِدْعةً في دينِهم إلاّ نَزَعَ الله من سُنّتِهم مثلها»(٢)، وذلك أن صاحب البدعة يكره السنة التي تخالف مذهبه.

بل ويبتلي صاحبها ببغض السنة، قال الأوزاعي: «ليس من صاحب بدعةٍ تُحدثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعتِه إلَّا أبغض ذلك الحديث»(٣)؛ لأنه يدل على فساد مذهبه وبطلانه.

ويوضح ذلك شيخ الإسلام فيقول: «فلا تجد قط مُبتدعًا إلَّا وهو يُحِبُّ كتمان النصُوص التي تُخالِفه ويُبغِضُها، ويُبغضُ إظهارَها وروايَتَها والتحدثَّ بها، ويبغضُ من يفعل ذلك»(٤).

٨- خطورتها على المجتمع:

ثبت بسنة النبي ﷺ أن أهل البدع شر من أهل المعاصي، فإنه ﷺ وصف الخوارج بالمروق من الدين فقال: «**يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يُمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**».

وأمر بقتلهم فقال: «**فأينما لَقِيْتُمُوهُمْ فاقْتُلُوهم؛ فإنَّ في قَتْلِهِم أجرًا لمنْ قتلَهُمْ يوم**

---

(١) أحمد (٤/ ١٠٥)، وجوّد ابن حجر إسناده في «الفتح» (١٣/ ٢٥٣).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٤٦) رقم (٩٨).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٣٠).

(٤) «درء التعارض» (١/ ٢٢١).

القيامةِ»[١].

وأما شارب الخمر لما لعنه أحد الصحابة قال ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحبُّ اللهَ ورسولَهُ**»[٢].

قال شيخ الإسلام: «أئمة أهل البدع أضرُّ على الأُمّةِ من أهل الذّنوب، ولهذا أمرَ النبيُّ ﷺ بقتلِ الخوارج، ونهى عن قتالِ الولاةِ الظلمةِ»[٣]، بل نقل الإجماع على ذلك، فقال: «أهل البدع شرٌّ من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع»[٤].

ولخطورتهم كان أهل العلم ينهون عن توقيرهم. قال إبراهيم بن ميسرة: «من وقّرَ صاحبَ بدعةٍ؛ فقد أعانَ على هدمِ الإسلام»[٥].

وبمثله قال إسحاق الهمداني[٦]، والأوزاعي[٧]، ومحمد بن مسلم[٨]، بل «اتفقوا على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله ﷻ بمجانبتهم ومهاجرتهم»[٩].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ٢٨٣)، كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم»/ باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم. رقم (٦٩٣٠)، ومسلم (٢/ ٧٤٦-٧٤٧)، كتاب «الزكاة»/ باب التحريض على قتل الخوارج. رقم (١٠٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٠٣).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٣٩).

(٦) «القدر» للفريابي (١١١).

(٧) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١٥٧).

(٨) «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (١٤).

(٩) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (٣١٦).

وذلك لـ«أن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

إحداهما: التفات الجهال والعامة إلى ذلك التوقير فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وُقِّرَ من أجل بدعته: صار ذلك كالحادي المحرض له على إنشاء الابتداع في كل شيء وعلى كل حال، فتحيا البدع، وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه»[١].

بل ويزجرونهم أشد الزجر، كما فعل سالم بن عبدالله عندما جاءه سائل فقال: رجل زنى؟ فقال سالم: يستغفر الله ويتوب إليه. فقال له الرجل قدّره الله عليه؟ فقال سالم: «نعم. قال: ثم أخذ قبضةً من الحصى فضرب بها وجه الرجل وقال: قُمْ»[٢].

فانظر إلى فعل سالم عند المعصية أمره بالاستغفار والتوبة لكن لما ظهر منه الاحتجاج بالقدر على الذنب تبين أنه مبتدع شدد عليه النكير وطرده.

٩- خطورتها على الفرد:

لا تقل خطورة البدعة على الفرد عن خطورتها على المجتمع وخطورتها على الفرد من جهتين:

أ- أنها تبعده عن الله، قال أيوب السختياني رحمه الله: «ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهادًا إلَّا ازداد من الله بُعدًا»[٣].

وقال الحسن رحمه الله: «صاحبُ البدعة لا يزدادُ اجتهادًا صيامًا وصلاةً إلَّا ازدادَ من الله

---

(١) «الاعتصام» (١/ ١١٤).

(٢) «الشريعة» (٢/ ٩٥١-٩٥٢) رقم (٥٤٦).

(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ٩).

بُعدًا»[١].

فهل تطيب نفس عاقل فضلًا عن المسلم أن يعمل عملًا يبعده عن الله.

ب- أن صاحب البدعة يحرم التوبة غالبًا. قال عطاء الخراساني: «ما يكادُ الله أن يأذَنَ لصاحبِ بدعةٍ بِتوَبةٍ»[٢].

وقال الحسن بن أبي الحسن: «أبى اللهُ تبارك وتعالى أن يأذنَ لصاحب هوى بتوبة»[٣].

وقال سفيان الثوري: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»[٤].

وقال عطاء: «ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة»[٥].

وسر ذلك: أن المذنب يحس بأنه عاصٍ لله، فيتوب ولو بعد حين، أما صاحب البدعة فلا يشعر بأنه ارتكب حرامًا، بل يظن أنه يحسن صنعًا فيستمرؤها، ويستمر عليها، فلا يتوب[٦].

ولما كانت بهذه المثابة أبدأ النبي ﷺ في التحذير منها وأعاد بصيغ متنوعة منها:

١ - التحذير بصيغة إياكم: أي احذروا فقال ﷺ: «**وإيَّاكُمْ ومُحْدثات الأُمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحْدثةٍ بدعةٌ، وإنَّ كُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[٧].

---

(١) «البدع» لابن وضاح (٩٢).

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٤١).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق (١/ ١٣٢) رقم (٢٣٨).

(٥) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١٧٤).

(٦) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩-١٠).

(٧) سبق تخريجه.

٢- رد العمل على صاحبه: قال ﷺ: «**من عملَ عملًا ليس عليه أمرُنا؛ فهو ردٌّ**»(١).

٣- براءة النبي ﷺ من المبتدع في قوله: «**فمنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليس منِّي**»(٢).

٤- كثرة تكرار التحذير من البدعة:

أكثر النبي ﷺ من التحذير من البدعة حتى كان ﷺ يحذر منها في كل خطبة كما في حديث جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش... ويقول: «**أمَّا بعدُ؛ فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ، وشرَّ الأُمُورِ مُحدثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالة**...»(٣).

٥- لعن المبتدع: لعن النبي ﷺ المبتدع عمومًا كما في حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لعنَ اللهُ من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعنَ اللهُ من آوى مُحْدِثًا، ولعن اللهُ من غيَّرَ منارَ الأرضِ**»(٤). وفي المدينة على وجه الخصوص فعن عاصم قال: قلت: لأنس بن مالك «أحرَّم رسول الله المدينة؟ قال: «نعم ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا، ولا عدلًا»، قال: فقال ابن أنس: «أو آوى محدثًا»(٥).

ولعن السلف أهل البدع، قال عبد الرحمن بن مهدي: «دخلت على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرًا، فإنه يبتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علمًا لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٩/ ١٠٤)، كتاب «النكاح»/ باب الترغيب في النكاح. رقم (٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠)، كتاب «النكاح»/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه. رقم (١٤٠١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (٣/ ١٥٦٧)، كتاب «الاضاحي»/ باب تحريم الذبح لغير الله تعالى. رقم (١٩٧٨).

(٥) مسلم (٢/ ٩٩٤)، كتاب «الحج»/ باب فضل المدينة. رقم (١٣٦٦).

تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل»[١]، وكذلك وكيع[٢]، ويزيد بن هارون[٣]، وابن أبي حاتم[٤]، وغيرهم.

---

(١) «ذم الكلام وأهله» (٤/ ١١٥-١١٦) رقم (٨٧٤).

(٢) «خلق أفعال العباد» للبخاري (٢١) رقم (٤٤).

(٣) «السنة» للخلال (٥/ ٨٧) رقم (١٦٨٨).

(٤) «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٨٢) رقم (٦٤١).

والدّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

....

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: أي يوم نزول هذه الآية وهو يوم عرفة وقد وافق يوم جمعة وذلك عام حجة الوداع قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة وثمانين يومًا.

فعن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب: أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأي آية؟ قالوا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفةَ يوم جمعةٍ»(١).

وقال الشعبي: «نزلت عليه ورسولُ الله ﷺ واقفٌ بِعَرفة حين اضمحَلَّ الشركُ وهُدِم منارُ الجاهلية، ولم يَطفْ بالبَيْتِ عريانٌ»(٢).

﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: أكملت أي أتممت لكم دينكم ببيان صفاتِ معبودِكم، وما يجب له وشرائعه من حلال أو حرام وأمر ونهي وما يستقبلكم مما بعد الموت من حياة البرزخ والبعث واليوم الآخر والجنة والنار.

قال سعيد بن المسيب: «لما قدم عمر بن الخطاب المدينة قام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إنه قد سُنّت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم

---

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٠٥)، كتاب «الإيمان»/ باب زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢)، كتاب «التفسير». رقم (٣٠١٧).

(٢) «الإيمان» لأبي عبيد (٦٢).

على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينًا وشمالًا»(١).

قال شيخ الإسلام: «وحج النبي ﷺ حجة الإسلام فلما أكملوا الدين، قال عقب ذلك: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾[المائدة:٤-٥]. فكان إحلاله الطيبات يوم أكمل الدين فأكمله تحريمًا وتحليلًا لما أكملوه امتثالًا»(٢) أكمله الله وبينه رسوله ﷺ «فلم يترك شيئًا من أمور الدين: قواعده وأصوله وشرائعه وفصوله إلا بيّنه وبلّغه على كماله وتمامه ولم يؤخر بيانه عن وقت الحاجة إليه؛ إذ لا خلاف بين فرق الأمة أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال»(٣).

ووصفُ الدين بالكمال بيانٌ أنه لا نقص فيه ولا عيب فهو كامل في حسنه وجلالته وأمره ونهيه ومادام كذلك فلا حاجة إلى دين غيره.

وقوله: ﴿لَكُمْ﴾: اللام تفيد اختصاصهم به دون غيرهم ممن لم يؤمن بهذا النبي الكريم.

وأضاف الدين إليهم لأنهم هم القائمون به المقيمون له بتوفيق منه سبحانه.

فشعورنا بإكمال الله لنا ديننا يجعلنا نفرح ونغتبط به ونشكر الله على هذه النعمة العظيمة، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه وعدم الزيادة والابتداع فيه.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾: تتمة كل شيء: ما يكون تمام غايته كقولك: هذه الدراهم تمام هذه المائة(٤).

وأفاد وصف النعمة بالتمام دوامها واتصالها لهم في هذه الدار وفي دار القرار وأتى

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٥٣).

(٣) «درء التعارض» (٧/ ٢٩٦).

(٤) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٦٠).

بـ(على) في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ المؤذنة بشمول نعمته على عباده.

قال ابن جرير: «وأتممْتُ عليكم نعمتي أيها المؤمنون بإظهَاركم علَى عَدُوي وعدوكم من المشركين، ونفيي إياهم عن بلادكم وقطعي طمعهم من رجوعكم وعودكم إلى ما كنتم عليه من الشرك»(١).

ومن تمام النعمة حَجُّكم بيت الله الحرام آمنين مطمئنين لم يخالطكم أحد من أهل الشرك(٢).

فكمل الدين من جهة الشرع بإيجابه ما أوجبه من الواجبات، وما حرم من المحرمات، وأتم الدين من جهة الفعل الذي هو تقويته لهم وإعانته ونصره إياهم على عدوهم.

﴿نِعْمَتِي﴾: نعمة الله منُّه وعطاؤه ومنه قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠]. قال ابن عباس: النعمة الظاهرة: الإسلام، والباطنة: ستر الذنوب(٣)، ولعل النعمة أعم من ذلك، ولكنه فسرها ببعض أجزائها.

وأضاف الله النعمة إليه لأنه هو المنعم بها فهي نعمته حقًا وهم الذين قبلوها بتوفيق منه سبحانه(٤).

وتنقسم النعمة من حيث التقييد والإطلاق إلى قسمين:

١ - **نعمة مطلقة:** وهي نعمة الإسلام والسنة. النعمة المتصلة بسعادة الأبد قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٨١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٢/ ١١).

(٣) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٠).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٢).

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:٦٩].

فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل النعمة المطلقة وأصحابها أيضًا هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[المائدة:٣].

وهي التي أشار الله إليها بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة:٦-٧]، فعلينا أن نلح على الله بطلبها كل حين.

٢- النعمة المقيدة: وهي النعمة المختصة بالدنيا كنعمة الصحة والعافية والمال والأمن والولد وما أشبه ذلك من النعم[١].

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾: رضي «الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدل على خلاف السخط»[٢]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ أي: رضيت لكم الاستسلام لأمري والانقياد لطاعتي دينًا رضيته لكم فلا أسخطه أبدًا.

ويستفاد من قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ أمران:

١- أن نرضاه لأنفسنا فنحبه بقلوبنا ونقوم بشرائعه شكرًا لله على ما هدانا له ومنَّ علينا به ونجعله منهجًا نسير عليه في حياتنا.

٢- أن نرضاه لغيرنا فندعوا الناس إليه ونرغبهم فيه.

(١) انظر: «الجيوش الإسلامية» (٣٤-٣٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٠٢).

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠- ٣١].

....

هذه الآية استدل بها الصديق رضي الله عنه على موت النبي مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران:١٤٤][(١)].

﴿إِنَّكَ﴾: إنَّ للتوكيد أي توكيد موته ﷺ والكاف للخطاب فالمخاطب هو رسول الله ﷺ.

﴿مَيِّتٌ﴾: الموت: «هو فراق الروح البدن»[(٢)]، وبه ينعدم تصرف الإنسان الذي كان يستطيعه أثناء حياته الدنيا. قال ﷺ: «**إذا مات الإنسانُ انْقَطَعَ عملُهُ إلَّا من ثلاثةٍ...**»[(٣)]، فهذا الحديث «دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان فدلّ ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلًا عن غيره، فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره»[(٤)].

ومعنى ميّت: بالتشديد أي: ستموتُ قال الحسن والفراء والكسائي: «الميّت بالتشديد هو من لم يمت وسيموت، أما بالتخفيف فهو من فارقته الحياة»[(٥)]، وقرئت «إنك مائت وإنهم مائتون»، ومائت في المستقبل كثير في كلام العرب[(٦)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «كشف غياهب الظلام» لابن سحمان (٢٣٤).

(٥) «معالم التنزيل» (٤/ ٧٨).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٥٤).

وقال ابن عاشور: «المراد بالميت هو الصائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتصف به في المستقبل تنبيهًا على تحقيق وقوعه»(١).

فقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: أي إنك يا محمد وإياهم ستموتون عما قريب(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء:٣٤].

والإخبارُ بموته ﷺ توطئةٌ ومقدمة له لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والتعقيب؛ وذلك أن الخصومة تكون بعد البعث الذي يعقب الموت.

﴿إِنَّكُمْ﴾: الضمير في إنكم عام يشمل المؤمن والكافر.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي يوم يقوم الناس لرب العالمين بعد نفخة الصور الأخيرة.

﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾:عند ظرف أي إذا التقيتم عند الله يوم القيامة.

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: قال ابن فارس: «خصم: الخاء والصاد والميم أصلان أحدهما المنازعة»(٣)، فالخصومة هي الجدل ورجل خصم أي مجادل شديد الخصومة، واختصموا أي تنازعوا على أمر فتجادلوا فيه كل يريد إثبات حقه على الآخر أو نفيه عنه(٤).

وهذه الخصومة عامة بين الناس يوم القيامة. قال ابن عباس: «يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر»(٥).

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٢٤/ ٢).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٧).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (١٤٢٤)، و«اللسان» (١٢/ ١٨٠).

(٥) «جامع البيان» (٢٤/ ١).

قال ابن كثير: «وهذه الآية وإن كان سياقتها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فإنها تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة»(١).

يوضحه الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر:٣٠-٣١]. قال الزبير: «أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حقٍّ حقه، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد»(٢).

واستدلال المؤلف بهذه الآية من أجود أنواع الاستدلال وذلك الأمور:

١- لما فيها من المؤكدات.

٢- لأن الصديق رضي الله عنه استدل بها على وفاة النبي ﷺ حين موته.

٣- أن الآية ذكرت ما يلقاه العبد بعد الموت.

٤- أن الآية بينت بعث الأجساد؛ لأن الاختصام يكون في الألسنة.

وقد دل الشرع والواقع على وفاة النبي ﷺ ومن ذلك:

١- موت جميع الأنفس قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٤-٣٥]. والنبي ﷺ أحد هذه الأنفس.

٢- بيان موت جميع الرسل السابقين وأن محمدًا ﷺ سيصيبه الموت كما أصابهم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٤].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٨٤).

(٢) أحمد (١/ ١٦٧)، والترمذي (٥/ ٣٧٠)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الزمر. رقم (٣٢٣٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

هذه الآية استدل بها أبو بكر على موت النبي ﷺ فقال: «من كان يعبُدُ محمَّدًا ﷺ؛ فإنَّ محمّدًا قد مات. ومنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ؛ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت»، ثم تلا هذه الآية.

قال ابن عباس: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»[١].

٣- كمال الدين وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيك؟**»، قال: يا رسول الله أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل؛ فإنه لم يكمل قط شيء إلا نقص، قال: «**صدقت**»[٢].

وذكره ابن كثير بلفظ: «فلما نزلت هذه الآية بكى عمر بن الخطاب فقيل له ما يبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان».

وعلق على بكاء عمر وقوله، فقال: «وكأنّه استشعر وفاة النبي ﷺ»[٣].

٤- نزول سورة النصر على رسول الله ﷺ:

وذلك كما يقول ابن عباس «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه» وأقره عمر على ذلك فقال: «ما أعلم منها إلا ما تعلم»[٤].

أما أدلة الواقع فكثيرة منها:

١- أن أفقه هذه الأمة الصديق رضي الله عنه لما رآه بعد موته أثبت موته وبكى. كما روت

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٥)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٥٤).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٠-٢٥١) رقم (١٦٢٥٥)، و«جامع البيان» (٦/ ٨٠).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ٦)، وقال: «رويناه من طريق جيد».

(٤) سبق تخريجه.

عائشة ﵂ قالت: «أقبل أبو بكر ﵁ على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ﵂، فتيمم النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، ثم بكى، فقال: «بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فَقَدْ مُتَّها»[(١)].

٢- اجتماع الصحابة ﵃ على غسله والصلاة عليه ودفنه، قال أنس ﵁ قال: «لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة ﵂ واكرب أباه فقال لها: «**ليسَ على أبيكَ كربٌ بعد اليومِ**»، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة ﵂: يا أنس! أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[(٢)].

ولو كان حيًا كحياته الدنيا ما كان مكانه تحت الأرض بل كان فوقها.

٣- مطالبة فاطمة ﵂ بميراثها من أبيها رسول الله ﷺ: فعن عروة بن الزبير أن عائشة أم المؤمنين ﵂ أخبرته أن فاطمة ﵂ ابنة رسول الله ﷺ سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه فقال لها أبو بكر إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورثُ، ما تركْناهُ صدقةٌ**»[(٣)]، ومطالبتها لميراثها من أبيها ﷺ تدل على جزمها بوفاته.

٤- ما روته عائشة من حالته عند موته قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبَّده رسول الله ﷺ

---

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١١٣)، كتاب «الجنائز»/ باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه. رقم (١٢٤١، ١٢٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٩)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٦٢).

(٣) سبق تخريجه.

بصره، فأخذت السواك فقضمته، ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استنانًا قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال «**في الرَّفيق الأعلى**» ثلاثًا، ثم قضى، وكانت تقول: «مات بين حاقنتي وذاقنتي».

وقالت رضي الله عنها لابن الزبير:«سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إليّ ظهره يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي وارحمني، وألحقني بالرَّفيق الأعلى**»(١).

٥- أن الصحابة رضي الله عنهم اجتمعوا واختاروا خليفة من بعده ولو كان حيًا كحياته الدنيا ما فعلوا ذلك.

٦- وقع بعض الإشكالات في بعض المسائل العلمية ولم يذهبوا إليه يسألونه عنها قال عمر رضي الله عنه : «ثلاث، وددت أن رسول الله ﷺ لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عهدا: الجَدّ، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا»(٢) ولو كان حيًّا كحياته الدنيا لذهبوا إليه وسألوه عنها.

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٣٨)، كتاب «المغازي»/ باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٣٨ و٤٤٤٠ و٤٤٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٥)، كتاب «الأشربة»/ باب ما جاء في أن الخمر ما خامر العقل من الشراب. رقم (٥٥٨٨).

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ.

....

ذكر المؤلف الناس فقط مع أن الحيوانات تبعث أيضًا. لأنهم هم المكلفون المجزيون بأعمالهم.

والبعث: هو الإثارة قال ابن فارس: «الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة. يقال بعثت الناقة إذا أثرتها»[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[العاديات:٩] أي أثير وأخرج[٢].

ومن الأسماء المرادفة للبعث (المعاد - النشور - القيامة)[٣].

واصطلاحًا: هو إخراج الناس من قبورهم أحياءً بعد إعادة أبدانهم وإدخال أرواحهم فيها.

حكم الإيمان بالبعث:

الإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان لا يصح إيمان عبد بدونه. عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس فأتاه رجل فقال: «ما الإيمان؟ قال: «**الإيمانُ أنْ تُؤْمنَ بالله وملائكتِهِ وبلقائِهِ ورُسُلِه، وتُؤمنُ بالبعثِ**»[٤]. وقد أجمع العلماء على ذلك. قال أبو حاتم الرازي وأبو زرعة الرازي: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا فكان من مذهبهم... والبعث بعد الموت حق»[٥] وكذلك نقل الإجماع غيرهما من

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٢٦٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (٢/ ٣٣٥).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ١٢٩ و٩/ ٣٦٠ و١١/ ٣٣٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٧٧).

العلماء(١).

أدلة البعث:

تظافرت الأدلة وتكاثرت وتنوعت وتعددت براهينها في إثبات البعث والمعاد، وصحة وقوعه، ووجوب الإيمان به، حتى نيفت على سبعمائة آية، وأما الأحاديث فلا تحصى إلا بمشقة، بل إن كل آية أو حديث تدل على ما يحصل بعد البعث من حشر وحساب وجزاء وجنة ونار وصراط وميزان ونحو ذلك فهو دال على البعث لأنه لا يمكن وقوعه إلا بعد البعث.

قال شيخ الإسلام: «ذكر الله في كتابه من دلائل المعاد وبراهينه ما لا يقدر أحد أن يأتي بقريب منه، وذكر فيه من أصناف الحجج ما ينتفع به عامة الخلق»(٢).

ويمكن حصر أدلة البعث في أربعة أنواع:

النوع الأول: الأدلة الخبرية المحضة:

أي ما ورد من الأدلة التي تخبر بوقوع البعث من دون مناقشات عقلية وهذه الأدلة وردت على صفات متنوعة هي:

١- الإخبار بأن الله سيحيينا بعد أن نموت. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾[الحج:٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون:١٦].

٢- عدم قبول اعتذار المجرم يوم البعث. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ

---

(١) انظر: «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٨٢)، و«منازل الأئمة الأربعة» (١٢٦)، و«الشرح والإبانة» (٢٠١)، و«العقيدة الواسطية» (١٩).

(٢) «درء التعارض» (٧/ ٣٧٤).

يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[الروم:٥٥-٥٧].

٣- إقسام الله على وقوعه:

أقسم الله بذاته المقدسة على وقوع البعث فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[النساء:٨٧].

اللام في قوله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هي لام القسم والنون للتوكيد، أي: والله ليبعثنكم من بعد مماتكم(١).

٤- ثناؤه على نفسه المقدسة ومدحه إياها بإعادة الخلق وبعثهم قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

٥- الإخبار بأن البعث موجبُ صفات الكمال له سبحانه. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥]. فأنكر هذا الظن لأنه يتضمن وصفه بما لا يليق به وإنكار موجب صفاته من البعث والجزاء(٢).

٦- أَمْرُ النبي ﷺ بالإقسام على وقوعه:

أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بالإقسام على وقوع البعثِ في ثلاث آيات من كتابه قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[يونس:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣].

والآية الثالثة آية التغابن التي سيذكرها المؤلف فيما بعد.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٥/ ١٩١)، و«معالم التنزيل» (١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) انظر: «الفوائد» لابن القيم (١٢-١٤).

٧- ذم المكذبين للبعث بخسرانهم وحسرتهم قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[الأنعام:٣١].

وشدة ضلالهم ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾[الشورى:١٨].

٨- زيارة المقابر قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾[التكاثر:١-٢].

قال عمر بن عبدالعزيز لما قرأ هذه الآية «ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بُدٌّ من أن يرجع إلى منزله»[1].

وقال السعدي: «سماهم الله زائرين ولم يسمهم مقيمين فدل ذلك على البعث والجزاء»[2].

٩- النفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[الزمر:٦٨]. والنفخ في الصور سبب لحياتهم من جديد وبعثهم من قبورهم، وكل ما ورد فيما يكون بعد البعث من ذكر الحشر والميزان وتطاير الصحف والنار والصراط والجنة والقنطرة وغير ذلك.

النوع الثاني: دليل الوجود والعيان (دليل الحس والمشاهدة):

ما يشاهده الناس في حياتهم من أعظم الأدلة الدالة على البعث، وذلك أنه لا أدل على إمكان الشيء من وجوده، ومن ذلك:

١- قصة بني إسرائيل الذين طلبوا رؤية الله في الدنيا فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[البقرة:٥٥-٥٦].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٦٠) رقم (١٩٤٥٥)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٣١٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٩٣٣).

٢- قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل عند موسى وفيها قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٧٣].

٣- القوم الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٤٣].

٤- إحياء الطيور التي ذبحهن إبراهيم عليه السلام وقطعهن وخلط أجزاء بعضهن مع بعض ثم فرق أجزاءهن على الجبال وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠].

٥- إماتة الرجل الذي مر بالقرية الهامدة فاستبعد حياتها من جديد فأماته الله مائة عام، وأمات حماره معه، ثم بعثه وبعث حماره، وفي ذلك يقول الرب تبارك وتعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ...﴾ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٥٩].

النوع الثالث: دليل الاعتبار والقياس بطريق الأولى:

وقد ورد هذا النوع بعدة صور هي:

١- قياس البعث على إحياء الأرض الميتة قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف:٥٧].

وفي آية فاطر: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[فاطر:٩] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ

ٱلْخُرُوجُ﴾[ق:٩-١١] أي كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعدما كانوا رفاتًا متمزقين فمنكر البعث استبعادًا له مع أنه يرى ما هو نظيره من باب العناد وإنكار المحسوسات(١).

فدلهم سبحانه بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه.

٢- أن القادر على الخلق قادر على الإعادة من باب أولى قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

ولما اعترض ذلك المشرك على البعث استبعادًا له جاء الرد عليه بأن الذي خلقه أول مرة قادر على إعادته فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس:٧٨-٧٩].

قال الشنقيطي: «ولأجل قوة دلالة هذا البرهان المذكور على البعث بيَّن جل وعلا أن من أنكر البعث فهو ناسٍ للإيجاد الأول كقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾»(٢).

٣- أن قدرة الله على خلق الأعظم دليلٌ على قدرته على ما هو دونه من باب أولى:

وذلك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر:٥٧].

فلما كان خلق الناس أصغر وأقل شأنًا من خلق السموات والأرض صار خلقهما دليلًا على بعث الناس من قبورهم كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٢٩).

(٢) «أضواء البيان» (٥/ ١٩-٢٠).

وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡیَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[الأحقاف:٣٣].

٤- إمكان إيجاد الشيء من نقيضه دال على إحياء الموتى: النار ذات حرارة ويبوسة، والشجر الأخضر ذو رطوبة وبرودة فإذا أخرج الله النار الحارة اليابسة من الشجر الأخضر الرطب البارد مع تضادهما فإخراجه للموتى من قبورهم من باب أولى.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾[يس:٧٨-٨٠].

«فالقادر على أن يخلق من الشجر الأخضر نارًا أولى بالقدرة أن يخلق من التراب حيوانًا فإن ذلك معتاد»[١].

النوع الرابع: دليل الأسماء والصفات:

معرفة أسماء الله وصفاته من أبين الأدلة على البعث وذلك أن الله سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته.

فأما تقريره بذكر كمال علمه فكما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾[يس:٧٩].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾[ق:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[سبأ:٣].

«فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٣٤).

الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط»[(١)].

وأما تقرير كمال قدرته فببيان سهولة البعث ويسره عليه سبحانه فقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[التغابن:٧] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة:٤].

وأما تقرير كمال حكمته ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

فمن كمال حكمته أن يعيد الناس مرّةً أخرى فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته[(٢)].

كيفية البعث:

يفنى جسم الإنسان وتتحلل أجزاءه ولا يبقى منها إلا عَجْبُ الذَّنَبِ فينزل الله مطرًا كمني الرجال فينبت الناس كما ينبت البقل حتى تكتمل أجسادهم، ثم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة القيام فيقوم الناس لرب العالمين، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[فاطر:٩].

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي «الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزقهم البلى فيسوق إليهم مطرًا كما ساقه إلى الأرض الميتة فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم»[(٣)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٧٥).

(٢) انظر لأدلة البعث: «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٣٢-٣٥)، و(٧/ ٣٧٤-٣٨١)، و«إعلام الموقعين» (١/ ١٣٨-١٤٨)، و«الفوائد» (٦-٧) وغيرها.

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٠٤-٨٠٥).

ويوضحه قول النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النَّفْخَتين أربعُون**»، قال: أربعون يومًا؟ قال: «**أبيتُ**»، قال: أربعونَ شهرًا؟ قال: «**أبيت**» قال: أربعون سنةً؟ قال: «**أبيت**». قال: «**ثُمَّ يُنْزِلُ الله من السَّماءِ ماءً، فَيَنْبُتُونَ كما يَنْبُتُ البقلُ ليس من الإنسان شيءٌ إلَّا يبلى إلَّا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُرَكَّبُ الخلقُ يوم القيامةِ**»(١).

وفي رواية: «**يُنْزِلُ اللهُ مطرًا كأنّهُ الطَّل أو الظلّ (نعمان الشاك)، فَتَنْبُتُ منه أجسادُ النّاسِ...**»(٢).

قال النووي: «والأصح الطل بالمهملة وهو الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجال»(٣).

بعث الأجساد:

بيّن الله في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ أمر معاد الأجساد والأرواح بيانًا في غاية التمام والكمال(٤).

أدلة ذلك كثيرة منها:

١- بعث الإنسان بنفس أجزائه التي كان عليها في الدنيا: قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٨٩-٦٩٠)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾. رقم (٤٩٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب ما بين النفختين. رقم (٢٩٥٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٢٥٨-٢٢٥٩)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض. رقم (٢٩٤٠).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٩/ ٣٣١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٤).

خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[الأنبياء:١٠٤].

«الإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة. والمعاد هو الأول بعينه»(١).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨].

قال السعدي: «أي قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح وشخصت أبصارهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم»(٢)، ثم يسيرون مسرعين إلى أرض المحشر. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[يس:٥١].

٢- بعث الإنسان بنفس حاله التي مات عليها، ويدل لذلك حديث الذي وقصته راحلته وهو محرم فقال رسول الله ﷺ: «**اغسلُوهُ بماءٍ وَسِدْرٍ وكفِّنُوهُ في ثُوبَيْهِ، ولا تُخَمِّروا رأسَهُ، فإنَّ اللهَ يبعثه يومَ القيامةِ مُلَبِّيًا**»، وفي رواية: «**ولا تمسُوهُ بطيبٍ؛ فإنَّهُ يُبعثُ يوم القيامةِ ملبدًا**» وفي رواية: «**فإنَّهُ يُبْعث يوم القيامة وهو يهلُّ**»(٣) والتلبية والتهليل والتلبيد صفات وأفعال الإنسان الحي بروحه وجسده.

وقوله: «**لا تُخَمِّروا رأسَهُ**» دليل على أن الرأس نفسه هو الذي يعاد مرة أخرى ففيه دليل على إعادة أبدان العباد نفسها.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٥٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ١٣٧)، كتاب «الجنائز»/ باب كيف يكفن المحرم. رقم (١٢٦٧، ١٢٦٨)، ومسلم (٢/ ٨٦٥-٨٦٧)، كتاب «الحج»/ باب ما يفعل بالمحرم إذا مات. رقم (١٢٠٦)، واللفظ له.

٣- شهادة جوارح الإنسان عليه:

شهادة جوارح الإنسان عليه من أبين الأدلة على إعادة جسد العبد نفسه مرة أخرى. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠-٢٢].

هذه الآية دليل على بعث أجساد الناس من وجهين:

أ- أن الله أضاف السمع والأبصار والأيدي والأرجل والجلود إليهم، فدل على أنها هي جلودهم التي كانت في الدنيا ولذلك قبلت شهادتها.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: «**هل تدرُونَ ممَّ أضْحَكُ؟**»، قال: قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم. قال: «**من مُخاطبةِ العبدِ ربَّهُ يقولُ: يا ربِّ! ألَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقُولُ: فإنِّي لا أُجِيزُ على نفسي إلَّا شاهدًا منِّي، قال: فيقولُ: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرامِ الكاتبين شهودًا، قال: فيُختمُ على فيه، فيقالُ لأركانه: انْطِقِي، قال: فَتَنْطُقُ بأعماله. قال: ثمَّ يُخَلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْدًا لكنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كنتُ أُناضِلُ**»[1].

ب- أن المقام مقام إظهار العدل فلا يمكن أن تشهد بما لم تعمل، فدل نطقها واعترافها بالعمل الذي باشرته أنها هي نفسها التي كانت في الدنيا.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٨٠ - ٢٢٨١)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٦٩).

٤- **عقوبة الجوارح**: عقوبةُ أجزاء البدن يوم القيامة في النار دليلٌ واضح على بعث الأجساد التي كانت في الدنيا كما قال تعالى عن عقوبة مانعي الزكاة ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة:٣٥] إذ كيف تعذب أجساد لم تعص.

ولذلك أجمع عليه أهل السنة والجماعة.

قال أبو الحسن الأشعري: «وأجمعوا على أن الأجساد التي أطاعت وعصت هي التي تبعث يوم القيامة»[١].

وقال شيخ الإسلام: «ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين واليهود والنصارى»[٢].

---

(١) «رسالة إلى أهل الثغر» (٢٨٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢)، و«الجواب الصحيح» (٦/ ١٠)، وانظر: «إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات» للشوكاني (١٠-١٤).

والدليل قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه:٥٥]. **وقوله تعالى:** ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[نوح:١٧- ١٨].

....

﴿مِنْهَا﴾: الضمير يعود إلى الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾: أي أن الله خلقنا أول مرّة من الأرض فأنشأنا أجسامًا ناطقة، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[الحج:٥] وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[الروم:٢٠].

قال الشنقيطي: «والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منه، ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعًا له في الخلق صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب»(١).

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾: أي بعد موتكم نعيدكم في الأرض فنصيركم ترابًا كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرًا سويًا.

«وجاء بـ «في» دون «إلى» للدلالة على الاستقرار»(٢).

قال قتادة: «خلقكم من التراب وإلى التراب تعودون»(٣).

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾: أي من الأرض نخرجكم يوم القيامة فننشئكم منها كما أنشأناكم أول مرّة ونرد عليكم أرواحكم وهذا إخراج ليس بعده وفاة.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي مرّة أخرى يوم بعثكم إذا نفخ في الصور النفخة الثالثة.

وفي هذه الآية دلالة صريحة على بعث الأجساد ورد الأرواح إليها كما كانت قبل الموت(٤).

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٤٢٤).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٣٧٠).

(٣) «الكشف والبيان» (٤/ ٢٢٨).

(٤) انظر: «فتح القدير» (٣/ ٣٧٠).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي والله أنشأكم من تراب الأرض فخلقكم منه و«استعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين»[1]. وقيل: جعلكم تنبتون نباتًا.

﴿نَبَاتًا﴾: اسم جعل في موضع المصدر أي إنباتًا[2] كأنه قال: أنبتكم فنبتُّم نباتًا والنبات ما يخرج حالًا بعد حال.

﴿ثُمَّ﴾: تفيد التراخي والترتيب.

﴿يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾: أي يعيدكم في الأرض بعد موتكم وتصيرون ترابًا كما كنتم.

﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ﴾: أي يخرجكم أحياءً ببعثكم (يوم القيامة).

﴿إِخۡرَاجًا﴾: أكد الإخراج بالمصدر ليدل على أن ذلك واقع لا محالة.

وميزة هذين الدليلين أن الله ذكر فيهما الدور الثلاث وهي الدنيا، فقال: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثم دار البرزخ فقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ ثم ذكر الدار الآخرة التي تكون بعد النفخ في الصور، فقال: ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[طه:٥٥].

وأما الدليل الثاني: فإن الله قال عن الدنيا: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا﴾، وعن البرزخ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾، وعن الآخرة قال: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجًا﴾.

---

(١) «فتح القدير» (٦/ ٢٩٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٨/ ٢٣١).

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ.

....

وقبل الحديث عن الحساب يحسن ذكر حالة الناس عند استلام صحف أعمالهم، وبِمَ يستلمونها؟

فَأَمَّا المؤمِنُون: فيأخذون صحفهم بأيمانهم فرحين بها تكرمةً من الله تعالى لهم. قال تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[الانشقاق:٧-٩] بل ومن شدة فرحه بها يدعو الناس ليقرؤوها، مع أن كلًّا منهم مشغول بنفسه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾[الحاقة:١٩].

وَأَمَّا الكُفَّار: فيستلمون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم أسفين حزنين، داعين على أنفسهم بالويل والثبور.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾[الحاقة:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾[الانشقاق:١٠-١١].

والحكمة من كونهم يستلمون صحفهم بشمائلهم من وراء ظهورهم: لأنهم لما استدبروا كتاب الله، وولَّوا ظهورهم إياه في الدنيا صار من العدل أن تُجعل كتب أعمالهم يوم القيامة خلف ظهورهم فتخلع أيديهم الشمال حتى تكون من الخلف(١).

الحساب لغة: العدُّ والإحصاء بالدقة التامة دون زيادة أو نقصان(٢).

اصطلاحًا: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

---

(١) «شرح الواسطية» للعثيمين (٢/ ١٥١).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٢٨-٣٣٦).

أدلة إثبات الحساب كثيرة وجاءت بصيغ متعددة ومنها:

١- بيان سرعة الله للحساب قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[إبراهيم:٥١].

٢- كفايته في الحساب قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

٣- بيان يسره على بعض الناس قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧-٨].

٤- بيان سوئه على بعض الناس قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[الرعد:١٨].

٥- مدح الذين يخافون هول الحساب وسوءه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد:٢١].

٦- توعد من نسيه بالعذاب الشديد قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

وقت الحساب: هو يوم القيامة بعد أن يخرج الناس من قبورهم ويحشرون لفصل القضاء، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[الفجر:٢٢-٢٣] أجمع أهل العلم أن مجيء الله لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة بدليل قوله: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ فإن المجيء بجنهم لا يكون في الدنيا وإنما يكون يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦].

وحديث عائشة أَنَّ النبي ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يُحاسبُ يوم القيامةِ إلَّا هلكَ**...»[(١)].

وحديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوّلَ ما يُحاسبُ به العبدُ يوم القيامةِ من عملِه صلاتُه، فإنْ صلَحَتْ فقد أفلح وأنْجَحَ**»[(٢)].

المحاسب للخلق:

دلت الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن المحاسب للخلق هو الله وحده تبارك وتعالى ومن ذلك:

قوله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ في شأن الذين لم يقبلوا هدى الله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[الرعد:٤٠] فجعل سبحانه مهمة البلاغ إلى النبي ﷺ وأما الحساب فجعله من شأنه وحده.

وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[الغاشية:٢٥-٢٦] ووصف حسابه لعباده بالسرعة فقال: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[النور:٣٩].

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٤٠٠)، كتاب «الرقاق»/ باب من نوقش الحساب عذب. رقم (٦٥٣٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤)، كتاب «الجنة وصفة نعيمها»/ باب إثبات الحساب. رقم (٢٨٧٦).

(٢) الترمذي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠)، كتاب «الصلاة»/ باب ما جاء في أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة. رقم (٤١٣)، وقال: «حديث حسن غريب من هذاالوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي هريرة، وفي الباب عن تميم الداري»، والنسائي (١/ ٢٣٢)، كتاب «الصلاة»/ باب المحاسبة على الصلاة، ولهذا الحديث طرق كثيرة، انظر: «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٢١٠-٢١٦)، منها: ما رواه النسائي (١/ ٢٣٤)، كتاب «الصلاة»/ باب المحاسبة على الصلاة، وأحمد (٤/ ٦٥)، ولكن بدلاً من (أبي هريرة): «رجل من أصحاب النبي ﷺ»، قال ابن رجب: «إسناده جيد». «فتح الباري» (٣/ ٣٦١).

أي حسابهم واقع لا محالة، وكلّ واقع فهو سريع، وسرعة حساب الله أنه لا يشغله حساب أحد عن آخر؛ لأنه لا يشغله سمعٌ عن سمع ولا شأنٌ عن شأن ومن السنة قوله ﷺ: **«ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلِّمُهُ ربُّهُ ليس بينه وبينه ترجمانٍ، فَيَنْظُرُ أيمَنَ منه فلا يرى إلّا ما قَدَّم من عملِه، وينْظُرَ أشأَمَ منه فلا يرى إلّا ما قدّمَ، وينظُر بين يديهِ؛ فلا يرى إلّا النّارَ تلقاءَ وجهه، فاتَّقُوا النّار ولو بشقِّ تمرةٍ»**[(١)].

وقوله ﷺ: **«إنَّ اللهَ يُدْنِي المؤمنَ فيضع عليهِ كنفَهُ ويسْتُرُهُ فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا، فيقول: نعمْ؛ أيّ ربِّ، حتَّى إذا قرّرهُ بذُنوبه، ورأى في نفسِهِ أنّهُ هلك، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا وأنا أغفرُها لك اليومَ، فيُعْطَى كتاب حسناتِه، وأمَّا الكافِرُ أو المُنافِقُ فيقولُ الأشهادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]**»**[(٢)].

وقد اتفق العلماء «على أن الله سبحانه يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة في حالة واحدة»[(٣)] وقوله في حالة واحدة أي في ساعة واحدة[(٤)].

وحساب الناس على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المؤمنون الخُلَّصُ وهؤلاء لا يحاسبون لما ورد في حديث السّبْعِينَ ألفًا: **«أنَّهم يدخلونَ الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذابٍ»**[(٥)].

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٧٤)، كتاب «التوحيد»/ باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. رقم (٧٥١٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤)، كتاب «الزكاة»/ باب الحث على الصدقة. رقم (١٠١٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «رسالة السجزي لأهل زبيد» (١٦٨) وانظر: أصول السنة» لابن أبي زمنين (١١٧)، و«منازل الأئمة الأربعة» (١٢٢)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٨٦).

(٤) «درء التعارض» (٤/ ١٢٩-١٣٠).

(٥) سبق تخريجه.

الصنف الثاني: بقية المؤمنين دون السبعين ألفًا فهؤلاء يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته فترجح إحداهما بالأخرى، والموزون هو الأعمالُ والعامل والصحف.

ويدل على وزن الصحف قولُ النبي ﷺ: «**إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيُنْشَرُ عليه تسعةٌ وتسعون سِجِلًّا، كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا، أظلمتك كتبتي الحافظون، قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة، فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنةً واحدة لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيءٌ**»[١].

أما وزن العامل فيدل له قول النبي ﷺ: «**إنَّه لَيُؤْتَى بالرَّجُلِ العظيم السَّمينِ يوم القيامةِ لا يزنُ عند الله جناح بَعُوضةٍ**»، وقال: اقرءوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف:١٠٥][٢].

---

(١) أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٥/ ٢٤-٢٥)، كتاب «الإيمان»/ باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. رقم (٢٦٣٩)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، كتاب «الزهد»/ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة. رقم (٤٣٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٤٦١) رقم (٢٢٥)، و«جزء في البطاقة» للكتاني (٣٤)، وقال: «ولا أعلمه روي عن غير الليث بن سعد، وهو من أحسن الأحاديث»، قال الذهبي: «إسناده جيد». «معجم الشيوخ» (١/ ١١٤)، وقال ابن ناصر الدمشقي: «حديث جيد الإسناد». «منهاج السلامة في ميزان القيامة» (٥١).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٢٦)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾. رقم (٤٧٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧)، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار». رقم (٢٧٨٥).

وحديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه «أنّه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكانَ دقيق الساقينِ فجعلتْ الرّيحُ تكفؤه، فضحكَ القوم منه فقال رسول الله ﷺ: «مِمَّ تضحكون؟»، قالوا: يا نبيّ الله! مِنْ دقّة ساقيهِ، فقال: «**والّذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزانِ من أُحُدٍ**»[(١)].

أما وزن العمل: فيدل له قول النبي ﷺ: «**كلمتانِ خفيفتانِ على اللّسان ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرّحمنِ: سبحانَ الله العظيمِ، سبحانَ الله وبحمدِه**»[(٢)]، وقول النبي ﷺ: «**الحمدُ لله تملأُ الميزان**»[(٣)] وقوله ﷺ: «**ما مِنْ شيءٍ أثقلُ في الميزان من حُسْنِ الخُلُقِ**»[(٤)]. وفي رواية: «**وليس شيءٌ أثقل في الميزان من حسن الخلق**»[(٥)].

قال ابن باز: توزن الأعمال والصحف والعامل ولكن الثقل والخفة بحسب العمل[(٦)].

---

(١) أحمد (١/ ٤٢٠-٤٢١)، قال ابن كثير: «إسناده جيد قوي». «النهاية في الفتن والملاحم» (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٣٧)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن. رقم (٧٥٦٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢)، كتاب «الذكر»/ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء. رقم (٢٦٩٤).

(٣) مسلم (١/ ٢٠٣)، كتاب «الطهارة»/ باب فضل الوضوء. رقم (٢٢٣).

(٤) أحمد (٦/ ٤٤٦)، و«الأدب المفرد» (١٠٠) رقم (٢٧٠)، وأبو داود (٥/ ١٤٩-١٥٠)، كتاب «الأدب»/ باب في حسن الخلق. رقم (٤٧٩٩). قال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٠٦).

(٥) أحمد (٦/ ٤٥١)، والترمذي (٤/ ٣٦٢-٣٦٣)، كتاب «البر والصلة»/ باب ما جاء في حسن الخلق. رقم (٢٠٠٢)، وقال: «وفي الباب عن عائشة، وأبي هريرة، وأنس، وأسامة بن شريك، وهذا حديث حسن صحيح».

(٦) «شرح الواسطية» المطبوع مع «التنبيهات اللطيفة» (٤٠).

الصنف الثالث: هم الكفار قال بعض أهل العلم: إنهم يحاسبون واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المؤمنون:١٠٣] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة:٨-٩].

وقيل: لا يحاسبون واستدلوا بقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[الرحمن:٤١] فقيل: إنهم لم يحاسبوا، بل حملوا وأخذوا بالنواصي والأقدام، وفي الحديث: «**أمَّا الكافرون والمنافقُون فيقول الأشهادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:١٨]»(١).

وجمع بين هذين القولين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «وفصل الخطاب أن الحسابَ يُرادُ بِهِ عرضُ أعمالِهم عليهم وتَوبيخهم عليها ويراد بالحساب موازنةُ، الحسناتِ بالسّيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأولُ فلا ريب أنهم يُحاسبون بهذا الاعتبار، وإنْ أريد بالمعنى الثاني فإن قُصد بذلك أنّ الكفّار تبقى لهم حسناتٌ يستحقون بها الجنّة فهذا خطأٌ ظاهرٌ، وإنْ أريد أنهم يتفاوتون في العقاب فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته، ومن كان له حسناتٌ خُفِّف عنه العذاب، كما أَنَّ أبا طالبٍ أخفُّ عذابًا من أبي لهب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾[النحل:٨٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[التوبة:٣٧] والنار دركات فإذا كان بعض الكفار عذابه أشدُّ عذابًا من بعض لكثرة سيئاته وقلّة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخولهم الجنة»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٠٥-٣٠٦).

ثمرات الإيمان بالحساب والجزاء:

للإيمان بالحساب والجزاء ثمرات عظيمة يجدها المسلم في نفسه أو في غيره.

ومن لم يجد هذه الثمرات أو بعضها فإنما ذلك لخلل في إيمانه ومن هذه الثمرات:

١- إخلاص العمل لله:

من أيقن بالحساب والجزاء أوجب له ذلك إخلاص العمل؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا. قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**من عملَ عملًا أشرك فيه معي غيري تركْتُهُ وشركَهُ**»(١).

قال الحسن ؒ: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّهِ، فإنه ليس من عبدٍ يعمل حتى يَهِمَّ فإن كان خيرًا أمضاهُ، وإن كان شرًّا كفَّ عنه»(٢).

٢- الحياء من الله:

إذا استشعر العبدُ أَنَّ الله سيسأله عن غدراته وفجراته أوجب له ذلك الحياء منه ومن ثم ابتعد عن الذنب. قال علقمة بن مرثد لما احتضر الأسود بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: مالي لا أجزع والله لو أُتيت بالمغفرة من الله لأهمَّني الحياء منه مما قد صنعت. إنّ الرجلَ ليكون بينه وبين آخر الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحييًا منه»(٣).

٣- فعل الطاعات والحرص عليها:

من علم أَنَّ الله قد أحصى عليه كل شيء وسيخبره بها كلها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦] وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧] أوجب له ذلك فعل الطاعة حذرًا من الحساب، قال علي بن أبي طالب

(١) سبق تخريجه.

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٩٨) رقم (١٧٠٣٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢).

رضي الله عنه: «ارْتَحَلت الدُّنيا مُدبرةً، وارتحلت الآخرةُ مُقبلة، ولكلّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكونُوا من أبناء الآخرةِ، ولا تكونوا مِنْ أبناءِ الدُّنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حسابٌ ولا عملٌ»(١).

وقال سهل بن عبدالله: «المؤمن مَن راقبَ ربهُ وحَاسَب نفسه وتزوّد لمعاده»(٢).

٤ - البعد عن المعاصي:

من أخطر ما يضر العبدَ المعاصي فإنّ لها من الله طالبًا قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٨]، والمعاصي خَطِرةٌ على المسلم، وإن كانت من الصغائر.

ولخطورتها حذر منها النبي ﷺ فقال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزَتهم، وإنّ محقرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تُهْلِكُهُ**»(٣).

وقال ﷺ محذرًا أمنا عائشة رضي الله عنها: «**إيّاكِ ومُحَقّراتِ الذُّنُوب؛ فإنَّ لها من الله طالبًا**»(٤).

وقال عمر رضي الله عنه محذرًا أحد عماله من أن تَغُرَّه الإمارة فيتبع هواه «حاسِب نَفسكَ في الرّخاءِ قبل حساب الشدّة فإنه من حاسبَ نفسه في الرّخاءِ قبل حساب الشّدة عاد مرجعه إلى الرضى، ومن ألهته حياته وشغلتْهُ أهواؤُهُ عاد أمرُه إلى النّدامةِ والحسرة»(٥).

---

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٢٣٥)، كتاب «الرقاق»/ باب في الأمل وطوله.

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٧).

(٣) أحمد (٥/ ٢٣١)، قال المنذري: «رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣١٢)، وقال ابن حجر: «أخرجه أحمد بسند حسن». «فتح الباري» (١١/ ٣٢٩).

(٤) أحمد (٦/ ٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الذنوب. رقم (٤٢٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠/ ٣٩٢) رقم (١١٨١١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٤٥) رقم (٦١٥١).

(٥) «محاسبة النّفسِ» لابن أبي الدنيا (٥٩).

٥- القناعة بالرزق:

وذلك بعلمه أَنّ حلال الدنيا حسابٌ وأَنّ حرامها عذاب فيكتفي بما يكفيه من النفقة لكي يسهل عليه الحساب وذلك أن مَنْ قلت دنياه خف حسابه، قال ﷺ: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: «**المهاجرون يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أَوَ قَدْ حوسبتم، فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك، قال: فيفتح لهم فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس**»(٢).

٦- محاسبة النفس في هذه الدنيا:

أمر الله بمحاسبة النفس في هذه الدنيا ليخف حساب الآخرة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[الحشر:١٨].

ولقد فقه السلف هذه الآية فصار ديدنهم محاسبة أنفسهم في الدنيا؛ لأجل أن يخف حسابهم في الآخرة ومن أقوالهم في ذلك:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حاثًا على المحاسبة: «حاسبُوا أنفُسَكُمْ قبل أن تُحاسبوا وزنُوا أنفُسَكم قبل أن تُوْزَنوا؛ فإنَّهُ أهونُ عليكم في الحساب غدًا أن تُحاسبوا أنفُسَكُم، وتزَيّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»(٣).

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٨٥)، كتاب «الزهد والرقائق». رقم (٢٩٧٩).

(٢) «المستدرك» للحاكم (٢/ ٨٠)، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الألباني: «على شرط مسلم». «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٣٢-٥٣٣) رقم (٨٥٣).

(٣) «الزهد» لأحمد (١٤٩)، و«محاسبة النفس» (٢٢).

وقال الحسن البصري مبينًا حال المؤمنين في المحاسبة عند قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[القيامة:٢] «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟»[1].

وقال الفضيل بن عياض: «المؤمن يحاسب نفسه ويعلم أَنَّ له موقفًا بين يدي الله تعالى، والمنافق يغفل عن نفسه فرحم الله عبدًا نظر لنفسه قَبْلَ نزول الموت»[2].

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون الرجلُ نقيًّا حتى يحاسب نفسَه محاسَبة شريكِهِ، وحتى يعلم مِنْ أين ملْبَسُه ومطعمه ومشربه»[3].

٧- سرعة التوبة إلى الله:

من آمن بالحساب غدًا قاده ذلك إلى الإسراع بالتوبة؛ لعل الله أن يَعْفُوَ عنه.

قال الحسن البصري: «إن المؤمن قوامٌ على نفسه يحاسب نَفْسَه لله عز وجل، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إنَّ المؤمن... يفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا مالي ولهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدًا»[4].

---

(١) «محاسبة النفس» (٢٤).

(٢) «تاريخ بغداد» (٤/ ١٨٤).

(٣) «الزهد» لوكيع (٢/ ٥٠١-٥٠٢) رقم (٢٣٩).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (١٠٣) رقم (٣٠٧)، و«محاسبة النفس» (٣٢)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٥٧).

وَمجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم. والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾[النجم:٣١].

....

الجزاء: الجزاء هو المكافأة على الشيء ثوابًا أو عقابًا(١).

ففي العقاب جزاؤه أي: عقوبته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[يوسف:٧٤] أي فما عقوبته إن كنتم كاذبين وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾[سبأ:١٧]. فيكون جازاه بذنبه: أي عاقبه عليه بما يستحق ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأعراف:٤١].

وفي الثواب: جازاه على طاعته: أي: أثابه عليها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[الإنسان:١٤]. ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٥].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الصافات:٧٩-٨٠].

وجمع الله الجزائين بقوله: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾[النساء:١٧٢-١٧٣].

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١١/ ١٤٢) (جزى) و«القاموس المحيط» (١٦٤٠).

أدلة إثبات الجزاء من الكتاب والسنة كثيرة جدًا وجاءت بصيغ متعددة منها:

١- بيان كيفيته وصفته:

ذكر الله صفة جزاء المجرمين فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[إبراهيم:٤٩-٥١]. وبيَّنها رسول الله ﷺ، فقال: «**ما من صاحب ذهبٍ ولا فضَّةٍ لا يُؤدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائحُ من نارٍ، فأحمي عليها في نار جهنَّم، فَيُكْوَى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أُعِيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»، قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: «**ولا صاحب إبل لا يُؤدِّي منها حقَّها، ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلًا واحدًا، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها ردّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...**»[1].

٢- بيان توفية العبد جزاء ما عمل:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[النجم:٣٩-٤١].

٣- تهديد الكافر به:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٢٩]، وقال:

---

(١) مسلم (٢/ ٦٨٠)، كتاب «الزكاة»/ باب إثم الزكاة. رقم (٩٨٧).

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[الأنعام:١٥٧].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٣٨-٣٩].

وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الزمر:٧١]، فهذا مختص بالكفار وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال(١).

٤- إطماع المؤمنين بالجزاء الحسن:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الزمر:٣٣-٣٥].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:١٦-١٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[المؤمنون:١١١].

٥- أن الجزاء هو مقتضى العدل والحكمة:

وذلك أن الله فرّق بين المحسن والمسيء فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

الحكمة من الحساب والجزاء: هو إظهار كمال عدل الله تعالى وفضله فأمّا عدْلُه فحيث

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٩٣).

يثيب المحسن على إحسانه ويقتص للمظلوم من ظالمه. وأما إظهار فضله فحيث يعفو عمن يشاء من عباده.

واكتفى المؤلف بذكر دليل الجزاء؛ لأن الجزاء هو ثمرة الحساب ونتيجته، فإذا ثبت الجزاء ثبت الحساب من باب أولى.

ولما كان المجازي بالعدل لا بُدّ له من الاتصاف بكمال العلم وتمام الملك أثبتهما الله لنفسه قبل ذكر الجزاء فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[النجم:٣٠]، فأثبت كمال العلم، ثم قال بعدها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأثبت تمام الملك.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو استئنافية. لله جار ومجرور خبر مقدم يفيد الاختصاص، أي: أنه سبحانه هو المتفرد بالملك والتدبير؛ فيتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه ليس لهم خيار في ذلك.

﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي لله ما في السموات والأرض ملكًا، كما أنه المنفرد بها خلقًا وإيجادًا، قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الغني عما سواه الحاكم في خلقه بالعدل»(١).

﴿لِيَجْزِىَ﴾: اللام هنا للتعليل(٢). قال البغوي: «اللام في قوله ليجزي متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾[النحل:١٢٥]؛ لأنه إذا كان أعلم بهم جازى كلًا بما يستحقه»(٣).

﴿أَسَٰٓـُٔوا۟﴾: السُّوءُ وصف لكل قبيح، ومنه سميت النار سوأى لقبح منظرها قال تعالى:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣١٣).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٢٧/ ١٢٣).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٢٥٢).

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾[الروم:١٠](١)، فيكون معنى ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾: أي عملوا المعاصي وأعظمها الشرك، فقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾، أي يعاقب الذين عصوه.

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾: الباء للسببية أي بسبب أعمالهم، أو تكون للمثلية أي بمثل أعمالهم، ولا منافاة بين الأمرين، فعقوبتهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم والجزاء من جنس العمل.

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾: أي يثيب الذين أحسنوا، كما في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام:١٦٠] فضاعف إثابة الحسنة إلى عشر أمثالها. «وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين»(٢).

﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾: هم المؤمنون الذين أحسنوا بفعل الطاعات التي أعلاها وأعظمها وأساسها هو التوحيد وجمعوا مع ذلك البعد عن المحرمات واجتنابها وبذلك وصفهم الله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢].

﴿بِٱلْحُسْنَى﴾: أي إثابتهم بالحسنى وهي الجنة التي فيها النعيم المقيم وأعلاه النظر إلى رؤية الرب الكريم جَلَّ وعلا.

فائدة: لما ذكر الله جزاء المسيء قال: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهذا جزاء بالعَدْلِ إن لم يعفُ عنهم. ولما ذكر جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضُّل، وتدل على الكرم والزيادة للمحسن، فقال: ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾؛ فجازى المسيئين بالعَدْل وجازى المحسنين بالفضل.

---

(١) انظر: «العين» (٧/ ٣٢٧)، و«مختصر الصحاح» (٣٢٦).

(٢) «روح المعاني» (١٤/ ٦٠).

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَر.

....

مَنْ: شرطية. كذّب فعلها وجوابها كفر، ومعنى كلام المؤلف أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بالبعث فهو كافر ولو آمن بأركان الإيمان الأخرى، ولو صلى وصام، وزعم أنه مسلم، والكذب خلاف الصدق والتكذيب ضد التصديق وكانت العرب تقول كذّبت الرجل إذا نسبته للكذب(١).

والتكذيب بالبعث: عدم تصديق خبر الله بوقوعه.

وسبب تكذيبهم بالبعث هو جهلهم الشديد بقدرة الله حيث قاسوا قدرة الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء بقدرتهم الضعيفة، فظنوا أنَّ البعث محال فأنكروه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾[الإسراء:٤٩].

قال السعدي: «فجهلوا أشدَّ الجهل حيث كذّبوا الرسل وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك»(٢).

فأبطل الله سبحانه هذه الشبهة المتهافتة ببيان عظيم قدرته. فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[الإسراء:٥٠-٥١] فعلى أيِّ وصف كنتم فسيعيدكم الله حتى وإن كنتم حجارة أو حديدًا أو خلقًا أعظم من ذلك، فمشيئةُ الله نافذةٌ وقدرته على كل شيء واقعة.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦٦) و«معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٦٧).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٣٤).

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل:٣٨-٤٠]. فأبطل قولهم في إنكار البعث مبينًا جهلهم بقدرة الخالق فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم أوضح عظيم قدرته، وأنه لا يعجزه شيء بل يكفي أن يقول للشيء كن فيكون، ومن كانت هذه عظمته فكيف لا يقدر على بعثهم بعد الموت؟.

ولا عجب فإنّ بعث الأنفس جميعها من سهولته على الله كبعث نفس واحدة فقط قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان:٢٨].

ويتضح كون إنكار البعث كفرًا من عدة وجوه:

١- أن إنكار البعث تكذيب لله عزّ وجلّ:

لأنه تكذيب لوحي الله المثبت للبعث وتكذيب الوحي تكذيب لله عزّ وجلّ كما في الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً....**»(١).

٢- أنه إنكار لكمال قدرته:

ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الحج:٦].

٣- أنه إنكار لكمال حكمته:

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥].

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٧٣٩)، كتاب «التفسير»/ سورة قل هو الله أحد. رقم (٤٩٧٤).

ولما كان إنكار البعث قدحاً في حكمة الله واتهاماً له بالعبث أنكره عليهم ورفع نفسه عن هذا الظن فقال: «﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدح في حكمته»(١).

٤- أنه إنكار لعلم الله سبحانه:

ولهذا ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩] وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق:٤].

٥- أنه سوء ظن بالله تعالى:

ولهذا رد عليهم بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

قال ابن القيم: «ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته فقد ظن به ظن السوء»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٥٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٣٠).

والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

....

﴿زَعَمَ﴾: الزعم هو الظن، وقيل الكذب، أي: ظن الذين كفروا خطأ وقالوا كذبا وهذا هو الأصل في معنى زعم وإلى هذا ذهب أهل التفسير حتى قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: «كل زعم في القرآن فهو كذب»[١]. وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: «زعم كنية الكذب»[٢]، وقال شريح: «لكل شيء كنية، وكنية الكذب زعموا»[٣].

وجزم به ابن عطية فقال: «لا توجد زعم مستعملة في فصيح الكلام إلا عبارة عن الكذب أو قول انفرد به قائله فيريد ناقله أن يبقي عهدته على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: «زعم الخليل إنما يجيء فيما انفرد الخليل به»[٤] وقيل: «الزعم هو القول بالظن»[٥] وقيل: «ادعاء العلم»[٦] وقيل «الزعم خبر كاذب أو مشوب بالخطأ أو بحيث يتهمه الناس بذلك»[٧].

وكذلك قال أهل اللغة:

قال ابن فارس: «الزاء والعين والميم أصلان أحدهما: القول من غير صحة ولا يقين»[٨].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٠١)، لأن الزعم في لغة قريش هو الكذب.

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ١٢١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ١٣٥) و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٥٩).

(٤) «المحرر الوجيز» (٥/ ٣١٩).

(٥) «اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٤٩٤١).

(٦) «الكشاف» (٤/ ١١٤).

(٧) «التحرير والتنوير» (٤/ ١٧١).

(٨) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٦).

والزعم: إنما هو في الكلام، ومنه قيل: فلان مزاعم، وهو الذي لا يوثق به.

وقال الليث: سمعت أهل العربية يقولون إذا قيل: ذكر فلان كذا وكذا فإنما يقال لأمر يستيقن أنه حق، فإذا شك فيه فلم يُدر لعله كذب أو باطل قيل: زعم فلان قال وكذلك تفيد هذه الآية ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[الأنعام:١٣٦] أي بقولهم الكذب.

والرجل من العرب إذا حدث عمن لا يحقق قوله يقول: «ولا زعماته».

وقال شمر: الزَّعْم والتزاعم أكثر ما يقال فيما يشك فيه ولا يحقق.

ويأتي الزعم حقًا وهو قليل، ويتضح من السياق كقول أمية:

وإني أَذينٌ لكم أنه ... سينجزكم ربُّكم ما زعم[1]

وقول الشاعر من أهل اليمن:

تقول: هلكنا إن هلكت وإنما ... على الله أرزاق العباد كما زعم

أي: كما أخبر.

ويتلخص مما مضى أن الأصل في الزعم هو الكلام المكذوب أو المشكوك في صحته.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي الكفار.

﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة لئلا يدخل ناصب على مثله.

﴿لَّن﴾: أداة نفي ونصب تنصب الفعل المضارع.

﴿يُبْعَثُواْ﴾: أي يخرجوا من قبورهم أحياءً. ففي قولهم: ﴿أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾: نفيٌ للبعث وإنكار له.

ثم أمر الله نبيه أن يبطل دعواهم، فقال له: قل يا محمد ﴿بَلَىٰ﴾: فنفى نفيهم بقوله: بلى

---

(١) «تهذيب اللغة» (٢/ ١٥٦-١٥٩).

وبلى تأتي في اللغة لمعنيين:

١ - أن (بلى) تأتي لنفي النفي، ومن المعلوم أن نفي النفي إثبات فيصير ما بعد (بلى) إثبات.

فهؤلاء الكفار نفوا البعث بأداة النفي ﴿لَّن﴾ فقال الله لنبيه ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ فنفى الله نفيهم للبعث، فثبت البعث ولذا قال بعدها ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

ولها نظائر كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾[سبأ:٣].

فنفوا إتيان الساعة بحرف النفي (لا) فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ فنفى الله نفيهم للبعث بقوله ﴿بَلَىٰ﴾، وأثبت إتيان الساعة، ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

٢ - أن تأتي ﴿بَلَىٰ﴾ جوابًا لاستفهام مقترن بالنفي خاصة كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فجاء الجواب ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف:١٧٢] وكقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ فجاء الجواب ﴿بَلَىٰ﴾[يس:٨١][1] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾[الزخرف:٨٠] الجواب. ﴿بَلَىٰ﴾. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[القيامة:٣-٤]. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾[الملك:٨-٩]. ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراب:١٧٢].

قال ابن عباس: لو قالوا نعم لكفروا، ووجهه أَنَّ نعم تصديقٌ للمخبر بنفي أو إيجاب. أما بلى: فهي حرف جواب تختص بالنفي وتفيد إبطاله[2].

﴿وَرَبِّي﴾: أي أقسم بربك يا محمد على إثبات البعث وقد أمره ربه أن يقسم بربوبيته على وقوع البعث في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾[يونس:٥٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣] لأن وقوع البعث متعلق بربوبيته؛ إذ له الملك والتدبير سبحانه.

---

(١) انظر: «العذب النمير» (٣/ ٢٧٤).

(٢) «الجدول في إعراب القرآن» (٢٨/ ٢٦٨).

﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾: أي لتخرجن من قبوركم أحياءً وأكد الفعل باللام والنون.

﴿ثُمَّ﴾: للترتيب والعطف فتفيد أنَّ الحساب بعد البعث.

﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: أي لتخبرن بأعمالكم كلها فقد أحصاها الله كلها ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦]. وكتبها: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩].

﴿وَذَٰلِكَ﴾: يعود إلى البعث ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾: أي: أَنَّ البعث سهلٌ هيّن على الله تعالى.

فأثبت الله البعث في هذه الآية من وجوه:

١ - صدّر الآية بقوله «زعم» فبين أن إنكارهم للبعث لا مستند له إلا الدعوى الباطلة فقضى بكذبه من أول لفظ في حكايته.

٢ - أنَّ مُنْكِرَ البعث كافرٌ حيث ذكر كفرهم ولم يذكر إلا إنكار البعث فدل على أن المكذب به كافر.

٣- أكد وقوع البعث بعدة مؤكدات هي:

أ- نفي النفي بـ ﴿بَلَىٰ﴾.

ب- القسم ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

جـ- سهولته ويسره على الله عز وجل، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٧].

د- بيان المنجي من عذاب الله بعد البعث وهو الإيمان فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[التغابن:٨].

والفاء في قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾: الفاء الفصيحة واقعة في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان الأمر كذلك من البعث والنشور فآمنوا كي تسلموا من العذاب[1].

(١) «إعراب القرآن» للدرويش (٧/ ٥٣٩).

ومما يدل على كفره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[الرعد:٥].

صدّر سبحانه الآية بالتعجب من إنكارهم إعادتهم بعد فنائهم مع أنهم يرون النشأة الأولى ولا ينكرونها بل يقرون بها مع أنها أبلغ في القدرة من الإعادة ثم حكم عليهم بالكفر المخرج من الملة وختم بعقوبتهم بالنار جزاء كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى أبعد من ذلك فوصف الشاك بالبعث بالكفر كما في قوله تعالى في ذكر خبر المتحاورين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾[الكهف:٣٧].

وعلى كفر منكر البعث أجمع أهل العلم:

قال ابن عبدالبر: «وقد أجمع المسلمون على أَنَّ مَنْ أنكر البعث فلا إيمان له ولا شهادة»(١).

وقال ابن حزم: «اتفق جميعُ أهل القبلة على تنابذ فرقهم على القول بالبعث في القيامة وعلى تكفير من أنكر ذلك»(٢).

وقال البهوتي: «وإذا جحد البعث كفر لتكذيبه للكتاب والسنة وإجماع الأمة»(٣).

---

(١) «التمهيد» (٩/ ١١٦).

(٢) «الفصل» (٤/ ١٣٧).

(٣) «كشاف القناع» (٦/ ١٣٦).

وَأرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِين. والدَّلِيلُ قَوْلُه تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

....

انتقل المؤلف إلى بيان حال الرسل أجمع كي يوضح أمرين:

١- وحدة المعتقد:

جذور التوحيد ضاربة في أعماق التاريخ، وموكب الهدى والنور متطاول متواصل منذ أن أرسل الله نوحًا بل قبله؛ فإن آدم وبنيه لمدة عشرة قرون كانوا على التوحيد مرورًا بإبراهيم فموسى وعيسى وختامًا بمحمد ﷺ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

وبيَّنها رسول الله بقوله: «**الأنبياءُ إخوةٌ لعلَّات، أُمهاتُهُم شتَّى ودينُهُم واحدٌ**»(١).

قال ابن حجر: «أصل دينهم واحد، وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع»(٢).

٢- وحدة المهمة والهدف:

حصر الله مهمة الرسل عليهم السلام جميعًا بالبشارة والنذارة في موضعين من كتابه بأقوى صيغ الحصر، وهو الجمع بين النفي والإثبات، فقال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأنعام:٤٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾[الكهف:٥٦].

---

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٣).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

فقوله: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حال، والمعنى ما نرسلهم إلا في حال كونهم مبشرين ومنذرين.

فجميع الرسل من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ كلهم مبشرون ومنذرون وقوله: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: البشارة هي الإخبار بما يسر غالبًا هذا هو الأصل وقد تذكر أحيانًا قليلة فيما يسوء إذا دلت القرائن على ذلك وهذا يفهم من السياق كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الانشقاق:٢٤].

«وسُمِّيت بشارة لأن الإنسان إذا سمع خبرًا يسره أثر ذلك في دمه فجرى دمه جريانًا من البشارة فظهر أثر ذلك على بشرته، ولهذا سموها بشارة»[(١)].

هذا إذا وردت مفردة لوحدها أما إذا قرن معها الإنذار فهي الإخبار بما يسر فقط.

﴿وَمُنذِرِينَ﴾: الإنذار هو الإعلام بالشيء المخوف الذي يمكن تداركه للتحذير منه.

ولما ذكر الله وحيه لرسله جميعًا عدد بعضهم فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء:١٦٣-١٦٤] ثم بين حالهم فقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[النساء:١٦٥].

﴿رُّسُلًا﴾: قوله: رسلًا يدل على أنهم مرسلون من الله ليس لهم من الرسالة إلا إبلاغ ما أرسلوا به، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[المائدة:٦٧] أي رسالة الله التي أرسلت بها، وقول صالح عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾[الأعراف:٧٩]، وقول شعيب: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾[الأعراف:٩٣]،

---

(١) «العذب النمير» (١/ ٢٨٠).

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[الجن:٢٨] ففي هذه الآيات وغيرها بيان أن الرسالة من الله والبلاغ من الرسل. وكان خاتمهم ﷺ يقول في أكبر مجمع في الإسلام يوم عرفة: «**ألا هل بَلّغْتُ، اللَّهُمَّ فاشهدْ**»(١).

وقال المغيرة بن شعبة: «أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أَنَّه مَنْ قتل منا صار إلى الجنة»(٢).

قال الزهري: «من الله ﷻ الرسالة وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم»(٣).

﴿مُّبَشِّرِينَ﴾: أي مبشرين أهل الإيمان والتوحيد والطاعة بجزيل الثواب وكريم المآب في جنات النعيم التي أعلى نعيمها رؤية الرب الكريم جل وعلا.

﴿وَمُنذِرِينَ﴾: أي محذرين أهل الكفر والشرك والتكذيب والعصيان عظيم عقابه وأليم عذابه ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾[الليل:١٤-١٥].

قال شيخ الإسلام: «منذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذابًا أليمًا»(٤).

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾: أي لأجل ألّا يبقى لأحد من الناس عذر وحجة يحتج بها، والحجة هي البيان الواضح الذي لا يستطيع الخصم دفعه. وقد بين الله هذه الحجة التي يحتج بها الناس ويخاصمون بها الرب بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه:١٣٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. رقم (٧٥٣٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢).

وقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[القصص:٤٧].

وأكد ذلك النبي ﷺ لما قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أتعجبُونَ من غيرَةِ سعدٍ، والله لأنَا أغيرُ منه، واللهُ أغيرُ منِّي، ومن أجلِ غيرةِ الله حرَّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذْرُ مِنَ الله، ومن أجلِ ذلك بعثَ المبشِّرِينَ والمنذرينَ، ولا أحبّ إليهِ المدحةَ من الله من أجل ذلك وعد اللهُ الجنّة**»(١).

وفي رواية لمسلم: «**ولا شخص أغيرُ من الله ولا شخص أحبُّ إليه العذر من الله من أجْلِ ذلك بعثَ اللهُ المرْسلينَ مُبشرين ومنذرين**»(٢). «فجعل الله حجته التي يستحق العذاب تاركها رسله المنذرين»(٣).

وسيعترف الكافرون يوم القيامة بقيام الحجة عليهم بإرسال الرسل في مواقف عدة هي:

الموقف الأول: حال سوقهم إلى النار ووصولهم إليها:

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الزمر:٧١]. فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول يفيد

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٩٩)، كتاب «التوحيد»/ باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله». رقم (٧٤١٦).

(٢) مسلم (٢/ ١١٣٦)، كتاب «اللعان». رقم (١٤٩٩).

(٣) «ضابط التأويل» لابن تيمية ضمن «جامع المسائل» المجموعة الخامسة (٤٦).

العموم[١] فيشمل كل كافر: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، فكل كافر يجيب بأن الرسل قد جاءته، ولم يبق له عذر ولا حجة.

أما الموقف الثاني: فهو حال إلقائهم في النار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[الملك:٨-٩]. «فكلمة ﴿كُلَّمَآ﴾ تعم أزمنة الإلقاء كلها فتعم جميع المُلْقَيْن من الأفواج في النار أنهم جاءهم نذير في الدنيا»[٢].

أما الموقف الثالث: حال كونهم قد أرهقهم العذاب، واصطرخوا في النار، وطلبوا الخروج فلم يمكنوا ثم طلبوا التخفيف ولو يومًا واحدًا فإذا بهم يدفعون بهذا السؤال فيعترفون ولكنه اعتراف بعد فوات الأوان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[غافر:٤٩-٥٠].

وكل من بلغته الرسالة فقد قامت عليه الحجة قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩].

قال ابن القيم: «فكل من بلغه القرآن فقد أنذر به وقامت حجة الله به»[٣].

وقال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: «﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾[طه:١٣٤] فدلّ ذلك على أَنَّ المقتضي لعذابهم قائم. ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) «العذب النمير» (٢/ ٢٨١)، وذلك أَنَّ الأسماء الموصولة كلها تفيد العموم.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الصواعق المرسلة» (٢/ ٧٣٥).

حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥][(١)].

وكون الله لا يعذِّبُ إلا مَنْ أرسل إليه رسولًا تقوم به الحجة عليه أصلٌ قررته النصوص كما سبق وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء:١٥][(٢)].

وكما في قوله ﷺ: «**والَّذي نفسي بيدهِ لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمَّة يهوديّ ولا نصرانيّ، ثُمَّ يمُوتُ ولم يُؤمن بالَّذي أُرْسِلتُ به؛ إلَّا كان من أهل النّار**»[(٣)].

قال سعيد بن جبير: «كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأُمَّة، يهوديّ ولا نصرانِيّ، ثُمَّ لا يُؤمن بما أُرسلتُ به إلَّا دخل النّار**»، فجعلتُ أقول: أينَ مصداقُها حتى أتيتُ على هذا: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾[هود:١٧] قال: الأحزاب الملل كلها»[(٤)].

وأجمع على ذلك أهل العلم وممن نقل الإجماع ابن حزم فقال: «اتفقوا.. أن من خالف دين الإسلام ممن بلغه كافر مخلد في النار»[(٥)].

وابن تيمية حيث قال: «وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أَنَّ من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يُقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة»[(٦)].

---

(١) «الجواب الصحيح» (٢/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩١ - ٢٩٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «جامع البيان» (١٢/ ١٩).

(٥) «مراتب الإجماع» (٢٦٧).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٦).

ضابط قيام الحجة:

حدد شيخ الإسلام ﵀ ضابطَ قيام الحجة فقال: «الحجة قامت بوجود الرسول المبلغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر».

ثم وضَّح المقصود من التمكن من الاستماع فيقول: «لا بنفس الاستماع ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره»(١).

ومن أصناف مَنْ قامت عليهم الحجة وقد تمكنوا من السماع «رجل لم يَتْبَعْهُ -أي رسول الله- فهذا قامت عليه الحجة: إما لكونه لم ينظر في أعلام الإسلام، أو نظر وعلم فاتبع هواه، أو قصّر»(٢).

وقال ابن القيم متحدثًا عن قيام الحجة: «حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصّر عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة»(٣).

وقال القرافي: «القاعدة الشرعية دلت على أن كل جهل يمكن المكلف دفعه لا يكون حجة للجاهل»(٤).

ويقول علاء الدين السمرقندي الحنفي: «كون المأمور به معلومًا للمأمور، أو ممكن العلم به، باعتبارِ سببِ قيام العلم شرطاً لصحة التكليف، وفي الحاصل حقيقة العلم ليس بشرط، ولكن التمكن من العلم باعتباره سبباً كافٍ»(٥).

---

(١) المرجع السابق (١٦/ ١٦٦).

(٢) «الجواب الصحيح» (١/ ٢٤٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٢٣٩).

(٤) «الفروق» (٤/ ٢٦٤).

(٥) «ميزان الأصول» (١٧١).

وقال ابن اللحام بعد كلام سبق: «إذا تقرر هذا فهاهنا مسائل تتعلق بجاهل الحكم، هل هو معذور أم لا؟ فإذا قلنا يعذر، إنما محله إذا لم يقصِّر ويفرِّط في تعلم الحكم. أما إذا قصّر أو فرّط فلا يعذر جزماً»(١).

ويقول البيضاوي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]: «المقصود منه التوبيخ والتثريب، لا تقييد الحكم وقصره؛ فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواءٌ في التكليف»(٢).

ويقول محمد المقري المالكي: «أمر الله عز وجل العلماء أن يبينوا، ومن لا يعلم يسأل، فلا عذر بالجهل ما أمكن التعليم»(٣).

وبمثل ذلك حدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ضابط قيام الحجة فقال: «إذا بلغه كلام الله وكلام رسوله وخلا من شيء يعذر به»(٤).

والشيء الذي يعذر به إما أن يكون حديث العهد بالإسلام أو ناشئًا ببلد لا يمكنه التعلم كمن نشأ ببادية بعيدة أو كان من الأطفال الصغار أو المجانين، أو كان ذلك في مسألة خفية مثل الصَّرْفِ والعَطْف(٥).

وذلك لأن «الحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه

---

(١) «القواعد» (١/ ١٩٧-١٩٩).

(٢) «أنوار التنزيل» (١/ ٥٦).

(٣) «القواعد» (٢/ ٤٠٢).

(٤) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب/ القسم الخامس/ الرسائل الشخصية» (٢٢٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٦١) و(٢٨/ ٥٠١)، و(١١/ ٤٠٧)، و«الجواب الصحيح» (٢/ ٢٩٨)، و«الأشباه والنظائر» (٢٠٠)، و«المغني» (١٢/ ٢٧٥)، و«الرسائل الشخصية» ضمن مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» (٢٤٤).

ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله: كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلًا وهذه أوقات الفترات»[١].

وينبغي أن يعلم أنه لا تلازم بين قيام الحجة في أصول الدين الكبار، وبين فهمها كما يفهمها مَنْ هداه الله ووفقه وانقاد لأمره فإنَّ الكفار قد قامت عليهم الحجة من الله تعالى مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا كلامه فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[الأنعام:٢٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت:٤٤].

«وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٣٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة يخبر سبحانه أنهم لم يفهموا القرآن ولم يفقهوه، وأنه عاقبهم بالأَكِنَّة على قلوبهم والوَقْر في آذانهم، وأنه ختم على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلم يعذرهم مع هذا كله بل حكم بكفرهم وأمر بقتالهم، وقاتلهم رسول الله ﷺ وحكم بكفرهم فهذا يبين لك أن بلوغ الحجة نوع وفهمها نوع آخر»[٢].

ولما سئل الشيخ محمد عبدالوهاب عن بعض الناس هل قامت عليهم الحجة أم لا؟

أجاب بقوله: «ما ذكرتموه من قول الشيخ: كُلُّ مَنْ جحد كذا وكذا وأنكم شاكون في هؤلاء الطواغيت هل قامت عليهم الحجة أم لا؟ فهذا من العجب العجاب كيف تشكون

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٥٩)، وانظر: «كشف الشبهتين» (٩١-٩٢).

(٢) «الدرر السنية» (١١/ ٧٣-٧٤).

في هذا وقد وضحته لكم مرارًا؟ فإن الذي لم تقم عليه الحجة هو الذي حديث عهد بالإسلام والذي نشأ ببادية. أو يكون ذلك في مسألة خفية مثل الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرّف.

وأما أصول الدين التي أوضحها الله في كتابه فإن حجة الله هي القرآن فمن بلغه فقد بلغته الحجة.

ولكن أصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٤٤].

وقيام الحجة وبلوغها نوع وفهمهم إياها نوع آخر، وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها»[١]، ثم استطرد يذكر الأدلة على ذلك.

ومما يوضح أن قيام الحجة ببلوغها أمور:

١- أن الله لم يعذر الكفار إذ لم يفهموا، بل صرح بكفرهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[الكهف:١٠٣-١٠٤].

قال الطبري عند هذه الآية: «فسوى -جل ثناؤه- بين هذا العامل في غير ما يرضيه على حسبانه أنه في عمله بما يرضيه في تسميته في الدنيا بأسماء أعدائه المعاندين له الجاحدين ربوبيته مع علمهم بأنه ربهم وألحقه بهم في الآخرة في العقاب والعذاب»[٢].

وأما الإمام ابن منده فقد بوّب باباً بعنوان: «ذكر الدليل على أن المجتهد المخطئ في

---

(١) «مجموعة مؤلفات الشيخ/ القسم الثالث/ الفتاوى» (١٢-١٣).

(٢) «التبصير في معالم الدين» (١٧).

معرفة الله عز وجل ووحدانيته كالمعاند»، ثم استدل بالآية السابقة[١].

٢- أن النبي ﷺ إذا دعا أحدًا إلى الإسلام لم يكن يسأله، هل فهمت أم لا؟ سواء كان من العرب أو غيرهم.

٣- أن رسائل النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر باللغة العربية، وهم عجم، وليسوا عربًا، ومع هذا قامت عليهم الحجة[٢].

٤- أن الشاك في أصول الدين كافر، والشك هو التردد بين شيئين كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا كذبه، ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه، وهذا كفر بالإجماع: «ولا عذر لمن كان حاله هكذا لكونه لم يفهم حجج الله وبيناته؛ لأنه لا عذر له بعد بلوغها، وإن لم يفهمها»[٣].

٥- أن النبي ﷺ قامت به الحجة على أهل مكة كلهم رجالًا ونساءً، مع أنه ﷺ لم يكن يطلب من النساء اللاتي في البيوت أن يخرجن إليه يحدثهن عن الإسلام، وقد يخبرها زوجها إن لم يكن مسلمًا، بخلاف الواقع، ومع ذلك قامت عليهن الحجة به ﷺ.

٦- أن ربط قيام الحجة بفهمها يحصر الكفر في المعاند فقط، ويلزم منه أن يكون مقلدة النصارى واليهود لم تقم عليهم الحجة.

قال ابن قدامة: «نعلم قطعًا أن النبي ﷺ أمر اليهود والنصارى بالإسلام واتباعه، وذَمَّهم على إصرارهم، وقاتل جميعهم، وقتل البالغ منهم، ونعلم أن المعاند العارف مما يَقِلُّ، وإنما الأكثر مقلدة اعتقدوا دين آبائهم تقليدًا، ولم يعرفوا معجزة الرسول ﷺ وصدقه. والآيات الدالة في القرآن على هذا كثيرة، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) «التوحيد» (١/ ٣١٤).

(٢) يجب عليهم أن يبحثوا عن مترجم يترجمها لهم.

(٣) «مسالة فيمن يكفر غيره من المسلمين» لأبي بطين (٢١).

مِنَ ٱلنَّارِ﴾[ص:٢٧]، وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[المجادلة:١٨]، وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٣٧]»[١].

وقال الشيخ أبا بطين معلقًا على كلام ابن قدامة: «فبيَّن رحمه الله أنا لو لم نكِّفر إلا المعاند العارف لزمنا الحكم بإسلام أكثر اليهود والنصارى، وهذا من أظهر الباطل»[٢].

وقال رحمه الله معلقًا على كلام لشيخ الإسلام: «فقول الشيخ تقي الدين رحمه الله: «إن التكفير والقتل موقوف على بلوغ الحجة» يدل من كلامه على أن هذين الأمرين -وهما التكفير والقتل- ليسا موقوفين على فهم الحجة مطلقًا، بل على بلوغها.

ففهمها شيء، وبلوغها شيء آخر، فلو كان هذا الحكم موقوفًا على فهم الحجة: لم نكفِّر ونقتل إلا مَنْ علمنا أنه معاند خاصة، وهذا بين البطلان»[٣].

٧- أن فهم الحجة خاص بالأمور الخفية دون الظاهرة:

قال الشيخ أبا بطين مجليًا هذه الحقيقة: «آخر كلامه -يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية- يدل على أنه يعتبر فهم الحجة في الأمور التي تخفى على كثير من الناس، وليس فيها مناقضة للتوحيد والرسالة كالجهل ببعض الصفات.

وأما الأمور التي هي مناقضة للتوحيد والإيمان بالرسالة، فقد صرح رحمه الله في مواضع كثيرة بكفر أصحابها وقتلهم بعد الاستتابة ولم يعذرهم بالجهل مع أنا نتحقق أن سبب وقوعهم في تلك الأمور إنما هو الجهل بحقيقتها، فلو علموا أنها كفر تخرج من الإسلام لم يفعلوها، وهذا في كلام الشيخ كثير»[٤].

---

(١) «روضة الناظر» (٣/ ٩٨٠).

(٢) «مسألة فيمن يكفر غيره من المسلمين» (٢٢).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

وبين الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن قيام الحجة في الأمور الكبار فقال: «ومسألتنا هذه في عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع الله غيره، فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملة، هي أصل الأصول، وبها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وقامت على الناس الحجة بالرسول وبالقرآن»، ثم يوضح خصوصية فهم الحجة بالأمور الخفية، وأن ذلك هو فهم العلماء كلهم، فيقول: «وهكذا تجد الجواب في مسائل الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك بالله، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا يذكرون التعريف في مسائل الأصول، إنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين، كمسائل نازع بها بعض أهل البدع، كالمرجئة، أو في مسألة خفية كالصرف والعطف»[1].

---

(١) «رسالة في أصل الدين ضمن المجموعة المحمودية» (٢٤-٢٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤ و٣/ ٣٩٥)، و«الصارم المسلول» (٣/ ١١٠٨-١١١٠)، و«الجواب الصحيح» (١/ ٣٥٩-٣٦٠)، و«روضة الناظر» لابن قدامة (٣/ ٩٨٠-٩٨٢)، و«الانتصار لحزب الله الموحدين»، و«رسالة في الشرك»، و«مسألة فيمن يكفر غيره من المسلمين والذي يعذر صاحبه بالجهل والكفر الذي لا يعذر» جميعها للشيخ ابا بطين، و«الدرر السنية» (١٠/ ٩٣)، و«الضياء الشارق» للشيخ ابن سحمان (١٦٤-٣٠٠).

وأولهم نوحٌ عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين. والدّليلُ عَلى أنَّ أَوَّلهم نُوحٌ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[النساء:١٦٣].

....

قوله: (**وأولهم نوح**) وذلك أن الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام بيده وأسكنه جنته ثم أهبطه وزوجه إلى الأرض، ورزقه ذرية صالحة رباهم على التوحيد، فهو «نبيٌّ مُكَلّم»[(١)]، لأنه أرسل إلى قوم مؤمنين.

قال شيخ الإسلام: «فالنبوة في الآدميين هي من عهد آدم فإنه كان نبيًا وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار»[(٢)]. فعاشت ذريته على التوحيد عشرة قرون كما في حديث أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله! أنبيٌّ كان آدم؟ **قال:** «**نعم. مُكَلَّم**» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرةَ قرونٍ**»[(٣)]، ويؤيده ما ورد عن ابن عباس أنه قال: «**كان بين آدم ونوحٍ عشرةَ قُرونٍ كلُّهُمْ على شريعة من الحقِّ**»[(٤)]. وعن عكرمة قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[(٥)].

ثم وقعت البشرية في الانحراف والشرك والاختلاف قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:٢١٣].

---

(١) أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢١٧). رقم (٧٨٧١).

(٢) «شرح العقيدة الأصفهانية» (١٢٥).

(٣) ابن حبان في «صحيحه» (١٤/ ٦٩) رقم (٦١٩٠)، وابن منده في «التوحيد» (٣/ ١٤١)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة إلا البخاري». وقال ابن كثير: «وهذا على شرط مسلم». «البداية والنهاية» (١/ ٢٣٧).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «جامع البيان» (٢٩/ ٩٩).

وسبب الانحراف عن المنهج القويم والوقوع في حمأة الشرك والوثنية هو الغلو في الصالحين فإذا انضاف إليه الجهل بأحكام الدين فلا تسأل عن شدة الانحراف والبعد عن الصراط المستقيم يوضح ذلك ابن عباس رضي الله عنه فيقول عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣].

«هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[١]، ومعنى تنسخ العلم: أي نُسِيَ ودَرَسَ، وهي إحدى روايات البخاري.

وعن محمد بن قيس قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»[٢].

وهذا هو أول شرك وقع في الأرض فأرسل الله إليهم نوحًا عليه الصلاة والسلام، ولما كان هذا هو أول شرك وقع في الأرض كان الذي أرسل إليهم هو أول رسول ولهذا قال المؤلف وأولهم نوح، واستدل بقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ذكر الله ذاته المقدسة بضمير العظمة؛ ليدل على عظمة المُوْحَى به إلى رسله ورفعة قدر المرسلين ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: الوحي: هو الإعلام في خفاء، أي: إنا أنزلنا إليك هذا القرآن

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٦٧)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾. رقم (٤٩٢٠).

(٢) «جامع البيان» (٢٩/ ٩٨-٩٩)، وانظر: «البداية والنهاية» (١/ ٢٤٨).

العظيم وقومك لا يشعرون به ولا يرون الملك عند نزوله به وموجب الوحي الإرسال.

﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾: الكاف للتشبيه أي إيحاءً مثل إيحائنا إلى نوح، و(ما) بمعنى (الذي) أي كالذي أوحيناه إلى نوح من التوحيد.

وبدأ بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول رسول إلى أهل الشرك في هذه الأرض.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: عام يتناول جميع الأنبياء ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ الضمير يعود على نوح عليه السلام، فقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ يدل على أنهم بعثوا وأرسلوا بعده ولو كان قبله أحد لذكر. وهذا متقرر عند جميع الأمم كما في حديث أبي هريرة الطويل في الشفاعة قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بلحمٍ، فرفع إليه الذّراعُ، وكانت تُعجبُهُ، فنهس منها نهسةً، ثمّ قال: «**أنا سيِّدُ النَّاسِ يوم القيامة... فيأتُون نوحًا فيقولُون: يا نوح! إنّك أوّل الرُّسُلِ إلى أهل الأرض، وقد سمّاك اللهُ عبدًا شكورًا...**»[(١)]، وفي لفظ لأنس: «**ولكن ائتوا نوحًا أوّل رسولٍ بعثهُ الله**»[(٢)].

قال ابن كثير: «لما انتشر الفساد في الأرض، وعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[(٣)].

(وآخرهم محمد ﷺ):

الآخر هو الذي ليس بعده أحد فهو آخر الأنبياء ﷺ، ويدل له قوله ﷺ: «**إن لي أسماء، أنا محمد... وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد**»[(٤)]. وهذا صريح في أنه آخرهم،

---

(١) البخاري (٨/ ٣٩٥)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾. رقم (٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) مسلم (١/ ١٨٠)، كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٣).

(٣) «البداية والنهاية» (١/ ٢٥٠).

(٤) سبق تخريجه.

فمن ليس بعده أحد، فهو الآخر.

وقوله ﷺ: «**أنا محمد وأحمد والمقفِّي...**»(١)، والمقفِّي هو الذي قفَّى من قبله، فهو بمعنى العاقب.

ويلزم من كونه آخرهم: أن يكون هو الخاتم، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: وهو خاتم النبيين.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «**أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له**»(٢).

قال أبو عمر: «هذا الحديث في معنى قول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠]، وكذلك قوله ﷺ: «**وأنا العاقب الذي لا نبيَّ بعدي**»(٣).

ومعنى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠] آخر النبيين ومنه قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾[المطففين:٢٦]. قال ابن مسعود: عاقبته طعم المسك، وختمت القرآن أي انتهيت إلى آخره، وختم القارئ السورة أي بلغ آخرها.

ويأتي (**خَتَمَ**) بمعنى طَبَعَ وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق منه لئلا يدخله شيء، ومنه «خاتم النبيين» لأنه خَتَمَ النبوة أي: تممها بمجيئه(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (١/ ٣٤٨)، كتاب «الصلاة»/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. رقم (٤٧٩).

(٣) «الاستذكار» (٨/ ٤٥٨).

(٤) «تهذيب اللغة» (٧/ ٣١٤-٣١٥)، و«المفردات» للراغب (١٤٩).

ووجه إتيان ختم بمعنى طبع «لأن الطَّبْعَ على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره»[١].

وخَتْمُ النبوة: هو انتهاء بعث الله الرسل من الناس إلى الناس. والأدلة على ختم النبوة كثيرة بلغت مبلغ التواتر «وقد بلغ عدد الذين رووا أحاديث الختم سبعة وثلاثين صحابيًّا»[٢].

وعلى ذلك أجمعت الأمة. قال الألوسي: «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعي خلافه ويقتل إن أَصَرَّ»[٣].

وأدلة ختم النبوة كثيرة، ولكن يجمعها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإخبار المباشر بأَنَّ النبي ﷺ خاتم النبيين ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

أي: «ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد من بعده إلى قيام الساعة»[٤].

خاتَم بالفتح: أي آخر النبيين مبعثًا، فبه انتهت النبوة، فهو الطابع عليها المغطِّي لها؛ لئلا يدعيها أحد غيره.

وخاتِم بالكسر: أي أنه ختم النبيين فبه ختموا فهو خاتِمُهُم[٥].

ومن السنة:

ما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كانت بنو إسرائيلَ تَسُوسُهُم**

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٤٥).

(٢) «عقيدة ختم النبوة» (٥٥).

(٣) «روح المعاني» (١١/ ٢١٩-٢٢٠).

(٤) «جامع البيان» (٢٢/ ١٦).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ٥٣٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٣).

الأنبياءُ كلما هلك نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ، وإنَّهُ لا نبيَّ بعدي»(١).

وحديث الشفاعة الطويل وفيه أنهم يقولون له: «**أنت رسولُ الله وخاتم الأنبياء**»(٢).

ويزيده ﷺ بيانًا في حديث أبي هريرة فيقول ﷺ: «**فإنِّي آخرُ الأنبياء، وإنَّ مسجِدِي آخرُ المساجد**»(٣).

ولما كان للمثل أثر في وضوح المراد قال ﷺ: «**مثلي ومثلُ الأنبياءِ كرجُلٍ بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلَّا موضع لَبِنَةٍ فجعل النّاسُ يدخُلُونها ويتعجبون ويقولون: لولا موضعُ اللبِنَةِ**». وفي لفظ: «**ويقولُون: هلا وضعت هذه اللّبِنَةَ؟ قال: فأنا اللّبِنَةُ، وأنا خاتمُ النّبيِّينَ**»(٤). وفي لفظ لمسلم: «**فأنا موضعُ اللَّبِنَةِ جئتُ فختمتُ الأنبياءَ**»(٥).

النوع الثاني: التحذير من كل مدعٍ للنبوة ببيان حاله وكذبه ومن ذلك:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ السّاعةُ حتَّى تَقْتَتِل فئتانِ عظيمتان تكون بينهما مَقْتَلةٌ عَظيمةٌ، دعوَتُهما واحدةٌ، وحتَّى يُبْعثَ دجّالُونَ كذّابون قريبٌ من ثلاثين، كُلّهم يزعُمُ أنّهُ رسولُ الله...**»(٦).

وما ذكرهم الرسول ﷺ لنا إلا لنحذرهم ولذلك صرّح ﷺ بالتحذير منهم في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه حيث قال: «**إِنَّ بين يديْ السَّاعةِ كذّابينَ فاحذروهُمْ**»(٧).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (٢/ ١٠١٢-١٠١٣)، كتاب «الحج»/ باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة. رقم (١٣٩٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٥٨)، كتاب «المناقب»/ باب خاتم النبيين. رقم (٣٥٣٤ و٣٥٣٥).

(٥) مسلم (٤/ ١٧٩١)، كتاب «الفضائل»/ باب ذكر كونه خاتم النبيين. رقم (٢٢٨٧).

(٦) البخاري مع الفتح (١٣/ ٨١)، كتاب «الفتن»/ باب خروج النار. رقم (٧١٢١).

(٧) مسلم (٣/ ١٤٥٣-١٤٥٤)، كتاب «الإمارة»/ باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش. رقم (١٨٢٢).

النوع الثالث: قتل مدعي النبوة:

لما كان مدعي النبوة قد بلغ شأوًا بعيدًا من الكفر والضلال؛ لإنكاره النصوص الدالة على ختم النبوة وادعائه مرتبة لا يصلها إلا مَنِ اصطفاهم الله من رسله ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[الحج:٧٥] وإضلاله الفِئَامِ من الناس صار الواجبُ في حقه القتلَ قطعًا لدابر الفتنة وإراحةً للناس من شره.

ولذلك أمر النبي ﷺ المؤمنين في اليمن وعلى رأسهم فيروز الديلمي بقتل الأسود العنسي لما ادعى النبوة، فقتلوه.

وسار على نهجه أبو بكر الصديق ومعه سائر الصحابة حيث سارت جيوش الإسلام من المدينة لقتال مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي لادعائهما النبوة(١).

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٣١-٢٤٠ و٢٥٦ و٢٧١-٢٧٢)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٤٢٩-٤٣٦ و٤٥٢-٤٥٣ و٤٦٥-٤٧٥)، و«عقيدة ختم النبوة» (٥٧-٦٣).

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِليها رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ.

كل: لتأكيد بعث الله الرسل إلى أممهم جميعًا.

والأمة: تأتي لمعان منها الإمام الذي يُقتدى به ومنه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢٠] وتأتي بمعنى الملة والدين ومنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٢].

وتأتي بمعنى الجماعة من الناس ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[القصص:٢٣] وهذا المعنى هو المقصود هنا.

والأمم التي خلقها الله من بني آدم بلغت سبعين أمة أثبت ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ألا إنكم توفون سبعينَ أُمَّةً أنتُمْ خيرها وأكرمها على الله** ﷻ»(١).

(**بعث اللهُ إليهم رسولًا من نوحٍ إلى محمَّدٍ**): أي أن الله أرسل إلى كلّ أمة رسولًا بداية بنوح عليه السلام؛ لأنه أول الرسل، وأمته هي أول الأمم وقوعًا في الشرك وختامًا بمحمد ﷺ لأنه هو آخر الرسل، وأمته هي آخر الأمم وجودًا في الدنيا.

قال ﷺ مبينًا هذه الحقيقة: «**نحنُ الآخِرُونَ الأوّلُون يوم القيامةِ، ونحنُ أوّل من يدخُلِ الجنّةَ بَيْدَ أنّهم أوتوا الكتابَ من قبلنا وأوتيناهُ من بعدهم، فاختلفوا فهدانا اللهُ لما**

(١) أحمد (٥/ ٣)، والترمذي (٥/ ٢٢٦)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة آل عمران. رقم (٣٠٠١)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣)، كتاب «الزهد»/ باب صفة أمة النبي ﷺ. رقم (٤٢٨٨)، قال علي بن المديني وأحمد: «حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح». «زاد المعاد» (١/ ٤٥)، قال شيخ الإسلام: «حديث جيد». «الجواب الصحيح» (٢/ ٢٣٢)، وقال ابن حجر: «حديث حسن صحيح». «فتح الباري» (٨/ ٢٢٥).

اختلفوا فيهِ من الحقِّ. فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا اللهُ له (قال: يوم الجمعة)، **فاليوم لنا وغدًا لليهودِ وبعد غدٍ للنّصارى**»(١). والمقصود بالآخرين أي الآخرين خروجًا في الدنيا كما بينته رواية النسائي حيث قال: «نحنُ الآخرونَ من أهل الدّنيا»(٢).

قوله: (يأمرُهُم بعبادةِ الله وحدَه) أي أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم اتفقوا على أمر أممهم بإفراد الله بالعبادة لأن ذلك هو أصل الدين الذي بعثوا به ومن الأدلة الدالة على أن الرسل جميعًا أمروا قومهم بعبادة الله وحده ما أخبر الله به عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، وكذلك ما قال هود لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥]، وصالح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾[الأعراف:٧٣]، وشعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾[الأعراف:٨٥]، وإبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾[العنكبوت:١٦] ويوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾[يوسف:٤٠] فأبطل عبادة غير الله، ثم قرر وجوب عبادة الله وحده فقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[يوسف:٤٠].

وعمم ذلك فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] والأمر بعبادة الله وحده كثير جدًا في القرآن «لا يحصى إلا بكلفة، بل قطب القرآن وسائر الكتب ومدارها على عبادة الله وحده»(٣).

وجذَّرها النبي ﷺ في قلوب أصحابه في كل مناسبة فبيّن وأوضح أن البعثة من

---

(١) مسلم (٢/ ٥٨٥-٥٨٦)، كتاب «الجمعة»/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة. رقم (٨٥٥).

(٢) «السنن الكبرى» (٢/ ٢٥٧) رقم (١٦٦٤).

(٣) «الجواب الصحيح» (٢/ ١٥٦).

أجلها فقال: «**بُعثتُ بين يديَّ السَّاعةِ حتّى يُعبدَ الله وحده...**»(١).

والدعوة تبدأ بها: «**فليكُنْ أولّ ما تدعوهُمْ إليهِ عبادة الله**»(٢).

والقتال وإزهاق الأنفس من أجلها فقال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسِ حَتَّى يَشْهَدُوا أنْ لاَ إلِهَ إلاَّ الله وَأنَّ مُحمّدًا رسولُ الله**»(٣).

فاستقرت تلك الحقيقة في قلوبهم وقلوب أتباعهم فها هو المغيرة بن شعبة ﷺ يقرر تلك الحقيقة لعامل كسرى فيقول: «أمرنا نبيُّنا رسولُ رَبِّنا ﷺ أن نُقاتلكُمْ حتّى تعبدوا اللهَ وحده»(٤).

وأجاب بها ربعي بن عامر رستمًا عندما سأله ما الذي جاء بكم؟ فقال له: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها...»(٥).

ولشدة ثباتها في قلوبهم كانوا يوصون بها ذرياتهم عند موتهم، كما وصّى الربيع ابن خثيم أهله ومما قال في وصيته «وإنِّي آمر نَفسي ومَن أطَاعني أن نعبدَ اللهَ في العابدين ونحَمدَهُ في الحامدين وأن ننصحَ لجماعةِ المسلمين»(٦).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٥٨)، كتاب «الجزية والموادعة»/ باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. رقم (٣١٥٩).

(٥) «البداية والنهاية» (٩/ ٦٢٢).

(٦) «سنن الدارمي» (٢/ ٢٨٣) رقم (٣١٨٦).

وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبادَةِ الطّاغُوتِ. والدَّلِيل قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

....

الأمر بعبادة الله وحده كافٍ في نبذ الشرك والبعد عنه؛ لأن العبد لا يصح له توحيد إلا بنبذ الشرك، ولكن المؤلف عليه رحمة الله أراد تأكيده بالتحذير من ضده، فقال وينهاهم عن عبادة الطاغوت وهذا كثير في القرآن والسنة ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦] فقوله: و﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أمر بإفراد الله بالعبادة ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهي عبادة الطاغوت و﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم.

ولما حصر أمره لنبيه ﷺ بعبادة الله وحده أتبعه بالنهي عن الشرك به، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[الرعد:٣٦].

ولما دعا أهل الكتاب إلى الدعوة النَصَفِ إلى التوحيد أكده بالنهي عن الشرك فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[آل عمران:٦٤].

ولما أوضح ﷺ خالص حق الله أعقبه مباشرة بالتحذير من الشرك والنهي عنه، فقال: «**حقُّ الله على العبادِ أن يعبُدُوهُ ولا يُشركُوا به شيئًا**»[(١)].

ولما بايعهم ﷺ على التوحيد ربط معه النهي عن الشرك، كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله**»، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله**»، فقلنا: قد

---

(١) سبق تخريجه.

بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله**»، قال: فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا...**»(١).

ولما بين ما يرضاه لنا بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك فقال: «**إنَّ اللهَ يرضى لكم ثلاثًا ويكرهُ لكُمْ ثلاثًا، فيرضى لكمْ أن تعبُدُوه ولا تُشركُوا به شيئًا...**»(٢).

ولما أمر وفد عبد القيس بأربع، ونهاهم عن أربع بدأ به وحَذَّرَ من ضده فقال: «**اعبُدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئًا...**»(٣).

وكان أمره بعبادة الله وحده ونبذ الطاغوت هو هُجَّيْرَاهُ دائمًا كما اعترف بذلك أبو سفيان وهو على جاهليته عندما سأله هرقل قائلًا: بماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان مجيبًا يقول: «**اعبدُوا اللهَ وحدهُ ولا تشركُوا به شيئًا...**»(٤).

وربط بينهما عمر رضي الله عنه لما أوصى رجلًا من أهل البادية فقال: «تعبدَ اللهَ لاَ تُشرك بِهِ شيئًا...»(٥).

وهكذا كان التابعون لهم بإحسان ومن ذلك ما فعله عبدالعزيز بن أبي رواد عندما لقي شقيق بن إبراهيم وكان شقيق قد تاب وتنسك لكن على غير الطريق السليم، قال له: «يا شقيق! ليس الشأن في أكل الشعير، الشأن في المعرفة، أن يعرِفَ اللهَ عز وجل يعبده ولا يشرك به شيئًا. **والثانية**: الرضا عن الله. **والثالثة**: تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين»(٦).

---

(١) مسلم (٢/ ٧٢١)، كتاب «الزكاة»/ باب كراهية المسألة للناس. رقم (١٠٤٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (٧/ ٥٢٥).

(٦) «تاريخ دمشق» (٢٣/ ١٣٦-١٣٧) و«حلية الأولياء» (٨/ ٥٩).

والطاغوت في اللغة: مشتق من طغى طغيانًا أي: تجاوز حده.

قال ابن فارس: «(طغى) الطاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح مُنْقَاس، وهو مجاوزة الحد في العصيان، يقال: طغى السيل إذا جاء بماء كثير قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾[الحاقة:١١] يريد والله أعلم، خروجه عن المقدار»(١).

قال الليث: «كل شيء جاوز القدر فقد طغى كما طغى الماء على قوم نوح».

وقال ابن شميل: «طغا البحر والماء إذا علا كل شيء فاجترفه».

ويقع اسم الطاغوت على الواحد قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾[النساء:٦٠].

والجمع قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة:٢٥٧].

والمذكر كما في الآيات السابقة والمؤنث ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الزمر:١٧].

وقال شمر: «الطاغية الذي لا يبالي ما أتى يأكل الناس ويقهرهم لا يثنيه تحرُّج ولا فَرَقٌ».

وقال الأخفش: «الطاغوت تكون من الأصنام وتكون من الجن والإنس وتكون جماعة وواحدًا»(٢).

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٤١٢).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ١٦٧-١٦٨ و ١١/ ٧-٨)، و«العين» (٤/ ٤٣٥)، و«لسان العرب» (٨/١٥).

الطاغوت اصطلاحًا:

عرفه السلف ببعض أفراده فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الطاغوت الشّيطان»(١) وعرفه بالشيطان؛ لأنه هو سبب الطغيان في هذه الأرض، وبه قال الشعبي ومجاهد وعطاء، وقتادة، والضحاك، والسدي(٢). وقال عكرمة: «الطاغوت: الكاهن»(٣).

وقيل الساحر، وقيل رئيس النصارى، وقيل حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديان وقيل الأصنام وسدنتها وكل رأس في الضلالة(٤).

وتعريفه ببعض أفراده لا ينافي شموله لها جميعًا؛ لأن ذكر بعض الأفراد من باب التمثيل، والجامع لها كلها هو الطغيان ومجاوزة الحد(٥) ولذلك عمم أهل العلم الذين جاؤوا بعدهم تعريف الطاغوت فقال مالك: «الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل»(٦) وقال ابن قتيبة: «كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان فهو جبت وطاغوت»(٧).

وقال ابن جرير: «والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥١)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

(٢) «جامع البيان» (٣/ ١٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٨/ ٢٥١)، كتاب التفسير/ باب ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

(٤) انظر: «جامع البيان» (٣/ ١٣) و«تهذيب اللغة» (٨/ ١٦٧-١٦٨) و«زاد المسير» (١/ ٣٠٦) و (٢/ ١٠٧-١١٧)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤١٣).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٤٤)، و«روح المعاني» (٣/ ١٣).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٣٣٤).

(٧) «غريب القرآن» (١٢٨).

الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له إنسانًا كان ذلك المعبود أو شيطانًا أو وثنًا أو صنمًا أو كائنًا ما كان من شيء»[١].

وعرفه شيخ الإسلام فقال: «الطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان»[٢].

فلفظة (كل) تفيد العموم أي أن كل متجاوز به عن قدره فهو طاغوت.

ويدل على أن الطاغوت عام في كل معبود دون الله أمران:

الأول: أن الله جعل عبادة الطاغوت في مقابلة عبادة الله تعالى والإيمان به كما في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾[البقرة:٢٥٦].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾[النساء:٧٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[الزمر:١٧].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾[النساء:٦٠].

الثاني: أن مهمة الرسل هي الدعوة إلى التوحيد واجتناب الطاغوت قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

ويدل على أن الطاغوت هو كل ما عبد من دون الله آي كثيرة في كتاب الله بينت أن الرسل دعوا إلى التوحيد ونبذ الشرك كما في قوله ﷻ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف:٤٥].

فدلت هذه الآيات على أن القضية التي اتفق على التحذير منها قضية واحدة هي

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٩).

(٢) «مجموعة الرسائل» المجموعة الثانية (٣٧٣).

«عبادة غير الله» وهي التي تسمى «عبادة الطاغوت»، وتسمى «شركًا» فكل معبود أشرك به فهو طاغوت، ويوضح ذلك أن المشرك لا يغفر له، ولا يبشر برحمة من الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢].

وينبغي أن يقيد بكونه راضيا بعبادة عابديه له، قال شيخ الإسلام: «فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهًا لذلك فهو طاغوت»(١).

ولهذا قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب في تعريفه للطاغوت: «الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِدَ من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله»(٢).

وهذا القيد يخرج الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام والصالحين؛ لأنهم لا يرضون أن يدعوا مع الله ولا أن يطاعوا في غير طاعة الله ولذلك برأهم الله من الطاغوتية في الدنيا فصرف عبادة عابديهم إلى الشياطين التي أغوتهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ:٤٠-٤١].

ولما ذكر عذاب الطواغيت في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنبياء:٩٨-١٠٠]. بيَّن نجاة عباده الصالحين الذين لم يرضوا بأن يعبدوا مع الله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠١).

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ/ القسم الأول - العقيدة» (٣٧٧).

﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٣].

يوضحه أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ شق على قريش فقالوا شتم آلهتنا فجاء عبدالله بن الزبعري فأخبروه الخبر، فقال لهم: إنا نعبد الملائكة والنصارى يعبدون المسيح واليهود يعبدون عزيرًا فهل هؤلاء في النار؟ فأنزل الله نجاة هؤلاء؛ لأنهم لم يرضوا بالشرك ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(١).

أقسام الطاغوت بحسب أنواع المعبودات:

١- الجمادات التي لا روح فيها كالأحجار والأخشاب ونحوها:

يدل له قول عائشة رضي الله عنها في سبب نزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[البقرة:١٥٨]. قالت: «أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾»(٢).

والشاهد قولها (لمناة الطاغية) فوصفتها بالطاغية مع أنها جمادٌ لا روح فيها.

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى تضطربَ ألياتُ نساءِ دوسٍ على ذي الخلصةِ**». وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية(٣).

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٤٩٩-٥٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٩٠٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٤٩٧-٤٩٨)، كتاب «الحج»/ باب وجوب الصفا والمروة، وجُعِلَ من شعائر الله. رقم (١٦٤٣).

(٣) سبق تخريجه.

والشاهد قوله: «**وذُو الخلصةِ طاغيةُ دوسٍ**»، فوصفها بالطاغية مع أنها جمادٌ لا روح فيها.

٢- ما فيه روح كالإنس والجن والشياطين:

فسَّر السلف الطاغوت بالشيطان والساحر. والكاهن ونحو ذلك قال جابر: «كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها، في جهينة واحد، وفي أسلم واحد، وفي كل حي واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان»، وقال عمر: «الطاغوت: الشيطان»، وقال عكرمة: «الطاغوت: الكاهن»[1].

وعند قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء:٦٠].

قال مجاهد: «الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم»[2]. وهذه الأنواع التي ذكرت كلها لها روح.

ثالثًا: الأمور المعنوية:

كالهوى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية:٢٣].

وما أُعطي صفة القداسة كالعقل عند من يقدمه على النقل، قال ابن القيم: «كسر الطاغوت الثاني وهو قولهم: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل»[3].

والمجاز، قال ابن القيم: «فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية

---

(١) البخاري (٨/ ٢٥١) كتاب «التفسير»/ باب: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

(٢) «جامع البيان» (٤/ ٨٣).

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» (١/ ١٢٩).

لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز»(١).

والقومية العربية يقول أحدهم: العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية.

يقول ساطع الحصري:

هبُوني عيدًا يجعل العُرْبَ أُمّةً وسيروا بجُثْماني على دينِ بَرْهَمِ
سلامٌ عَلَى كُفرٍ يُوحدُ بَيْنَنَا وأهْلًا وسهلًا بعدهُ بِجَهنَّمِ(٢)

ولا شك أن القومية بهذا الفهم من أكبر الطواغيت.

والبعثية: يقول قائلهم:

آمنتُ بالبعثِ ربًّا لا شريكَ لهُ وبالعُرُوبةِ دينًا ما له ثانِ

ثم استدل بقوله تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت»:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة لقسم مقدر أي والله لقد بعثنا.

قد: هنا للتحقيق، فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات القسم المقدر -اللام- قد.

﴿بَعَثْنَا﴾: أي أرسلنا والبعث هو الإثارة والإرسال.

﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾: أي في كل جماعة من الناس ممن كانوا قبلكم.

﴿رَّسُولًا﴾: كما أرسلنا إليكم رسولكم محمد ﷺ، وجاءت رسولًا نكرة لتعمّ كلّ مُرْسَل.

﴿أَنِ﴾: تفسيرية لجملة (بعثنا)؛ لأن البعث يتضمن معنى القول؛ إذ هو بعث

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٢).

(٢) «اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية العربية» (٢٥٠) نقلًا عن فكرة القومية العربية (١٣٣).

للتبليغ، ويصح أن تكون (أَنْ) مصدرية: أي بعثناه بأن اعبدوا، ثم بين بم بعث الرسول فقال: أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، أي أَنّ كُلَّ رسول قال لقومه: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أمر بجعل العبادة لله وحده، أي: أفردوا الله بالعبادة وأخلصوا له.

وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها لأنه حق الله تعالى.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: أي تباعدوا عن عبادة كل ما سواه سبحانه فكونوا في جانب والطاغوت في جانب آخر، وهذا غاية المباعدة، وفيه من الحذر من الطاغوت ما لا يخفى؛ ولهذا قال الطبري «أبعدوا من الشيطان واحذروا أن يغويكم ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا»(١).

وإذا كان جميع الرسل يدعون إلى التوحيد واجتناب الشرك فمحمد ﷺ مقتد بمن كان قبله، فلماذا تعادونه وتردون دعوته؟

من فوائد هذه الآية:

١- عبادة الله لا تنفع إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦].

وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٢) [يوسف:١٠٦].

٢- أن الله لا يرضى بكفرهم ولذلك أرسل إليهم الرسل.

٣- أن المشركين ليس لهم مستند على شركهم لا من نقل صحيح ولا عقل صريح.

٤- وجوب الحذر من الطاغوت بالبعد عنه لئلا تنزل بنا عقوبة الله وبأسه الذي لا

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٢٠١).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٢٦٨).

يرد عن القوم المجرمين. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:٣٦].

٥- أن جميع الرسل افتتحوا دعوتهم بتوحيد الألوهية، فمن أراد دعوة الناس إلى الله، فعليه أن يبدأ به وإلا صارت دعوته هباءً.

٦- أن دين الأنبياء كلهم واحد.

٧- أن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجل عبادة الله وحده لا شريك له.

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفر بالطَّاغُوتِ والإيمان باللهِ.

....

ولما ذكر المؤلف أعظم ما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام انتقل إلى بيان حكمه فقال: وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

وفرض: يقال فرضت الشيء أفرضه فرضًا وفرّضته للتكثير أي أوجبته، والْفَرْضُ الإيجاب فمعنى افترض: أي أوجب إيجاباً لازمًا ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾[البقرة:١٩٧] أي أوجبه على نفسه بإحرامه(١).

وقوله: وافترض الله أي: أوجب الله وليس غيره.

على جميع العباد: وكلمة جميع من ألفاظ العموم؛ ليبين أن الدين فرض على جميع الناس إنسهم وجنهم لا يستثنى أحد من ذلك ثم بيّن ما هو المفترض، فقال: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الكفر بالطاغوت:

ورد للكفر في اللغة معان عدة هي **الستر**: ومنه سمي الكافر كافرًا؛ لأنه ستر نعم الله عليه ونِعَمُ الله عزوجل آياتُهُ الدالة على توحيده.

والتغطية: ومنه سمي الزارع كافرًا لأنه يغطي الحب بالتراب.

والعصيان والامتناع: يقال لأهل دار الحرب قد كفروا أي عصوا وامتنعوا.

والبراءة والبغض والعداوة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[إبراهيم:٢٢]. أي: تبرأت.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾[العنكبوت:٢٥]. أي: يتبرأ بعضكم من بعض.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ١٢) و«العين» (٧/ ٢٩) و«اللسان» (٧/ ٢٠٢) مادة (فرض).

والكفر ضد الإيمان سُمِّيَ بذلك؛ لأنه تغطية للحق، وكذلك كَفْران النعمة جُحُودها وسترها، وقال الليث: الكفر نقيض الإيمان آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت كما أن كفر النعمة نقيض الشكر(١).

فهذه المعاني لا بُدَّ أن يحققها المسلم بقلبه ولسانه وجوارحه تجاه الطاغوت(٢)، فإذا أراد أن يكفر بالطاغوت فعليه أن يستر ويغطي وينكر ويجحد ما ادعاه الطاغوت من الصفات التي ادعاها أو ادعيت له، وهو لا يستحقها، ويعصيه ويمتنع من طاعتِهِ وتعظيمه أعظمَ امتناعٍ، ومع هذا يعلن البراءة منه ويبغضه ويعاديه بقلبه ولسانه وجوارحه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

أما الكفر بالطاغوت اصطلاحًا: «أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم»(٣).

وهذا التعريف هو الذي دلت عليه اللغة والشرع.

أما اللغة فإن اعتقاد بطلان عبادة غير الله داخل تحت معنى الستر والتغطية والجحود؛ وذلك أن من اعتقد بطلان عبادة غير الله فقد جحد ما ادعاه الطاغوت أو ما ادعي له مما لا يستحقه وغطاه وستره.

وأما تركها فهو داخل تحت معنى العصيان والامتناع.

وأما تكفير أهلها بإنكار أن يكونوا على حقّ ومنه قوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، «أي: أنكرنا

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٣) و«معجم مقاييس اللغة» (٥/ ١٩٦) و«الوجوه والنظائر» لمقاتل بن سليمان (١٦) و«الوجوه والنظائر» للدامغاني (٤٠٥-٤٠٦).

(٢) وذلك لأن الإيمان يكون بالقلب واللسان والجوارح والكفر نقيض الإيمان، فيكون بهذه الثلاثة أيضًا.

(٣) «الدرر السنية» (١/ ١٦١).

ما كنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا»[1] فهو داخل تحت الإنكار والجحود والستر.

وأما معاداة الطواغيت وأهلها فهو داخل تحت البراءة والعداوة الناشئة عن بغضهم.

وأما دلالة الشرع فأكثر من أن تحصر:

فقوله: **أن تعتقد بطلان عبادة غير الله** فالقرآن كله أو جُلّه يدل عليه ومن ذلك:

١- بيان ضلال من عبد غير الله بل أنه لا أَضلَّ منه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[الأحقاف:٥-٦].

فأبطل الله عبادة غيره من وجوه:

أ- أنهم لا يستجيبون للداعي ولو قُدِّرَ أَنَّ الله أحياه إلى يوم القيامة واستمر في طلبه منهم.

ب- أنهم لا يسمعون دعاء الداعي ولا يعلمون به.

جـ- أنهم ينقلبون إلى أعداء في وقت الحاجة الشديدة.

٢- بيان أنه ليس فيها شيء من خصائص الألوهية فلا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا بل هي مخلوقة مربوبة فكيف يسوغ أن تعبد. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾[الفرقان:٣].

فمن كان بهذه الصفة من الضعف والعجز فعبادته باطلة بلا شك.

٣- أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية فيلزمهم الإقرار بتوحيد الألوهية.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف:٨٧].

---

(١) «جامع البيان» (١٠/ ٤٠).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

والإقرار بألوهية الله وحده يلزم منه بطلان ألوهية ما سواه.

وأما قوله: «وتتركها»؛ فلأن الله أمر بتركها في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[الحج:٣٠].

والاجتناب: أبلغ من الترك فإنه ترك مع بعد ومباعدة.

وبشر تاركي الطاغوت والمجانبين له فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾[الزمر:١٧].

وأعلنها إمام الحنفاء خليل الرحمن مدوية أمام قومه، فقال فيما أخبر الله عنه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم:٤٨].

وافتخر يوسف عليه السلام بترك الطاغوت، فقال فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف:٣٧].

ولشدة وضوح الأمر بترك الطاغوت فهمته الأمم وهي باقية على كفرها، قال الله تعالى مخبرًا عما قاله قوم شعيب لشعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[هود:٨٧].

وفي حديث أبي سفيان لهرقل لما سأله عما يقول لهم ويدعوهم إليه ويأمرهم به، قال: «يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم»[١].

(١) سبق تخريجه.

وأما قوله: «**وتبغضها**» البغض: نقيض الحب والبغضاء: شدة البغض(١).

ولما كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام هم أقوى الناس تحقيقًا لهذا المقام بل هم القدوة فيه، صرّحوا لقومهم بالبغضاء كما قال الله ﷻ عنهم وعن إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

ولشدة بغض النبي ﷺ للطاغوت كان يقلقه بقاءه في الأرض ويجد في نفسه الألم الشديد من بقائه، فيطلب من يريحه منه، ويرسل سرية لأجل هدمه وإحراقه.

روى جرير بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**ألا تُرِيحُني مِن ذي الخَلَصَةِ**». قال جرير: فانطلقت في مائة وخمسين راكبًا فكسرناه، وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فدعا لنا ولأحمس، وفي رواية فكسرها وحرقها حتى تركها كأنها جمل أجرب. فبرَّكَ رسول الله في خيل أحمس ورجالها خمس مرات»(٢).

ولما دخل ﷺ مكة فاتحًا منصورًا حطم الأصنام بادي ذي بدء بعود في يده، وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[الإسراء:٨١]. ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾(٣) [سبأ:٤٩].

وأرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، ولم يوافق على طلب ثقيف بقاءه ولا لحظة واحدة(٤).

أما تكفير عباد الطاغوت وأهله:

كفر عباد الطواغيت قد أجمع عليه أهل العلم وتكاثرت الأدلة عليه بصفات متنوعة

---

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ١٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٩٣).

فوصفهم الله بالكفر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[البينة:٦].

وأمر نبيه أن يخاطبهم بأخصِّ أوصافهم، وهو الكفر، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[الكافرون:١]. وأمر بقتالهم واستباحة دمائهم وأموالهم لكفرهم فقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[التوبة:١٢].

وتوعدهم بالعذاب الأخروي إن هم ماتوا على الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران:٩١].

ومعاداتهم: لما كان عباد الطاغوت محادِّين لله محاربين له وجب على المسلم معاداتهم ومحاربتهم وإظهار ذلك لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤].

ومن مظاهر المعاداة البراءة منهم حتى وإن كانوا أقرب الناس، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾، فلما تبرأ منه مدحه الله على هذه البراءة فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾[التوبة:١١٤].

وكذلك براءة نبينا محمد ﷺ منهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة:٣]. «فليس لهم عنده عهد وميثاق فأينما وجدوا قتلوا»(١).

وكان النبي ﷺ يوليها اهتمامًا خاصًا فيجعلها من شروط البيعة عند الدخول في الإسلام كما في حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه عندما أسلم قال قلت: يا رسول الله! اشترط عليّ فقال: «**تعبُد الله ولا تُشرك به شيئًا، وتُصلِّي الصَّلاةَ المكتوبة، وتُؤدي الزَّكاةَ**

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧٤).

المفرُوضةَ، وتنصح للمسلمِ، وتبرَأ من الكافرِ»[١].

ويوضح خطورة عدم البراءة من الطواغيت وأهلها قصة ابن النواحه قال جرير والأشعث لعبدالله بن مسعود في المرتدين: «استتبهم وكفِّلهم، فتابوا وكفلهم عشائرهم»[٢].

ولهذا الأثر قصة رواها حارثة بن مضرب، قال: صليت الغداة مع عبدالله ابن مسعود، فلما سلم قام رجل فأخبره أنه انتهى إلى مسجد بني حنيفة فسمع مؤذنهم عبدالله بن النواحة يشهد أن لا إله إلا الله، وأن مسيلمة رسول الله، وأنه سمع أهل المسجد على ذلك، فقال عبدالله عَلَيَّ بابن النواحة وأصحابه فجيء بهم، فأمر قرضة بن كعب فضرب عنق ابن النواحة ثم استشار الناس في أولئك النفر فأشار عليه عدي بن حاتم بقتلهم، فقام جرير والأشعث فقالا: لا، بل استتبهم وكفِّلهم عشائرهم فتابوا وكفّلهم عشائرهم[٣].

وكانت عدة المذكورين سبعين ومائة رجل»[٤].

فآخذهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على سكوتهم وعدم براءتهم من الطاغوت وعدم عداوتهم له، لأن حكمهما سواء قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠].

---

(١) أحمد (٤/ ٣٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٤/ ٤٦٩) كتاب «الكفالة»/ باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ٢٠٦)، صححه أبو حاتم وأبو زرعة. «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٤٦٥) رقم (١٣٩٧)، وقال ابن حجر: «هذا إسناد صحيح». «تغليق التعليق» (٣/ ٢٩٠-٢٩١)، وأحمد (١/ ٤٠٤)، عن مُعيز السعدي، وقال شيخ الإسلام: «إسناد صحيح». «الصارم المسلول» (٣٢٤-٣٢٥).

(٤) «المصنف» لابن أبي شيبة (٦/ ٤٣٩).

وأوجب النبي ﷺ عداوة الكافرين وإظهارها في الحياة العملية فأمر بعدم بداءتهم بالسلام واضطرارهم إلى أضيق الطريق فقال: «**لا تبدؤا اليهودَ والنَّصارى بالسَّلامِ، فإذا لقيتُمُوهُمْ في طريقٍ، فاضطروهم إلى أضيقِه**»(١).

ولا شك أن أعظم مظاهر معاداة الطاغوت وأهله هو الجهاد في سبيل الله، قال المتنبي:

إذا رأيت نُيُوبَ اللّيْثِ بارزةً   فلا تظُنَنَّ أنَّ اللَّيثَ يبتسِمُ

فحال المجاهدين إظهار العداوة وقتل المحاربين وإذلالهم لما يترتب على ذلك من إقامة هدف الجهاد وهو إزالة الشرك ومحو عبادة الطاغوت مع إخضاع الناس لدين الله قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[البقرة:١٩٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[الأنفال:٣٩].

وأختم مبحث الكفر بالطاغوت بقول الإمام محمد بن عبدالوهاب: «ومعنى الكفر بالطاغوت أَنْ تَبْرَأَ من كلِّ ما يعتقد فيه غير الله من جني أو إنسي أو شجر أو حجر أو غير ذلك، وتشهدَ عليه بالكفر والضلال وتبغضَه ولو كان أباك وأخاك.

فأما من قال: أنا لا أعبد إلا الله، وأنا لا أتعرض السّادة والقباب على القبور وأمثال ذلك فهذا كاذب في قول لا إله إلا الله، ولم يكفر بالطاغوت»(٢).

(**والإيمانُ بالله**): وأما الإيمان بالله فهو الاعتقاد الجازم بربوبيته لكل شيء، وكمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأنه الحق الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، وأن يُطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويوالي من والاه ويعادي من عاداه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/ ٣٣-٣٤) وانظر: «الدرر السنية» (٢/ ١٠٩ و١١٦-١٢٠).

والكفر بالطاغوت والإيمان بالله هما أساس دعوة الرسل التي ربَّوا عليها أتباعهم وغرسوها في قلوبهم، وكان علي بن الحسين يعلم ولده يقول قولوا: آمنت بالله وكفرت بالطاغوت[1]، وحتى آل الأمر ببعضهم أن أثبتها في وصيته.

ومن ذلك وصية مكحول حين أوصى قال: هذا ما شهد به: يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ويؤمن بالله ويكفر بالطاغوت على ذلك يحيا إن شاء الله ويموت ويبعث... إلخ[2].

«فالله الله إخواني: تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره أُسِّه ورأسه وهو شهادة أن لا إله إلا الله، واعرفوا معناها، وأحبوا أهلها واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم، أو قال ما عليَّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب على الله وافترى، بل كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم ولو كانوا إخوانه وأولاده.

فالله الله تمسكوا بأصل دينكم لعلكم تلقون ربكم لا تشركون به شيئًا، اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين»[3].

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٢٧٨) رقم (٢٤٧١).

(٢) «سنن الدارمي» (٢/ ٢٨٣) رقم (٣١٨٤).

(٣) «الدرر السنية» (٢/ ١١٩-١٢٠)، و«مجموعة التوحيد» (١٥٥)، وانظر: «القول السديد» (٣٢-٣٤). «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/ ٣٣-٣٤).

قال ابن القيم رحمه الله : «معنى الطَّاغُوتُ هو ما تَجَاوَزَ بهِ العبدُ حَدَّهُ مِن مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ»[1].

....

ما تجاوز به: قال الليث جاوزت الموضع جوازًا أي جزته[2] وجاوزت الشيء وتجاوزته أي تعديته[3].

العبد: اختار لفظة العبد؛ لأنها هي حد المخلوق مهما علت رتبته، فأعلى الناس قدرًا ومكانة يقول: «**إنَّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[4].

حدّه: حد كل شيء منتهاه[5].

ومعنى ما **تجاوز به العبد حده**: أي تعدى به قدره ومكانته فرفعه فوق منزلته التي هي له شرعًا وواقعًا.

من معبود: المعبود هو الذي يُحبُّ مع الذل والخضوع له فكل من عبد مع الله أو من دونه فقد تجاوز به عابدوه قدْره، وذلك أن قدْره أن يكون عابدًا لا معبودًا راجيًا لا مرجوا خائفًا لا مخوفًا، ومن أمثلة المعبودين بغير حق:

الملائكة، عيسى عليه السلام. وأمه مريم. ود، سواع. يغوث. نسر. ذو الخلصة. اللات. العزى. مناة. البدوي. وغيرهم.

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٤٩).

(٣) «المصباح المنير» (٤٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾. رقم (٣٤٤٥).

(٥) «تهذيب اللغة» (٣/ ٤١٩).

المتبوع: هو الذي يقتفى أثره فيتخذ قدوة يقتدى بأفعاله. والمقصود به هنا هو الذي يقتدى به في مخالفة دين الله والصد عنه.

ومن أمثلة المتبوعين بغير حق:

١- الآباء والأجداد:

اتخذت الأمم السابقة الآباء والأجداد طواغيت يقتدون بهم في أصل الدين، ويجعلون ذلك سلاحًا يصدون به الناس عن المنهج الحق، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣].

وفي التحليل والتحريم: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[المائدة:١٠٣-١٠٤].

وفي ارتكاب المعاصي والذنوب ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾[الأعراف:٢٨].

٢- السحرة والكهان:

من الابتلاء والامتحان أن يمكن الله الشياطين من استراق السمع بعض الأحيان، ثم يلقيها بعضهم إلى بعض حتى يلقيها الشيطان في أذن الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة، فيغتر الناس بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ويصدقون الساحر أو الكاهن محتجين بأنه قال يوم كذا وكذا: كذا وصدق في ذلك وهم لا يدرون حقيقة الأمر فيتبعونهم فيما يقولون لهم، ولا شك أن هذا من الفتن العظيمة[١].

---

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٨/ ٣٨٠)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾. رقم (٤٧٠).

٣- علماء السوء:

أشد الناس خطرًا على المجتمعات هم علماء السوء؛ لكثرة من يضل بسببهم ممن يتبعهم ولهذا سماهم الله أربابًا لمتبعيهم فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة:٣١]، وخوفنا النبي ﷺ من فتنهم، فقال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[١]. وفي رواية: «**وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين**»[٢].

٤ - الهوى:

الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة، وسمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى نار جهنم[٣].

وضابطه: كل ما خالف الحق وللنفس فيه حظّ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد[٤] وينقسم الهوى إلى قسمين:

١ - اتباع الهوى في الديانة: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٣].

٢- اتباع الهوى في الشهوة: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[مريم:٥٩].

---

(١) أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤/ ٤٥٠-٤٥١)، كتاب «الفتن والملاحم»/ باب ذكر الفتن ودلائلها. رقم (٤٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٥٠٤)، كتاب «الفتن»/ باب ما جاء في الأئمة المضلين. رقم (٢٢٢٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أحمد (٤/ ١٢٣)، قال ابن كثير: «إسناده جيد قوي». «تفسير القرآن العظيم» (٤٨٠).

(٣) «المفردات» (٨٤٩).

(٤) «الهوى» لشيخنا الغنيمان (١٢).

واتباع الهوى في الديانة أعظم شرًّا وخطرًا من اتباع الهوى في الشهوة قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[القصص:٥٠].

وما منع اليهود من اتباع دين الله إلا أهواؤهم الفاسدة ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧].

وكذلك مشركو العرب قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[النجم:١٩-٢٣].

أو مطاع: الطاعة: هي فعل الأوامر، فتكون الطاعة لمن له سلطة وولاية على المطيع كالحكام والأمراء والرؤساء وشيوخ القبائل ونحوهم. وذلك لأن لديهم القدرة على إلزام شعوبهم بما يأمرونهم به. فيكون أحدهم طاغوتًا إذا أمرهم بما حرم الله وألزمهم بفعله كما فعل فرعون حين عبَّد الناس له والنمرود وغيرهما من الحكام الظلمة ذوى السلطة والجبروت.

قال شيخ الإسلام: «والمطاعُ في معصية الله، والمطاعُ في اتباع غير الهدى ودين الحق سواءً كان مقبولًا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعًا أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت؛ ولهذا سمى اللهُ مَنْ تحوكم إليه من حاكم بغير كتاب الله طاغوتاً وسمى الله فرعون وعادًا طغاة»(١).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠١).

والطواَغِيت كثيرة وَرُؤُوسهم خَمْسة : إبْليس لَعنَه الله.

....

ووجه حصر ابن القيم للطاغوت بهذه الأنواع الثلاثة لأن الطاغوت لا يمكن أن يخرج عن هذه الأنواع فهو إما طاغوت عبادة أو طاغوت متابعة أو طاغوت حكم.

وبهذا المعنى العام الشامل تكون الطواغيت كثيرة لا تحصى إلا بكلفة ومشقة. ولكن بالتتبع والاستقراء وجد أَنَّ أكبرها خمسة وأن ما عداها متفرع عنها.

ولأجل ذلك قال المؤلف رحمه الله والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة.

والطواغيت: جمع طاغوت «والطاغوت فعلوت من الطغيان»(١)، وهي صيغة مبنية للكثرة والسعة. ويجمع الطاغوت أيضًا على طواغٍ، كما قال ﷺ: «**لا تحلفُوا بالطواغي ولا بآبائكم**»(٢).

كثيرة: جاءت مؤنثة لأن الطواغيت جمع تكسير.

ورؤوسهم: من الرأس أي: رؤساؤهم وهم كبارهم الذين لهم التأثير أكثر من غيرهم.

إبليس: مشتق من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[الروم:١٢].

وسمي إبليس إبليسًا؛ لأنه أبلس من الخير كله أي: أيس منه.

ويسمّى الشيطان: وهو مشتق من شطن أي: بعد عن الخير، قال ابن فارس: «الشين

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤٢).

والطاء والنون أصل مطرد صحيح، يدل على البعد»[١].

قال الليث: والشَّيْطَان فَيْعَال مِنَ شَطَنَ أي: بعد، وقيل فَعْلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق[٢]، وكلاهما ينطبق على الشيطان فإنه بلغ الغاية في البعد عن رحمة الله، ولذلك هلك واحترق.

لعنه الله: أي: لعنه، ومِنْ ثَمَّ طَرَدَه وأبعده وأخزاه وأقصاه وحكم عليه بالشقاء الذي لا نهاية له.

قال تعالى: ﴿شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾[النساء:١١٧-١١٨].

وبدأ به الشيخ رحمه الله لأمور:

١- لأن الشيطان أصل لكل الطواغيت فجميعهم تعلّموا على يديه[٣]. وهو الذي يؤزّهم إلى كلّ شرّ وضلال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:٨٣].

٢- أن أذيته لآدم وبنيه جميعًا بخلاف الطواغيت الأخرى فإن أذيتها مقتصرة على قوم دون آخرين.

فعداؤه وإغواؤه مستمر طوال التاريخ من خلق آدم إلى قيام الساعة: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:٧٩-٨٢].

فأغوى أبانا آدم حتى أكل من الشجرة، ومازال يزين الشرك لقوم نوح حتى عبدوا الأصنام، وزيّن لقوم إبراهيم إحراقه بالنار، وأغوى فرعون حتى ادعى الربوبية

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ١٨٣) مادة (شطن).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣١٢)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٩٢).

والألوهية، وصد عن دين الله وحارب المصلحين من الرسل وغيرهم، وزيّن لعمرو بن لحي الخزاعي إحياء الوثنية في مكة من جديد؛ فكان هو أول من بدَّل دين إبراهيم عليه السلام، واستجمع قواه في دار الندوة لقتل النبي محمد ﷺ وما فتئ يحث كفار قريش على حرب المسلمين في بدر قائلًا لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال:٤٨].

بل توجه بشهاب من نار يريد حرق النبي ﷺ، وحاول بأحمد بن حنبل عند موته لعله أن يحصل منه على لحظة عجب يخسر بها دنياه وأخراه، وما زال كذلك إلى زماننا هذا يزين الشرك والفساد للناس حتى كثر الخنا والغنا والمعاصي، بل والكفر والفجور، ولن يزال كذلك حتى لا يبقى في الأرض من يقول لا إله إلا الله فعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فيما أخبر به عن حال الناس عند قيام الساعة «**فيبقَى شرارُ النّاس في خفّةِ الطّيرِ وأحلامِ السّباعِ، لا يعرفُونَ معروفًا ولا يُنْكِرُونَ منكرًا فيتمثلُ لهم الشيطانِ فيقول: ألا تستجيبونَ؟ فيقولون: فما تأمرُنا فيأمُرَهُم بعبادةِ الأوثانِ**»(١).

أما غيره من الطواغيت فإضلالهم وإغواؤهم طوال أعمارهم المحدودة فقط.

٣- حقده الشديد على آدم وبنيه كلهم ويدل لذلك أنه طلب الإنظار ليس للتوبة والإنابة إلى الله وإنما للإغواء والانتقام ويظهر حقده في دعائه ربه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٤-١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[النساء:١١٨-١١٩].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٥٨-٢٢٥٩)، كتاب «الفتن وأشراط الساعة»/ باب خروج الدجال ومكثه في الأرض. رقم (٢٩٤٠).

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠].

وقعوده بأطرقنا، قال ﷺ: «**إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه وأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتذر أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد وهو جَهْدُ النفس والمال، فتقاتلُ فتقتلُ فَتُنكحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المال قال فعصاه فجاهد**»(١).

ولخطورته حذرنا الله منه، بل لم يرد في التحذير من الطواغيت كالتحذير منه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر:٦].

قال حاتم الأصم: «رأيت كل أحد له عدو فمن اغتابني ليس بعدوي، ومن أخذ مني شيئًا ليس بعدوي، بل عدوي من إذا كنت في طاعةٍ أمرني بمعصية الله، وذلك إبليس وجنوده فاتخذتهم عدوًا وحاربتهم»(٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

«أي لا يخدعنكم بالله الشيطان فيمنيكم الأماني ويعدكم من الله العدات الكاذبة ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله»(٣).

والغَرُور على وزن الْفَعُول وفَعُول من أسماء المبالغة... ولذلك قيل للشيطان الْغَرُور

---

(١) أحمد (٣،٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١-٢٢)، كتاب «الجهاد»/ باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، قال ابن حجر: «إسناده حسن إلا أن في إسناده اختلافًا». «الإصابة» (٤/ ٢١٩)، وصحح إسناده العراقي. «تخريج الإحياء» (٣/ ٣٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٨٦).

(٣) «جامع البيان» (٢٢/ ١١٦).

لأنه يغر ابن آدم كثيرًا[(١)].

أما غيره من الطواغيت فمهما حقدوا فلا يصل حقدهم إلى هذا الحد ولا قريب منه.

أساليب الشيطان ووسائله في حربه لابن آدم:

١- تزيين الشر:

ما زال الشيطان ولن يزال يزين الشر في قلوب الناس حتى يرغبوا فيه بل ويدافعوا عنه، قال تعالى: ﴿ **تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[النحل:٦٣].

فزيّن الشر لعاد وثمود فصدهم عن الدين الحنيف، قال تعالى: ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾[العنكبوت:٣٨].

وزين الكفر للناس. قال تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[الحشر:١٦].

وكذلك زين لهم الردّة عن الإسلام. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ** ﴾[محمد:٢٥].

وزين لهم الشرك بالله وأزلهم عن التوحيد الذي فطرت عليه الناس بل وغير الناس من الحيوانات والطيور وغيرها، قال تعالى في خبر الهدهد مع سليمان عليه السلام: ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾[النمل:٢٤].

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «**وإنّي خلقتُ عبادِي حُنفاء كلهم، وإنَّهُمْ**

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ١٢٥).

أَتَتْهُم الشَّياطينُ فاجتالتهُمْ عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أن يُشْرِكُوا بي ما لم أُنزل به سُلطانًا»(١).

فإن لم يستطع تزيين الشرك والكفر في قلوبهم زيّن لهم البدع؛ لأن البدع شرٌّ من المعاصي وأعظمُ إثمًا وأخطر على العابدين منها، فهو يفرح بها ويحبها وبقدر محبته لها يكون حبه لهلاك الإمام السني الذي يدفع البدع ويحاربها، قال ابن عباس رضي الله عنه: «والله ما أظن على ظهرِ الأرضِ اليومَ أحدًا أحبّ إلى الشيطانِ هلاكًا مني. فقيل وكيف؟ فقال: والله إنه ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب فيحملها الرجل إليّ فإذا انتهت إليّ قمعتها بالسنة فترد عليه»(٢).

فإن لم يستطع تزيين البدعة زيَّن المعصية والعصبية والعداوات بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة:٩١].

٢- التشكيك في المعتقد:

من شدة عداوة الشيطان لبني آدم وحقده عليه يحرص على نسف عقيدته ودينه من أساسها فيتدرج في وسوسته حتى يقول: مَنْ خلق الله؟ قال النبي ﷺ: «**يأتي الشّيطانُ أحدَكُمْ فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتّى يقول: من خلق ربّكَ؟ فإذا بلغَهُ فليستعذ بالله ولينْتَهِ**»(٣).

ولم ييأس هذا العدو من أحد حتى من أفضل البشر بعد الأنبياء وهم الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١/ ٥٥) رقم (١٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٣٦)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة إبليس وجنوده. رقم (٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١٢٠)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها. رقم (١٣٤).

ولكن الله ردّه عنهم خاسئًا وهو حسير. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخرّ من السماء أحبّ إلي من أن أتكلم به فقال النبي ﷺ: «**اللهُ أكبر. اللهُ أكبر. اللهُ أكبر، الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَهُ إلى الوسوسَةِ**»، وفي لفظ: «**لأن يكون أحدنا حُمَمَةً أَحَبُّ إليه من أن يتكلَّم به**»(١).

ومن أعجب ما فعل إبليس بأقوام ينتسبون إلى الإسلام من أهل البدع أن زين لهم أن أصل دينهم هو الشك في الله تعالى وأنه لا طريق لهم إلى صحة دينهم إلا بهذا، فشكوا وما رجعوا.

٣- إنساؤه العبد ذكر الله:

إذا ذكر العبد ربه قوي إيمانه وضعف شيطانه فلا يستطيع إغواءه فماذا يفعل الشيطان؟ إنه يستحوذ عليه فينسيه ذكر الله لأجل أن يسيطر على قلبه ثم يغويه قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة:١٩].

٤- تخويفه المؤمنين من أهل الباطل:

لا يزال يخوف المؤمنين من الكفار حتى يتركوا شيئًا من دينهم ويجبنوا عن جهاد عدوهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

٥- الغناء والموسيقى والمرأة والمشاركة في الأولاد:

من أساليبه في إغواء بني آدم إشاعة الغناء بينهم قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الإسراء:٦٤].

---

(١) أحمد (١/ ٢٣٥ و٣٤٠).

وإذا رأيت حرص أعوان الشيطان على سفور المرأة وابتزازها علمت أنها من أعظم وسائل الشيطان قال النبي ﷺ مجليًا هذه الحقيقة «**إنَّ المرأةَ تُقْبِل في صورةِ شيطانٍ وتُدْبرُ في صورةِ شيطانٍ**»(١).

ومحذرًا من فتنتها أيما تحذير بقوله: «**اتّقُوا الدُّنيا واتّقوا النّساءَ، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيلَ كانت فِي النساءِ**»(٢). وقوله: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أَضرُّ على الرِّجال من النساء**»(٣)، وغير ذلك.

---

(١) مسلم (٢/ ١٠٢١)، كتاب «النكاح»/ باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريته فيواقعها. رقم (١٤٠٣).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٩٨)، كتاب «الذكر»/ باب أكثر أهل الجنة الفقراء. رقم (٢٧٤٢).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٨)، كتاب «الذكر»/ باب أكثر أهل الجنة الفقراء. رقم (٢٧٤١).

ومَنْ عبدَ وهو راضٍ.

....

قوله: (**من عبد وهو راض**) المعبودون من دون الله أو مع الله كثير وكثير. فقد عبدت الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام والصالحون بل والطالحون الفاسدون المفسدون، وعبدت الأشجار والأحجار والكهوف وغير ذلك مما عظَّمه مَن انطمست بصيرتُه، فأعطوا تلك المعبودات حقّ الله تعالى فَذُلّوا لها وعظَّموها وسجدوا لها، وقربوا لها القرابين وسبّوا رب العالمين غيرة عليها، ونافحوا عنها واسترخصوا دماءهم وأموالهم من أجلها، كلُّ ذلك لفرط محبتهم لها وخوفهم منها.

فمشركو العرب عبدت الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[سبأ:٤٠].

والنصارى عبدوا عيسى عليه السلام وزعموا أنه الله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١٧].

واليهود عبدوا عزيرًا وزعموا أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣٠].

والرافضة عبدوا علي بن أبي طالب وادعوا فيه الألوهية. قال الملطي: «فأولّهم الغالية من السبئية وغيرهم وهم أصحاب عبدالله بن سبأ، قالوا لعلي رضي الله عنه: أنت أنت قال: ومن أنا؟ قالوا: أنت الخالق البارئ»[(١)].

وعُبِدَ من يسمى (بالبدوي) داعية الدولة الفاطمية العبيدية، وعُبِدَ (العيدروس) وغيرهم في بلاد الإسلام كثير ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) «التنبيه والرد» (٢٩)، وانظر: «مقالات الإسلاميين» (١٥).

وقد أحسن المؤلف رحمه الله صنعًا حينما قيده بالرضى لأن المعبودات من دون الله أو مع الله قسمان:

١- من عُبِدَ وهو راض: أي أنه عبد من دون أمره، ولكنه أعجبه ذلك فأظهر الرضى والموافقة لعابديه فلم يغضب ولم ينههم عن عبادته. بل بارك فعلهم إما بالسكوت وعدم الإنكار أو بتحسين الفعل وتصويبه، وهذا الصنف من الناس هو «الطاغوت»؛ لأنه رضي أن يُرْفَعَ فوق منزلته فَيُعْطَى ما يختص اللهُ به من الألوهية، ومن المعلوم أن منزلةَ العبد أن يكون عابدًا وليس معبودًا. ومن أمثلة مَنْ عُبِدَ وهو راض: ما روي «أن بنت الحلّاج أمرت بنت السمري زوجة سليمان بن الحلاج أن تسجد لأبيها الحلاج، فقالت بنت السمري: أو يسجد لغير الله، فسمعها الحلاج، ثم قال: نعم، إله في السماء، وإله في الأرض»(١).

٢- من عبد وهو غير راض: أي أنه عبد من دون إذنه ورضاه، ولما علم بذلك غضب ونهى عابديه وزجرهم وعاقبهم إن كانت لديه القدوة كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فهذا الصنف ليس بطاغوت لأنه لم يرض أَنْ يُرْفَعَ فوق منزلتِهِ التي أنزله الله إياها.

ولكن ينبغي أَنْ يُعلم أن هؤلاء المعبودين الذين عبدوا بغير رضاهم لا يقع عليهم اسم الطاغوت؛ لأن عبادة عابديهم لا تقع عليهم بل تقع على الشياطين الذين أمروهم بعبادتهم وزينوها لهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

قال ابن كثير: «﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ يعنون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٣٧-٣٣٨).

عبادة الأوثان»(١).

قال شيخ الإسلام: «وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة، وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون الجن، فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم» ثم استدل بالآية السابقة، وقال: «والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في المحيا ولا في الممات ولا يرضون بذلك»(٢).

وقال ابن القيم: «ومن تلاعبه -أي الشيطان- بهم أَنْ زَيَّنَ لقوم عبادةَ الملائكة فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم ثم استدل بهذه الآية»(٣).

ولا يدخلون النار كغيرهم من المعبودات (الطواغيت) التي تدخل النار مع عابديها قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأنبياء:٩٨-١٠٠].

قال الطبري: جلس رسول الله ﷺ يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، وكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبعري السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبعري: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبدالمطلب آنفًا وما قعد. وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جهنم، فقال عبدالله بن

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١١٢٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٥٧)

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٣٨).

الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدًا أَكُلُّ مَنْ عُبِدَ من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم. فعجب الوليد ومَنْ كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع مَنْ عَبَده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته، فأنزل الله عليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٢] أي عيسى ابن مريم وعزيز ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله(١).

وأصله عند الحاكم عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(٢).

فثبت بهذه الآيات أَنَّ الذين لا يرضون أن يُعبدوا مع الله أو من دونه أنهم ليسوا بطواغيت ولا يدخلون النار مع من عبدوهم.

والملائكة لم يرضوا بتلك العبادة بل هم متبرؤون من أولئك العابدين ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾[سبأ:٤١] فنزهوا الله عن أن يشرك معه أحد وكذلك عيسى يقول لربه عندما يسأله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ

---

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٩٦-٩٧).

(٢) «المستدرك» (٢/ ٣٨٤-٣٨٥)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسنادولم يخرجاه»، وقال ابن القيم: «هذا إسناد صحيح». «شفاء العليل» (١/ ٣٠٢).

أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[المائدة:١١٦].

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنّ هول المفاجأة جعله يوقع بأولئك الذين قالوا له أنت الخالق البارئ أشد العقوبات زجرًا لهم وردعًا لأمثالهم.

قال الملطي: «فاستتابهم فلم يرجعوا فأوقد لهم نارًا ضخمة وأحرقهم وقال مرتجزًا:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قنبرًا»[١]

وأصله في البخاري عن عكرمة قال: «أُتِيَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِزَنَادِقة فأَحْرقَهُم»[٢].

ولما عبد قوم من الراوندية أبا جعفر المنصور قتلهم حين «أتوا قصره -المنصور- وجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا»[٣] وفي لفظ: «أقبلوا يصيحون بأبي جعفر أنت أنت، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت أنت»[٤]. وذلك أنهم يزعمون أن الأئمة سبعة، وأن سابعهم أبو جعفر المنصور[٥].

ووجه كون من عبد وهو راض طاغوتًا أن منزلته أن يكون عبدًا عابدًا لله، فلما رفع فوق منزلته وصار معبودًا أقر ذلك الفعل، فصار طاغوتًا لتجاوزه حده الذي يجب أن يكون.

---

(١) «التنبيه والرد» (٢٩)، وانظر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (٥٠)، و«فتح الباري» (١٢/ ٢٧٠) وحسَّن إسناده.

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/ ٢٦٧)، كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم»/ باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم. رقم (٦٩٢٢).

(٣) «تاريخ الأمم والملوك» (٧/ ٢٥٤).

(٤) المرجع السابق (٨/ ٣٦٨).

(٥) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (٨/ ٢٩-٣٠).

وَمَنْ دعا الناس إلى عبادةِ نفسه.

....

انتقل المؤلف رحمه الله إلى الرأس الثالث من رؤوس الطواغيت وهو الذي يدعو الناس إلى أن يعبدوه مع الله أو من دونه بأي طريقة كانت، بالإجبار أو بافتعال مواقف ليدلل فيها كما يزعم على أن له تأثيرًا في حياة الناس، أو أنه يرى النار ويعلم مَنْ فيها، ويحكم لمريديه أنهم لن يدخلوا النار، بل يحكم بتحريم النار على كل مَنْ رآه ونحو ذلك. ووجهُ كونه طاغوتًا أَنَّه رفع نفسه فوق منزلته التي أنزله الله إياها فإن منزلته أن يكون عابدًا فأصر إلا أن يكون معبودًا مشاركًا لله في ألوهيته.

والفرق بينه وبين الذي قبله أن الذي قبله لم يطلب من الناس أن يعبدوه، ولكنه رضي بها أو سر بها، وأما هذا فهو أعظم جرمًا وأشد إثمًا حيث طلب من الناس عبادته وتأليهه، ولهذا هدّده الله بالعقوبة الشديدة، فقال بعد أن أثنى على الملائكة بأنهم عباد مكرمون يراعون أدب العبودية في القول، فلا يقولون حتى يقول: وإذا أمر فإذا هم مؤتمرون بأمره مطيعون له قد أكلت خشيته قلوبهم فهم منه مشفقون. ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٢٩]؛ أي: على وجه الفرض والتقدير[١] لو قال أحد الملائكة إني إله من دونه –وحاشاهم أن يقولوا ذلك– فستكون

---

(١) على وجه الفرض والتقدير. لأن الله خلق الملائكة مطيعين لا يعصون كما في قوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل:٥٠]، وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٧] فلما صاروا بهذه المثابة لا يمكن أن يقع منهم الشرك.

وهذا نظير قوله تعالى عن الرسل عليهم السلام: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨] وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥] وحاشاهم أن يشركوا وهم يدعون الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك ولكن هذا كله على سبيل الفرض والتقدير.

عقوبتهم جهنم جزاء على صنيعهم كغيرهم ممن ظلموا أنفسهم بالشرك وفي ذلك بيان خطورة الشرك وتفظيع أمره. وسبب هذه العقوبة الشديدة أنهم وضعوا الإلهية والعبادة في غير موضعها(١).

قال السعدي: «وأَيُّ ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية»(٢).

وانظر كيف ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا «إشعار بظلم من يقول تلك العظيمة. كيف لا؟ وقد استهان برتبة الإلهية وجاوز بها مقامها الأسمى»(٣).

ومن أمثلة هذا النوع من الطواغيت:

١- إمامهم ومقدمهم فرعون، فإنه قال كما ذكره الله عنه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[القصص:٣٨].

٢- كسرى كان أتباعه يعبدونه، ومن ذلك أنه أرسل رسولين ليأتياه بالنبي ﷺ فإذا هما قد حلقا لحاهما وأطلقا شواربهما فقال لهما النبي ﷺ: «**من أمركما بهذا؟**»، قال: أمرنا ربنا، يعنيان كسرى»(٤).

٣- محمد بن علي الشلمغاني. قال الذهبي: «وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة اشتهر محمد بن علي الشلمغاني ببغداد، وشاع أنّه يدعي الإلهية وأنه يحيى الموتى وكثر أتباعه»(٥).

٤- مشايخ الضلال الذين قال قائلهم: «إذا أنا مت فأتوني واسألوني حاجتكم فلا

---

(١) انظر: «فتح القدير» (٥/ ٥١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٥٢١).

(٣) «محاسن التأويل» (١١/ ٤٢٦٥).

(٤) «البداية والنهاية» (٦/ ٤٨٦).

(٥) «العبر» (٢/ ١٩٠).

خير في رجل يحجبه عن أصاحبه متر أو مترين من الأرض».

ومن أولئك أحمد زيني دحلان، فإنه كان يقول لبعض الناس: «لا تخافوا من شيء أبدًا، وإذا حصل لكم ضيق في أيِّ أمر كان، فنادوني واستغيثوا بي؛ فإني أغيث الملهوف»[١].

بل إنهم يعتقدون أن تصرف الولي بعد الموت أقوى منه حال الحياة قال محمد زاهد الكوثري (الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه، فيكون أقوى في التصرف)[٢].

(١) «نفحة الرحمن في بعض مناقب مولانا أحمد زيني دحلان» (٣٣) نقلًا عن «الإنحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري» (١/ ٣٦٧). وانظر (الطبقات الكبرى) للشعراني (٢_٥١٨).

(٢) إرغام المريد(٢٨).

ومَنِ ادَّعَى شيئاً من عِلْمَ الغيبِ.

....

وقوله: ادّعى: أي قال كذبًا.

ومنه قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾[الملك:٢٧] قال الحسن تكذبون من قولك تدّعي الباطل وتدّعي ما لا يكون.

والدَّعِيُّ هو: ادعاء الولد غير أبيه، ومنه تنبأ الكذاب إذا ادعى النبوة[١].

الغيب: الغين والياء والباء أصل صحيح يدل على تستر الشيء عن العيون[٢].

فالغيب: هو ما غاب عنك مما لا يعلمه إلا الله مما كان ومما سيكون.

فادعاء الغيب: أن ينسب إلى نفسه معرفة أمر أخفاه الله عن الناس من غيبه فلم يطلع عليه أحد.

وعلم الغيب قد استأثر الله به وحده، فلم يأذن لأحد أن يشاركه فيه مهما علت مرتبته وعظمت ديانته، ولقد أوضح الله هذا وبينه بصيغ متنوعة؛ لتنقطعَ النفس عن تَطَلُّبِه والبحث عنه، ولئلا يُصَدَّق مَنْ يدعيه ومن ذلك:

١- **الجمع بين النفي والإثبات**. قال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل:٦٥].

فنفى علم الغيب عن جميع أهل السموات والأرض، وأثبت الغيب له وحده، وهذه أبلغ صيغ الحصر.

٢- **تقديم ما حقه التأخير**، كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ

---

(١) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٢٠).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٣).

﴿كُلُّهُۥ﴾[هود:١٢٣]، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

٣- **حصر مفاتح الغيب عنده.** قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩].

وهذه الآية دلت على حصر الغيب عند الله من وجهين:

أ- تقديم ما حقه التأخير.

ب- حصر المفاتح عنده؛ لأن التوصل إلى كل شيء بطريق المفتاح، فإذا كان المفتاح لا يمكن معرفته فكيف بما في داخل الحجاب(١).

وهذه المفاتح ذكرها الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان:٣٤].

فالساعة مفتاح الآخرة، والغيث مفتاح عالم النبات، وما في الأرحام مفتاح عالم الحيوان، وما تكسبه النفس غدًا مفتاح الأعمال، وخص غدًا لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب، فإذا خفي عليه فما بعده أخفى وأبعد عن معرفته، والموت مفتاح البرزخ(٢).

وأكد على هذه المفاتح نبينا محمد ﷺ فقال: «**مفاتحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمُها إلَّا اللهُ، لا يعلمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلَّا الله، ولا يعلمُ ما في غدٍ إلَّا الله، ولا يعلمُ متى يأتي المطرُ أحد إلَّا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إلَّا الله، ولا يعلم متى تقومُ السّاعة إلَّا اللهُ**»(٣).

---

(١) انظر: «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للغنيمان (١/ ١١١).

(٢) انظر: «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة (٤/ ٢٧٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٦١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾. رقم (٧٣٧٩).

٤- **حصر الغيب لله بأداة إنما.** قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[يونس:٢٠].

٥- **النفي المباشر لعدم اطْلاع الخلق على الغيب.** قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[آل عمران:١٧٩].

فلا يطلع على شيء من غيبه إلا من شاء إطلاعه من رسله فقط، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:٢٦-٢٧].

٦- **أمر الله نبينا محمدًا ﷺ بالاعتراف بعدم معرفة الغيب،** كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾[الأنعام:٥٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨].

٧- **اعتراف الرسل أجمع بعدم معرفة الغيب.** قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة:١٠٩].

٨- **اعتراف الملائكة أجمع بعدم معرفة الغيب.** وذلك حينما قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة:٣٢].

قال القرطبي: «أي تنزيهًا لك عن أن يعلم الغيب أحد سواك»(١).

فإذا كانت الرسل وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ وكذلك ملائكة الرحمن لا يعلمون الغيب فلا تصح دعوى غيرهم ممن هو دونهم بكثير؟

٩- **بيان جهل الجن بالغيب:** الجن كغيرهم لا يعلمون الغيب، وإن ادعوا شيئًا منه،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ٢٨٥).

ومن أعظم ما يوضح ذلك أنهم لبثوا مدة طويلة يخدمون نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بعد وفاته؛ لأنهم لم يعلموا بها حتى خرّ على الأرض بعد أن أكلت دابةُ الأرض عصاه قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[سبأ: ١٤].

قال السعدي: «سقطت -أي العصا- فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبيّنت الإنس أن الجن ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم فلو علموا الغيب لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه؛ ليسلموا مما هم فيه»(١).

وهذه العقيدة استقرت في قلوب أصحاب النبي ﷺ، ومَنْ بعدهم من المؤمنين قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «مَنْ حَدّثَكَ أَنّهُ يَعْلم الغَيبَ فَقَد كَذَب»(٢). تقصد رسول الله ﷺ.

«فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها، أو صدّق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه، وقد كذّب الله ورسوله، وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية؛ فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله»(٣).

فإذا تقرر أَنَّ علم الغيب مما انفرد الله به وحده، ولم يشاركه فيه أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ظهر ظهورًا بيّنًا لا خفاء فيه أَنّ مَنِ ادعى شيئًا من علم الغيب فهو

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٦١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾. رقم (٧٣٨٠).

(٣) «القول السديد» (٨٤-٨٥).

طاغوت؛ لأنه تجاوز حَدَّه بادعائه مشاركة الله في شيء من خصائصه، ولهذا أجمع العلماء على كفره.

قال المعصومي الخجندي: «اعلم أنّ اعتقاد علم الغيب للميت والغائب واعتقاد علم الغيب لغير الله تعالى شركٌ وكفر... وقد اتفق جميع أهل العلم في هذا التكفير ولا أعلم أحدًا من أهل السنة والجماعة على خلافه»[(١)].

ومن أمثلة هذا النوع من الطواغيت:

١- السحرة والكهان والرمالون والمنجمون وقراء الفنجان ونحوهم.

ومن نماذج ادعاءات المنجمين خراب العالم في شعبان سنة ٥٨٢هـ عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، وخيب الله ظنهم[(٢)].

٢- بعض المتصوفة:

يدعي بعض شيوخ التصوف أنهم يعلمون الغيب، ومن ذلك ما ادعاه الشيخ جاكير حيث قال: «ما أخذت العهد على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبًا في اللوح المحفوظ وأنه من أولادي»[(٣)].

وأدخل الشيخ دَفْعُ الله بن أبي إدريس مُرِيْدَه المسلمي الخلوةَ سبعةَ أيام، وذبح له شاة، وأمره بأكلها، فخرج بعد هذه الأيام السبعة وهو ينظر في العالم من العرش إلى الفرش[(٤)].

وأختم بكلام الدباغ حيث يقول: «إن الجنين إذا سقط من بطن أمه يراه العارف،

---

(١) «حكم الله الواحد الصمد» (١١٦-١١٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٦/ ٥٧٧).

(٣) «الطبقات الكبرى» للشعراني (١/ ١٢٧).

(٤) «طبقات ابن ضيف الله» (١١٠).

الكامل في تلك الحالة على الحالة التي يبلغ إليها عمره، وينتهي إليها أجله ويرى فيه جميع ما يدركه من خير أو شر حتى إِنَّ مَنْ شَاهَدَهُ مشاهدَة العارِف لَوْ نَسَخَ جميعَ ما شاهده وطرحَ النسخة عنده وجعل يقابلها مع ما يظهر في الذات وجدهما لا يختلفان أبدًا في شيء من الأشياء»[١].

وهذه النقول وغيرها كثير تبين السبب الذي يجعل بعض الصوفية يصرون على قولهم بأن النبي ﷺ يعلم الغيب وما ذلك إلا ليجيزوا هذا لأنفسهم؛ إذ أنهم لو لم يقولوا بأن الرسول يعلم الغيب لما استطاعوا أن ينسبوه لأنفسهم.

(١) «الإبريز» (٢٦١).

وَمَنْ حَكَمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ.

....

خلق الله عباده وألزمهم بالتحاكم إليه فقال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورى:١٠].

وبيّن اختصاصه وتفرده بالحكم دون ما سواه فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[الأنعام:٥٧] وقال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[يوسف:٤٠] وقال سبحانه: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٧٠].

وجعل التحاكم إلى شرعه سمة تميز المؤمنين الصادقين عن غيرهم، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وخصهم بالفلاح فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[النور:٥١]، بل جعله شرطًا في صحة الإيمان، فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩].

وذلك أَنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل فهو متضمن للتصديق والانقياد فتحكيم الشريعة إيمان لأنه انقياد وخضوع لدين الله ورفض تحكيم الشريعة امتناع عن قبولها فهو كفر إباء وامتناع ورد(١).

وحصر التحاكم إلى شرعه مع انقياد القلب لذلك فقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

عن عروة بن الزبير: «أَنّ رجلًا من الأنصار خاصم الزبير في شِرَاجٍ من الحرة ليسقي

---

(١) انظر: «نواقض الإيمان القولية والعملية» (٣٤٢).

به النخل، فقال رسول الله ﷺ: «**اسْقِ يا زُبيرُ -فأمرهُ بالمعروفِ-، ثُمَّ أرسلهُ إلى جارِكَ**» فقال الأنصاري: أَنْ كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**اسْقِ ثمَّ احبسْ حتَّى ترجعَ الماءَ إلى الجدْرِ**»، واستوعى له حقه فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾»[النساء:٦٥][(١)].

«فجعل ﷻ في هذه الآية من شرط الإيمان وصحته الانقيادَ لحكم رسوله ﷺ وَدَلَّ على أن من خالفه غير منقاد للحق وغير ثابت الإسلام»[(٢)].

قال ابن القيم: «وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده وشيخه وطائفته»[(٣)].

ووصف المعرضين عن التحاكم إلى شرعه بعدم الإيمان، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[النور:٤٧-٥٠]. «بيّن سبحانه أنَّ من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ فصدّ عن رسوله كان منافقًا... وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا، فالنفاق يثبت، ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول ﷺ وإرادة التحاكم إلى غيره»[(٤)].

---

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٩)، كتاب «المساقاة»/ باب شرب الأعلى إلى الكعبين. رقم (٢٣٦٢)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩-١٨٣٠)، كتاب «الفضائل»/ باب وجوب اتباعه ﷺ. رقم (٢٣٥٧).

(٢) «الحجة على تارك الحجة» لمحمد بن طاهر المقدسي (٢/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٨).

(٤) «الصارم المسلول» (٣٧-٣٨).

وجعل الرغبة في التحاكم إلى غير شرعه من صفات أهل النفاق فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء:٦٠-٦١].

ففي هذه الآية «التعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب»(١).

وحصر التحاكم إليه رسوله ﷺ فقال: «**إنّ اللهَ هو الحكم وإليه الحُكم**»(٢). وتربى على ذلك الصحابة، قال عمر بن الخطاب: «لا تُسَمُّوا الحكَمَ ولا أبا الحكَم؛ فإن الله هو الحكم»(٣)، فله الحُكْمُ الكونيّ القدريّ فلا يكون شيئًا في الكون إلا ما قدره الله، وله الحكم الشرعي فلا حلال إلا ما أحل، ولا حرام إلا ما حرم، ولا دين إلا ما شرع، وله الحكم الجزائي فيجازي كُلًّا بعمله.

وعلى وجوب التحاكم إلى الله وشرعه أجمع المسلمون. قال شيخ الإسلام: «ومعلوم باتفاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسول ﷺ في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم ودنياهم في أصول دينهم وفروعه، وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما حكم ويسلموا تسليمًا»(٤).

وجه كونه طاغوتًا: لما كان التشريع خالصَ حَقِّ الله سبحانه صار من ادعاه فشرّع

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٨٣)، وانظر: «العذب النمير» (٥/ ٤٤٤-٤٤٨).

(٢) أبو داود (٥/ ٢٤٠)، كتاب «الأدب»/ باب في تغيير الاسم القبيح. رقم (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦-٢٢٧)، كتاب «آداب القضاة»/ باب إذا حكموا رجلًا فقضى بينهم، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٢) رقم (٨١١). قال محققه الألباني: «صحيح».

(٣) «شرح السنة» (١٢/ ٣٤٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٧-٣٨) وانظر: (١٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

للناس غير شرعه أو حكم بين الناس بغير حكمه وشرعه طاغوتًا؛ لأنه رفع نفسه أو رفعه غيره فوق منزلته التي أنزله الله إياها **ويتضح ذلك من وجهين:**

١ - «أَنّ الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه. ولهذا سمى الله المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم»[(١)].

فمن اتخذ مع الله ندًا في التشريع أو اتخذه مشرعًا من دونه ارتضى حكمه وتشريعه، وألزم به عموم الرعية فقد أشركه معه قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[الشورى:٢١].

قال الشنقيطي: «لما كان التشريع وجميع الأحكام شرعية كانت أو كونيَّة قدريَّة من خصائص الربوبية كما دلّت عليه الآيات المذكورة كان كلُّ من اتبع تشريعًا غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرِّعَ ربًا، وأشركه مع الله»[(٢)].

٢ - أن التحاكمَ إلى ما أنزل الله على رسوله ﷺ قرينُ عبادةِ الله وحده لا شريك له، ولذلك ربط الله بينهما بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[يوسف:٤٠].

فكما أَنّ إفراد الله بالعبادة حقُه، فكذلك إفراده بالتشريع والحكم حقُّه أيضًا.

وبناءً على ذلك؛ فإن من لم يحكم بما أنزل الله فقد أشرك بالله غيره حيث أطاعه فيما حرم الله قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١] فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم إياهم شركًا أكبر مخرجًا عن ملة الإسلام بإجماع أهل العلم[(٣)].

---

(١) «المجموع الثمين» للعثيمين (١/ ٣٣).

(٢) «أضواء البيان» (٧/ ١٦٩).

(٣) «العذب النمير» (٤/ ٢٣٢).

وهو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس:٦٠-٦١] وقوله تعالى عن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[مريم:٤٤][(١)].

فليس المراد بعبادة الشيطان هو السجود له فإنَّ هذا لم يكن معروفًا عند قوم إبراهيم عليه السلام، وإنما عبادة الشيطان بطاعته في التحليل والتحريم، ويوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، ثم وبَّخهم الله على ذلك قائلًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾[يس:٦٢] أي أين عقولكم التي بها تهتدون أن الذي يطاع ويُتَّبَعُ شَرْعُه ويمتثل أمره هو خالق السموات والأرض لا إبليس الذي ليس بيده نفع ولا ضر.

ولما كان التشريعُ والعبادة هما حق الله تعالى وحدهُ صار من ادعاهما بتحكيم غير شرع الله طاغوتًا؛ لأنه رفع نفسه إلى منزلة المشرع،وهو الله مع أنَّ منزلته أن يكون منفذًا لشرع الله على نفسه، وعلى مَنْ له ولاية عليه، لا أن يكون مشرعًا.

وقد أجمع العلماء على كفر من حكم بغير ما أنزل الله، وممن نقل الإجماع:

قال شيخ الإسلام: «والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدّل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله تعالى على أحد القولين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[(٢)] [المائدة:٤٤].

وقال ابن كثير بعد أَنْ ذكر شيئًا من أحكام (الياساق)، «وفي هذا كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزّل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر فكيف بمن

---

(١) انظر: «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٠) و(٤/ ٨٣)، وانظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٥١٦)، و«الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للفوزان (٧٢-٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٦٧-٢٦٨).

تحاكم إلى (الياساق) وقدمه عليها؟ مَنْ فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. قال الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾»[النساء:٦٥](١).

ولما ابتليت الأمة في العصور المتأخرة بتحكيم غير شرع الله انبرى العلماء لبيان حكمه، ومنهم:

١- ما قاله الشيخ حمد بن عتيق، بعد أن نقل قول ابن كثير في التتار: «ومثل هؤلاء ما وقع فيه عامة البوادي ومن شابهم من تحكيم عادات آبائهم، وما وضعه أوائلهم من الموضوعات الملعونة التي يسمونها شرع الرفاقة يقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله»(٢).

٢- قال الشيخ الشنقيطي بعد كلام سبق: «وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على لسان رسوله ﷺ: أنّه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم»(٣).

٣- وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «إنّ من الكفر الأكبر المستبين تنزيلَ القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربيٍ مبين في الحكم به بين العالمين، والرَدُّ إليه عند تنازع المتنازعين، مناقضةٌ ومعاندةٌ لقول

---

(١) «البداية والنهاية» (١٧/ ١٦٢-١٦٣).

(٢) «سبيل النجاة والفكاك» (٨٣-٨٤)، وانظر: «الدرر السنية» (٩/ ٢٥٧)، وانظر: كلام الشوكاني في «مجموع الرسائل السلفية» (٣٣-٣٤).

(٣) «أضواء البيان» (٤/ ٨٣-٨٤)، وانظر: (٣/ ٤٣٩).

الله عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[النساء:٥٩]».

ثم أفاض في ذكر الأدلة ووجه الاستدلال بها، ثم ذكر أنواع الكفر إلى أن قال: «الخامسُ وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندةً للشرع ومكابرة لأحكامه ومشاقة لله ولرسوله ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعدادًا وإمدادًا وإرصادًا وتأصيلًا وتفريعًا وتشكيلًا وتنويعًا وحكمًا وإلزامًا ومراجعَ ومستنداتٍ، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمداتٍ مرجعُها كلُّها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي والقانون البريطاني وغيرها من القوانين ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.

فهذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرهم عليه وتحتمه عليهم؛ فأيّ كفر فوق هذا الكفر؟ وأي مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ بعد هذه المناقضة؟»[(١)].

٤- قال الشيخ محمد حامد فقي: «من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال ويقدمها على ما علم وتبيّن له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتَدٌّ إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله»[(٢)].

٥- وقد صرح بذلك الشيخ أحمد محمد شاكر فقال: «إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد

---

(١) «تحكيم القوانين» (٥-٢١).

(٢) «تعليقاته على فتح المجيد» (٣٧٣)، باب قول الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء:٦٠].

ممن ينتسب للإسلام -كائنًا من كان- في العمل بها أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ نفسه وكل امرئ حسيب نفسه»(١).

٦- وقال الشيخ ابن باز بعد كلام سبق «وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله ولا ترضاه، فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتى تؤمن بالله وحده وتحكِّم شريعته»(٢).

٧- وقال شيخنا محمد العثيمين: «فمن حكم شعبه بغير شريعة الله فإنه ماعدل، بل هو كافر والعياذ بالله، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[المائدة:٤٤].

فإذا وضع هذا الحاكم قوانين تخالف الشريعة وهو يعلم أنها تخالف الشريعة، لكنه عدل عنها وقال: أنا لاأعدل عن القانون، فإنه كافر، ولو صلى، ولوتصدق، ولو صام، ولوحج، ولوذكرالله، ولوشهد للرسول بالرسالة، فإنه كافر مخلد في نار جهنم يوم القيامة»(٣).

٨- وقال الشيخ عبدالعزيز السلمان: «ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفرًا ناقلًا عن الملة الإسلامية»(٣).

وأختم بما قاله الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ بعد كلام سبق: «فتوحيد الله جل وعلا في الطاعة، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله لا يكون إلا بأن

---

(١) «عمدة التفسير» (٤/ ١٧٤).

(٢) «نقد القومية العربية» (٥٠-٥١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» له (٢/ ١٤٢).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٩).

(٣) «الكواشف الجلية» (١٥٥).

يكون العباد محكمِّين لما أنزل الله جل وعلا على رسوله، فترك تحكيم ما أنزل الله على رسوله بحكم الجاهلية أو بحكم القوانين أو بحكم سواليف البادية أو بكل حكم مخالف لحكم الله جل وعلا هذا من الكفر الأكبر بالله جل جلاله، ومما يناقض التوحيد،... فلا شك أن إفراد الله بالطاعة وإفراده بالحكم، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، كل ذلك يقتضي ألا يُحْكَم إلا بشَرْعِهِ فلهذا كان الحكم بالقوانين الوضعية أو الحكم بسواليف البادية من الكفر الأكبر بالله جل وعلا»(١).

وقد وردت آثار عن السلف فهم منها بعضهم أَنّ الحكمَ بغير ما أنزل الله إذا لم يكن استحلالًا أو تفضيلًا لحكم البشر على حكم الله كفرٌ أصغر لا يخرج عن الملة.

ومن هذه الآثار:

ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «هي به كُفْرٌ وليس كَمَنْ كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله»(٢) وقوله «كفر دون كفر».

وقال طاووس: «ليس بكفر ينقل عن الملة»(٣).

وقال عطاء: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق»(٤).

والإجابة عن هذا من وجوه:

الأول: أن كلام ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف ليس فيمن ترك التحاكم إلى شرع الله بالكلية، وشرع قوانين استبدل بها شرع الله وإنما في القضية المعيّنة، ويدل ذلك أن هذا الكلام ورد في مناقشة الخوارج الذين كفَّروا عليًّا رضي الله عنه بمجرد ما ظنوا أنه معصية

(١) «التمهيد شرح كتاب التوحيد» (٣٣٠-٣٣١).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٧٣٤) رقم (١٠٠٥) تحقيق رضا نعسان.

(٣) المرجع السابق (٢/ ٧٣٥) رقم (١٠٠٦).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٧٣٥) رقم (١٠٠٧).

حينما حكَّمَ الحكمين، فقالوا: عليٌّ حكَّم الرجال فحكَم بغير ما أنزل الله فهو كافر. فقال لهم ابن عباس ﵄ تنزلًا مع مقالتهم حين ظنوا أن عليًا ﵁ حكَم بغير ما أنزل الله: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه». قال سفيان: «أي ليس كفرًا ناقلًا عن الملة»[(١)].

ويوضحه مناقشة الخوارج لأبي مجلز[(٢)] حينما أرادوا إلزامه بتكفير الأمراء في زمانه فقالوا: «يا أبا مجلز، أرأيت قول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤] أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم. قالوا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم. فقالوا: يا أبا مجلز فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا. فقالوا: لا والله ولكنك تفْرَق. قال: أنتم أولى بهذا مني، لا أرى، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تحرّجون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك - أو نحوًا من هذا»[(٣)].

وفي رواية عمران بن حدير قال: قعد إلى أبي مجلز نفر من الإباضية قال: فقالوا له: يقول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال أبو مجلز: إنهم يعملون بما يعملون -يعني الأمراء- ويعلمون أنه ذنب. قال: وإنما أنزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. قالوا: أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٧٣٦) رقم (١٠١٠).

(٢) أبو مجلز كان له صلة بعمر بن عبدالعزيز أي أنه كان في عهد الدولة الأموية.

(٣) «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٧-٣٤٨) رقم (١٢٠٢٥، ١٢٠٢٦).

تخشاهم. قال: أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما تعرفون»[١].

فالخوارج أرادوا أن يلزموا أبا مجلز «الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه، ولذلك قال لهم في الخبر الأول: فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبًا. وقال لهم في الخبر الثاني: إنما يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب»[٢].

إذًا فالمناقشة وقعت في بعض المعاصي التي ارتكبها الأمراء فقط وذلك أنه لم يعرف أن حاكمًا شرّع تشريعات عامة وجعلها ملزمة للقضاء بها قبل التتار. وإنما الذي يقع معاص وظلمٌ وجَوْرٌ لِهَوَىً أو شهوةٍ يقع بها بعض الأمراء.

إذًا فلا يصح أن تنقل هذه الآثار وتطبق على واقع غير واقعها الذي قيلت فيه.

الثاني: أن العلماء فرقوا بين ما كان تشريعًا عامًا يلزم به الناس وما كان واقعة عينٍ، فما كان تشريعًا عامًا فهو كفر مخرج من الملة كما سبق، وما كان واقعةُ عين وقعت لِهوىً وعصبيةٍ وشهوة فهي كفر دون كفر، وهي التي عناها ابن عباس رضي الله عنه[٣].

قال شيخ الإسلام: «والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو عدل خاص، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم به واجب على النبي ﷺ وكل من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر»، ثم بين حكم الواقعة المعينة فقال: «وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، لكن عصى واتبع هواه، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة»[٤].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) حاشية «جامع البيان» (١٠/ ٣٤٨) تحقيق محمود شاكر.

(٣) انظر: «توحيد الخلاق» (١٤٠).

(٤) «منهاج السنة» (٥/ ١٣١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٣٨٨) حيث فرّق بين التشريع العام وبين القضية المعينة.

وقال ابن القيم بعد أن ذكر الأقوال في الحكم بغير ما أنزل الله: «والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر»(١).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم: «وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة... وذلك أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة؛ فإنه معصيةٌ عظمى أكبرُ من الكبائر»(٢).

الثالث: أن الكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

معرف بالألف واللام فهو الكفر الأكبر.

والقاعدة تقول: «إذا ورد الكفر معرفًا بالألف واللام فهو الكفر الأكبر، إلا إذا قيد أو جاءت قرينة تصرفه عن ذلك»(٣).

وذكرها شيخنا العثيمين فقال: «إذا أطلق الكفر ولم يوجد له معارض فهو الكفر الحقيقي الأكبر»(٤).

ولما سئل شيخنا محمد العثيمين هل هناك فرق بين المسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله وبين المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًا؟

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٦).

(٢) «تحكيم القوانين» (٢٤).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٧).

(٤) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

أجاب بقوله: نعم هناك فرق، فإن المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًا لا يتأتى فيها التقسيم السابق وإنما هي من القسم الأول فقط[(١)]. لأن هذا المشرع تشريعًا يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلحُ من الإسلام وأنفع للعباد.

والحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين:

الأول:..........

«**الثاني**: أن يستبدل بحكم الله تعالى حكمًا مخالفًا في قضية معينة دون أن يجعل ذلك قانونًا يجب التحاكم إليه فله ثلاث حالات:

الأولى: أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله تعالى معتقدًا أن ما خالفه أولى منه وأنفع للعباد أو أنه مساوٍ له، أو أن العدول عن حكم الله جائز، فهذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة لما سبق في القسم الأول.

الثانية: أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله معتقدًا أنه أولى وأنفع، لكن خالفه بقصد الإضرار بالمحكوم عليه أو نفع المحكوم له، فهذا ظالم وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة:٤٥].

الثالثة: أن يكون كذلك لكن خالفه لهوى في نفسه أو مصلحة تعود إليه فهذا فاسق وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»[المائدة:٤٧][(٢)].

---

(١) أي الكفر الأكبر المخرج من الملة.

(٢) «المجموع الثمين» (١/ ٣٨).

والدّليل قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٥]. **وهذا هو معنى «لا إله إلا الله»**.

....

﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾: لا نافية أي لن يدخل أحد دينًا مكرهًا بل عن اختياره.

وقيل: هي نفي بمعنى النهي: أي لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام وهي عامة في حق كل كافر على الصحيح(١) وعليه كثير من المفسرين(٢).

وقيل هي: منسوخة بآيات القتال. وصوَّب الطبري عدم النسخ وقال: «إنما هو لا إكراه في الدين لأحد ممن حل قبول الجزية منه بأدائه الجزية ورضاه بحكم الإسلام»(٣).

والإكراه: هو الإرغام على الشيء يقال: «أكرهته على الأمر إكراهًا أي حملته عليه قهرًا»(٤)، فهو خلاف الرضا قال تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾[فصلت:١١].

﴿فِي ٱلدِّينِ﴾: الألف واللام للعهد الذهني، أي: الدين المعهود عندكم أيها المؤمنون، وهو دين الإسلام.

ثم ذكر العلة في عدم إرغام الناس على الدخول في الإسلام وهي ظهور أدلته ووضوحها فقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾: لأن ظهور الأدلة ووضوحها تحمل المرء على الدخول في الإسلام من غير إكراه.

---

(١) «هداية الحيارى» (٢٩-٣٢).

(٢) «محاسن التأويل» (١/ ٢٥٦).

(٣) «جامع البيان» (٣/ ١٧).

(٤) «المصباح المنير» (٢٠٣).

وقد: هنا للتحقيق.

﴿تَّبَيَّنَ﴾: أي وضح وظهر وتميز والقاعدة تقول: «كلما جاءت (مِنْ) بعد (تبيّن) فإنها مضمنة معنى التميز أي تميز هذا من هذا»(١).

﴿ٱلرُّشۡدُ﴾: الرشد نقيض الغي والضلال(٢) كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾[الأعراف:١٤٦]. ويقابل الرشد بالشر كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾[الجن:١٠]: وكذلك بالضرّ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾[الجن:٢١]، وذلك لأن الضرر والشر غاية الغي وثمرته(٣).

فالرشد هو الإيمان وقيل الهدى وسداد الرأي، وقيل: إصابة الحق والصواب، وقيل: هو العلم بما ينفع والعمل به(٤).

﴿مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾: الغي خلاف الرشد ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه:١٢١].

قال الراغب: الغيَّ جهل من اعتقاد فاسد قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾(٥) [النجم:٢].

والضال: هو الذي يسلك الطريق بغير علم، وأما الغاوي: فهو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره(٦)، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ

---

(١) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (١/ ٢٦٤).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣٢١) وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٣٩٩).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٨).

(٤) «جامع البيان» (٣/ ١٨)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٦٩)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٨).

(٥) «المفردات» (٣٦٩)، وانظر: «الصحاح» (٦/ ٢٤٥٠).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٠٨).

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[الأعراف:١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢].

«فبظلمه يكون غاويًا وبجهله يكون ضالًا. وكثيرًا ما يجمع الله يبن الأمرين فيكون ضالًا في شيء غاويًا في شيء آخر»[1].

فالغيُّ عمل يضر صاحبه، قال تعالى ذاكرًا مقولة الشيطان ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر:٣٩]. وذلك بأن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعون[2]. والمراد به في الآية هو الكفر.

وتبيّن الرشد من الغي بما يلي:

١- بالكتاب: قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل:٨٩].

٢- بالسنة القولية والفعلية: وذلك أن النبي ﷺ بلَّغ الدين وبيّنه أتم بيان، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤].

٣- بما نقله إلينا سلفنا الصالح صحابة رسول الله ﷺ فإنهم شاهدوا التنزيل، وفهموا مراد الله ورسوله ﷺ، ومن ثم نقلوا الدين إلينا مبينين معانيه ومراميه.

﴿فَمَن﴾: الفاء للتفريع أي: أنه لم يبق بعد التبيين إلا الكفر بالطاغوت.

ومَنْ: شرطية.

﴿يَكْفُرْ﴾: فعل الشرط، والكفر في اللغة: مأخوذ من الستر والتغطية، أي: ينكر الطاغوت ويتبرأ منه ويعاديه.

﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: الباء للإلصاق أي يلصق العبد الكفر بالطاغوت، وذلك بأن تبلغ الغاية في إثبات معاني الكفر به من بغضه وعداوته والبراءة منه.

---

(١) «جامع الرسائل/ المجموعة الأولى» (٢٢٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٦٩).

والطاغوت: كل ذي طغيان على الله عبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة له مِمَّنْ عبده كائنًا ما كان من شيء(١).

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: والإيمان بالله هو الإقرار به والعمل بجميع أوامره.

ولم يكتف بقوله (فمن يكفر بالطاغوت) لأن الكفر تَخَلٍّ وَعَدَمٍ فلا بد من إيجاد، والإيجاد هو الإيمان بالله ولذلك قال: ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فلا بد منهما جميعًا لأنه لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من الطواغيت وتكفيرهم مع الإيمان بالله.

ومن فوائد هذه الآية:

١- أن من آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فليس بمؤمن.

٢- أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت؛ لأن الله تعالى جعل الكفر بالطاغوت قسيمًا للإيمان بالله وقسيم الشيء غير الشيء بل هو منفصل عنه.

٣- أنه ليس هناك إلا رشد أو غي لأنه لو كان هناك ثالث لذكر لأن المقام مقام حصر، ويدل له قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢]. وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ:٢٤](٢).

﴿فَقَدِ﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط المقدر؛ لأنه مقترن بقد.

وقد: حرف تحقيق.

﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾: الهمزة والسين والتاء للتأكيد والمبالغة في التمسك كقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾[الزخرف:٤٣].

أي تمسك تمسكًا بالغًا، قال ابن كثير: «أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم»(٣).

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٩).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» للعثيمين (٣/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٢).

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: العروة في الأصل: موضع شد اليد، وأصل المادة تدل على التعلق، ومنه قولهم: (اعتراه الهم) أي: تعلق به، و﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ من الوثاقة، على وزن فُعْلَى للتفضيل، وهي صفة للعروة أي: العروة الأشد الأحكم القوية التي بها النجاة، وهي الإسلام، ولذلك فسرها مجاهد والسدي بـ (الإسلام)، وفسرها سعيد بن جبير بـ: «لا إله إلا الله»، وقال سالم بن أبي الجعد: «الحب في الله والبغض في الله»(١)، وكل هذه الأقوال تدور حول معنى واحد وهو: لا إله إلا الله فلا منافاة بينها.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾: لا: نافية للجنس. وأصل الفَصْم هو الكسر، أي: لا انقطاع لها وهي حال من العُرْوَة أي لا انقطاع لها؛ لأنها محكمة قوية.

قال الطبري: «ومعنى الكلام فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله فقد اعتصم من طاعة الله بما لا يخشى مع اعتصامه خذلانه إياه وإسلامه عند حاجته إليه في أهوال الآخرة، كالمتمسك بالوثيق من عرى الأشياء التي لا يخشى انكسار عراها»(٢).

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميع لإيمان المؤمن به وحده الكافر بالطاغوت عند إقراره بالوحدانية لربه ومولاه وتبرئه من الأنداد والطواغيت التي تعبد من دون الله.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما عزم عليه من توحيد الله والإخلاص له، وما انطوى عليه قلبه من البراءة من الأصنام والطواغيت صحةً وعدمًا لا ينكتم عنه سرٌّ ولا يخفى عليه أمر فيجازي المرء يوم القيامة بما نطق به لسانه وانطوى عليه قلبه.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: ذكرت لحمل الناس على الإيمان الصادق بالله والردع عن الكفر والنفاق؛ لأنه إذا كان الله يسمع ما نقول فلنقل الحق، وإذا كان الله يعلم ما في قلوبنا فلنصدق معه وليطابق ما نقوله بألسنتنا ما نعتقده في قلوبنا، وبهذا تكون النجاة.

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٤٢٢).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢٠).

وفي الحديث: «رَأْسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمُوده الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سنامِه الجهادُ في سبيلِ الله»[١].

....

وفي آخر الكتاب ختم رحمه الله بعلاج المعوقات النفسية والداخلية والخارجية، فقال: «وفي الحديث: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذورة سنامه الجهاد في سبيل الله**».

فأما معوقات النفس: فعالجها بالتوحيد والصلاة: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة**»، فالتوحيد يصلح القلب والعمل، فيعلق القلب بالله وحده، ومن ثم يصلح العمل، وأما الصلاة؛ فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فلا يقع في الفواحش والمنكرات، ومن ثم تستقيم حاله.

أما المعوقات الداخلية: أي المعوقات داخل المجتمع المسلم من المنافقين وأهل البدع والطواغيت، وكذلك المعوقات الخارجية من الكفار المحاربين فعالجها بالجهاد، فقال: «**وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**».

جهاد المنافقين والطواغيت وأهل البدع في الداخل بالحجة والبيان، في الرد على باطلهم، وكشف شبههم، وفضح مخططاتهم.

وجهاد الكافرين المحاربين بالسيف والسنان.

قوله: **رأس الأمر**: أي أعلى هذا الأمر، قال الليث: رأس كل شيء أعلاه[٢].

---

(١) أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٥/ ١١-١٢)، كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في حرمة الصلاة. رقم (٢٦١٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤)، كتاب «الفتن»/ باب كف اللسان في الفتنة». رقم (٣٩٧٣)، وقال شيخ الإسلام: «حديث صحيح». «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٦)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٣١٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٣/ ٦٣).

الأمر: الألف للعهد رأس الأمر المعهود عند السامعين هو الإسلام أي أعلى ما أمرتم به هو الإسلام.

والمقصود به الشهادتان فهما رأس الدين وأعلاه وأساسه بدليل قوله ﷺ في الرواية الأخرى: «**إنَّ رأس هذا الأمرِ أنْ تشهدَ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ**»[١].

قال شيخ الإسلام بعد أن ذَكَرَ أَصْلَي الدين: «وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله»[٢].

«فمن لم يقر بهما باطنًا وظاهرًا فليس من الإسلام في شيء»[٣]، وذلك لأن «شهادة أن لا إله إلا الله متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه وهو الإسلام العام الذي لا يَقْبَلُ اللهُ من الأولين والآخرين دينًا سواه»[٤].

وقوله: (وَعَمودُهُ الصّلاةُ): العمود: عمود الأمر قوامه الذي لا يستقيم إلا به[٥].

فعمود الشيء: هو ما يرتكز عليه ولا يقوم إلا به وعمود كل شيء بحسبه.

شبه الإسلام بالخيمة فعمود الخيمة هو ما تقوم عليه، ويكون في وسطها، فإذا أقيم انتفع بالطنب والأوتاد، أما إذا أزيل العمود سقطت الخيمة ولم ينتفع بها ولا أطنابها ولا أوتادها.

ولما كان عمود كل شيء بحسبه صار عمود الدين الذي يقوم عليه أمر الدين من

---

(١) أحمد (٥/ ٢٤٥).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٨١٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥).

(٥) «العين» (٢/ ٥٨) و«معجم مقاييس اللغة» (٤/ ١٣٨).

الأعمال هو الصلاة.

ولأجل هذا عظم الله قدرها تعظيمًا يتجلى من خلال ما يلي:

١- أن الله فرض الصلاة على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بعد التوحيد مباشرة فقال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[طه:١٣-١٤].

وكذلك نبينا محمد ﷺ أول ما فرض الله عليه بعد التوحيد هو الصلاة، وذلك حين عرج به إلى السموات، ولم يفرض عليه من الأعمال في السماء غيرها.

وهذا يدل على عظم شرفها. قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «إن الصلاة لم تزل مفتاح شرائع دين الإسلام وَعقْده لا تزول عنه أبدًا، لم تزل مقرونة بالإيمان في دين الملائكة والأنبياء والخلق أجمعين، لم يكن لله ﷻ دين بغيرها قط وسائر الفرائض ليس كذلك... فهي أشهر معالم التوحيد منارًا بين ملة الإسلام وملة الكفر لن يستحق دين الإسلام ومشاركة أهل الملة. ومباينة ملة الكفر إلا بإقامتها فإن تركتها العامة انطمس منار الدين كله فلا يبقى للدين رَسْمٌ ولا علم يُعرف به»(١).

٢- أن الله أول ما أثنى على عباده المؤمنين أثنى عليهم بحرصهم على الصلاة وخشوعهم فيها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:١-٢].

ثم ختم تلك الصفات بذكر الصلاة مرة أخرى إعظامًا لقدرها في القربة إليه فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[المؤمنون:٩].

وعقَّبها بذكر ما أعد الله لهم من جزيل الثواب في جنات النعيم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون:١٠-١١].

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ١٠٠٢-١٠٠٣)، وانظر ما سطرته يراع ابن القيم في بيان قدر الصلاة. «الصلاة» (٢١٢).

٣- أن الله لما ذكر الأخلاق المذمومة من الهلع والجزع ومنع الخير لم يبرئ أحدًا من الناس قبل المصلين حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[المعارج:٢٢-٢٣].

ثم أعاد ذكرهم مرة أخرى مبينًا مآلهم الحميد فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[المعارج:٣٤-٣٥].

٤- أن تارك الصلاة كافر خارج عن الملة لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا بدليل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم[١].

وأدلة كفر تارك الصلاة كثيرة منها:

أ- قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[القلم:٣٥-٤٣]، لما امتنعوا من السجود لله في الدنيا عجزوا عن السجود لله في الآخرة. قال ﷺ: «**فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أوّل مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكْشِفُ عن ساقِه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا**». زاد مسلم: «**كلما أراد أن يسجد خر على قفاه**»[٢].

قال شيخ الإسلام: «إنما يصف سبحانه بالامتناع عن السجود الكفار كقوله: ﴿يَوْمَ

(١) «الصلاة» لابن القيم (٤٩).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٢١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. رقم (٧٤٣٩)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١)، كتاب «الإيمان»/ باب معرفة طريق الرؤية. رقم (١٨٣).

يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾»[١] [القلم:٤٣]. وذلك أنهم كانوا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[المرسلات:٤٨].

وقال ابن القيم مبينًا وجه الدلالة من الآيات: «أنه سبحانه أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن هذا الأمر لا يليق بحكمته ولا بِحُكْمِهِ، ثم ذكر أحوال المجرمين الذين هم ضد المسلمين فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[القلم:٤٣]. وأنهم يدعون إلى السجود لربهم تبارك وتعالى فيحال بينهم وبينه فلا يستطيعون السجود مع المسلمين في دار الآخرة عقوبة لهم على ترك السجود له مع المصلين في دار الدنيا.

وهذا يدل على أنهم مع الكفار والمنافقين الذين تبقى ظهورهم إذا سجد المسلمون كصياصي البقر ولو كانوا من المسلمين لأذن لهم بالسجود»[٢].

ب- قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[القيامة:٣١-٣٢].

«لما كان الإسلام تصديق الخبر والانقياد للأمر جعل سبحانه له ضِدّين، عدم التصديق وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب، والصلاة بالتولي فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[القيامة:٣٢].

فكما أن المكذب كافر فالمتولي عن الصلاة كافر، وكما يزول الإسلام بالتكذيب يزول بالتولي عن الصلاة»[٣]. قال الإمام أحمد: «اعلم أن حظك من الإسلام وقدر الإسلام عندك بقدر حظك من الصلاة، وقدرها عندك، واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦١١).

(٢) «الصلاة» (٥٠).

(٣) المرجع السابق (٥٩).

(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

ومن السنة:

١ - قول النبي ﷺ: «**إنَّ بينَ الرَّجلِ وبينَ الشِّرك والكفرِ تركُ الصَّلاةِ**»[١].

هذا الحديث دليل على أن تارك الصلاة كافر كفرًا ناقلًا عن الملة؛ لأن النبي ﷺ ذكر الشرك والكفر معرفًا بالألف واللام[٢] لأن «تصدير الاسم بالألف واللام مؤذن بحصول كمال المسمى، فإنك إذا قلت: زيدٌ العالم الصالح أفاد ذلك إثبات كمال ذلك له بخلاف قولك: زيد عالم صالح»[٣].

قال الشوكاني في بيان حكم تارك الصلاة: «والحق أنه كافر يقتل، أما كفره فلأن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم، وجعل الحائل بين الرجل وبين جواز إطلاق هذا الاسم عليه هو الصلاة، فتركها مقتض لجواز الإطلاق»[٤].

ويؤكد الشيخ الشنقيطي الاستدلال بهذا الحديث على أن تارك الصلاة كافر فيقول: «وهو واضح -أي الحديث السابق- في أن تارك الصلاة كافر؛ لأن عطف الشرك على الكفر فيه تأكيد قوي لكونه كافرًا»[٥].

ومثله كذلك قول النبي ﷺ: «**بين العبدِ وبينَ الكفرِ والإيمان الصّلاة، فإذا تركها فقد أشرك**»[٦].

---

(١) مسلم (١/ ٨٨)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة. رقم (٨٢)، وقد استوفى طرقه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٨٧٣-٨٧٧).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٧).

(٣) «الصلاة» لابن القيم (٦١).

(٤) «نيل الأوطار» (١/ ٢٩٢).

(٥) «أضواء البيان» (٤/ ٣١١).

(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٨٢٢) رقم (١٥٢١)، وقال اللالكائي: «إسناده صحيح على شرط مسلم»، وقال المنذري: «إسناد صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧٩).

حيث جعل الصلاة فاصلًا بين الإيمان والكفر.

٢- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند مبايعتهم النبي ﷺ وفيه: وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا، عندكم من الله فيه برهان**»(١).

فقيد جواز المنازعة بالكفر البواح ثم بينه ﷺ بقوله: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلُّون عليكم وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «**لا، ما أقامُوا فيكم الصّلاة**»(٢). وفي رواية: «**لا ما صلُّوا**»(٣).

فدل هذا الحديثان بمجموعهما على أن ترك الصلاة كفر بواح؛ لأن النبي ﷺ علق جواز الخروج بالكفر البواح، ثم أجازه بتركهم الصلاة فصار الحديث الثاني مفسرًا للكفر البواح المذكور في الحديث الأول(٤).

٣- قول النبي ﷺ في حديث معاذ الطويل وفيه: «**رأسُ الأمرِ الإسلام، وعمُودُه الصّلاة، وذروةُ سنامِه الجهادُ في سبيل الله**».

استدل الإمام أحمد بهذا الحديث على أنَّ تارك الصلاة كافر. وذلك أنه «إذا سقط العمود سقط الفسطاط، ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد، وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت

---

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥)، كتاب «الفتن»/ باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها». رقم (٧٠٥٥-٧٠٥٦)، ومسلم (١٤٧٠-١٤٧١)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية. رقم (١٧٠٩)، واللفظ له.

(٢) مسلم (٣/ ١٤٨١)، كتاب «الإمارة»/ باب خيار الأئمة وشرارهم. رقم (١٨٥٥).

(٣) مسلم (٣/ ١٤٨٠)، كتاب «الإمارة»/ باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا. رقم (١٨٥٤).

(٤) انظر: «أضواء البيان» (٤/ ٣١١-٣١٥).

بالطنب والأوتاد، فكذلك الصلاة من الإسلام»(١).

قال ابن القيم: «أخبر النبي ﷺ أن الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة فكما تسقط الخيمة بسقوط عمودها فهكذا يذهب الإسلام بذهاب الصلاة وقد احتج أحمد بهذا بعينه»(٢)؛ أي على كفر تارك الصلاة.

٤- قول النبي ﷺ: «**أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة**»(٣).

قال الإمام أحمد: «فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نُسأل عنه غدًا من أعمالنا، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين، فإذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام، فكل شيء يذهب آخره، فقد ذهب جميعه»(٤).

٥- عن عبدالله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «**من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف**»(٥).

ووجه الاستدلال: أن من حرم النور والنجاة والبرهان يوم القيامة، وحشر مع أخبث الكفرة: فرعون وهامان وأبي بن خلف فهو كافر. قال الطريفي: «وهذا من أوضح الأدلة على كفر تارك الصلاة»(٦).

---

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

(٢) «الصلاة» (٧٢-٧٣).

(٣) «مسند الشهاب» (١/ ١٥٥-١٥٦) رقم (٢١٦، ٢١٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣١٩). ورواه ابن أبي شيبة موقوفاً على ابن مسعود «المصنف» (١٤/ ١٠٢) رقم (١٧٧٢٧).

(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٥٤).

(٥) أحمد (٢/ ١٦٩). وقال ابن عبد الهادي: «إسناد هذا الحديث جيد». «تنقيح التحقيق» (٢/ ١٢٦٧).

(٦) «صفة صلاة النبي ﷺ» (١٦)، وليس المقام مقام بسط الأدلة ومن أراد الاستزادة فلينظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي، و«الصلاة» لابن القيم، و«البيان والإيضاح في حكم تارك الصلاة» منصور السماري.

الإجماع:

أجمع الصحابة رضي الله عنهم على كفر تارك الصلاة، وممن نقل الإجماع أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كُفْرٌ غيرَ الصلاة»[(١)]. وكذلك نقله عبدالله بن شقيق التابعي الجليل حيث قال: «كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة»[(٢)].

وإسحاق بن راهويه حيث قال: «قد صح عن رسول الله ﷺ أنَّ تارك الصلاة كافرٌ، وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا أنّ تارك الصلاة عمدًا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر»[(٣)]. وأيوب السختياني قال: «ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه»[(٤)].

وبمثلهم قال الحسن البصري: «بلغني أَنّ أصحاب رسول الله كانوا يقولون: بين العبد وبين أن يُشرك فيكفرَ أَنْ يدع الصلاة من غير عذر»[(٥)].

وأما قوله: (وذَرْوَةُ سنامِه الجهادُ في سبيل الله)

الذروة: أعلى السنام وغيره والجمع ذُرَى[(٦)] وذُروة كل شيء: أعلاه[(٧)].

---

(١) «المستدرك» للحاكم (١/ ٤٧)، وقال الذهبي: «إسناده صالح».

(٢) الترمذي (٥/ ١٤)، كتاب «الإيمان»/ باب ما جاء في ترك الصلاة. رقم (٣٦٢٢)، و«تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٠٥)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (٣٨٢). رقم (١٠٨٧)، والعراقي في «طرح التثريب» (٢/ ١٤٦).

(٣) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٢٩) رقم (٩٩٠).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٩٢٥) رقم (٩٧٨).

(٥) «السنة» للخلال (٤/ ١٤٢) رقم (١٣٧٢)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٦٧٣) رقم (٨٧٧)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٤/ ٨١٦) رقم (١٥٠٣).

(٦) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٣٥٢).

(٧) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٨).

فأعلى ما فيه وأرفعه هو الجهاد[١]، وجعله ذروة السنام؛ لأن به يعلو الإسلام، قال تعالى مبينًا ارتباط علو المسلمين بالجهاد: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[محمد:٣٥].

وقيّده ﷺ بكونه في سبيل الله؛ لأن المرءَ قد يدعوه إلى الجهاد الشجاعةُ والمغنمُ والحميّةُ وليرى مكانه، وهذا كله لا يغني عن صاحبه شيئًا، ولهذا لما سئل ﷺ عن الرجل يقاتل حَمِيّةً، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتلَ لتكُون كلمةُ الله هي العُليا، فهو في سبيل الله**»[٢].

قال ابن القيم: «ولما كان الجهاد ذُرْوَةَ سنام الإسلام وقُبَّتَهُ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة. كان رسولُ الله ﷺ في الذروة العليا منه واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حقَّ جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا وأعظمهم عند الله قدرًا»[٣].

والجهاد في سبيل الله على وجهين:

١- جهاد المنافقين وأهل البدع في الداخل بالحجة والبيان باللسان وكتابة المقالات في بيان باطلهم وكشف شبههم وألاعيبهم وفضح خططهم لحرب الدين وأهله، وهذا واجب على من يستطيع ذلك، قال تعالى آمرًا به: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان:٥١-٥٢]. وهذا الجهاد بالحجة والبيان لأنَّ السورة مكية.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨١٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٥).

قال ابن القيم «فَجِهادُ المنافقين أصعبُ من جهاد الكفار، وهو جهاد خواصِّ الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفرادٌ في العالم، والمشاركون فيه وإن كانوا هم الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا»(١). «وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه»(٢).

ومن أمثلة جهاد المنافقين وأهل البدع

جهاد الأئمة في الردود عليهم وبيان باطلهم كما فعل الدارمي في نقضه لكلام المنافق بشر المريسي الذي يظهر الإسلام ليفسده من الداخل وهو يبطن الكفر المحض(٣)، ومثله الجعد بن درهم فقد كان يظهر الإسلام ليفسد عقائد أهله(٤) وقد تولى نشر عقائده الباطلة الجهم بن صفوان مؤسس الجهمية وقد تولى أئمة السنة الرد عليه وبيان باطله في ثنايا كتبهم أو في كتب مستقلة ومن ذلك:

الرد على الجهمية للإمام أحمد، والرد على الجهمية للدارمي، والرد على الجهمية، لهشام بن عبدالله الرازي(٥)، والرد على الجهمية لنعيم بن حماد. قال الذهبي: «كان -أي نعيم بن حمّاد- شديد الرد على الجهمية ألف ثلاثة عشر كتابًا في الرد على الجهمية»(٦).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٠).

(٣) قال الدارمي مبينًا حقيقته: «غير أنه مكذب الأصل متلطف لتكذيبه بمحال التأويل كيلا يفطن لتكذيبه أهل الجهل ولئن كان أهل الجهل في غلط من أمره إن أهل العلم منه لعلى يقين». «نقض عثمان بن سعيد الدارمي» (٩٢).

(٤) قال ابن الأثير: «وقيل: إن الجعد كان زنديقًا وعظه ميمون بن مهران فقال: لشاه قباذ أحب إلي مما تدين به» «الكامل» (٥/ ٤٢٩).

(٥) «شرح اعتقاد السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٥٠٦).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٩٩).

والرد على الجهمية لعبدالعزيز بن يحيى الكناني[١]، والرد على الجهمية لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي قال الذهبي: «وله -أي الرازي- كتاب الرد على الجهمية مجلد ضخم انتخبت منه»[٢].

٢- جهاد الكفار أعداء الله ورسوله بالخارج بالسنان فكل من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له؛ فإنه يجب قتاله ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال:١٩]».

ولذلك أوجب الله على المؤمنين القتال فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦].

وأكد الإيجاب وعظم أمر الجهاد في عامَّة السور المدنية وذمَّ تاركيه ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[محمد:٢٠][٣].

«والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان..... ولم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثلُ ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتملٌ على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة؛ فإنه مشتمل من محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائما. إما النصر والظَّفَر وإما الشهادة والجنة.

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٤/ ٣٠١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٦٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٤٩-٣٥٠) بتصرف يسير.

فإن الخلق لا بُدَّ لهم من محيا وممات ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما».

إلى أَنْ قال: «فثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أنَّه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإِنْ تكلم بالشهادتين»(١)، وقد جمع الله هذين النوعين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[التوبة:٧٣].

وقبل هذين النوعين من الجهاد يجب على العبد أن يجاهد نفسه في ذات الله حق جهاده «ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأماني ويمني الغرور، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التُّقَى والهدى والعفَّة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره»(٢).

---

(١) المرجع السابق (٢٨/ ٣٥٣-٣٥٨).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٨) ولقد أطال ابن القيم عن الجهاد حتى استغرق المجلد الثالث.

والله أعلمُ.

....

وفي ختام الكتاب رَدّ العلمَ إلى العليم الخبير الذي أثبت لنفسه كمال العلم في ثلاثمئةٍ وخمسين آية[١]، فوصف نفسه بمعرفة السر والنجوى فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، ثم بالغ في علمه الغيوب فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[التوبة:٧٨]. وأنه وَسِعَ كل شيء: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[طه:٩٨].

وأنه ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]. فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ويعلم كل ما يكون في المستقبل قبل وقوعه، ولهذا أجاب الله الملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة:٣٠]. بل ويعلم ما لم يكن، لو كان كيف يكون كما قال سبحانه عن أصحاب النار ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الأنعام:٢٨]. واختص بعلم مفاتح الغيب فقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩].

ففي رد العلم إليه سبحانه تعظيم له، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]، قال ابن عباس: «الله الخبير العليم، فوق كل عالم». وقال قتادة: «﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦] حتى ينتهي العلم إلى الله. منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود»[٢].

وفي رد العلم إليه افتقارٌ إليه وتواضع وذلٌّ له ومسكنة بين يديه، واعتراف بفضله كما قالت الملائكة: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة:٣٢].

---

(١) «عقيدة المسلمين» (٢/ ١٠٤).

(٢) «جامع البيان» (١٣/ ٢٨).

وكما قال الخضر لموسى عليه السلام عندما جاءه ليعلمه مما علمه الله: «يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر»(١).

وتأسيًا بالنبي ﷺ لما سئل عن أولاد المشركين قال: «**اللهُ أعلم بما كانوا عاملين**»(٢).

وبصحابته الكرام حيث كانوا يردّون العلم إلى عالمه ومن ذلك أن النبي ﷺ لما سألهم بعد صلاة الصبح في الحديبية. هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا جميعًا: الله ورسوله أعلم(٣).

ولما خطبهم في حجة الوداع، ثم سألهم عن اليوم والشهر والبلد كان جوابهم واحدًا «الله ورسوله أعلم»(٤).

ولما سال النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه عن حق الله على العباد، وحق العباد على الله، قال مباشرة دون تلكؤ «الله ورسوله أعلم»(٥). وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن من العلم إذا سئل الرجل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم»(٦).

---

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤١١)، كتاب «التفسير»/ باب: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾. رقم (٤٧٢٦).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٤٩٣)، كتاب «القدر»/ باب: الله أعلم بما كانوا عاملين. رقم (٦٥٩٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٩)، كتاب «القدر»/ باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٦٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٣٣)، كتاب «الأذان»/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء. رقم (٧١).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ٥٧٣)، كتاب «الحج»/ باب الخطبة أيام منى. رقم (١٧٤١).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) «طبقات الحنابلة» (١/ ٧٠).

والتابعين لهم بإحسان: ومن ذلك ما رواه مالك عن نافع أنَّ عبدالله بن عمر أغمي عليه فذهب عقله فلم يقض الصلاة قال مالك: «وذلك فيما نرى والله أعلم أنَّ الوقت قد ذهب، فأما من أفاق في الوقت فإنه يصلي»[(١)].

وما رواه مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر بن الخطاب: أن عمر بن الخطاب قال: «لا يصْدُرَنَّ أحد من الحاج حتى يطوف بالبيت فإن آخر النسك الطواف بالبيت.

قال مالك في قول عمر بن الخطاب فإن آخر النسك الطواف بالبيت: إن ذلك فيما نرى والله أعلم لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج:٣٢] وقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[الحج:٣٣]. فمحمل الشعائر كلها وانقضاؤها إلى البيت العتيق»[(٢)].

وبمثله قال الحسن أو قتادة عند قول النبي ﷺ: «**لا يقُولنَّ أحدُكُم: صمتُ رمضان كلَّهُ، وَلَا قُمْتُهُ كُلَّهُ**»، قال الحسن: قال أبي: وقال يزيد مرَّةً: قال قتادة: «الله أعلم أَخَافَ على أمته التزكية؟ أو لا بد من راقد أو غافل»[(٣)].

وبمثله قال الترمذي عند حديث فاطمة بنت قيس عندما خطبها معاوية وأبو الجهم فاستشارت النبي ﷺ فيهما فقال لها: «أما أبو الجهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، ولكن انكحي أسامة».

«فمعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم: أن فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما، ولو أخبرته لم يشر عليها بغير الذي ذكرت»[(٤)].

ولا زال العلماء الربانيون على ذلك يردون العلم إلى الله ﷻ فإن ذلك سنة متبعة أخذها اللاحق من السابق.

---

(١) «الموطأ» (١/ ١٣)، كتاب «وقوت الصلاة»/ باب جامع الوقوت.

(٢) «الموطأ» (١/ ٣٦٩-٣٧٠)، كتاب «الحج»/ باب وداع البيت.

(٣) أحمد (٥/ ٤٠).

(٤) «سنن الترمذي» (٣/ ٤٤١).

وصلّى اللهُ على مُحمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

....

ومعنى الصلاة في اللغة:

١- **الدعاء**: ومنه قول النبي ﷺ: «**إذا دُعي أحدُكم، فليُجِبْ، فإنْ كان صائمًا، فلْيُصَلِّ، وإن كان مُفْطِرًا فليطعم**»(١).

قال أبو عبيد قوله: «**فَلْيُصَلِّ**» يعني فليدع لهم بالبركة والخير، وكل داعٍ فهو مصلٍّ. ومنه قول الأعشى:

وقابلها الريح في دَنِّها وصلَّى على دنّها وارْتَسَمْ

أيّ: دعا لها لا تحمض، ولا تفسد.

٢- **اللزوم**: يقال: صلي واصطلى؛ إذا لزم، وسميت الصلاة صلاة؛ لأنها لزوم ما فرض الله، ومن هذا مَنْ يُصْلى في النار: أي يُلزم النار ومنه قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[المسد:٣] أي يلزم النار ذات اللهب(٢).

فعلى هذا تكون الصلاة من الآدمي باقية على مسماها في اللغة، وهي الدعاء، دعاء الله أن يصلي على نبيه محمد ﷺ.

والصلاة على النبي محمد ﷺ من القرب العظيمة التي أمر الله بها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

ورغب فيها رسوله ﷺ على العموم فقال: «**من صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى اللهُ عليه عشرًا**»(٣).

---

(١) مسلم (٢/ ١٠٥٤)، كتاب «النكاح»/ باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة. رقم (١٤٣١).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٦-٢٣٩).

(٣) مسلم (١/ ٣٠٦)، كتاب «الصلاة»/ باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد. رقم (٤٠٨).

وأوجبها في بعض المواضع ومن ذلك:

١- الأمر بالصلاة عليه في التشهد الأخير كما هو قول ابن مسعود وابن عمر والشافعي وأحمد والشعبي وغيرهم.

٢- عند سماع ذكره ﷺ حيث أمر بذلك فقال: «**من ذُكرتُ عندهُ فليُصلِّ عليَّ؛ فإنَّهُ من صلَّى عليَّ مرَّةً صلَّى الله عليه عشرًا**»(١)، وهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب. ويؤكد الوجوب وأنه ﷺ وصف تارك الصلاة عليه عند سماع ذكره بالبخل فقال: «**البخيلُ من ذُكرتُ عندهُ، ثُمَّ لم يُصلِّ عليَّ**»(٢). وأرغم أنفه فقال: «**رغمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندهُ، فلمْ يُصلِّ عليَّ..**»(٣).

وغير ذلك من المواطن التي شرع فيها الصلاة على النبي ﷺ إما وجوبًا أو استحبابًا، قال ابن القيم مبينًا أنها من أجل القرب: «إنّ طلبَ الصلاة من الله على رسوله ﷺ هو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته»(٤).

والصلاة على النبي ﷺ مطلقة في كل حين وآن وتتأكد في مواطن ومن هذه المواطن:

١- عند تبليغ العلم وإلقاء الدروس وتعليم الناس في أول ذلك وآخره، وهذا مشهور عن السلف الصالح رحمهم كما روى جعفر بن بركان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز «أما بعد فإن أناسًا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن أناسًا من القصّاص قد أحدثوا من الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي (٥/ ٥٥١)، كتاب «الدعوات»/ باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل». رقم (٣٥٤٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٩٠).

أتاك كتابي هذا فمرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامَّة ويدعوا ما سوى ذلك»(١).

وسر «الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن؛ لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته»(٢).

والصلاة من الله الثناء عليه في الملأ الأعلى(٣)، قال أبو العالية: «صلاة الله عليه ثناؤه عليه عند الملائكة(٤).

وبه قال الربيع بن أنس(٥) والخليل بن أحمد(٦)، وهو أرجح من قول من قال الصلاة هي الرحمة؛ لأمور:

١- لأن الله جمع بينهما وغاير بينهما، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧].

٢- أن صلاة الله خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين(٧)، وأما رحمته فوسعت كل

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٦٨) رقم (١٦٩٤٣)، و«فضل الصلاة على النبي» للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي (٦٩) رقم (٧٦)، قال ابن حجر: «إسناد حسن». «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤).

(٢) «جلاء الأفهام» (٤٩١) فصل الموطن الثالث والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس وعند التذكير والقصص وإلقاء الدرس وتعليم العلم في أول ذلك وآخره.

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٣٧).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٥٣٢) كتاب «التفسير»/ باب تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

(٥) «القول البديع» (١٩).

(٦) «العين» (٧/ ١٥٤).

(٧) من المعلوم أن الصلاة على الشخص تأتي استقلالًا وتأتي تبعًا، فإذا كانت استقلالًا، فلا يصلي إلا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال: «لا ينبغي الصلاة على أحد إلا =

شيء، فالرحمة ليست هي الصلاة، وإنما هي من لوازم الصلاة، ولذلك فإنه لا يصح وضع لفظه الصلاة في موضع كلمة الرحمة في النصوص كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]. فلا يصح أن يقال: وصلاتي وسعت كل شيء. وقوله ﷺ: «**الله أرحمُ بعبادِه من هذه بولدِها**[(١)]»[(٢)].

٣- أن الصحابة ﵃ فهموا المغايرة حين سألوا النبي ﷺ عن كيفية الصلاة عليه، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة؛ لقال لهم: لقد علمتم ذلك في السلام؛ لأن الرحمة وردت في أثناء بيان كيفية السلام لهم[(٣)].

وآل النبي ﷺ:

الآل «مشتق من آل يؤول إذا رجع فآل الرجل هم الذين يرجعون إليه ويضافون إليه

=

على النبيين». «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ٢١٦) رقم (٣١١٩)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٤) رقم (٨٧١٦)، وعزاه ابن حجر لإسماعيل بن إسحاق في كتاب «أحكام القرآن»، وقال: «بسند صحيح». «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤)، وسفيان حيث قال: «يكره أن يصلي إلا على نبي». «المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ٢١٦) رقم (٣١١٩)، وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وهو الراجح لما سبق، ولأن تخصيص النبي بالصلاة عليه يدل على توقيره أكثر من غيره من البشر، ولأن الأمر بالصلاة لم يرد على أحد إلا على النبي ﷺ.

أما الصلاة على غيره تبعًا فهي مشروعة، بل قد بلغت الروايات فيها مبلغ التواتر، كقوله ﷺ: «اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته»، وغيره من الأحاديث.

أما ما ورد من صلاته على بعض أصحابه، فلعل هذا خاص به ﷺ؛ لأن الصحابة ﵃ ليس مشتهرًا بينهم الصلاة على غير النبي ﷺ، والله أعلم.

(١) البخاري مع الفتح (١٠/ ٤٢٦-٤٢٧)، كتاب «الأدب»/ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. رقم (٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩)، كتاب «التوبة»/ باب في سعة رحمة الله تعالى. رقم (٢٧٥٤).

(٢) انظر: «جلاء الأفهام» (١٦٤-١٨٠) وفيه أوجه كثيرة لم أذكرها، فراجعها إن شئت.

(٣) «القول البديع» (٥٠).

ويؤولهم أي يسوسهم فيكون مآلهم إليه»(١).

والذين يرجعون إليه ويسوسهم أربعة أصناف، **وبهم فسر العلماء آله ﷺ فصارت أقوالهم أربعة:**

١- هم الذين حرمت عليهم الصدقة وهو بنو هاشم.

٢- هم ذريته وأزواجه خاصة.

٣- هم الأتقياء من أمته.

٤- هم أتباعه إلى يوم القيامة.

وقوى ابن القيم الأول والثاني فقال: «والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان لأن النبي ﷺ قد رفع الشبهة بقوله: «**إِنَّ الصَّدقةَ لا تحلّ لآلِ محمّد**»(٢)، وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمة قطعًا»(٣).

(وصحبه):

الصحابي مشتق من الصحبة. قال ابن فارس: «الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته ومن ذلك الصاحب.. وكل شيء لاءم شيئًا فقد استصحبه»(٤).

«فالأصحاب جمع صاحب، والصاحب اسم فاعل من صحبه يصحبه وذلك يقع على قليل الصحبة وكثيرها»(٥).

---

(١) «جلاء الأفهام» (٢٢٩).

(٢) مسلم (٢/ ٧٥٢-٧٥٣)، كتاب «الزكاة»/ باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة. رقم (١٠٧٢)، بلفظ: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد».

(٣) «جلاء الأفهام» (٢٥٠-٢٥١).

(٤) «معجم مقاييس اللغة». (٣/ ٣٣٥).

(٥) «الصارم المسلول» (٥٧٥).

وعلى هذا بنى العلماء تحديد من تنطبق عليه الصحبة ممن لا تنطبق فقال البخاري: «من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه»(١).

وبذلك حدد الصحبة أحمد بن حنبل فقال: «أصحاب رسول الله ﷺ القرن الذي بعث فيهم كل من صحبه سنة أو شهرًا أو يومًا أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه»(٢).

وعلي بن المديني بقوله: «من صحبه سنةً أو شهرًا أو ساعة، أو رآه، أو وَفَد إليه، فهو من أصحابه له من الصحبة على قدر ما صحبه»(٣)، ولذلك «اتفقوا على عدِّ جَمْعٍ جَمٍّ في الصحابة لم يجتمعوا بالنبي ﷺ إلا في حجة الوداع»(٤).

ونتيجة لذلك استقر أهل السنة على تعريف الصحابي بقولهم: «الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام»(٥).

«فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال.. ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين، ولو عملوا كل أعمال الخير»(٦).

وأما السلام على النبي ﷺ: فقد أمرنا الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

---

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٣).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٢)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٠).

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٧).

(٤) «فتح الباري» (٧/ ٤)، وانظر: «الباعث الحثيث» (١٣٣).

(٥) «الإصابة» لابن حجر (١/ ١٦).

(٦) القائل هو أحمد بن حنبل برواية عبدوس بن مالك. «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

وشرعه لنا رسول الله ﷺ حين قال لأصحابه رضي الله عنهم: «**ولكنْ قولوا: التَّحيَّاتُ لله والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُهُ..**»[١].

والسلام عليه ﷺ مستفيض عند الصحابة رضي الله عنهم بل هو محل إجماع هذه الأمة[٢]. ومن رحمة الله بهذه الأمة أن السلام عليه ﷺ لم ينحصر عند قبره فقط. وإلا لشق على الناس لبعد الشقه ومشقة الوصول، بل هيأ الله ملائكة يبلغونه سلام أمته عليه كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ لله فِي الأرضِ ملائكةً سيَّاحينَ، يُبلِّغُوني مِن أُمَّتي السَّلامَ**»[٣].

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٣٢٠)، كتاب «الأذان»/ باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد. رقم (٨٣٥).

(٢) «جامع المسائل لابن تيمية/ المجموعة الرابعة» (٤/ ٢٥٣).

(٣) أحمد (١/ ٣٨٧)، والنسائي (٣/ ٤٣)، كتاب «السهو»/ باب السلام على النبي ﷺ، و«المصنف» لعبد الرزاق (٢/ ٢١٥) رقم (٣١١٦)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٤٧٤) رقم (١١٧٧٠)، وإسماعيل ابن إسحاق الجهضمي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٣٤) رقم (٢١)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (١٩) رقم (٢٨)، وقال ابن القيم: «هذا إسناده صحيح». «جلاء الأفهام» (٥٥).

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

المقدمة ٥
دراسة الكتاب........................٧
شرح البسملة ١٤
المسائل الأربع ١٩
المسألة الأولى : العلم ٢١
ترتيب تعلم العلم ٢٣
فضل العلم ٢٩
أنواع العلم بحسب متعلقاته ٣٨
أسباب حفظ العلم ٤٠
المسألة الثانية : العمل به ٥٢
بأي شيء يكون العمل ٥٦
أساليب الحث على العمل ٦١
خطورة التفريط و إضاعة الوقت ٦٩
المسألة الثالثة : الدعوة إليه ٧٣
حكم الدعوة إلى الله ٧٦
أقسام الدعاة........................ ٨١
كيفية الدعوة........................ ٨٤
من وسائل الدعوة ٨٧
الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية ٩٣

المسألة الرابعة : الصبر ١٠٠
أنواع الصبر ١٠٩
أهمية الصبر ١٢٣
من ثمرات الصبر ١٢٨
تفسير سورة العصر ١٣١
حكم الحلف بغير الله ١٣٢
قال البخاري : باب العلم قبل القول والعمل ١٤٨
المسائل الثلاث التي يجب على كل مسلم تعلمها والعمل بها ١٥١
الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً ١٥١
الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته ١٧١
تنوع الأساليب في التحذير من الشرك ١٧٤
معنى قوله : ولاً ملك مقرب ولا نبي مرسل ١٩٠
أنواع الحقوق ١٩٢
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ ١٩٧
الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله........ ٢٠٠
حكم موالاة الكفار ٢٠٢
مكانة الولاء والبراء ٢٠٦
أقسام الناس في الموالاة والمعاداة ٢٠٩
طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء ٢١٢
حالات إظهار الموافقة للمشركين ٢٣١
من صور موالاة الكفار ٢٣٢

الفرق بين المدارة والمداهنة ٢٣٧

تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ .. ﴾ ٢٣٩

معنى الحنيف ٢٤٦

الأصل في بني آدم هو التوحيد ٢٤٩

الإخلاص ٢٦٨

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ٢٧٦

معنى قوله : وأعظم ما أمر الله به التوحيد ٢٨١

معنى قوله : وأعظم ما نهى الله عنه الشرك ٢٨٧

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ ... ﴾ ٢٩٥

معنى قوله : فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة ٢٩٨

معنى قوله : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ٣٠١

معنى قوله : وهو معبودي ليس لي معبود سواه ٣٠٥

تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ٣٠٦

دلائل معرفة الله ٣١١

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ... ﴾ ٣١٩

تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ... ﴾ ٣٢٢

بداية الأيام يوم الأحد ٣٢٢

معنى قوله : والرب هو المعبود ٣٢٨

تفسير قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ... ﴾ ٣٢٩

تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ... ﴾ ٣٣٢

العبادة ٣٣٦
الدعاء ٣٤١
أهمية الدعاء ٣٤١
أقسام الدعاء ٣٤٥
تلازم نوعي الدعاء.. ٣٤٧
ضابط معرفة نوعي الدعاء ٣٤٨
أنواع الدعاء ٣٤٩
أسباب قبول الدعاء ٣٥٤
أسباب رد الدعاء ٣٥٧
الخوف ٣٦١
الخوف شعار الصالحين ٣٦١
أهمية الخوف ٣٦٦
أقسام الخوف ٣٦٨
الأسباب الجالبة للخوف ٣٧٤
الرجاء ٣٨١
أهمية الرجاء ٣٨١
أقسام الرجاء ٣٨٤
الأسباب الجالبة للرجاء ٣٩١
التوكل ٣٩٤
أهمية التوكل ٣٩٦
حكم التوكل ٤٠٢

أنواع التوكل ٤٠٣
الأسباب الجالبة للتوكل ٤٠٨
الأسباب والتوكل ٤١٥
الرغبة ٤٢١
الرهبة ٤٢٣
الخشوع ٤٢٥
أهمية الخشوع ٤٣١
الأسباب الجالبة للخشوع ٤٤٢
الخشية ٤٤٥
أهمية الخشية ٤٤٧
الإنابة ٤٥٠
أنواع الإنابة ٤٥١
أهمية الإنابة ٤٥٣
الاستعانة ٤٥٧
أنواع الاستعانة ٤٥٨
أهمية الاستعانة ٤٦٠
الاستعاذة ٤٦٦
أنواع الاستعاذة ٤٦٧
الاستغاثة ٤٧١
أنواع الاستغاثة ٤٧٢
الذبح ٤٨١
أقسام الذبح ٤٨١

النذر ٤٩٠
أقسام النذر ٤٩٠
معنى قوله : مشرك كافر ٤٩٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ... ﴾ ٥٠٥
معنى قوله و في الحديث : «الدعاء مخ العبادة» ٥٠٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴾ ٥١١
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٥١٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا ... ﴾ ٥١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ .. ﴾ وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ ٥١٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ... ﴾ ٥٢١
تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ... ﴾ ٥٢٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ... ﴾ ٥٢٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ٥٢٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾.... ٥٢٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ... ﴾ ٥٣١
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ ... ﴾ ٥٣٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ ٥٣٨
الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام بالأدلة ٥٣٩
معنى قوله : الاستسلام لله بالتوحيد ٥٤٣
معنى قوله : الانقياد له بالطاعة ٥٤٧

معنى قوله : والبراءة من الشرك وأهله ٥٥٠
شهادة أن لا إله إلا الله ٥٥٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ... ﴾ ٥٦١
معناها ٥٦٧
أركانها ٥٦٩
شروطها ٥٧١
فضائلها ٥٨٧
مقتضياتها ٥٩٠
نواقضها ٥٩١
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ٥٩٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا ... ﴾ ٦٠٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ ٦١٥
معنى شهادة أن محمداً رسول الله ٦٢٠
فرضية طاعة النبي ﷺ ٦٢١
تنوع الأساليب في الأمر بطاعته ٦٢٢
معنى قوله : وتصديقه فيما أخبر ٦٢٩
معنى قوله : اجتناب ما نهى عنه وزجر ٦٣٥
معنى قوله : وألا يعبد الله إلا بما شرع ٦٣٩
نواقض شهادة أن محمداً رسول الله ٦٤٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ... ﴾ ٦٤٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... ﴾ ٦٥١

تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ ... ﴾ ٦٥٤
المرتبة الثانية : الإيمان ٦٥٧
معنى قوله : وهو بضع وسبعون شعبة ٦٦٦
معنى قوله : وأعلاها قول : لا إله إلا الله ٦٦٩
معنى قوله : وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ٦٧٠
معنى قوله : والحياء شعبة من الإيمان ٦٧٢
أنواع الحياء ٦٧٤
ثمرات الحياء ٦٨١
أركان الإيمان ٦٨٥
الإيمان بالله ٦٨٥
توحيد الربوبية ٦٨٦
توحيد الألوهية ٦٩٥
الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية ٧٠١
توحيد الأسماء والصفات ٧٠٣
ترابط أقسام التوحيد الثلاثة ٧١٠
ثمرات الإيمان بالله ٧١١
الإيمان بالملائكة ٧١٦
الإيمان بالملائكة يتضمن أموراً ٧١٨
ثمرات الإيمان بالملائكة ٧٢٧
الإيمان بالكتب ٧٣٥
الإيمان بالكتب يتضمن أموراً ٧٣٨

ثمرات الإيمان بالكتب ٧٤٤
الإيمان بالرسل ٧٤٦
الإيمان بالرسل يتضمن أموراً ٧٦١
ثمرات الإيمان بالرسل ٧٦٧
الإيمان باليوم الآخر ٧٧٠
ثمرات الإيمان باليوم الآخر ٧٨٠
الإيمان بالقدر ٧٨٦
مراتب بالقدر ٧٩٨
ثمرات الإيمان بالقدر ٨٠٧
معنى : خيره وشره ٨١٢
تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ ... ﴾ ٨١٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ ٨١٩
المرتبة الثالثة : الإحسان ٨٢١
أنواع الإحسان ٨٢٣
مقامات الإحسان مع الله ٨٢٤
ثمرات الإحسان ٨٣٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ ٨٣٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ... ﴾ ٨٤١
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ... ﴾ ٨٤٥
شرح حديث جبريل ٨٤٧
الأصل الثالث : معرفة النبي ﷺ ٨٦٤

نسبه ٨٦٥
ولادته ٨٦٨
أسماؤه ٨٦٩
صفاته الخُلقية ٨٧١
صفاته الخلقية ٨٧٦
بشريته ٨٧٧
اصطفاؤه ٨٧٩
عصمته ٨٧٩
البلاغ ٨٨٠
عموم رسالته ٨٨١
حكم الإيمان به ٨٨٢
عمره ٨٨٤
الفرق بين النبي والرسول ٨٨٨
دلائل نبوته ٨٩٢
حقوقه ٨٩٨
فضل مكة ٩٠٨
معنى قوله : بعثه الله بالنذارة عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ٩٠٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ٩١٣
الهجرة القلبية ٩١٧
الإسراء والمعراج ٩٢٤
الهجرة البدنية ٩٣١

أقسام الهجرة من حيث البلاد وأهلها ٩٣٧
فضل الهجرة ٩٤٢
ثمرات الهجرة ٩٤٣
آثار ترك الهجرة ٩٤٦
حكم الهجرة ٩٤٨
ضابط إظهار الدين ٩٥١
بقاء الهجرة ٩٥٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ ٩٥٦
تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ ... ﴾ ٩٦٣
معنى قوله : ولا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ٩٦٥
الأذان ٩٧٠
الجهاد ٩٧٢
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٩٧٦
وفاته ﷺ ٩٨٢
معنى قوله : ودينه باقٍ ٩٨٦
معنى قوله : بعثه الله إلى الناس كافة ٩٩٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ... ﴾ ٩٩٩
معنى قوله : وأكمل الله به الدين ١٠٠٤
خطورة الابتداع ١٠١٠
تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ ١٠٢٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ١٠٢٨

البعث ١٠٣٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ ... ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ ١٠٤٦
الحساب ١٠٤٨
ثمرات الإيمان بالحساب ١٠٥٥
الجزاء ١٠٥٩
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ... ﴾ ١٠٦٢
كفر من كذب بالبعث ١٠٦٤
تفسير قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي ... ﴾ ١٠٦٧
معنى زعم ١٠٦٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ... ﴾ ١٠٧٢
قيام الحجة ١٠٧٦
ضابط قيام الحجة ١٠٧٨
معنى قوله : أولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين ١٠٨٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ ... ﴾ ١٠٨٥
معنى قوله : يأمرهم بعبادة الله وحده ١٠٩٣
معنى قوله : وينهاهم عن عبادة الطاغوت ١٠٩٥
أقسام الطاغوت بحسب أنواع المعبودات ١١٠١
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ... ﴾ ١١٠٣
معنى قوله : وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت ١١٠٦
معنى الطاغوت ١١١٥
معنى قوله : والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة ١١١٩

إبليس لعنه الله ١١١٩
ومن عبد وهو راضٍ ١١٢٧
ومن دعا إلى عبادة نفسه ١١٣٢
ومن ادعى شيئاً من علم الغيب ١١٣٥
ومن حكم بغير ما أنزل الله ١١٤١
تفسير قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ... ﴾ ١١٥٤
معنى حديث : «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة**» ١١٥٩
عظم قدر الصلاة ١١٦١
كفر تارك الصلاة ١١٦٢
معنى : وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ١١٦٧
أنواع الجهاد في سبيل الله ١١٦٨
معنى قوله : والله أعلم ١١٧٢
معنى قوله : وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ١١٧٥